المرجع
في
أعلام الأدب
العربي

الأخطل

في سيرته ونفسيته وشعره

بقلم
ايليا حاوي

دار الثقافة
بيروت - لبنان

المرجع

في أعلام الأدب العربي

الأخطل

في سيرته ونفسيته وشعره

الأخطل

في سيرته ونفسيّته وشعره

بقلم
ايليا حاوي

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الفصل الأول

سيرته ونفسيته

الباب الأول : تغلب قبيلة الأخطل

الباب الثاني : اسمه ونسبه

الباب الثالث : ولادته وفتوته ووفاته

الباب الرابع : ديانته

الباب الخامس : اتصاله بالخلفاء

الباب السادس : الأخطل وجرير والفرزدق

الباب السابع : النقد الذي ثار حوله

الباب الاول

تغلب قبيلة الأخطل

لا بدّ لمن يتعرّض لسيرة الأخطل وشعره من تمهيد في تاريخ التغلبيّين ، قبل الإلمام بدراسته . فالأخطل كان شاعر تغلب بقدر ما كان شاعر بني أميــة ، وهو لم يُوَطّد لنفسه في البلاط الأموي ، إلا لرفعه فيه صوت التغلبيّين . وقد كان هؤلاء،منذ تاريخهم الأوّل ، يتنازعون سيادتهم وحريّتهم ويصارعون اليمنيّين عليها . ولعلّ قبائل مَعدّ ، جميعاً ، كانت تابعة لأهل اليمن[1] يفرضون عليهم الأتاوى ويسلبونهم حريّتهم ، بعد أن انتشر الفساد في تلك القبائل ، ولم يُوَفّق عقلاؤها إلى إصلاح أمرها ، إلا بتمليك حاكم عليهم من خارج بلادهم . ولقد ساروا إلى تَبابِعَة اليمن الذين كانوا للعرب بمثابة الخلفاء للمُسْلمين ، وطلبوا إليهم أن يُنَفّذوا فيهم مَلِكاً يُصلح من أمرهم ولا يتحزّب فيهم أو يستبد بهم . فَملّك عليهم حجر بن عمرو بن آكل المرار الذي ما عتّم أن خرج على ما انتُدب إليه واستبدّ بهم واستنزف أموالهم وزجرهم زجراً إلى طاعته . ولمّا أوفى المُلْك فيهم إلى الحرث بن عمرو اعتنق المَزْدكيّة[2] ، استجابةً لدعوة قباذ بن فيروز ، ملك الفرس ، فملّكه على الحيرة وعزل عنها المُنْذر بن ماء السّماء. إلاّ أن كسرى انوشروان بن قباذ قتل مزدك[3] وأصحابه[4] وأعاد المنذر

---

١ – ابن الأثير : الكامل ، مصر ، المطبعة الأزهرية ، ١ : ٢٩٩ – ٣٠١

٢ – : م – ١ – ٣٠٥

٣ – مزدك : هو مزدك بن باماذ صاحب الدعوة إلى المزدكية ، وهي بدعة ابتدعها في المجوسية – انظر تاريخ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ، ٢ : ٩٩

٤ – تاريخ الكامل ، : ٢٠٩

ابن السماء إلى عرش الحيرة ، وطلب الحرث بن عمرو ، وكان بالأنبار ، فهرب بأولاده وأمواله ، ولحق به المنذر بالخيل من تغلب وإياد ، فنجا الحرث ، وأخذ بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار ، فيهم عمرو ومالك ابنا الحرث ، وقدموا بهم إلى المنذر ، فقتلهم[1] .

وقد كانت هذه الواقعة بداية التمرّد على النفوذ اليمنيّ ، اجتمعت معدّ إثرها حول « كُلَيْب وائل بن ربيعة »[2] قائدها يوم خزاز[3] حيث فضّ جموع اليمنيّين ، وهزمهم ، ومالت إليه معدّ ورأسته عليها كناصر لها في معركة الحريّة ، وجعلت له قَسَم المَلِك وتاجَه وطاعتَه . ومن ثمّ تحرّرت من النفوذ اليمني عليها .

وكان يقدّر لهذا الاتحاد بين قبائل العرب ، أمام النفوذ اليمني ، أن يدوم وينمو ويتحوّل إلى مُلْك ذي بسطة حقيقية ، لولا ما اعترى كليب بن وائل من غرور ، جعلهُ يبيح لنفسه ما يحرّمه على الآخرين ، يُطْلق لها عنانها ، فلا تراعي للجار حرمته ولا للضّيف كرامته . وكان أن ضرب بسهمه ضرع ناقة سعد بن شمس بن طوق الجرمي[4] ، إذ جاءت ترعى مع نُوق جسّاس بن مُرّة ، فاغتاظ جسّاس ، وتعقّب كليب وائل حتى قتله[5] . وأراد أخوه الشّاعر « المهلهل » أن يثأر لأخيه ، فوقعت بين بني تغلب وعلى رأسهم المهلهل ، وبني شيبان وعلى رأسهم الحرث بن مُرّة ، حروب دامت أربعين سنة[6] .

---

١ – تاريخ الكامل ، ١ : ٢٠٩

٢ – يرجع كليب وائل في نسبه إلى بني تغلب . الكامل م – ن ، ١ : ٢١٤

٣ – خزاز : جبل ، وسمي به اليوم الذي وقع بين بني ربيعة واليمنيين ، وكان النصر فيه لبني ربيعة . الكامل م – ن ، ١ : ٢١٣

٤ – كان سعد بن شمس بن طوق الجرمي ، نازلا بالبسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جساس بن مرة .

٥ – الكامل م – س ، ١ : ٢١٥

٦ – م – ن ، ١ : ٢٢١

ويظهر أن هذه الأيّام سجّلت لكلا الفريقَيْن الامتياز في الإقدام والشّجاعة والإصرار في طلب الثأر ، ممّا جعل المناذرة يسعون إلى تأليفهم واستغلالهم في حروبهم ، فالتفّ بنو بكر وتغلب حول المنذر بن ماء السّماء ، فغزا بهم بني آكل المرار ، وجعل على بني بكر وتغلب ابنه عمرو بن هند .

وهكذا لم يكد التغلبيّون يتحرّرون ويرفعون عنهم نير اليمنيّين ، حتى ساقتهم الأحداث إلى مواقعة المناذرة الذين سيطروا عليهم وأخضعوهم ، واشتدّ عليهم عمرو بن هند[1] واعتزّ بسلطانه ، إذ خيّل إليه أنّه لا طاقة لأيّ من النّاس بمعارضته والتصدّي له ، وأنّه ليس ثمّة أية والدة تأنف من خدمة والدته لسؤددها به . ولقد أدّى به غروره إلى حتفه ، إذ تقول الرّواية إنّه سعى في إذلال عمرو بن كلثوم ، زعيم تغلب ، باستخدام والدته في أداء حاجة لهند ، والدة الملك ، فانقضّ الشّاعر ثائراً وأجهز عليه وانتهب ماله وخيله وتولّى مع قومه إلى الشّام ، حينما طُوردوا بدم الملك[2] . ولم تكن حالهم في ربوع الشّام خيراً من قبل ، إذ حَرُشوا بالغسّانيّين أو حَرُش بهم هؤلاء بعد أن خشيَ كل منهم الآخر . وقد قيل إن عمرو بن حجر الغسّاني ، مرّ ببني تغلب ، فتلقّاه عنهم عمرو بن كلثوم ، ولم يخرجوا له أو يَحْفِلوا به ، فقال له : يا عمرو ، ما منع قومك أن يتَلَقّوني ؟ فقال : إن قومي لم يَسْتَيْقظوا لحرب قطّ ، إلا علا فيها أمرهم واشتدّ شأنُهم ومنعوا ما وراء ظهورهم . فقال له : أيقاظ نومة ، ليس فيها حلم ، أجتثُّ أصولهم وأنْفي فَلّهم إلى اليابس الجدّ والنازح الثّمْد[3] .

وقد كانت هذه المجافاة كما قيل سبباً في إشعال حرب جديدة ، كُتب النّصر فيها للتغلبيّين . وهكذا ، فإن قبائل العرب ، جميعاً ، كانت تُرْتَهَن ، حيناً ،

---

١ – م – ن ، ١ : ٢٢٢

٢ – م – ن ، ١ : ٢٢٦ الأصبهاني ، الأغاني ، ١١ : ٥٣ – ٥٤

٣ – م – ن ، ١١ : ٥٨

إلى النّفوذ الخارجيّ ، وتوالي حكاماً أجانب يستبدّون بها ، فتلرك بعض الاستقرار المشوب بالتحفّز إلى الثورة ، ولا تعتّم أن تَنْقَضّ وتخلع عنها نيراً ليوثَق نير جديد . فإذا عرفوا بعض الحرية والرّاحة ، ارتدّوا ، بعضاً إلى بعض ، يتناحرون فيما بينهم ، ويقيمون على خصامهم ، حتى يَبوءوا بثاراتهم التي كانت تتوالد ، ويستدعي بعضها البعض الآخر في حروب وأيام لا سبيل الآن إلى إحصائها[1] . وفي صراع تلك القبائل ضد النفوذ الخارجيّ ، كانت تتحالف وتجتمع ، فيتّفق البكريّون والتغلبيون ويحتشدون على العدوّ حتى يرفعوا وطأته ويبدّدوا شمله ، حتى إذا كسروا شَوْكته وفَتّوا في عَضُده ، ارتدّوا ، بعضاً إلى بعض ، ليستكملوا سلسلة الثّارات فيما بينهم ، متناسين حلفهم وقرابتَهم . وفي التقاتل القبليّ كان الباعث يتباين عمّا كان عليه في حروبهم الخارجيّة . لقد كان يدفعهم إلى التغازي والتناحر حافز الشّرف والثّأر والفروسية الخالصة الهادفة إلى الانتصار والشعور بالتفوّق ، فيما كان يحفزهم إلى التحالف على الأعداء الخارجيين الخطرُ المشترَكُ المُداهم .

ولقد ألمّ الأخطل بهذا التاريخ وزها به، يشاهد بعض فصوله ويقصّ عليه أسلافه بعض رواياته ، فيعتزّ بعزّ القبيلة ويتحفّز لمتابعة أشواطها ، ممّا نَفَحَ في شعره تلك العنجهيّة الصّامدة الشامخة التي لم تكد تُذْعن لما سارت عليه سائر القبائل عند ظهور الدعوة الإسلاميّة . وفضلاً عن ذلك كلّه ورث تراثاً من الشّعر البطولي المتمثّل فيما يشبه معلقة عمرو بن كلثوم ، حيث كان يخيل للتغلبيّين في عنفوانهم البدائيّ ، أنّهم أسياد عالمهم ، لا ينازعهم فيه منازع ولا يزعجهم عن بطولتهم أي غاز أو فاتح مُقْتدر . وفي دراستنا لشعره نرى أنّه كان يفيد من تاريخ قبيلته في المفاخر التي كان يستطرد إليها عبر مدائحه وأهاجيه ومفاخره المباشرة ، معدّداً أيّامها وأبطالها زاهياً بها كلّ زهو .

---

١ – الأغاني ، ٥ : ٣٥ – ٣٧ . الكامل ، ١ : ٣١

الباب الثاني

– اسمه ونسبه –

لئن اتّفق الرُّواة في نَسَب الأخطل ، فإن آراءهم تتباين في اسمه . فهو فيما أورده الأصبهاني [1] والآمدي [2] وابن سلاّم [3] وابن قتيبة [4] « غِياث بن غَوْث » . وهو عند البغدادي [5] ، صاحب الخزانة ، غُوَيْث ، وليس غياثاً ، وقيل إن الاختلاف يقع في اسم الأب ، فهو غُوَيْث أو مُغِيث بدل غوث ، فيكون اسم الأخطل بذلك غياث بن غوث أو مُغيث أو غُوَيْث .

أما نَسَبُه ، فليس ثمّة تنازع بشأنه ، وإن كان بعض الرّواة يقف عند جدّ ، فيما يذكر بعضهم أجداداً آخرين من دونه . فالأصبهاني والآمدي يذكران له نحو خمسة عشر نسباً ، وهما يتّفقان على أنّه « غِياث بن غَوْث بن الصَّلْت بن الطّارقة » ، وقيل ابن سَيْحان بن عمرو بن الفَدَوْكس [6] بن عمرو بن مالك ابن جشم بن بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب [7] . بينما اكتفى البعض الآخر بذكر نسبيَيْن أو ثلاثة كأبي تمّام حيث قال في حماسته : « هو غياث بن غوث ابن الصَّلت بن الطّارقة التغلبيّ [8] » وابن قتيبة الذي اكتفى بذكر اسم أبيه وقبيلته ، فقال : « هو غياث بن غوث من بني تغلب بن فَدَوْكس [9] » .

---

١ – الأصبهاني ، الأغاني ٨ : ٢٨٠

٢ – الآمدي ، المؤتلف والمختلف ، مكتبة القدر ، ٢١

٣ – ابن سلام ، طبقات الشعراء ، مطبعة السعادة ، ١٦٠

٤ – ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ٢ : ١٨٩

٥ – البغدادي ، خزانة الأدب ، المطبعة السلفية ، ١ : ٤١٥

٦ – الفدوكس : الغليظ الجافي

٧ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٠ ، المؤتلف والمختلف ، ٢١

٨ – أبو تمام ، الحماسة ، ج ٢ : ٣٩١

٩ – الشعر والشعراء ، ١٨٩

وكُنِيَ الأخطل أبا مالك وعُرِفَ أنّه من الأراقم، وهم جماعة من التغلبيّين الذين أُطْلقت عليهم هذه التسمية ، إذ شبّهَتْ عيونهم بعيون الحيّـــات [1] . ولقد أشار النّعمان بن بشير إلى ذلك بقوله هاجياً الأخطل :

أَيَشْتُمُنا عبْدُ الأَراقِــمِ ، ضِلّــةً فماذا الذي تُجدي عليكَ الأَراقِمُ [2]

وغلب على شاعرنا كذلك لَقَبُ الأخطل ، وربّما لزمه منذ حداثته ، وقيل إن كعب بن جُعَيْل كان أول من حكم عليه بالخَطَل ، لمّا بلغه هجاؤهُ له [3] ، وإن كانت الروايات تتباين في زمن نشوب التهاجي الذي لحقه منه هذا اللّقب . ولقد عرض صاحب الأغاني أخباراً في هذا الشأن ، قد نخلص منها إلى أن الأخطل كان غلاماً حادّ اللّسان ، سريع الخاطر ، جريئاً ، حتّى إنّـــه لم يَهَبْ كعباً ، شاعر تغلب ، آنئذ ، بل تعرَّض له بالرّغم من مكانته في بني قومه وسائر النّاس ، فضلاً عن شهرته كشاعر ، فلمّا يقف له شاعر آخر . ولمّا وفد كعب إلى بني قومه من الشّام ، فمُدَّت له الحبال والأوتاد ، وملء ما بينها غنماً ، تعظيماً له ، اغتاظ الأخْطَل ، فأخرج الأغنام وطردها ، فسبّه عتبة بن الزّعل ، وردّ الغنم إلى مواضعها ، فأعاد الأخطل الكرة، وكان ابن جعيل ينظر إليه ، فقال : إن غلامكم هذا لأخطل ، فلجّ الهجاء بينهما منذ ذلك الحين .

وثمّة رواية أُخرى وهي تتباين مضموناً ، ومؤدّاها أنّ خلافاً نَشِب بين ابني جُعَيْل وأمهما ، فأولجا الأخطل في أمره ، فقال :

لعمري إنَّنــي وابْنَيْ جُعَيْــــلٍ وأُمهِمـــا لأَسْتَــارٌ لَئيــــمُ

---

١ – المؤتلف والمختلف ، ٢١

٢ – خزانة الأدب ، ١ : ٤٠٤ ، الأغاني ، ٨ : ٢٨٠

٣ – طبقات الشعراء ، ١٦٠

فقال ابن جعيل : يا غلام ، إن هذا لخَطَلٌ من رأيك ، ولولا أن أمي سَمِيّة أمك لتركت أمّك يحدو بها الرّكبان ، فلحقه من ذلك لقب الأخْطل وكان اسم أمّيهما لَيْلى[1] .

ووجهُ التباين في الرّوايتين أن الأخطل يَظْهر في أولاهما فتى مُشاكساً ، يتعرّض لما لا شأن له به ، ويغتاظ ممّا لا وجه له في إغاظته ، بل إنّه تعمّد ذلك تعمّداً بما طُبِع عليه من طباع المُراغمة والتحدّي . وقد تتهافت الرّواية الأولى إذا ما ألمَمْنا بما ألْحق بها من قول بأن الهجاء لجَّ بين الشّاعر ين إثر ذلك . ففي جزء من الرّواية يطالعنا كعب بملامح امرىء جليل القَدْر ، فائق القيمة الشعريّة ، لا يحفل بمن دونه من شعراء قبيلته أو ما إليها ، ثمّ لا نعتّم أن نبصره ، وقد ناشب ذلك الغلام الغُفْل الهجاء ، حتى ظَهَر عليه خصمه المَغْمور ، وأخمد ذكره . ولعلّ الصواب في ذلك كلّه أن كعباً والأخطل تواقعا في هجاء ، وأن الأخير تعرّض للأوّل عن رغبة في المظاهرة والمنافرة ، ليَلْفِتَ إليه الأنظار ويقوم مقامه في القبيلة ، وبخاصّة أن كعباً كان قد اعتنق الإسلام ، متخلّياً عن النّصرانيّة التي اعتصمَتْ بها تغلب اعتصاماً شديداً ، ولاقت من دونها الاضطهاد وربّما التّنْكيل . وقد أقبلَتْ على ذلك بنوع من الرَّغبة في الاحتفاظ بشخصيّتها وأولويّتها وسيادتها بين القبائل . وقد يخيّل إلي أن مثل ذلك السّبب حريّ أن يثير الأخطل ، لأن التغلبيّين كانوا يُضْمِرون حفيظةً لكعب في ارتداده عن دينه وقيامه إلى جنب معاوية ، غير حافل بأبناء قومه .

ولئن أظهروا له بعض المودة والترحيب ، فقد كانوا يَصْدرون في ذلك عن التملّق والرَّغبة في الامتناع عن إثارته وإثارة الأمويين الذين يلوذ إليهم . أمّا ما تمحّل به الرُّواة وعزَوه إلى كلّ منهما في هذا الأمر ، فلا يعدو الميل إلى إضفاء الدّهشة والغرابة على كلّ خبر يتْلونه ، كأنّهم لا يهدفون فيه إلى الحقيقة التي تظهر فيه ، بقدر ما يرغبون في الاستحواذ على لبّ القارىء واختلابه .

---

١ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٠ – ٢٨١

ولعل غلوَّهم في ذلك ساقهم في رواية أُخرى إلى التأكيد بأنّه كان غلاماً يافعاً ، حينما تحرَّش بكعب ونازعه لواء الشّعر في القبيلة . فابن سلاّم يشير إلى أن كعب بن جعيل لمّا سمع القول التالي في هجائه :

سُمّيتَ كعْباً بِشَرّ العِظام وَكانَ أَبوكَ يُسمّى الجُعَلْ
وإنَّ محلَّكَ مِنْ وائِلٍ محلُّ القرادِ مِنِ استِ الجمَلْ

قال : كنت أقول : لا يقهرني إلا رجل له ذكر ونبأ ، وقد أعْدَدْتُ هذَين البيتين لأن أهْجى بهما ، فغلب عليهما هذر الغلام[1] .

وأورد صاحب الأغاني كذلك خبراً يزعم أن أبا الأخطل هو أول من أطلق على ابنه هذا اللّقب ، وقد كان ، آنذاك ، غلاماً يُقَرْزِم ، ذلك حين ضربه لمّا سمع من مهاجاته لكعب بن جُعَيل ، وقال له : أبِقَرْزَمَتِك تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟! وحضر كعب في حينه ، وسأل عن الأمر ، فقال له أبوه : لا تحفل به ، فإنّه غلام أخْطل[2] . وثمّة رواية أُخرى أوْردها صاحب الأغاني ، ولم ترد في أيّ مصدر آخر ، ومؤدّاها أن عتبة بن الزّعل هو أول من أطلق على الأخطل لقبه ، وذلك حين أتى عتبة قومه في حَمالة يسأل فيها ، فأخذ الأخطل يتكلّم ، فقال عتبة : من هذا الغلام الأخطل[3] ؟

ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذه الرّوايات ، جميعاً ، تدلُّ على أن الشاعر لُقّب بالأخطل لاتّفاق هذا اللّقب وما طُبع عليه في شخصيّته . فالخَطل هو اضطراب الكلام[4] . وابن دَريْد يزعم أنّه لقّب كذلك لسَفَهه واضطراب

---

١ – طبقات الشعراء ، ١٦٠
٢ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٢
٣ – م – س ، ٨ : ٢٨٠
٤ – الاشتقاق ، ١٦٠

شعره[1] . والأصبهاني ينعتُه بالقول : « إن الأخطل السّفيه[2] » . أما السّيوطي فيرى أن ذلك اللّقب لحق به لصفة جسديّة فيه ، هي طول أُذُنَيْه ، كما أنّــه يُنوّه بأنه قد يكون لحق به من بيت شعر قاله[3] .

ولقد عُرف غياث بن الغَوْث بالأخطل حتّى غلب على لقب آخر ، ذكر البغدادي أن جريراً كان أوّل من أطْلَقَه عليه ، وهذا اللّقب هو « دَوْبل » أي الحمار القصير الذّنَب ، بل قيل إنّه ولد الخنزير ، وقد لقّبه جرير بذلك حين قال يهجوه :

بَكَى دَوْبلٌ ، لا يَرْقَإِ اللهُ دَمعَـــــهُ   ألا إنَّما يَبْكِي مِن الذُّل دَوْبـــلُ[4]

ويظهر أن الأخطل استاء من هذا اللّقب وقال : والله ما سمّتني أمي دوبلاً ، إلا نهاراً واحداً ، فمن أيْن سقط إلى هذا الخبيث[5] ؟

ولقد أوردنا هذه الروايات ، جميعاً ، لنَتخلَّص من لقب الشّاعر إلى الاستدلال من خلاله على نفسيّته . فإذا أسْقَطْنـــا ما حفلت به تلك الرّوايـات من أساليب الدّهشة والإغراب ، فإنّنا نقع على حقيقة لا يكتنفُها لُبْس أو ريبة ، وهي أن غياثاً إنّما لُقّب بذلك اللّقب لمعارضته أهله وبني قومه في أمور رأوا أن كلامه فيها مضطرب ، خاطىء ، خرج به عن العرف .

---

١ – م – ن ، ١٦٠

٢ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٠ – ٢٨١

٣ – شرح شواهد المغني ، ٤٦

٤ – خزانة الأدب ، ١ : ٤١٥

٥ – طبقات الشعراء ، ١٦٦

وذلك يسوقنا إلى الاعتقاد بأن الأخطل كان رجل موقف يقفه ممّا يطرأ عليه ، أو ممّا يخوض فيه ، لا يحفل برأي الآخرين ولا يتملّق لهم به ، كما أنّه كان يعاصيهم بما يراه ، وإن دُهشوا له وصعقوا به . ومعظم الألقاب التي لحقت بالشّعراء العرب ، كالنّابغة والحُطَيْئَة والمتنبي وما إليها ، كانت تدعو أولئك الشّعراء بما أُثِر عنهم من طباع وخُلُق لازمتهم ، ولم يَنْفكّوا عنها . ولعلّهم أطلقوا على شاعرنا لقبه للتدليل عل الطّبع الأظهر والأشدّ من طباعه ، ممّا يجعلنا نميل إلى القول بأنّه قد صحب الأخطل منذ فتوّته الأولى وَعْيٌ حادٌ بذاته وشعور بالتفوُّق في الفِطْنَة والرأي على من دونه ، يعارضهم بقوله وفعله ، فيحرجون عليه بذلك ، ولا يحرج ، كأنّما يحكم عليهم بالغَفْلة ولنفسه بالفِطْنة . وإننا إذ نطالع سيرته ، فيما بعد ، نرى أن طبع المُراغمة والعصيان لازمه طيلةَ حياته ، لم يتعرَّض به لذويه وبني قومه وحسب ، بل للدَّولة الأموية ، جميعاً ، يعيش في أحضانها ولا يعتنق دينها ولا يستذلُّ لها ، بل تراه يخرج عليها ويعالنُها العصيان في احتسائه للخمرة ، وهو مقيم في البلاط ، وبحمله الصَّليب على صدره لا يبرحه ولا يتخلّى عنه ، كأنّما كان يظاهر به الدولة في دينها . ومع أنّه لم يبلغ شأو المتنبي في هذا الأمر ، إذ قلّما صرّح عنه تصريحاً وجدانيّاً في شعره ، فقد صدر عنه في معظم ما قاله وما فعله ، حتّى إن المرء لا يزال يعجب إلى يومنا بتلك الشخصيّة المتمرّدة المُشْبعة بشعور العظمة ، لا تلين به حتّى لمن كان يتولى أعظم السّلطان .

الباب الثالث

ولادته وفتوته ووفاته

لا قِبَل لنا بضبط تاريخ ولادة الأخطل ، إلا من خلال الأخبار والأشعار التي تشير إلى ذلك بنوع من الإشارة وإن تكن غامضة ، إذ لم نقع على خبر صريح في ذلك . فإذا قُلْنا إن الأخطل شهد خلافة معاوية ، فلأنَّ ثمة أخباراً تؤيّد هذا الظّن ، منها ما كان بين الأخطل وكعب بن جعيل من مهاجاة ، قدَّمنا ذكرها ، ولقد كان كعب شاعر معاوية ، وتوفي في خلافته[1] ، كما أنّه التقى الأخطل وواقعه ، وهو فتى يُقْرزم ، كما رجّحنا ذلك من قبل ، وخلافة معاوية دامت عشرين سنة[2] رافقها الأخطل ، واجتاز بها مرحلة الشّباب إلى الكهولة حيث ألمَّ به بعض الشّيْب فبدا أشْمط ، كما يشير إلى ذلك في مدح يزيد :

أَغْرضْنَ مِنْ شَمَطٍ في الرَّأْسِ لاح بهِ   فهنَّ مِنْهُ إذا أَبْصَرْنَـــهُ ، حِيــدُ

وحين أوفت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين للهجرة[3] كان الأخطل قد أصبح هَرِماً سَقَطَتْ أسنانه ، كما نتبيّن ذلك من قول جرير ، حين سأله ابنه عنه : « أدركت الأخطل وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلني به »[4] ، ومعظم أخبار الأخطل مع جرير ، جرت أحداثها في عهد عبد الملك بن مروان .

وتوفّي الأخطل ، كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير ، سنة اثنتين وتسعين[5]

---

١ – توفي كعب بن جعيل سنة ٥٥ هـ . انظر الزركلي الأعلام ، ٦ : ٨

٢ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، ٩ : ٨٤

٣ – تاريخ الخلفاء ، ٨٣ – ٨٤

٤ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٥

٥ – البداية والنهاية ، ٩ : ٨٤

أي في أواخر خلافة الوليد بن عبد الملك التي امتدت من سنة ست وثمانين إلى سنة ست وتسعين[1] ، فكم كان قد بلغ من العمر آنذاك ؟

رجحنا أن الأخطل كان شاباً في عهد معاوية ، وكهلاً في عهد يزيد الذي لم تدم خلافته أكثر من أربع سنوات ، ممّا يدلّ على أن الأخطل كان قد شارف الأربعين أو تجاوزها ، قليلاً ، في نهاية خلافة معاوية . وفي نهاية خلافة عبد الملك وبداية خلافة الوليد ، سنة ست وثمانين ، يكون عمر الأخطل ما بين الستين والخامسة والستين ، ولا يُتَوفّى سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، إلاّ ويكون قد بلغ السبعين أو أكثر قليلاً .

ولقد أورد الأغاني[2] أخباراً عديدة للأخطل مع هشام بن عبد الملك[3] ، وقيل بل إنّه مدحه بشعر لم نَقَعْ له على أثر في ديوانه ، أو فيما رُوِيَ له . فإذا صحّت هذه الأخبار ، يكون الأخطل قد عمّر إلى ما بعد السنة المائة والخمس للهجرة . وهذا يؤيّد قول السّيوطي من أن الأخطل عمّر عمراً طويلاً . والله أعلم في ذلك كلّه . ولقد بذلنا هذا الأخبار ، وعالجناها لنتبيّن منها الفترة التي عايشها الأخطل والتي تواقع فيها مع الأحداث والأشخاص ، لكي نستطلع أثر ذلك في شعره ، أو لكي نستضيء بها عليه . ولسنا نأسف كثيراً لعجزنا عن معرفة سني ولادته وموته بدقّة وضبط ، إذ ليست غايتنا التاريخ بذاته بل الاستدلال منه .

وما وقعنا عليه بشأنهما يفي بغرض الدّراسة الفنية وإن كان يقصّر عن غاية الدراسة التاريخية الصرف التي تعالج سيرة الشاعر كغرض قائم بذاته .

١ – تاريخ الخلفاء ، ٨٧

٢ – الأغاني ، ٨ : ٣٠٣ – ٣٠٤ ، ٣١٠

٣ – امتدت خلافته من سنة ١٠٥ هـ – ١٢٥ هـ . انظر الحنبلي ، شذرات الذهب ، ١ : ١٦٣

فتوته وشبابه : لم يُعْنَ الرّواة العرب بدقائق سير الشّعراء وما قد يُنير للباحث العوامل المؤثّرة في نفوسهم وطباعهم ، ولم يُثْبتوا إلا الأحداث المسلّية ، أو المُدهشة كأنهم لا يُعنون بالتأريخ لصاحب السّيرة ، بقدر ما يُعْنَون بسرد نوادره وأخباره الغريبة. فلسنا نقع فيما أوفى إلينا من أخبار الأخطل، على ما يوضح شأن والده، مثلاً ، في قبيلته أو في النّاس أو في حاله وماله ، ويكاد الرّواة لا يشيرون إليه بإشارة ، إلاّ بعد أن شرع بمُهاجاة كعب إذ شُكِيَ إليه بهجائه له ، فلم يحفل به ، بل جعله أخطل الرّأي ، لا شأن له .

أما والدته ، فنعلم أنّها كانت تُدعى ليلى ، كما قدّمنا[1] ، من قبيلة إياد النصرانيّة ، وأنها كانت تفيض عليه بحنانها ، وتغمره بالدّلال وترقّصه وتدعوه دَوْبلاً[2] ، إذ يبدو أنّه كان يميل إلى القِصَر في صغره ، على شيء من الامتلاء في جسده . وكنّا قد قدّمنا أن جريراً أفاد من هذا اللّقب وهجاه به ، وأنّ الشّاعر عجب أن يتلقّفه ، فيما لم تناده به أمّه إلاّ يوماً واحداً . فإذا صحّ زعم الشّاعر ، لم يكن لنا أن نتّخذ منه بيّنةً على دأب والدته وإمعانها في تدليله به . ولعل الصّواب في ذلك ، أن الأخطل دُهِشَ أن يتلقّف جرير هذا اللّقب ، فيما نشب بينهما الهجاء ، وكان شاعرنا قد طعن في السنّ ووخَط رأسَه الشّيب . وكان هذا اللّقب قد سقط عنه ، ولم يُتَداوَل عليه منذ فتوّته الأولى ، أي قُبَيْل وفاة والدته . ومهما يكن ، فإن المهمّ في ذلك كلّه ، أن الأخطل نشأ في مطلع عهده نشأة لين وحنان ، إذ كان وحيد أمّه وبِكْرَها ، تؤثره بكلّ عطف وتُعْنَى به كلّ عناية ، حتى إذا توفيّت عنه ، أَو تطلّقَتْ أو طُلّقَتْ عن والده ، ألفى ذاته ، في غفلة منه ، بين يدي امرأة غريبة عن حياته وعواطفه ، لا تُعْنَى به عناية أمه ولا تُؤثره إيثارها ، فافتقد بذلك شعوره بلهفة العائلة والتفافها عليه من دون سواه ، ثمّ ما عتّمت زوج أبيه أن وضعت أولاداً لها ، فانصرفت إليهم عنه ، وآثرتهم بالمودّة والرّفق عليه ، فانتكست نفس ذلك الفتى وأخذ يُشاغبها ويعاصيها ويتفتّق بكلّ

---

١ – الأغاني ، ٨ : ٣٨٠

٢ – المزهر ، السيوطي ، ٢ : ٢١٧

حيلة لإغاظتها واقتسام حظّه ممّا كان يحظى به أخواه . ولقد ذكر صاحب الأغاني[1] أن الأخطل لحظ يوماً عند امرأة أبيه شكوة من اللّبن وجراباً فيه تمر وزبيب ، وكان جائعاً ، فتقدّم إليها وقال متحبّباً : « يا أمه ! آل فلان يزورونك ، وعندهم عليل ، فلو أتيتِهم ، لكان أجمل وأولى بك » . وكان من واجبات النّساء خاصة أن يعدْنَ المرضى ، فقالت المرأة : جُزيت خيراً ، يا بنيّ ، لقد نبّهتَ إلى مَكْرمة . وقامت فارتدتْ ثيابها ومضت إليهم ، فما كان منه إلا أن تلقّف الشّكوة والتهم ما فيها من اللّبن ، وأخذ الجراب فأكل ما فيه من تمر وزبيب . فلمّا رجعت المرأة ، وعلمت بما جرى لها ، عَمَدت إلى خشبة تضربه بها ، فهرب وقال :

أَلَمَّ على عِنَباتِ العجوزِ وَشَكْوَتِها مِنْ غِياثٍ لَمَمْ
فظَلَّتْ تُنادي ، أَيا ويْلَها وَتَلْعَنُ ، وَاللَّعنُ مِنها أَمَمْ

وقد علق ابن السكّيت على البيتين ، فقال : « وهذا أول هجاء قاله الأخطل » .

وهذه الرواية مبذولة في معظم الكتب التي تناولت الأخطل في دراسة مستقلّة أو عبر دراسات أخرى يتداولونها للتدليل على فطرة الهجاء التي طبع عليها وعلى حياة الحرمان التي قضاها بجنب زوج والده . إلاّ أنها تدلّ ، بالإضافة إلى ذلك ، على نوع من الدّهاء الذي قُسِر عليه ذلك الغلام ليتدبّر عيشه وينال من الطيّبات التي كانت تُؤْثر بها تلك المرأة أولادها . ونستدل منها ، كذلك ، على حياة التقتير التي كان يخضع لها ، بعد حياة رفق وحنان ، كما أنّها تطلعنا على أنّه راود الشّعر منذ حداثته . ولقد وقّع الرُّواة أحداثها بسياق متكامل مُشَوّق ، ممّا يوحي لنا بأن بعض أحداثها قد وقع فعلاً ونميل إلى ترجيح دلالة الحِرمان والفطنة المُبكرة ، إلا أن البيتين اللّذين أُلحقا بها – واللّذين يفترض أن يكون الأخطل قد ارتجلهما لتوّه ، إثر هربه من غضب تلك المرأة – قد زيدا فيما بعد أو أن

١ – الأغاني ، ٨ : ٣٠١ – ٣٠٢

الرواة أضافوهما استكمالاً لعنصر الدّهشة والإثارة وللتدليل على نبوغ الأخطل في الشّعر ، وهو غلام فتيّ .

ووجه الغرابة في ذلك أن الأخطل قالهما فيما كان يولّي مُدبراً ، وهو في زحمة من أمره ، يتدبّر سبيل الخلاص .

وأيّاً ما كانت حال تلك الرّواية من الصدق أو ما دونه ، فإن الباحث يأخذ بدلالتها العامّة ، لأنّها تمثّل واقعاً عاناه الشّاعر وأثِرَ عنه ، دون أن يحسن الرُّواة أداءه إلاّ بتلك الصُّورة العجيبة ، المتكاملة الحلقات . ويهمّنا من ذلك كلّه أن الأخطل عانى في فتوّته شعور الانتباذ والظّلم ، وأنّه افتقد الحنان ، فنشأ وهو يضغّن بنوع من الضّغن الأصمّ على زوج والده ووالده ، وربّما على القدر الذي فجعه من خلالهما بطمأنينته وعيشه . ولقد أورد الأغاني[1] ، كذلك ، أن تلك المرأة كانت ترسله في رعاية أعنْز لها ، ممّا يعزّز البيّنة بشأن امتهانها له وقسوتها عليه . فإذا أضفنا إلى ذلك كلّه ميْله إلى المراغمة ومعاصاة الآخرين ومظاهرتهم برأيه نقع على وصف يمكن أن نخلص منه إلى الواقع النّفسي الذي كان يعانيه فترتئذ . وقد لا نعدو الصَّواب في القول إنّه كان منقبض النّفس ، مُنطوياً عليها ، دفعه رفضه لواقعه والامتناع عن الرّضا به ، إلى التأمّل الذاتيّ وتقدير قدر الأشياء وفقاً لما يطالعه عقله منها ، لا يحفل بمن دونه ، بل يُضْمر ويصرّح لهم بزرايته واحْتقاره . وكنّا قد ألمحنا ، قبلاً ، إلى تعرضه لابن جُعيل بهجاء فَطِنٍ انترع به سمات الضَّعة والإقذاع من اسم الشّاعر واسْم أبيه واستطرد بالصورة إلى أداء غايته في تحقير شأنه وثلبه . ولقد ذكر صاحب الأغاني بيتاً نظم كعبٌ شطرَه الأول وأجاز الأخطل شطره الثاني ، نامياً إلى كعب أقبح الأفعال ،

---

١ – الأغاني ، ٨ : ٣٨٠

دون تقيّة أو حرج ، كما أنّه أتى بأبيات في هجاء كعب وأخيه وأمه وقومه[1] وهجاء نفسه في سياق هجائه لهما وأُمِّهِما ، ممّا يؤكّد أنّه كان خبيث القريحة في مطلع عهده بالشعر ، وإن كان سائر شعره وأهاجيه لا تنِمّ ، قطُّ ، على مثل ذلك الشّعر الكريه ولا على هذه المعاني المقْذعة . والأخطل نفسه صرّح بذلك إذ قال : ما هجوت أحداً ، قطّ ، بما تستحي العذراء أن تنشدني إياه[2] . ولقد مهّدنا بذلك كلّه لنَتخلّص منه إلى القول بأن ما تطبّع عليه الشّاعر من طبع العنف واللّعنة والإقذاع ، قد تطعّم بنفسه ، فيما بعد ، واستحال إلى نقيض من الشّعور بالكبر وعظم القدر ، أمدّاه بتلك العنجهيّة التي لا تزال تنفح من روحها في مدائحه ومفاخره وأهاجيه ، بعد أن سقطت عنه وطأة الظّلم والاضطهاد ، وبعدما بلغ غاية ما كان يبتغيه من سؤدُد ومجد في بلاط عبد الملك . فلقد تنامى ميله إلى الهجاء ، عَبْرَ الزّمَن ، وتحول إلى اعتداد بالنّفس ونزعة إلى الصّراحة والجرأة ، حتى إنّه لم يكن يحرج من يسأل أن الخليفة شيئاً من الخمرة ، يتبلّل به ، قبل أن يباشر نشيد الشعر . وربّما ألفيْناه ، حيناً ، يتعمّد الإساءة إلى سواه ، مدفوعاً بتلك الصّراحة العفوية التي تطبّع بها . فقد دخل على سعيد بن بيان بالكوفة وعنده برّة بنت هانىء التغلبيّ ، وكانت ذات جمال ودلّ ، فأكرمه سعيد

---

١ – الأغاني ، ٨ : ٣٨١ – ٣٨٢ ، قال في هجاء أم كعب :

هجا الناس ليلى أم كعب ، فمزقت ... فلم يبق إلا نفنف أنا رافعه

وقال في هجاء كعب وأخيه :

هجاني المتنسان ابنا جعيل ... وأي الناس يقتله الهجاء
ولدتم بعد إخوتكم من است ... فهلا جئتم من حيث جاءوا

وهجا ذاته وابني جعيل وأمهما بالقول :

لعمرك إنني وابني جعيل ... وأمهما لأستار لئيم

وهجا اللهازم قوم ابن جعيل بقوله :

إن اللهازم لا تنفك تابعة ، ... هم الذنابى ، وشرب التابع الكدر
محلهم من بني تيم وإخوتهم ... حيث يكون من الحمارة الثفر

٢ – الأغاني ، ٨ : ٣١٧ – ٣١٨

واحتفل به ، ثم سأله : يا أبا مالك ، أنت تدخل على الملوك ، وتـأكل معهم وتشرب ، فأين ترى هيئتنا من هيئتهم ، وهل ترى عيباً تنهانا عنه ؟ فأخذ الأخطل ينظر إلى برّة وجمالها وإلى سعيد ودمامته وعوره ، ثم قال : « ما لبيتك عيب غيرك » ، فقال سعيد : « أنا ، والله ، يا نصراني ، أحمق منك ، حيث أدخلتك بيتي[1] » . ومثل هذه الحادثة ساقت صاحب الحمـاسة[2] إلى اتهامـه بالمجاهرة وعدم التستّر .

إلاّ أن الباحث الذي قد يوفّق إلى تتبّع السّياق الداخلي لنفسيّة الأخطل يعجز عن تتبّع سياقها الفنّي ، ولم يغفل الرّواة ، كما سنبيّن فيما بعـد ، عن ذكر تأثّره بالأعشى والنّابغة ومن إليهما ، لكنّهم لم يذكروا شيئاً عن نشأته الفنيّة ، بحيث نكاد لا نعلم عمّن جمع ثقافته الشّعرية المتوغّلة إذ ألفيْناه وهـو فتى مضْطهد ، يرعى الأعنز ولا يختلف إلى راوية أو ما إليه . وجلّ ما نقع عليه في ذلك أنّه أطلّ على عالم الشّعر ، فجأة ، فيما انبرى إلى هجاء الأنصار ، بعد أن كان قد نظم أبياتاً ومقاطع في هجاء بعض الأنصار يطالعنا فيها فـنّ شعريّ متكامل الأداء ، متمالك لصنعة الشّعر وأسرار العبارة ، ملمّ بالتّاريخ ، قادر على تحويل مادّته والإفادة منها في ابتداع معانيه الهجائيّة ، ممّا يسوقنا إلى الاعتقاد بأن للأخطل حياة ثقافية أُخرى ، لم نقع على دقائقها ، ولم تسجّل لنا وقائعها ، وقد أثرى بها موهبته وأخصبها . لهذا فقد لا نُغالي في القول بأن الأخطل كان طُلَعة يتقصّى في الشّعر القديم ويحفظه ويتمثّله ، وأنّه لم يُنْفق صباه ، قبل أن يلمّ بالبلاط الأموي في حياة الغفلة والرّتابة ، لأنّه أطلّ على عالم الشّعر ، وهو كامل الأهبة ، ملمّ بأسراره وخفاياه ، وصناعته ، متمثّل لتجاربه ومعانيه وتقاليده . إلاّ أنّنا نعجز ، مع ذلك كلّه ، عن استقصاء هذا الأمر وتَتَبّعـه فيه بما رُوِيَ عنه .

١ – الشعر والشعراء ، ١٩١

٢ – أبو تمام ، الحماسة ٢ : ٣٨

ونكاد لا نحيط علماً من دون ما قدمنا عن سيرته، إلا أنّه اقتفى أثر أبيه، فتزوّج مرتّين ، وأن امرأته الأولى هي المكنّاة أمّ مالك، وقد ذكرها واستعطف بدمعها يزيد في سبيل حمايته من الأنصار ، حيث قال :

وإنّــي غَداةَ استَعْبَرتْ أمُّ مالــكٍ لراضٍ مِنَ السّلطانِ أَنْ يتهــدّدا

وذلك يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأنّه كان قد تزوّج وأنجب قبل اتّصاله بالأمويين[1] ، ولعل زوجته كانت من بني قومه، وقد رزق منها ابناً آخر قتل في يوم البشر، كما أسر والده[2] . إلا أنّ عهده بتلك المرأة لم يدم طويلاً ، فطلّقها ، ثم عقد من جديد على امرأة طالق، وكان كلّ منهما يتحسّر على قرينه القديم، كما نرى في قوله :

كِلانا عَلى هَم يَبيــتُ كأنّمــا بِجَنْبيــهِ مِنْ مس الفراشِ قــروحُ
عَلى زَوْجها الماضي تنــوحُ ، وإنّنــي على زوجَتِي الأُخرى كذاكَ أنــوحُ[3]

وليس لطلاق الأخطل أيّة دلالة خاصّة في تلك البيئة، بالرّغم من اعتناقه للمسيحيّة التي لم تكن لتردعَه عمّا يشتهيه وتطيب به نفسه. ولئن لم يرد في كتاب النّصارى نصّ على تحريم الخمرة، فإنّها محرّمة بروح الدّعوة التي تدعو إلى انتباذ الشّهوة والمجون. إلا أن الأخطل لم يكن ليحمل ذلك كلّه محمل الجدّ، ولم يكن يتحرّج بأمر دينه أو يتأثر بمواقفه وتعاليمه في شعره، بل إن أثر التعاليم الإسلاميّة أظهر فيه، كما سنبين، إذ اقتضيت عليه بطبيعة دوره السياسي. ولقد تشبّه بالأعشى في بعض ما أقبل عليه، استكمالاً لعدّة اللّهو ، إذ كان يَتَنعم بحياة خاصّة إلى جانب حياته العائلية، فقد اقتنى داراً للضيافة، يقدّم فيها الشّراب ويسمع غناء المغنّين والقيان، كما كان الأعشى قد ابتنى لنفسه معصرة في اليمامة وألحق به حاشية من الجواري

١ – الروائع ، عدد ٣٤ ، ص ٢٠٢ ح
٢ – شعر الأخطل ، ٣٦٩
٣ – الأغاني ، ٨ : ٣٩٨

ومن إليهن. إلا أننا لسنا نقع فيما نظم الأخطل وفيما رُوي عنه على تلك الشّهوة الحسيّة العارمة، العمياء التي تطالعنا بها قصائد الأعشى. فالأخطل عرف اللّهو ومتعة الخمرة، لكنّه لم يكن فاسقاً ملْعوناً، بل إنه شاعر إيجابي، يحرص على القيم حرصاً شديداً ويتفاخر بها. فطبعه أقرب إلى عنجهية عمرو بن كلثوم منه إلى مجون امرىء القيس والأعشى وفسقهما. فالدّار التي اقتناها كانت دار أنس ومنادمة على الحديث والشّراب، يستضيف بها من يطرأ من الأعراب النّازلين في قومه ممّن يعرفهم أو ممّن يجهلهم. وقد ذُكر أن عكرمة الفيّاض مرّ به، وهو لا يعرفه، فقيل له: هذا رجل شريف، قد نزل بنا، فلمّا أمسى بعث إليه ودعاه إلى العشاء، ولمّا انتهيا منه، قال له: أتصيب من الشّراب شيئاً؟ قال: نعم. قال: أيّه؟ قال: كلّه إلا شرابك. فدعا له بشراب يوافقه، وإذا عنده قَيْنَتان هما خاعة وبينة، وبينهما ستر، فغمز السّتر بقضيب في يده، وقال: غنياني بأردية الشّعر، فغنّتاه. وكذلك استضاف الفرزدق في منزله دون أن يعرفه[1]، وجعلا يتناشدان زمناً، وشربا معاً، ولم يعرف أحدهما الآخر، حتى نهاية المجلس. وممّا لا شكّ فيه أنّه لم يعمد إلى هذا المجلس، إلا بعد أن أيسر وأثرى ونال الأعطيات الكثيرة وسما مقامُه في بني قومه وأدرك فيهم مثل مقام كعب بن جعيل من قبل.

الباب الرابع

ديـــانته

ذكرنا أن الأخطل لم يتأثر بالتعاليم الإسلامية تأثراً وجدانيّاً بل تأثّراً سياسيّاً لم يَصْرفه عن دينه ويحفزه إلى اعتناق الدّين الجديد. وهو، مع اختلافه إلى البلاط الأموي، لم يَمِلْ عن معتقده، حتى مماته. وقد كان الخلفاء والأمراء المسلمون

---

١ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٧ – ٢٨٨

يُهيبون به إلى اعتناق الإسلام، وكان يجدُ من دون ذلك مشقّة وعنتاً، إذ كان بعضهم لا يزال يعيره بنصرانيته ويسخر منه بها، ويحضّه على التخلي عنها. فصمد لذلك كلّه وأقام على دينه متباهياً به، متفاخراً بما كان يَسِمُه وينتقِصُه به سواه، حتى قيلَ إنّه كان يدخل على عبد الملك مخموراً، وفي عنقه صليبٌ من ذهب. ويظهر أن أمر إسلامه كان يشغل أولي الأمر، وبخاصة بعد أن غدا شاعر البلاط، أو شاعر بني أميّة، كما دعاه عبد الملك. وقد سأله الخليفة مرة: ألا تسلم فنفرض لك في الفيء، ونعطيك عشرة آلاف؟ فقال: وكيف بالخمر؟ قال: وما تصنع بها، وإن أولها لَمُرّ وإن آخرها لسُكر؟ فقال: أما إذا قلت ذلك، فإن فيما بين هاتين لمنزلة، ما مُلكك فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالإصبع. فضحك الخليفة وتَطَيَّب[1].

وهذه الحادثة تنمّ عن سعي الخليفة إلى إغراء الأخطل بالمال والفيء، ليؤلّفه إلى الإسلام ويزيل الحرج الذي كان يعنت به عليه بعض المُتزمّتين الذين كانوا يضيقون بدالة الأخطل النصراني في البلاط وشدة تقرّبه من الخليفة وتظاهره بالخروج على محرّمات الإسلام. إلاّ أن الشّاعر أقام على رفضه، معتلاً بالخمرة وما إليها، كأنّه كان يُقْبل على دينه بما يستحلّه فيه من متع الحواس، غير ما ناظر في صوابه وضلاله. والواقع أن اعتلال الأخطل بالخمرة، لا يعدو وسيلة لحسن التّخلص من دعوة الخليفة وإغرائه. ولم يكن من اللاّئق قطّ أن يتعمّد الشاعر الرّفض المباشر، مؤثراً نصرانيّته على الإسلام، دين الخليفة والدّولة، فمال عن النّظر في صواب ما يُدعى إليه وما يعتصم به، وتعلّل بإيثاره للخمرة وإدمانه إياها كوسيلة للرّفض اللّبق الحفر. ولسنا نزعم، مع ذلك، أن الأخطل كان يأخذ نصرانيّته مأخذ ثقة ودرس، بل إنّه فُطِر عليها وجرى فيها مجرى التقليد واعتصم بها من ضمن اعتصامه بقبيلته المتعاظمة بذاتها والتي كانت ترى في اعتناقها للدّين الجديد تنازلاً منها لما جرى عليه سائر القبائل وتخلّياً عن ادعائها القوة والتفرّد على من دونها[2].

١ – م – ن، ٨ : ٢٩٠

٢ – قيل: لو تأخر الإسلام قليلا لأكل بنوتغلب الناس، التبريزي، شرح المعلقات، ليال، ١٠٨

ويدنو إلى ذلك ما ورد في الدّيوان من أن عبد الملك حاول أن يدعو الأخطل إلى الإسلام ، فقال له : « لِمَ لا تُسْلم ، يا أخطل ؟ » فقال : « إن أنت أحْلَلْتَ لي الخمر ووضعت عني صوم رمضان أسْلمت ». فقال عبد الملك : « إن أنْتَ أسلَمْتَ ، ثم قَصّرت في شيء من الإسلام ، ضربتُ الذي فيه عنقك ». فقال الأخطل :

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمضان ، يَوْماً ... وَلَسْتُ بآكِلٍ لَحْمَ الأَضاحي
وَلَسْتُ بقائِمٍ كالعَيرِ يَدْعُو ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ : «حيّ على الفلاحِ »
ولكنّي سأَشْرَبُها شَمولاً ... وأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصّباحِ

فجارى عبد الملك شاعره في مزاحه وقال : « ما بلغ منك الشراب ؟» قال : « يا أمير المؤمنين إذا شربتها، فأنت أهون عليّ من شِسْعِ نعلي ». فقال : « قل فيه شعراً ، وإلا ضربت عنقك ».

فقال :

إذا ما نَديمي عَلَّني ، ثُمَّ عَلَّني ... ثلاثَ زُجاتٍ ، لهُنَّ هَديرُ
خَرَجْتُ أَجُرُّ الذَّيلَ تِيهاً كأَنَّني ... عَلَيْكَ ، أمير المؤمنينَ ، أَمِيرُ [1]

ومن يتَقَصّ في هذه النّادرة يقع فيها على مراودة واضحة للأخطل عن دينه ، ولئن لم يلحّ الخليفة في شأنه ويضيّق عليه ويراغمه ، فإنّه كان يؤثره ويتمنّاه ، إذ كان يحمل في نفسه شيئاً من ذلك. إلا أن الأخطل يبدو ، أبداً ، ماجناً مُسْتَهتراً ، فيما يجيب على تلك الدّعوة ، ولا يُؤثر دينَه لمبادىء خلقية أو لتعاليم سامية وما إليها. فهذه الرّواية تسم الأخطل بأخذه لدينه في ظاهره العارض ، أكثر ممّا تسم

١ – شعر الأخطل ، ١٥٣ – ١٥٤

الخليفة بحلمه الواسع في أمر الدين ، فكأن ناقل هذه الرّواية رغب في أن يوعز لمن يطّلع عليها بأن الأخطل صدر في دينه عن جهل وحُمْق ومجون ، وأن الخليفة لم يكن يحرج عليه بما يَهْرِف ، إذ كان يوحي إلى الآخذين بكلام الأخطل أن أمر دينه لا يعدو الهزل والمجون ، وليس في أمره جدّ ، حتى يؤاخذه به ويضيّق عليه فيه. إلا أن الدّلالة الأعمق في ذلك كلّه ، أن عبد الملك ، كسائر الأمويين ، كان يقدّم أمر الدّنيا على أمر الدين متى تعارضا ، ولم يجد سبيلاً يسيراً للتوفيق بينهما. وشاهدُنا على ذلك أن عبد الملك ذاته كان يأخذ الأخطل مأخذ عَنَت ويُشادُّه ، فيما يطالعه بما لا يطيب له وما يأنف منه لارتباطه بمصير الدولة وأمنها. فبعد أن أوقع الجحّاف بالتغلبيّين في يوم البِشر وبقر بطون نسائهم ، تظلّم الأخطل من قعود الأمويين عن نجدة التغلبيّين مناصريهم وإخلافهم وطالبهم بعهد الجيرة وذمّة الحماية ، متهدّداً متوعّداً بقوله :

لَقَدْ أَوْقع الجحَّافُ بالبِشْرِ وقعةً ... إلى اللهِ مِنْها المُشْتَكَى والمُعَوَّلُ
فإن لَم تُغَيِّرْها قُرَيْشٌ بِمُلكِها ... يَكُن عَنْ قُريشٍ مُسْتمازٌ ومرحلُ
وَنَعْرُرْ أُناساً عَرَّةً يَكْرهونها ... وَنَحْيا كِراماً ، أو نموتُ فنُقْتلُ
وإن تحمِلوا عَنْهُم ، فما من حمالِهِ ... وإنْ ثَقُلَتْ ، الاَّ دمُ القومِ أَثقلُ

فغضب عبد الملك وصاح : « إلى أين يا ابن النصرانيّة ؟ » فأجاب الأخطل : « إلى النّار ». فتبسّم عبد الملك وقال : « أولى لك ، لو قلت غير ذلك ، لقتَلتُك »[1]. فعبد الملك لم يكن يُياسر الأخطل إلا ببعض الأعراض والسّوانح التي يفيد منها في تسفية معتقدة وإظهاره كمن لا يحمل دينه محمل الجدّ ، وإنّه وإن لم يكن مُسْلماً ، فهو ، على الأقل ، يدّعي النصرانيّة ولا يتقيّد أو يحفل بها ، إذ طالما خرج على تعاليمها وآدابها وأكثر من الاتصال بالقيان والفواجر كما قذف المحْصَنات وتطلّق وتزوج على هواه[2]. ولعل هذا ما ساق رجال الدين إلى تعنيفه وتأديبه ، علناً ،

١ – م – ن ، ١٠ – ١١ ٢ – الأغاني ، ٨ : ٣٣٠

ليكفّر عمّا ألحق بنفسه ودينه من عار ومجون. فإذا سُئِل : يا أبا مالك ، النّاس يهابونك ، والخليفة يُكرِمك ، وقدرُك في النّاس قدرك ، وأنت تخضع لهذا القسّ هذا الخضوع وتستخذي له؟ فقد كان يجيب : إنّه الدين ، إنّه الدين[1]. وممّا لا شكّ فيه أن القسّ كان يحرص على معاقبته لما كان للأخطل من صفة عامة ولاستهتاره بنصرانيته ، فكأنّه في مجونه كان يؤدّي مثلاً سيّئاً عنها وَيَزِرُ دِينَه وِزْره. فلا عجب في أن يشتدّ عليه أولياء دينه. بل إن المرء ليدهش ، كما دهش معاصروه ، أن يخنع ذلك الخنوع لامرىء لا سلطة نافذة له عليه ، فيَقْبل منه الضّرب والأذى ، مستذلاً ، مُستَسلماً لِقَدَره .

ولقد أورد صاحب الأغاني نادرة نستشفّ منها أنّه كان يؤدي أعمال التّقوى والمجون ، معاً ، فينزع من بعضها إلى البعض الآخر في لحظة واحدة ، يختلط فيها الورع والمجون في نفسه ، لا يصفو أحدهما ولا يتفرّد عن الآخر . فلقد أمر امرأته أن تلحق بأسْقف مارّ ، وهو يمتطي حماراً ، لتتَمسّح وتتبرّك به ، فَفَعلتْ . إلا أنّها لم تدرك إلا ذَنَب حماره ، فتَمَسّحت به ، وقفلت عائدة إلى الأخطل فقال لها : « هو وذنب حماره سواء »[2].

وإيضاح ذلك أن الأخطل لم ينظر في أمر النصرانيّة نَظرة أخلاقية أو روحانيّة ، ولم يتَشَقّف بها ويفطن إلى مراميها الزّهْدية ، بل إنّها كانت بالنسبة إليه جزءاً من تراث قبيلته ومن تاريخها ، وقد تلقّفها وانخرط فيها كأحد تقاليدها وعاداتها. وهو إذ استذلّ لرجل الدين وأسلمه أمره ، كان في الواقع يحقّر من أمر نفسه ، ليعظّم من أمر دينه ، ويمنح رجاله آيات الإكرام والاحترام حتى الخنوع . وتعظيمه لدين القبيلة هو تعظيم لها بوجه من كانوا يعارضونها به وينظرون إليها فيه نظرة احتقار وتفرُّد . فالأخطل لم يجد بأساً في التذلّل لذويه بنوع من الذلّ ، ليظاهر الدّولة التي لم تكن تُقرُّه على دينه ، بل تضطهده به . فقد شهد الأخطل ، منذ

١ – طبقات الشعراء ، ١٧٨ . الأغاني ، ٨ : ٣١٠
٢ – م – ن ٨ : ٣٠٠

حداثته ، ما كان يقاسي بنو قومه من تضييق وحرمان ، إذ فَرض عَليهم عُمر لُبس الزّنانير والقلانس المُضرّبة الطوال والنّعال المثنيّة[1] ، ومنع نساءهم من امتطاء مطايا المسلمين ، وتشدد عليهم بالجزية حتى وفدوا عليه ، بعد أن قاوموا خالد بن الوليد مقاومة عنيفة ، وطلبوا منه أن يرفع الجزية عنهم أو يتولّوا عنه إلى الروم[2]. وهنا تتباين الرواية فيما كان من موقف عمر. فمنهم من ذكر أنّه رفض حتى تبديل اسم الجزية وقال محنقاً : « لكم أن تسمّوها ما شئتم ، أما نحن فندعوها جزية ». ومنهم من زعم أنّه أسقط الجزية عنهم واشترط عليهم ألاّ ينصّروا أولادهم ، كما ذكر أنّه ضاعف عليهم الزّكاة[3]. ولئن كانت الأحوال السياسيّة قد اضطرّت الدّولة الأموية إلى أخذ التغلبيّين باللّين في دينهم وخطب ودّهم عليه ، فإنهم كانوا يشعرون بالغربة والانتباذ من قِبَل العرب ، عامّة ، لإقامتهم على دينهم من دونهم . وقد كان هذا الدين كما بيّنّا موضع نزاع دائم بينهم وبين السّلطة القائمة ، وكانت تغلب تُجْمع عليه، إلاّ أقلّها ، كأنّه إطار لاستقلالها وحفاظها على كيانها. ولعلّ الأخطل عاد يشعر في الأسرة العربية بالغُربة التي كان يشعر بها في أسرته ، تؤثر بينها عليه وتحرمه وتقتضي من قبيلته الجزية كما كانت زوج والده تقصيه وتزجره وترسله في رعاية الأعنز. وكما تمرّد على زوج والده ، فيما اضطهدته به ، تمرد ، كذلك ، على الدّولة القائمة وعصاها ومضى في تعظيم ما كانت تزجره به عليه . ولئن أورى الدين في نفسه ، قليلاً أو كثيراً من الحرج بحدوده ومحاذيره ، فإنّه أخذ منه بالجانب القوميّ أو القبليّ ، وقلّما فطن معاصروه إلى هذا الواقع ، بل كانوا يسعون إلى إزعاجه عنه ولا يبرحون ينازعونه ليختبروا مدى اعتصامه به. فقد ذُكر أن الأخطل مرّ في بني رُؤاس ومؤذّنُهم ينادي بالصّلاة ، فقال له بعضهم : ألا تدخل ، يا أبا مالك ، فتصلي ؟ فقال :

أُصلّي حَيثُ تُدرِكُني صلاتي ... وَلَيْسَ البرُّ عند بني رُواسِ

١ – الأغاني ، ٨ : ٣١٠

٢ – البلاذري : فتوح البلدان ، ١ : ١٧٩ – ١٨٠

٣ – الطبري : م – س ج ٣ ، ١٥٤ – ١٥٨

وقيل إن هشام بن عبد الملك سمعه مرّة يقول :

وإذا افْتَقَرْتَ إلى الذَّخائرِ ، لم تجِدْ ذُخراً يكونُ كصالحِ الأَعْمالِ

فقال له هشام : هنيئاً لك ، أبا مالك ، هذا الإسلام ! فقال له الأخطل : يا أمير المؤمنين ما زلت مسلماً في ديني[١] .

الباب الخامس

اتصاله بالخلفاء

أولا : اتصاله بيزيد :

اقتصر شعر الأخطل في مستهل عهده به على الهجاء ، ولم يكن من التنوّع والنّضج بحيث يثير به إعجاب النّاس فضلاً عن خوفهم ، فيكسبه شهرة كان يتوق إليها. لقد واقع أناساً من أهله أو قبيلته ، ولم يتعد ذلك ، إذ هجا زوج أبيه وابن جُعيل وأمّه ، كما قدَّمنا ، وربمّا واقع فيه أُناساً آخرين ضاعت أسماؤهم فضلاً عن شعره فيهم . ظلّ الأخطل مقيماً على تلك الحال ، ينظم شعراً تَقِفُ حدوده في أهله وبني قومه ، حتى أسعفَتْه الأحوال السياسيّة في تعدي ذلك النّطاق ، مكتسباً لشعره صفة عامّة من خلال تصدّيه للأغراض السياسيّة التي شغلت الخلافة في علاقتها بأحزاب المُسْلمين وتنازع أمرها فيهم. فقد كان بنو هاشم يرون أنفسهم الأحقّ بالخلافة ، لمناصرتهم النبي في مستهلّ دعوته ولأنهم ذادوا عنه ومنعوه ، فيما نكّل به الأمويّون واضطهدوه ، ولم يدخلوا في طاعته، إلاّ بعد أن فتح عليهم مكّة ، ولم يبقَ لهم طاقة على معارضته والخروج عليه. وإذ آلت الخلافة إلى معاوية ،

١ – الأغاني ، ٨ : ٣١٠

وقد توشحت بوشاح الدم والفتنة ، رأى الأمويّون أنهم استعادوا السّلطة التي كان الإسلام قد انتزعها منهم إلى حين ، فيما تألّب عليهم سائر المُسلمين ، ناظرين إلى ملك أمية كردّة من قريش الأحزاب والطُّلقاء على أصحاب الحق في ولاية الإسلام والمُسلمين ، فلم يذعنوا لهم ولم يأخذوا بأمرهم عن اقتناع ، بل إنّهم كابروهم وتعصوا عليهم وفاخروهم وجاهروا بما يضمرون لهم من حقد وما يرونه في حكمهم من اغتصاب . وقد كانوا يفصحون عن ذلك بالثّورة حيناً ، وبالشّعر في معظم الأحيان ، يعيرونهم فيه بكلّ مثْلبة ويزرون بهم كلّ إزراء. وكان معاوية في حلمه ودهائه يأخذ الأنصار بالرويّة ، يلاينهم ويدانيهم ويغضي عن أذاتهم ، إذ لم تكن له طاقة على مناوأتهم في المُسلمين ، دون أن ينتقص ذلك من دينه وتقواه وعدله. إلاّ أن سائر الأمويين لم يكونوا يتحلّون بمثل حلمه، بل يقابلون الشرّ بمثله ويهاجون أعداءهم ، حتى التحم الهجاء بين عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسّان ، شاعر الأنصار الذي نال من الأمويين كلّ منال ، غير هيَّاب منهم ولا حافل بسلطتهم وبملكهم . ولم يكن ليزيد أن يصبر عليهم صبر أبيه وأن يُغْضي عنهم إغضاءه ، بل إنّه نازلهم في الهجاء وانتصر لابن الحكم على ابن حسّان ، فتطاول عليه الأخير واستعلاه وأثار غضبه.

والواقع أن النّزاع بين بني أميّة وبني هاشم ظهر منذ الجاهلية ، إذ كان بنو هاشم أصحاب السيّادة ، فيما انصرف بنو أُميّة إلى التّجارة ، يؤمّهم عليها أبو سفيان الذي عارض النبيّ وجيّش عليه ولم يذعن للدّعوة إلاّ على مَضَض . وكان الأنصار من أشد مؤيدي النبيّ على أعدائه وقد قاتلوا في صفوفه وأخلصوا له ، حتى ظَهَرَ على مناوئيه وأخْضعهم . وكان الأمويون يحفظون على الأنصار لتألّبهم حول النبيّ ومناصرته ، وإسهامهم معه حتى النّصر. ولئن اعتنق الأمويون الدين الجديد ، فقد كان أمرهم معه يتباين عن سائر القرشيين إذ رأوا في ذلك إزالةً لسلطانهم ، فأقاموا على رغبة في الردّة عليه والاستئثار بملكه . وقد سكتوا عما آلت إليه الخلافة ، إذ وقعت بين يدي أبي بكر وعمر ، حتى إذا صارت إلى عثمان استبدّوا بسلطانهم وتولوا ولاياتها ، مما أثار سائر المُسْلمين عليهم ، فاجترأ بعض

الأنصار على عثمان ، لما آثرَ به بني قومه[1]. ثم اجتمعت عليه جموع الأمصار وقتلوه ، فخرجت السلطة من أيديهم حيناً ، إلى علي بن أبي طالب ، وعادوا فاستأثروا بها عندما استبدّ بها معاوية ووَطّد لها ترهيباً وترغيباً[2]. وحين انتهت السلطة إلى معاوية ، عانى الأنصار من ذلك أشدّ الضيم ، إذ رأوا فيه اغتصاباً وردّة. وما عتمت الكراهية أن تفجرّت بين الفريقَين ، وبخاصة بعد أن أبلى الأنصار أحسن البلاء إلى جنب علي في صِفين ، حيث خرجوا وهم يُضمرون الوتر ويتَحَينُون للثأر. فما زادتهم خلافة معاوية إلاّ ضغناً على ضغن ونقمة على نقمة. فقام خطيبهم قيس بن سعد يندّد بهم ويزري عليهم ويَنْفيهم عن كلّ مكرمة وحقّ وفضل ، فيما قابل الأمويون ذلك بنفي الأنصار عن المناصب وعن حرَم الدّولة ، كما ضَيّق عليهم مروان بن الحكم وانتبذهم ، ونهد أخوه عبد الرّحمن إلى هجائهم ، متعرّضاً لعبد الرحمن بن حسان[3] كما قدمنا ، فنهد له هذا الأخير وهجاه وقومه بمثل قوله[4] :

صارَ الذَّليلُ عزيزاً ، والعزيزُ لَهُ ذلٌّ ، وصارَ فُرُوعُ النَّاسِ أَذنابا

أو قوله :

أَحْياوهُم عارٌ على أَمْواتهم والميتونَ مَسَبَّةٌ للغابِرِ

ونشبت إثر ذلك معركة هجائية بين الفريقين عمت سائر الأمصار ، فلم يطقْ يزيد صبراً عليها في نزقهِ وفورته ، وبخاصة أن ابن حسان تشبب بنسائهم وصرّح بذكرهنّ كأنه لا حرمة لهنّ. ولعل يزيد في عنجهيّته وغلوائه أدرك أن ابن

١ – الطبري ، م – س ، ٣ : ٣٩٩ – ٤٠٠

٢ – المسعودي ، مروج الذهب ، ١ : ٤٤٢

٣ – الأغاني ، ١٣ : ١٤٤ – ١٤٦

٤ – الأغاني ، ١٣ : ١٤٥ – ١٤٦

حسّان تعمّد ذلك التّشْبيب كحيلة من حيل الهجاء الخبيث الذي أوعز به إلى أنه لا رفعة لأولئك النسوة على من دونهن ، وأنه لا هيبة لذويهن تمنع الشعراء من الإلمام بهنّ كسائر النساء . وهكذا بدا ليزيد أن ابن حسان توسل الغزل كأداة ليظهر تنكره لسلطة الخليفة وليُعالن الناس أنه يهزأ بما يدّعون من سلطة وما يتظاهرون به من كبرياء . والرّواة لا يتفقون فيمن تشبّب ابن حسّان ، فصاحب طبقات الشعراء[1] ذكر أنّه تشبّب بفاطمة بنت أبي سفيان عمّة يزيد ، بل قيل إنّها رملة أخت يزيد ، حيث قال :

طالَ لَيْلي وبِتُّ كالمَحْزُونِ ... وَمَلِلْتُ الثَّواءَ في جيرُونِ
فلِذاكَ اغْتَرَبْتُ في الشّام حتى ... ظَنَّ أهلي مرجّماتِ الظنونِ
هي زَهراءُ ، مثلُ لؤلؤة الغوّاص ... مِيزَتْ مِنْ جَوْهرٍ مَكْنُونِ
وإذا ما نَسَبْتَها لم تجدْها ... في سَناءٍ مِنَ المَكارِمِ دُونِ
ثم خاصرْتُها إلى القُبة الخَضْرا ... ءِ نَمْشي في مَرْمَرٍ مَسْنُونِ [2]

أو مثل قوله :

رمْلُ هل تَذْكرينَ يوم غَزالٍ ... إذ قَطَعْنا مَسيرَنا بالتَّمنّي
إذ تَقولين ، عَمْرك الله ، هل شيءٌ ... ، وإن جلَّ ، سوف يُسليكَ عني
أَوَأُطْمِعْتُ منكُم يا ابن حَسّا ... نَ ، كما قد أراك أُطمعْتَ منّي [3]

ولعل الأقدمين فطنوا إلى أن أمر يزيد والأنصار لم يكن مقتصراً على التّشْبيب ،

١ – ابن سلام ، طبقات الشعراء ، ١٦٠ – ١٦١
٢ – ابن رشيق ، العمدة ، ١ : ٤٤٤
٣ – الأغاني ، ١٣ : ١٤١

بل إنّه تأدّى عن ركام من الأحقاد، تتفجّر من خلاله. وعلى هذا، لم يذكر المبرّد سبباً مباشراً لغضب يزيد، وإنّما اكتفى بأن قال: «عتَبَ على قوم من الأنصار»[1]. وقد اتّخذ يزيد من شعر ابن حسّان في أهل بيته ذريعة ليَجْهَر بحقده وغضبه، فحثّ كعب بن جعيل على مهاجاتهم. وقيل إنّه دخل على والده، فقال له: يا أمير المؤمنين، ألا ترى إلى هذا العلْج من يثرب، يتهكّم بأعراضنا ويشبّب بنسائنا؟ فقال معاوية: ومن هو؟ قال: عبد الرحمن بن حسّان. فقال: يا يزيد ليست العقوبة من أحد أقبح منها من ذوي القدرة. ولكن أمهلْ حتى يقدمَ وفد الأنصار ثم ذكرّني. فلمّا قدموا عليه، قال مخاطباً عبد الرحمن: ألم يبلُغني أنك تشبّبْتَ برملة بنت أمير المؤمنين؟ قال: بلى، ولو علمتُ أن أحداً أُشرّفُ به شعري أشْرَفَ منها، لذكرته. قال: وأين أنت من أختها هند! قال: وإن لها أختاً! قال: نعم. وقد عقّب صاحب الأغاني على ذلك بقوله: وإنّما أراد معاوية أن يشبّب بهما جميعاً، فيكذّب نفسه. ويظهر أن ذلك كلّه لم يرُقْ يزيدَ فحضّ كعباً على هجائهم، فتحرّج هذا الأخير، لعلمه بأن هجاءه لهم سينال من المُسلمين، جميعا. فقال ليزيد: أفرقُ من أمير المؤمنين[2]. وقيل إنّه قال: والله ما تلتقي شفتاي بهجاء الأنصار[3]. كما قيل إنّه احتجَّ بقوله: أرادّي أنت إلى الكفر بعد الإسلام؟ لا أهجو قوماً نصروا رسول الله وآووه[4]. ثم دلّه على فتى نصرانيّ، اسمه الغوث، كان لسانه لسان ثور[5] لا يبالي أن يهجوهم، يريد به الأخطل نفسه. وهنا يخرج الأخطل من الغمرة التي كان يقيم فيها، ويتألّق، فجأة، في البلاط الأموي على عهد معاوية بن أبي سفيان وبواسطة ابنه يزيد. دعاه يزيد وطلب إليه

---

١ – المبرد، الكامل، ١ : ١٧٨ .

٢ – الأغاني، ١٥ : ١٠٦ – ١٠٧

٣ – طبقات الشعراء، ١٦٠ – ١٦١

٤ – البيان والتبيين، ٦٣

٥ – البيان والتبيين، ١ : ٦٣ . الشعر والشعراء، ١٨٩

إليه أن يهجوَ الأنصار ، ففعل بعد أن أخذ عهداً منه بالأمان[1] وقال قصيدته التي مطلعها :

ذهَبَتْ قُرَيْشٌ بالسَّماحة والنَّـدى   واللُّؤم تحتَ عمـائمِ الأَنْصـارِ
فَدَعوا المكارِمَ ، لَسْتمُ من أَهْلِهـا   وخُذوا مساحِيَكمْ بني النجـارِ[2]

ووصل الأمر إلى النعمان بن بشير الأنصاري ، فدخل على معاوية ، وحسر عمامته عن رأسه ، وقال : يا معاوية ، أترى لؤماً ؟ فقال : ما أرى إلاّ كرماً .

فقال النعمان :

مُعاوي إلاَّ تُعْطِنا الحق تعتـرفْ   لحق الأَزدِ مَسْدولاً عليها العمائمُ
أَيَشْتُمُنـا عبـد الأَراقم ، ضِلَّـةً   فَماذا الذي تُجدي عليكَ الأَراقمُ
فَما ليَ ثَـأْرٌ دونَ قَطْعِ لِسانِـهِ   فدونَكَ مَن تُرْضيـهِ عنه الدراهمُ[3]

وقيل إن النعمان قال هذه الأبيات قبل أن يدخل على معاوية ، وحين بلغه هجاء الأخطل للأنصار . فلمّا وصلت إلى معاوية ، أثّرت فيه أبلغ الأثر ، فطلبه ، فدخل عليه وحسَر عمامته ، وسأل السؤال نفسه ، وأخبره بما كان من شأن هجاء الأخطل للأنصار[4] قائلاً : يا أمير المؤمنين ، بلغ منّا أمر ما بلغ منّا في جاهلية ولا إسلام . فقال معاوية : ومن بلغ ذاك منكم ؟ قال : غلام نصراني من بني تَغْلب. قال : وما حاجتك ؟ قال : لسانُه . قال : ذلك لك . وكان النعمان ذا منزلة من معاوية ، وكان معاوية يقول : يا معشر الأنصار ، تَسْتَبْطئوني وما صحبني منكم

١ – طبقات الشعراء ، ١٦٠ – ١٦١
٢ – الشعر والشعراء ، ١٨٩
٣ – الكامل ، ١ : ١٧٨ – ١٧٩
٤ – الأغاني ، ١٥ : ١٠٦ – ١٠٨

إلاّ النّعمان . وقد رأيتم ما صنعت به . وكان ولاّة الكوفة وأكرمه[1] ، وبلغ الخبر الأخطل ، وقيل بل إن معاوية هو الذي أرسل يطلبه[2] ، فأسرع إلى يزيد ، وقال له : هذا الذي كنت أخاف . فطمأنه يزيد ، ودخل على أبيه . وهنا اختلفت الرّوايات فيما كان بين يزيد ومعاوية بشأن العفو عن الأخطل . فمن قائل إن يزيد طلب من النّعمان البيّنة على ما يقول ، فلمّا عجز عن الإتيان ، بها ، خلى معاوية سبيله[3]. وقيل إن يزيد أسرّ له بما جرى بينه وبين الأخطل ، وكيف أن الأنصار هجوه وذكروا أمير المؤمنين نفسه ، وأنّه وهبه ذمتّه وذمّة الخليفة على أن يهجو الأنصار . ففعل . فاستدرّ بذلك عفو الخليفة عنه . وقد أشار الأخطل إلى ذلك بقوله :

أَبا خالدٍ دافَعتَ عَنِّي عَظيمَـــــةً   وأَدْرَكْتَ لحمي قَبْلَ أَنْ يتبــدَّدا[4]

ومن قال بأن سبب غضب يزيد على الأنصار كان التّشبيب بأهل البلاط ، ذكر أن حجّة يزيد في حضرة معاوية ، كانت الإتيان بشعر ابن حسّان في رملة بنت معاوية . ومن ثم جاء بشعر ابن حسّان فقال :

وهْيَ زَهْراءُ مثْلُ لؤلؤةِ الغَـــــوَّا   صِ ، مِيزت من جَوْهرٍ مكنـــونِ

فقال معاوية : قد كذب يا بُنَي . فأنشده :

وإذا ما نَسَبْتَهـا لَـمْ تَجِــدْهـا   في سَناءٍ مِـــنَ المَكـارِمِ دونِ

فقال معاوية : صدق يا بُني . فأنشده:

١ – طبقات الشعراء ، ١٦٠ – ١٦١

٢ – الأغاني ، ١٥ : ١٠٨

٣ – م – ن ، ١٥ : ١٠٦ – ١٠٨

٤ – طبقات الشعراء ، ١٦١

ثم خاصرَتْهـا إلى القبـة الخضرا ء ، تَمْشي في مَرْمَرٍ مسنـونِ

فقال : أمّا في هذا ، فقد أبْطل [1].

المهم في ذلك أن هذه الحادثة ذاتها أفادت الأخطل كثيراً ، وكانت باباً ولج منه إلى البلاط الأموي ، فأصبح قريباً من يزيد ، خاصة أنّ يزيد كان يقرض الشّعر ، ويقدّر الشّعراء . وكان شابّاً مُنْدفعاً مثل الأخطل ، فوجد عنده صدى لشخصه ، فقرّبه ونادمه ، وصار له صديقاً ، وليس أدل على ذلك من وصف المعرّي في رسالة الغفران لهذه الصلة بينهما ، حيث قال مخاطباً الأخطل في الجحيم :

«أخطَأتَ في أمرين : جاء الإسلامُ ، فعجزْتَ أن تَدْخُلَ فيه ، ولَزِمْتَ أخلاقَ سَفيه ، وعاشَرْتَ يزيد بن معاوية ، وأطَعْتَ نفسه الغاويةَ ، وآثَرْتَ ما فني على ما بقي ، فكيف لك بالإباق ؟ فيزفر الأخطل زفرةً تعجب لها الزّبانية ويقول : آه على أيّام يزيد . أسوف [2] عنده عَنْبراً ، ولا أُعدم لديه سبسنبراً [3]. وأفرح معه فَرحَ خليل ، فيَحْتَمِلُني احتمال الجليل . وكم ألبسني من موشى ، أَسحبُه في البكرة أو العشيّ ... ولقد فاكَهْتُه في بعض الأيام وأنا سكران ملتخ [4] فقلت :

اسلَم سَلِمتَ «أبـا خالـدٍ» وحَيَّـاكَ رَبُّـكَ بالعَنْقَـز
أَكَلْتَ الـدجاج فأَفنَيْتَهـا فَهَلْ في الخنانيصِ مِـنْ مغْمـز

فما زادني عن ابتسام ، واهتزّ للصّلة اهتزاز الحسام» [5].

---

١ – الشعر والشعراء ، ١٩٠
٢ – أسوف : أشم
٣ – سبسنبر : نوع من الريحان ، فارسية .
٤ – ملتخ : مختلط العقل لا يفهم شيئاً
٥ – المعري ، رسالة الغفران ، ٢٣٩ – ٢٤٠

هذه القطعة تبين باختصار ماهيّة العلاقة التي كانت تربط الأخطل بيزيد. وشعره يبين لنا شعور الأخطل بالولاء له ولأبيه معاوية، إذ نجيّاه من قطع لسانه، ومن ثم أبعدا عنه الذلّ. وفوق هذا وذاك كان الأخطل يعنى بالحفاظ على هذه العلاقة طالما أنّها تؤمن له الشّهرة التي كان يحلم بها.

ولقد صحب الأخطل يزيد على اللّهو والصّيد والشّراب، إذ كان يزيد يُقبل عليها إقبال امرىء القيس من قبله، دون أن يعزف عزوفه عن الملك وينخلع عنه إلى الضّرب في الفلوات وعلى المياه، بل إنّه اتّخذ لنفسه أدوات اللّهو، فيما هو يتمرس بأمر الحكم على يدَي والده. والأصول القديمة تذكر أن يزيد كان يؤثر المنادمة على الشراب[1] ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان[2]، ويخرج إلى الصّيد، مصطحباً الغِلْمان، ويُسَابق بين الخيْل ويناطح بين الكباش والدّيَكة[3] ويقتني القرود ويُلبسها القلانس المذهبّة[4]. ولئن كان في هذا الوصف بعض التزيّد الذي ابتدعه مناوئو يزيد على الملك، فإنّه أُثر عنه قليل أو كثير منه، حتى إن صاحب الأغاني ذكر أنّه أول من سنّ الملاهي في الإسلام وآوى المغنّين وأظهر الفتك وشرب الخمرة، مُنادماً عليها الأخطل وسرجون، مولاه[5]. ولعلّ هذه الطّباع المُشْتركة ألّفتْ بين الأمير والشّاعر فجعلا يقيمان معاً ولا يطيق أحدهما الانفصال عن الآخر، حتى إذا ولي يزيد ولاية العهد ثم الخلافة امتنع عن مصاحبة صاحبهِ علَناً، وإن كان يُسرّ ذلك ويتحيّنُه ويطرب له.

ولقد خصّ الأخطل يزيد بقصائد ومقطوعات في ديوانه لعلّ أولاها:

أَلا يا اَسلمـا على التَّقَادُمِ والبِلى بدَوْمَةِ خَبْتٍ أَيّهـا الطَّلَـلانِ[6]

---

١ – المسعودي، مروج الذهب، ٢ : ٩٤
٢ – الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٤ : ٩٦٨
٣ – ابن كثير، البداية والنهاية، ٨ : ٢٣٥
٤ – المسعودي، م – س، ٢ : ٩٤
٥ – الأغاني، ١٦ : ٦٨. شعر الأخطل، ٢٣٢
٦ – م – ن، ١١٢

وهي قصيدة متعدّدة الموضوعات استطرد فيها الشّاعر إلى أغراض تقليدية كالطّلل ودنف الحبّ ووصفه الحبيبة، هاجياً زوج برة إحدى التغلبيات الجميلات، وواصفاً الغراب والذّئب والدّوّية والرّاحلة والحمار الوحشيّ وأُتنه، ويتخلّص من ذلك إلى مدح مبتسر في أبيات قليلة أدنى إلى الشّكوى والعتاب، يَعْبر به ويجوزه إلى وصف القطا وذكر سباق بين الخيل أجراه يزيد.

ونقع على قصيدة تماثلها في الدّيوان نرجّح أنّها في مدح يزيد لذكره بني حرب فيها، كما ذهب إليه صاحب الأغاني، وبخلاف ما أشار إليه جامع الديوان، إذ قال إنّه نظمها في عبد الملك، فسأله إثرها: لم لا تُسلمُ يا أخطل؟ فتعذّر له بالصّوم والخمرة، فعنّفه وهدّده بقطع عنقه، إن هو أسلم وقصّر في شيء من الإسلام.

ولقد خصَّ الأخطل مطلعها بذكر الدّيار والأحبّة والظّعائن والفلاة والنّاقة والثّور الوحشي والصّيد والخمرة، واستطال حتّى بلغ نحو اثنين وأربعين بيتاً ولم يتفرّغ للمدح إلا في الأبيات الخمسة الأخيرة. وهذا هو مطلع القصيدة:

تَغَير الرَّسْمُ من سلمى بأحفارِ وأَقْفَرتْ مِنْ سُلَيْمي دِمْنَةُ الدارِ[1]

وفي الدّيوان قصيدة ثالثة[2] لعلّه امتدح بها يزيد قُبَيْل ولاية العهد، أو إثرها، إذ يتمنى له فيها أن يحظى بالخلافة، لأنّه الأحقّ بولايتها. وقد استهلّها كدأبه بوصفه الظّعائن وذكر داء العشْق، دون أن يمعن بالاستطراد (٢٢ بيتاً) ثم يباشر موضوعه فيمتدح يزيد بحمايته له من بشير بن النّعمان، شاعر الأنصار، وبالوفاء ووثوق العهود والكرم والشجاعة، وينّوه بمآثر أبيه ويصف فيضان الفرات الشبيه بكرمه. وينهي القصيدة بمعاهدة الممدوح على الوفاء.

١ – م – س، ١١٢

٢ – شعر الأخطل، ٩٠ ومطلعها:

صحا القلب إلا من ظعائن فاتني بهن أمير مستبد فأصعدا

وفن المدح أظهر في هذه القصيدة من دون سابقتَيْها ، فيما يتقلّص الوصف إلاّ في المقدّمة ، كما أن المعاني التي ألّبها في المدح ، تلج به إلى سُنّته العريقة ، متمرّسا فيه بالفنّ الصّعب، إذ تكثر الاستعارات الحسيّة فتنمّ عن عمق الانفعال وصفائه وقدرة الشّاعر فيه على الخلق ، ممّا لا مجال للإضافة بذكره والتمثيل عليه الآن . وهناك داليّة أُخرى في مدحه استهلّها بقوله :

بانَتْ سُعَادُ ففي العَيْنَيْن تَسْهيـــدُ واسْتَحقَبتْ لُبَّهُ ، فالقَلْبُ معمودُ [1]

وفيها يذكر صاحبتَيه سعاد وسليمى ويشير إلى الشيب الذي ألمّ به ، ويمتدح يزيد بما أسلف له من حماية ويميل إلى وصف النّاقة ويشبّهها بالحمار الوحشيّ ، ويستطرد إلى ذكر أُتنه والصيّادين والشّواء وما إليه . وهذه القصيدة تدنو إلى القصيدتَين السّابقتين بتعاظم الموضوعات الوصفيّة فيها على المدح المباشر الذي لم يتعرض له إلا في ستة أبيات[2] . ولسنا نقع في هذه القصائد كلّها على ما سنقع عليه ، فيما بعد ، من اصطخاب بالمعاني وألفاظها وتألبّها تألّباً ملحمياً ، لأن الأخطل ما زال يردّد صوتاً وجدانيّاً ذاتيّاً يترجّح بين الصّدق والتملّق والشّكر والمدح المُبْتَسَر . ولن تتفجّر عبقريتّه إلا إثر ما تتواقع قبيلته تواقعاً دامياً إلى جانب الأمويين .

ولئن لم يمتدح الأخطل معاوية بقصيدة خاصّة، فقد عرّج عليه وعلى بني قومه خلال مدائحه عامة في هذه الفترة ، إذ كانت صورته تُهَيْمن على بعض ما نظم في يزيد ومعظم ما نظم في عبد الله .

١ – شعر م – ن ، ١٤٦ . وللأخطل في يزيد مقطوعات أخرى ١٩٣ و ١٧٨ و ٢١١.

٢ – وللأخطل مدائح في عبد الله بن معاوية وفي عباد بن زياد وسلم بن زياد م – ن ١٨ – ٨١ – ١٨١ – ١٧٨ . وله في خالد بن يزيد قصيدة ص : ٣٤

ثانيا : **عبد الملك وسائر الأمويين :**

بعد أن وطّد معاوية لمُلْكه ، سعى في تأمينه لابنه يزيد ، ولقي من دون ذلك معارضة شديدة في الحجاز ، كان يقوم على رأسها الحُسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير[1] ، ولمّا قُتل الحسين خلت الساحة لابن الزّبير ، فأخذ يندّد بيزيد لفسقه ولهوه ، مثيراً الفتنة عليه ، فهبَّ يزيد للقضاء عليها وأوشك أن يخمدها ، حين عاجلته المنيّة ، فتولى الخلافة ابنه معاوية الثّاني الذي لم يطق أوْزارها وأعباءها[2] فاستعفى عنها وخلّفها نهبى لكلّ طامع ومريد ، فاهتبل ابن الزّبير تلك السّانحة ودعا لنفسه وبايعته أمصار عديدة ، حتّى إنّه لم يُقِمْ على الولاء للأمويين إلاّ الأردن[3] . وقد أفاد في ذلك من العصبيّة القبليّة بين اليمنيّة وعلى رأسها قبيلة كلب والمضريّة وعلى رأسها قيس[4]. وكان معاوية قد أصهر إلى اليمنيّة الذين والوه وقاتلوا إلى جنبه في صفّين وقدّمهم وأغدق عليهم ، فيما انتبذ المُضَريّين وأغفل أمرهم . وقد وجد هؤلاء في توارث الخلافة بين الأمويين تقديماً لأعدائهم عليهم وامتهاناً لهم ، فوالوا ابن الزّبير وبايعوه واحتشدوا له ، علّهم بذلك يثأرون من أعدائهم بما يَشُبّون من حروب إلى جنبه .

ولمّا دبّت الفوضى في صفوف الأمويين وذهلوا عن أمرهم ، وفد مروان ابن الحكم من الحجاز[5] فألّف إليْه الأمويين ودعا لنفسه على ابن الزّبير ، فبويع بالجابية ، ثم جَيّش على ابن الزُّبير ولقيه في مرج راهط ، وهزمه وأتباعَه القيسيّين الذين قُتل زعيمهم الضحّاك بن قيس ، فخرجوا من الشّام إلى الجزيرة وأمّروا عليهم زُفَر بن الحارث الكلابي وجاوروا التغلبيّين الذين حالفوهم على الانتقام من اليمنيّة ، يقاتلون إلى جنبهم فيضمنون الغنائم ويناوئون عدوّاً مشتركاً ،

---

١ – الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ٤ : ٢٣٨

٢ الطبري م – س ، ٤ : ٢٤٣

٤ – م – ن ، ٤ : ٤١٣

٥ – الأغاني ، ٢٠ : ١٢٠ – ١٢٦

إذ كان القيسيون والتغلبيون من العدنانية . ثم ما عتم القَيسيّون أن نشطوا إلى الدّعوة لابن الزّبير ، فانشقّ عنهم التغلبيون ، بعد أن تعمدّ القيسيّون إذلالهم واقتضوهم الجزيّة والقتال إلى ابن الزبير[1] . ولقد تأدّى عن ذلك أن نشب القتال بين تغلب وقيس في أيام عديدة ترجّح فيها النّصر بين الفريقين ، ينكّل ويمثّل كلّ فريق بالآخر ، حتّى كان يوم الحشاك الذي قتل فيه التغلبيون عُمَير بن الحباب ، قائد القيسيّة وزعيم بني سليم ، ثم عمل عبد الملك على إقامة صلح بين الفريقين ، فارتضياه قسراً[2].

وإثر تلك الأيام الدّامية وفد الأخطل على عبد الملك ، بعد أن خبر من أمر الحياة والنّاس ، ما لم يخبره من قبل ، وقد استَوثَقَتْ صلتُه بقبيلته واتحد بها غاية الاتحاد ، ولم يعد يكتفي من الأمر كلّه بالتغني بأمجادها الماضية بل إنّه عانى جراح المَجْد والبطولة ، منتصراً ومهزوماً ، مدركاً أن مواقعة الأحداث والانتصار على أزماتها يتباين كلّ التباين عن التغني بها والتحدّث عنها . وفي بلاط عبد الملك ألفى أعداءه القيسيين يظاهرون الخليفة ويتقرّبون إليه والخليفة يدنيهم طمعاً. وقد اغتاظ الأخطل أن يُلْفي دماء بني قومه تهدر عبثاً ، إذ يقدم إلى البلاط فيجد عدوّه زُفَر قد سبقه إليه .

وقد تعاظمه أن يؤلّف الخليفة إليه من ألّبوا ، بالأمس ، عليه لابن الزُّبير ، فيما يجافي قومه ولا تذكر لهم أياديهم في الدّفاع عن الخليفة . فما كان منه إلا أن دخل على عبد الملك فقال :

وكأْسٍ مِثْلِ عَينِ الديكِ صِرْفٍ ... تُنَسِّي الشَّارِبينَ لهَا العُقُولا
إذا شَرِبَ الفَتَى مِنْهَا ثَلاثاً ... بِغَيرِ المَاءِ حاوَل أَنْ يَطُولا

١ – م – ن ، ١٢٦ – ١٢٧
٢ – راجع ذكر هذه الأيام في نهاية شعر الأخطل من ص ٣٣٠ وما بعد

مشَى قُرشِيَّة ، لا رَيْبَ فيهـــــا وأَرْخى مِــنْ مــآزِرِهِ الفُضُــولا

فقال عبد الملك : « ما أخرج هذا منك يا أبا مالك إلا خطّة في رأسك ». فقال : أجل والله يا أمير المؤمنين ، حين تجْلس عدوّ الله هذا معك على السرير ، وهو القائل بالأمس :

وقد يَنْبُتُ العشْبُ على دِمَن الثَّــرى وتَبْقَي حزَازاتُ القُلوبِ كمــا هِيا

فقبض عبد الملك رجله ، ثمّ ضرب بها صدر زُفَر ، فقلّبَه عن السّرير ، وقال : أذهب الله حزازات تلك الصدور . فقال زُفَر : أنشدك الله يا أمير المؤمنين والعهد الذي أعطيتني ، فأمسك عنه عبد الملك[1] . وهذه الحادثة تطلعنا على مدى تأثيره على الخليفة ودالّته عليه واجترائه على أعدائه بين يدَيْه ، وقد لقي مرة الجَحّاف بن حكيم من زعماء قيس ففاخره بقوله[2] :

أَلا سائِلِ الجِحَاف هَــل هُو ثائِرٌ بِقَتْلى أُصِيْبتْ مِنْ سُلَيم وعــامِرِ
أَجَحافُ إن نَطْلُبْكَ يوماً ، فتصطدمْ علَيْكَ أَواذيُّ البُحــورِ الزواخِــرِ
تكُنْ مِثْل أَقــذاءِ الحُباب الذي جرى بهِ الماءُ ، أَوْ جاري الرّياح القواصِرِ

فتعبّس الجحّاف وقال : « ظنَنْتُ يا ابن النصرانيّة أنك لم تكن تجترىء عليّ ، ولقد رأيتني أسيراً لك » ثم وثب يجرُّ مطرفه مُغْضباً ، وألّب عليه قومه في يوم البشر الذي قَتَل فيه من التغلبيين مقتلة كبيرة ، قدّمنا ذكرها .

١ – الأغاني ، ٨ : ١٩٦ – ٢٩٧

٢ – الأغاني ، ١١ : ٥٦ – ٥٧

ومهما يكن ، فقد توثّقت الصّلة إثر ذلك كلّه بين عبد الملك والأخطل ، يجالسه ويمتدحه ويعظّم من شأنه ويذكّره بأيادي التغلبيّين ويسفر لهم في مجلسه .

وقد بلغ من إعجاب عبد الملك أن قال له إثر سماعه لرائيّته في مدحه : ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق ، أنك أشعر العرب ؟ كما اعترف به شاعراً لبني أميّة بقوله : إن لكلّ قوْم شاعراً والأخطل شاعر بني أمية .

ومع أنّ صلة الأخطل بعبد الملك أربت على خمس عشرة سنة ، فأن الدّيوان لا يثبت له فيه إلا ثلاث قصائد ، لعلّ أولاها الّتي مطلعها :

أَلا يا اَسْلَمي يا هِنْدُ بنت بني بدرِ   وإن كان حيانا عِدًى ، آخِرَ الدَّهْرِ[1]

ولقد نزع فيها ، إثر المقدّمة الغزليّة ، إلى هجاء القيسيّين ، شامتاً بهم لانقسامهم ومُقْذعاً في هجاء العجلانيّين منهم . ثم يعرّض بابن بدر في هربه منهم ويهجو العامريّين وبني سليم ويفخر بالعفو عن بني سلول ، كما يُظْهر حقده على بني ذبيان ، ثم يخاطب عبد الملك مشيداً بمآثر قومه في مناصرته وبقتلهم لعمير بن الحباب .

وهذه القصيدة تنتمي إلى الشعر السياسيّ أكثر من انتمائها إلى شعر المدح ، كما أنّه يستطرد فيها ، غالباً ، بمقطوعات وصفيّة ، عبر السّياق العام ، ممّا يوحي لنا بأن الأخطل كان لا يزال مأخوذاً بهموم قبيلته ووقائعها مع القيسيّين ، يمجّد بشعره بطولة قومه ويسخر من أعدائهم ويكاد لا يخصّ الخليفة بمدح إلا ليذكّره بعظم ما قدّمه له التغلبيّون . أما النّزعة الوصفيّة الّتي تتمطّى وتتطاول فيها ، فهي نزعة فنيّة عامة تنتظم شعره ، جميعاً ، وقد كان ينهك بها المعاني ، ويرهقها للغلو بها والتعظيم من وقعها . ونقع فيها كذلك على مقاطع هجائية يتفتّق فيها

١ – شعر الأخطل ، ١٢٨

الشّاعر بالصور المزرية التي يعزلها من الواقع الحسي ويثيرها بالانفعال. أما القصيدة الثانية، فرائية أخرى لعلّها أشهر قصائده وأكثرها طولاً ، يقول في مطلعها :

خَفَّ القَطينُ فراحوا مِنْكَ أَو بكروا   وأَزْعَجَتْهُم نوًى في صَرفها غِيَرُ ١

وفي هذه القصيدة يستهلّ الأخطل بذكر الرّحيل ووصف الخمرة والرّاحلين والظّعائن ، ثم يباشر المدح ، فيصف كرم الممدوح ويعرّض بالوشاة ويعرّج على مدح بني قريش ويفخر بمناصرة الأمويين ويهجو القيسيين وبني كليب قوم جرير . وقد مهّدنا لهذه القصيدة بدراسة وافية في مقدّمتها ، فلا مجال للتكرار وإنّما نكتفي بالإشارة إلى أن الأخطل أوفى فيها إلى ذروة فنّه الشعري في الأداء والمضمون وما إليهما .

أما القصيدة الثّالثة ، فمطلعها :

لَعَمْري لقَدْ أَسْرَيْتُ لا لَيْلَ عاجِزٍ   بِساهِمَةِ الخَدينِ طاوِيةِ القُربِ٢

وبعد أن يستهلّ بوصف النّاقة والقطا والمطايا ، يباشر المديح فيصف خيل الممدوح في القتال ويعظّمه من خلالها ، ثم يهجو القيسيّين وبني كليب . وهذه القصيدة تحفل بالمعاني الجليلة المحكمة اللّفظ والأداء ، وقد عرّج فيها على معظم أغراض المدح .

ولسنا نقع في هذه المدائح ، جميعاً ، على تلك الوجدانيّة السيالة التي تطالعنا في مدائح المتنبي لسيف الدولة ، بل إنّه ينهج فيها نهج القُدماء ، ينفح ذلك بمعاناته الخاصّة وانفعاله بالأحداث ويوقّعها وفقاً لفنّيته الذؤوبة ، الشديدة التثقيف ،

١ – م – ن ، ٩٨

٢ – م – ن ، ١٧

فترد صخَّابة ، متدافعة ، صقيلة ، ولكنّها تقتصر على العارض والطارىء من الأحداث ولا تنفذ منها إلى مبدأ عام في الوجود ، تتعدّل الأحداث وتتبدّل به . إلا أن الأخطل يلازم فيها همومه الكبرى ، يبوح بها ، ويعرّج عليها في كلّ حين ، ومعظمها هموم قبلية في هجائه للقيسيين أو شبه ذاتية في هجائه لبني كليب . فهذه القصائد تقع في باب المدح من حيث المبدأ والغاية الاولى ، ولكنّها تتوزع بين الهجاء والفخر والوصف بنسب متباينة كأنّها تصدر عن وحدة الهموم النّفسيّة وليس عن وحدة الموضوع المباشر .

أما سائر ما نظم الأخطل من قصائد في البيت المرواني ، فقد خصّ بها بشر بن مروان الذي ولاه أخوه على الكوفة ثم جمع له البصرة ، وكان بشر يميل إلى اللّهو دون أن يَنْتَقِصَ ذلك من هيبته وحزمه، وكان يطرب للغناء والشّراب ولا يتّقي بهما ، وكان ذوّاقة للشّعر ، عارفاً بتاريخه ، راوياً له ، وكان جواداً يُغْدق على الشّعراء ويؤويهم إليه ، فينتقد شعرهم ويقرن بينهم . وقد مدحه نُصَيْب وعبد الله الأسدي ، كما انتجع داره المثلّث الأموي ، وكان يطيب له أن يحضّ الشّعراء على معارضة بعضهم بعضاً ، وهو الذي أوقع بين الأخطل وجرير إذ طلب من الأول أن يحكم بينهما . ولعل بشراً أدرك أن إثارة الموضوعات الجديدة بين الشعراء ، تُذْكي قرائحهم وتُطلع منها الجديد والمُعْجب ، فأقبل على ذلك لاهياً .

ولعلّ بشراً آثر الأخطل بالعطاء على من دونه وأجزل له فيه ، فامتدحه بخمس قصائد جاليّة . ففي اليائيّة يستهلّ بذكر ما حلّ بديار القيسيين ويهجوهم ويهجو أسيادهم الزبيريّين ويمتدح بني أمية ، ويقول إنّهم هامة قريش ، عريقون في المُلْك ، حلماء ، فتّاكون بالأعداء ، ويعرِّج على امتداح بشر بكرمه ونحره للضّيوف وإيوائه للمُعوزين . وهذه القصيدة أحفل من سواها بالمعاني المباشرة إذ خاض فيها بالأيام والوقائع وهجاء القيسيّين وأزرى بهم لمناوأتهم لبني أميّة ولا يغفل عن الهزء بالزبيريّين ، فكأنّه كان يمتدح بشراً بمثل ما يمتدح به أخاه عبد الملك ، او كأنّه يمتدح فيه أخاه من خلاله . وإذ يخصّه بالمدح ، فإنّه ينمي

إليه المعاني المدحيّة العامة كالكرم والهرع للضّيف والنّحر له . ولعلّه لا غلوَّ في القول بأن مدائح الأخطل في بشر ، قلّما تتباين نفسيّاً وفنيّاً عن مدائحه في عبد الملك ، وان كانت الأخيرة أكثر احتشاداً .

وفي القصيدة الثانية التي يمتدحه بها يُعَرّج على استطرادات في الغزل والتشبيب والفخر ووصف الفلوات والحمار الوحشيّ وأتنه ، إلا أن المعاني التي يُنْميها لبشر عبرها تبدو أكثر جلاء واختصاصاً إذ ينوّه بقتاله للخوارج والأعاجم ، فيما تتّصف سائر المعاني بالصفة المبذولة العامة . والقصيدة الثالثة لا تعدو هذه المقدّمات الاستطرادية مع التفات خاص لمدح القرشيّين ويكاد لا يخصّ بشراً إلا بأبيات قليلة يظهر فيها تشفّعه واعتصامه به . وفي القصيدة الرّابعة يذكر الدّيار والأحبة ويصف المطايا وهلاكها في ارتحالها إليه ثمّ يمتدحه بكرمه وإيوائه للضّعيف وقيادته للخَيل ، كما أنّه يستطرد إلى هجاء جرير وامتداح الفرزدق . أما القصيدة الخامسة ، فقد نظم معظمها في هجاء أعدائه ومعاتبتهم والتفاخر ببني قومه ولا يمتدح بني أميّة وبشراً إلا في أبيات قليلة ينهي بها القصيدة .

ويخيَّل إلينا عبر ذلك كلّه أن الأحداث السياسيّة والاستطرادات الوجدانيّة والوصفيّة غلبت على مدائح الأخطل ، فيما تضاءلت من دونها صورة بشر الذي كان يأنس به ويطرب إليه دون ان تحيطه منه هالة الإعجاب الكبير التي كانت تحيط بأخيه عبد الملك والتي كان يصوغ للتعبير عنها الأجواء الملحمية الحاشدة كما نرى في قصيدة خفَّ القَطين [1] .

١ – فيما يلي نبذل مطالع هذه القصائد :

أقفرت البلخ من عيلان فالرحـــب	فالمحلبيات فالخابور فالشعب . شعر الأخطل : ٣٨
صحا القلب عن أروى وأقصر باطله	وعاد له من حب أروى أخابله م – ن ، ٥٨
قد كشف الحلم عني الجهل فانقشعت	عني الصبابة ، لا نكس ولا ورع م – ن ، ٦٨
عفا الجو من سلمى ، فبادت رسومها	فذات الصفا صحراؤها فقصيمها م – ن ، ١٢٠
عفا من آل فاطمـــة الدخـــول	فحزان الصريـــة فالهجـول م – ن ، ١٢٤

وللأخطل مدائح في خالد بن أسيد الذي يمتّ بقرابة للبيت المرواني [1] . وقد ولاّه عبد الملك على البصرة . وكان خالد شجاعاً ، جواداً ، ذوّاقة للشّعر كمعظم الأمويين ، كما أنّه كان يجالس الشّعراء والمغنّين ويغدق عليها النّعم الكثيرة . وله قصيدة في مدح عبد الله بن سعيد بن العاص [2] كما مدح ابني عبد العزيز بن مروان [3] . وله في الوليد بن عبد الملك خمس قصائد تبدّلت فيها نبرة العنجهية والكبر ، فيما غلب عليها اللّين والتعطّف . ففي الداليّة التي مطلعها :

وَحاجِلَةِ العُيونِ طَوى قُواها شِهابُ الصَّيْفِ والسِّفر الطَّويلُ [4]

نراه يستجدي الخليفة لرفع الغرامات والجزى عن بني قومه في أبيات قليلة شديدة الضراعة . أما في القصيدة التي مطلعها :

حيٍّ المنَازِلَ بَينَ السَّفْحِ والهُضُبِ لم يبق غَيْرُ وشوم النَّار والحَطبِ [5]

فإن الشّاعر يمتدح الوليد من خلال بني أمية ذوي الحلم والشّجاعة والأصالة القرشية في نحو خمسة أبيات ، فيما خصّ ستة وأربعين بيتاً لذكر الدّيار ووصف السّحاب والصّواحب والمطايا والهاجرة والحادي والذئب ، حتى ينتهي إلى موضوع المدح . أما القصيدة الثالثة التي مطلعها :

١ – م – ن ، ١٢

٢ – م – ن ، ٥٢

٣ – م – ن ، ١٧٧

٤ – م – ن ، ٢٣٢

٥ – م – ن ، ١٨٢

عَفَا مِمن عَهِدْتُ بِهِ حفيرُ فأَجبالُ السَّيالى فالعوِير[1]

فهي أكثر تخصّصاً بالمدح ، إذ اقتصرت المقدّمة على اثني عشر بيتاً ، فيما أقبل على المدح في نحوستة وثلاثين بيتاً ، خاطب فيها الأمويين وعظّمهم ونوّه بمناصرتهم له وهدايتهم للنّاس ، كما مدح بني عبس أخوال الوليد . وفي القصيدة الرابعة التي مطلعها :

عَفَا واسِطٌ مِنْ أَهلِهِ فَمَذَانِبُه فروضُ القطا : صحراوه فنصائبُهُ[2]

يذكر أعداءه القيسيّين ويفاخرهم ويهجو خصمه جريراً ويتندّم على الصّبا ويتخلّص إلى مدح الوليد بفضله وكرمه ونجابة أصل والدته وبُعْد همّته وإكرامه كما يشيد بفتوحه وانتصاراته . أما القصيدة الخامسة فلا تعدو ثلاثين بيتاً امتدح الوليد وبني أمية في معظمها ، بعد ذكر الدّيار والأحبّة ووصف الهاجرة . وقد استهلها بقوله :

أَتعرفُ الدار أَم عرْفانَ مَنْزِلَةٍ لم يبقَ غيرُ مناخِ القِدْرِ والحُممِ[3]

١ – م – ن ، ٢٠٢

٢ – م – ن ، ٢١٦

٣ – م – ن ، ٢٦٤

الباب السادس

الأخطل وجرير والفرزدق

سمع الأخطل عن تهاجي جرير والفرزدق في العراق ، قبل أن يتعرّف إليهما . وأحبَّ أن يعرف أخبارهما ، فبعث أبنه مالكاً ، حيث سمع منهما ، ثم رجع إليه ، فقال فيهما : وَجَدْتُ جريراً يغرف من بحر ووجدت الفرزدق يَنْحت من صخر . فقال الأخطل: الذي يَنْحتُ من صخر أشعرهما[1] . والواقع أن هذا الخبر قد ورد بحيث ان الذي حكم على شعريهما كان الأخطل وليس ابنه . وقد يكون الأخطل نقل قول ابنه ، حين سأله بشر بن مروان رأيه في زميلَيْه . والمهم فيه أن الأخطل أقرّه ، ووافق عليه ، ومن ثم كان سبباً في التهاجي بينه وبين جرير .

وهناك رواية ثانية تقول إن الأخطل كان البادىء بالهجاء بناء على طلب محمد إبن عمير بن عطارد [2] . وهذا الخبر ينفي كون حكم الأخطل على شعري الفرزدق وجرير كان السبب المباشر في التهاجي الذي جرى بينه وبين جرير ، فيما بعد . ويقول صاحب هذه الرواية إن بداية الهجاء كانت أبيات للأخطل هي :

أَجَريرُ إنَّكَ والذي تَسْمُو لَهُ   كأَسيفَةٍ فَخَرَتْ بِحِدْجِ حَصانِ

عُمِلَتْ لِرَبتِها ، فلما عولِيَتْ   نسلَتْ تُعَارضُها معَ الرُّكبانِ.

أَتَعُدُّ مأْثُرَةً لغَيْرِك فَخْرُها   وَثَنَاؤها في سالفِ الأَزْمانِ

تاجُ المُلوكِ وفَخْرُهُم في دارِمٍ   أَيّام يُرْبُوعُ معَ الرعيانِ

١ – الأغاني ، ١١ : ٦١ . طبقات الشعراء ، ١٥٨ . البيان والتبيين ٢ : ٢٧٣

٢ – طبقات الشعراء ، ١٥٩

وبعدها استفحل الهجاء بينهما ، وذاع حتى ملأ الأسماع . ويظهر أن شعر جرير كان أسْيَرَ بين العرب من شعر الأخطل والفرزدق ، كما نرى في مثل قول الأخطل مخاطباً الفرزدق : والله إنّك وإيّاي لأشعر منه ، ولكنّه أُوتي من سيّر الشّعر ما لم نُؤتَه [1] ، قلت أنا بيتاً ، ما أعلم أنّ أحداً قال أهْجى منه .

قلت :

قَوْمٌ إذا اسْتَنْبَح الأَضْيافُ كلْبَهُمُ قالوا لأُمِهِم بولي عَلى النَّارِ

فلم يروِه إلا حُكماء الشعر . وقال هو :

والتَّغْلَبي إذا تَنَحْنَح للقِرى حكَّ استَه وتَمَثَّل الأَمْثالا

فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا ردّدوه [2] . غير أن جريراً لم يعترف بتفوق الأخطل عليه بسوى قصيدته :

كَذَبَتْكَ عيْنُك أَمْ رأَيْتَ بِواسِطٍ غَلَسَ الظَّلامِ مِنَ الرَّبابِ خيَالا

فقال : ما غلبني الأخطل إلا في هذه القصيدة [3] .

وكون جرير طرفاً في الصراع بينه وبين الأخطل من جهة ، وبينه وبين الفرزدق من جهة ثانية ، جعل هذين الأخيرين يتقاربان بعض الشيء ، فجرير عدوُّهما المشترك في الشعر ، ثم إن له لساناً بذيئاً لا يصمد له به أي شاعر آخر حتى إن بعض معاصريه حذَّروا الأخطل من التعرّض له [4] .

١ – الموشح ، ١٤٠ – ١٤١
٢ – الأغاني ، ٨ : ٣١٧ – ٣١٨
٣ – شرح شواهد المغني ، ٥٣ –
٤ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٩

الباب السابع

النقد الذي ثار حوله

كان همُّ النقاد في الحكم على الأخطل أن يقرنوه بالفرزدق وجرير ، وقد شهد هؤلاء بكونهم في مرتبة واحدة ، رغم تفاوتهم في الجودة واختصاص كلٍّ منهم بموضوع معيّن ، أو باب اشتهر به دون سواه . ويظهر أن جريراً نفسه كان يُعْنى بالتصنيف إذ حكم لنفسه بالقول إنّه مدينة الشعر ، وعلى الفرزدق بأنّه يروم منه ما لا ينال . أما ابن النصرانية (أي الأخطل) فهو أرمى الجميع للفرائس وأمدحهم للملوك وأقلهم اجتزاء بالقليل وأوصفهم للخمر[1] .

ويظهر أن جريراً كان أكثر ما يضايقه هجاء الأخطل له ، وربّما كان هذا سبباً في اتّهامه بانتحال الشعر ، إذ قال حين سئل عنه : « إنّه والله ما يهجوني الأخطل وحده ، وإنّه ليهجوني معه خمسون شاعراً ، كلّهم غزير ، ليس بدون الأخطل . وذلك أنّه إذا أراد هجائي جمعهم على شراب ، فيقول هذا بيتاً وهذا بيتاً ، حتى يُتمّوا القصيدة وينتحلها الأخطل » . وقيل بل الذين اتّهم الأخطل هذا الاتّهام هو بشار بن برد الذي جعله دون جرير والفرزدق [2] . ولا أدري سبباً لهذا الاتّهام ، إذ ان ديوان الأخطل يكوّن وحدة مستمدّة من بيئة الأخطل وأفكاره ونزعاته التي دُرِسَتْ على ضوء الأخبار التاريخيّة المروية ، ولم يأت أحد غير بشار أو جرير على مثل هذا الاتّهام . وهناك آراء أخرى في شعر الأخطل ، وهي رغم كونها عامة تعطينا فكرة عن المنزلة التي وضعوه فيها . فابن سلاّم جعله مع الفرزدق وجرير في طبقة واحدة هي الأولى بين الإسلاميين . وقال إنّه لم يقع إجماع على تفضيل أحدهم [3] غير أن هناك من فضل الأخطل لكثرة عدد الطوال الجياد ، دون سقط

١ – شرح شواهد المغني ، ٤٦ –
٢ – الموشح ، ١٤٠ – ١٤١ و ١٣٨ – ١٣٩
٣ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٢

أو فحش[1]،كما أن هناك من فضله لكثافة شعره، فكان سكمة بن عياش يقول : ومن مثل الأخطل وله في كل بيت شعر بيتان ؟ ثم ينشد قوله :

ولقد علمْتِ إذا العِشارُ تـــــروَّحَتْ   هدجَ الرّئالِ تكبُّهُــنَّ شِمـــــالا
أَنَّا نُعَجِّــل بالعَبِيــطِ لضَيْفِنـــــا   قَبل العِيــالِ ونَضرِبُ الأَبطــالا [2]

وجعله الفرزدق أمدح العرب [3] كما قال عنه أبو عمرو : لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ، ما قدمت عليه أحداً ، وقال عنه حمّاد الراوية : ما تسألوني عن رجل قد حبب إلي النصرانيّة [4] ، وقد شبهه أبو عبيدة بشعراء الجاهلية ، وجعله أشدهم أسراً وأقلّهم سقطاً [5] وشبهه بالنّابغة لقرب مأخذهما وسهولتهما [6] .

وللأخطل نفسه رأي في شعره ، فقد كان يقول : فضلت الشعراء في المديح والهجاء والنسيب بما لا يلحق بي فيه ، فأما النسيب فقولي :

ألا يا اسلمــي يا هندُ هندَ بني بدرِ   وإن كان حيانا عدًى آخرَ الدَّهرِ

وقولي في المديح :

نَفْسي فـــداءُ أَميرِ المؤمنيينَ إذا   أَبدى النَّواجذَ يَــوْمٌ عــارِمٌ ذكرُ

وقولي في الهجاء :

---

١ – المصدر نفسه ، ٨ : ٢٨٣
٢ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٤
٣ – الأغاني ، ٨ : ٢٨٤
٤ – م – ن ، ٨ : ٢٨٦
٥ – م – ن ، ٨ : ٢٨٩
٦ – م – ن ، ٨ : ٢٨٩

وكنتُ إذا لقيتُ عبيــــد تَيْــمٍ   وتيماً قلتُ أَيُّهُــمُ العبيــــدُ

وقيل على أثر قوله هذا : صدق ، لقد فضلهم جميعاً [1] .

وقد وضع نفسه في منزلة دون الأعشى وطرفة بن العبد ، حين قال مجيباً عبد الملك بن مروان عن سؤاله عن أشعر الناس : الذي كان إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، فقال الخليفة : من هو ؟ قال : الأعشى . وسأله : ثم من ؟ قال : ابن العشرين .

* * *

---

١ – م – ن ، ٨ : ٢٩٢

الفصل الثاني

مدائحه

الباب الأول : بواعثها وتطورها

الباب الثاني : مدائحه في يزيد

الباب الثالث : مدائحه في سائر الأمويين وولاتهم

الباب الرابع : مدائحه في عبد الملك بن مروان

الباب الخامس : مدائحه في بشر بن مروان

الباب السادس : مدائحه في خالد بن أسيد

الباب السابع : مدائحه في الوليد بن عبد الملك

الباب الثامن : المعاني المدحية العامة

الباب الاول

بواعثها وتطوراتها

للمدح في شعر الأخطل بواعثُ مُتَعدِّدة ، لعلَّ أهمَّها تواقعه مع الأحداث والأشخاص في سيرته ، فضلاً عن طمعه بقليل أو كثير من الحظوة والنِّعمة.وقد أفاد في ذلك من التقليد الشعري ومن واقع الحياة السياسيَّة في عصره . ففي مستهلِّ عهده بالشعر شهر بالهجاء،وربَّما تخصَّص به وأقذع فيه ، ثم استدعاه يزيد فجعل الهجاء والمدح يسيران ، جنباً إلى جنب ، في معظم قصائده ، ثم يتطعمَّان بشيءٍ من الفخر والعنجهيّة . وهكذا فان الأحداث ساقته اليه في البدء ، ثم تفرَّغ له إذ نال به خيراً كثيراً لنفسه ولقومه . وربَّما طبع الأخطل ذاته بطبع المراغمة وعلى النّزعة الملحميَّة ،فعكس ذلك كلّه في مدائحه ، فابدع فيها لأنَّه كان يَسْكب من ذاته . فلو أنه طبع على مثل رقة جرير ، لكان جلّى في الغزل ، ولو أخذ بمثل كبرياء الفرزدق الفارغة ، الخاوية لكان انفق جهده في مفاخر لا طائل انسانيّاً من دونها . إلا ان الأخطل كان يحمل رسالة وينهد إلى غاية يتنازع فيها مصيره ومصير بني قومه ، فكانت السياسة هدفه يتوسَّل لها الشعر ليقوم مَقَامَ السَّيْف أو إلى جَنْبه . لهذا كان يُوَقِّع المعاني وينتظمها ويَحْشدها ليلج منها على روع الممدوح ، يؤثر فيه ويبلغ غايته منه فالباعث الأهم لمدحه ، كانت النزعة الالتزاميَّة القبليَّة ، تتضافر معها بواعث أخرى تقوِّيها ولا تبلغ مداها .

ولقد تطورَّت مدائح الأخطل وفقاً لممدوحيه في البدء ، ثم بالنّسبة إلى نُضْجه الفنيّ وامتلاكه لناصية اللّغة والعبارة والمعنى وتمرُّسه بابداع المعاني الجزلة الحاشدة . وسوف نلمُّ بذلك من خلال مدائحه في ممدوحيه .

الباب الثاني

مدائحه في يزيد

امتدح الأخطل يزيد في قصائد ومقطوعات متعدّدة ، كما قدّمنا ، ولعلّ أولاها النّونيّة جيث يُخاطبه ويعرض له مخاوفه والدّواهي التي تحلّ بد من جرّاء لسانه أي من جراء أهاجيه . وهو يشير بذلك إلى ما كان من أمره مع الأنصار وتهديدهم له ومجاراة معاوية لهم في ذلك . ولقد عرّج خلالها على وصف القطا وسباق الخيل ، فضلاً عن الموضوعـــات التقليديّة الدائمة التي لا يزال يلمُّ بها في معظم مدائحه من وصف للمطيّة وتشبيه لها بالحمار الوحشيّ الذي يُزْجي أُتنه إلى الماء .

استهل الأخطل هذه القصيدة بذكر الطّلل ودَنَف الحبّ وتتيّمه بصاحبته سعاد التي قد يَشْفيه ريقها من أيّ داء مُميت يلمُّ به ، ثمّ يذكر برّة ، وهي إحدى التّغلبيّات الجميلات التي نزل عليها عند زوجها القميء القبيح ، وقد وَقَعَتْ من نفسه موقع الفِتْنة ، فيهجو زوجها الذي يواقعها ، فيُلقي بطنه المُنَتّن الكريه على بطنها الطري ، الدائم الخَفَقان . ثم يذكر استحالة لقائها عليه ، إذ يحول الحرّاس بينه وبينها ، ويميل إلى ذكر نساء أخريات لا يزال حبّهن يبعث فيه الضّنى . وينزع من ثمة إلى وصف ما لقيَه من غراب وذئب اعترضا له في الدويّة القاحلة،حيث جعل يطعمهما من زاده، فيتنافسان عليه . ثم يقول إنّه امتطى مطيّته للرّحيل عنهما ، مستطرداً إلى وصف النّاقة وذَنَبها والعرَق المُتَصَبّب من وراء أُذُنيها ويشبّهها بالحمار الوحشي الذي كان يرتعي وأُتْنَه ، حتى إذا أزعجه القَيْظ الشّديد عن مقامه ، أزْجى أُتْنَه إلى الماء ، وجعل يزجرُها ويسوقها أمامه ، مثيرةً التُّراب بأقدامها ، يطعنها بقَرْنيه ، فيما ترتدُّ هواديها إليه لتطعنَه في عنقُه .

وينقطع من ثمّة إلى مخاطبة يزيد ، شاكياً إليه ما يَلْقى من اضطهاد من جراء أهاجيه ، عازماً على التواري ، كي لا يُزجَّ به في السّجن ، مُتعذّراً بشدّة القائظة التي تحول بينه وبين الوفود على الأمير . وبعد أن يصف القطا وتعذُّر الماء عليها

وفراخها ، يصف سباقاً أجراه يزيد بين الخيل ، فجاءت فرسه الدّهماء مجلّية فيه ، متعرّضاً خلاله لجزئيات المَشْهد ، ممثّلاً لسرعة الفرس من خلال أعاصير الرّيح التي تعصف بثياب الفارس الذي يمتطيها :

أَلا يا اسلما على التَّقَادُمِ والبِلى بِدَوْمَةِ خَبْتٍ ، أيها الطَّلَلانِ[1]
فَلَو كُنْتُ مُحْصُوباً بدَوْمَةَ ، مُدنَفاً أُسَقَّى بريقٍ مِنْ سُعادَ شَفَاني[2]
وَكَيف يُداويني الطَّبِيبُ مِن الجوى وبرَّةُ عِنْدَ الأَعْورِ بنِ بيانِ[3]
أَتَجعلُ بطْناً مُنْتِنَ الريحِ ، مُقْفِراً على بطْنِ خَودٍ دائِمِ الخَفَقَانِ[4]

ثم يذكر الغراب والذّئب بقوله :

١ ــ دَوْمَة خَبْت : اسم موضع .
م : يخاطب طللَي حبيبته في موضع خَبْت ويحيّيهما ويتمنى لهما النّجاة من الزّوال والاندثار .
٢ ــ المَحْصوب : من أصيب بداء الحصبة . المدْنف : من أثقله المرض .
م : يقول إنّه لو كان مصاباً بالدّاء ، ومشرفاً على الهلاك ، فإنّه يستعيد عافيته ، إذا ما نَهَل وعلّ من ريق صاحبته سعاد .
٣ ــ الجَوَى : السّقم .
م : يشير في هذا البيت إلى ما كان من أمره مع الأعور بن بيان التغلبيّ الذي تزوج امرأة جميلة تدعى برّة ، وهي ابنة هانئ التَغْلبيّ . وقيل إن الأعور بن بيان هذا دعا الأخطل إلى بيته الذي نُجِّد بالفُرُش الثّمينة والوِطاء العجيب ، وكان هذا في غاية القُبح . فسأل الأخطل : هل ترى عيباً في بيتي ؟ فأجاب : ما أرى عيباً في بيتك غيرك . فقال : إنّي أعجب من نفسي ، إذا كنت أدخل مثلك بيتي . اخرج عليك لعنةُ الله .
٤ ــ الخود : الشّابه .
م : يخاطبه مُستَنكراً ، ويقول : أيصحُّ أن تضع بطنَك ذا الرِّيح الكريهة على بطنها الفتيّ ؟

خَليليَّ لَيْسَ الرَّأْيُ أَن تَـــذَراني   بدوِّيةٍ يَعْـوي بهَـا الصَّدَيَـانِ[1]
وَأَرقني مِن بَعْـدِ ما نِمْتُ نَوْمَـةً   وعَضْبٌ جَلَتْ عنه السُّيوفُ ، يمَاني[2]
تَصَاحُبُ ضيفي قفرةٍ يَعْرِفانِهـا   غُرابٍ وذئبٍ دَائِـمِ العَسلانِ[3]

ويُعَرِّج على المطيَّة والسّفر :

ولَمَّا رَأَيْتُ الأَرض فيهَـا تَضَايُقُ   رَكِبْـتُ عـلى هـوْلٍ لِغَيرِ أَوَانِ
جمَالِيَّةً ، غُولَ النَّجاءِ ، كَأَنَّهَـا   بنيـةُ عَقْرٍ أَوْ قَرِيـعُ هِجَـانِ

والموضوعات التي عرض لها ، حتَّى الآن ، هي موضوعات تقليديَّة ألمح فيها إلى ذكر الطَّلل وأغرق في موضوع الحبيبة ، مظهراً شغفاً خاصاً بالجمال ، متحسِّراً على مصيره وعلى هوانه وتَبَذُّله فيمن ليس هو حقيقاً به . وقد كان تعريجه إلى ذكر الدُّوِّيَة وما كان بينه وبين الغراب والثعلب استجابة لنوازع وجدانيَّة لمَّا تَزُل من نَفسه ، إذ كان يؤثر البادية ويحنُّ إليها ، وهو إذ يذكرها ويصف طيرها وحيوانها ، إنّما كان يستحضر مشاهد مفعمة بالحنين المكتوم . ففي مطلع عهده بالمدح ، لَمْ تَكُنْ المَعَاني المدحيَّة قد اكتنزت لديه ، بل إنه كان لا يزال يهوِّم في أجواء نائية عن الحاضرة الأمويَّة . فليس من الصدفة أو التّقليد أن يلمّ بالبادية

١ ـ الدَّوِّيّة : الفَلاة الخالية التي تدوّي فيها الأصداء . الصَّدَيان : صدى الهام والبوم .
م : يخاطب صاحبَيْه ، ويقول : إنّه ليس من الحكمة أن تخلّفاني وحيداً في الفلاة المقفرة التي تدوّي فيها أصداء الهامات والبوم .
٢ ـ العَضْب : السيف القاطع . والتأويل هنا : معي سيف . العسَلان : عَدْو الذِّئب .
م : يقول إنّه لم يكد ينام ، والسيف اليماني الصقيل إلى جَنبه ، حتى أرّقه غراب وذئب ، ألفا القَفْر وأقاما فيه .
٣ ـ يقول إنّهما إذا دَنَوا إلى زادي ، كنت أؤدّي لهما منه ، وإذا ما ابتعدا ، لم أرغب في إدنائهما إلي ، أي أنّه كان يقف منهما موقف اللاّمبالاة ، يبادرهما بمثل ما يبادرانه به .

والغُراب والذِّئب ، بل ان تلك الموضوعات هي التي المَّت به لأنها رجع وصدى للحنين القاتم الأصم . وإذا كان ذكرُ المطايا والحاً في تَقليد القصيدة المدحيَّة ، وإذا كان تشبيهها بالحمار الوحشي جارياً في سنّتها ومتنها ، فان ذكر القطا لم يلج في ذلك ، وقد اختص به الأخطل في نوع من التجربة الكليَّة ، النَّامية التي تستقطب معالم الصّحراء ، وتفرح باستعادة أجوائها من خلال ما يدبُّ فيها ويطير عبرها :

لَيَالي لا يُجْذي القطـــا لِفَراخِـه ... بذي أَبْهَرٍ ماءً ، ولا بجفـــــان[1]

يُقَلِّص عَنْ زُغْبٍ صِغَارٍ كأنَّهـــا ، ... إذا دَرَجتْ تَحْتَ الظِّلالِ ، أفـاني[2]

كَأَنَّ بقـايا المُحِّ مِنْ حَيثُ دَرَّجت ... مفرَّك حصٍّ في مبيت قيـــانِ[3]

إلى كل قَيْضٍ من ضئيل ، كأنَّما ... تفلَّق في أفحوصه صَدفــــانِ[4]

---

١ ـ يُجذي : يحمل . القطا : طائر شهر بشدّة الاهتداء . ذي أبهر وحفان : موضعان .

م : هذا البيت يبدو منقطعَ الصّلة بما تقدّمه ، إلا أنّه يتمثّل فيه على شدّة الهاجرة والمشقّة ، ويقول إنّ الماء قد جفّ ونضب في ذينك المَوْضعين ، بحيث أن القطا ، وهي أشد الطيور اهتداء ، تضل عنه وتكاد لا تعثر منه على شيء لزواله وتعفّي أثره .

٢ ـ يُقلّص : أي يقصّر ويتباعد . الأفاني : جمع فنية وهي بقلة تكون على وجه الأرض طولها شبر .

م : يقول إن تلك القَطا كانت تقصّر عن جلب الماء لفراخها ، فتبتعد عنها طلباً له وتخلّفها وحيدة تدرج على الأرض ، فتبدو فيها لقصرها وهزالها كالأفاني .

٣ ـ المُحّ : صفار البَيض . الحُصّ : الوَرْس الأصفر .

م : يشبّه المُحّ الأصفر اللاصق على قشر البيض الذي تفرَّخت منه ، بالورس المفرّك المنتشر في بيت القِيان .

٤ ـ القَيض : البَيض . الضَّئيل : النّحيف . الأفحوص : موضع بيض القطا .

م : يشبّه خروج الفراخ من بَيْضها في أفحوصها بمثل انشقاقها من قلب الصَّدف .

هذه الأبْياتُ تعترض في سياق القصيدة كأداة لتمثيل عظم الهاجرة في سياق حسّي لا يزال يتعاظم في شعر الأخطل، يوغل فيه ويستقطبه ويؤدّيه في أقصى غايته بنوع من الكناية المتمادية ، الممتدّة في المادّة ومظاهرها . فالأموي كالجاهلي لم يكن قادراً على النفاذ المباشر إلى روحِ المعنى في رمز قاطب يرمز اليه ، فاستعاض عن ذلك بالتمادي في دراسة الواقع الحسّي واستحضاره في إطار من الغلوّ النفسيّ الايحائي . فأنت لو نظرت في هذا الأبيات لما وَقَعْتَ على ما يُمَاثِلُها في القدرة على الايحاء بالجفاف في إطاره الحسّي الواقعي .

ومع ذلك فان ذكر القطا ، إذا أضيف اليه ذكر الصحراء والمطيّة والحمار الوحشي ، يُطلعنا على أن عالم الأخطل عندما ألمّ بيزيد لم يكن عالم أفكار بقدر ما كان عالم أوصاف ومشاهد . وهذه القصيدة التي تقع في أربعين بيتاً تناولت موضوعات مُتَعدّدة ، تجتمع في لوحة الصّحراء والبادية ولم يَخْطر فيها بالمدح ويخصّه إلا في أبياتٍ ثلاثة إذ قال :

فلولا يزيدُ ابن الإمام أَصَابَني ... قَوَارِعُ يَجْنِيهَا عَلَيَّ لِسَانِي [1]
وَلَمْ يأْتني في الصّحف إلا نذيركم ... ولو شئتم أَرْسَلْتُمُ بأَمَانِ [2]
فَأَقْسَمْتُ لا آتي نصيبين ، طائعاً ... ولا السجن حتي يَمْضي الحَرَمانِ [3]

١ ــ القَوارع : جمع القارعة ، وهي الدّاهية .
م : يمتدح يزيد ويقول إنّه لولا حمايتُه له ، لكان جرّ عليه لسانُه ، أي شعره ، دواهي لا طاقةَ له بدَفْعِها .

٢ ــ يقول إنّه لم يبلُغْه من رسائله ، إلاّ التهْديد والنُذُر ، فيما كان يأمل أن يُنْفذ إليه بها الأمان والعهد .

٣ ــ آليت : أقسَمت . نَصيبين : بلدة في الشّام .
م : يقول إنّه أقْسم ألا يعود إلى نصيبين ، ليسجنَ فيها بما اقترفَه ، إلا بعد أن يمضي الحرَمان . والشاعر يشير هنا إلى ما كان من أمره مع الأنصار والتهديد بسجنه وقطع لسانه .

وليس في هذه الأبيات مدح حاشد ، ظاهر ، وإنّما هو ضربٌ من الاعتراف بالفضل مع قليلٍ أو كثير من التّأنيب أو العتاب وذكر الخوف والعقاب والسّجن . فالأخطل لم يتمرّس هنا بالفنّ الصّعب في المدح ، وإنما هي قصيدة أقلّها في المدح ، وان انتسبت إليه ومعظمها في الوصف الذي انتمت إليه بالباعث الذّاتي الوُجْدانيّ . ولشدّة شغف الشّاعر بالخيل والسّباق وما إلى ذلك إذ يسْهب في وصف سباق أجراه يزيد ، مسجلا دقائقه وجزئياته :

أتاني وأهلي بالأزاغبِ أنَّـــه   تتابع من آل الصَّريح ثمـــاني[1]

جُمِعْنَ ، فَخَصَّ اللهُ بالسَّبق أَهْلَه   على حينه ، من مَحْفِلٍ ورهـــانِ[2]

فلمَّا علون الأرض شرقيَّ مَعتِـــقٍ   ضَرَحنَ الحصى الحمصيَّ كل مكانِ[3]

وَلَمَّا ذَرعْنَ الأَرْض تِسعينَ غَلْـوَةً   تَمَطَّرَتِ الـدَّهمـاءُ بالصَّلَتـانِ[4]

كأنَّهما لما استَحما ، وأَشْرَفـــا   سَليبانِ مِـن ثَوْبَيْهِمـــا صَرِدانِ[5]

---

١ ــ ٢ ــ يقول : لقد بلغني وأنا في موضع الأزاغب أنه جرى سباق بين خيل أصيلة من أبناء الصريح وان خيلك قد فازت على مرأى من الناس .

٣ ــ مُعْتق : اسم موضع . ضرَحن الحصى : أي رمينه وألقَيْنه .

م : يصف عدو تلك الخَيْل ، ويقول إنّها لم تكد تعلو الأرض في موضع معتق ، حتى جعلت تقذف الحصى وتذريها إلى كلّ جهة . وهو يمثل بذلك شدّة عدوها ، بحيث أن الحصى جعل يتطاير من دونها .

٤ ــ الغَلْوة : رمية سَهْم . التَمَطّر : السّبق . الصّلّتان : النّشيط ، الحديد الفؤاد من الخيل ، وهنا اسم فرس . الدّهماء : اسم فرس .

م : يقول إن تلك الخَيْل لم تكد تعدو تسعين غَلْوة ، حتى تَخَطّت الدهماء الصّلّتان الذي كان ينافسُها .

٥ ــ استَحَمّا : أي نضح عرقهما فجلّلهما . صَرِدان : أصابهما البرْد .

م : يصف العرق الذي نضح من الفرَسين ، أثناء عدوهما ، ويقول إنّهما بدّيا كأنّهما استحمّا به ، وظلا عاريَيْن ، يصيبهما البرد الشّديد . ومؤدى المعنى أنّه يقرن بينهما وبين المُستَحم العاري من الناس الذي أصابه البرد .

كَـأَنَّ ثِياب البربري تُطيرُهـــا   أَعاصيرُ ريــحٍ زَفْرَفٍ زَفَيــانِ[1]
ولَـمَّا نـأَى الغاياتُ جَـدًّا كِلاهُما   فَلا وِرْد ، إلاَّ دُونَ ما يرِدانِ[2]

٢ ـ الرائية :

ولقد نظم الشاعر ، أيضاً ، رائيَّـــة في مدح يزيد بن معاوية ، عندما منعه وحماه من الأنصار ، بعد أن أباح لهم والدهُ قطع لسانه . ولقد خصَّ مطلعها بذكر الدّيار والأحبّة والظّعائن والحنين ، ثمّ عرض للفلاة الّتي اجتازها على ناقة ضَخْمة ، صلبة كبرج الروميّ . ثم يشبهها بالثّور الوحشيّ المُتخَضّب بالنّبات والذي ينهمر عليه المطر ، فيلوذ بكنف الأرْطاة ، ساهداً مُضْطرباً ، حتّى إذا طالعه الصّباح فأجاتْه كلاب الصّيد . وبعد أن يذكر تواقعه معها وارْتداده عليها وطعنه لها بقَرْنيه ونجاته منها ، وعودته إلى الدّهو والعدو في الفلاة ، ينتقل إلى الخمرة ، فيصف النّديم والبكور والكَرْمة الّتي اعتُصِرَتْ من عنبها ودنّها وقومها وبكارتها وصاحبها ومساومته في شرائها وطبخها .

ويشرع بعد هذه المقدّمة بمدح يزيد ، مستهلاً بقَسَم يتداوله في نحو أربعة أبيات ليؤكّد حماية القُرَشيّين له وانقاذه من الهلاك ، فيما تخاذل عنه مناصروه ثم يمتدحهم بهداية النّاس وبسالتهم في الحرب وانقطاعهم عن نسائهم لها . وقد استهلّها بقوله :

١ ـ البربري : راكب الفرس . الأعاصير : الرّياح الشّديدة . الزّفْزَف : الباردة . الزَّفيان : الريح الّتي تطرد السّحاب بسرعة .
م : يصور سرعة عدو الفرس من خلال ثياب راكبها ، ويقول إن الريح الشّديدة ، العاصفة الشّبيهة بالأعاصير كانتْ تضرب بها . ولقد ألبّ الشاعر للرّيح مختلف وسائل الغلوّ ، إذ لم يكتف بجعلها إعصاراً أي ريحاً عاتية ، بل إنّه أدّاها بصيغة الجمع ثم نعتها بنعتَين شديدي الدّلالة على قوّة عصفها ، وهو إنّما ذلك كلّه ليعظم من سرعة الفرس وليعظم من خلالها يزيد .
٢ ـ يقول إن الفرسَيْن كانا يعدوان دون غايتهما البعيدة ، لا طاقة لأيّ عادٍ أن يعدو عَدْوَهما.

تَغَيَّرَ الرَّسْمُ مِـــنَ سَلْمَي بـأَحْفـــارِ   وأَقْفَرَتْ من سُلَيمي دِمْنــةُ الدَّارِ[1]

ثم يعرض لوصف الفلاة والناقة :

ومهْمهٍ طامِسٍ تُخْشَى غَـــوَائِلُـــهُ   قَطعتُهُ بِكَلُوءِ العينِ مِسهــــــارِ [2]

و يشبّهها بالثور الوحشي :

أَو مُقْفِرٍ ، خَاضِبِ الأَظلافِ ،جَاد لَهُ   غَيثٌ تَظاهر في مِيْثاءَ ، مِبكَــــارِ[3]

ويشير إلى الصّيد :

آنسنَ صَوت قَنيصٍ إذ أَحسَّ بهم   كالجِنِّ يَهفُونَ من جَرْمٍ وأَنْمارِ[4]

ويصف الحمرة :

---

١ ــ أحفار : موضع . الدِّمْنَة : الرّماد والسّواد .

م : يقول إن التغيّر والبِلى ألمّا بالدّيار الّتي كانت تَقْطُنها سلمى في موضع أحفار وإن مرابعها أقفرت منها .

٢ ــ طامِس : مقفِر . غوائلهُ : مهالكه . كلوء العَيْن : أي أنّ عينها مُتَنَبّهة لما تُريد .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الفلاة المُقْفرة الّتي اجتازها على ناقة متنبّهة يقظة .

٣ ــ مَيْثاء : أرْض سهلة . مبكار : أرض باكرها المطر .

م : يشرع في هذا البيت بتَشْبيه ناقته بالثّور الذي دأب على ملازمة القفر والذي ، تَخَضّبت أظلافه من كثرة وطئه للنّبات الرَّخيص في أرض سهلة ، باكرها سقوط المطر .

٤ ــ يقول إن الثّور أحسّ بقدوم الصّيادين ، فذُعر ، فأنست به الكلاب وتنَصّتَتْ له ، ثم يصف الصّيادين ، ويقول إنّهم يهرعون كالجن يترصّدونه وإنّهم من قبيلتّي جرم و إنمار الشّهيرتَيْن باحتراف القَنْص .

وشارِبٍ مُرْبحٍ بالكَأْسِ نادَمَـني لا بالحَصُورِ ولا فيها بسَـوَّارِ[1]

وقد تناول هذه الموضوعات التّمهيديّة فيما ينيف على أربعين بَيْتاً ، خصّ الحبيبة منها بستّة أبيات : (١ — ٦) والفلاة والناقة والثور بعشرة (٧ — ١٧) ومثلها الصَّيد : (١٧ — ٢٧) ثمَّ استَطْرد في وصف الخمرة (٢٧ — ٤٢) وعرَّج أخيراً على المدح بقوله :

إنِّي حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقصاتِ ، وما أَضْحى بمكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وأَسْتارِ[2]
وبالهديِّ ، إذا احْمَرَّتْ مذارِعُهـا في يومِ نُسْكٍ وتَشْريقٍ وتَنْحارِ[3]
وَما بِزَمْزَمَ مِنْ شُمْطٍ مُحَلِّقَـةٍ وما بِيَثْرِبَ مِـنْ عُونٍ وأَبْكارِ[4]
لأَلْجأَتْـني قُرَيْشٌ خائِفـاً وَجِلاً وَموَّلَتْني قُرَيْشٌ ، بَعْدَ إقْتـارِ[5]

---

١ — المُرْبح : الذي يُنْفق كثيراً في سبيل الخمرة ، فيُرْبح صاحبها . الحَصور : البخيل . السوار : السيّء الخلق ، الذي يَخْرج عن طوره .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الخمرة ويستهل بذكر النّديم الذي صحبه على الشّراب ويقول إنه متلاف ، لا يَحْبس ماله ، كما أن الخمرة لا تذْهب بحمله وأدبه ، فيَسْفه ويُفْحش .

٢ — الراقصات : الإبل السّاعية إلى مكّة .

م : يُقْسِمُ بالإبل السّاعية إلى مكّة وما على الكعبة من حُجُب وأستار . وغالباً ما يعمد الأخطل إلى مثل هذا القَسَم قُبيل المَدْح .

٣ — الهديّ : ما أهدي إلى الكَعْبة من الإبل . مَذارِع : قوائم . تَشْريق : تقطيع اللّحم .

م : يقسم بالأضاحي التي تُنْحر في مكّة ويسيل دمُها على قوائمها .

٤ — الشمْط : جمع أشمط : الذي اختلط شعره بين بياض وسواد . العُون : جمع عوان : المرأة الثيّب . زَمْزَم : بئر في مكّة .

م : يقْسم بما في مكّة من حجّاج شُمْط ومن حاجّات ثَيّبات وعذارى .

٥ — م : يقول ، إثر ذلك القسم المتمادي ، إن قريشاً ألجأته عندما كان خائفاً على نفسه من الهلاك ، إثر اضطهاد الأنصار له ، وإنّها أغدقت عليه ، بعد كان قليل المال ، معوزاً .

المُنْعمون بنو حَرْبٍ وقَد حدَقَتْ بيَ المنيَّـةُ ، واسْتَبْطَأْتُ أَنْصَاري[1]
بِهِمْ تَكَشَّف عن أَحيائِهـا ظُلُـمٌ حتّـى تَرفَّـعَ عن سَمعٍ وأَبصارِ
قـومٌ إذا حارَبُوا شدُّوا مآزرهـم دون النساءِ ، ولو باتَتْ بأَطهارِ[2]

وهذه الأبيات التي وردت من قبل في ذيل القصيدة والتي لا تعدو سَبْعةً أي سدس أبيات المقدّمات تؤكد على ان الأخطل ربّما لم يكن قد استكمل، بعد، عدّةَ المَدْح ، فتَلَهّى عنه بالأوصاف ، حتى إذا باشره خصّ أبياتاً ثلاثة بالقسم ولم يشر إلى الممدوح خاصّة ، بل إلى بني قومه وكرمهم وعفوهم وحمايتهم وشجاعتهم وعفتهم . وإذا نَظَرنا في طبيعة هذا المدح لوجدنا أنّه ألحف فيه بالقسم على غرار الأعشى والنّابغة ، مغرقاً في إيراد الألفاظ الدّينيّة كمكّة والحجب والاستار والهديّ والنسك وزمزم ، متمادياً في أبيات ثلاثة ليغالي بالتأكيد فيما ذهب إليه من أمر حمايتهم . وهذا الاسلوب قد ينطوي على اجواء إيحائيّة في الألفاظ الدّينيّة ، لكنه ساقط في مبدأ الشّعر وغايته ، إذ بدا المعنى قاصراً عن ادراك غايته ، فاستعان عليه بالقسم الخارجي الذي يَهلُ وهلة القارىء أو السّامع ويروعه دون ان يمثل له المعنى أو يكشفه أو يُعمّقه . فالمعنى ورد خلال قوله :

لأَلْجأتْني قُرَيْشٌ خائفـاً ، وجِلاً ومَوَّلَتْني قُرَيشٌ ، بَعد اقْتَـارِ[3]

١ ــ حدَقَتْ : أحاطتْ . بنو حرب : الأمويّون .
م : يقول إنّهم أنعموا عليه وأمّنوه ، عندما أحاطت به المنيّة وتخاذل عنه مناصروه ، وخلفوه وحيداً .

٢ ــ يقول إنهم اذ يقبلون على الحرب لا يشغلهم عنها شاغل ، بل يهجرون نساءهم ولو كنّ في حالة من الطّهر .

٣ ــ الاقتار : الفقر والقلة : يقسم بأن القرشيين أمنوه وأغاثوه بالمال .

وربّما كان من الأحرى أن يَصْرف جهد الأبْيات الثلاثة في القسم إلى هذا المعنى ذاته ، فيُعلله ويمثّله ويتكنّى عليه لينفذ في احشائه ويلج إلى ضميره . وقد اقتصر من ذلك كلّه على ذكره بشكل تقريري ، استمدّ بعض الغلوّ من القسم المتمادي الّذي مهّد له.ومهما يكن، فإن للمدح سنّة سُنّتْ له عبر الزّمن ، ولم تعد تستقيم قصيدته إلاّ بها . وربّما كان هذا القَسَم ظاهرةً من ظواهرها ، دون أن يكفي الشّاعر عن التوسُّل بوسائله الخاصة للغلوّ . فهو وان قرّر المَعْنى ، فقد قيّده وأدرك منه أقصى مناله وغايته في حدود لفظيّة ومعنويّة . فقريش لم تلجئه إلاّ وهو خائف ، ولم تغدق عليه ، إلا فيما كان مُمْلقاً ولم تدافع عنه إلا بعد أن تخاذل أتباعه . فالطباق اللّفظي القائم بين ألفاظ : « ألجأتني وخائف ووجل وموّلتني واقتار ، والمنعمون واستبطاء الأنصار » ان ذلك الطباق وقّع المعنى توقيعاً نفسيّاً إذ مثّل بني حرب وقد أنقذوه من هلاك مُحتّم .

وتراه ينوّه ، كذلك ، بالصفة الدّينيّة لقوم الممدوح إذ يدعهم يكشفون ظلام الضّلالة وينشرون نور الهدى ، مشيراً من خلال ذلك إلى أحقيتهم بالخلافة ، وهو أمر كانوا يحرصون عليه غاية الحرص .

ومع أن هذه القصيدة قيلت في يزيد ، فإن صورته تبدو مُمَوّهة ، عَبْرَها ، وغائبة عَنْها إذ طَغَتْ عليها صورةُ بني قَوْمه . ولعلّ ذلك يسوقنا إلى الاعتقاد بأن الأخطل كان يُعْجب بيزيد في مصاحبته له على اللّهو والخَمْر ، دُون أن تكونَ له من المآثر الذّاتيّة ، الخاصّة به ما يَجْعل له مُسَوّغاً لامتداحه بمدائح العظمة والفخار ، كما سيكون شأنه مع عبد الملك . لقد كان يزيد في تلك المرحلة تبع لهو ومجون ، فلم يدخل إلى روع الشاعر دخول البطولة ، فاقتصر في مدحه على اظهار براعته في النّظم والوصف ومعارضة الشُّعراء ، عاكساً مدحه له بمدحه لبني قومه . وفي الدّالية السّابقة إذ اعيته حيل النّظم امتدحه بخيله في السّباق ، وهو أمر لا يروق المدح فيه ، إذ أثرت عن المدح سنّةُ الغلوّ بوصف الخيل في ساح القتال ، من دون حلبة السّباق .

وللأخطل في يزيد داليّة أخرى ويستهلّها بوصف ظعائن حبيبته المزيّنة بالجلود ، ثم يعرض للمطيّة ذاكراً السّبيل الذي اجتازته وما كان من أمره معهن بين صدّ ووصال يكاد لا يبرأ من داء العِشْق ، حتى تَعود إليه نوازع الهوى .

ويباشر المدح بالإشارة إلى تهديد معاوية له لهجائه الأنصار ، ويقول إن اعتصامه بيزيد أنْقذه من بئر الهلاك التي أوشك أن يتردى في قعرها ، ومن داهية كادت تَنْثُرُ لحمه أشلاء . وبعد أن يُنَوِّه بما كان من أمره مع النّعمان بن بشير ، يمتدح يزيد بالوفاء ووثوق العَهْد والكرم والشّجاعة في القتال ، ويُنوِّه بمآثر أبيه معاوية ونجاحه في دفع الفتنة . ويتمنّى له أن تصير الخلافة إليه ، إثر والده ، فهو أحقّ النّاس بها ، لشدة تمرّسه بالحرب . ثم يصف فيضان الفُرات في نَحْو خمسة أبيات ، ليَقْرن به كرَم يزيد ، مؤثراً إيّاه عليه ، وينهي القصيدة بمعاهدة يزيد على الوفاء له ، لما يُغْدقه عليه من عطايا لا مِنّة فيها .

وقد استلَّها بقَوْله :

صَحَا القَلْبُ إلاَّ مِنْ ظَعَائنَ فاتَني ... بِهِنَّ أَميرٌ مُسْتَبِدٌّ فأَصْعَدا[1]

ثم ذكر صواحبه :

ومَا علِقَتْ نَفْسي بأُم مُحَلَّمٍ ... وَدَهْماءَ ، إلاَّ أَن أَمُوت وَأُكْمَدَا

ويتخلَّص إلى المدح إذ يقول :

وإنّي غداةَ اسْتَعْبرَت أُمُّ مالِكٍ ... لراضٍ من السُّلْطَانِ أَن يتهدَّدا

١ – فاتَني : سبقني وذهب به عنّي . أصْعَد : مضى وسار .
م : يقول إن قلبه صحا من شوقه ووجده ، إلاّ أنّ الظّعائن الرّاحلة أثارته في نفسه من جديد ، وقد ارتحل عليها من استبد بأمره وأمْعن في رحيله ونزوحه .

ثم يمضي في تعداد أيادي يزيد عليه ويمثّل عظم ما أنقذه منه حيناً بناقة أو مَطيّة بادية العظام ، هزيلة ، تؤدي به إلى الهلاك وحيناً ببئر مُظْلمة أو بداهية لا يقوم لها فيل ولا يصمد عليها :

وَلَوْلا يزيدُ ابنُ الملوكِ وسَيْبُـــهُ تـجلَّلْتُ حِدباراً مِنَ الشَّرِّ أَنْكَـدا[1]

وكَم أَنْقَذْتَني مِنْ جَرورٍ حِبـالُكُمُ وخرساءَ لَوْ يُرْمي بها الفيـلُ بلَّدا[2]

وبيِّن ان الشّاعر يَمْتطي ، هنا ، ما يُماثل أسلوب النّابغة في تعظيم خوفه وهول مصابه ، ليعظم من خلاله الممدوح . فوصفه للحدبار الذي كان سيقع عليه والبئر وما إلى ذلك إنّما هو وسيلة غير مباشرة لامتداح يزيد بوفائه وهيبته ، متقرِّباً اليه ، لائذاً به . ولقد سَمَتْ فنيّته في ذلك إذ حرص على ان يُجَسِّد المعنى من خلال صورته بنوع الاستعارة المباشرة ، تدعنا نفهمه بقدر ما نراه ، بالرغم من أنه لا يُرَى . أما ذكره للفيل ، في هذا المقام ، فقد كان نَوْعاً من التعبير بالافتراض والايحاء ، إذ لا يزال الفيلُ مثالاً للقوّة وشدّة الاحتمال . ولنتأمل كيف أنه توسَّل الحبال للبئر ؛ موحياً بذلك إلى أنّه انتشله انتشالاً ممّا كان واقعاً فيه .

وفي أبيات لاحقة يميل عن التّلميح إلى التّصريح ، فيقول :

---

١ ــ الحِدْبار : النّاقة التي بدَتْ حراقفُها من الهُزال . أنْكَد : عسير وشديد .

م : يشير في هذا البيت إلى ما كان من أمر حماية يزيد له ، فيما همّ معاوية بمعاقبته وأباح لسانه ، ويقول إنّه لو لم يُدافع يزيد عنه ويرفده بعطاياه ، لكان ركب من هجائه للأنْصار مَرْكباً عسيراً وعراً .

٢ ــ الجَرُور : البئر البعيدة القَعْر . الخرساء : الداهية . بلد : لصق بالأرض ممّا دهاه .

م : يمتدحه بفضله وأياديه عليه ، ويقول مخاطباً إيّاه إن وثوقي بأسْبابك وحبالك وتقربي منك أنقذاني من بئر الهلاك التي كدت أتردّى في قعرها ومن داهية لو أصابت فيلاً عظيم الهامة ، لأوْدت به وخلفته صريعاً على الأرض .

ودافَـعَ عَنِّــي يوْم جِلَّــق غَمرةً وهمًّا يُنَسِّيني السُّلاف المُهــوِّدا[1]

وباتَ نَجِيًّــا في دِمَشْق لحيـــةٍ إذا عَضَّ لَمْ يَنمِ السلِيمُ وأَقْصدا[2]

يُخَفِّتُهُ طَـوْراً وطَـوْراً إذا رأى مِنَ الوَجهِ إقْبالاً ألحَّ وأجهَـــدا[3]

ولقد أشار إلى ما كان من أمره مع معاوية ، إذ أباحَ دمه ، فاعتراه من ذلك هَمٌ لا تَنْجع فيه الخمْرة الّتي لا تزَال تُسْكره ، ذاك أنّه هَمٌ من دونه الهول أو المَوْت ، أي أفعى قاتلة . وفي عجالة هذه الأبيات حشد الأخطل للعذاب والخوف صُوَرَهُ الحسيَّة الابداعيَّة من الحدبار ، إلى البثر ، إلى الفيل ، حتى الحيَّة التي ان لدغت لم يَبْرأ لديغها . فالشّاعر بات يَسْتَحْضِرُ لانفعالاته ما يؤدّيها ويُشخّصها ، دون أن يقتبس من سواه إلا في لمع قليلة كذكره للحيَّة الّتي أشار إليها النّابغة في تمثيل خوفه من النّعمان ، إذ قال :

١ ـ جِلّق : الشام . غَمْرَة : شدّة . السُّلاف : الخمرة . المُهَوِّد : المُسْكر .

م : يستكمل المعنى السابق ويكرّره ويقول إنّه أنقذه حين أُتِيَ به إلى دمشق ، من محنة قاسية ، وهمٌ لم يعد تطيب له به حتى الخمرة المُسْكرة .

٢ ـ السليم : الملدوغ وسمي كذلك تفاؤلاً . أقْصَدَتِ الحيّة : لدَغَتْ ، فقَتَلَتْ . وقد ذكّر الشاعر الحية في هذا البيت لأن الحية تذكّر وتؤنث .

م : يقول إنّه قد أحاطت به في دمشق حية ، إذا لدغت قتلَتْ لتوّها ، أي أنّه بات يخشى تهديد معاوية الذي لو طالته يده ، ولم يَحُلْ يزيد بينه وبينها ، لكان فتك به وأجهز عليه .

٣ ـ يُخَفِّتُه : أي يهدّىء من رَوْعه . يقول إن يزيد كان يُهَدّىء من روع والده ، حتى إذا طالعته فيه سيماءُ الرِّضى ، ألحَّ عليه وأجهد نَفْسه في طلب العفو له منه .

وعيدُ أبي قابوس في غَيْرِ كُنْهِـهِ أَتاني ، ودُوني راكس فالضَّواجع [1]
فبُتُّ كَأَنِّي سَاورَتْنِي ضئيلَـــــةٌ من الرُّقْشِ في أَنْيابها السمُّ ناقِعُ [2]

وقد يَبْلغ ذلك النقلَ الحرفي بقوله :

تَنَاذَرهَا الرَّاقُون مِنْ سوءِ سُمِّهـــا تُطَلِّقُهُ طَوراً وطوراً تُـــراجِـعُ [3]

إلا أن الأخطل ، مع ذلك كلّه ، يَبْدو ابن انفعاله فيما تقدَّم ، أبدع صوره من أحساسه العميق بالتَّوافق بين الأحوال النَّفسيَّة ومعاني المظاهر الخارجيَّة ورموزها وهل ، ثمَّة ، أَدَلّ من البئر على الشّعور بالخوف من الهلاك ؟

والأخْطل يُلْحف بهذا الأمْر غاية الإلحاف ، وفقاً لسيكولوجيّة قائمة ، تُضْمِرُ غَيْرَ ما تُظْهِر . فهو يمتدح ، علناً ، يزيد ، ولكنَّه يوفّق ذلك مع مع غايته في التَّقرُّب إليه وإظهار عظم ما تكبَّد في سبيله . وبدلاً من أن يمتطي أسلوب التّمنين الصّريح ، المباشر ، يَعْمد إلى التّورية والاستبطان . فالممدوح إذ يَذْكر فداحة الهول الَّذي عاناه الشّاعر في سبيل الدفاع عنه وعن عرضه وشرفه لا يجد مناصاً من تقريبه والانعام عليه . فالمدح ، هنا ، تركيبيّ ، تأليفيّ إذا جاز التَّعبير ، وفّق فيه إلى الاستعطاف والاستعطاء والتمنين والمدح والتّعظيم ، في آن معاً .

ولا يعدو ذلك قوله فيما يلي :

أَبا خالد دافعْتَ عنّـي عظِيمـــــةً وأَدْرَكْتَ لَحمي قبلَ أن يتبـددا [4]

١ ـ ٢ ـ ٣ـ يقول ان وعيد النعمان اعتراه بمثل الافعى السامة الّتي كان الرُّماة والحواة يُنذر أحدهم الآخر منها . فهي حيناً تقتل وحيناً تُمهل .

٤ ـ م : يخاطب يزيد ويقول له إنّكَ قد أنقَذْتني من داهية عظيمة ، كادت تَنْثر أشلائي نثراً .

وأَطْفَأْتَ عنِّي نار نُعمَانَ بعدما   أَغَذَّ لأَمْرٍ عاجِزٍ وتَجرَّدا[1]

وَلَمّا رأَى النّعْمانُ دُوني ابنَ حُرَّةٍ   طَوى الكَشْح إذْ لَمْ يسْتطِعْني وَعرَّدا[2]

ولاقي امرءًا لا ينْقُضُ القَوْمُ عهدَهُ   أَمرَّ القُوى دونَ الوُشاة وأَحْصدا[3]

أَخا ثِقَةٍ لا يَجْتَويهِ ثَوِيُّهُ   ولا نائِياً عَنْهُ إذا ما تَودَّدا[4]

فهو يُشير هنا إلى وفود النّعمان بن بشير مع الأنصار على معاوية واقتضائهم لسانه وإباحة معاوية لهم قَطْعه . وقد صمد يزيد من دونه وصدّ النّعمان وخذله إذ أنه يفي لمناصريه ولا يَغْدُر بهم ويتنكرّ لهم عند الشّدّة . ولقد قام السَّرد هنا ، حيناً ، مقام التّصوير ، دون أن يُزيلَه أو يُعفّي عليه ، بل نُلْفي أن انفعال الشّاعر ما زال نافذاً ، خالقاً وبخاصة في مثل قوله « وَأَدْرَكْتَ لحمي ، قبْل أن يتبدّدا » حيث احتضن فعل « تَبَدَّدا » الانفعال في ذروته ومثّله بالصُّورة الموحية بعظم معاناته للهول والخوف . وإيحائيّته لم تحُلْ بينها وبين الدّقّة ، إذ ان التبدُّد يوحي بالأشلاء المتناثرة ، وأياً يكون شعور المرء عندما يُخيَّل إليه أنَّ لحمه قد تمزَّقَ وتفرَّق !

١ ــ أغَذّ : أسرعَ . أمر عاجز : أمرٌ شديد .
م : يقول : إن النعمان بن بشير الأنصاري كان يتَعَجّل الإيقاع بي ونَذَر نفسه لإيرادي مورد الهلاك .
٢ ــ طوى الكَشْح : أي أضمرَ العداوة . عرّدَ : ولّى هارباً . ابنُ الحُرَّة : تكنية عن يزيد .
م : يقول إنّه إذ رأى النعمان دفاعك عنّي ، أضمر حقدَه عليَّ ، ولم يعد يجرؤ على التصريح به وولّى عنّي هارباً .
٣ ــ يَنْقُضُ : يفك ويحل . أمرَّ القُوى : أحكم فتَلْها . أحصَدَ : أحكَم أيضا .
م : يمتدح يزيد بوفائه للعهد ، ويقول إنّه إذا ما عاهَد بعَهْد ، فلا قِبَل للنّاس ، مهما تألّبوا وَوَشوا ، بدفعه إلى نقضه ، بل إنَّ له من وفائه ما يُفْحم به الوُشاة ويعصمه عن التَغرُّر .
٤ ــ يقول إنّه يوثق عهده لمن يعاهده ، وإنَّ مقامه يطيب لمن يجالسُه وإنه لا يَصُدُّ عمّن يتَدنّى منه ويتودّد إليه .

وفيما دون ذلك من أبيات يتغلَّب الوصف والسَّرد والاشارة الصَريحة عبر صورة مستفادة من البيئة . فهو إذ همَّ به الوشاةُ ليحضُّوه على الحنث بعهده وقَعُوا منه على حبل وثيق لا يتقطَّع ولا يَنْبَتِرُ مَهْما تَنَازَعَه المُتَنازِعُون . وهذه النَّزعة الصّورية ، وان رَسَفَتْ وارْتُهِنَتْ لدقائق الحسِّ ، فإنّها لا تزال تنمُّ عن وظيفَةِ الخَلْق في شعره وقُوَّة خيالِه الحسّي الّذي يَسْتَحْضر للمعاني مثيلها في الواقع ، فيغدو لها شكلٌ ماديٌّ ينطوي على دلالة معنوية ، نفسيَّة .

أما البيت الأخير ، فقد تهادن فيه الذّهن وطغى ، فاستحالت تجربته فيه إلى فكرة يباشر بها المعنى التَّقريريَّ ، الهادىء ، فهو لا يُمَلُّ ولا يَجْفُو . ومن ثم يُعَرِّج على امتداحه بالمعاني العامَّة :

كَأَنَّ ذَوِي الحاجاتِ يغْشَوْنَ مُصْعَباً   أَزبَّ الجِرانِ ذا سنَامينِ أَحــردا[1]
تَخَمَّطَ فَحْلَ الحربِ حتي تواضَعَتْ   لَهُ واعْتلاها ذا مشيبٍ وأَمــردا[2]
وما وجدتْ فِيها قُرَيْشٌ لأَمْرِهــا   أَعفَّ وأَوفَي مِنْ أَبِيكَ وأَمْجَــدا[3]

١ ــ المُصْعَب : هو البعير الذي لا يُتْعبه صاحبُه لنجابته . الأَزَبُّ : الكثير الوَبَر . الجِران : العُنُق . الأجرَد : الشّامخ برأسه .

م : يقول إنَّ المُعْوزين وذوي الحاجات لا يزالون يَغْشون دار امرىء نجيب ، كريم الأصل ، زاهٍ بأصالته وطيب محتده . وقد تكنى في ذلك من خلال وصفه للفَحْل النّجيب من الإبل ذاتَ السّنامَيْن .

٢ ــ تَخَمطَ : ثار واهتاج . أمرَد : في أوّل عهده بالصّبا .

م : يقول إنّه لا يزال يُثير الحَرْب ويهيّجها ، حتّى خضع له فيها سائر الأمراء ، ولم يعد له مقارع فيها أكان هَرِماً مُسنّاً أم فتياً أمْرد .

٣ ــ م : يمتدحه بأبيه معاوية الذي يخصّه بالعفّة والوفاء والسُّؤدد .

وأَصْلَب عُوداً حين ضَاقَتْ أُمورُهُم وهمتْ مَعدٌّ أَنْ تَخيم وَتَخْمُـدا[1]
وأَوْرى بِزنْديهِ ولَوْ كانَ غَيْـرُهُ غَداةَ اختلافِ الأَمرِ أَكْبي وأَصْلَدا[2]

وتشبيه الممدوح بالبعير الرَّفيع الهامة ، الشّامخ ، فيما يَنْتجع القوم دياره هو تجسيد لمعنى السِّيادة بما كان يتمثّلها به معاصروه . وإنك إذا ما تحدَّقت بالبعير الكثير الوبر ، النَّاهد إلى أعلى تطالعُك فيه سيماءُ الكبرياءِ والعُنْجهيَّة والسيادة ، فكانَّه مزْهوٌّ بما هو عليه . ولقد كان الأخْطل قريب العَهْد بهذه المشاهد إذا لم يكَدْ يخرج عن بيئته الأولى حيث كانَتْ مُفْعمةً بهذه الصُّور ، يطرب لها ، إذ يتأملها وتلج إلى ضميره ، حتّى إذا انفعل بمعنى العظمة والسّيادة رفدته من الدّاخل ، وتسرَّبَتْ إلى وجدانه المُبْدع وحلَّتْ فيه . وقد نُضير الشّاعر في عصرنا لأنَّه أقام في ذلك على حدود التَّشبيه والمماثلة ، وهي أَدنى من الاستعارة وما إليها لأنَّها أكْثَر انضباطاً وتعقُّلا وكبتاً لعامل الخَلْق . إلا أنها ، مع ذلك ، وفِّقت في معاناةِ المَشْهد الخارجيِّ واستقرائه بحالةٍ نَفْسيَّة ، أو فكرةٍ ذهنية .

ومثل ذلك قوله : « تَخَمَّط فَحْلَ الحرب » إذ قرن الحرب بالفَحْل الثَّائر ونسبه إليها نسبة مباشرة ، مُتَلمِّساً ما تَنْطوي عليه هذه المقابلة من عنف وشدَّة

١ ـ مَعَدٌّ : هم العرب عامّة . تَخيمَ : تَجْبن . أصْلب عوداً : أي أكثر احتمالاً للمِحَن .
م : يستكمل مدحَه لمعاوية ، ويقول إنَّ العرب لم يُلْفوا من هو أشَدُّ احتمالاً للمكاره منه ، وأكثر تعقُّلاً فيها ، عندما حلت بهم الشحناء وجبنوا عن نصرة الحَقّ وأوشكت نارهم أن تَخْبو وتنطفيء .

٢ ـ أوْرَى : قَدَح النّار وأشعلها . أكبى : إذا قَدَحَ ولم يورِ ، أي لم يُشعل النّار . أصْلَد : إذا أخْفَقَ بإشعال النّار .
م : يقول إنّه نَجَح في دفع الفِتْنة يوم شَبّت ، ولو تولاّها سواه من دونه ، لأخفق في إخمادها ورأب الصَّدع بين المسلمين .

وما أشبه. وإيثاره للتّعبير الصّوري، هنا، أيضاً، دليل على أنّه يتمرّس بالفنّ الصّعب ويقتضي الصّورة الحسيّة التي تتناول فيه مظهر الغلوّ، فضلاً عن مظهر الواقعيّة والتّشابه.

إلا أن للمدح أسلوبه الخاص به، لا يحيد عنه إذ يكادُ لا يدَعُ وسيلةً للغلوّ حتى حدود المستحيل أو ما إليه. وقلّما تقَعُ على قصيدةِ مدح، دون أن تعثر فيها على صيغ المبالغة في أصولها اللّغويّة، وبخاصّة صيغة أفعل التّفضيل المُطْلقة: «أعف وأوفى وأمْجد وأصْلب وأورى» وقد حشدها الشّاعر، حيناً، حشداً ذهنيّاً، وحيناً آخر حشداً تشْخيصيّاً. وهي تنمُّ، جميعها، عن نزعة الإطلاق والتّعميم كأداة للايحاء والتّأثير، ممّا يعفُّ عنه الشعر الصّافي أو الصّحيح إذ ليست غايتُه أن يدَّعَ الانفعالَ يطْفُرَ طفْرةً، بل أن يسْتضيءَ به على المعرفة والحقيقة.

أما ذكره لوالده في هذه الهالة المثاليّة، فهْو امتداحٌ لَه من خلاله، أو هو إحاطة بالمدح من جوَانبه كُلّها وإفادةٌ فيه من كُلّ احتمال، كما أنّه يُبرِّر به تولّيه لولاية العهد إثره:

فَأَصْبحْت مولاها من النَّاسِ بَعْده وأَحْرى قُريش أَن يُهَاب ويُحمـدا[1]

فَهْو قد وَرِثَ أَباه في المَجْد والسُّؤْدُد، وهو حقيق بذلك إذ أنّه جرى على غراره في الكفاح والجهاد:

وفي كُلِّ أُفْقٍ قَد رَميْتَ بكَوْكَبٍ من الحرب مخْشِيٍّ إذا ماتَـوقَّـدا[2]

١ — م: يقول مخاطباً يزيد: إنّك أولى النّاس بولاية الخلافة بعْدَه، وأجدر القرشيّين بالمَهابة والاحترام.

٢ — الكَوْكب: الكتيبة من المُقاتلين، سُمّيت كذلك لتوقُّدها بالحديد.

م: يمتدحه بالبَطْش في الحروب وإنفاذه الجند إلى كلّ أُفق للجهاد والقتال، حيث يبثّون الرعب لما يتوقّد عليهم من أسلحة.

وَتَشرق أَجبالُ العُوَيْـرِ بفـاعِـلٍ   إذَا خَبتِ النِّيرانُ باللَّيلِ أوْقَـدا[1]
وَمُنْتَقِمٍ لا يَأْمنُ النَّاسُ فجعـه   ولا سُورَةَ العادِي إذا هُو أوعـد[2]

والشَّاعر يَمْتدِحُ يزيد بالقتال والزَّحْف ، بينما امتدَحَ أباه بالحكمة النَّافذة فيما التَبَس من أمور ، فبدت معانيه في الأوّل باهتة ، رغم الحافه فيها ، وجاءت في الثاني إنسَانيَّةً عاقلةً إذْ نَوَّهَتْ فيه بِمَا هو حقيقٌ به . وتُوفي تلك الصُّورة إلى ذروتها في وصفه لكرمه على غرار النَّابغة والأعْشى في تشبيه استطْراديٍّ ، مُتَطاول قرن فيه بين فيض كرمه وفيض الفرات :

وما مُزْبِدٌ يعْلُو جزائر حَامِـرٍ   يشُقُّ إلَيْهـا خَيزَرانـاً وَغرْقَدَا[3]
تَحزَّرَ منهُ أَهلُ عانَـةَ بَعْدَمـا   كسا سُورَها الأَعْلى غُثاءٌ مُنَضَّدا[4]

١ ــ العَوير : موضع ماء بالشّام .
م : يقول إنّه لا يزال يُضيءُ ذلك المقام بالنّار المُتأجّجة التي يُشْرق بها اللّيل إشراقاً . ولقد يكون أشار بالنّار هنا إلى فضائله التي تطالع النّاس وتَتَذيع فيهم ، كما أنها قد تكون نار القِرى أو ما اليها .
٢ ــ السورة : (بالفتح) الغَضَب . العادي : هنا الأسد .
م : يقول إنّه إذا ما عزَم على الانتقام يُفْجع واتره أوْ عدوّه ويلقى منه غضبة الأسد الشديد البَطْش .
٣ ــ المُزْبد : هنا النّهر الكثير الزّبد ، أي الفُرات . حامِر : ناحية بين مَنْبج والرقّة على شطّ الفرات . الخَيْزُران : نوع من الشّجر المعروف . غَرقَد : عَوْسج .
م : يشرع في هذا البَيْت بوصف فيضان الفُرات على دأبه في معظم مدائحه ، ليَقْرنه بكرم يزيد بعد خمسة أبيات تلي . يقول إن الفرات إذ يزبد ويطفو على جزائر حامر ، يفترع إليها أشجار الخيزران والغرقد .
٤ ــ تَحَرَّز : أي تَهَيّبَ منه وأعدّ له ما يقيه أذاه .
م : أي أن أهْل عانة جعلوا يحترسون من أن يطوف على ديارهم ، بعد أن علا زبدُه حول سورها وأوشك أن يطفو عليها ويغرقها .

يُقَمِّصُ بالمِلاَّحِ حتي يشُفَّهُ الـ حذارُ وإنْ كانَ المُشيح المُعَوَّدا ١
بِمُطَّرِدِ الآذيِّ جَـوْنٍ كأنَّمـــا زَفا بالقَراقِيرِ النَّعـــام المُطَرَّدا ٢
كأنَّ بنَاتِ المـــاءِ في حَجَـراتِهِ أَبارِيقُ أَهْدتْها دِيافٌ لصَرْخَـدا ٣
بأَجْوَد سيْباً مِنْ يَزيدَ إذا غَـدَتْ بِهِ بُخْتُهُ يَحْمِلْنَ مُلْكاً وسوددا ٤

وليس للأخْطَل في هذا التشبيه الاستطرادي فضيلة الابتكار والخَلْق ، إذ ان سنَّة هذا المعنى اشتقَّت له وتقرَّرت فيه من قبل ، وبخاصة النَّابغة إذ قال :

١ ـ يُقَمِّص : أي يثير اضطرابه . المُشيح : المُجرَّب ، المُجدّ .

م : يقول إنّه يثير اضطراب الملاّح ، حتّى يرهقه الحذر منه وخوف الغرَق ، بالرغم من ألفته له واختباره الطّويل لأمر الملاحة فيه .

٢ ـ الآذي : المَوْج . جون : هنا أبيض . المُطّرِد : الذي يَتبْع بعضُه بعضاً . زَفا : حَثَّ . القراقير : جمع قرقور : السفينة الطّويلة .

م : يقول إنّه يثير خوف الملاح بأمواجه المُتلاحقة البَيْضاء الشّبيهة بالنّعام من زبدها والتي لا تبرح تعبث بالسفينة وتطردها في كلّ جهة .

٣ ـ بَنات الماء : طيوره . حَجراته : نواحيه . دياف وصرخد : قريتان .

م : يُشَبِّه الطيور التي تطوف في مختلف نواحيه بالأباريق التي تُهدى فتنتقل من قرية إلى أخرى .

٤ ـ بُخْتُه : إبله الخراسانيّة .

م : في هذا البَيْت نقع على جواب قوله في بيت سابق « وما مزبد . . . » يقول إن الفرات في فيضانه الهائل المروّع ذاك ، ليس بأعظم عطاء من يزيد إذ يفد على إبله الخراسانيّة .

وما الفرات إذا جاشَتْ حَوالِبُـــهُ   ترمي أَواذيُّه العِبريْنِ بالزَّبـــدِ [1]
يمدُّه كل وادٍ مترعٍ لجـــب   فيه ركام من اليَنْبُوتِ والخضد [2]
يَظَلُّ من خوفه الملَّاح معتصمـــاً   بالخيزرانة بين الأَيْنِ والنَّجـــد [3]
يوماً بأَكْرم منْه حينَ تَقْصِـدُهُ   ولا يحُولُ عطاءُ اليوْمِ دُونَ غَد [4]

ولسنا نودُّ أن نطيل في المقارنة بين الشّاعرين في ذلك إذْ سَوْفَ نلمُّ بها فيما بَعْد عندما يتكرَّر هذا التشبيه في امتداحه لعبد الملك بن مروان ، وإنَّما نُشير ، هنا ، إلى أن الأخطل تلمَّس في ذلك العناصر الجوهريَّة الموحية في ذكره لاشجار الخيزران والغرقد واحاطته بسور البلدة وهو مزبد ، وخوف الملاّح منه رغم إلفته له وتَرَوُّضه على مُغَالبة أَمْواجه . وقد يتحقَّق لنا من ذلك أن الشَّاعر أقبل على بلاط الأمويين وقد استكمل عدَّته الشّعريَّة ، وتمرَّس على القول في سنَّته المأثورة ، دون أن يَبْلغ أَوجه فيه ، إذ أن هذه العناصر تبدو باهتة بالنّسبة إلى وصف النّابغة وما سوف يطالعنا من وصفه هو بالذّات .

وللأخْطَل قصيدة أَخيرة في مدح يزيد ، تطاولت فيها الموضوعاتُ الجانبيَّة إذ ذكر فيها سعاد وسُلَيْمى ووصف جيدها ونحرها وذكر ما أَلمَّ به من هرم ، مُتَحَسِّراً على ما فات من زمن اللّهو والفتوّة ، بعد أن تبدّلَتْ ملامحه بالشّيْب

---

١ ـ ٤ ـ الأواذي : الأمْواج الكبيرة . الحوالب : هنا الرَّوافد . مترع : ملىء . لجب : صخب . اليَنْبوت والخضد : نوعان من الشّجر الكبير الضَّخم . الخيزرانة : صدر السفينة . الأيْن والنجد : التعب والخوف .

م : يقول إن الفرات عندما تفيض روافده وتَعْلو أمواجُه وتَضْرب شاطئيه بالزَّبد لشدَّة الصَّخب ، وعندما تصبُّ فيه الوُدْيان الّتي ملاءها السيْل جارفاً من دونه الأشجار الكبيرة الضَّخمة ، وعندما يرتعب منة البحّار فيَعْتصم بصدر السفينة ، ان فيض الفرات ذاك لَيْس بأعظم من كرمه الدّائم .

وغدت معرفته تتَعذّر على عارفيه . ويخاطب يزيد وبنوّه بما كان من أمر حمايته له بعد أن تشرّد في الهاجرة ، وهزَل حتى بات كالسَّفُّود . ويرجو من الله أن يُثيبه بمثل ما أثاب يوسف وهارون ونوحاً . ويعود لإظهار ما سبق أن منّ عليه به من نِعَمٍ وهبات ، ثم يستطرد إلى وصف النّاقة ، ويقول إنّها ذات صلابة كالصَّخرة العظيمة ، لا تزال تعدو بالرَّغم من أن سنامها يوشك أن يذوب وأن أخفافها تكاد أن تَبْرى وتَنْقب ويشبّهها بالحمار الوحشيّ الذي يسوق أُتْنَه إلى الماء ، ويستشرف المواضع التي يستنقع فيها ، يعدو فيما ترتدُّ عليه أتنُه ترمحه وتَكْدمه ، ولا تدعه الحَوامل منها ينزو عليها ، ويذكر إجهاضها لأولادها من الإرهاق ، ويشير إلى الصيّادين الذين كانوا يترصَّدونه ويشبّههم بالذّئاب المتربّصة ، ويصف القَوْس ورنينها والشّواء وتقطيع اللّحم ، إثر الصَّيد .

يَقُولُ في مَطْلعها :

بانتْ سُعَادُ ففي العينَيْنِ تَسْهِيـــدُ واستَحْقَبتْ لُبَّه ، فالقَلْبُ مَعمُودُ
إما تريني حناني الشَّيب من كِبَـرٍ كالنَّسر أَرجُفُ ، والإنسان مهدُودُ

وتبلغ القصيدة ستّة وأربعين بيتاً وفقاً للتَّقْسيم التَّالي :

١ – ذكر الحبيبة والبَيْن والمشيب : (١ – ١٤)

٢ – مخاطبة يزيد : (١٥ – ٢١)

٣ – ذكر النَّاقة والفحل وأُتنه : (٢٢ – ٤٢)

٤ – وصف الصَّيد : (٤٢ – ٤٦) .

ونستعرض هنا الأبيات الّتي خصَّها بالمدح الفعليّ ، المباشر :

أَما يزيدُ ، فإنِّي لَستُ ناسِيـــــهُ حتَّى يُغَيِّبني في الرَّمسِ مَلْحُـــودُ[1]
جَزاكَ ربُّكَ عن مُستَفرَدٍ ، وحــدٍ نَفَاهُ عنْ أَهْله جُرمٌ وتَشْريـــدُ[2]
مُسْتَشرَفٌ ، قد رماهُ النَّاسُ كلُّهمُ كَأَنَّهُ ، مِن سَمومِ الصَّيْفِ، سفُّودُ[3]
جزَاءَ يُوسُف إِحساناً وَمَغْفِــرَةً أَو مِثْل ما جُزْي هارُونٌ وداودُ[4]
أَوْ مِثل ما نال نوح في سفينتـــــه إِذ استجَاب لنوحٍ ، وهُو منجود[5]
أَعطَاهُ مِن لَذَّةِ الدُّنيا وسكَّنَـــهُ في جنَّةٍ نِعمـــةٌ فيها وتَخْلِيدُ[6]

والمعنى العام لا يعدو الامتنان واظهار سوء الحال والهلاك اللذين أنقذه منهما الممدوح ، وقد تشبَّه بالسَّفُّود في هزاله ، إثر الارتحال وامتناع الرَّاحة ، وهذا

---

١ ــ مَلْحود : قبر ذو لحد ، وهو الشقّ المائل الذي يكون في جانب القبر .
م : يشير في هذا البَيْت إلى ما كان من حماية يزيد له ، ويقول إنّه لن ينسى فَضْله عليه وإنقاذه له ، حتى يموت ويغيب في الرَّمْس .
٢ ــ وَحد : مُنْفرد .
م : يمتدح يزيد بإيوائه للضَّيْف والمشرَّد ويرجو الله أن يكافئه لقاء حمايته لامرىء متوحّد ، منفرد . تخلّى عنه أهله بجرم أتُّهم به ، فخُلِّف شريداً . وهو يشير بذلك إلى نفسه .
٣ ــ مُسْتَشْرَف : مَظْلوم . السفّود : قضيب يشوى عليه اللّحم .
م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ، ويقول إنه اتُّهم ظلماً ، قد طعنه النّاس النّاس جميعاً. فظلّ مشرداً ، تصليه الهاجرة وتذيبُه ، حتى غدا من هزاله كالسّفّود . ولعلّ الأخطل يشير إلى ذاته في وصفه لذلك المشرّد ، المنبوذ .
٢ ــ يوسف وهارون وداود : من أولياء العهد القديم .
م : يرجو من الله أن يثيبَه بما أثاب به الأولياء قديماً فكأنّ الأخطل يرفعه إلى مصافهم .
٥ ــ مَنْجود : مَكْروب .
م : يستكمل ما تقدّم ويرجو له مثل ثواب نوح ، إذ كان أسيراً في سفينته .
٦ ــ م : يوضح ما أجمله وأشار اليْه ، سابقاً ، ويقول إنّ الله أعطى نوحاً متع الدُّنيا وخلود الآخرة ، فكأن الأخطل يتمنّى له مثل ذلك .

التَّشبيه يُضاف إلى تشابيه سابقة جسَّد بها عذابه وخَوْفَه ، وهو يتّصف بمثل ما اتَّصفت به من إيحائيَّة في تخيُّر الظاهرة الأدل والَّتي لا يَقتصر فيها وجه الايحاء على المعنى الدَّاني المُتَناول . وتراه يُصَعِّد المعنى ويَمُدُّ أبْعاده بالأسطورة الدِّينيَّة إذ يقرن الممدوح بنوح وهارون وداود ، خالعاً عليه صفة قدسيَّة كالأولياء ، وربَّما أفادَ قليلاً أو كثيراً في ذلك من النَّابغة إذ قال :

ولا أَرى واحداً في النَّاسِ يُشْبهــــه ولا أُحاشِي من الأَقوام مِنْ أَحــــدِ
إلا سليمان إذ قال الإلــــــه له قم في البريَّة واصددها عن الفَنَــد

ومع ذلك ، فان الأخطل وفّق في تمثُّل هذه الأجواء ، عبر قصيدته . مُضْفياً عليها أجواء شبه اسطوريَّة تتَّفق ومنحى الغلوِّ العام الذي يَنْتحيه .

وللأخْطل في يزيد مرثيَّة هي الوحيدة الشَّاخصة في ديوانه :

لَعَمري ، لَقَدْ دَلَّى إلى اللَّحدِ خالدٌ جَنَازَةَ لا كابي الزِّنادِ ، ولا غمرِ [1]
مُقيمٌ بحُوَّارين ليسَ يَرِيمُهــــا سَقَتْهُ الغوادي مِنْ ثويٍّ ومِنْ قبرِ [2]

١ ــ خالد : هو ابن يزيد بن معاوية . كابي الزِّناد : أي الزِّناد الذي لا يقدح ناراً فلا جدوى ولا نفع منه ، مهما عولج . الغُمر : هنا من لاشأن له .

م : يرثي يزيد بن معاوية ويقول إن ابنه خالداً أنزل به في القبر امرءاً حسن الفعال ، عظيم القَدْر .

٢ ــ حُوَّارين : قرية من أعمال حمص . مات فيها يزيد بن معاوية . الغَوادي : جمع غادية وهي أمطار الصَّباح . ثَويّ : هنا الثّاوي في قَبْره .

م : يقول إنّه دفن في موضع حُوّارين ، لا طاقة له على مبارحته . ويستسقي له ولقبره الأمطار الغادية .

تَصيحُ المَوالي أَنْ رأَوْا أُمَّ خـالدٍ مُسلِّبَةً تَبْكي على الماجِدِ الغَمْـرِ ١

إذا جاءَ سِرْبٌ مِنْ نساءٍ يَعُدنَهـــا تَعَرَّين ، إلاَّ مِن جلابيبَ أَو خُمْرِ ٢

خُلاصة في مدحه ليزيد : ويُمْكن أن نوجز خصائص مدحه ليَزيد بما يلي :

١ ــ أَن الموضوعات الجانبيَّة الإستطراديَّة تعاظمت فيه على المدح المباشر ، اذ ان نسبة الأبيات المدحيّة إلى الأبيات الوصفيَّة لا تعدو السِّدس ، تقريباً . فالأخطل كان ، بعد ، في مرحله من التطوُّر الشِّعري حَيْثُ كان يَنْصرف انصرافاً جمالياً ، إذا جاز التَّعبير ، يتبارى فيه مع شعراء النَّاقة والثّور والصَّيد والصحراء وما أشبه من موضوعاتٍ والجة في عمود القصيدة العربية :

٢ ــ ان المعاني المدحيَّة وردت باهتة إلاّ في الدَّاليَّة وأنه اقتصر فيها على ذكر حماية يزيد له ، ولم يكد يحشدُ له حشداً ملحمياً ، كما سنرى في امتداحه لعبد الملك . ذاك أن يزيد لم يكن قد اكتسب هالة الملك والسُّلطة .

٣ ــ أنَّه لم يمتدح أَباه بقصيدة خاصَّة ، بل أَضْمر مدحه أو أَظهره من خلال مدائح يزيد .

---

١ ــ أمّ خالدٍ : هي امرأة يزيد وهي فاختة بنت هاشم بن ربيعة . المُسَلبة : اللابسة الأردية السّوداء .

م : يقول إن الموالي أخذوا يصيحون ويعولون ، إذ رأوا زوجة معولة ، باكية ، متّشحة بالسّواد .

٢ ــ الجلابيب ـ جمع جِلْباب وهو الإزار . الخُمر : جمع خُمار وهو قناع المرأة .

م : يقول ان النّساء يفِدْنَ إلَيْها معزّيات ، وقد شقَقْنَ ثيابهنَّ تفجعاً عليه ولم يبْقَ عليهن إلا الإزار والخمار .

م : يقول إنهنَّ إذ يخرجْن في طلب حاجة ، فإن تألقّ النّور على وجوههن يغالب النّور المُنبعث من خَصاص نوافذهنَّ ويكسِفُه .

٤ ــ أن الاقتباس من النّابغة يطغى على معظم معانيه ، وبخاصّة في وصف الكرم وتمثيله بفيض الفُرات وانماء الصفّة الخارقة للممدوح من مقارنته بالأولياء .

٥ ــ ان النّزعة التّجسيديّة سَمَتْ بمعانيه إذ أَدّتْ لها أداءها في إطارٍ من الرُّؤيا الحسيّة التي تستحضرها في حدود البصر وسائر الحواس .

٦ ــ أن المقدّمات التقليدية من وصف للطلل والمفازة والمطيّة قد صحبَتْها . وبما تعاظمت عليها ، كما قدّمنا .

الباب الثالث

مدائحه في سائر الأمويين وولاتهم

وللأخطل هذه القصيدة في عبد الله بن معاوية بن أبي سُفْيان .، يستهلّها كعادته بذكر الأحبّة الرّاحلين . ويتشبّه ، إثر رحيلهنّ ، بمن صرَعَتْه الخَمْرة الكريمة المُتَحَدِّرة من كروم الأعاجم المَرْويّة ومن العنب المُتوهّج في الشّمس والعصير الخالص من القذى والغثاء . ويعود إلى ذكر الظّاعنات المُتألّقات الوجوه . الشّبيهات بالظّباء ، ثمّ يُقْسم بإله موسى والزُّهاد بأنّه سينْظم مدحة في عبد الله بن معاوية ويمتدحه بالتقدّم والعراقة وبذل المعروف ويميل إلى تعظيم الأمويّين لما آثرهم الله به من نعم وما طُبعوا عليه من كرم وكمال ، ويمتدح معاوية بحكمته وحلمه وانتصاره على أعدائه بكتائبه الكثيرة العَدَد ، معدّداً القبائل التي ألحق بها الهلاك ، بعد أن حَنِثَتْ بعهودها وتبعَتْه بالحلم والهيبة ، ثم يلوذ إلى عبد الله ، مظهراً شغفه به واعتصامه بحبله على ما يعتريه من مصائب . ويُنهي القصيدة بامتداح ابن أحمر اليشكري الذي يزيل عنه الغمّ ويقوم مقامه في غيبته ويفي بعهده ، فيما يتولّى عنه الآخرون . ومن البَيِّن أن الشّاعر تعمّد مدح الأمويين ومعاوية ، ولم يكد يلمُّ بعبد الله إلا في أبيات قليلة ، لأنّه كان قُعَدة ، قليل الشّأن ، يمدحه الشّعراء

فتصلهم أمّه . وفيما يلي نجتزىء بذكر قَسَمِه وما امتدح به أباه معاوية ، على أن نُعرِّج على سائر القصيدة في بحثنا عن معانيه العامة :

وَلَقَدْ حلَفْتُ بِربِّ موسَى جاهِداً ... والبَيْتِ ذي الحُرُماتِ والأَسْتارِ ١
وَبِكُلِّ مُهْتَبِلٍ عَلَيْهِ مُسوحُهُ ... دونَ السَّماءِ مُسَبِّحٍ جأَّارِ ٢
لأُحبِّرَنْ لابْنِ الخليفَةِ مِدحَةً ... وَلأَقْذِفَنَّ بها إلى الأَمْصارِ ٣
قَرْمٌ تَمَهلَ في أُميَّةَ لَمْ يَكُنْ ... فيها بذي أُبنٍ ولا خَوارِ ٤
بُنِيَتْ قَناتُكَ مِنْهُمُ في أُسْرَةٍ ... بِيضِ الوجوهِ مصالتٍ أَخْيارِ ٥

---

١ ــ م : يقسم بإله موسى والكَعْبَة ذات الأستار العظمية الحرمة .

٢ ــ المُهْتَبل : هنا الرّاهب . جأّار : رافع للصوت . المُسُوح : جمع مُسْح. رداء غليظ للزّهاد .

م : يقسم بإله الرهبان المُتَزَهّدين الّذين يرتدون المُسوح ، ولا يزالون يسبّحون الله ويرفعون إليه أدعيتهم بأصوات مترنّمة مُرْتفعة .

٣ ــ م : يقسم أنّه سينظم في ابن الخليفة ــ أي في عبد الله بن معاوية ــ قصيدة تتذيّع وتشيع ، حتى تغشى الآفاق .

٤ ــ القَرم : الفَحل وهنا السيّد القويّ . تمهّل : سبَق وتقدّم . الأُبَن : العوَج . الخوّار : الضّعيف .

م : يشرع في امتداحه ويقول إنّه متقدّم ، سبّاق في الأمويين ، وإنّه خالص النّسب فيهم ، قويّ ، لا يعتريه الضّعف والهوان .

٥ ــ الأسرة : هنا الفَصيلة . مصالِت : جمع مصلات : القويّ ، الصُّلب . القَناة : هنا العزُّ و المجد .

م : يقول إنّه تحدّر من أسرة كريمة ، قويّة ، فاضلة ، وإنّه اكتسب مجده وضاعفه وقوّاه بمجدها .

جُهَراءُ للمَعْروفِ حينَ تَراهُمُ حُلَماءُ غَيْرُ تنابِلٍ أَشْرارِ ١
قَوْمٌ إذا بسَطَ الإلَهُ ربيعَهُمْ دارَتْ رحاهُ بِمُسْبِلٍ دَوَّارِ ٢
واذا أُريدَ بهمْ عُقوبَةُ فاجر مَطرَتْ صواعقُهُمْ عليه بنار ٣
قوْم هُمُ نالُوا التَّمام وأَزْحَفَتْ عَنْهُ مُذارِعُ آخرينَ قِصار ٤
وأَبوكَ صاحِبُ يوم ِ أذرُح إذْ أَبى الحكَمانِ غيرَ تهايُبٍ وضِرَارِ ٥
لَما تُبُحثَتِ الضَّغائِنُ بَيْنَهُمْ أَفْضى وسار بِجَحْفَلٍ جَرّارِ ٦

وللأخطل ، أيضاً هذه القصيدة في مدح عبد الله ويزيد ابني معاوية بن أبي سفيان ، استهلّها بالحديث عن صاحبته ضُبيرة وارتحالها والمواضع التي ألمت بها في رحيلها ، والمنازل التي خلّفَتْها إثرها وآلام الفراق التي أوْرَثَتْه إيّاها ، ثم يستطرد إلى وصف

---

١ ــ الجهير : هنا الخَليق ، المُجاهر . تنابل : جمع تِنْبال : الرَّجُل الخامل الدّميم .
م : يقول إنّهم يهرعون لأداء المعْروف وبذل الخير وإنهم حُلماء ، غير خاملين ولا يواقعون الشرّ .
٢ ــ الرّحى : هنا معظم السحاب .
م : يقول إذا منّ الله وأغدق عليهم نِعْمة ، لا يقْصرون خيرَها على أنْفسهم ، بل يدرُّون منها إلى النّاس .
٣ ــ م : يقول إنّهم يهرعون إلى البذْل والمعروف ، إلاّ أنهم إذا عقدوا العزم على معاقبة فاجر ، مارق من الأخلاق والدين ، فإنّهم يُصْلونه بنار غضَبهم ويُجهْزون عليه .
٤ ــ أزْحفتْ : اتّسعت وعدلت . مَذارع : جمع مِذْراع وهي قوائم الدّابة .
م : يقول إنّهم أدركوا غاية الكمال ، فيما قصرّ عنه الآخرون . ولقد توسّل بلفظة « مِذراع » للتحقير والزّراية .
٥ ــ أذرُح : بلدة بأطراف الشّام ، فيها اجتمع الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري .
م : يمتدح أباه معاوية ويشير إلى ما كان من أمر التحْكيم في بلدة أذرح ، إذ اختصم الحكمان وقطع معاوية ذلك ببسالته ودهائه .
٦ ــ تُبُحثَت : فشتْ .

النّاقة القويّة ، الشّديدة الاحتمال للهاجرة التي قد توفي به إليها ، ويشبّهها بالثّور الوحشيّ الذي أثارتْه وأفزعتْه كلاب الصّيد ذوات الآذان المُتَهدّلة ، فجعل يرمحها بقَرْنيه ويُرْديها . ثم يشبّهها بالفَحل الذي جفّت مراعيه ويبس نبتُها ، فساق أُتْنَه وزَجرَها إلى ماء كان يترصّدهُ فيه الصّيادون الماهرون العريقون في هواية القَنْص والذين دَسُمَتْ عمائمهم لكثرة ما التصق بها من دهْن الطّرائد ، ثم يصف ترصُّدهم للطّرائد وقسيّهم المَشْدودة وتصويبهم لسهامهم المُتَخطّفة كالشّهب التي لم تُصِبِ الهدَف وإنْ كانتْ قد همّت به .

ويميل ، إثرئذ ، إلى امتداح عبد الله ويزيد ابني معاوية ، ويشيدُ بما كان من أمر حمايتهما له وإغداقهما عليه ويعظم من أمر يزيد الذي هرع إلى نَجدْته كالرُّمح الصُّلب، ويمتدحه بشرَف والدته ويشبّهه بالبازي الذي ينقضّ على سائر الطيور، ويعرّج على امتداح الأمويين ، عامة ، بالحلْم والرّصانة وإيثار الله لهم بالمُلْك والسّلطة والنّصر ، كما يعظم من كرَمهم وامتناعهم عن المنّة وينقطع إلى مدح عبد الله بن معاوية الذي قرّبه وكفاه ويشبّه عطاءه بالفُرات ، ويعود إلى امتداح الأمويين ويشير إلى موقعه مرج راهط ويُنْمي إليهم بها صُوَراً مَلْحميّة ويشير إلى ما كان من أمرهم في صفّين التي ثأروا فيها لمقتل عثمان ويُشيد بكرمهم وهرعهم إلى نجدة المُعْتفين والمُعوزين ، إذا ما ضنّ المُوسرون عليهم ، عندما تعصف بهم ريح الشّتاء ويعمُّ الجدْب .

وقد يَجْدر بنا أنْنتريّثَ ، قليلاً ، عند هذه القصيدة إذ باتت تطالعنا فيها الأجْواء الملحميَّة الحاشِدة في مثل قَوْله :

وَيَوْمَ صِفِّين ، والأَبْصارُ خاشِعــةٌ أَمدَّهُم ، إذْ دعَوا، مِنْ رَبهمِمَدَدُ ١
على الأُولى قَتَلوا عُثمانَ ، مَظْلِمَــةً لَمْ يَنْهَهُمْ نَشَدٌ عَنْهُ ، وَقَد نشدوا ٢

---

١ – ٢ – م : يذكر ما كان من أمر الأمويين ومعاوية في معركة صفّين ، ويقول إن الأبصار كانت خاشعة تهيّباً من المَوْقف ، إلاّ أن الله أمدّ الأمويّين بنصره على الذين غَدروا بعثمان ، وقد نوشدوا في مُناصرته والذّوْد عنه ، فلم يَرْتَدِعوا ، بل إنّهم أمْعنوا في ضلالهم .

فَثَم قَرَّتْ عُيونُ الثّائرينَ بِــــه وأدْركوا كُلَّ تَبْلٍ عِنْدَهُ قَــوَدُ [1]

فَلَمْ تزَلْ فَيْلَقٌ خَضْراءُ تَحْطِمُهــم تَنْعى ابنَ عَفّانَ ، حتى أفْرخَ الصَّيَدُ [2]

وأَنْتُمُ أَهْلُ بَيْتٍ ، لا يُوازِنُهُــمْ بَيْتٌ ، إذا عُدَّتِ الأَحْسابُ والعدَدُ [3]

أَيديكُمُ ، فَوْقَ أَيدي النَّاسِ ،فاضِلَةٌ فَلَنْ يُوَازِنَكُمْ شِيبٌ ولا مُـــرُدُ [4]

لا يَزْمهِرُّ ، غَداةَ الدَّجْنِ ، حاجِبُهُم ولا أَضِنَّاءُ بالمِقْرى ، وإنْ ثَمِدوا [5]

١ – التبْل : الترة . القَوَد : القِصاص .

م : يقول إنّه إثر انتصار الأمويّين ، قرّت عيون الذين ثاروا للغَدْر بعثمان ، وكان ما أوقع بهم من هزيمة وقتل ، عقاباً لهم لقَتْلهم عثمان وإباءة بالثّأر منهم .

٢ – الفَيْلَق : الكتيبة الضّخمة . أفْرَخَ : سكَنَ وهَدأ .

م : يقول إنّهم ظلّوا يقاتلونهم ويضربون في أعقابهم ، ثأراً لعُثمان ، حتى تخلّوا عن كبرهم وعتوّهم .

٣ – يمتدح الأمويين ويقول إنّه ليس في أنساب النّاس ما يُضاهي أنسابهم ، ولا في عدَدهم ما يوازي كثرتهم .

٤ – يقول إنّ أيديهم تطال ما يقصّر عنه الآخرون ، فلا يجاريهم ولا يسمو إليْهم سائر النّاس ، أكانوا شيباً أم فتياناً .

٥ – لا يَزْمَهر : لا يَتَعَبّس . الدَّجن : هنا الشّتاء . المِقْرى : أوعية الطعام . ثمدوا : قلّ ما عندهم .

م : يقول إن حاجِبَهم لا يتعبّس ويصدُّ بوجه المُعْتَفين ، عندما يَشْتدُّ العوز بالناس شتاءً .

قَوْمٌ ، إذا ضَنَّ أَقوامٌ ذوُو سَعَةٍ وحاذَرُوا حَضرة العافينَ أَوْ جحِدوا[1]

بارَزُوا جُمادى بشِيزاهُمْ ، مُكَلَّلَةً فيها خَليطانِ واري الشَّحْمِ والكَبِدُ[2]

المُطْعِمون ، إذا هَبَّتْ شآمِيَةٌ غَبْراءُ يُجحَرُ ، مِن شَفَّانها ، الصَرِدُ[3]

وإنْ سأَلْتَ قُرَيشاً عَنْ ذَوَائِبِها فَهُمْ أَوائِلُها الأَعْلَونَ والسَّنَدُ[4]

وَلَوْ يُجَمَّعُ رِفْدُ النَّاسِ كُلِّهِمِ لَمْ يَرْفِدِ النَّاسُ إلاَّ دونَ ما رَفَدوا[5]

والمُسْلِمُون بخَيْرٍ ما بَقِيتَ لَهُمْ وَلَيْسَ بَعْدَكَ خيرٌ حينَ تُفْتَقَدُ[6]

١ ـ ٢ ـ جَحِدوا : أي أنكروا أن لديهم رزقاً أو مالاً . جُمادى : هنا للتدليل على الشّتاء القاسي . الشيزى : القُدور التي تُصنع من شيز ، وهو ضرب من الخَشَب الأسود . مُكَلّلة : مَمْلوءة . الواري : السمين .

م : يمتدحهم بالكرم ويقول : إذا ما ضنّ القوم الموسرون ، وجعلوا يُحاذِرون إرتياد العافين ، أي طالبي المَعْروف لديارهم وأنكروا أن يكونوا مُوسَعين ، مَيْسورين ، فإن الأمويين يعارضون جُمادى أي الشّتاء بإغداقهم على النّاس وبذلهم لهم ، فهو ينزل لهم الضّيق والضّيم ، وهم يَرْفعونهما عن كاهل النّاس ، بما يبذلونه في قصاعهم وقدورهم الكبيرة من طعام ولحوم دَسِمة .

٣ ـ الشّآمية : أي ريح شآمية . غبراء : تُثير الغُبار . يُجْحَر : يُحْبس . شفّانها : الرّيح الباردة ، الصّردُ : المُصاب بالبرد .

م : يكرّر معنى البَيت السّابق ، ويقول إنّهم لا يزالون يُطعمون النّاس فيما تعصف الرّيح الشآمية الباردة ، مثيرة الغُبار ، حابسة النّاس من شدة الصّقيع .

٤ ـ ذَوائِبها : جمع ذؤابة : النّاصية ، وقد مثّل بها هنا غاية الشّرف والسّؤدد .

م : يقول إن بني قريش يُقرّون للأمويين بسيادتهم وسؤددهم وتقدُّمهم عليهم ، جميعاً .

٥ ـ الرّفد : العَطاء .

م : أي أن ما قد يَبْذله النّاس ، جميعاً ، من عطاء ، لا يوازي عطايا الأمويين .

٦ ـ م : ينهي القصيدة بالقَوْل إن سلامته تُديم للمُسلمين سلامتهم ، فإذا أفتُقِدَ ولّت ، إثره ، وامتَنع الخيرُ عنهم .

فأنت لو نظرت في هذه الأبيات لبدا لك أن صورة الأمويين تهيمن عليها، فيما تتضاءل المعاني التي خصّ بها ممدوحيه عبد الله ويزيد. فهو يخاطبهما ظاهراً، لكنه يدعو ضمناً وعلناً للأمويين، يتغنّى بأمجادهم ويعدّد مآثرهم، ترفده تلك النبرة الخطابيّة التي تنفح في معانيه العنجهيّة والعنفوان والملحميّة. ومنذ هذه القصيدة يشرع الأخطل في تأييد دعوتهم، ذاهباً مذهبهم فيها، وبخاصة في أمر القتال والتحكيم بصفّين، إذ كانت أبصار المسلمين ترقّب واجفة، فاذا بارادة الله تنزل بتأييدهم على أعدائهم: «أمدّهم، إذ دعوا من ربّهم مددُ». وذكر الله في هذا المقام جعل لنصرهم بعداً دينيّاً كأنه إقرار لهم بأحقيّتهم في الخلافة. وليس في هذا المعنى إبتكار، وإنّما قيمته في موافقته لمقتضى الحال؛ فهو يعظم من هذا القبيل إذ يروق الممدوح، دون أن يكون له أيّ رصيد فنّي. وينحدر، من ثمّة، إلى المرافعة والاحتجاج، ذاهباً فيهما، أيضاً، مذهب الأمويّين، متّهماً خصومهم بالغدر والظّلم، إذ لم يصغوا إلى من ناشدهم في إنقاذ عثمان والكفّ عنه. وهذه المرافعة تصدف بالشّاعر عن التّعبير الصّوري، الرّائي إلى الجدل الخطابي والسّرد، ممّا يأنف منه ويعفّ عنه الشّعرُ الصّافي، المتخلّص من الشّوائب والطّفيليّات.

والأخطل يبثّ الدّعوة بثّاً عبر الأبيات الأخرى، إذ يجعل القتال والقتل عقاباً للمجرمين بجرمهم واذلالاً لهم عن كبريائهم. وبذلك ألّف الأخطل قيمتين أساسيّتين: أولاهما دينيّة إذ جعل الله نصيراً لهم والثّانية عربيّة جاهليّة، وهي نزعة الثّأر الّذي قدّسه الجاهليّون. لقد استقطب لهم طرفيْ الفضل والحق وخرّجه تخريجاً يؤاتيهم إذ يصون كرامتهم فيما هو يغالي بتقواهم، ويعظّم فضيلتهم فيما هو يغالي ببطشهم. وقد تهمد غلواء الشّاعر، حيناً، فيقتصر على المعاني الإطلاقيّة العامّة كقوله إنّهم أفضل النّاس في الحسب والعدد. وهو قول نثريّ، داني المتناول، يكرّره ويتمطّى به، مفصّلاً: «فلن يوازنكم شيبٌ ولا مردُ» دون أن يوفّق في السّموّ به ونفحه بروح الشّعر. وقد تراه متكنّياً: «لا يزمهرُ، غداة الدّجن حاجبهم» «باروا جمادى بشيزاهم»

إلا أن الوعي يسطع في الأبيات كُلِّها بمعنى الضِّيافة في أعراضها السّاقطة، اللّامجدية: «واري الشّحم والكبدُ». وفضلاً عن كَوْنِ المَعْنَى مَطْرُوقاً هنا، فان الشّاعر حبا به حبواً وتزاحف. مؤدِّياً معنى مَدْحيّاً عامّاً، فاقدَ الدّلالة، بخلاف مَدْحهم في نُهُودهم إلى الاباءة بالثّأر. ولا تعدو الأبيات الأخيرة هذا الوعي الأخلاقي السّاطع، والفاقد الايحاء لتعمدُّ الشّاعر التّقييم الاجتماعي.

وحتّى هذه الأبيات لمّا نَعثر على النّفحةِ الأخطاليّة الخاصّة في المَدْح، فهو ما يزال يتروّض على المعاني يُدْرك منها فلذات ملحميّة، ابداعيّة ويتردّى، غالباً، تحت وطأة الأفكار والمعارف والقيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة الواعية.

وللأخطل قصيدة مدح في خالد بن يزيد، استطرد منها إلى هجاء القَيْسيِّين وسائر أعداء بني تَغْلب ولم يخصَّها بمطالع في ذكر الأحبة والظّعائن، بل باشر فيها مدح الأمويين بالقول إنّهم تساموا على القُرَشيين، جميعاً، وإنّهم تَسَنَّموا ذُرى المجد والسّؤدد. ويشرع بامتداح خالد بن يزيد، ويقول إنّه يشرّع أبوابه للعافين، فيما يشتدُّ القَحطط وتُنْهر الضُّيوف عن دور المُوسرين. ثم يُفصح عن شدّة إيثاره للأمويين ويعرض بعض آرائه في النّاس، مُتفاخراً.

وليس في هذه القصيدة أجواءُ مَلْحميَّة، إذ لم يَكُنُ خالد المَمْدوح ممَّن تمرّسوا بقتال ولم يؤثر عنه مجد. فتخطّاه إلى بني قومه، بعد أن اقتصر من مدحه بقرى الضَّيف. وفي هذه القصيدة تطالعنا ظاهرة مدحيَّة جديدة متّصلة بنَفْس الشّاعر وموقفه الاخلاقي إذ نجد أنّه لا يعِفُّ عن الاستجداء الصَّريح:

رأَيْتُ قُرَيشاً، حينَ ميَّزَ بيْنَها تَباحُثُ أَضْغانٍ وطَعنُ أُمُورِ ¹
عَلَتْها بُحُورٌ مِنْ أُمَيَّةَ تَرْتَقي ذُرى هَضْبَةٍ، ما فَرْعُها بِقَصيرِ ²

---

١ ـ ٢ ـ تَباحُثُ أضغان: أي النّقاش الذي كانت تسوقُهم إليه الأحقاد، ممّا أحدث شقاقاً فيهم. طَعْن: قدح. أمور: أي إزراء بعض التّدابير والأفعال الّتي قام بها رؤساؤها. الفَرْع: من كل شيء أعلاه.

م: يقول عندما اشتدّ الخصام بين القُرَشيّين وحدث فيهم الشّقاق بتنازعهم للأحقاد وبطعنهم بعضاً بالبعض الآخر، فإنّ بني أميّة سَموا على القُرَشيّين، جميعاً، وتَسنمُوا ذراها كالشجرة العظيمة الأصل.

أَخالِدُ ، ما بَوَّابُكُم بِمُلَعَّــــنٍ ولا كَلْبُكُمْ للمُعْتفــي بِعَقــورِ ١

أَخالدُ ، إياكُمْ يرى الضَّيْفُ أَهْلَهُ إذا هرَّتِ الضِّيفانَ كُلُّ ضجُورِ ٢

يَرُوْنَ قِرًى سَهْلاً ، وداراً رحيبــةً ومُنْطَلَقاً في وجْــه غَيْرِ بَسورِ ٣

أَخالِدُ أَعْلى النَّاسِ بَيْتــاً ، وَمَوْضِعاً أَغِثْنا بسيْبٍ مِــنْ نَداكَ غَزيرِ ٤

إذا ما اعتراهُ المُعْتَفــون ، تحلَّبَتْ يــداهُ بَّــريَـانِ الغَمامِ مطيرِ ٥

فالمعاني الَّتي خصَّها الشَّاعر بهذه المناسبة انطلقت من تَّمجيد الأمويين وتعظيمهم على من دُونهم في قُريش ، ثم يقبل على خالد في معانٍ ظاهرة ، يَسْتَبْطن عَبْرَها دلائلَ مَعْنويَّة . وهو لا يَعْدو ذلك الإطار الَّذي يُفيدُ فيه من التَّجارب العمليَّة

١ ـ المُعتَفي : الذي يفد طالباً الرّفد . العَقور : أي الذي يَعَضّ .

م : يشرع في هذا البيت بامتداح خالد بن يزيد . ويقول إنه يُشَرِّع أبوابه لمن يَنْتَجعونها وإن كلابه لا تهرّ الأضياف ولا تَعَضُّهم . وتحرير المعنى أن خالداً كريم ، يُحْسن إيواء الضَّيف وإعالته .

٢ ـ ضجور : هنا جماعة مُتَضجّرة من الضِّيفان .

م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ، ويقول إن الضّيوف يأوونَ إليهم . كأنّهم يأوون إلى أهلهم . فيما يكثر الجدب ، ويتَضَجّر القوم من الضّيوف الذين يفدون عليهم .

٣ ـ المنطلَق : هنا التطلّق والإشراق . بَسور : عبوس . القِرى : الضّيافة .

م : يقول إنّ أولئك الضّيفان يلقون عندهم الضّيافة الطيّبة ومكاناً وسيعاً لهم ، ووجوهاً تتبَسّم وتَتَطلّق ، ولا تعرف العبوس قطّ .

٤ ـ م : يمتدح خالداً بالعُلى ويطلب منه أن يُنيلَه من عطائه الكثير .

٥ ـ المُعْتَفون : طالبو المعروف . تَحَلّبَتْ : هنا انهمَرت . الرّيان : هنا المُمتلىء بالمَطر .

م : يقول إنّ خالداً يُمطر عطاياه إلى طالبي معروفه ، كما يَنْهمر المطر من الغمام الرّيان الكثير الدّر .

والجزئيّات الواقعيّة كالبوّاب الملعّن ، أي الذي يمنع النّاس من ولوج باب الرزق والكلب الّذي لا يَعْقر لمؤالفته القوم في إرتيادهم الدائم لاعتاب صاحبه . ولقد اقتَرَن ذكر الكلب اقتراناً حميماً بمَعْنى الضّيافة عند العرب ، منذ الجاهليّة ، عندما كانوا يَسْكنون الخيام وتَقوم الكِلابُ على حراستها . أما البوّاب ، فهو ممّا طرَأ واستجدّ عليهم، منذ قيامهم في قصور الحواضر . وقد تعانق في هذا البيت القديم والحديث ، رغم تعارضهما . فلَيْس من المُستَساغ أن يَمْتدحَ شاعرٌ أميراً في قَصْره، ذاكراً قيام الكلاب على بابه لحراسته، بل أحرى به أن يقيم الجند ومن إليهم . إلاّ أن الأخْطَل لم يَهْدِفْ من ذكر الكلاب إلى حدث فعلي ، بل إلى إشارة إيحائيّة ، مأثورة . ومهما يكن فانّ مظاهر الحديث شرَعَتْ تتسرَّب إلى القديم بصورة عفَويّة ، هادئة ، كما نَقَعُ عليها في هذا البيت . ثم إنّ الأخطل لا يَحْرج من السُّؤال : « أَغثنا بسَيْبٍ من نَدَاكَ عزيز » وهو أمر عفّ عن التّصريح به في امتداحه ليزيد . ولا نَنْسَينّ ان الشّاعر لم يُوَطِّد لنفْسه بعد ، في البلاط ، كما أنّه لم يَغْدُ سفير التّغلبيين . المقاتلين إلى جنْب الأمويين ، ليفيدَ من ذلك دالةً بَلْ منّةً علَيْهم . وربّما مهّد لذلك في مثل قوله :

وَلَوْ سُئِلَتْ عَنّي أُمَيّةُ خَبَّرتْ لَهَا باخٍ ، حامِي الذِّمارِ ، نَصُور[1]
إِذَا انْقَشَعتْ عنِّي ضَبَابَةُ مَعْشَرٍ شَدَدْت لأُخْرى محمَلي وَزُرُوري[2]

وهو إذ يمتدح عبّاد بن زياد ، يَنْحى هذا النّحو ، لا يستهلُّ بالطلل بل بهجاء بني الصّمعاء ، قوم عمير بن الحباب ، في بخلهم وصعوبة انتجاع ديارهم على

---

١ ــ م : يقول إنّه إذا تحرّى عن موقفه من الأمويّين ، يرى فيه خير نصير ، يَحْمي ذمارهم كالأخ الذي يُدافع عن شقيقه في المُلمّات .

٢ ــ المَحْمَل : هنا جفن السّيف . زُروري : يعني هنا السّلاح .

م : يقول إذا ما تفرّق بعض القوم ومالوا عنّي ، بعد أن أوقعْتُ بهم ، فإنّني أهْرع بسلاحي لملاقاة سواهم .

المُعْتَفِين . ويهجو ابن واسع ببُخْله ويَلْعَنه وقومَه الذين لا يحرصون على حماية عرضهم ، وينتقل إلى مدح عبّاد ، مُقابلاً بينه وبين ابن واسع ، ويمتدحه بالكرَم ويصف المطايا التي ارْتحل إليه عليْها ، ويقول إنّها لهُزالها بدَتْ كأخْشاب القِسيّ وإنّها أخذت تُجْهِض أولادها ، فيما تغوّرت عيونُها ، فبدَتْ كنقْرة الجبل الفارغة من الماء ، وإنّها ، مع ذلك ، لم تكُفّ عن السير ، لتَبْلغ إلى عبّاد وتَنْتَجع عطاءه ، ثم يمْتدحه بصَبْره على النّوائب ووفائه لذوي الرّحم وبالخير الذي ينعم به وانتجاع بائسي الحجاز لدياره ، عندما يشتدّ عليهم الشّتاء وعصف الرّيح ، ويمثّله بالهلال الذي يبدّد ظلام الخطوب ويعدّد عطاياه ويعظّم من أمرها ، ويُشيد بوَرَعه للضّيف والطّعام الذي يقدّمه له من خلال الإبل التي يَنْحرها والقدور الملأى باللّحم ، ويُنْهي القصيدة بالقَوْل إن الطّير والسباع تلحق به فيما ينهض للثّأر من أعدائه . وهو يعرّج على المدح بقوله ، بعد وصف المطايا وخوضها في السَّراب :

يَعُمْنَ بنا عوْمَ السفينِ ، إذا انجلَتْ سحــابةُ وضّاحِ السّرابِ ، خَبوبِ ١
إلَيْكَ أبا حَرْبٍ ، تدافَعْنَ بعدَمــا وَصَلْنَ لِشَمْسٍ مَطْلَعــاً بغُروبِ ٢
إلى مُسْتَقِل بالنَّوائبِ ، واصِـــلٍ قَرابةَ فياضِ العطـــاءِ ، وَهــوبِ ٣

م : يقول إنّه يجتاز بها سُبُلاً قديمة مُضَلِّلة تبدو أعلامها . فيما يَغْشاها السراب ، كرجال اعتصبوا بقطع الكتان .
١ ــ العَوم : هنا الارتفاع في السبّاحة . الوَضّاح : الطّريق . السّحابة : هنا السّراب . الخبوب : المُضْطرب على الأرض .
م : يقول إنّ تلك المَطايا تَرتَفع في تَصْعيدها ، كأنّها تعوم بهم عوماً ، عندما يَنْجلي السّراب المُضطرب وتبدو من دونه الطّريق الواضحة المعالم .
٢ ــ م : يخاطب المَمْدوح ، ويقول إنها كانت تعدو وتَتدافع في سيْرها لتبلغَ إليك غير مُتَقطِّعة في دَأبها ، منذ الصّباح حتى المساء .
٣ ــ م : يمتدحه ، ويقول إنّه لا يزال يهزأ بالنّوائب التي تحلّ به ، وإنّه يفي بذوي الرّحم ، وإنّه لا يزال يُغْدق العطاء والرِّفد .

وما أَرضُ عبّادٍ ، إذا ما هَبَطْتَهـا ، بحَزْنٍ ولا أَعْطانُهـا بجُـدُوبِ ١
رَبيعٌ لهُلاَّكِ الحجازِ ، إذا ارْتَمَتْ رِياحُ الثُّرَيَّا مِنْ صَبـاً وجَنُـوبِ ٢
وطارتْ بأَكْنافِ البُيوتِ ، وحارَدَتْ عنِ الضَّيْفِ والجيرانِ ، كلُّ حَلوبِ ٣
إليْهِ أَشار النـاظِرونَ ، كَأَنَّهُ هِلالٌ بَدا مِنْ قُتْمَةٍ وغُيـوبِ ٤
ولَوْلا أَبُـو حرْبٍ وَفَضْلُ نـوالِـهِ عَلَيْنَا ، أَتـانا دَهْرُنـا بخُطوبِ ٥
حباني بطِرْفٍ أَعـوَجِي وقَيْنَـةٍ مِنَ البربرياتِ الحَصانِ ، لَعوبِ ٦

١ ــ الحَزْن : ما غَلُظ من الأرض . أعطانُها : منازلها .

م : يقول إنّك إذا ما نزلْتَ في دياره لا تُلْفيها مُجْدبة قاحلة بل إنّها ذات خصْب ، يشير بذلك إلى ثراء المَمْدوح والخير الذي يَنْعم فيه . مُعارضاً بينه وبين القَوْم الذين هجاهم في هذه القصيدة بالقَول إنّهم يُقيمون في أرض حَرّة مُجْدبة .

٢ ــ الهُلاّك : هنا المُصابون بالجوع والهزال .

م : يقول إن بائسي الحجاز المُصابين بالجوع والإملاق ، لا يزالون يَفْزَعون إليك . عندما يشتد عصف الشتاء ويحاصرهم الجدب والفَقْر .

٣ ــ حارَدَتْ : انقطعَ لبَنُها .

م : يستكمل المعنى الذي يصف به الشّتاء . ويقول إن الريح تَعْصف فيه حول البُيوت وتطير أكنافها . فيما ينقطع لبن الإبل ويضنُّ به على الجيران ومن يطرأ من الضُّيوف . أي أنّه يعطي فيما يعز العطاء .

٤ ــ م : يقول إنّه إذ تدلهمّ المصائب ويظْلم مصير النّاس ، فإنّه يطْلَع عليهم كالهلال من خلال الظّلمة والغيْب . أي أنّه لا يزال يُيقل النّاس عثراتهم ويُنْجيهم من الخُطوب التي تحل بهم .

٥ ــ م : يقول إن عطايا المَمْدوح أنقَذَتْه من وَيلات كان الدَّهر مُزْمعاً أن ينزلها به .

٦ ــ م : يقول إنّه منحه إبلاً أعوجيّة كريمة وجارية بربريّةً مُحْصَنة ، ذات دلٍّ .

وحمالُ أَثْقالٍ ، وَفَراجُ غَمْـــرَةٍ وَغَيْثٌ لمَجْلومِ السَّوامِ حـــريبِ[1]

كريمُ الضَّيْفِ ، لا عاتمُ القِرى ولا عِنْدَ أَطْرافِ القَنـــا بهَيـــوبِ[2]

وهذه الأبيات تختلف على معانٍ مُتَعَدّدة إلاّ أن ثمّة معنى عامّاً يُهَيْمِن علَيْها ، هو معنى الكرم الّذي يَهَبُ ويفيضُ ويَغْشي الثّرى أو يَنْبَعِثُ منه والّذي يعارض القحط والشّتاء كأنه الرّبيع الدّائم . فَهُوَ يَعْرِض للكرم ، حيناً ، بنُعوتِ الكَثْرة : « فيّاض ، وهوب » ووزنا « فَعّال » و « فَعُول » هما من أمثلة المبالغة التي تدلُّ على الكثْرة بطبيعة صياغتها ، ممّا يُسِفُّ من وظيفةِ الخَلْقِ في شعره ، ويُحطُّ من قدرها . ويجري على غرار ذلك تكراره للنُّعوت وتلاحُقُها ، إذ أنّه ضَرْبٌ من الحَشْدِ الآليِّ التّجريدي ، لا يُعتِّمُ أن يَنْهضَ عليه بالكناية القريبة اللّطيفة : « وما أرض . . . بحزن وما أعطانُها بجدُوب » أي أنَّ منتَجَعه مُنْتجعُ خصب . وقد مثّله من خلال أرضه ومقامه ، كما أنّه يَتخلّص إلى نوع من المعارضة والمناقضة ليَفيدَ منه الغُلوَّ . فالشّتاء لا يزالُ يَرْمز إلى الفقر والاملاقِ والهلاك في ذهن العربيّ ، إذ تقفر فيه الطّبيعة . وهي أمُّ البدائي ، يرتضع فيها من أثْداء الأرْض . فإمّا جَفّتْ وأيبسَتْ ضاقَتْ حيلَتُه وأَحْدقَ به الإملاقُ . والشّاعر العربيّ قلّما يُسمّي الشّتاء بأسمه ، فيَتكَنّى علَيْه بأَحْداثه في ذُروتها المُطْلَقَة : « رياحُ الثُّريّا من صباً وجنوب » ورياح الثريّا هي ريح المطر والعاصفة والصّقيع ، تهبُّ حول البيوت ، فيَجفُّ المَرْعَى وتَجفُّ ، من دُونه ، أثداءُ الماشية .

١ ـ المَجْلوم : الذي أخذ الدّهر ماله . السّوام : الإبل الرّاعية . الحريب : المَسْلوب المال .

م : يقول إنّه لا يزال يحمل عن الناس أعباءهم ويفرج أحزانهم ويُنجد من أصابه الدّهر بإبله وماله ويعوّضه عنها .

٢ ـ عتّم : حبَس وأخّر .

م : يقول إنّه يكرم ضيفَه ولا يحبس عنه الرّفد والقِرى ، بل يعجلهما له ، كما أنّه لا يهاب القتال بل يقتحمه مُتعرّضاً فيه للمخاطر .

هكذا تمّ تلك الصّورة السّلبيّة ، وكما أقبل كالرّبيع فيما تقدّم ، فإنّه يُقبل الآن كالهلال :

إليه أشار النّاظِرُونَ كَـــأنّــهُ هلالٌ بــدا من قُتْمــــةٍ وَغُيوبِ

ذاكَ كانَ وجهاً من وجوه كرمه . يُنقذ به هلاّك الحجاز ويُقبِلُ عليهم كالرّبيع أو يطلّ كالهلال. وهناك وَجْهٌ آخرُ ، بل وَجْه خاص بالشّاعر ، عدّد فيه مظاهر الكرم الّذي يُؤْثره ويطيبُ له والّذي يتمثّل بالإبل الأعوجيّة والجواري الجميلات العذارى . وذكره للأُمور الأخيرة هو ضرب من الاستجداء في استعطاءِ ما لم يُعْطَ وتحقيق ما لم يَتحقّقْ . هذا مدح لا يُثيره الإعجاب ولا يَضْفِرُه أو يُظلّه ولا تَشْحذه الإلْفَةُ أوْ المودّة .

وللأخطل قصيدة في مدح سَلْمِ بن زياد . استهلّها بذكر صاحبته ميّ ، ونأيها وتهدُّمه وهرمه وهزء النِّساء به . ثمّ يصف الظّعائن ويشبّهها بالسّفن والنّخيل الذي يغمره الآل . وبعد أن يؤدّي بعض خطرات في طبع النّساء وغدرهنّ ، يشير إلى صَحْبه الذين صحبهم في الفلاة ، حيث تعصّفَتِ الرِّيح بعمائمهم ، وإلى النّاقة التي امْتطاها إلى الممْدوح ، وهي تسرع في عَدْوها ويشبّهها بالثّور الوحشيّ الذي يستطرد إلى ذكره في أبيات عديدة ، واصفاً التجاءه إلى شجرة العضاه والمطر والرّيح ومطالعة الكلاب له غبّ الصّباح وهروعها إليه لاحقة به وارتداده عليها وطعنه لها بقرنَيْه مخلفاً إيّاها من دونه . ثمّ يعود إلى ذكر المطايا والآل الذي خاضت فيه ، وهزالها من عناء السّير ويشبّهها بالذّئاب العادية في القَفْر ويتخلّص من ذلك كلّه إلى سَلْم بن زياد، فيمتدحُهُ بحسن الضّيافة والشجاعة والمودّة والنُّصح والعزم وبالكرم في احتمال الدّيات. ولا تعدو أبيات المدح السّتّة كما يلي :

إلى امرئٍ لا تَخَطّاهُ الرِّفاقُ ، ولا جَذْبِ الخِوانِ ، إذا ما استُبطيءَ المرق [1]

---

١ — م : يلم في هذا البيت بالمدح المباشر ، ويقول إنّها كانت تسير إلى امرىء سبّاق ، يكرم الضّيف ولا يزال خوانُه معدّاً له .

صُلْبِ الحيازِيمِ ، لا هَذْرِ الكلامِ ،إذا هَزَّ القَناةَ ، ولا مُسْتَعْجِلٌ زَهِقُ ١
وأَنْتَ يا بْنَ زيادٍ عِندنا حَسَنٌ مِنْكَ البَلاءُ ، وَأَنْتَ النّاصِحُ الشَّفِقُ ٢
والمُسْتَقِلُّ بأَمْرٍ ، ما يَقومُ لَهُ غُسٌّ مِنَ القَوْمِ ،رِعْديدٌ، ولافَرِقُ ٣
وأَنْتَ خيرُ ابنِ أُخْتٍ ،يُسْتَطافُ بهِ إذا تزَعْزَعَ فوْقَ الفَيلَقِ الخِرَقُ ٤
مُوَطأُ البَيْتِ ، محْمُودٌ شمائِلُهُ عِنْدَ الحَمَالَةِ ، لا كَزٌّ ولا وَعِقُ ٥

ومعاني هذه الأبيات تَنْصرف إلى المدح بالقوّة والشّجاعة والحكمة فَضْلاً عن الكرم ولا تختّص بخاصّة تُؤْثر فيما دون ذلك .

خلاصة حول مدحه لبني سفيان : قد تُعْتبر مدائحُه في السُّفيانيين سبيلا له إلى التمرُّس برياضة النَّظم في شتَّى موضوعاته ومعانيه . ففيها ذكر الطَّلل والحبيبة والظَّعينة والمفازة والصَّيْد والثّور والمطر والبَرْق والرَّعْد ، وكُلُّ غرض

١ ــ الحيَازيم : جمع حيزوم وهو هنا الصَّدر . الهذَر : الكلام الكثير . زَهِق : عديم الصَّبر .
م : يمتدحه بالشّجاعة والإقدام على الحرب غير مستعيض عنها بالكلام ولا متضجّر فيها ، قليل الصَّبر .
٢ ــ م : يخاطب المَمْدوح ويقول له إنك قدَّمت لنا الحُسْنى والنُّصح والمودَّة .
٣ ــ الغُس : الرِّعديد ، الجَبان . الفرَق : الشّديد الفزع .
م : يقول إنّك تنهض إلى المآثر الجلّى التي يعيا من دونها الجُبناء ، الفاقدو الشّجاعة .
٤ ــ الخِرَق : جمع خِرقة : الرّاية . تزعزع : تحرك .
م : يقول إنّك خير من يفزع إليه القوم ، عندما تتحرّك الرايات وتخفق فوق الكتيبة .
٥ ــ مُوَطأُ البيت : أي أن الضيوف لا تزال تلجه وتطأُ فيه . الكَزُّ : البخيل . وَعِق : حريص . الحمالة : الدية يحملها أمرؤٌ عن سواه حقناً للدّماء .
م : يمتدحه بالكرم وحسن الضّيافة والأخلاق ، ويقول إنّك لا تزال تؤديّ الديات عن أصحابها دون تباخل أو حرص .

آخر من أغراض الشّعر. ولقد أوْفى في ذلك إلى إمتلاك ناصية العبارة والصُّورة والقُدْرة على تَلَمُّس المَظْهر المُوحي، البعيد والقَريب المَنَال، وحشد الألْفاظ في سياقها وتَوْفيقِها وتأليفها. كما أنَّه تروَّض بمُعْظَم المعاني المَدْحيَّة دون أن يوفي منها إلى ذروتها الحاشدة. ذاك أنّه كان لا يزالُ في طَوْر المهادنة السياسيَّة، يعتريه همٌّ الخلاص من أيدي الأنصار. وقد أفادَ منه في التقرّب والاستِجْداء. ولعلَّ قدومه الحديث إلى البلاط لم يُوَطِّد له في الهَيْبة، فتراه لا يحرج من الطّلب الصَّريح، ممَّا سيعفُّ عنه بعد أن يتواقع مع بني قومه إلى جانب الأمويين تواقعاً دامياً ويدرك من الأحداث جانبها الفاجع. فمدائح الأخطل متأثرة بواقعه النّفسي والاجتماعي، تَرْكُدُ بركُوده، وتتحفّز وتستثارُ به، حتّى توفي إلى أَوْجها.

الباب الرابع

مدائحه في عبد الملك بن مروان

بَحَثْنَا فيما تقدَّم علاقة الأخطل وعبد الملك ومدى دالّته عليه وإيثار أحدهما للآخر، وعدَّدنا مطالع القصائد الّتي أمْتَدَحه بها، وإنّما نودُّ أن ننوِّه فيما يلي بعنصر مهمٍّ وَلج على مدائحه في عبد الملك ولم يَسْلُفْ له ذكْرٌ إلاّ لماماً فيما تقدَّم من مدائح. ذاك هو العنصر السياسيّ الّذي ألّف بين مصيري المروانيين والتّغلبيين ووحّد بينهم في التّحالف مع الأحلاف والاقتتال مع الأعداء. وبَعْد أن كان الشّاعر يقتصر في مدائحه السّابقة على المَوْضُوعات الوصفيّة التّقليديّة جعل الآن يستطرد إلى ذكر الوقائع بَيْنَ التّغلبيّين وأعدائهم، مُفَصّلاً، ومعدّداً لأسماء الأشخاص والأحداث، حتى يُوفي إلى المديح المباشر في أبياتٍ تَطُول أو تَقْصُر، وقلّما تصفو للمدح الخالص.

ففي رائيّته التي امتدح بها عبد الملك، تفرّغ لموضوعات مُتَعدِّدة إذ نراه يستهلّ بذكر حبيبته هند ويتمنّى لها خيراً ويصفها بأوصاف الغزل ثم يتصدّى

للقيسيّين ويهزأ منهم لقتالهم بني تغلب ويشمت بانشقاقهم ، بعضاً على بعض ، ويخصّ العجلانيّين منهم بهجاء مُقْذع إذ يصور إملاقهم وحرصهم وتقتيرهم على أولادهم وقلّة قدرهم وشظف عيش نسائهم ودأبهن على الخدمة كالإماء ، حتى بُرِيَتْ أكْعابُهُنّ ، وتقيّحت أعْجازهنّ . وبعد أن يهجوهنّ بالدّنس . يعرّض بابن بدر وهربه من دونهم ، ناجياً بنَفْسه ، ويستطرد إلى وصف دقائق هربه ، ذاكراً فرسه السّريعة العدو والآل الذي خاض فيه بها ويشبّهها بالعقاب المسرعة إلى وكرها ويذكر العرق المتَصبّب منها ، ثم يهجو العامريّين الذين يبيعون أولادهم عبيداً وبني سليم الذين تولّوا من التّغلبيين ولجأوا إلى الوَعْر والأراضي السّوداء . ويفخر بعفوهم عن بني سلول ويشير إلى حقده على بني ذبيان وما كان من أمر بني دخان ويعود إلى ذكر ابن بدر ويوم الثرثار ، ويخاطب عبد الملك مُشيداً ببني قومه الذين أكْرهوا القَيْسيّين على مبايعته ويحذّره منهم ويعدّد المعارك التي انتصروا فيها ، ويفخر بذلك ولا يغفل عن فتكهم بعُمير بن الحباب وقطعهم لرأسه ، وينهي القصيدة معظماً من أمر بني قومه ، مُزْرياً بالقَيْسيّين .

وبعد أن يذكر حبيبته بقوله :

أَلا يا اسلمي يا هندُ بنتَ بني بدْرِ   وإنْ كانَ حَيانا عِدًى آخرِ الدَّهرِ

يُخاطب القيسيين :

لَقَدْ حَمَلَتْ قَيْسَ بن عَيْلانَ حَرْبُنَا   على يَابِسِ السَّيْساءِ مُحْدَوِدبِ الظَّهْرِ

ويهزأ من ابن بدر في هربه :

ونَجَّى ابنَ بَدْرٍ رَكْضُه من رماحنــا   ونضَّاحة الأَعطاف ، مُلْهَبَــة الحُضر

ويهدّد الاعداء ساخراً من هزائمهم ، ممهّداً بذلك لاستعراض قُوّته أمام الممدوح . فهذه المَقْطوعات تَلج في صلب القصيدة المَدْحيَّة ومتْنها ، وإن

كان موضوعها يتباين، ظاهراً عنها، مما سنعرض له خلال حديثنا عن أهاجي الأخْطَل ومفاخره. ولعلّه أشار إلى قليل أو كثير من ذلك في قوله:

أَعِنِّي أَميرَ المؤمنين بنَائِلٍ ... وَحُسنِ عطاءٍ، لَيْسَ بالرَّيِّثِ النَّزْرِ [1]

وأَنْتَ أَميرَ المؤمنين، وما بِنا ... إلى صُلحِ قَيْسٍ يا بنَ مَرْوانَ مِن فَقْرِ [2]

فإنْ تكُ قيسٌ، يا بْنَ مرْوان، بايَعَت ... فَقَدْ وَهِلَتْ قيسٌ إليكَ، مِنَ العُذْرِ [3]

على غَيرِ إسْلامٍ ولا عَنْ بَصيرَةٍ ... ولكنَّهُمْ سِيقوا إليكَ عَلى صُغْرِ [4]

ولَما تَبَيَّنَّا ضَلالَةَ مُصْعَبٍ ... فَتَحْنا لأَهْلِ الشَّامِ باباً مِنَ النَّصْرِ [5]

فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنَّا هَوازِنُ كُلُّها ... كواهي السُّلامي، زِيد وقْراً على وَقْرِ [6]

---

١ — م: يخاطب الخليفة ويطلب إليه أن يمدّه بعطاء كثير.

٢ — م: يقول مخاطباً الخليفة: إنّك أنت أمير المؤمنين أي إنّك صاحب السُّلطة والحول والقدرة، لا تفتقر بها إلى عقد الصُّلح مع قيس عيلان. وقد كان الأخطل يخشى أن يؤلّف الأمويّون القَيْسيّين، فيُلفى التّغْلبيّون دون عضد يعضدهم على أعدائهم وهو لا يبرح لذلك يحذّر الخليفة من تقديم القَيْسيّين وإيثارهم وتأليفهم.

٣ — وهِلَوْا: أي نزعت إليك عن خوف.

م: يحذر الخليفة ويقول إن القَيْسيين هرعوا إلى مبايعته خوفاً من فَتْكه بهم، إثر مناصرتهم لابن الزبير ومقاتلتهم دونه. وهم بايعوه ليعتذروا له عمّا أسلفوه له من عداء ليصفح عنهم. فهم لم يُبايعوا عن اختيار بل عن اضطرار.

٤ — م: يكرّر معنى البيت السّابق ويوضحه، ويقول إنّهم لم يبايعوا عن عقيدة وإيمان وهداية، لكنّهم دُفعوا إلى ذلك دَفْعاً وسيقوا إليه صاغرين مُكْرَهين.

٥ — م: يقول: إنّنا إذ تحقّق لنا أن مصعباً كان ضالاً عن سويّة الحقّ والدين من دونكم، ناصرنا أهل الشّام عليه، فانتصروا بنا. والأخطل يسوق إلى الخليفة ما قد يسوقه المُسلم وفقاً لمبادىء الدين وسنّته.

٦ — السّلامى: عظام خفّ البَعير. الوَقْر: الصّدع في العظم.

م: يشير إلى ما أنزله بنو قومه من قتل وبطش في بني هوازن وهم من بطون قَيْس، ويقول إنّهم غدوا كالعظام التي صُدعت وازدادت تحطيماً.

سمَوْنا بعِرْنيــنٍ أَشمَّ وعــــارِضٍ لِنَمْنَعَ ما بينَ العِراقِ إلى البِشْرِ ١

فأَصْبَحَ ما بَيْنَ العِــراقِ وَمَنْبِــجٍ لِتَغْلِبَ تَرْدي بالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْــرِ ٢

إلَيْكَ أميرَ المــؤمنينَ نَسيرُهـــــا تَخُبُّ المطــايا بالعَرَانينِ مِنْ بَكْرِ ٣

برأسِ امرىءٍ دَلَّى سليماً وعامِــراً وَأَوْرَدَ قَيْساً لُجَّ ذي حَدَبٍ غَمْــرِ ٤

فَأَسْرَين خَمساً ، ثُمَّ أَصبَحْنَ ،غُدوَةً يُخَبِّرْنَ أَخْباراً أَلَذَّ مِنَ الخَمْـــرِ ٥

١ ــ العِرْنين : الأنف . العارض : الجَمْع الكثير وأصله في السّحاب المُتراكم الكثير المطر . البشر : موضع بين العراق والشّام ، وفيه قتَل الجحّاف بن حكيم بني تغلب ، وكان الأخطل قد تظلّم إلى الخليفة من ذلك اليوم بالقول : « لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعة » إلاّ أنّه يتّخذ هنا من ذكره مفخرة ، ويقول إنّهم ارتادوا المرابع القائمة بين العراق وموضع البشْر بجيوشهم العظيمة واحتلّوها ومنعوا عنها كلّ مَنْ دونهم .

٢ ــ منْبِج : قرية بينها وبين العراق ثلاث فراسخ . تَرْدي : تمشي . الرُّدَيْنيّة : نسبت إلى رُدَينة في البحرين ، ينبت فيها القنا .

م : يذكر المواقع الّتي احتلّوها بقوّة سلاحهم ويفخر بذلك .

٣ ــ العرانين : جمع عرْنين : الأنف وهنا الأسياد .

م : يقول مخاطباً الخليفة ، مُتفاخراً بأنّهم كانوا يسوقون إليه رؤساء بكر وأسيادها أسارى تخبُّ بهم مطاياهم إلى الشّام .

٤ رَأس امرىء هو عمير بن الحباب . دَلّى : من تدلية الدلْو . أي أنّه ساقهم إلى ما كان يبتغيه من أمر وغرّر بهم . لُجّ : معظم الماء . الحدَب : البَحْر . الغَمْر : الماء الكثير .

م : يقول إنهم ساقوا إليه رأس عمير بن الحباب الذي كان قد غرّر بسليم وعامر وساق القَيْسيّين

٥ ــ م : يقول إن تلك الخيول عدَتْ برأس عمير طوال خمس ليالٍ ، حتى أدركت الشّام غدوة وحمل فرسانها إلينا أخباراً تطيب لها النّفس بما هو ألذّ من الخمرة . وتشبيهه للذّة الخبر بلذّة الخمرة ، قد يكون مستفاداً من تجربته الخمرية .

ففي البيت الأوّل تراه يَسْتَجْدي استجداءً صريحاً ، طالباً العطاء الكثير ، مُفْضياً بمطمعه الشّخصي ، مُسخِّراً الشّعر لغرض مَعْزول عنه ، لا يسيغه ولا يتمثّله . وبدلاً من الصورة الحسيّة المبدعة تُطالعنا الفكرة الجدليّة الحواريّة ، فهو يرفض مصالحة القَيْسيِّين ، لأنّهم بايعُوا بالأكراه والقَسْر ، من دُون إيمان أو رويّة . فهذا الشّعر هو شعر العرض والإعتراض والابانة والنِّقاش ، تسمُه نبرتُه الخطابيّة المُلازمة بسمة الانفعال الشّعري من اصطخاب الألفاظ والوَزْن والقَوافي وتداول صيغ النّفي : « وما بنا » والشّرط : « وإن تَكُ » والنّداء : « يا بن مروان » والاستدراك : « ولكنّهم » والظّرف : « ولمّا »، وهذه الحركة السّريعة الحاشدة في تبايُن الصِّيغ تنمُّ عن الحماس والتألّب والاحتشاد .

ومن النّاحية الفنِّية ، فإنّ الصِّبغة السياسيّة غلبت على هذه الأبيات ، فلم تبن فيها معالم الروح ، بل إنها أدنى إلى النّصح ، بل إلى النّهي والتّحذير ، وهي أحوالٌ لازمَتْ قصائده من إلتباس واقعه القبلي السِّياسيّ وواقع الممدوح في قتاله لاعدائه ومصالحتهم أو مهادنتهم . وإذ كان الأخطل يَخْشى الصُّلح أن يعقد بين القَيْسيِّين والخليفة ، فلا نزالُ نجده عاملاً على الصاق كُلّ شبهة بالخصوم وتمجيد بني قومه في دفاعهم عن الخلافة . ولقد يكونُ الأخطَلُ في مثْل ذلك صادقاً ، مُخْلصاً ، ولقد يكون حسن الدِّفاع عن صالح القبيلة ، لكنّه يَفْتقر إلى التّأمّل والرويّة والتّحررّ من سجل الأحداث ووقائعها ليرود التّجربة الشّعريّة الصّادقة . ومثلُ هذه البيِّنات والحجج أدنى إلى واقع الخطابة منه إلى واقع الشّعر . وربّما دنا إلى شيءٍ من ذلك بقوله :

سمونــــا بعِرْنيـــنٍ أَشمَّ وَعــارِضٍ لِنَمْنَع مَا بَيْنَ العِرَاقِ إلى البِشْرِ

أو قوله :

« ترْدِي بالرُّدَينيَّـــةِ السُّمْـــــر » « يُخَبِّرْنَ أَخبـــاراً أَلَذَّ مِنَ الخَمْرِ »

وأيّاً ما كانت الحالُ ، فان صُورة الخليفة الخاصّة به ظلّتْ متَوارية ، فيما وراء الحجج والإحتجاج حتى ليمكننا القول أنّ فنّ المدح فيها جاء باهت الظلّ . فيما تعاظم فَخره وهجاؤه .

ولقد يَبْدو الخليفة أكثر حُضُوراً عبر قصيدةٍ بائيَّة أُخْرى استهلّها بذكر سُراه على ناقة ضامرة يصفُها في نحو ثلاث أبيات ويشبّهها بالقطا الشّديدة الظمأ التي تُسْرع في طيرانها لورود الماء ونقله إلى فراخها (٤ — ٧) ويعود إلى وصف المطايا (٨ — ١٤) ذاكراً ما عانتْه من مشقّة السّفر والسبيل الذي اجتازه الأقوام الذين مرّت بهم أو تجاوزتهم . ويباشر المدح (١٥ — ١٩) مُتَغَنّياً بفضائل الخليفة ، خاصاً منها شدّة إيمانه ويُمْن طلعته وكرم مُنْتجعه وشدّته في الحرب ، مُسْتطرداً إلى وصف خيله في القتال بنحو عشرة أبيات (٢٠ — ٢٩) ويقول إنّه يمضي فيها إلى الحرب التي تَمَرّست بها ودَأبتْ عليها وإنها لا تعود منها إلا مَهْزولة أصيبت بالوجا والهلاك . فهو لا يبرح يغزو بها الرُّوم ، حيث تطرح أولادها في الطّريق وتجهض بها من شدّة ما يصيبها من الإعياء . ومن ثمّ يعود إلى مباشرة المديح (٣٠ — ٣٢)،معظّماً من أصل الخليفة وكرم محتده ، مُعْلناً أن الله آثره بالخلافة لما رأى فيه من فضل . ويميل ، إثرئذ ، إلى مخاطبة القَيْسيّين (٣٣ — ٤٠) مُتفاخراً عليهم بشدّة ما أوقع بنو قومه فيهم ، ذاكراً الأعداء الذين تألّبوا عليهم وعظم ما أنزلوا بهم من خسائر ، معيناً الأيام ، مُسَمّياً لها وللقبائل بأسمائها ، مُعيداً إلى الأذهان ما كان من أمر القَيْسيّين والمرْوانيّين في مرج راهط ، مُمْتدحاً جنودَهم وخيلَهم وأحقيّتهم بولاية المُلك وعَراقتهم فيه (٤١ — ٤٧) . ويُنْهي القَصيدة بهجاء بني كليب ، قوم جرير الذين يمثّلهم بجداء الماعز لحقارتهم ويقول إنّهم يَرِدون في ذيل النّاس ، وإن بيوتهم محرَّمة لا ينتجعها الضّيفان ، ويزري في البيت الأخير بجرير الذي أعيا في الدّفاع عن قبيلته .

ولقد تناول الشّاعر في هذه القصيدة معظم الأغراض التي يُعْنى بها بصورة عامة . فقد ألمّ فيها بمدح الأمويين وهجاء بني قيس وبني كليب كما أنه عرض خلالها للوحات من الوصف الذي يستطيل به سياق القصيدة بنوع من النموّ الخارجي .

وهذه القصيدة تحفل كمعظم قصائده بالمعاني الجليلة التي عبر عنها بأجزل حلل اللفظ والصياغة ، كما أنه حشد لها قدرته في إنتخاب المشاهد الحسية الموحية ، فضلاً عن حذقه في أن يؤدي لكل موضوع معانيه المأثورة التي يسلك فيها السبل الصعبة ويرتادها في أقصى ما يدركه الذهن منها . ولقد نفحها ، جميعاً ، بنوع من الانفعال المتجسد بصور الغلو والذي يبلغ أشده فيما يتعرض لأعدائه القيسيين ، هاجياً أو متفاخراً .

يقول في مطلع القصيدة ، واصفاً المطية :

لَعَمْري ، لقد أَسريْتُ . لالَيْلَ عاجزٍ بساهمَةِ الخدَّيْنِ ، طاويةِ القرْبِ[1]

جُماليةٍ ، لا يُدْرِكُ العيسُ رَفْعَها إذا كُنَّ بالرُّكبان ، كالقِيَمِ النُّكْبِ[2]

مُعَارِضَةٍ خُوصاً ، حَراجيجَ ، شمرَتْ لنجعةِ مَلْكٍ ، لا ضئيلٍ ، ولاجأْبِ[3]

---

١ ــ أسريْتُ : من السُّرى : سير الليل . الساهم : الشاحب الضامر . القُرْب : جانب السرة .
م : يقول إنه اجتاز الليل ببأس وقوة على ناقة ضامرة الخدين والخاصرتين .

٢ ــ جمالية : أي أن خلقها خلق الجمل . العيس : الإبل البيض . رفعها : ارتفاعها . القيَم : جمع قامة ، وهي خشبة تعلق عليها البكرة .
م : يقول إنها ناقة شديدة كالفحول مرتفعة الهامة ، لا تدركها سائر النياق ، وإن الركبان يبدون عليها كالأخشاب المُنتصبة ، المائلة التي علاها البكر .

٣ ــ الخوص : الغائرة الأعين . الحَراجيج : الضوامر . النُّجْعَة : من إنتجاع الغيْث وهو فيه . الضئيل : النحيف . الجأب : الغليظ .
م : يستكمل وصف الناقة ، ويقول إنها تنافس في السير سواها من النياق الغائرة العينين ، الضامرة ، و إنها تعدو بسرعة إلى إنتجاع منازل ملك قويّ ، لين العريكة .

إِلَيْكَ ، أَميرَ المؤمنيـــن ، رحلَتها على الطَّائِرِ الميمونِ والمنْزِلِ الرَّحْبِ ١
إلى مؤمِنٍ تَجْلُو صَفيحَةُ وَجْهِـــهِ بلابِلَ تَغْشَى ، منْ هُمومٍ ومن كَرْبِ ٢
مُناخُ ذوي الحاجاتِ ، يسْتَمْطِرونَهُ عطاءَ كريمٍ مِنْ أَسارَى ومن نَهْبِ ٣

وفي هذه الأبيات يُباشر الأخطل المدح ، لكنَّه يقف فيه عند حدود عرفت في مدحه لعبَّاد وسلم ابني زياد ومن إليهما في العطاء والاغداق على من ينتجعون مقامه . إلا أنه يخصُّه بالايمان وتبديد الهموم بنور طلعته وشعاعها . ومع أن أيقاع الأبيات شجيٌّ ، مُقْنع ، فإن الانفعال المبدع لا يَزَالُ راكداً فيها مكروراً في معانٍ شبه تقليديَّة . إلا أنه لا يُعتم أن ينبري من ذلك إلى الأجواء الملحميَّة من خلال وصفه لخيله في القتال :

إمامٌ سما بالخَيْلِ ، حتى تقَلْقَلَــتْ قلائِدُ في أَعْنَاقِ مُعْلَمَةٍ ، حُدْبِ ٤

---

١ ــ الطائر الميْمون : الطائر الذي يُزجر ، فيتّجه إلى اليمن ، مبشّراً بالفأل والخير .

م : يخاطب الخليفة ، ويقول له إنّه ساق مطاياه في تلك المشقّات إلى فنائه الواسع ، مؤمّلاً التوفيق والخير فيه .

٢ ــ بَلابلُ الهُموم : أي التي تَكثُر فتعتري صاحبها بالبلبال .

م : يمتدحه بحسن الإيمان ويقول إن تألّق وجهه يُزيل الهُموم والكرب من قلب من تعتريه .

٣ ــ النّهْب : الغنيمة .

م : يقول إن ذوي الحاجات ينتجعون داره ، حيث تُمطر عليه النّعم ، يغدقها ممّا يقع عليه في غزواته .

٤ ــ الحُدْب : جمع حدباء ، وهي الدّابة التي بدت عظام رأسها وركها .

م : يقول إنه يمضي بخيله إلى الحرب ويقيم فيها ، حتى تُصاب بالهُزال ، فتقلقل القلائد في أعناقها .

شواخِصَ بالأَبصارِ . مِن كل مُقرَبٍ أُعِدَّ لهَيْجَا ، أَوْ موافقَةِ الرَّكْبِ ١
سواهِـمَ ، قد عَاوَدْنَ كلَّ عظيمَةٍ مجلَّلَةِ الأَشْطانِ ، طيِّبَـةِ الكَسْبِ ٢

فهو يَصف الخَيْل التي هزُلت وضمرت ، حاشداً لها صفات النّجابة : « مَعْلمة . حُدْب . مُقْرب » وصفات الكفاح : « شواخص بالأبصار » ، « حتى تَقَلْقَلَتْ قلائد » ، « مجلَّلة الأشطان ». وهذه الخَيْل هي كناية استطراديَّة طويلة لتمثيل بطولة الممدوح وشدَّة عزمه ، فالانهاك والهزال اللاّحقان بالخَيْل ينمّان عن صاحبها الّذي يُكلّفها ما لا تطيق ، متجاوزاً حدود العرف والمعقول في قدرة النَّاس والبهائم . أو لم يخطر النّابغة بشيءٍ من ذلك إذ وصف سُيُوف الغساسنة ، بل خيولهم بقوله :

عـلى عارفاتٍ للطِّعَانِ عـوابِسٍ بِهِنَّ كُلُوم بينَ دَامٍ وَجَالِـبِ

أو قوله :

بكُـلِّ مجـرَّب كاللَّيْثِ يَسْمو على أَوصال ذيَّالٍ رِفَـنِّ
وضمر كالقداح ، مسوَّمـات عَلَيْهـا مَعْشر أَشْباه جـن

١ ــ المُقْرَب : المأثور من الخيل الذي يربط بجوار البيوت .
م : يصف الخيل ويعظّم من أمرها لتعظيم صاحبها الممدوح من خلالها . يقول إنها لا تبرح تحدّق إلى الطريق التي تعدو فيها ، ناشطة إلى غايتها ، لا تحيد عنها . وإنها من الخيل الكريمة التي يُدنيها أصحابها إلى مساكنهم ، إيثاراً لها ، وإنها تساق إلى الحرب ، وتصحب بالإبل ، تُمتطى من دونها ، كي لا تصاب بالاعياء . أي أن تلك الأفراس لا تُمتطى إلاّ في القتال ، ولا تُمتطى في الطريق إليه بل يعتاض عيها بالنّياق .
٢ ــ سواهِم : أي أنها صامتة الوجه . الأشْطان : الحبال . الكَسْب : الغنائم .
م : يقول إنها ساهمة دأبت على القتال وتمرَّست به ، وأن أرسانها تُجلّلها أي تلقى على عنقها ، وإنها إذا ما اقتحمت الحرب تسوق صاحبها إلى الغنائم الكثيرة . والشاعر لا يبرح يعظّم الممدوح من خلال تعظيمه لأصالة خيله .

وإلى ذلك أبيات كثيرة أخرى نؤجل إيرادها والبحث فيها لحينه في الخصائص العامَّة لشعره، وإنما نخلص من هذه المقابلة إلى أن الأخطل يَجْري مجرى مأثوراً في معاني المدح ، ولكنّه يُوفي منه إلى حشد في اللَّفظة والصُّورة وابتداع الفكرة والحادثة قلَّما أُدْرِكَ من قَبْلُ . فهو يستكمل وصف الخيْل بقوله :

يُعَانِدْنَ عَن صُلْبِ الطَّريقِ من الوجا وَهُنَّ ، علىالعِلاَّتِ ،يَرْدينَ كالنُّكْبِ ١

إذا كلَّفُوهُنَّ التَّنــائيَ ، لَــمْ يزَلْ غُرابٌ على عَوْجاءَ مِنْهُنَّ أَوْ سَقْبِ ٢

وفي كلِّ عامٍ ، مِنْكَ للرُّوم ، غزْوَةٌ بعيــدَةُ آثارِ السنــابِكِ والسَّرْبِ ٣

يُطَرِّحْنَ بالثَّغْرِ السِّخــالَ ، كأَنَّما يُشَقِّقْنَ بالأَسْلاءِ أَرْدِيَةَ العَصْبِ ٤

---

١ – يعانِدْنَ : أي يعدلن ولا يذعن . الوَجا : التّعب الذي يصيب حوافرها أو الحفا . على العِلاّت : أي على مختلف الأحوال . يَرْدِين : أي يمشين مشياً هو بين العدو والسّير . النُّكْب : المَوائل .

م : يستطرد في وصف تلك الخيل ويقول إنها تميل عن الطّريق الصلبة ، إذا ما أقحمت عليها ، للحفا الذي أُصيبت به من مشقة السّير . ثمّ يردف بأنها لا تبرح تسرع في عدوها على جميع الحالات التي تعتريها في سيرها .

٢ – غُراب : هوفارس أسود . والعرب كانت تشبه فرسانها السّود بالأغربة كما جرى في ذلك لقب عنترة . عَوْجاء : فرس منسوبة إلى أعوج وهو من كرام الخيل . سَقْب : هنا الفرس الطويلة .

م : يقول إنها لا تزال يقصد بها إلى الغابات النائية ، يمتطيها إليها الفرسان السّود الشجعان .

٣ – السرب : الطّريق .

م : يمتدحه بما يقوم به من غزو للرّوم ويقول إنه يسعى إليهم بخيله التي تقتحم السبّل البعيدة النّائية .

٤ – يُطَرِّحْنَ : أي يضعنْ أولادهن قبل الأوان من شدّة الإعياء . سِخال : جمع سخلة وهي أولاد الضأن ، استعارها لأولاد الخيل المطّرحة لهزالها و صغر حجمها . الأسلاء : هي المناديل التي تغشى الوليد ، إثر ولادته . العَصْب : الثياب المصبغة .

م : يقول إن تلك الخيل تضع أولادها في الطريق ،قبل الأوان، لشدّة ما تصاب به من الإعياء، ويصف ولادتها وتشقّق المناديل عنها ويشبّه ذلك بتشقّق العصب الملونة .

بناتُ غُرابٍ ، لَمْ تُكَمَّلْ شُهُورُهـــا تَقَلْقَلْنَ مِن طُولِ المفارِزِ والجَذْبِ [1]
وإنَّ لها يومَيْنِ : يوْمَ إقـامَـةٍ ويوْماً تشكَّى القضَّ مِن حَذَرِ الدَّرْبِ [2]
غَموسُ الدُّجى تَنْشَقُّ عَن مُتَضرِّمٍ طَلوبِ الاعادي ، لاسؤومٍ ، ولاوَجْبِ [3]

فهذه الخَيْل قد نقبَتْ أقدامها وعرِيَتْ ، فباتَتْ لا تُطيقُ الأرض الصَّلْبَة ، فهْي تسير مُتَثاقلة معوجَّة . وشعراء المدح والفخر يُبادرون إلى ذكر وجا الخَيْلِ ، تَدْليلاً على بعد همَّة صاحبها أو اقتحامه بها الصِّعاب والمشقَّات الكثيرة . ثمَّ إنَّهم يُغالُون في التَّدليل على الإرهاق ، فيَجْعلونها تُجهض وتطَّرح أجنَّتها على الطَّريق ، تُشَقِّقُ من منديلها تَشَقُّق العصب الملوَّنة . وبذلك تُوفي الصُّورة إلى المَلْحميَّة حَيْثُ تَتَحقَّقُ الخارقةُ في مغزى المشهد الحسِّي ومرماه ، بدلاً من اختراق القدرة الإنسانيَّة بالغَيْب . فإطراحُ الخَيْلِ لأجنَّتها على الطَّريق لَيْسَ خارقاً للطَّبيعة ، بل هو خارقٌ للعُرْف والعادة في همَّة صاحبها الخارقة . وفَضيلة الفنّ تقوم هنا على الوَصف والسَّرد اللَّذيْن ينتخبان الصّفة والمشهد الأدلَّ على غاية الشاعر والممدوح ، معاً .

---

١ ــ بناتُ غُراب : نسبة إلى فرس كريم . المفاوِز : جمع مفَازة : الصّحراء . الجَذْب : شدّ الأعنة .
م : يمثّل الإرهاق الّذي أصاب تلك الخيل بالمشهد الحسِّي ويقول إنها كانت تُجهض أولادها الكريمة ، لكثرة ما اجتازت من مفاوز وشدّة ما جذبت بأرسنتها . حثّاً لها على السير .
٢ ــ القَضّ : الحصى الصغار .
م : يقول إنّها تُقيم ، حيناً ، ثمّ تواصل سيرها إلى بلاد الروم ، حيث تطأ الحصى الصغيرة بأقدامها التي بدت عارية من شدّة ما أصابها من ضنك في السّير .
٣ ــ الغَموس : الذي يسير الليل كلّه ، فكأنّه يغمس نفسه في ظلامه . مُتَضرّم : أي الذي يتَسعّر فيه لهيب الحماسة . الوَجْب : الجبان .
م : يقول في امتداحه أنّه لا يبرح ينهد للقتال ، يسير اللّيل كلّه إليه . وينشقُّ الصباح عن امرىء تتضرّم فيه حماسة القتال ، لا يكفُّ عنه أو يجبن أو يسأم .

ويعودُ إلى المديح المُباشر بقوله :

على ابنِ أَبي العاصي قُرَيْشٌ تَعَطَّفَتْ لَهُ صُلْبُها ، ليس الوشائِظُ كالصُّلْبِ [1]
وَقَدْ جَعَلَ اللهُ الخَلافَةَ فيكُمُ بأَبْيضَ ، لاعاري الخِوَانِ ، ولاجَدبِ [2]
وَلَكِنْ رآهُ اللهُ مَوْضِعَ حَقِّها عَلى رَغْمِ أَعْداءٍ وَصَدادَةٍ كُذْبِ [3]

فهم قد نالوا الخلافة بإرادة الله من لأحقيتهم فيها ، من دون سواهم . وهنا يتحوَّل المَدْح من الملحميَّة إلى السياسيَّة ، وتطغى الآراء ووجهات النّظر على الوصف والسّرد :

قروم أَبي العاصي غَداةَ تَخَمَّطَتْ دِمَشْقُ بأَشباهِ المُهَنَّأَةِ الجُرْبِ
يَقُودُونَ موْجاً مِنْ أُمَيَّةَ ، لمْ يَرِثْ دِيارَ سُلَيْمٍ بالحجاز ولا الهَضْبِ

فابطال المروانيين قادوا أمواجاً هائلة الجند الشّاميين ، فيما أحاطت بدمشق جيوش الأعداء وخيَلهم الشّبيهة بالابل المطليَّة بالقطران . أي أنهم دافعوا عن ملكهم وحشدوا له وانتصروا فيه . إلا أن أفضل ما نظم في عبد الملك جاءَ في رائيتّه الّتي طربَ لها الخليفةُ غايةَ الطَّرب والّتي سَوْف نحلّلها على أنها النموذج الأفضل لمدائحه .

---

١ ــ تَعَطّفَتْ : أحاط به نسبُها من كلّ جانب . الشّوائظ : الزّوائد .
م : يمتدحه بعراقة أصله في قريش ويقول إن نسبها الكريم أحاط به من كلّ جانب ، ويُرْدف بأن الأصيل الشّريف ليس كاللاّحق الدنيّ النّسب .
٢ ــ أبْيض : حسن الوجه والحر الكريم .
م : يقول إن الله شاء أن تكون الخلافة فيهم ، وإنهم أحرار كرماء ، لا يُلفى خوانُهم قط مجدباً من الطّعام . والأخطل لا يبرح يردّد أن الله خصّهم بالخلافة من دون سواهم . فكأنّه يوعز بذلك إلى أن سلطتهم هي من الله .
٣ ــ صَدّادة : أي يصدّون عن الحق .

تحليل

نموذج من مدائحه السياسية

خف القطين للاخطل

خَفَّ القطينُ فراحوا منك او بكَروا ... وأَزعجتهم نوًى في صَرفها غِيَرُ ١
إلى امرىءٍ لا تُعدِّينــــا نوافِلَــــهُ ... أَظفرهُ اللهُ ، فليهنــــيءُ له الظفرُ ٢
الخائض الغمرَ ، والميمــونُ طائرُه ... خليفةُ الله يُستسقــي بــــه المطرُ ٣
وما الفراتُ – اذا جاشت حوالِبُهُ ... في حافتيه ، وفي اوساطه ، العُشَرُ ٤
وذعذعته رياح الصيف واضطربت ... فوق الجــآجيءِ من آذِّيــه غُدرُ ٥
مُسحنفرٌ من جبال الروم ، يستره ... منها أَكافيفُ فيها دونَــه زَوَرَ ٦

١ – خف : أرتحل . القطين : أهل الدار . راحوا : ذهبوا أو رجعوا عشاء . بكروا : أرتحلوا باكراً . الصرف : التقلب والمصيبة . غير الدهر : أحداثه .
٢ – تعدينا : تخلينا . النوافل : العطايا .
٣ – الغمر : الماء الكثير ، أو الظلمة الشديدة . والمقصود هنا : المعارك . الميمون : طائره المبارك ، الموفق .
٤ – الحوالب : الامواج . العشر : شجر .
٥ – ذعذعته : حركته تحريكاً شديداً . الجآجيء : جمع جؤجؤ ، وهو صدر الطائر أو السفينة . الآذي : مرتفع الموج .
٦ – المسحنفر : السريع . الأكافيف : الجوانب المرتفعة . الزور : الميل . الاعوجاج .

يوماً ـ بأَجودَ منـه حين تسأَلُـهُ ولا بأَجهرَ منـه حين يُجتهـرُ ١
مقدِّمٌ مائتـي الـفٍ لمنـزله ، ما إن رأى مثلهم جِـنٌّ ولا بشرُ ٢
يَغشى القناطرَ ، يبنيها ويهدِمها ، مُسوَّمٌ ، فوقه الراياتُ والقتَـرُ ٣
حتى يكونَ له بالطفِّ ملحمـةٌ وبالثوِيّـة لـم يُنبض بها وَتر ٤
وتستبينَ لأَقوامٍ ضلالتهُـم ويستقيمَ الذي في خدِّه صَعَـرُ ٥
ثم استقلَّ بأَثقـال العراق ، وقد كانت له نقمةٌ فيهم ومُدَّخـر ٦
في نبعةٍ من قريشٍ يعصبون بهـا ما أَن يوازى بأَعلى نبتها الشجر ٧
تعلو الهضابَ ، وحلُّوا في أَرومتهـا أَهلُ الرِّباء واهل الفخر إن فخروا ٨
حُشدٌ على الحق، عيَّافوا الخنى،أَنفٌ إذا أَلمَّت بهم مكروهةٌ صبروا ٩

١ ـ يجتهر : يستعظم .
٢ ـ مقدم مائتي الف : سائق مائتي الف جندي .
٣ ـ المسوم : الذي فيه علامة تميزه . القتر : الغبار .
٤ ـ الطف والثوي : موضعان قرب الكوفة . لم ينبض بها وتر . ولم ترم فيها السهام . كناية عن التحام الجيشين ، لأن النبال ترمى قبل الاشتباك بالرماح والسيوف . المعنى : أن جيش عبد الملك يبلغ إلى العدو دون مداورة ودون تأخر .
٥ ـ الصعر : ميل الخد عن النظر إلى الناس ، تهاوناً وتكبراً .
٦ ـ النقمة : البطش . المدخر : ما خبيء للاعداء من بطش للمستقبل . يشير إلى احتلال عبد الملك العراق بعد قتل مصعب بن الزبير .
٧ ـ النبعة : شجرة صلبة . يعصبون بها : يحيطون بها . شبه بني أمية بشجرة النبع الصلبة ، وراعى فشبه البيوتات الأخرى بالشجرة الذي لا يستطيع أن يبلغ علاها .
٨ ـ الأرومة : أصل الشجرة . الرباء : الشرف .
٩ ـ الحشد : المتأهبون . العيافون : التاركون . الخنى : الفحش في الكلام . الأنف : المترفعون عن العار .

أعطاهمُ الله جَدًّا يُنصَرون بـه ـــ لا جَدَّ إلا صغير ، بعدُ ، مُحتقر [1]

لم يأْشروا فيه إذ كانوا مواليـه ـــ ولو يكونُ لقومٍ غيرهم إشِروا [2]

شُمسُ العداوة حتي يُستقادَ لهـم ـــ وأَعظمُ الناس أحلاماً اذا قَـدَروا [3]

لا يستقلُّ ذوو الأَضغان حربَهُـم ـــ ولا يُبيَّنُ في عِيدانهـم خـوَر [4]

هُمُ الذين يبارون الرِّياحَ اذا ـــ قَلَّ الطعامُ على العافين ، او قَتروا [5]

بني أُميَّةَ نُعماكـمُ مُجَلَّـلَـةٌ ـــ تـمَّت ، فلا مِنَّةٌ فيها ولا كـدر [6]

بني أُميَّة قد ناضلتُ دونكـمُ ـــ أَبناءَ قوم ، هم آوَوا ، وهم نصروا [7]

أَفحمتُ عنكم بني النجار ، قدعلمت ـــ عُليا مَعَدٍّ ، وكانوا طالما هـدرَوا [8]

حتى استكانوا ، وهم مني على مضضٍ ـــ والقولُ ينفُذ ما لا تنفذ الإبَـر [9]

---

١ ــ الجد : الحظ ، المعنى : اعطاهم الله حظاً يتضاءل دونه حظ الآخرين .

٢ ــ يأشروا : يبطروا . الموالي : الأسياد ، الاصحاب .

٣ ــ الشمس : الاشداء. يستقاد لهم : يخضع الناس لقيادتهم. الأحلام: جمع حلم ، وهو الصبر والعقل .

٤ ــ يستقل: يتحمل . الأضغان : الاحقاد . الخور : الضعف .

٥ ــ العافون : الذين يطلبون الطعام . قتروا : أفتقروا وضيقوا على أنفسهم : يشير إلى كرم الأمويين .

٦ ــ مجللة : عامة ، شاملة . المنة : التقريع بالإحسان .

٧ ــ يعني بابناء القوم : الانصار الذين آووا النبي ونصروه حين هاجر إلى يثرب . ويشير هنا إلى هجائه الانصار دفاعاً عن الامويين .

٨ ــ أفحمت : أسكت . بنو النجار : جماعة من الانصار . قوم حسان بن ثابت شاعر النبي . عليا معد : قريش . هدروا : رددوا الكلام كثيرا ، ترديد البعير صوته في حنجرته .

٩ ــ استكانوا : خضعوا . المضض : ألم المصيبة .

بني أُميَّة إنِّي ناصحٌ لكُم فلا يبيتنَّ فيكم آمناً زفر [1]
واتَّخِذوه عدوًّا ، إنَّ شاهدهُ ، وما تغيَّب من أخلاقه ، دعَر [2]
إنَّ الضغينة تلقاها وإن قدُمت كالعَرِّ يكمنُ حيناً ثم ينتشر [3]
وقد نُصِرتَ ، أَمير المؤمنين ، بنا ، لمَّا أَتاك ببطن الغُوطة الخبر :
يُعرِّفونك رأْسَ ابن الحُباب وقد أَضحى ، وللسيف في خيشومِه أَثر [4]
لا يسمعُ الصوتَ . مُستكًّا مسامعهُ وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجر [5]
وقيسَ عَيلانَ حتى أَقبلوا رقصاً فبايعوكَ جِهاراً بعدما كفروا [6]
فلا هَدى اللهُ قيساً من ضَلالتهم ولا لَعاً لبني ذكوانَ إذ عثروا [7]
وقد أَصابت كلاباً من عداوتنا إحدى الدواهي التي تُخشى وتنتظر
إمَّا كليبُ بن يربوعٍ فليس لهم ، عند التفارط ، ايرادٌ ولا صَدَر [8]
مُخلَّفون ، ويقضي الناس أَمرهُم وهم بغيبٍ وفي عمياءَ ما شعروا [9]

---

١ – زُفَر : ابن الحرث بن كلاب الكلابي .
٢ – الشاهد : الظّاهر . الدعر : الفساد .
٣ – العر : الجرب . يشبه الحقد بالجرب الذي يستتر قليلا ثم ينتشر .
٤ – ابن الحباب : من قيس عيلان قتله التغلبيون في نصرة الامويين . الخيشوم : أقصى الأنف .
٥ – مستكاً مسامعه : أصم .
٦ – رقصا : مسرعين .
٧ – لا لعاً : لا اعانهم الله .
٨ – كليب بن يربوع : قوم جرير . التفارط : التسابق ، وهنا : التسابق إلى الماء . أورده الماء إيراداً : جعله يقصد اليه . الصدر : الرجوع عن الماء .
٩ – المخلفون : المتروكون وراء الناس . المعنى : يقضي الناس أمورهم الهامة ، وكليب بن يربوع لا يشعرون ، لأن رأيهم غير مطلوب ولا مسموع .

قومٌ أنابت اليهم كلُّ مُخزيـــــةٍ وكلُّ فاحشةٍ سُبَّت بها مُضَـــرُ [1]
واقسم المجد ، حقاً ، لا يحالفُهم حتى يحالف بطن الرَّاحة الشَّعَـرُ .

إيجاز القصيدة : استهل الأخطل قصيدته بذكر الارتحال والتنائي ، فتشبَّه بشارب الخمرة ، مستطرداً إلى وصفها ، بنحو ثلاثة أبيات. ثم يعود فيذكر الارتحال من جديد وتنكب النساء عن الرجل عندما يلم به الشيب ، حتّى انتهى إلى عبد الملك ، فجعل يمدحه ، مبالغاً بفضائله ، وقوة جيشه ، جاعلاً جنوده من الجنّ . وقد نسب إليه ، بالاضافة إلى ذلك ، فضائل دينية ، إذ صوَّره مجاهداً في سبيل الدين والبطش بالكفار . ويذكر أيضاً إخضاعه لأعدائه وفتكه بجيشهم مستطرداً إلى بني قريش ، واصفاً فضائلهم ، وفضائل بني أميه بنحو ثلاثة عشر بيتاً . بعدئذ ينصرف لمخاطبة أمير المؤمنين ، معدّداً مآثر تغلب التي حاربت ، دائماً ، إلى جانب الأمويين ، ويهجو كليباً بن يربوع الذين ما انفكوا يناوئون الخليفة .

تقسيمها : المطلع التقليدي (١) . مدحه بالكرم ويمن الطالع (٢ – ٣) . وصف كرمه : (٤ – ٧) – وصف بطولته : (٨ – ١٢) – مدح القرشيين : (١٣ – ٢٠) – ذكره لفضله عليهم : (٢٢ – ٢٤) – نصحه لهم : (٢٥ – ٢٧) – ذكر مآثر قومه : (٢٨ – ٣١) – هجاء القيسيين : (٣٢ – ٣٦) .

تحليل : المطلع التقليدي :

١ – يقع هذا المطلع ، أصلاً في حدود أبيات عديدة يصف فيها الطلل ويتشبّه في ذهوله بالسّكران الّذي صرعته الخمرة . ولقد خصّ هذا المطلع بذكر فراق الأحبة ، على ما هو مأثور في مطالع الشّعر القديم . ثم عرَّج على وصف المدح ، مستهلاً بوصف كرم الخليفة ويمن طالعه .

٢ – مدح الخليفة بالكرم واليمن (٢ – ٣) – باشر ذلك بقوله :

---

١ – أنابت : أقبلت .

إلى امرئٍ لا تعدِّينا نوافلـــــه   أظفره الله فليهنـــأْ له الظفـــرُ

فالأخطل يصرِّح بان الله قد أظفر عبد الملك . وهذا المعنى يبدو عاديّاً ، طبيعياً ، بالنسبة إلينا ، أما بالنسبة إلى الأمويين ، فإنَّه كثير الأهمية ، لأن هؤلاء جعلوا يدّعون أن السلطة هي هبة من لدن الله ، وان الله هو الذي يقدر الأمور وليس على الشعب سوى الطاعة . وهكذا ، فان الأخطل بالرغم من كونه مسيحيّاً ، كان يعرف المعاني التي توافق الدين الاسلامي وهوى الأمويين الذين كانوا يشجعون الجبريّة وما فيها من دعوة الاذعان لمشيئة القدر .

ذلك ، جميعاً ، يدلنا على طبيعة المدح السياسي في شعر الأخطل ، إذ أنه يلتفت إلى المعاني التي تُشَوِّق الممدوح ، فيؤكّدها له . منعماً فيها بالغلوّ .

أمَّا قوله « **الطائر الميمون** » فيعود إلى عادة جاهلية ، كان العرب يستطلعون بها مصير الأمور . بعد أن يطلقوا الطير ، فاذا اتجهت صوب اليمن تيمنوا ، أما اذا إتجهت صوب الشام ، فتشاءموا . فالطائر الميمون هو الذي يبشِّر بالخير والنجاح . وذلك يعني أن الخليفة يكاد لا يلمُّ بأمر حتى يحقّقه . وكذلك قوله ، « **يستسقى به المطر** » . فالخليفة لكثرة تقواه وصفاء طويّته ، دنا كثيراً إلى الله ، حتى أنه إذا غضب – والعرب يعتقدون ان انحباس المطر هو دلالة على شدّة غضب الله – فان القوم يستسقون به لان الله يستجيب لتقواه . وهذا المعنى الديني السياسي كان يُعجب الأمويين غاية الاعجاب ، لأنه يوافق هواهم .

وعلى الجملة ، فان الأخطل ، خلال مدحه السياسي ، لم يكن مبتكراً ، وإنّما اتخذ المعاني التي كانت شائعة منذ الجاهلية ووقعها بما يتفق والمناسبة التي يتصدّى لها ؛ ذلك أن المعاني التي تلمُّ بالمطر ليست معاني حضرية ، لأن الحضري لا يتسعَّر به ظمأ للماء ، ولم يتولّ الشاعر هذه المعاني ، إلا لأنها انتقلت إليه عبر التقليد . فالصفة التي نماها لعبد الملك ، كانت تصدق في شيخ القبيلة الجاهلية أكثر

مما تصحُّ في خليفة يعيش في حواضر الشام على ضفاف بردى ، كأنه يعيش في جنة غناء . فالشعر السياسي خاصة ، والشعر الأموي عامّة لم يكد يتحرَّر من وطأة التقليد الذي أسرف به الشعراء السابقون .

٣ – وصف بطولته : (٨ – ١٢)

بعد هذه المعاني الانسانية الدينية يشرع الأخطل بتصوير الخليفة صورة تخالف الصورة الأولى . في تلك الصورة كان إماماً ، وكان قريباً إلى الله حتى انه يستسقى بتقواه المطر ، ولكنه الآن سيلجُ به إلى أجواء الملحمة والاسطورة مصوِّراً شجاعتَه في الحروب بقوله [1] :

« مقدِّمٌ مائتي ألفٍ لمنزلــــــهٍ ما أَن رأى مثلَها جنٌّ ولا بشرُ »

هذا البيت ينبري بالقصيدة إلى فلذة ملحمية تتسامى ، خاصة ، عندما يصبح الجنود خارقين مروِّعين ليسوا بشراً وليسوا جنّاً ، بل هم أعظم من البشر فضلا عن الجن . وهذا المعنى غلو وتصاعد من المعنى الذي ألمَّ به النابغة بقوله واصفاً النعمان :

« وخيِّس الجنَّ أني قد أذنتُ لهم يبنون تدمر بالصُفَّاح والعمَــدِ »

لقد توسَّل الشاعران بالجن ، فبينما اكتفى النابغة بهم ، نرى الأخطل يتجاوزهم ولا يرضى بأن يكون جندُ الخليفة عبد الملك من البشر أو من الجنِّ ، بل أسمى منهم جميعاً . وذلك مجاراة لسنَّة الشعر العربي الذي تكثَّر فيه المبالغة وتتعاظم ، حتى ان الشاعر اللاحق لا يرى لذاته فضيلة إذا لم يعثر على معنى يبزُّ به المعنى الذي سلف في شعر من قبله . وقد استمرت هذه الصورة في الأبيات التالية حيث يقول :

---

١ – آثرنا أن ندع وصفه لكرمه إلى النهاية لضرورة الدراسة .

يَغْشَى القَنَاطِرَ يَبْنِيَهـــا وَيَهْدِمُها مسوَّمٌ فــوقه الراياتُ والقطـــرُ
فتستبين لأَقــوامٍ ضلالتُهـــــم ويستقيم الذي في خــدِّه صَعَـــرُ

ان الصورة التي مثل بها الخليفة ، هادماً ، بانياً ، عبر الرايات والغبار ، تمثل معنى البطولة الذي يرد الشاعر أن يرسمه للخليفة . وهذه الميزة أي تصوير المعنى تصويراً ، كانت شائعة في الأدب الجاهلي ، عامة ، وشعر النابغة خاصة ، فإذا أراد النابغة أن يقول ، مثلا ، أن وعيد النعمان يؤذيه ويرهبه ، يمثّل ذلك بصورة الأفعى التي تساور وتعطب دون أن تنجح فيها حواية أو رقية . ولقد جرى الأخطل على الغرار ذاته . فعوضاً عن أن يقول لعبد الملك إنه بطل ، جعله يتصرّف تصرُّف البطل أو وصفه في مشهد بطولي ، يبني القناطر ويهدمها بينما تداخلت الرايات حواليه . وكذلك نراه يستمرُّ في رسم هذه الصورة ولكنه يواجه بها الأعداء ويتوسّل فيها بالمعاني التي توافق الدين ، خاصة عندما يقول : « فتستبين لأقوام ضلالتهم » . فالخليفة لا يحارب في سبيل الحرب والغنائم أو السلطة ، بل في سبيل الدين ورد الضالين والكفار إلى حظيرة الامام . وهكذا ، يبدو الأخطل مرة ثانية وقد اتخذ موقفاً اقتضاه عليه واقع السلطة والدين والسياسة ، قائلا ما قد لا يؤمن به في سبيل تعظيم الممدوح وتأكيد الأقوال التي يتمنى أن تقال له؛ ولقد كان ذلك مشتركاً بين الأخطل والنابغة . فالنعمان كان يودُّ أن يؤكد قوة جيشه وتفوقه ورهبته ، فجعل النابغة يتصاغر ويتدنى ليكبر النعمان ويحقق له ما يتمنى أن يبلغه . وكما أن النابغة ضحّى بكرامته في مدحـــه ، نرى الاخطل يوشك أن يضحّي بدينه في سبيل مدحه أيضاً . فهذان الشاعران يقولان ما ينبغي أن يقال أو ما يوافق هوى الممدوح متسخرين أو مداجين .

أما ذروة الملحمة فتظهر في قوله :

« حتى يكونَ له بالطفِّ ملحمـــــةٌ وبالثويَّـــة لم ينبض بها وَتَـــرُ »

إن الملحمة هي الموقعة التي تجري بين جيشين وجهاً لوجه وجسداً لجسد ، أو كما

يقول الأخطل : « إنها المعركة التي لا ينبض بها وتر » أي لا يستعمل فيها القوس . وهذه المعارك تدلُّ ، عادة ، على الاستبسال والشجاعة أكثر من معركة الأوتار والقوس ، لان من يحارب بالقوس والوتر كأنما يداور ويلتف أو كأنه يخشى التصدي للموقعة بذاتها . أما من يلتحمون فيها ، فانهم لا يخشون الموت . وهذا هو وجه المديح في قول الأخطل .

ولعل ميزة هذا البيت فيما يشتمل عليه من واقعيَّة وتقيُّد بالاعلام ، اعلام الأشخاص فضلا عن اعلام الأمكنة . ففي البيت السابق نرى اسمَيْ علم ، هما الثويَّة والطفّ ، فكأن هذه الأسماء تربط الافكار المدحيَّة المجرَّدة بالواقع ، وتجعلها خاصَّة بعبد الملك من دون سواه .

ومهما يكن ، فان الأخطل يمازج الصورة المثالية ، المطلقة ، بصورة أو بخطوط من الواقع الخاص الذي لا يصح إلا في الممدوح من دون سائر الامراء وذوي السلطة .

ومجمل القول في وصفه لبطولته أنه نما إليه الصفة الخارقة التي تدعه امرءاً متفوِّقاً لا يقهر .

مدح الأمويين : (١٣ — ٢٠) : ذاك كان مدحه للخليفة نفسه ، وفي هذا المقطع يتعرَّض لبني قومه القرشيين ، فيمدحه بهم . وآية ذلك أنّ الخلافة كانت قد غدت أمراً وراثياً في قريش وفي أقربهم إلى النبي . وهو إذ يخصُّهم بمثل هذا المدح إنما يمكِّن للخليفة به، شأنه في ذلك كشأنه في تكراره لذكر أمر الله الذي يصدر عنه وإيثاره له بالنصر واليُمن . وكأني به لا يمدحه ، بل يؤدي له البينات التي تجعله الأحق بالخلافة ، وقد استهلّ مدحه له بأصاله في قوله :

في نبعة من قريش ، يعصبون بهـا ما إن يوازى بأَعلى نبتهـا الشَّجـر

وقد شبه بني أُمية بشجرة صلبة ، عالية ، ومثل البيوتات الأخرى بالنسبة إليها . أي ان نبت القرشيين يسمو على أية شجرة ، من دونه . وهو لا يزال يجاري بذلك

خطّ الغلوّ الذي يمثل تفردُه بكل مأثرة ، وقد جعل الأمويين أفضل قريش ، وجعل القرشيين أفضل الناس . وهذا المعنى لا ينطوي على ابتكار أو جدّة ، إذ أن شعراء المدح والسياسة تداولوه ، كمعظم المعاني ، إلا أن فضيلة الشاعر فيه أنّه أدرك منه أقصى غايته ، وخرّجه تخريجاً ذاتياً . أمّا قوله :

تعلو الهضاب وحلُّوا في أَرومتهـا   أَهل الرباءِ وأَهل الفخر ان فخروا

فلا يعدو أن يكون استكمالا للمعنى السابق وتمثيلا له مع اضفاء بعض التفاصيل .

وإذا كان هذا المعنى مبذولا ، فان الشاعر يوغل في إضفاء الصفة الانسانية لمعانيه ، إذ يقول : « حُشدٌ على الحقّ » ، أي أنهم لا يقاتلون للقتال أو طمعاً بالمال أو شهوة للسلطة ، بل ان قوّتهم هي قوّة عاقلة تمكّن للحق وتشهد له .

وقد ورد امتداحهم بالحقّ تأكيداً لأحقيّتهم بالخلافة ، فهم لا يقاتلون طمعاً بها ، بل لاحقاق الحقّ فيها . وإلى مثل هذا القول كان يشير العلماء إذ يقولون : « إن البلاغة هي تعبير عن مقتضى الحال » . ويمضي الشاعر في نعتهم بالنعوت التي تُضفي عليهم هالة معنويّة ، منوّهاً بابتعادهم عن الفحش والمنكر ، أي أنهم لا يأخذون بالجانب اللّين السّهل من الحياة ، فيقبلون على المجون ويعاقرون اللذة بل إنهم ينصرفون إلى الحُلّى .

ولعلّ أفضل ما يردف به إثر هذا الزّعم قول البحتري : « أعذب الشعر أكذبه » ، إذ ان الشاعر يدرك أن معاوية امتطى كلّ باطل وجَوْر ورشوة ، كما ان ابنه يزيد هو أول من استنّ سنّة اللّهو في الاسلام ، إذ كان يعاقر الخمرة ويبتني في الصّحراء قصور اللّهو والخلاعة . والكذب في الشعر لا يعني التزوير والشهادة للباطل ، بل هو ضرب من الغلوّ يتولّد من تلمّس الحقائق بالانفعال والحدس . والأخطل بذلك كالنابغة ، جانَبَ الحقيقة وأزرى بها ، فافتقد شعره مبرّره الانساني ، إذ الشعر ، في نهاية مطافه ، لا يعدو أن يكون شهادة للحقيقة وتعبّداً لها .

أما الشطر الثاني حيث يقول : « إذا ألمت بهم مكروهة صبروا » فيصحُّ في بعضهم حيناً ، إذ أثر عنهم الحلم في مواضعه والعنف في مواضعه . وكان عبد الملك يخطب فيقول : « من قال لنا برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ولعلَّ الشاعر استدرك في الاشارة إلى ذلك في بيت لاحق إذ قال :

شمس العداوة ، حتى يُستقاد لَهُم   وأَعظم النَّاس أَحلاماً ، إذا قــدروا

فهم يعنفون بمن يخرج عن سلطانهم ويعفّون عمَّن يقع في أيديهم ويستذلُّ لهم ، أي أنَّهم يعفون عند المقدرة ، إذ لا حلم في العفو من دون ذلك ، كما استدرك المتنبي إذ قال :

كــل حلــم أَتــى بغير اقتــدار   حجَّة لاجــيءٌ إليهــا اللِّئــام

ويعود الشاعر إلى تعليل انتصارهم وتفوُّقهم ، فيُنميه إلى قدر قدِّر لهم من الله ، آثرهم به :

أَعطاهــم الله جــداً ينصرون بــه   لا جدَّ إلا صغير ، بعــد ، محتقر

لم يأْشروا فيه إذ كانوا مواليــه   ولــو يكون لقوم غيرهــم أَشروا

والجدّ هنا بمعنى الحظِّ ، فكأنه يلمح بذلك إلى أنَّهم قوم الله المختارون ، مترجّحاً بين المديح الديني والسياسي ، مازجاً أحدهما بالآخر . فالتنويه بإيثار الله لهم يمنحهم تفوُّقاً دينياً وسياسياً ، معاً ، إذ الاسلام هو دينٌ ودولة . ثم إنه عقب على ذلك بنعتهم بالتواضع أي أن خمرة السُّلطة لم تُسكرهم ولم تبطرهم . فالامويون قد جمعوا غاية القوّة إلى غاية العقل .

وفي النهاية يمتدحهم بالكرم ويقول إنهم يسبقون الريح ويبارونها ، فهي تنزل الفقر والضّيم ، وهم يحملون الخير والنّجدة ، والمعنى تقليديّ ، منهوك :

هم الذين يبارون الرِّيــاحَ إذا   قلَّ الطَّعام على العافين أَو قتــروا

ذكره لفضله عليهم : (٢٢ – ٢٤) : يستهلُّ الشاعر هذا المقطع بذكر نعم الأمويين عليه ، يؤدُّونها ويغدقونها ، دون منَّة ولا كدر . وهذا البيت لم يَخطر في صدفة النَّظم ، بل إنه أحكم توقيعه قبيل تفاخره بخدماته لهم ، حتى تستقيم معادلة الفضل بينهم . وفضيلة الأخطل في معانيه أنه يُوَقِّعها توقيعاً نفسياً يطرب له الممدوح . وهو لا يستكين استكانة النابغة ولا يستذلُّ له ويتشبَّه بالعبد ، مضائلا من قدره ليعظِّم من قدر الممدوح ، بل إنه يرفع هامته كبراً . فهو ليس شاعراً بلاط يتلقف فتات مائدة الملوك ، بل إنه سفير قبيلته العظيمة تغلب التي تدافع عن الأمويين بسيوفها ، كما يدافع هو باسانه :

بني أُميَّة ، قد ناضَلْت دونكـــــم أبنـــاءَ قوم هم آووا ، وهم نصروا
أَفحمت عنكم بني النَّجار ،قدعلمت عليا معدٍّ ، وكانـــوا طالما هـــدروا
حتي استكانوا ، وهم مني على مضض والقول يَنفذ ما لا تنفذ الإبــرُ

ولقد أشار هنا إلى هجائه للأنصار ، رداً على كعب بن ثابت الانصاري بمثل قوله :

ذهبت قريش بالمكارم والنَّـــــدى واللُّؤم تحت عمائـــم الأَنصـــار
وإذا نسبت ابن الفريعـــة خلتــــه كالجحش بين حمارة وحمــــار

وقد كان لهذا الهجاء وقعه الحاد على الأنصار ، فوفدوا على معاوية ، ورفعوا عمائمهم وقالوا له ماذا ترى ؟ فقال : « لا أرى إلا خيراً » . وأباح لهم لسان الأخطل الذي هرع إلى يزيد فطيَّبه وأمَّنه . والشاعر يسمّي هجاءه للأنصار نضالا منه للأمويين ، فكانه كان يقاتل من دونهم ويعرِّض نفسه للهلاك . ويتعاظم المعنى من المقابلة بين طرفيه . فمن جهة نقع على نضال الشاعر ومن جهة ثانية ، يعظِّم من أمر المهجوِّين : « ابناء قوم هم آووا وهم نصروا » على غرار عنترة ليضاعف من شجاعته وفضله . وليس تنويهه بفضل الأنصار في إيواء النبي ومناصرته ، ومجاراته

التعاليم الاسلامية ، إلا سبيلا لتذكير الأمويين بالمخاطر التي ركبها للتمكين لهم ودفع الاذى عنهم .

أما البيت الثاني ، فإيضاح للأوّل واستطراد في الغلوّ به . فهو قد أفحم عنهم أعداءهم وأسكتهم ، وكانت أصواتهم تهدر وتدوي في دنيا العرب . ولفظة أفحم تقابل لفظة « ناضل » في البيت السابق ، ولفظة هدروا ، تقابل لفظتي : « آووا ونصروا » ، وقد أفاد المعنى وغالى به ، من النقيض إلى النقيض . ويردف ، إثر ذلك كله بالقول«حتى إستكانوا»، وهي نتيجة للمعنيين السابقين ، وامتداد من لفظة « أفحم » وغلوٌّ بها ، ثم ضاعف المعنى بالاشارة إلى مضضهم ، أي إلى غيظهم ومؤدّى القول كله أنّه عادى الناس ، بل أصحاب النبيّ في سبيلهم وتعرّض للهلاك . مما يؤكد إيثاره لهم ودفاعه عنهم .

وفي النهاية يُجمل القول ويحققه بحكمة عامة : « والقول يَنفُذُ ما لا تَنْفُذ الإبر » . والابر لا تشير هنا إلى معناها الخاص بها ، بل إلى ما هو أنأى منه ، إلى السيف والرِّمح أو كلّ أداة للأذى الماديّ . فالكلام النافذ الصائب هو أردع للقوم من السّيف أو ما دونه . وفضيلة هذه الحكم أنها تُنيط بالتجارب والأقوال الخاصة صفة الحقيقة العامة ، فتؤكدها وتضاعف من وقعها في النفس . وشعراء المدح ، عامة ، يوشّحون قصائدهم بالحكمة ليكتسبوا بها صفة الحكماء فضلا عن الشعراء ، مما يمكّن لأقوالهم في النفوس ويدع صوتهم وكأنه صوت الأجيال أو صوت الحياة ذاتها . ولقد توسّل ذلك النابغة ، قبلا ، وأبو تمام والمتنبي ، فيما بعد ، حتى قيل : « أبو تمّام والمتنبي حكيمان وأما الشاعر فالبحتري » .

ومع ذلك فإن الأخطل ليس شاعر حكمة ، بل شاعر ملحميٌّ ، مقاتل ، تعترض الحكمة في شعره بلمع مولّية ، عابرة ، كما سنرى ، أيضاً ، في المقطع اللاّحق .

نُصحه لهم : (٢٥–٢٧) :

في هذه الأبيات نرى الشاعر يتصدى لمرحلة جديدة من مراحل القصيدة ، اذ يدافع عن بني قومه ويتنكب ، في الآن ذاته ، عن المدح ليتولى هجاء القيسيين

وزعيمهم زفر . وقد كان الأخطل يخشى ان يتقرَّب عبد الملك اليه من دون التغلبيين . وذلك يؤدي الى اضعاف قبيلته وتقوية اعدائها . فهو يسديهم النصح ، « اني ناصح لكم » ، بأن يبتعدوا عن زفر . وقد مثَّل لهم ما يرائيهم به بمثل العرِّ أي الجرب الذي يستتر ، ويُوهم انه اختفى ولكنه لا يعتم ان ينتشر من جديد . إن عرَّ الحقد والحسد في نفس زفر كمن حيناً وجعل يتظاهر بمودة الأمويين ، حتى اذا آنسوا به ووثقوا منه خانهم وخدعهم . ولنتمثل شدة حقد الأخطل على زفر ، وفي الآن ذاته حماسه في الدفاع عن قبيلته اذ يقول : « شاهده وما تغيَّب من أخلاقه دعرُ » .

وهنا يعود ، أيضاً ، إلى الحكمة المشوبة بقليل أو كثير من الذاتيَّة ، اذ يمثل الضغينة الكامنة في النفس بمثل العرِّ . فهي كالغدر ، يتظاهر صاحبه فيه بغير ما يُضمر . وقد وقعت في سياق هذه القصيدة موقع الحكمة السابقة ، أضفت على المعنى صفة الشمول ، ووحّدت بينه وبين الحقيقة العامَّة .

ذكره لمآثر بني قومه : (٢٨–٣١) :

ينحدر الشاعر في هذا المقطع من المعاني الذهنية العامَّة الى الأحداث التاريخيَّة ، كما تقدَّم بها من قبل ، ذاكراً المواقع التي فدح بها التغلبيُّون أعداءهم ، خاصاً موقعة الغوطة ، حيث اجتثوا رأس عدوِّهم وعدوِّ الخليفة ، وساقوه إليه . وهذه الأحداث التاريخية تطفو على لجة المعاني القائمة في ذهن الشاعر ، تؤدي لها أداء الواقع الفعليِّ ، الحيِّ ، وتردُ كبيِّنة لها .

والشاعر يستبطن في هذا المقطع عاطفتي الفخر والثأر ، فخره ببطولة بني قومه وتشفّيه بالثأر من الأعداء ، ممثلا ذلك بقوله : « وقد أضحى وللسيف في خيشومه أثر » . وهذا المشهد يجسِّد عظم تمثيلهم بعدوِّهم ، ويجهض حقد الشاعر عليه . فالسيف هنا هو سيف الثأر والتشفي . والصورة والحسيَّة تنطوي على دلالة نفسيّة عميقة ، أوضحها وضاعف وقعها بقوله :

لا يسمع الصوت ، مستكًّا مسامعه   وليس ينطق حتى ينطق الحَجَرُ

وفيه يؤكد على قتلهم له ، واصفاً حاله ، إثر الموت ، بمعان لا تخفى على السّامع كقوله أنه أصمٌّ ، أبكم ، ممّا يصحُّ في الاموات ، جميعاً . وذكّره لهذه البديهيات لم يكن استطراداً منه إلى طفيليّات الواقع ، بل اقتباس لمظاهره الدّالة الموحية التي توافق هوى الممدوح وتثيره وتطربه . فرأس ابن الحباب هو رأس الهزيمة المتعفّرة بتراب الذلّ والاندحار . وامتناعه عن السمع والنطق هو تأكيد للممدوح بأنهم كفوه شره إلى الأبد ، إذ لا سبيل له ، بعد ، إلى الكلام والاصغاء ، فيتأمر بهم ويؤلّب عليهم ويشقّ عصى الطّاعة .

ويستكمل الشاعر ذكره للاعداء فيقول :

وقيس عيلان ، حتى أَقبلوا رقصاً   فبايعوك جهاراً ، بعدما كفروا

وللكفر هنا معنى سياسيٌّ ، دينيٌّ ، جارى فيه الشاعر عقيدة المسلمين ، معتبراً الخروج على طاعة الخليفة كفراً بالدّين وردّةً عليه . فهو يؤدّي للممدوح المعنى الذي يبتغيه ويمكّن له ، جارياً فيه مجراه ، أما قوله : « رقصاً » فدلالة على الكره والارغام كأنما يساقون بالعصا والسّيف ولا يُفسح لهم في وطء الأرض تمهُّلا .

هجاء الأعداء : (٣٢ ــ ٣٧) :

يجمع في هذا المقطع سائر الاعداء الذين تواقع معهم هو بالذّات أو بنو قومه ، وهم :

١ ــ **القيسيون** : ويهجوهم بالضلالة والكفر .

٢ ــ **بنو ذكوان** : يلعنهم ويقبح بهم .

٣ ــ **بنو كلاب** : يذكر الهزائم التي أنزلوها بهم .

٤ ــ **بنو يربوع** : وهم قوم جرير الذين يكاد لا يغفل ذكرهم في معظم قصائده ،

وهو يهجوهم بالذل والضعف ، لا يتصرَّفون بأمورهم ، بل يتصرَّف الناس عنهم بها ، وأنهم مخزيون لا يقيم المجد فيهم ولا ينمو بربوعهم .

ولقد كان الأخطل شاعر منافحة ومخاصمة ، لا تحضره الحالة الشعرية ، حتى تستحضر معها ملامح الأعداء الذين يساورونه من كل صوب ، يُسَفِّههم ويزري بهم ويردُّ كيدهم إلى نَحرهم .

وصف كرمه : (٤ – ٧) : يمثله على غرار النابغة والاعشى بالفرات ويعظم من شأن فيضانه ، ليعظم كرمه من خلاله . وقد قام ذلك على المقوِّمات التالية :

– **جيشان الحوالب** ، أي الرّوافد المتدفقة عليه . وجيشان الفرع يفيد الدلالة على اصطخاب المصب الذي تفيض فيه .

– **العشر** ، أي الاشجار الكبيرة ، وقد جعلها تطفو على سطحه ، تمثيلا حسياً لعظم السّيل الذي اقتلعها بالرغم من ضخامتها وتشبُّث جذورها في الأرض .

– **الرياح** التي تحرِّكه ، فتزيد من جيشانه واضطراب أمواجه .

– الجاجيء والغدر : حيث عظّم الموج من ارتفاعه على السفينة واحداثه عليها ما يشبه السّيل .

– إنهماره من جبال الرّوم بسرعة فائقة ، يُضاعف العقبات التي تعترضه من جيشانه .

خلاصة حول المضمون : تعدَّدت موضوعات هذه القصيدة ، ظاهراً ، لكنها ألفت واتَّحدت ، ضمناً ، في التعبير عن الهموم التي يتنازع بها الشاعر والمشكلات التي يعمل لها . فهي تنضوي في وحدة الهموم والمشاعر النفسية .

طبائع الاسلوب :

أولا – **عمليّة الابداع** : تمت عملية الابداع في هذه القصيدة بتأثير الانفعال المتعدّد الجوانب ، وعبّر عن ذاته باللّفظ المباشر وطبائع العبارة ووسائل التجسيد

وأهمها الصور الحسيّة والتشبيه والأحداث ، مستمداً المعاني من واقع السياسة والاجتماع والدين والتاريخ ومن البيئة الماديّة .

أ – **خصائص اللفظة المفردة :** مع أن اللفظة المفردة لا تنطوي على قيمة فنية بذاتها ، فإن الشاعر اذ يقتفي في إختيارها سياقاً معيّناً ، بتأثير انفعاله وطبيعته ، فإنّه يبث فيها ما هو أنأى من معناها الظاهر ، إيقاعاً أو صياغةً أو ما إليهما . وذلك كلّه يوهم القارىء ويمهّد للمعنى ويضاعف من وقعه في النفس . ومع أن الأخطل ليس شاعراً لفظياً ، إلا ان ألفاظه ليست تقريريّة ، هادئة ، بل حيّة . متحركة ، تنزو وتتحرّك بنزوات الانفعال وحركاته . فلو نظرت إلى أقواله التالية :

– الخائض الغمر .

– وما الفرات إذا جاشت حواليه .

– وذعذعته رياح الصيف واضطربت فوق الجآجىء من آذيه غدر .

– مُسحنفر من جبال الروم .

– حُشد على الحقّ ، عيّافو الخنى ، أنف .

– لم يأشروا فيه .

– شمس العداوة . حتى يستقاد لهم .

– وكانوا طالما هدروا .

– لا يسمع الصوت مستكّاً مسامعه .

لو نظرت الى هذه المعاني لوجدت أن إيحائيّتها وبثّها لا يقتصران على طبيعة المعنى وحسب ، بل على طبيعة اللّفظ الذي كُسي به. ولست ممنعاً في افتعال التّآويل لاستنطق الحروف ما لا بينة عليه ، بل اكتفي بالإشارة مثلا ان في قوله : « وما الفرات إذا جاشت حوالبه » أدّى له حدسه لفظة تمثّل المعنى فيما هي تعبر عنه . فلفظة « جاشت » بجيمها وشينها تؤدّي المعنى اداءً صوتياً ظاهراً . أما لفظة « حوالب » في صيغة الجمع ، فقد أوحت بالكثرة من طبيعة صياغتها ، كما أنها في أصل معناها

تدلّ على الانهمار والتجمّع ، فكأنها لا تعبر ذهنياً عن المعنى ، بل تصفه وتجسّده . ولست أزعم ان الشاعر تفطّن إلى مثل ذلك بوعيه ، بل ان انفعاله اشتقّ لنفسه الفاظه ، متصلا بروحها وبتلك العلائق الحميمة التي تنشأ بين النفس واللّفظ . ومثل ذلك قوله : « وذعذعته رياح الصّيف ». فلفظة ذعذع تمثل المعنى بمقطعيها المتشابهين في صيغة الرُّباعي الأصم . وحروفها تتجاذب فيما بينها. لا ينطلق الحرف الأول وينقضه الحرف الثاني حتى ينطلق من جديد، مجسّداً الحركة والتنازع اللّذين يوحي بهما اللفظ في طبيعة معناه .

فهذه اللفظة تؤلّف بين الفصاحة والبلاغة ، وفقاً للتعبير القديم المأثور ، إذ أنها تعبر عن المعنى وتمثله وتوحي به في آن معاً . وربما تضاعف المعنى بلفظة « رياح » وقد توسّل فيها صيغة الجمع توسُّلا بليغاً أوهم القارىء بعظم قوّتها . فالرِّياح أعمق دلالةً من الرِّيح بمفرده إذ أنها تمنحه صفة الكثرة والشمول، فكأنّه يَطلع ويُحدق من كلِّ صوب . ومثل ذلك لفظتا « جآجىء » و « غُدُر » في صيغة الجمع وفي دلالتهما الحسيّة التي تبعث في روع القارىء يقين الصَّخب والعنف والفيضان . ولفظة « الجآجىء » ذاتها تشير الى صدر السفينة النّاتِىء الذي يقتحمه الموج ويتفجّر عليه ، مرغياً ، مُزبداً ، ثم منداحاً في سيول على متن السّفينة . ولو لم يكن حدس الشاعر خالقاً ، لما أرشده الى مثل هذه اللفظة ولأحلّ من دونها لفظة تدل على السفينة بمجملها أو ما الى ذلك مما لا يجسِّد عظم انفجار الموج .

أما لفظة « مُسحنفر » التي تدلُّ على السُّرعة والاصطخاب ، فقد أضافت بطبيعة صياغة حروفها معنى التدافع والالتواء والاقتحام ، وهي معان ألّف بينها الشاعر وجمعها في حدود لفظة واحدة قاطبة . وذكره لجبال الروم لا يعدو هذه الغاية اللفظية أو غاية استمداد القدرة الايحائية من طبيعة اللّفظ ذاته . فلفظة الروم توحي هنا بالجلال والعلوّ والبعد وتمدُّ بأبعاد المعنى وتُقصي مَدلُولاته .

ولا مجال للإطالة في تحليل هذا الأمر من خلال الأمثلة المتبقيّة ، فنُنَوّه بأن النُّعوت المصاغة على صيغ الجمع : « حُشد ، عيّافو ، شمس ، أنف » أدّت

معنى الغلوّ بطبيعة صياغتها فضلا عن طبيعة معناها . وتجري مجراها ألفاظ « هدروا ومستكنّا» إذ تنطوي حروفها على دلالتها .

وقد يخيّل للقارىء إثر ما أشرنا إليه ، أن الأخطل تعمّد ذلك تعمُّداً واعياً ، والواقع أن الشاعر الخالق لا يخلق الأشياء متمالكاً وعيه . بل إنها تحدس له ، فيتحكّمها بذائقته التي تسيغها فتثبتها ، أو تمجّها ، فترذلها .

ولقد أُثر عن الأخطل أنه اقتفى على سياق النابغة في اللفظة الحيّة النفسية الموحية ، وأنه كان من عبيد الشعر ، إذ قيل إنه أنفق ثلاثة أعوام في اعداد هذه الرّائيّة . وذلك جميعاً ، يُزجي بنا الى القول ان اللفظة في شعر الأخطل هي لفظة مختارة ينتقيها لأبعاد ثلاثة تنطوي عليها ، على الأقل :

– فضلية معناها في أدائه المباشر .

– فضيلة جرسها وايقاعها .

– فضيلة ايحائيتها بحيث تؤدّي المعنى وتواكبه وتضاعفه بصورته الصوتيّة والحسيّة والنفسيّة .

ب – **خصائص العبارة أو اللفظة المركبة :**

اعتمد فيها الشاعر على مقدّمات متعدّدة ، أهمها التالية :

١ – **الجمل الشائعة المؤلفة من فعل وفاعل او مسند ومسند اليه** ، مع القيد ، فضلا عن الجملة الاسميّة . كما أن جمله بدت مقتضبة لا يستطرد ولا يعترض فيها ، ووقّعها، أحياناً ، في سياق متشابه ، مكرّر كقوله : الخائض الغمر ، الميمون طائره .

٢ – **توسل النعوت النفسية والحسية يلُمّ بها** ، حيناً ، في صيغتها المباشرة ، وحيناً آخر تتأدّى له من الجملة أو المعنى العام . نقع على النعوت المباشرة في مثل قوله :

– الخائض الغمر ، الميمون طائره ، خليفة الله ،

– مسحنفر – مقدِّم – مسوَّم – حُشد – عيّافو – أنف

– محتقر – شمس العداوة – مجللة – ناصح – مخلَّفون

وهذه النّعوت تبدو اكثر تعاظماً وحشداً في الشعر الجاهلي ، وفي شعر الأخطل نفسه عندما يتناول موضوعاً وصفياً. والنعوت المباشرة عندما تُحشد وتتعاظم تنمّ عن تقصير في الرُّؤيا الشعرية ، اذ يتحوَّل الشاعر عن الخلق بها الى الوصف . والشعر ليس محاكاة للأشياء ووصف أو رصف لها باللّفظ ، بل هو خلق منها وابتكار فيها. فالنعوت المباشرة ليست قوام العبارة ، عند الأخطل ، وان كان يعترض بها ويلجأ اليها لتحديد المعنى وتأكيده أو جلائه .

النعوت غير المباشرة :

وقد يسمو عن النعوت اللفظية المباشرة الى النعوت المؤوَّلة في جمل اسمية أو فعليّة . ونقع على نعوت الجمل الاسمية فيما يلي من قوله :

– وأزعجتهم نوى في صرفها غير – وقد جاءت جملة « في صرفها غير » نعتاً للنّوى ، وهي أرحب أداء وأوسع مضموناً من النّعت المباشر إذ تولّدت النعت من غير المنسوبة إلى الصرف .

– في حافتيه وفي أوساطه العشر

– منها أكافيف فيها دونه زوَرُ

– فوقه الرّايات والقتَر

– إن الضعينة كالعرِّ

– وللسيف في خيشومه أثر

– الذي في خدِّه صعر .

ونقع على النعوت المستمدة من الجمل الفعليّة في مثل قوله :

— إلى امرىء لا تعدّينا نوافله : أظفره الله

— الخائض الغمر ، الميمون طائره : يستسقي به المطر

— إذا جاشت حوالبه — ذعذعته — اضطربت — يسرّه

— ما ان رأى مثلهم جنّ ولا بشر

— يغشى القناطر يبنيها ويهدمها

— لم ينبض بها وتر

— في نبعة من قريش يعصبون بها

— تعلو الهضاب وحلّوا في أرومتها

— إذا المت بهم مكروهة صبروا

— اعطاهم الله — لم يأشروا

— لا يستقلّ ذوو الأضغان حربهم

— يبارون الرّياح — والقول ينفذ ما لا ينفذ الإبر — تلقاها وان قدمت — وليس ينطق حتّى ينطق الحجر — يقضي الناس أمرهم — أنابت اليهم كل مخزية .

وقد نقع على ما دون ذلك من نعوت اسميّة وفعليّة ، وإنما آثرنا تعداد ما قدّمنا منها لنخلص منه إلى أنّ قوام العبارة الاخطليّة يعتمد على النّعت المستفاد من الجملة ، أي على النعت التمثيلي ، التفصيلي ، كأنه كان يسعى إلى مشاهدة المعاني ، حيناً ، ووعيها ، حيناً آخر ، في حدودها المقرّرة . ويمكن أن نقرن معظمها بالتشبيه التمثيلي في بعض الجزئيّات والأعراض التي تلمّ بها .

٣ — **الايقاع في متن البيت** : بالاضافة إلى الايقاع المستمدّ من الوزن والقافية يتولّد إيقاع يعضده ويتآلف معه من صيغ العبارة . وهو إيقاع خفر ، حيناً ، ومدوّ ، حيناً آخر ، نعثر عليه في نهاية الاشطر غالباً . فالايقاع المتولّد من الهاء في قوله : الميمون طائره — جاشت حوالبه — لا تعدّينا نوافله ، في نهاية الاشطر الثلاثة

من مطلع القصيدة . أو إيقاع « يسترُه – تسأله – لمنزله – يعصبون بها – أرومتها – به – مواليه – لهم – حربهم – دونكم – لكم » .

وقد يتولد ، أيضاً ، من تقطيع الجملة في الأشطر أو الأبيات كمثل قوله : « في حافتيه وفي أوساطه – يبنيها ويهدمها – هم آووا وهم نصروا – فلا هدى الله – ولا لعاً » .

٤ – ومن طبائع العبارة في هذه القصيدة **توقيع حروف اللّين** في مد يعقبه خطف أو ما إليه كالألف بعد الياء – أو تلاحق الألف والاعتراض بالواو ، ممّا لا مجال للإضافة بذكره ، فنقتصر على تمثيله بقوله :

الخائض الغمر والميمون طـــائره خليفة الله ، يستسقى بـــه المطر

وقد وردت أحرف اللّين فيه على الشكل التالي : ا – ي – و – هاء مُشْبَعَة – ا – ا – ومع أن هذه الحروف لا تنطوي على دلالة حاسمة ، فان الباحث يقع فيها على نغم وئيد ، متوازن ، بعضاً بالبعض الآخر . والناظر في سائر أبيات القصيدة يعثر على كثير من هذه الامثلة التي ينتظمها بايقاع خفر ، لطيف .

ج – **وسائل التجسيد** :

١ – **الكناية أو التجسيد بالمشهد الحسي** : إذ كان التشبيه هو القوام الأوّل للشعر الوصفي ، فإن الكناية هي القوام الأوّل للشعر الذهني القائم على إيراد المعاني . ونفهم بالكناية هنا أن يسوق الشاعر حادثة أو مشهداً يستبطن بهما الدّلالة على معنى يرمزان إليه . مثال ذلك قوله :

– **الخائض الغمر ، الميمون طائره** : خليفة الله ، **يُستسقى به المطر** .

وقد استبطن في هذا القول الدّلالة على بطولته وشجاعته ، فمثّله خائضاً أغمار القتال ، يقتحمه ولا يبالي بمخاطره . فمشهد الرّجل الخائض الغمر ينطوي على دلالة

معنوية . ومثل ذلك « الميمون طائره » للتدليل على البركة والتوفيق فيما يذهب إليه وما يبتغيه . ويقول ، أيضاً ، إنه يستسقي به المطر . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وهو تكرار لفكرة التيمّن والبركة بمؤدّى آخر .

ونقع على كناية كبرى في المقارنة بين **الفرات وكرم** الممدوح ، توسّل لها التشبيه الاستطرادي المتعاظم بذاته في الجزئيّات والأعراض ، كما سنرى .

– **مقدم مائتي ألف لمنزله** – وقد مثّل بها عظم همته وشجاعته .

– **يغشى القناطر يبنيها ويهدمها** – للتدليل ، أيضاً ، على الشجاعة وشدّة البأس ، وهو تكرار وتفسير لقوله السّابق : الخائض الغمر .

– **هم الذين يبارون الرياح** – وقد تكنّى بالرّياح على الفقر والاملاق بتأثير طوارىء الطبيعة .

– **ليس لهم ايراد ولا صدر** – للقول إنهم فاشلون ، عديمو الأهميّة .

– **يقضي الناس أمرهم** – للتدليل على المعنى ذاته .

– **فوقه الرايات والقتر** – وهي شبيهة بالخائض الغمر وما إليها .

– **لم ينبض بها وتر** – أي ان الجنود التحموا في القتال ولم يتراشقوا بالسّهام من بعيد ، وذاك أدلّ على بطولتهم .

– **ويستقيم الذي في خده صعر** : وقد تكنّى بالصّعر ، وهو تجمّد عروق العنق على الكبرياء .

وبعد ، فما قيمة هذه الأقوال من الناحية الفنية .

إن القيمة الاهم في ذلك كله أنّ الشّاعر يحوّل الفكرة الذهنيّة المجردّة إلى صورة، أي أنّه ينقل ما يُفهم ويحوّله إلى شيء يُبصر ، فيمنحه ، بذلك ، يقين الواقع الفعليّ الحيّ ، ويوهم القارىء به ويقنعه ويؤثر فيه . فلو استبدل قوله :

« الخائض الغمر ، يغشى القناطر ، يبنيها ويهدمها » بالاشارة إلى أنّه شجاع ، مقدام ، لضمر المعنى وتقلّص وانعدم تأثيره في نفس القارىء .

٢ — **التشبيه** : ألمّ الشاعر ببعض التّشابيه ، عرضاً . ولم ينصرف لها انصرافاً خاصاً ، وأهم تشابيهه هي التالية :

— **ما أن رأى مثلهم جنٌّ ولا بشر** — وهذه الجملة لا تنطوي على صيغة التشبيه ، بل على معناه إذ جعل الجنود يفوقون البشر والجنّ ، جميعاً . وقد بلغ غايته بنقيضها .

— **وفي نبعة من قريش يعصبون بها** : وقد شبّه نجابة الأصل بشجرة النّبع الّتي تتخذ منها الأقواس لصلابتها وحذف المشبّه وأقام من دونه المشبّه به على الاستعارة التصريحيّة .

— **ما أن يوازى بأعلى نبتها الشجر** : وقد شبّه سائر الناس بالشجر على غرار ما تقدّم .

— **تعلو الهضاب وحلوا في أرومتها** : هو استكمال للتشبيه السابق ، بحيث مال به إلى نوع من التشبيه الاستطرادي .

— **ولا يُبيّن في عيدانهم خور** : شبّه أخلاقهم بالعيدان على الاستعارة التصريحية المأثورة .

— ان الضغينة تلقاها وان قدمت كالعرّ يكمن ، حيناً ، ثم ينتشر .

و قد شبّه الضغينة بالجرب في تشبيه تمثيلي يتضمّن جزئيّات وتفاصيل في طرفيه ، وجاء أحدهما معنوياً وهو الضغينة والثاني مادي ، وهو العرُّ .

— **وليس ينطق حتّى ينطق الحجر** ، وقد انطوى هذا القول على تشبيه له بالحجر .

– **وهناك التشبيه الاستطرادي** المأثور منذ الجاهليّة وقد استهله بقوله : **وما الفرات** . . ثم أردف بعد ثلاثة أبيات بالقول : « **يوماً – بأجود منه** » – قارناً بين كرم الممدوح وفيضان الفرات . وهذا التشبيه المستمدّ من الجاهلية يتصف بخصائص النفس البدائية التي تؤدّي المعنى من خلال تعظيم الأحداث والالمام بالجزئيات والاعراض .

٣ – **مادة التجسيد** : ونفهم بها الأغراض والمظاهر التي أفاد منها في تأدية معانيه . وأهمّها ما يلي :

١ – **الدين** ـ: أفاد من الدين بعض المعاني التي كان يطرب لها الخليفة لتمكينها له في السُّلطة. كقوله: «أظفره الله» « – خليفة الله » حيث منح الخليفة صفة دينية ، فائقة جعلته خليفة الله ، مؤيّداً منه في النصر .

ومثل ذلك قوله : « وتستبين لأقوام ضلالتهم » أي أن أعداء الخليفة كانوا في حالة من الضلالة والكفر في قتالهم له ، وان الخليفة لا يقاتل في سبيل السلطة ، بل في سبيل الدين .

ومثل ذلك في الأشطر والأبيات التالية :

– أعطاهم الله جداً ينصرون به

– ناضلت دونكم ابناء قوم هم آووا وهم **نصروا**

– أفحمت عنكم **بني النجّار**

– وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً ، بعدما كفروا

٢ – **السياسة** : وقد أفاد منها مادة فيما ذكره من أمر القتال في أبيات متعددة وفي في امتداحهم بأصلهم القرشيّ العريق ، وفي ذكر ما كان من أمر ابن الحباب ومن اليه .

٣ ـ **الاجتماع** : استمدَّ منه المعاني الّتي امتدحهم فيها بالقيم العامَّة كالكرم والنصر واليمن والبركة والقدرة على تحمُّل الاعباء ونجابة الاصل وإيثارهم للحق ونأيهم عن الفحشاء وأنفتهم وصبرهم ورفعة حظوظهم وتواضعهم وبطشهم بالأعداء وإيوائهم الضعيف .

٤ ـ **الهموم والتجارب الذاتية** : ظهرت في مفاخره بمن أوقع بهم في هجائه من القيسيين وفي سائر أعدائه وخاصّة بني يربوع قوم جرير .

٥ ـ **البيئة المادية** : ومعظم ما استمدّ منها يعود إلى البيئة الجاهلية كذكر العرِّ والقطين وارتحال الأحبّة والتّيمّن والجنُّ والصّعر ، وهو ، أصلا ، يباس في عنق البعير .

خلاصة في مدحه لعبد الملك :

١ ـ لم يَتحرَّر من المقدِّمات التَّقليديَّة في الطلل والحُبِّ والشَّكوى ، ولكنها لم تتطاول بالحجم الَّذي أثرَ عنه في القصائد السَّابقة .

٢ ـ تَعَاظمت الموضوعاتُ السياسيَّة المُتَعَلِّقة بالقبائل وأيامها ومحالفتها للخليفة أو محالفة الخليفة لها ، وتدابير الحرب والقتال ومعاني الشّماتة والثَّلب والهجاء والفخر .

٣ ـ برزت المعاني الملحميَّة الَّتي تُعَظِّم من بُطُولَة المَمْدوح وتُبْدع له مثالاً خارقاً في الكفاح والتَّضحية وبُعد الهمَّة ، يؤدِّي ذلك بالأوصاف والأفكار والاستطرادات الحسيَّة المنطوية على معنى الكناية ، كالخيل الّتي تطرح الأجنَّة من أرحامها وتجهض ، لشدَّة ما حملت عليه من النَّصب والإرهاق . وبعد أن كان يُقْصر غاية المدح على ذِكْر كرم المَمْدُوح واستعطافه بل واستجدائه ، فان كرمه غدا يفدُ كرديف لسائر المعاني الفروسيَّة وان كان لا يقلّ عنها غلوّاً .

٤ – أَوْلَجَ الأخْطَل نَفْسه وقبيلتَه في موضوع المدح ، فجعل يَفْخر بمآثيه في سبيل الخلافة وتوطيد أَرْكانها ودفع أَعدائها عنها بالقول الّذي يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإبرُ ، كما أنّه يُمَنّن الخليفة ويُظهر فضل قبيلته عليه بدلاً من اظهار فضل الخليفة عليها :

وَقد نَصرْتَ ، أَميرَ المؤمنينَ بِنَا لَمَّا أَتاكَ بِبَطْنِ الغُوطةِ الخَبَرُ
يُعَرِّفُونَكَ رأس ابْنِ الحُبَابِ وَقَدْ أَضحى وللسَّيْفِ في خَيْشومه أَثَرُ

٥ – تطغى شخصيَّة الشّاعر على المدائح كُلّها ، إذ لم يَعُدْ يتلهّى برياضة النَّظم في مراودة الموضوعات التقليديَّة ، بل أن قصيدته غَدَتْ ابنة نفسه ، تضجّ ضجيجها وتَتَحْنَقُ حنقها وتتألّب وتحتشد احتشادَها ، ويخيل إليك أن ألفاظه تتحاكّ وتَقْدَح شرراً ، وإنها تنقضّ انقضاضاً . فالأخطل لم يعد ذلك الفتى الغُفْل الذي يخاف على نفسه غائلة الانصار ولم يَعُدْ ذلك الشّاعر المغمور الّذي يُنْفِقُ غاية جهده لنَيْل رضا المَمْدوح ، بل غدا رجل دولة أو رجل مصير ، إذا جاز التعبير ، يرى رأيه في الأشياء ، ويقف منها موقفه ، يحضّ ويُحَذّر ويؤنّب ويتهدّد ويفتخر . وإذا لم تكن المسافة الفنّية قصيَّة نائية بين مدائح الأخطل في يزيد ومدائحه في عبد الملك ، فان المسافة النَّفسية شاسعة ، نائية ، بين فتى متداع ، حذر ورجُل متمالك لروعه وطاغٍ بحضوره على أجواء القصيدة بكاملها .

٦ – تكثر في هذه المدائح الجمل الانشائيّة من أمر ونهي وتعجّب ، كما يَغْلُبُ أسلوب الاحتجاج والعَرْض والتَّبيين ، حَيْثُ تَضْعفُ قِوَى الخيَال والابداع وتنبري من دونها القوى النَّثرية الواعية .

٧ – الا أن الأخطل مع ذلك كُلّه ، أوفى إلى ذروة فنيّة في حشد المعاني وابتداعِ الأطر الحسيَّة لها واستنباط التّآويل التي تدرك بها أقصى غايتها في الغلوّ . فهو ينهك المعنى ، فيما هو يُغالي به ولا يدع فيه وجهاً أو افتراضاً ، كما بيّنا .

الباب الخامس

مدائحه في بشر بن مروان

قدَّمنا بحثاً في طبيعة العلاقة الّتي أَوْثَقَتْ صلة الأخطل ببشر بن مروان مما لا مجال لتكراره . وإنّما نستعرض فيما يلي قصائده في مدحه ، استكْمالا لدراسة هذا الفَنّ لَدَيْه واطّلاعاً على مـدى تأثر شعره بمن يَمْتدحه في شخصيَّته ووظيفته وما أَشبه . ففي القصيدة الأولى يستهلُّ بذكر ما حلَّ بديار القيسيّين ثمّ نراه يهجوهم ويهجو أسيادهم الزبيريين ويسخر منهم لسعيهم إلى معاظمة المَروانيين الذين هم هامة قريش ، الممتنعون على الخصوم ، العريقون في المُلْك ، الشّديدو الحلم في مواضع الحكلة ، الفتّاكون بالقريب والغريب في مواضع الغضب والقسوة . ويعرض ، بعدئذ ، لحقّهم بالخلافة وسعيهم للأخذ بثأر عثمان وفتكهم بمناوئيهم من آل الزبير ، ويميل إلى تعظيم بشر في الكرم الذي يفيض عنه ، كما يفيض الماء من الدّلو الكبيرة ، وينوّه بمآثره في إكرام الضيوف إذ ينحر لهم أشرف الإبل ، فيما يحدق بهم القحط والصقيع . وينهي القصيدة معظّماً المَمدوح ، مؤثراً له على الناس جميعهم .

يقول في المطلع :

أَقْفَرتِ البُلْخُ مِنْ عيْلانَ فالرُّحَبُ   فالمحْلَبِيَّاتُ ، فالخابورُ ، فالشُّعَبُ [1]

١ ــ البُلْخ : جمع بليخ : موضع بالجزيرة . الرَّحَب : جمع رحبة وهي قرية بحذاء القادسيّة . المَحْلَبيّات : جمع محلَبيّة : قرية بين الموصل وسنجار . الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس العين والفُرات .

فَأَصْبَحُوا لا ترى إلاَّ مساكِنُهُـــمْ كَأَنَّهُمْ مِنْ بَقايا أُمَّــةٍ ذَهَبـــوا[1]

وهذا مَطْلع يكادُ أن يَكُونَ فريداً أذ يرثي فيه الأعداء أو يَشمت بهم . فالإرتحال يخصُّ القيسيِّين الّذين لم يَعُدْ لهم قبل بالاقامة في تلك الدِّيار بعد أن نكلَّ بهم التَّغلبيُّون . ولقد خلَّفوا آثارهم كآثار الأمم البائدة . وربَّما حرص الأخطل على مقابلة آثارهم بالأمم من دون الأطلال الهزيلة ، ليتعظَّم قَوْمُه بهم . وان الباحث لَيحارُ بشأن هذا المطلع إذ يتعذَّر عليه تعيين العاطفة التي يَصْدُر عهنا ، فنكتفي من ذلك بالإشارة والتّنويه ، إذ جَعَلَتْ همومه القبيلة تَصْحبه في معظم قصائده وتحلُّ في مطالعها محلَّ الغزل . إلا أنَّ حِقْدَه يَنْفجر فيما يلي من أبْيات إذ يقول :

فاللهُ لم يَرْضَ عن آل الزبير ولا عَنْ قَيْسِ عَيْلان ، حيًّا طالما خَربُوا[2]

يُعاظمونَ أَبا العَاصي ، وَهُمْ نَفَــرٌ في هامَةٍ من قُرَيشٍ ، دونها شَذَبُ[3]

وبذلك تَلِجُ القَصيدةُ في باب المَدْح والتّبرير ، وفقاً للمعطيات السياسيَّة والدّينيّة . فالزّبيرون والقيسيون عصــاةٌ ، مارقون من الدِّين ، لم يُخْذلُوا

١ ــ م : يقول إن آثار المساكن قد تعفّتْ في تلك الديار ، إلاّ قليلاً ، فبدت كأنها آثار أمّة خالية .

٢ ــ خرَبوا : سرقوا ما ليس لهم حقّ به .

م : يشير إلى الزُّبيريّين ، أعداء الأمويين ، وإلى قيس عيلان ، أعداء تغلب ، ويقول إن الله غاضب عليهم لسعيهم إلى إختلاس حقّ ، ليسوا حقيقين به .

٣ ــ الشّذَب : الشّوْك .

م : يقول إنهم يعاظمون المروانيين الذين هم هامة قريش ، الممتنعون على الخصوم ، يعانون من دون لقائهم أمرّ الصعاب .

بأنفسهم . بل إن الله خَذَلهم . والبعد الدِّيني بيِّن في قوله « فالله لم يَرْضَ عن آل الزُّبير » وقد أشرك الله في المحازبة والقتال لتَنَازُع السُّلطة في الدِّين . ويَنْحَدِرُ الشَّاعر في البيت التَّالي إلى الإيضاح والإبانة ، بما لا يَعْدُو ما ورد في بيت سابق ، إذ جعل غضب الله ينقضُّ عَلَيْهِم لمعارضتهم المروانيين ، وقد أسفَّ بذلك لإخضاعه التّجربة للدِّعاية والغاية السياسيَّة بتعليل فاقد القيمة الانسانيَّة . ولقد نَزَعَتْ غاية الشّعر إلى الخارج وافتقدت مبررَّها لأنّها تخلَّت عن مراودة الحقيقة وارتيادها . ولا يَشْفع بذلك اللّفظ والصّياغةُ والعبارة .

ومن ثم يمضي في مدحهم بالقول :

بِيضٌ مصاليتُ ، أَبناءُالمُلوكِ ،فَلَنْ يُدْرِكَ ما قَدَّموا عُجْمٌ ولا عَـرَبُ ١
إنْ يحْلُموا عَنك ، فالأَحلامُ شيمتُهُمْ والموْتُ ساعةَ يحْمي مِنْهُمُ الغَضَبُ ٢
كأَنَّهُمْ عِنْدَ ذاكُمْ ، ليس بَيْنَهُـمُ وبَيْنَ من حارَبوا قُرْبي ولا نَسَبُ ٣
كانوا مَواليَ حَق . يَطْلُبونَ بِـهِ فَأَدْرَكوهُ ، وما ملُّـوا ، ولا لَغبوا ٤

١ – بِيض : هنا بمعنى الأحرار . المَصاليت : جمع مِصلات : الصّنديد ، البطل .
م : يمتدح المروانيين . ويقول إنهم أحرار ، عريقون في المُلْك . لم يبلغ مجدهم العرَب والأعاجم أي أنهم أمجد النّاس .
٢ – م : يمتدحهم بالحلم وعظم العقل ، ويقول إن ذلك شيمة من شيمهم ، إلا أنهم يُذيقون أعداءهم الموت ، فيما يَغضبون .
٣ – م : أي عندما يَستشيطون غضباً ، يقضون على عدوّهم ، أكان قريباً أم غريباً .
٤ – لَغَبوا : أعيوا .
م : يقول إنهم كانوا أصحاب حق مغصوب ، يطلبونه ، فظلّوا يجاهدون حتى أدركوه دون أن يملوا من الصعاب ويعجزوا من دونها .

ولقد حشد النُّعوت المدحيَّة : « بيض ، مَصاليت ، أبناء الملوك » حيث يَنْعدم الخَلْق ، ويعتاض الشّاعر عنه بتكثيف النُّعوت المُستعارة من مُعْجم الألْفاظ الايجابيَّة . وقد كان النّعت ، أبداً ، أداةً شعريّة فاشلةً وبخاصة عندما يُحْشد ويُعاقَبُ ، إذ ينمُّ ذلك عن عجز في الرُّؤيا وتَتَعْتُع في فضٍّ الانفعال لمطالعة مَضامينه الانسانيَّة .

ويجري على هذا الغرار قوله : « فَلَنْ يُدْرك ما قدَّموا عُجْمٌ ولا عَرَبُ » حيث أحلَّ التَّعميم والإطلاق مَحَلَّ النُّعوت الحاشدة ، والاطلاق يَصْدر عن الحماس الأرعن الفاقد البصيرة ، المُنْعدم الثّقافة . وأيَّة قيمة شعريّة أو إنسانيّة لشعر شاعر يقول إن فلاناً هو أعظم النَّاس ، قاطبةً ، إنه كلام الدهماء والعامة في أحاديثهم الانفعاليَّة الفاقدة الثّقافة والمسؤوليَّة . ولقد كان الاطلاق الآفةُ الكُبْرى الملازمة للغلوِّ في الشعر العربي . أمَّا ما يَسُوقُه فيما يلي فيمتدحهم فيه بالحلم : « ان يحاموا عنك ، فالأحلام شيمتهم » ، والحُلْم من المعاني المدحيَّة العامّة ومثل ذلك البطش والفتك ولكنّه عُنِيَ بِمُعارضتها وتحديدهما ، بَعْضاً بالنِّسبة إلى الآخر .

ولَنْظُر إلى النَّثريَّة المَمْجوجة في قوله للتدليل على شدَّتهم وبطشهم :

كَأَنَّهم عِنْدَ ذَاكُمْ لَيْسَ بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ مَنْ حَارَبُوا قُرْبَى وَلا نَسَب

على أنّ امتداحهم بأحقيَّتهم وصلابتهم من دونها يسمو قليلا على ذلك لولا أنَّه يَفْتعله لغاية مدحيَّة دعائيّة ، ثم إنَّه يُمَثّله بقوله :

إنْ يكُ للحَقّ أَسْبَابٌ يُمَدُّ بهــــا ففي أَكُفِّهِم الأَرْسَانُ والسَّبَبُ ١

---

١ ـ الأسباب : هنا الحبال .

م : يقول إذا كان الحق يوثَق بحبال ، فإن زمام تلك الحبال يكون بأيديهم ، وقد ابتدع الشّاعر هذه الصورة ، ليوعز بها إلى أنّهم أصحاب الحقّ ، يقبضون على ناصيته .

هُمُ سَعَوْا بابنِ عَفَّانَ الإمامِ ، وهمْ بَعْدَ الشِّماسِ مَرَوْها . ثُمّتَ احتلبوا ١
حَرْباً أَصابَ بني العَوّامِ جانِبُهــــاً بُعْداً لمَنْ أَكَلَتْهُ النَّارُ والحَطَبُ ٢
حتي تَنَاهَتْ إلى مِصْرِ جَمَاجِمُهُمْ تَغْدُو بها البُرْدُ مَنْصُوباً بهاَ الخَشَبُ ٣
إذا أَتَيْتَ أَبا مَرْوانَ ، تَسْأَلُـــــــهُ وَجَدْتَهُ حاضِراهُ الجــودُ والحَسَبُ ٤
تَرَى إلَيْهِ رفــاقَ النَّاسِ سائلَـــــةً مِنْ كُل أَوْبٍ على أبوابِهِ عُصَبُ ٥
يَحْتَضِرونَ سِجــالاً مِنْ فــواضِلِهِ والخَيْرُ مُحْتَضِرُ الأَبْوَابِ مُنْتَهِبُ ٦

وتأكيد الشّاعر على حقّهم كان من جوهر مهمّته المدحيَّة إذ أنَّهم كانُوا يُعَارَضُون به ويقاتَلون عليه،وقد تفتّق لهم بصُورة تُوافق مقتضى الحال غاية الموافقة إذ افترض للحق شكل المطيَّة وجعل رسنه في أَيْديهم ، أي أنَّهم يملكونه

١ ــ الشِّمَاس : هنا النزاع والمُمانعة . مَروها : استدرّوها .
م : يقول إنهم سعوا للأخذ بثأر عثمان ، وبعد أن ثارت الفتنة ، أخمدوها وآل إليهم المُلْك ، ولقد ولج الشاعر إلى ذلك من باب تشبيه الحرب والفتنة بناقة شلوس . لا تدعَ أحداً إلاّ أن الأمويين امْتروا ضرعها واستدرُّوه .
٢ ــ بنُو العوّام : أبنا الزُّبير .
٣ ــ البُرْد : جميع بريد .
م : يشير هنا إلى أن عبد الله بعث برأس مُصْعَب . إذ قُتل . إلى الكوفة ثمّ بعث به إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر .
٤ ــ م : يقول أنّ بشراً لا يزال يجود بماله ، يحفزه إلى ذلك حَسَبُه العريق .
٥ ــ م : يصوّر الناس الذين ينتجعون بلاطه بجماعات وعصب لكثرتهم وشدّة ازدحامهم على بابه .
٦ ــ يحتضرن : أي يحضرن . سِجال : جمع سجل وهو الدّلو الكبيرة فيها ماء .
م : يقول إن العطاء يتَدفّق من أيديهم ، كما يتدفق الماء من الدّلو الكبيرة ، ويردف بأن الناس لا يزالون يهرعون إلى أبواب رجل الخير والعطاء .

ويقبضون عليه ويتصرّفون به . والصّورة تمثيلية مُقنعة ، ولكنّها افتراضيّة ، تعادل التّشبيه دون أن تجري مجراه في الصّيغة والشّكل . فهي صورة بليغة بالنّسبة إلى غايتها وغاية الشّاعر منها إذ باغ إلى ذُرْوةِ التّأكيد على أحقّيتهم . فهل أن الحقيقة المدحيّة مُنْفصلة عن الحقيقة الإنسانيّة أم أنّها حقيقةٌ افتراضيّة أم توقيعيّة ؟ بل ان المدح لا قيمة له إلا إذا كان تمجيداً للإنسان المُتفوّق بصلب إرادته وصموده .

أمّا في البيْت الثّاني ، فإنّه يُعاوِدُ الاسلوب المستمدّ من وقائع البيئة الماديّة . فكما جعَل للحقّ رسناً يُوثقُ به ، جعَل الخلافة كالنّاقة التي يُمْرى ضَرْعُها فتدرّ لهم ، بعد تَرْويضها . ومؤدّى ذلك أنهم لقوا من دونها عنتاً ، لكنهم ناضلوا عليها حتى استسلمت لهم واستدرّوا خيْرَها . ولقد ألّف بذلك الكناية والاستعارة بنوع من الخيال البصير في التّوحيد بين أعراض النّفس ومظاهر المادة ونسبة ما لأحدهما إلى الآخر . وفي هذه الصورة تجتمع فضيلة التّشبيه في المقابلة لتأكيد المعنى والاستعارة في التّوْحيد بيْنَ ما لا وُحْدَة بيْنه . ومن هذه الصّورة يعود إلى سَجل الوقائع التّاريخيّة ذاكراً إندحار الزّبيريّين وارسال رأس مصعب إلى عبْدِ العزيز في مصر . ولا مَناصَ للمَدْح من الوقوع في قبْضة الأحْداث وما تقْتَضي من سَرْدٍ بالتّصريح والتّلميح . ويَخْلُص من ذلك كُلّه إلى وصف كرَمه من خلال الحشود القائمة على بابه ، أي بالكناية المشهديّة الحسيّة ومن خلال السجال أي الدّلاء ، أي بالاستعارة التّشبيهيّة ، وهما ، جميعاً ، عديمتا الخلْق ، تقليديتان ، دانيتان ، يَسمو عليهما قليلاً في قوله :

والمُطْعِمُ الكُومَ ، لا يَنْفَكُّ يَعْقِرُها إذا تلاقي رُواقُ البَيْتِ واللَّهَبُ [1]

---

١ ـ الكُوم : جمع كَوْماء وهي النّاقة العظيمة السنام .

م : يقول إنّه لا يزال ينحر الإبل الغالية الثمن في أيام القحط والشتاء ، عندما توقد النّار ، فتبلغ أعلى رواق البيت من شدّة البرد الذي يعانيه موقدوها .

كأَنَّ حِيرَانَهـا في كلِّ مَنْزِلَـةٍ قَتْلَى مُجَرَّدَةُ الأَوْصالِ تُسْتَلَبُ [1]
لا يَبْلُغُ النَّاسُ أَقْصى وادِيَيْهِ ، ولا يُعْطي جوادٌ ، كما يُعْطي ، ولا يَهَبُ [2]

وإذا كان ذكر الكوم في مقام الكرم مستنفداً في التقليد ، فقد غالى على سائر المتبارين إذ جعل الممدوح يذبح النّياق الحامل ، فكأنه يذبح بالواحدة اثنتين . وربّما كان لمثل هذه الافتراضات وقع في نفس الممدوح ، إلا أنني لا أسيغها إذ يطغى عليها التّفسير والاختلاق دون طائل . ومهما يكن ، فان الأخطل لا يَحتشد في هذه القصيدة احتشاداً مَلحمياً ، كما سبق ، بل يسوق لنا فيها عيّنات جزئيّة من الموضوعات التي يُعَرِّج عليها في مدائحه ، وإن كان قد خص المَطْلع بذكر أطلال الأعداء ، مُتَغنياً ، شامتاً .

وللأخطل قصيدة أخرى في مدح بشر بن مروان بدأها مُتفاخراً بانتصاره على الأعداء الذين يَفرقون جزعاً منه كالطائر الهزيل الذي ينقضّ عليه الصّقر ، ويقول إنّهم يُعادونه ، وهم بعيدون عنه ، ويُوَلّون من دونه ، فيما يلقونه ، ويهجوهم بالجهل والتّبَجّج والجُبن ، وينقطع إلى الغزل وذكر صاحبته الراحلة التي كانت تختلس إليه النظر من دون الحِجاب ، ويصف خدّيها وقامتها وثغرها ويعرِّض بقبْح زوجها ويبوح بالهمّ الذي خلّفته في نفسه إثر رحيلها ، ويعرِّج إلى وصف الناقة ، ذاكراً مجرى الحزام في جَنْبَيها وسرعة تقلّب يديها ورجليها ويُشَبّهها بالأتان الوحشية والحمار الوحشي وأنثى النعام التي يَتَعَرّض لها ذكر قصير الرّيش يباريها في العَدْو إلى احتضان بَيْضهما .

١ ـ الحِيران : جمع حوار : ولد النّاقة .
م : هذا البيت ينطوي على معنى مدحي يستكمل به معنى البيت الآخر . يقول إن الممدوح ينحر نياقه السّمينة ، وهي حامل ، ولا يجزع أن يضحّي بما تحمله من ولد ، فكأنّه نَحَر بالنّاقة اثنين : هي ووليدها .
٢ ـ م : يؤثره في هذا البيت على سائر الناس في الكرم ويقول إنّه لا يبلغ أحد قط أقصى واديه أي لا يدرك غاية ما يدركه .

ويوفي ، إثر ذلك ، إلى المدح ، فيُقسم أعظم الايمان على صدقه في امتداح قريش ، وفَزَعه إليها ممّن يتربّصون للغدر به ويشون عليه إلى القُرَشيّين . وبعد أن يمتدح بني قريش بطيب مقامهم وكرمهم ، يظهر اعتصامه بحبل بشر على المصائب وإيثاره له على سائر القُرَشيّين .

يقول في مطلعها :

قَدْ كَشَّفَ الحلْمُ عَنِّي الجَهْلَ ،فانقَشَعَتْ عَنِّي الضَّبابة ،لانِكْسٌ ،ولاوَرِعُ [1]

ثم يُخَاطِب صاحبته المالكيَّة ، ويستطرد إلى وصف النَّاقة وتشبيهها بالثور الوحشي وأنثى النَّعام :

والمالكيَّة قد أَبصَرْتُ ما صَنعَتْ لمَّا تَفرَّق شَعْبُ الحَيِّ ، فَأَنصَدَعوا [2]

يا صَاحِ هَلْ تُبْلِغَنْهَا ذات مَعْجَمَةٍ بِصَفْحَتَيها وَمَجْرَى نِسْعِهَا وَقَعُ [3]

كَأَنَّها أَسْحَمُ الرَّوْقَيْنِ ، منتجعٌ تَتْلوه رجلان في كَعْبيْهِمَا صمَعُ [4]

١ – الضَّبابة : هنا الجهل . النّكْس : الجبان . وَرِع : هنا من يأخذه الرَّوع أي الخوف .
م : يقول إنّ الحلم بدّد ضباب الجهل في نفسه ، دون أن يؤدي به تحلّمه إلى الجبن والخوف . فهو لا يحلم عن عجز ، بل عن إرادة واختيار .

٢ – المالكيّة : امرأة من بني مالك . الشّعب : المُتَفَرّق . انصَدَعوا : تفرّقوا .
م : ينقطع في هذا البيت إلى الغزل ، ويقول إنه أبصر ما قامت به صاحبته عند تَفَرُّق الشّمل والرحيل .

٣ – ذاتُ مَعْجَمَةٍ : أي ناقة قويّة . الصَّفحتان : الجنبان . النِّسْع : هو مثل الحزام للدّابة .
م : يشرع في وصف الناقة القويّة التي يمتطيها لإدراك حبيبته ، ويقول إنّ مجرى الحزام في جنبيها خلّف في جلدها أثراً .

٤ – الأسحم : الأسود . هنا الحمار الوحشيّ . الرَّوقين : القرنين . المُنتجع : الذي يطلب المرعى . الصَّمَع : التحديد .
م : يعود فيشبّهها بحمار الوحش الأسود القرنين الذي يعدو طلباً للغيث والمرعى والذي شُحِذَ كَعْبا رجليه من شدّة عدوه .

أَو هِقْلَةٌ من نَعَام الجَوِّ ، عَارَضَها قَرْدُ العَفَاءِ ، وفي يافُوخِهِ صَقَعُ [1]

ويُبَاشر المَدْح بالقَسَم في قوله :

إنِّي وَرَبِّ النَّصَارَى عندَ عيدهم والمُسْلمين إذا ما ضَمَّها الجُمَعُ
وَرَبِّ كُلِّ حبيس فَوْقَ صَوْمَعَةٍ يَمْشي ولا همُّه الدُّنيا ولا الطَّمعُ
والمُلْبِدينَ عَلى خُوصٍ مُخَدَّمَةٍ قدْ بانَ فيهِنَّ مَنْ طول السُّرى خَضَعُ [2]
حَثُّوا الرَّواحِلَ مشْدوداً حقائِبُها مِنْ شأْن رُكْبَانِها الحاجاتُ والوَلَعُ [3]

ولقد كان القَسَمُ من أَركان القصيدة النَّابغيَّة والأعشويَّة (١) ، وقد تلقَّفه الأخطل فيما تاقَّف من معانيهما ، دون أن يُخلِّفه في حدود التَّقليد إذ نفحه بقليل أَو كثير من الذَّاتيَّة والشَّجو ، مُتَردِّداً فيه على جزئيَّات خاصة ، كذكر

١ ـ الهِقْلَة : الأنثى من النّعام . الجوُّ : ما انخفض من الأرض . القَرِد : القصير الريش . العِفاء : ما كَثُر من ريش النّعام . الصَّقَع : بياض في وسط رؤوس الخيل والطيور . يشبه ناقته كذلك بأنثى النعام الّتي تعرَّض لها ذَكَر قصير الريش ، تعلو رأسه بُقعة من البياض .
٢ ـ المُلبدون : المُلازمون لظهر المطايا . المخدَّمة : الّتي شدَّت النعال إلى أرساغها بالسيور . الخَضَع : الضعف .
م : يقسم بإله الحجّاج الملتصقين على مطاياهم ، يَعْدونَ بها في الليل ، وقد أصابها الوهن والهلاك .
٣ ـ الحقائب : جمع الحقيبة : هي ما يُجْعل وراء الرَّحل على النّاقة .
م : يستكمل معنى البيت السابق في وصف مطايا الحجّاج الذين وضعوا الحقائب ، إثر أرحلهم ، على الناقة ، وعدوا في سبيل الحجّ ، ينزع بهم الشّوق إليه والحاجات الكثيرة الّتي يرجونها فيه .
وفي هذه الأبيات الأربعة يردّد الشّاعر معنى واحداً للقَسم ، يكرّره بعبارات متباينة ، وذلك كلّه للتأكيد والغلوّ والإقناع .

النّصارى والمسلمين . ممّا لم يُسْبَق إليه، والحبساء المعتزلين في صوامعهم ، وكانت لهم عند العرب هيبة القداسة وبركتها . فضلاً عن أسطورة عريقة في القدم تَغْمر المعنى بغُلالَةِ الوهم والايحاء . تتضاعف بذكر المطايا الّتي تكْدح على طريق الحجّ ، منذ الجاهلية الأولى الغامضة .

و بعد ، فما هي قيمة القسم في مثل هذه القصائد ؟ إنّه ، في نقطه انطلاقه ، أداة للتّأكيد، يستشهد بها المرء قوّة تفوق الانسان ولها تأثير على مصيره . ليُقنع القارىء أو السّامع بصدق ما يقول . ولعلّها أعمُّ في عَهْدِ البداوة ، حَيْثُ تَطْغى الانفعالات الشّديدة . فالبدائي لا يَحْرج من الأيمان المغلظة ، وقد أفاد منها الاسلام وحوّل اليمين إلى بيعة ملزمة لا تُنْقَض . أما من النّاحيَّة الفنّية الخالصة ، فلَيْسَ للقَسَم قيمةٌ بذاته إذ أن الشّعر المبدع لا يؤكّد بالقسم والغلوّ والتّعاويذ ، بل إنّه يقنع بذاته ، أو بالاحرى باستحضاره للحقيقة بذاتها أو بما يماثلها ، ولا جَدْوَى من القَسَم عَلَيْها لتَمْثيلها أو خلقها . والأخْطل يُعَظّم من قَسمه ، هنا ، ليؤكّد على اعتصامه بحَبْل قُرَيْش واحتمائه بكَنَفها . وقد وُفّق في إيهامنا بذلك أو بشيءٍ منه . لكنّه لم يوفّق في جلاء مَعْنى الحماية ذاته والإحاطة به ، عرفنا أنها حَمَتْه ومَنَعَتْ أعداءه ومبغضيه من إهلاكه ، ولكنّ معاناته لذلك كُلّه ظَلّتْ غائبة ، مُتَوارية . وقد كان تمثيله لهذا الأمْر ، وإلمامه به، قبلاً ، في امتداح يزيد أَعْمَقَ تَجْربةً وأَشدّا استحضاراً ، إذ جسّده بما يماثله في النّفس والحسّ كالحدبار والبِشْر والأفعى وما أَشْبه . فالقَسَم المُتَطاول ، المُتَعاظم ليس أداةً فنّية بذاته ، إذ أنه يُجْهض الانفعال بتهاويل تحْدِقُ به ولا تَنَالُه . إلاّ ان الأخطل ومن قبله النّابغة والأعْشى يَتَوسَّلُون به في نوع من الأجواء التّقويّة الاسطوريّة ، فهو أشبه بطَقْس من طقوس القصيدة المدحيّة ، قد تتضاءل قيمته بمعانيه ، فيما تتعاظم قيمته الأسطوريّة الايحائيّة . وقد كان استحضاره لهذا الجو كافياً ليثير في النّفس أحلام الماضي وذكرياته وأَشْواقه في طقوس العبادة والحج حيث تهرع الأبل إلى مكّة من كل صوب ، فكان الصّحراء كلها استحالت أرجاؤها الشّاسعة مكاناً للعبادة. فلهذا القسم روح الشّعر بذاته ،

وبقطع أيّة علاقة بالمعنى الّذي يؤكّده . هذا هُوَ وَجْهُ الصّواب في ذلك كلّه ، كما تراءى لي ، والله أعلم .

ويُعرِّج ، من ثمة ، على المديح المباشر فيقول :

لَقَدْ مَدَحْتُ قُريشاً وَاسْتَغَثْتُ بِهِمْ إِذْ ما أَنامُ إذا ما صُحْبَتِي هَجَعوا ١

وإذ وشى بيَ أَقوامٌ ، فَأَدْرَكَني رَهْطُ الذي رَفَعَ الرَّحْمنُ ،فارْتَفَعوا ٢

وقوله : « إذ لا أَنَامُ ، إذا ما صحبتي هجعُوا » كناية عن خوفه وتلميحٌ إلى ما كانَ من أمره مع الأنْصار ، ولكنّه يبدو متضائلاً بالنّسبة إلى القسم السَّابق ، وكان أحْرى أن يُغَالِيَ بتمثيل خوفه مغالاته بالقسم كي لا يتدنىّ مستوى المعاني وتختلُّ النّسبة فيها فضلاً عن الوحدة العضويَّة . ولكنَّه يُحْسِنُ التَّخلُّص إلى المدح المباشر بقوله : « فأدركني رهط الَّذي رَفَعَ الرَّحمانُ فارتفعُوا » حيث نوَّه بحقِّ الأمويين الالهيّ في الخلافة ، ساقطاً من أجواء الاسطورة الشّعريَّة إلى المعاني التَّوفيقيَّة ، الدّعائيَّة الفاشلة . فالأخْطل لم يَصْدر عن اقتناع فيما ذهب إليه ، بل أنّه حذق أسلوب التّماُّق ، فجعل يقول للممدوح ما يطيبُ له سماعه ويُفْتيه فتاوى توافق هواه . ومثل هذا القول يُجَانِب السَّويَّة الشِّعريَّة ويجافيها لأن القوَّة النَّفسيَّة الأغلَب فيه والأطغى عليه هي قوَّة العَقْل الواعي الذكيّ المتبارع بالتكيُّف وفقاً لمقتضى الواقع . هنا تعفَّت المعاناة وتعاظمت المداجـاة بالرَّغم من أن حكماً أو تَقْييماً كهذا يعارض رأي الجاحظ ومن إليه في الزَّعم

---

١ ــ هَجَعوا : ناموا .

م : يقول بعد أن أقسم ذلك القَسم الشّديد ، إنّه امتدح قريشاً مستعيناً بها على أعدائه الذين يمنعون عليه النّوم من شدّة تربّصهم للغدر به . فهو لا يبرح يحاذر فيما نام صحبه عنه . وهو يشير بالصُّحبة هنا إلى القرَشيّين وكأنّه يعاتبُهم معاتبة خَفِرَة .

٢ ــ م : يرفع عنه التهم الّتي ساقها عليه الواشون إلى القرشيين الذين رفعهم الله وخصَّهم بالعزّ . فهو يعظّمهم فيما يَتَبَرّأ إليهم ممّا سُعي به فيهم .

بأنّ البلاغة هي في مُوافقة مقتضى الحال ، بل ان البلاغة هي الرُّؤيا التي تَبْلغُ إلى أَقْصى الأبْعاد في النَّفْس والوجُود . ولا غُلوّ في القَوْل بأنّ شاعر المدح قد يُبدعُ فيما يتولّى المعاني العامّة التي يُمجّد بها الانسان المتفوّق ، ولكنّه يُسِفُّ ويكْبُو فيها يتقيّد بواقع حال الممدوح ويتكيّفُ لتأييده والدّعْوة له . فهو إذ يقول :

في جَنَّة هي أَرْوَاحُ الإلٰـه . فَمـــا يُفَزِّعُ الطَّيْرَ ، في أَغْصَانِهَا فَزَعُ ١
كانوا إذا الرِّيحُ لَفَّت عشب ذي إضَمٍ غَيْثَ المراضيعِ ، ما مَنُّوا وما مَنَعُوا ٢
والمُطْعِمِينَ على ما كانَ من إزَمٍ إذا أَراهيطُ مَلُّوا ذَاكَ أَو خَضَعُوا ٣

فالمدح ، هنا ، يتّجه إلى المنحى العام في رخاء المقام والكرم وإيواء الضّيْف والمَلْهوف ، يؤدي ذلك في كناياته الحسيّة المأثورة كالرّيح ، وهي كناية عن الشدّة والضّيق والعجز عن إنتجاع الرِّزق ، وفي عزل الحادثة الدّالة على التّفرّد ، ممّا قدّمنا ذكره مرارا .

أما بشر فيخصّه بالأبيات التّالية :

---

١ – م : يصفُ طيب مقامهم والطمأنينة التي يَنْعمون ، ويَنْعمُ بها من يَنْتجعهم . ويقول إن الطير تغرّد في أرجائها آمنة ، وقد توسّل الطير لذلك لأنها شديدة الحَذر ، سريعة الهرب ، تَفْزع عن مقامها لأيّ طارىء أو لسماع أيّ جرْس .

٢ – ذي إضم : جبل بين اليمامة وضريّة .

م : يمتدحهم بالبَذْل والعطاء ، ويقول إنّهم كانوا إذا ما أيبست الرّيح الغَيْثَ وعمّ القحط ، يؤدُّون للمُرْضعات ويُغْدقون عليهنّ ، دون تباخل أو تَمْنين .

٣ – الإزَم : جمع أزمة : السنَة المُجْدبة . أراهيط : جمع رهط : جماعة .

م : يقول إنّهم يُطْعمون في زمن الضّيق والجَدْب ، فيما ينتكص عن ذلك أقوام كثيرون أو يؤدونه بالقَسْر والخضوع ، دون رغبة أو محبة. وقدتوسل بلفظة (أراهيط) وهي من جموع الكثْرة ، ليوحي بذلك أن معظم النّاس يَمْتنعون عن العطاء ، فيما هم يقبلون عليه.

يا بِشْرُ لَوْ لَمْ أَكُنْ مِنْكُمْ بِمنْزِلَـةٍ ألقى يديْهِ عليَّ الأَزْلَمُ الجـذَعُ ١
أَنْتُمْ خِيارُ قُرَيشٍ عِنْدَ نِسْبتِهِـمْ وأَهْلُ بَطْحَائِها الأَثْرَوْن والفَرَعُ ٢
أَعطاكُمُ اللهُ ما أَنْتُمْ أَحَقُّ بِـــهِ إِذا المُلوكُ ، على أَمثالِهِ ، اقترعُوا ٣
لَيْسوا إِذا طَرودا يَنْمي طريدُهُـمُ ولا تَنالُ أَكُفُّ النَّاسِ ما منَعُـوا ؛
أَليومَ أُجْهِدُ نَفسي ما وسِعْتُ لكـم وهَل تُكَلَّفُ نَفْسٌ فَوْق ما تَسَعُ ٥

ولقد عظّمه باجارته له وبأصله وإيثار الله له على سائر الملوك وهيبته ومناعته ؛ وهي معانٍ أدنى إلى ما كان يَمْتدح به يزيد وسواه إلى الحُشود الملحميّة والمنازعات والمرافعات الّتي صَحِبَتْ قصائده في أخيه عبد الملك. هذا ضَرْبٌ من المَدْح العام الّذي يَخْتصُّ أقلّه ببشر فيما يصحُّ معظمه فيه أو في سواه .

وعرّج الأخطل على مدح بشر في قصيدة لاميّة نظمها في معاتبة بني شَيْبان وتقريع بني سَدوس والتفاخر بالأراقم من التّغْلبيين ، دون أن يغفل عن امتداح بني ميّة .

---

١ ــ الأزلم الجَذع : أي الدهر .
م : يقول مخاطباً المَمْدوح : إنّي لولا اعتصامي بكم ومنزلتي فيكم ، لكانت أخنَتْ عليّ مصائب الدّهر وأهلكتني .
٢ ــ الفَرَع : الشّريف .
م : يقول إنك أفْضل القُرَشيّين ومن أباطحهم الأكثر ثراء وشرفاً .
٣ ــ م : يقول إنّ الله آثره وخصّه بخير ما يطلبه المُلوك ويتنازعون عليه .
٤ ــ م : من يطردونه لا يؤويه أيٌّ من النّاس ولا ينسبونه إليهم أو يوالونه تَروُّعاً منهم ، وتَهيّباً لهم ، كما أنّهم ، إذا ما عَصَموا امرءاً ومنعوه ، فلا قِبَل لأحد بإدراكه وإيذائه . وهو إنّما يُعظّم بذلك قوّتهم وقدرتهم على البطش .
٥ ــ فَوْقَ ما تَسَعُ : أي فوق ما يستطيع .
م : يقول إنّه يبذل في سبيلهم غاية ما قدّره الله عليه ولا يُرْجى من المرء أن يؤدّي ما يفوق طاقتَه .

يستهلّ بذكر ارتحال حبيبته أم عمرو ، ثم يخاطب بني شَيْبان لتخاذلهم عنه عندما أحدق بهم الأعداء ، ويشير إلى مقتل اثنين من بني شيبان هما مالك بن مسمع الشّيباني ويزيد بن رويم الشّيباني الذي قتله الخوارج ، فيما كان والياً لعبد الملك على الريّ . ثم يذكر ما كان من أمره مع بني سدوس ، إذ نزل الكوفة على أحد بني شيبان ، فسأله في حمالة ، فقال : إن شئْتَ أعطيتُك ألفيْن ، وان شئت أعطيتك دِرْهَمَين ، فقال الأخطل : وما بال الألفين ، وما بال الدّرْهمَين ، قال الشّيباني : إن أعطيتُك ألفيْن ، لم يُعْطكها إلا القليل ، وإن أعطيتُك درْهمَين ، لم يبقَ في الكوفة بكريّ إلا أعطاك مثلها . فقال الأخطل : أؤْثر هذه . فكتب الشّيباني إلى سويد بن منجوف السّدوسي الذي ذَكَرَ لبني قومه أبياتاً قالها الأخطل في مفاخرتهم وهجائهم ، فامتنعوا عن العطاء . وبعد أن ينوّه الأخطل بذلك في هذه القصيدة يَعْتصم بالأراقم ويتفاخر بهم ، هاجياً الأسعديّ الشيباني الذي غرّر به ولم يقاضِه شيئاً ، ثم يمتدح بني أُميّة ويظهر ما لهم عليه من أياد ويخصّ بشر بن مروان الذي لا يزال يُغْدق عليه النّعم ثم يعكف على تصوير شجاعته من خلال فتكه بكتيبة للأعداء تعرّضت له .

وينهي القصيدة متفاخراً باقتحامه للمواقف المُضْنكة التي ترتعد لها الفرائص .

وقد امتدح بشراً فيها بقَوْله :

وإنَّ بنـي أُميَّـة أَلبسونـي ظلال كَرَامَةٍ ما إنْ تَـزُول
تولَّاهـا أَبـو مرْوَانَ بشـرٌ لفَضْل ما يمَـنُّ و لا يَحُـولُ

وللأخطل قصيدة في بشر عارض فيها قصيدة زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان التي مطلعها :

صَحَا القَلْبُ عن سَلْمَى وأَقصر باطلُه وَعُرّي أفـراس الصبا وَرَواحِلُـه

ولقد استهلّها بالتَّشْبيب بصاحبته أرْوى التي يتنازع في حبّها بين الصّدّ والإقبال

ويذكر المواضع التي نَزَحَتْ عنها ، حيث بَدَتْ الحمائل موحشة من دونها ، ثم يتحدّث عن صاحبته الأخرى أم مَعْمر التي عاهدته على الوفاء ويتشكّى من النّساء اللّواتي يمِلْن عن أليفِهن ، فيما يعاجله الشّيب ويمثل النأي الذي يفصله عمّن يُحب من خلال المكان الذي ما برح يقيم فيه والمقام النائي الذي حلت فيه صاحبته ، وهو لا يزال يؤمل لقاءها ، يوماً .

ومن ثم ينْقطع إلى الفخر من خلال اجتيازه للفَلوات على بعير شبيه بالحمار الوحشيّ الذي يستطرد إلى وصف هزاله ورعيه للنّبات وورود الماء بعد أن حل الجفاف بمرعاه وسوقه لأتنه وزجره لها أمامه في الأمكنة الوعرة بعدو تتطاير منه حجارة المَرْو . ويقول إنّه شديد الغيرة على أُتنه ، لا يزال يقذفها عن سائر الفحول ويصوّت بها ويعضُّها ، ثم يمثّل أُتنه التي تحيط به ، مُسْتكينة إليه حتى أطل بها ، بعد ثلاث ليال من العدو ، على ماء غزير وواد أخضر ، مرويّ ، كثير الكلأ ، حيث شرب ورتع وأُتنه وعاد يعدو عدوه السريع في الوعر الغليظ الحجارة ، غير حافل بما يعارض سبيله .

وإثر هذه الاستطرادات ينقطع إلى مدح بشر بن مروان الذي انتهى إليه بعد أن عانى مشقّة السّفر ليلا ، لينال عطاياه الكثيرة التي لا تنقطع عنه . ويمتدحه بشدّته في قتال الخوارج والأعاجم واقتياده للخَيْل للحرب بنفسه ، وأنّه لا يزال يصلي أعداءه بنار غضبه . ويذكر ، كذلك ، كرمه الشّبيه بالفرات إذ يفيض ،ويمتدحه بعزّته القرشية ويكلُ أمْرهإليه وينهي القصيدة بالقول إنّه بالرغم من تألّق التاج على راسه لاتراه متعبّساً ، متعاظماً ، كما أن الدنيا لا تغرّر به ولا تخلبه لذائذها ، ويظهر إيثاره للأمويين على الزبيريّين وانقطاعه إلى مدحهم ومناصرتهم .

يقول في المطلع ثمَّ يُعَرِّج على البعير ويُشبِّهُ بالثّور الوحشي :

صحا القَلْبُ عن أَروى وأَقصر باطله وعَادَ لَهُ مِنْ حُبِّ أَرْوَى أَخَابِلُـهُ...[1]

---

١ – أَرْوى : اسم امرأة . أخابِلُه : جمع خبل . وهنا الذُّهول وافتقاد الرُّشد .
م : يقول في الشطر الأول إنّه انقطع عن حبّ صاحبته أرْوى وإنّه امتنع عن اقتفاء الباطل . وفي الشطر الثاني يناقض المعنى السّابق ويقول إنّه عاوده الخبَل من حُبّها .

ومُخْتَقِرٍ جَوزَ الفَلاةِ ، إذا انتحى وشُدَّ بمقْتُورٍ مِنَ الميْسِ كاهِلُـــه [1]
كأَني أغول الأَرضَ عني بقــارحٍ أَخي قفرةٍ ، قد طار عَنْهُ نَسَائِلُــه [2]

ويتخلص إلى المدح بقوله :

ومُسْتَقْبِلٍ لَفْحَ الحرورِ بحــاجـةٍ إليكُمْ أَبا مَرْوان شُدَّتْ رواحِلُـــهْ [3]
إليكُمْ مِنَ الأَغوارِ ، حتى يزُرْنَكُم بمِدحَةِ محمودٍ نَشــاهُ ونــائِلُـــهْ [4]
جزاءً وشُكْراً لامرِىءٍ ، لا تُغبُّــني ، إذا جِئتُــهُ ، نَعْماؤُهُ وفــواضِلُهْ [5]

---

١ ــ جَوْز الفَلاة : وسطها . انْتحى : اعتَمَد : المَقْتور : الرّحل المُحْكم على ظهر البَعير . الكاهِل : أصْل العُنق ، عند مقدّم السّنام . المَيْس : شجر يؤخذ منه خشب الرِّحال .
م : يصف بعيراً امتطاه للرّحيل ، ويقول إنّه لا يحفل بما يجتازه من فَلوات ، فيما يعدو ، وقد أُحكم عليه خشب الرّحل .
٢ ــ أغول : أقطع بسرعة . القارِح : الحمار الوحشيّ . نسائل : جمع نسيلة وهي الوَبَر .
م : يشبّه في هذا البيت مطيّته بالحمار الوحشيّ ، مستطرداً إلى وصفه ويقول إنّه ألف القفر وإن وبْره قد تساقط عنه .
٣ ــ الحَرُور : الحَرُّ الشّديد . رَواحِلُه : مطاياه .
م : ينقطع الشّاعر في هذا البيت إلى مدح بشر بن مروان ، ويقول إنّه إثْر ما عاناه من مَشَقّة السّفر ، انتهى إلى المَمْدوح ، وإنّه مُزْمع أن يفضي إليه بحاجته . والشّاعر لم يلمّ بوصف الحمار الوحشيّ في حياته القاسية وعدوه الخائف ثلاث طيلة ليال ومعاناته للظّمإ والهاجرة ، إلا ليمثّل من خلاله واقعه الخاصّ ، رامزاً به إلى نفسه وإلى المَشقّات التي اقْتَحمها من دون المَمْدوح .
٤ ــ يَزُرْنكُم : أي المطايا . الأغوار : جمع غور . نَثاهُ : خيره .
م : يقول إنّ تلك المَطايا سَعَتْ ذلك السّعي ، وعانت تلك المشَقّة ، حتى تنقل الشّاعر إلى الممدوح ، وليُثْني عليه لخيره العميم وعطائه الكثير المحمود .
٥ ــ أغَبَّ : جاء في يوم وفات في آخر .
م : يقول إنّه لا يبرح يواصل له العطاء ، وإنّه لا يزال يُغْدق عليه منه ، أنّى لقيه وانتجعه واعتفاه .

أَخو الحربِ ما ينْفَكُّ يُدعى لِعُصْبةٍ حَروريةٍ أَوْ أَعْجمِـي يُقَاتِلُـهْ ١
مُعـانٍ بِكَفَّيْـهِ الأَعِنَّةُ أُشْعِلَـتْ لكلّ عِـدًى نيرانُـهُ وقَنـابِلُهْ ٢
أَبحْتَ حُصُونَ الأَعجَمِينَ فأَمْسكَتْ بـأَبْوابها مِنْ مَنْزِلٍ فَاتَ نازِلُهْ ٣
ضَرُوبٌ عراقيبَ المطيِّ ، كأَنَّمـا يُباري جُمادى إذْ شَتا أَوْ يخايِلُهْ ٤
إذا غـابَ عنَّـا ، غابَ عنَّا فُراتُنا وإنْ شَهْدَ ، أَجدى فَيضُهُ وجداولُـهُ ٥
فإنَّكَ حِصْنٌ مِنْ قرَيشٍ ، وإنّـي بـاسبابِ حَبْلٍ مِنكـم ، ما أُزايِلُـهْ ٦

١ ــ الحرُوريّة : فرقة من الخوارج نزلت في حروراء .

م : أي أنّه لا يزال يتصدّى لقتال الخوارج والأعاجم والفتك بهم . وهذا القول ينطوي على معنى آخر يمتدح فيه بشراً بإقامته على الجهاد والكفاح في سبيل الدّين .

٢ ــ م : يقول إنّه يقود الخيل في الحرب بنفسه وإنّه لا يزال يُصْلي أعداءه بنار غضبة ويصيبهم بقنابله ويَفْتك بهم .

٣ ــ م : يقول إنّه يقاتل الأعداء بهيبته ، فيُهْزمون ويَسْتسلمون له قبل أن يقتحم عليهم فتُفْتح له أبوابهم ، وتباح فيما هو مُقيم ببيته .

٤ ــ يُخايِله : يُباريه : جُمادى : من شهور الشّتاء التي يجمد فيها الماء من شدّة الصَّقيع .

م : يقول أنّه إذ يَشْتدُّ الصَّقيع ويعمُّ الجدب والجوع ، لا يبرح يبْذل للنّاس ويُغدق عليهم ، فكأنّه يُنافس جمادى ويعارضه . يَزْداد كرمه بقدر ما يزداد صقيع جمادى وجَدْبُه .

٥ ــ أجْدى : أغنى . شَهْد : سكنت عين الفعل للضرورة الشعرية .

م : يمثّل عطاءه بالفرات ويَقْرنه به ، فإن غاب عَمَّ القحطُ والجفافُ ، وإن حضر يفيض عطاؤه على الناس ويعمُّ خيرُه .

٦ ــ ما أزايلُه : ما أفارقه .

م : يمتدحه بعزّته القُرشيّة ، ويقول إنّه لا يزال يعتصم بحبله ولا يتخلى عنه .

فالأخطل يَستعطي بشراً ، دون أن يُصَرِّح بالسُّؤال ، بل إنَّه يُضْمر ذلك في البَدْء من خلال وصفه العام لكرمه والقول إن القَوْم يفدون من الأقاصي النَّائية لينتجعوا مقامَه ويَنَالُوا عطاءه ، ثمَّ تراه يُقدِّم شكره له على عطائه الدَّائم . قَبْل أَنْ يَعْطيَه ، وهو نوع من الطَّلب المُنْطوي على قليل أو كثير من الدَّهاء . ويُمْكننا القَوْل إنَّ الأخطل إذ يَمْتدح بشراً لا يُشْغَلُ بالهُموم والمُنَازعات العامَّة ، ولا تَرَاه مُنْقضاً على الأعْداء بمثْل السَّيْف، إذ يَنْصرف ، كما في مدائحه الأولى ، إلى العناية بالمُقَدِّمات والاستطرادات ، ويُعَرِّج عليه فيَمْتَدحه بما يختصُّ به كقتاله للخوارج والأعاجم ، أَو بمعاني المدح العامَّة ، كالكرم وايواء الضَّيف . وإنَّ المرْءَ ليأنَفُ للأخْطَل أَن يُقيمَ على الاستجداء بالشِّعر ، باذلاً عُنْجُهيَّته القبليَّة ، ومحقِّراً من قدر الشِّعر ورسالته . وإذا كان يُعْذر في مطلع عهده بذلك ، فلا عُذْر له يؤدِّيه ، بعد أن طارت شُهرتُه . فالشِّعر الأُمويّ كان لا يَزالُ أداةً للإرْتزاق لا يَخْجــل الشَّاعر في التَّصريح بذلك أَوْ التَّلميح إليه .

أمَّا في امتداح بشر بالبُطُولة ، فإنَّه يضْفر له ما يماثل الأجواء الَّتي حاكها لعبد الملك ، دون أَن تَسْطَعَ صورتُه الملحميَّة سُطُوعَها في مدائح ذلك الأخير . فهو يدعوه : « أَخو الحَرْب » أي أنَّه أَلِفَ القتالَ ودَأَبَ عليه ، لا يَقْعد للَّهْو والخمول ، بل يُجاهد، في سبيل الدِّين، المارقين عليه أي الخوارج ، ومن يناوئونه أي الأعاجم . وترى المعنى يَنْمو نموّاً في وصفه لبُطُولَتِه ، فبعد نعته بأنَّه أَخو الحرب دَفَع المعنى وصَعَّده إذ قال : « معانٍ بكفَّيْهِ الاعنَّة » أي أنه لا يقنع بالقيادة إلى القتال ، بل إنه يباشره بذاته، يواجه فيه المَوْت الَّذي يُواجهه الآخرون . فهو أَخُو الحَرْبِ في ساحها ، يخوض فيها بين الأشلاء والدِّماء . والأخْطل لا يجهر بكلِّ ما يُضْمر ، بل إنَّه يُوحي به ويُوعزُ إليه إذ يدع الأعداء يستسلمون ، أثر نزول الممدوح عليهم لشهرته في البطولة والانتصار الدَّائم ، حتى أن هيْبته جَعَلَتْ تُقَاتِلُ عَنْه . وهذا الاسلوب النَّامي المُتَطوِّر ، والمتسامي، بَعْضاً على بعض ، أثر عن زهير ، وعن روّاد المدح الجاهليين ، حتّى ان كُثَيِّراً كان يقول أَشعر العرب امرؤ القيس إذا رَكِبَ ، والنَّابغة ، إذا رَهِب ، وزهير إذا

رغب والأعشى إذا طرب ، والأخطل يُعَارِضُ زُهَيْراً مُعَارَضَةً واعيةً منذ مطلع القصيدة ، كما قدَّمنا .

وفيما دون ذلك ، نرى الشَّاعر يَتَسقَّط الأفكار المَدْحيَّة تَسَقُّطاً ، يعرِّج على كرمه ، ثم يدعه إلى بطولته ، ويرتدُّ إليه من جديد بصورة أخرى وأحداث مغايرة إذ يُمثِّله لنا ضارباً في أَعْنَاق المطايا ، باذلاً إيَّاها للضِّيفَان والمُعْتَفِين . لكنه لا يَقْنع من المعنى بحدِّه الواقعي ، فيُخرِّجه تَخْريجاً خاصاً يَدْفعه إلى ذروته وأقصى غايته . فبشر يُنَازع الطَّبيعة ويعارضها ويتنافس وإياها تنافساً مُضْنياً ، هي تجود بالجدب والصَّقيع والجوع ، وهو يَضرب أعناق المطيِّ ليَدْفَعَ الشَّر وَيَرْفَعَ الضَّيْم . فلَفْظة « يُبَاري » فتَحت في المعنى أبعاداً جديدة بالتأويل والتَّعليل . إلاَّ أن هذه المباراة تنطوي على قليل أو كثير من القَصْدية والتَّعمُّل . وكما عارض بَيْنَ الممدوح وأحد عناصر الطَّبيعة إفادةً لمَعْنى العظمة ، فانَّه يُؤلِّف بينهما للغاية ذاتِّها إذ يقرن الممدوح بالفرات :

إِذَا غابَ عنَّا ، غابَ عنَّا فُراتُنـا وإن شَهِدَ أَجْدَى فَيْضُه وجـداوله

هكذا يتوسَّل الأخْطل عنَاصر الطَّبيعة ، اختلافاً وإئتلافاً ، ليُجسِّد معانيه ويُبْدِع لها التَّاويل الَّتي تُوهِمُ بالجدَّةِ والإبْتكار . ويَمْضي في تَسَقُّط الأفكار والخواطر بقَوْله :

جزى اللهُ بِشْراً عَنْ قَذوفٍ بنَفْسِهِ على الهَوْلِ ، ما تَنْفَكُّ تُرْمي مَقاتِلُهْ ١
جزاءَ امرىءٍ أفضي إلى اللهِ قَلْبُهُ بتَوْبَتِهِ فانْحَـلَّ عَنْهُ أَثاقِلُهْ ٢

---

١ – م : يطلب إلى الله أن يُثيب بشْراً عمّا لا يبرح يقذف بنفسه إليه من أهوال ومخاطر يكاد أن يَرِد فيها مورد الهلاك .

٢ – م : يستكمل المعنى السابق ، ويقول إنّه يطلب له من الله جزاء أمرىء تاب إليه توبةً نصوحاً ووكّل أمره إلى تدبيره ، مستخفّاً بذلك من أعبائه .

فما كانَ فيهِمْ مِثْلُــهُ لكَريهَــــةٍ ولا مُسْتَقِلٌّ بالذي هوَ حامِلُــه ١

إذا وُزِنَ الأَقوامُ ، لَمْ يُلْفَ فيهِمِ كبِشْرٍ ، ولا ميزانُ بِشْرٍ يُعادِلُهْ ٢

أَغَرُّ عَلَيْهِ التَّاجُ ، لا مُتَعَبِّسٌ ولا وَرَقُ الدُّنيا عَنِ الحقّ شاغِلُــهْ ٣

إذا انْفَرَجَ الأَبوابُ عَنْهُ رأَيْتَــه كصَدْرِ اليَماني أَخْلَصَتْهُ صَيَاقِلهْ ٤

فإِنْ يلكِ هذا الدَّهْرُ أَوْدى نعيمُــهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ عَضُّهُ وَزَلازِلُــهْ ٥

فما أَنا مِنْ حَبِّ الحيــاةِ بهــاربٍ مِن المَوْتِ ، إن جاشت عليَّ مَسَايِلُهْ ٦

ففي الأبيات الأولى يُعيد معنى الجهاد ويكرِّره ، متوسِّلاً النَّعْت المُنْطوي بذاته على مَعْنى الغُلُوّ : « قذوف » وصيغ الجمع الَّتي تُوحي بالكثرة : « مَقَاتِلُه»

١ ــ مُسْتقلُّ : هنا يراه قليلاً .

م : يقول إنّه مهما تعاظمت عليه أعباؤه ، ومهما ارتاد بها من مشاقّ ، فإنه يستقلُّ ذلك ولا يتضجّر ولا ينتكص .

٢ ــ م : أي أنه أفضل الأقوام ، جميعاً ، وأنه ليس ثمة من يوازنه فيهم .

٣ ــ وَرَقُ الدُّنيا : أي خضرتها وثراؤها .

م : يقول إنّه بالرغم من تألّق التاج على جبينه ، لا تراه مُتَعَبِّساً ، متعاظماً بنفسه ، كما أن الدنيا لا تُغرّر به ولا تخلبه لذائذها ونعمها عن الحقّ والفضيلة .

٤ ــ م : يقول : تنْشَقّ عنه الأبواب ، فيبدو متألّقاً كالسّيف اليماني الذي برع صاقلُه بصقله .

٥ ــ ٦ ــ عَضّه : أذاه . جاشت : طافت .

م : يقول : ما دام الدهر قد مضى عهد نعيمه ، ولم يخلّف لنا فيه إلاّ أذاه ومصائبه ، فإني لا أفرُّ من قدر الموت ، عندما تطيف مسايله ويحدق هلاكه .

والكثرة هنا تفيد البطولة والشجاعة ، إلا أن الأخطل لا يزال يُؤَلِّف المعاني ويُعَارِضُها ، جامعاً النّقيض بنقيضه ، غاية الشّجاعة والبَطْش في القتال وغاية التّقوى : « جزى اللهُ بشراً جزاءَ امرئٍ أَفْضى إلى الله قَلْبُه بتَوْبَته ، فانحلّ عنه أَثَافِلُهُ » ، أي أنّ الممدوح وكل أمره لله وتابَ إليه فزالت عنه أوزاره . فهو مثال المُؤْمن في تَوْبته وفي قتاله لأعداء الإسلام . وقد كان الأمويُّون ، عامة ، يَحْرِصُون على التّنْويه فيهم بالتّقوى لمنازعة المسلمين إيّاهم بها. وإذ تَعْيى على الأخطل سبل النّظم يَعود إلى التّعميم والإطلاق المباشرين ، فيزعم أنه لا مثيل له في شدّة الاحتمال وليس ثمّة من يُوازيه قط . وهذه المعاني التّعميميّة تَنْبو ، كما قدّمنا، عن السّويّة الفنّية والإنسانيّة ، جميعاً ، بخلاف قوله فيه :

أَغَر ، عليه التَّاجُ ، لا مُتَعَبِّس ولا وَرَقُ الدُّنيـا عن الحق شاغله

حَيْثُ أَوْفى إلى تَمْثيل غُرور الدُّنيا تمثيلاً فنّياً عَميقاً ، مع تلمسٍ عميقٍ ، أَيْضاً ، للحقيقة الأنْسانيَّة . ولا بأس كذلك في وصفه لطلعته ومقارنتها بتألّق السَّيْف اليَماني ، إذ أن فيها سورة للشُّموخ دون عُتُوٍّ .

وينهي القصيدة مُعبّراً عن اعتصامه وصموده وإيثاره للمَمْدُوح وقَوْمه ووفائه لهم من دون سواهم :

فلا تَجْعلنّي يا بن مَرْوانَ كأمرئٍ غَلَتْ في هوى آلِ الزُّبَيْرِ مَراجِلُهْ [1]
يُبايِعُ بالكَفِّ التي قَدْ عرَفْتَهـا وفي قَلْبِـهِ نامُـوسُهُ وغـوائلُهْ [2]

---

١ ـ ٢ ـ م : يشير هنا إلى أنّه يؤثر الأمويين على الزبيريين ويطلب من بشر ألاّ يسوّي بينه في إيثاره لهم وبين أمرئٍ يدعو دعوة الزبيريين وتغلي مراجل حماسته وغضبه تشيّعاً لهم ، يظهر لكم الودّ ويبايعكم علناً ، فيما هو يضمر الغَدْر والبغضاء .

وللأخطل في بشرٍ قصيدةٌ ميميّةٌ ، بدأها كسائر مدائحه بذكر ديار صاحبته سلمى الّتي أقفرت إثر رحيلها وغشيتها الأبقار الوحشية والنبات الوحشي الشّديد الالتفاف . ويذكر تساقط المطر وطفوّه والرعد الذي يصحبه والريح الّتي تعصف بسحابه ويتمنى أن يصيب بلاد حبيبته .

ثمّ يشرع بمخاطبة بشر . ذاكراً المطايا وضمورها وهلاكها في سفرها إليه وانتجاعها دياره ويمتدحه بكَرَمه وإيوائه لذوي الإملاق ويبوح بحبّه وإيثاره له وطمأنينته في كنفه ويصف شجاعته من خلال سوقه للخَيل في القتال . ويشيد بتفضيل الله لقومه وإرسالهم للبشرية كرحمة لها ، ولِيُخمدوا فتنتها ويعيدوا إليها طمأنينتها ويخاطب بشراً ويدعوه إلى حمايته من أعدائه ثمّ يهجو جريراً ويمتدح الفرزدق وقومه ويهزأ من أهاجي خصمه ويحقّر من شأن أمّه ويصور سَوْقها للبعير كالإماء صورة مزرية . وينهي القصيدة بالقول إن بني كُلَيب هم ألأم الناس وإن جريراً هو ألأمهم .

وتكادُ معانيها المدحيَّة لا تَتَبايَن عمَّا دونها من قصائد ، يطغى عليها معنى الكرم والعطاء ، ويليه معنى الشّجاعة والبطولة وسائر المعاني كسؤدد الأصل والأحقيَّة بولاية السُّلطة ، ممّا يؤكد على أنَّ الباعث الأقوى لمدائح الأخطل في بشر كان ماديّاً بقدر ما هو سياسيٌّ . يقول فيها :

فأَنْتَ الَّذي تَرْجو الصَّعاليكُ سَيْبَه إذَا السَّنَةُ الشَّهبَاءُ خَوَّتْ نجُومُهـا
ونَفْسي تُمَنِّيـني العِراقَ وأَهْلَـهُ وبِشْرٌ هَواها مِنْهُمُ وحَمِيمُهـا ١

---

١ ـ الحميم : الصديق الملازم .

م : يقول إن نفسه كانت تكفُّ عن حثّه لزيارة العراق ، حيث يلقى بشراً الذي تكن له الود والصداقة العميقة الملازمة .

إذا بلَغَتْ بِشْرَ بنَ مرْوانَ ناقــتي   سرَتْ خَوْفَها نَفْسي ونامَتْ هُمومُها [1]

إمامٌ يقودُ الخَيْــلَ ، حتى كأَنَّهــا   صُدورُ القَنَا : مُعْوَجُّهــا وقويمُها [2]

إلى الحَرْبِ حتَّى تَخْضَعَ الحرْبُ ،بعدما   تخمّطُ مَرْحاها وتَحْمي قُرومهــا [3]

أَبوكَ أَبو العاصي ، عليكُمْ تعَطَّفَتْ   قُرَيْشٌ لكُمْ : عِرْنينُها وصَميمُها [4]

أَبى أَنْ يكونَ التَّاجُ ، إلاَّ عليكُــمُ   لِصيدِ أَبي العاصي ، الشَّديدِ شكيمُها [5]

١ ــ سرت خوفها : أي انتزعته ، ومثال ذلك قولك سروت الثّوب أي انتزعته .

م : يقول إنه إذ يدرك بشراً ، فإن نفسه تخلع عنها همومها ومخاوفها وتشعر بالثقة والطمأنينة في كنَفه .

٢ ــ م : يمتدحه بالشّجاعة في القتال من خلال وصفه لخيله ، ويقول إنّه لا يزال يقودها ويقتحم بها القتال ، لا تخشى من دونها الرماح ، فكأنها صدور لها ، تلتقيها ، أكانت مقوّمة أو معوجّة .

٣ ــ تخمّط : هيّج وأثار وأصلُها في الفحل الذي يهدر . مَرْحاها : من المرح والنشاط . القَرْم : الفَحل وهنا القوي الشّديد .

م : يقول إنه يقود خيله إلى الحرب فيطفيء سعيرها ويخمدها بعد أن تستثار حميّاً المقاتلين وتشتد مقاومة القروم الشديدي البأس .

٤ ــ عِرْنينها : هنا سيدها الشّريف . الصَّميم : الخالص ، والأكثر أصالة في الشيء .

م : يمتدحه بسؤدد أبيه ، ويقول إن شرفاء بني قريش ، والأكثر أصالة وشرفاً ، قد تألّبوا حول بشر وأبيه .

٥ ــ الصِّيد : من الصَّيَد وأصله في البعير الذي يرفع عنقه ويعجز عن الالتفات . الشّكيم . جمع شكيمة : الأنفة .

م : يقول إن الملك ــ وقد كنّى عنه بالتاج ــ أبى إلاّ أن يكون للأسياد الأشراف الشّديدي الأنفة الذين ينتمون إلى أبي العاصي .

بكُمْ أَدْرَكَ اللهُ البريّـةَ ، بعْدَمـا سَعى لصُّها فيها وهَبَّ غَشومُهـا ١

وإنَّكَ للمَأْمـولُ والمُتَّقي بِــهِ إذا خِيفَ مِنْ تلْكَ الأُمورِ عَظيمُها ٢

وإنَّكَ للأُخرى ، إذا هيَ شُبِّهَتْ لقَطَّاعُ أَقْرانِ الأُمورِ صَرومُهـا ٣

فلا تُطْعِمَنْ لحمي الأَعاديَ . إنّـهُ سَريعٌ إلَيْكُم مَكْرُهـا ونميمُها ٤

خلاصة حوْل مدحه لبشْر بن مروان : أتَّصَفَتْ مدائحُهُ بما يلي من خصائص :

١ ـ تعاظم المقدمات الوصفيَّة وتعدُّد موضوعاتها وانصرافه فيها إلى مباراة الأقدمين .

٢ ـ يتدرَّج مستوى المعاني في شعره ، وفقاً لطبيعة العلاقة التي أوثقت الصِّلة بينهما ، فهو يُسْرف في التَّنويه بكرمه ويُكرِّر تمثيله بصوره ومشاهده وأحداثه ، كما أنه يستجديه بالتصريح المباشر . أو بالتّلميح من خلال

١ ـ م : يقول إن الله أرسلهم رحمة إلى البشرية ليُنقذها من اللصوص والجهّال الذين كانوا يستبدّون بأمرها . والأخطل لا يزال يؤكد الصفة الدينية لحكم الأمويين وإدراكهم له بإرادة من الله .

٢ ـ م : يقول إن الناس لا يزالون يهرعون إليك ويحتمون بك ، عندما تطرأ الفتن ويَعيث الأشرار فساداً .

٣ ـ شَبّهَتْ : التبسَتْ . أقران : جمع قرن : الحَبْل . صروم : من صرم قطع .

م : إنه لا يمتاز وحسب بالقدرة على إخماد الفتَن بل إنّ الناس يهرعون إليه ، عندما تلتبس أمورهم ويحارون بشأنها ، فيجلوها لهم بحكمته ويقطع فيها بالصواب والرّشد .

٤ ـ م : يخاطبه ويقول : لا تدع الأعداء يقوون عليّ وينهشون لحمي ، ولا تستأمنْهم ، لأنهم لا يعتمّون أن يمكروا بكم ويعصوا عليكم . وفي هذا البيت ينقطع عن المديح المباشر و يشرع بعرض واقع حاله مع أعدائه وأعداء الأمويين ، جميعاً .

وصف المطايا وهلاكها والهاجرة وخوضه فيها بالسَّراب والضَّنى حتى انتجاع الممدوح والنُّزول على خَيْره وكرمه .

٣ – يَرِدُ مَدَحُه لبطولته الحربيَّة في مقاتلة الخوارج والاعاجم بالدَّرجة الثَّانية من مستويات المَعَاني ، يذكر ذلك ويشيد به ، لكنَّه لا يصفُ معاركه ولا يوحي بأجوائها ولا يَحْشد لها حشدها الملحميُّ . فوجه بشر لا يربدُّ ولا تتعبّس قسماته كوجه عبد الله الملك عندما يَغْشى القناطر يبنيها ويَهْدُمها ، بل إنه وجه متألِّق ، مُتْرف ، نبيل .

٤ – يتضاءل قَدْر الهموم السياسيَّة والمشاحنات القبليَّة ، فلا يَفْخر بأيام تغلب إلا لماماً ولا يُخاطب الأعْداء ويُهَاجيهم إلاَّ في نُبذٍ قليلة ، فعلاقته ببشر هي علاقة مدحيَّة أكثرُ منْها سياسيَّة .

٥ – يُظْهر حقَّ بني قومه في السَّلْطة ، لكنَّه لا يَنصرف إلى ذلك انصرافاً كُليّاً ، طاغياً ، كما أنّه يُنَوِّه بتقواه من خلال الفضائل الخاصة والعامة الّتي يُنْميها إليه . فمعظم مدائحه في عبد الملك هي مدائح له ، أما في بشر فان بعضها له وبعضها الآخر له ولسواه إذْ تتكرَّر فيها المَعَاني المدحيَّة العامَّة .

الباب السادس

مدائحه في خالد بن أسيد

نظم فيه مطوَّلَتَه اللاَّمية الشَّهيرة وبيتي شعر منفردين ولاميَّة أخرى يُرَجَّح إنها قيلت فيه . يذكر في بيتي الشعر إنه لم يَبْقَ بَيْنَ النَّاس من يتَّقي الله ويخافُه ويُطْعم الأضْياف ويَبْذل لهم إلا خالد بن أسيد الَّذي ينتمي إلى قومٍ لا يفي المدح بغرض القَوْل في كرمهم وحمايتهم لمواليهم :

لَمْ يَبْقَ ممَّنْ يتَّقـي اللهَ خَاليـاً ويُطْعِمُ الا خـالد بن أسيـدِ
سوى مَعْشَرٍ لا يَبلُغُ المدح فضلهـم مناعش للمولى ، مَطاعم جُـودِ

ويبدو أنه نظم قصيدة أخرى في مدحه ، وان لم يكن ، ثمّة ، إشارة واضحة في الدّيوان إلى مثل ذلك الأمر. خصّ ، مطلعها بمخاطبة صاحبَيْه وهو يدعوهما إلى تحيّة الدّيار التي يصفها في أبيات ، ذاكراً المطر والسّحاب ، متخلّصاً إلى المَمْدُوح ، فينوه بكرمه وسؤدده وعراقة أصله وعظم مقامه في بني أمية . ويعرج على التفاخر في بيتَيْن ثم يهجو البكريّين بقَراهم الشّتائم للضيف بدلاً من الطّعام ، وبثَلْبهم لأعْراض من ينتجعونهم :

إلى المَلكِ النفَّاحِ ، أهْلي فِـداؤه وكُوري وأَعْلاقي العُـلى وسوامي ١
فلا تُخْلِفَنَّ الظَّن ، إنَّكَ والندى حَليفاً صَفاءٍ في محَـلِّ مَقـامِ ٢
نماك هِشام للفَعالِ ونـوْفـل وآل أبي العاصي لخَيْرِ أنـامِ ٣
فأَنْت المُرَّجى من أُميـةَ كلهـا وتُرْفَد حَمْداً مِـنْ نَدى وتمـامِ ٤

١ ـ الأعْلاق : الأموال والأشياء النّفيسة . السوام : الماشية .
م : يقول إنّه ارْتَحَل إلى الملك المِعْطاء الذي يفتديه بما يملك من أهل ومال ونفائس وماشية أي بكلّ ما يملك .

٢ ـ م : يستعطفه ويرجو عطاءه ويمتدحه بأنه حليف النّدى لا ينفكّ يلازمه ويقيم عليه .

٣ ـ نوفل : هو من أجداد خالد بن أسيد من بني أبي العيص ، يمتدحه بأصله الكريم وينميه إلى أجداده الذين ورث عنهم المجد والسؤدد .

٤ ـ م : يقول إن الأمويّين لا يزالون يرْجون رجاءهم بك وانك ما زلت تعطي الأعطيات التي تنال بها الحمد .

إلا أن لاميَّته هي أفضل ما خصَّه به من مدائح وفيها ذكر الوقعة التي أوقع فيها الجحّاف بن حكيم السلمي بالتَّغْلبيّين في يوم البِشْر . وآية ذلك اليوم أن بني تغلب كانوا قد قتلوا عمير بن الحباب السّلمي ، فاتّفق أن قدم الأخطل على عبد الملك ابن مروان والجحّاف جالس عنده . فأنشده القصيدة التي يقول فيها : « ألا سائل الجحّاف . . . » فخرج الجحّاف مُغْضباً ، يجرّ مطرفه . فقال عبد الملك للأخطل : ويحك . أغضبته ، وأخلق به أن يجرّ عليك وعلى بني قومك شرّاً . فكتب الجحّاف عهداً لنفسه من عبد الملك ، ودعا قومه للخروج معه . فلمّا حصل بالبشر أطلعهم على ما جرى له في مجلس الخليفة ، وقال لهم : قاتلوا عن أحسابكم ، أو موتوا . فأغاروا على بني تغلب بالبشر وقتلوا منهم مَقْتلة عظيمة . فقَدِم الأخطل على عبد الملك ، فلمّا مثَل بين يديه أنشأ يقول : لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة . . . » إلى أن صار إلى قوله :

فَإلاَّ تُغَيِّرها قُريش بمُلْكِهـــا   يكُنْ عن قريشٍ مُستمازٌ ومَرْحَلُ

فقال عبد الملك : إلى أين يا ابن النصرانيّة ؟ فقال له : « إلى النار » ، فتبسّم عبد الملك وقال : أولى لك ، لو قلت غير ذلك لقتَلْتُك .

والشاعر يختلف عبر هذه القصيدة ، كما في معظم قصائده الأخرى ، إلى موضوعات متعدّدة ، يُفصح في بعضها عن أحداث ألمت به ومعانٍ موحية مأثورة ، كما يستطرد إلى موضوعات يقتفي فيها سُنّة شعر المديح والسّياسة . فهو يستهلُّ بذكر الأطلال والأحبّة والظّعائن ، ليستطرد منها إلى وصف الخَمرة والسّكران ومجلس الشّراب والكَرْم الذي اعتُصِرَتْ منه خمرتُه ، مُتَخلّصاً من ذلك إلى تشبّهه بالسّكران الذي صرعته الخمرة إثر ما لقيه وما عاناه من رحيل الأحبّة . ويقع هذا المقطع في نحو سبعة عشر بيتاً (٤ — ٢١) ألمَّ فيه بمعظم المعاني والأوصاف والأحداث المتداولة في شعر الخمرة . فهو يصفُ السّكران وصفاً واقعيّاً ، أحاط فيه بما يطالع الناظر إليه من مظاهر الخَبَل والذُّهول والاضمحلال ، دون أن يتَخلّى عن نزعة الغلوّ التي أحال بها السّكر إلى موت أنحلّت به عظام السّكران ومفاصله .

ويلمُّ كذلك بالقافلة والدّزان التي يشبّهها بالسّودان العُراة اشدّة سوادها . ويستطرد إلى وصف مجلس الشّراب والغِناء والشِّواء ، مشيراً إلى النّشوة التي تعروهم الخمرة بها وإلى دبيبها في العظام دبيب النّمال على الرمل وإلى قتلهم لسورة الخمرة بالماء ، واصفاً شعاعها وتلألؤها في كأسها ، معرّجاً على ذكر الكَرْم الذي اعتُصِرَتْ عصارتُها من عنبه .

والأخطل ينزع في ذلك كله منزعاً وصفيّاً يقتصر فيه على حدود الحواس وبخاصة حاسّتي البصر والذّوق وعلى سرد الأحداث بنوع من الانتخاب الذي يجسِّد به شدّة إيثاره للخمرة وتعظيمه لأمرها . فوصفه لها يجري على بُعْد حسيّ واحد ، لا تعروه منها حيرة ولا تدلهمُّ عبره أحاسيسه وانفعالاته ، ولا يقف بها موقفاً خاصّاً ظاهراً من معاني الحياة وقيمها ، كما نرى في فلذات من خمريات الأعشى قبله وأبي نُؤاس بعده . فهو يصدر في إقباله عليها وإدمانه لها عن الغريزة واللذّة ، ونكاد لا نلمح في وصفه لها تعليلاً وجدانيّاً أو وجوديّاً أو أخلاقيّاً لموقفه إزاءها . وما نقع عليه من معان في هذا المقطع ، لايعدو ما أُثِر من قَبْلُ في الشعر الجاهلي يضفره الشّاعر هنا وهناك بالنّغم الشّجي والصورة الحسيّة النائية ، فيما يُكْبَتُ فيه صوت الوُجدان وتَتَعفّى تجارب الإنسان النّازع إلى الخمرة منزع حيرة وقنوط وقتل للوعي كما نرى في شعر طرفة .

أمّا الموضوع الثاني الذي يتداوله فيها فهو وصف الصَّحراء والفلاة ، كمقدِّمة يُفْصح بها عن المشقّة التي عاناها قبل أن ينْتجع دار الممدوح ويُوفي إليه . وهذا الموضوع جارٍ على سُنّة المدح القديم ، كما عُهد في شعر الأعشى والنّابغة ومن إليهما . وقد كان إلْمامُ الأخطل به نوعاً من المُباراة الوصفيّة التي حاول أن يعارض بها معاني القُدَماء وأوصافهم . ولقد استَقْطب ذلك الوصف نحوَ ستة عشر بيتاً (٢٦ — ٤٢) تعرَّض فيه للسّراب الذي يتَخَطَفّ عبر الصَّحراء والجنّ والهاجرة ، مُشيراً إلى الهلاك الذي تعرَّضت له مطاياه فيها ، ذاكراً إجهاضها لأوْلادها إرهاقاً وإعياءً والذّئب وافتراسه لها وذوبان أسنمتها وغوران عيونها وما إلى ذلك من معانٍ تجسِّد ملحمة السّرى والسّفر في الفَلاة الموحشة .

ونقع في هذا المقطع على وحدة سرديّة وسياق نفسيّ واحد ، يمثّل شدّة الرّوع والضّنى في ارتياد الفَلاة ، وإن كانت الأحداث والخواطر تَنْتاب الشّاعر انتياباً فيه ، فيتردد على المعنى الواحد في أبيات متعدّدة ومستويات نفسيّة مُتَباينة ، قد يتضاءل اللاّحق منها عن سورة التمثيل والغلوّ التي أوفى اليها في معنى سابق . إلا أن الشّاعر يرتاد الأحداث والأوصاف فيها بانفعال انتخابيّ سَقَطتْ به الأعراض وتعاظمت الرموز التي تؤدّي إلى غاية الشّاعر من أوصافه . فهناك السّراب المتلَمّع والهاجرة والثّعلب والذّئب والجن وإجهاض الأبل وذوبان الأسنمة وغَوَران العُيون ، وهي تتضافر جميعاً ، لتوحي لنا بجوّ الإعياء الذي عايشه الشّاعر في تلك الرِّحلة التي أوشك أن يعانق الموت فيها . وإذا كان بعض هذه الرموز المُقْتَبسة من الواقع قد كَثُرَ تداوله ، فقد وُفّق الأخطل في أن يمدّ أبعادها ويدرك بها أقصى غايتها ويحشد لها من الألفاظ والصُّور والأحداث ما يتّفقُ مع ميل الشّاعر إلى الوصف الذي يتكاثَفُ تكاثفاً واقعياً بحيث يتولّد من لمحاته مُجْتَمِعة مثال استُنْفِدَ به مختلف أنواع التمثيل والإيحاء . ولعلّ فضيلة الأخطل في وصفه هي فضيلة الحَشْد النَّفْسي والحسيّ واللّفظي والايقاعي الذي يصور به ما يقع في نفسه من العالم الخارجيّ في أرقى أساليب التقرير الذي يعظّم أحجام الأشياء تعظيماً ملحمياً دون أن يبدل من طبيعتها أو أن ينفذ إلى ما وراء معانيها المُتَداولة الظّاهرة .

ونقع في مقطع ثالث على المدح المُباشر في نحو تسعة أبيات (٤٣ — ٥١) إلاّ أن الشّاعر لا يعتِّم أن يميل إلى وصف المطر (٥٢ — ٥٩) وصفاً يعارض فيه امرأ القيس ولا يُقَصّر عنه في تمثيل شدّة انهماره وتخطُّف برقه وفيضانه على المدن والقرى وما إليها . ونقع في هذا الوصف على نوع من التروُّع الشّبيه بتروُّع الجاهليين أمام عناصر الطّبيعة ، يعمد فيه إلى الفنّيّة الواقعيّة التي تستمد سبل إيحائها من رموز الواقع الحسّي المُباشر .

أما المقطع الأخير من القصيدة (٦٠ — ٦٩) فيعرض فيه لموقعة يوم البشر ، ذاكراً فتك الجحّاف بالتغلبيين ، مُتَظَلّماً من تخلّي الأمويين عن نجدة جيرانهم وحلفائهم ، متهدّداً متوعّدا مُتفاخراً .

وبعد فإن هذه القصيدة تُطالعنا بواقع الشّعر عند الأخطل وسواه من الأمويين حيث يمترج الواقع الذاتيّ أو الاجتماعي أو السياسيّ الحيّ مع الواقع التقليدي الميت الذي ما زال يُتلى في طقوس من النّظم ، لا يجد فيها الشّاعر سبيلاً للخلق والأبداع ، إلاّ في حدود الصّياغة اللّفظية والصورة الحسية والأحداث الواقعيّة .

فهو يقول ، بعد أن يتخلّص من المقدّمات الطويله :

إلى خَلِدٍ ، حتى أَنَخنا بمخلِـــدٍ فنِعْمَ الفَتى يُرجى ونِعمَ المــؤمّل [١]
أَخالد ، مأْواكُمُ ، لمَنْ حَلَّ ، واسعٌ وكفَّاكَ غَيثٌ للصَّعاليكِ ، مُرْسَلُ [٢]
هو القائدُ الميمونُ ، والمُبتَغَى بِهِ ثباتُ رَحًى كانَتْ قديماً تَزَلزَلُ [٣]
أَبي عُودُكَ المَعجومُ إلاّ صلابَـــةً وكفَّاكَ إلاَّ نائِلاً ، حينَ تُسأَلُ [٤]

---

١ ـ م : يعبث الشاعر بلفظ أسم الممدوح خالد بن أسيد ، ويقول إنّها مَضَتْ إلى أمرىء أقوى على الدّهر وأناخت في فنائه الذي لا يَتَزَعْزَع ، فنعم خالد أمرءاً يُرْجى وتعقد عليه الآمال .

٢ ـ م : يخاطب الممدوح ، ويقول له إن بيتَه رحب لمن ينتجعُه وإنّه يُغْدق على الصَّعاليك الهالكين الذين يطلبون رفده .

٣ ـ م : يشرع في هذا البيت بالمدح المُباشر ، ويقول مخاطباً خالداً : إنّك القائد الذي يصحبه اليُمْن والنّصر في القتال ، والذي تَثْبت به أركان المُلك ، بعد أن كانت مُزَعْزعة مُضْطربة .

٤ ـ عَجَمَ العُودَ : أخذه بأسنانه ليرى مدى صلابته . وهنا بمعنى خبره وبلا أمره .

م : أي أن النّائبات التي تحلّ به تضاعف من صلابته وقوّته ، كما أنّه لا يبرح يُغْدق على من يَنْتجعه ويسأله .

أَلا أَيُّها السَّاعي لِيُدْرِكَ خالــداً تَنَاهَ وأَقصِرْ بَعضَ ما كنتَ تَفْعَلُ ١
فهَلْ أَنتَ إِنْ مَدَّ المدى لكَ خالدٌ مُوازِنُــهُ ، أَوْ حامِلٌ ما يُحَمَّلُ ٢
أَبى لكَ أَنْ تَستطيعَهُ ، أَوْ تَنــالَهُ حديثٌ شآكَ القَوْمُ فيهِ وأَوَّلُ ٣
أُميَّةُ والعاصي ، وإِنْ يدْعُ خــالدٌ يُجِبهُ هِشامٌ للفَعــالِ ونَوْفَــلُ ٤
أُولئِكَ عَيْنُ الماءِ فيهِمْ ، وعندهُمْ مِنَ الخيفَةِ ، المَنجاةُ والمُتَحوَّلُ ٥

ومؤدّى المعاني التي يَمْتدحه بها يتَرَجَّح بين كرمه ونخوته المُتَمثّلَيْن برحابة دياره ونجدته للصَّعاليك المَلْهوفين وشجاعته المتمثِّلة في القتال ونجابة أصله المتمثّلة بأجداده كهشام ونَوْفَل . وتراه يَعْبثُ ، حيناً ، باللَّفظ : « خالد ومخلد ، وَمَدَّ المدى » وحيناً يكرِّرُه تكراراً تجريديّاً : « نِعْمَ الفتَى يُرْجَى ونِعْمَ المؤمَّل » حيث يفيد من طبيعة الصِّياغة اللّفظيّة . وقد يَعْمد إلى التّشبيه : « كفَّاكَ غَيْثٌ . . . مُرْسَلُ » تأديةً لمعنى الكرم ، إلا أنّ نسبة الغَيْث إلى اليد لا تستقيم إذ لا علاقة حسيَّة مُمْكِنَةٌ بينهما بالرَّغم من العلاقة الذّهنيَّة الأفتراضيَّة . فاليد

---

١ – ٢ – مُوازِنُهُ : أي معادل له .

م : يخاطب من يسعى إلى ادراك خالد ويقول له : كُفَّ عن ذلك وأقصر ، فهل أنت إن أوسعك خالد قادر على أن توازيه وأن تحمل أحماله ؟

٣ – شآه : سبَقه وفاتَه .

م : يقول أنّه لا قِبَل لك بذلك إذ تفوَّق عليك بما يتداوله النّاس فيه من عظمة ومجد ورثهما .

٤ – الفَعال : الفِعل الحسن .

م : يعدد أجداده الذين تحدّر منهم ويقول إنّه متى استَنْجد يُجبه الخليفة هشام ونوفل ويهرعا إليه بما عرف عنهما من المآثر والفعال المحمودة .

٥ – عَيْنُ الماء : أي الشّرف ، لأن الماء غياث كلّ شيء .

م : يمتدحهم بشرفهم ويقول إنّهم يُنْجون الخائف ويحوّلون عنه الذّعر والهلاك .

هي أداة العطاء والغيث المنهمر هو سبب الثَّراء ، فيده تثري كالغَيْث. لكنّ نسبة اليد إلى الغيث مباشرة جعلَتْ للتشبيه مُؤدَّى ذهنياً، يَنْطوي على اختلال فعليٍّ. وتَلْبثُ له فضيلة التَّعبير الصُّوري الذي يكاد الأخطل لا يكفُّ عنه في رؤيته للمعاني من خلال الارتباطات والمظاهر الحسيَّة . ففي قوله : « والمبتغى به ثباتُ رحى كانت قديماً تُزَلْزَلُ » يَسْتعير للملك معنى الرَّحى ، حَيْثُ أَضمر الدَّلالة على الصَّلابة والشدَّة والبَطْش . وإذا كانت هذه الصّورة لم تصْدر عن خيال متّرامي الأطراف ، شديد النَّأي ، فإن لها عمق الحدس في الرُّؤية الحسيَّة وفي إيجاز مراحل التَّعليل واقتضابها اقتضاباً مباشراً . ومثل ذلك قوله : « أَبَى عُودُكَ المَعجومُ إلاَّ صلابة » حيث تلاحمت الاستعارة والكناية واتحدتا في تَمْثيل المعنى بما يُوازيه في الواقع وفضلاً عن ذلك كلّه يتردَّد على التَّعابير الانشائيَّة :

أَخالد ـ أَلا أَيها السَّاعي ليُدْرك خالداً ـ فهلْ أَنْتَ إن مـد المـدى »

وإثر هذه المعاني المدحيَّة الحَاشدة ـ نسبيّاً ، يَنْصرف إلى البَوْحِ بهُمُومه القبليَّة ، مُتَعتِّباً ، ناقماً ، موتوراً ، بل ومتهدّداً :

لَقَدْ أَوْقَعَ الجَحافُ بالبِشرِ وقعَـــةً إلى اللهِ مِنهـا المُشتكى والمُعَوَّلُ ١

فسائِلْ بني مَرْوَانَ ، ما بالُ ذِمـــةٍ وحَبلٍ ضعيفٍ ، لا يزالُ يُوَصَّلُ ٢

---

١ ـ الجَحّاف : هو ابن حكيم السّلمي . البِشْر : موضع من منازل بني تَغْلب وقد وقع فيه قتال بين التغْلبيين وقوم الجَحّاف السّلمي . المُعَوَّل : هنا الاعتماد والمَفْزع .

م : يشرع في هذا البيت بمخاطبة عبد الملك ويشكو إليه ما أوقعه الجحّاف فيهم من فتك وقتل لم يكد ينجيهم منه إلاّ الله .

٢ ـ م : يُعظم في هذا البيت تَعَتُّبه على بني مروان لِتَخَلّفهم عن نجدة التغْلبيِّين ضد أعدائهم ويَعْجب من ذلك ويقول إنهم لم يخفروا ذمّتهم وإنّهم لا يبرحون يوهون صلتهم بهم ، تكاد لا تَقْوى حتى تَهي وتَضْعف من جديد . يشير هنا إلى ما كان يجري بين الأمويين والتغلبيين من منازعات حول النّجدة والذّمة والولاء .

بِنَزْوَةِ لصٍّ ، بَعْدَما مَرَّ مُصْعَبٌ بأَشْعَثَ ، لا يُفلى ، ولا هوَ يُغسَلُ [1]

أَتاكَ بِهِ الجَحّافُ ، ثمَّ أَمَرْتَهُ بجيرانِكُمْ عِندَ البُيوتِ تُقَتَّلُ [2]

لَقَدْ كانَ للجيرانِ ، ما لَوْ دعَوْتُمُ بهِ عاقِلَ الأَرْوى أَتَتكُمْ تَنَزَّلُ [3]

فإنْ لا تُغَيِّرْها قُرَيشٌ بمُلكِها يكُنْ عَنْ قُرَيشٍ مُستمازٌ ومَرْحلُ [4]

١ ـ أشْعَث : هو ابن زياد الذي قتله مصعب ، فجاء أخوه عبيد الله بن زياد بن ظبيات فاحتزّ رأس مصعب . وقوله لا يُفْلى ولا يُغْسَل : أي أنه ميت .

٢ ـ م : أي أن الجحّاف أتى برأسه ، فلم يَزْجره عبد الملك بل دعاه إلى تقتيل التغلبيّين ومن إليهم وهم مقيمون آمنين في بيوتهم . وقوله : عند البيوت تُقتّل ، هو لتعظيم الأمر ، لأن من يقيم في بيته لا يكون قتالُه إلا غدراً به . وقد أفادت مضاعفة عين الفعل المعنى غلوّاً وتكثيراً .

٣ ـ أرْوى : جمع أروية وهي أنثى الوعل . العاقِل : أي المُعْتصمة في الجبال لا تبرحها ولا تقيم في النّاس ، فهي في أشد النفور منهم .

م : يمثل لين جيرانه ومودّتهم ويقول إنّه لو عوملت وعول الجبال بمثلهما لَلانَتْ وانْحَدَرَت من معاقلها وامتنعت عن النفور .

٤ ـ مُسْتَماز : من ماز رحل وانتقل من مكان إلى آخر .

م : كأن الشاعر يتهدّد الأمويين ويقول إنكم إن لم تمنعوا عنّا الضيم بما أُثِرْتُم به من مُلْك وسلطة ، فإنّنا سنرحل عنك ونقطع صلتنا بكم . وقيل إن عبد الملك إذ سمع الأخطل يقول هذا البيت سأله : إلى أين ترحل يا ابْنَ النّصْرانيّة ؟ فقال : إلى النار . فتبسمّ عبد الملك وقال : أولى لك ، لوقلت غير ذلك لقَتَلْتُك . والشّاعر يردد لفظة جيران وهي لا تَعْني معناها المباشر هنا ، بقدر ما تشير إليه في مفهومه الجاهلي ، حيث كان العربي أحرص في الدفاع عن جاره منه في الدّفاع عن نفسه .

وَنَعرُرْ أُناساً عَزَّةً يَكرَهونها ونَحيا كراماً ، أَوْ نموت ، فنُقتَلُ[1]
وإنْ تحملوا عَنْهُمْ ، فما مِن حَمَالةٍ وَإنْ ثَقُلَتْ ، إلاّ دمُ القَوْمِ أَثْقَلُ[2]

فانت ترى الأخطل يصيحُ ويُعول خلال البيت الأول . ويشكو أمره لله ويلجأ اليه من دون الناس . ولقد خلَع عن وجهه قناع الجبروت والفخر ، مُعَظِّماً من من هزيمة قَومِه وانتصار اعدائهم . والواقع ان الجحّاف غدر في ذلك اليوم بالتغلبيين وبقر بطون نسائهم ومثَّل بالأجنَّة في الأرحام فهال ذلك التغلبيين ، وبخاصة ان الأخطل كان قد استثاره فيما هو مقيم الى جنب عبد الملك بالقول :

أَلا سائلَ الجَحافَ . هَلْ هُوَ ثائرٌ بقتلى أُصيبَتْ من سَليمٍ وعامِرِ

ذاك أن الأخطل يتوسّل لكلّ حالةٍ وسيلتها ، وما دام هو مقيماً في مقام الشّكوى والتذمُّر والعِتاب ، فلا بدَّ له من المغالاة بأمر انكساره ، كما كان يُغالي بأمر انتصاره . وهو يدرك ذلك التصريح أو التّكرار اللّفظي : « أَوْقَعَ وقْعَةً » وأساليب النّجدة والاستغاثة : « إلى الله منها المشتكى والمعوَّلُ » ، ولقد أوفت تلك الفاجعة إلى حدٍّ لا سبيل معه إلى الاستغاثة إلاّ بالله ، أي الى الخضوع والاستسلام وايكال الأمر إلى تدبير الخالق . ووراء هذا القول عمقٌ في معاناة الألم وفداحة الخَطب والشعور بالعَجز ، ولئن لم تسمُ فيه الصورة البلاغية ، فلقد سَمَتْ به

---

١ ــ نَعْرُر : هنا نصيب بالعرّ ومؤداه أنّه يُصيبهم بأذى من يصاب بالعرّ أي الجرَب .
م : يمضي في تهديده ووعيده ويقول : إذا لم تمنعوا عنّا الضّيم ، نتَصَدّى لأعدائنا بما يكرهون . فإمّا أن نقضي عليهم ونحيا كراماً من دونهم ، وإمّا أن نُقتَل ، فيذهب عنّا الذُّل بموتنا الشّريف .

٢ ــ الحَمالة : الدية التي تحمل عن القاتل فيدفعها سواه عنه .
م : يقول إن قاضيتم عنهم دية القتل . فإن ذلك لا يُحِلُّ الوئام ولا يُبْرىء الجراح ، إذ مهما عَظُمَتِ الدية ، فإنّ دماء القتلى تَظَلُّ أعظم منها .

التجربة في صدقها الإنسانيِّ وفي الفزع الى الله كمفزع أخير لشكوى الضيم حيث لا تجدى وسيلةٌ إنسانيّة . وإني لأؤثر هذا البيت الذي يصيح فيه الشاعر بعجزه . على أبيات العنجهيّه ، إذ ان الألم يكشف للنفس أسراراً لا تنالها بالفخر والزهو .

ثم انك ترى الشاعر مُتسائلاً تساؤل نقمة :

فسائل بني مَرْوَانَ ما بالُ ذمّـةٍ وحَبْلٍ ضَعِيفٍ ، لا يَزَالُ يُوَصَّل

والذمّة تَعني ان المروانيين ضمنوا للتغلبيين الدّفاع عنهم . وقد عجب الشاعر أن ينكثوا تلك الذّمة ، ثم إنه مثّلها في إطارٍ يُوحي بها في الحبل الواهي المتداعي ، الذي لا يزال يقطّع ، فيوصَّل . والصورة تُوحي بكثرة ما اشارت اليه من عقد للوصل : « لا يزالُ يُوصَّل» تُعَبِّر عن سياسة السلطة المترجّحة بين استمالة القيسيين والوفاء للتغلبيين . والشاعر أدرك غايته من الصورة إذ ان العربي يتكنّى بالحبل إلى ما يجمع ويشدُّ بقوة . وتقطّعه وتوصيله ينمّان عن سؤ العلاقة والاختلاف والانقسام . تلك هي البلاغة الأخطليّة ، إنها نوع من التبصُّر والتوحيد العجيب بين ما يَعْبر في الذّهن وما يَعْبُر في البصر ، يُنمي أحدهما للآخر ، دون حرج أو كدٍّ أو ضعة .

هذا البيتُ يُطلقُ فكرةً عامّةً أقام فيها الشاعر على حدود الشعر ، إذ لم يُوضح ولم يُصرِّح ولم يُعيِّن ولم يُبيِّن . إلا انه يَنحدر من ذلك إلى ما دونه مما هو ملازم للشعر السياسي ، أي إلى النقاش والبينات والأحداث في اسمائها وسجلّها الدّقيق فيقول :

بنزوة لِصٍّ ، بَعْدَما مَرَّ مُصْعَبُ بأَشْعَثَ ، لا يُفْلى ولا هو يُغْسَلُ
أَتاكَ به الجَحّافُ ، ثُمَّ أَمرْتَــه بجيرانِكُمْ ، عِنْدَ البُيُوتِ تُقَتَّلُ

فمُصعب والجحّاف والأشعث ، هؤلاء هم إطار النقاش والبيِّنة ، ينزع الشاعر فيها من الحقيقة الواقعيّة ، إلى الحقيقة الإنفعاليّة إذ يقتصر في ذلك على التنويه

بما يثير ويحضُّ ويُظهر الامتعاض : « لا يُفْلى ولا يُغسل»، وقد استطرد إلى المعنى بفضيلة اللّفظ ، إذ ان التّشعُّث يُشيرُ إلى حالة الشعر ، عندما يعلوه الغبار وتعبث به الرِّيح ، وقد جعله دون اغتسال وفَلي ليثير السّامع ويمثله جثّة هامدة ، بدلاً من القول إنّه مَيْتٌ ، متوسِّلاً النزعة الصُّوريّة ذاتها التي دأب عليها . وللأخطل أساليبُ أخرى لتوقيع المعنى والاثارة به والنفاذ فيه إلى أقصى حدوده . إلا أنها لا تدرك السموَّ الفني المأثور في صوره ، بل ربما ناقضت الصفاء الشعري وأسفَّتْ به . فهو إذ يقول: « أتاكَ به الجحّاف ، ثمَّ أمَرْتَه » يُطلعنا على إرادة وتصميم عند المَمدوح ، معظّماً المعنى ، مغالياً به ، إذ لم يَعُدْ المروانيُّون يتغافلون أو يتقاعسون عن النصرة ، بل تراهم يأمرون اعداءهم بالتّنكيل بهم : « ثم أمرته بجيرانكم عند البيوت ، تقتّل » . وفعل « أمرتهم » أفاد الغُلوَّ ، لكنه غلوٌّ نثري ، ايضاحي متعمّد . وأردف ذلك بفعل « تُقَتّل » مشتقاً من صيغة الغلوِّ اللّفظيِّ . وفي هذا البيت يتضاعف وقع المعنى بثلاثة عوامل ، على الأقلّ ، هي فعل « أمر » وفعل « تَقَتّل » ، ولفظة « جيران » وللجيرة عند العربي حقوق مقدّسة مرتبطة بشرف المُجير وكرامته . والامويُّون لم يتخلُّوا وحسب عن جيرانهم ، بل إنّهم يحضُّون أعداءهم على تقتيلهم ، أو بالأحرى أنهم يأمرونهم بذلك . ولقد تَطَعَّم المدح ، هنا ، بالهجاء ، بل انه تحوَّل إليه اذ أيُّ معنى هو أقذع من من الاتّهام بخيانة الجار والغدر به . وأيُّ جار هو الذي يغدرون به وينتكصون عليه ؟ إنه الجار المدافع عنهم ، الذي يبذل لهم من المودة والهيبة ما يؤنس حتّى وعول الجبال ، فيَمْنَعُها من النُّفُور :

لقد كان للجيران ما لو دَعَوْتُمَ بـه عاقِلَ الأَرْوَى أتتكم تَنزَّلُ

فهم لا يغدرون بجار لاجىء ، بل بجار محارب ، فارس ، يمحضهم الودَّ المطلق . ومن العتاب المتبطّن بالهجاء ينزع الى التّهديد :

فإنْ لَمْ تَغَيِّرها قريشٌ بمُلْكِها يَكُنْ عن قُرَيشٍ مستماز وَمَرْحَلُ
ونَعْرُرْ أُناساً عَرَّة يكرهونها ونَحْيا كراماً أَوْ نَموت فَنُقْتَلُ

وإن تحملوا، فما من حمالةٍ وان ثقلَتْ إلا دم القوم أَثْقَلُ

هكذا، فإنَّ هذه القصيدة تحفل بالمعاني المدحيّة الحاشدة أكانت مباشرة، أم في المقدِّمات، كما أنّه عرَّج على الهجاء والعتاب والتّهديد، يَشحن ذلك كله بتلك النبرة الخطابيّة المأثورة في شعر الأخطل.

الباب السابع

مدائحه في الوليد بن عبد الملك

للأخطل في الوليد خمس قصائد، كما قدَّمنا، لعلَّ أولاها البائيّة التي استهلها بتحيّة الطّلل وتعيين موضعه وذكر الأثافي والنؤي والريح والسحاب الذي انهمر مطره عليه ويشبّهه بالخَيْل الجميلة المحيّا. ويعود إلى ذكر الدّيار العافية البادية له كالثّوب اليَمانيّ الخَلَق ويذكر الصّواحب اللّواتي عَهِدَهنّ فيها ويصف جمالَهنَّ ويشبّههن بالإبل الكريمة الخالصة البَياض، ويقول إنّهن متألّقات الجمال، مُتْرفات، مزيّنات بالذَّهب والدرّ، وإن أجسادهنّ ضامرة مُرتجّة اللّحم، معتدلة العظام، مُتماسكة، كما أنَّ ريقَهنّ يُبْرِىء من السّقم. ويقول إنَّ الواحدة منهنَّ تُصيب مِمّن يحادثُها مَقْتلاً، أو أنّها تخلّف فيه داء لا يَنجع فيه دواء.

ويَشرع بعدئذ بالمَدْح فيُقْسم بالكَعْبَة والسُّتور والحُجُب والحجّاج بأن الوليد قد أنْقَذَه من المخاطر التي كانت تُحيق به وأمّنه، ثمّ يميل إلى ذكر المطايا التي امتطاها إليه، فيصف النّاقة والضَّنى الذي حلَّ بها وإجهاضها لولدها وسرعة عَدْوها والبعير الذي قرّحه خشب الرّحل والهاجرة التي اصطلاها في عُبوره بها الصَّحراء والحادي الدّؤوب الذي لا يبرح يَزجرها والذّئب الذي يعترضها ويصف لونه وخوف المطايا وعدوها السريع هرباً منه، ثم ينتقل إلى مدح بني أُميّة،

بعزّ الملك والحسب والشرف والحريّة والشجاعة وحلمهم وغضبهم وأصالة نسبهم القرشي .

قال في مطلعها :

حيِّ المنازِلَ بَيـنَ السّفحِ والرُّحَبِ ... لَمْ يَبْقَ غيرُ وُشومِ النَّارِ والحطبِ ١
وعُقَّرٍ خالداتٍ حَولَ قُبَّتِها ... وطامسٍ حبشيّ اللَّوْنِ ، ذي طِبَبِ ٢
وغَيْرُ نؤيٍ قديمِ الأثْرِ ، ذي ثُلَمٍ ... ومُسْتكينٍ أميمِ الرَّأسِ ، مُسْتَلَبِ ٣
تَعْتَادُهَا كلُّ مِيلاةٍ ، وما فَقَدَتْ ... عَرْفاءُ مِنْ مُورِها مجنونَةُ الأَدبِ ٤

---

١ ــ السّفح والرُّحَب : اسْما موْضعين . الوُشُوم : جمع وَشْم وهو نقش بالإبرة يُحْشى بنوع من الكحل أو ما اليه ، كانت نساء الجاهليّة يَسْتعملنه للزّينة .

م : يحيي الطّلل ويعين موقعه . ويقول إنّه لم يَبْقَ فيه إلاّ بقايا النّار والحطب ، أي المَوْقدة والرّماد .

٢ ــ العُقّر : جمع عاقر . وهنا حجارة الأثافيّ . قال إنّها عاقر لأنّها تُقيم على ما هي عليه ولا تَتكاثر . خالدات : هي ، أيضاً ، حجارة الأثافي . دعاها كذلك لأنّها تَلْبث ، إثر اندراس الطّلل . الطّامس : الرّماد . حَبَشيّ اللّون : أسْود . طِبَب : جمع طبّة ، وهي طريقة أو خطّ .

م : يقول لم يَبْقَ فيه إلاّ حجارة الأثافيّ التي لا تَريم ولا تَتحرّك ، تجتمع حول رماد أسود اللّون كالحَبَشيّ المخطط بما يَغْشاه من طرائق .

٣ ــ النُّؤي : الحفيرة حول الخَيْمة . المُسْتكين : الوَتَد . أميم الرّأس : أي أصيبت أم رأسه ، فَشُجَّ .

م : ولم يَبْقَ كذلك إلاّ النّؤي الذي كان قد احْتُفر حول الخَيْمة ، وقد تَثَلّم وتَشَقّق ، وَوَتَد مُسْتكين ، لا يبرح مكانه ، وقد شجَّ رأسه ، أي أُصيب بكلوم عندما ضرب ليغرز في الأرض .

٤ ــ الميلاة : هي الخرْقة التي تلوّح بها النّساء عندما يَنُحْنَ . العَرْفاء : الرّيح المُرْتفعة . مُورُها : أي ما حملته من التّراب . مَجْنُونَةُ الأدب : أي مختلفة الهبوب .

م : يشبّه الريح في عَصْفها وصفيرها وإثارتها للتّراب بامرأة ثَكْلى تلوّح بمنديل ، ويستدرك بأنّها تُشْبِهها ، وإن كانت لم تَفْقد وُلْداً ، بل لما تثيره من تراب وما تختلف عليه من هبوب .

وعرّج على المدح بقوله :

وَقَدْ حَلَفْتُ يميناً غَيْرَ كاذِبَـــةٍ بالله ، رَب سُتورِ البيتِ ، ذي الحجُبِ ١
وَكُلِّ مُوفٍ بنَذْرٍ كان يَحْمِلُــــهُ مُضَرَّجٍ بدِماءِ البُدْنِ ، مُخْتَضِبِ ٢
أنَّ الوليدَ أمينَ اللهِ أنْقَـــذَني وكانَ حِصْناً إلى مَنجاتِهِ هَـــرَبي ٣
أتَيْتُهُ ، وهُمومي غَيْرُ نائمَـــةٍ أخا الحِذارِ ، طريدَ القَتْلِ والهربِ ٤
فآمَنَ النَّفْسَ ما تَخْشى ، وموَّلهـــا قَدْمَ المواهِبِ مِنْ أنوائِهِ الرُّغُـــبِ ٥
وَثَبَّتَ الوَطءَ مِنِّي ، عندَ مُضْلِعَـةٍ حتى تخطَّيتُها ، مُسْتَرْخِياً لَبَبي ٦

١ - ٢ - ٣ - سُتورُ البَيْت : أي سُتور الكَعْبَة . البُدنْ : أضْحية من الإبل والبقر . مُخْتَضَب : أي ملطّخ بالدّماء .

م : يُقْسم في البيتين الأولين يميناً غير كاذبة بالله ، ربّ الكَعْبَة ذات السُتور والحُجُب والحجّاج الذين ينحرون الأضاحي ويحملونها مُتَخَضّبين بدمها . يُقْسم بذلك كلّه أنّ الخليفة الوليد قد أنْقَذَه . فيما فزع إلَيْه كما يفزع النّاس إلى حصن حصين . لا يُقْهر .

٤ - م : يقول إنّه وفد عليه ، فيما كانت تعتريه الهموم وتقضُّ مضجعه ، يحاذر القَتْل ، يهرب منه كالطّريد .

٥ - القَدْم : الكَثْرة . أنْواء : جمع نَوْء : المَطَر . وهنا العَطاء . الرُّغُب : الكثيرة ، الواسعة .

م : يقول إنّه أمّنه وأغْدق علَيْه العطايا ، ففاضت عليه فيضَ الأنواء .

٦ - المُضْلِعَة : هنا أمر لحق به . اللّبَب : جمع لبّة : ما يشد في صدر الدّابة . واسترخاء اللّبب دلالة على الثّقة والطّمأنينة .

م : يقول إنّه بعد أن أمّنه امتنع عَنْه الذُّعْر ، فجعل يسير بطمأنينة ، بعد أن اجتازها ، ثابتَ الجنَان .

وسُنّة القسم جارية في مدائحه ، كما في مدائح مَن تقدَّموه ، وهي أداة خارجيّة للاقناع لولا ما تَحْفَلُ به من إشارات دينيّة كستور البيت والحجب والنّذور والأضاحي ، وما إلى ذلك من أجواء اسطوريّة عميقة الإيحاء والبثّ . لقد غدا هذا القسم طقساً من طقوس الشعر لا يُؤثر و حَسْب بمعانيه ، بل بما هو أنأى منها في تلك الارتباطات الشعوريَّة الغامضة القائمة بين النَّفس وطقوس العبادة في مكّة .

وإثر ذلك القسم الذي يتمادى فيه ، كما هو دأبه، يمتدح الوليد بتأمينه وحمايته وينسب ولايته الى الله ليخلع عليه الصفة الدينيّة ، القدسيّة . والأخطل يجاري الممدوح فيما يذهب إليه ، يقول قوله ويرى رأيه ، وقد حرص على امتداح الامويين بالتدين لأنه كان موضع النزاع فيهم ، يخاطبهم بالقَول : « خليفة الله » « أمين الله » . ويعمد إلى الصُّورة ، لذلك ، فيُشبّهه بحصن للنجاة ، معظّماً من همومه وخوفه كالنّابغة ليُعَظِّم من أمر الحماية . في أسلوب ابداعي شخَّص به الهموم ونسب إليها الأرق : « وهمومي غَيرُ نائمة ».والهمومُ لا تستيقظ ولا تنام ، وانما الانسان هو الذي يعانيها . وهذا التوحيد بين الهموم وصاحبها يَعْبُرُ فيما فوق الوعي والمنطق ويتّصل بالحقيقة الشعريّة ، وهي أسمى فنيّاً من الكناية الواقعيّة الشّاخصة في قوله :

وثبَّت الوطْءَ مِني ، عند مُضْلِعَةٍ حتى تخَطَّيْتها ، مسترخياً لبَبي

ويعود إلى تمثيله في هالة مماثلة لتلك التي رسمها لعبد الملك ، فيجعل خلافته من الله : « خليفة الله » ، أي أنه يستمدُّ سُلطته منه ، انّه ذو حق مقدس ، بل إنه وليٌّ من الأولياء يستدرُّون النّعم بمطلعهم الخيّر وبحسن فألهم ومآلهم ينهمر بذلك المطر ، أي الرّزق :

خليفة الله ، يُسْتسقي بسنَّتــــه الغيثُ ، عند مولى العلـم ، منتخب

وليس من تباين بين هذا القول وقول آخر امتدح به عبد الملك :

الخائض الغمر ، الميمـون طـائره خليفـة اللهِ ، يُسْتَسْقى بـه المَطَرُ

ولكن كيف يصل الشاعر الى الممدوح ؟ إنّه يصل ، كدأبه في كل حين ، على المطايا الهالكة التي تَعيّنت أخفافها من شدّة العدو . وقد خصّها بأبيات وأوصاف ومعانٍ مكرورة ، كما أنه يشبّهها بتشابيهها حتى يوفي من ذلك كلـه إلى الممدوح :

إلَيْكَ تَقْتاسُ هَمّي العِيسُ مُسنِفَـــةً حتى تَعَيّنَتِ الأَخْفافُ بالنُّقَبِ ١

مِنْ كلّ صَهباءَ مِعْجالٍ ، مُجَمْهَرَةٍ بعيدةِ الطَّفْرِ مِنْ معطوفةِ الحَقَبِ ٢

كبداءَ ، دَفقاءَ ، مِحْيالٍ ، مجَمَّرَةٍ مِثلِ الفَنيقِ ، عَلاةٍ ، رسْلَةِ الخَبَبِ ٣

١ ــ تَقْتاس : أي تقيس الأرض بأخفاقها ، أي تذرعها . العيس : الجمال البيض . مُسْنِفَة : أي استرخت حبالُها من الهزال والضُّمور . تعيّن : أي بدأ يُنْقَب ويُثْقَب .

م : يشرع بوصف المطايا التي يَمْتطيها إليه ويقول إنّها من الإبل الكريمة التي استرخت أحزمتُها من شدّة الهزال الذي أصابها ، كما تَنَقّبَتْ أخفافُها من مشقّة السّفر .

٢ ــ الصُّهب : الشّقر . مِعْجال : تُعجّل في وضع ولدها وتُجْهض به . المُجَمْهَرة : الضَّخْمَة الخلق . الطّفْر : الوثْب . الحَقَب : الحزام يلي حقو البعير .

م : يستكمل وصفها ويقول إنها صهباء ، تطرح أولادها على الطّريق ، إجهاضاً لها ، وإنّها ضَخْمة الخلق تَثِبُ وَثْباً في عَدْوها .

٣ ــ الكَبْداء : العَريضة الصّدر . الدَّفْقاء : التي تَتَدفّق في سَيْرها ، الخفيفة . المِحْيال : التي لم تُنْجب ولداً . المُجَمّرة : الغليظة الأخفاف . الفَنيق : الفَحْل . العَلاة : سَنْدان الحدّاد وهنا النّاقة المُشرفة . الرَّسْلَة : الخفيفة . الخَبَب : ضرب من السّير .

م : يقول إنّها عريضة ، تَتَدفّق في سَيْرها تدفّقاً لخفّتها لم تُنْجب فتضعفها الولادة ، وإنّها غليظة الأخفاف كالفَحْل وإنّها عالية ومرتفعة .

كلَمْعِ أيدي مَثاكيلٍ مُسَلِّبَةٍ ... يَنْعَين فتيانَ ضَرْسِ الدَّهْرِ والخُطُبِ [١]
لَمْ يُبْقِ سَيري إليهِمْ منْ ذخائِرِها ... غَيْرَ الصَّميمِ من الألواحِ والعَصَبِ [٢]

ويخلص إلى مدح الأمويين بالقول :

حتى تناهى إلى القَوْمِ الذينَ لهُمْ ... عِزُّ المُلوكِ . وَأعْلى سُورةِ الحَسَبِ [٣]
بِيض ، مصاليتُ . لَمْ يُعدَلْ بِهِمْ أحد ... بكلّ مُعْظَمَةٍ ، مِنْ سادةِ العَرَبِ [٤]
الاكثرينَ حصًى . والأَطيَبينَ ثرى ... والأحمدينَ قِرى في شدّةِ اللِّزَبِ [٥]
ما إنْ كأحلامِهِمْ حِلْم ، إذا قَدَروا ... ولا كبَسْطَتِهِمْ بَسْطٌ . لدى الغَضَبِ [٦]

---

١ ـ لَمَع بيده : أشار . المُسَلّبَة : التي مات ولدها . ضَرْس الدّهْر : أي تُضْنيهم الحروب والخُطوب .

م : يشبّه أيدي المَطايا ، إذ ترتفع ، بإشارة أيدي النائحات . فيما يُشِرْن بخرْقة . وهنّ يَبْكين فتيةً لَهنّ ضرّستْهم الحروب والخطوب .

٢ ـ الذّخائر : أي الشّحم الذي تَدّخره .

م : يقول إن تلك المطايا قد ذابَتْ شحومُها ولحومُها من شدّة السيّر ولم يَبْقَ منها غير العظام والأعصاب .

٣ ـ م : هنا ينتقل إلى المَدح ويقول إنّه أوْفى بها إلى بني أميّة الذين لهم عزّ المُلْك ومجد الحَسَب والشّرف .

٤ ـ بيض : أي أحرار . مَصاليت : جمع مِصْلات وهو الشّجاع . المُعْظَمَة : المُصيبة .

م : يقول إنّهم أحرار شُجْعان ، قادرون على الحلم والتصبّر ، عندما تلمّ بهم الخُطوب .

٥ ـ الحَصَى : العدد الكثير . اللّزَب : جمع لَزْبة : شدّة القحط .

٦ م : لا عديل لهم في حلمهم وعفوهم ، كما أنّه لا عديل لهم في غَضَبهم وبطشهم .

وَهُمْ ذُرى عبدِ شَمْسٍ في أَرومتِهـا   وهُمْ صميمُهُمْ . ليسوا مِنَ الشَّذَبِ ١
وكانَ ذلكَ مَقْسوماً لأَوَّلِهِـمْ   وراثَةً ورِثـوهـا عَنْ أَبٍ فـأَبِ ٢

ويستهلّ الأخطل قصيدته الثانية في مدح الوليد بذكر الديار المتعفيّة ورحيل الأحبة وقيام الثعالب من دونهم فيها . ثم يذكر أعداءه القيْسيين ونفي التغلبيّين لهم عن بلادهم ، ويفخر باجتماع شمل بني قومه واحتشادهم للعدوّ ويتصدّى لجرير وبني كُليب ويذكر تخاذلهم في سباق المجد والفخر ، لكثرة عَوْراتهم ومثالبهم . ثم يتندّم على عهد الصبّا وعلى مصاحبة النّساء الشبيهات بالظّباء ، متخلّصاً إلى مدح الوليد بأفضاله وأُعطياته وكرمه الذي يبزّ به فيضان النّيل ونجابة أصل والدته وبعد همّته وإكرامه للضّيف وتقديم خير اللّحوم والأطعمة له ثم ينقطع إلى وصف الفُتوح التي قام بها في بلاد الرّوم ويقول إنّه أدرك فيها ما لم يدرك سواه .

يقول في المطلع :

عَفَا واسِطٌ مِنْ أَهلِهِ . فَمَذَانِبُـهْ   فَرَوْضُ القَطَا: صَحْرَاوهُ فَنَصائِبُهْ ٣

١ — الأرُومة : أصل الشّجرة . الشذَب : ما يشذب من الشّجر فيسقط ويهمل .
م : يقول إنّهم من أقحاح القرشيّين من أصل شجرتها وليسوا من أغصانها التي تشذّب وتهمل لعدم نَفْعها .

٢ — م : يقول إن ذلك قَدَر قدّره الله لهم وتوارثوه من آبائهم .

٣ — عفا : درس . واسط : موضع بالشّام . مَذانِب : مجاري المياه . النّصائب : جمع نصيبة : علم يوضع في الصحراء ليُهْتدى به .
م : يذكر الأمكنة التي خلت وأقفرت ، إثرَ رحيل أحبّته ، ويقول إن موضع واسط قد اندرسَتْ معالمُه ، فضلاً عن صحراء روض القَطا .

فيا لَكَ منّي هَفْوَةً . لَمْ أَعُدْ لها ويا لكَ قَلْباً . أَهْلَكَتْهُ مَذاهِبُهْ ١

ويتخلّص إلى المدح بقوله :

دعاني إلى خيرِ المُلُوكِ فُضُولُهُ وأَنّي امْرؤٌ مُثْنٍ عَلَيْهِ ونادِبُهْ ٢

وعالِقُ أَسْبابِ امرىءٍ ، إنْ أَقَعْ بِهِ أَقَعْ بكريمٍ . لا تغِبُّ مَواهِبُهْ ٣

إلى فاعِلٍ لَوْ خايلَ النِّيلَ . أَزْحفَتْ مِنَ النِّيلِ فوّاراتُهُ ومَثاعِبُهْ ٤

وَإنْ أَتَعَرَّضْ للوليدِ . فإنَّهُ نَمَتْهُ إلى خَيرِ الفروعِ مَضارِبُهْ ٥

نساءُ بني عَبْسٍ وكَعْبٍ ولَدْنَهُ فنِعْمَ ، لَعَمْري ، الحالباتُ حوالبُه ٦

٢ — م : يقول إنّه أقام من جراء ذلك في مكان مُقْفِر ، لا أنيس فيه كأنّه ضَيْفُ الجنّ . وإنّه كان يعاني سَقَم الحبّ . فلا يعوده ، أي يزوره في مرضه . إلاّ الصبابة والوجد . وفي هذا البيت تخريج جميل للشعور بالوَحْشة .

٣ — م : يقول إنّه تاب عن لهو الصّبى ومجونه وإنّه لم يَجِدْ من ذلك إلا الهلاك .

٤ — م : نادِبُه : معدّد لمحاسنه .

م : يقول . مشيراً إلى الوليد . إنّه قد حثّني على القُدوم إليك ، وأنت خير الملوك . فَضُلُك . وقد جئتُ مادحاً لك . معدّداً لأفضالك .

٥ — عالِقَ بأسْبابه : أي اتّصل به اتصال ودّ وحماية . تُغِبُّ : تأتي ، حيناً بعد حين .

م : يقول إنّني أوثق علاقتي بامرىء لا ينقطع عطاؤه . فهو كريم ، يقع مَنْتَجِع داره منه على كلّ خَيْر .

٦ — خايَل : جارى . أزْحَفَتْ : أي كلّتْ وانْقَطَعَتْ . فَوّاراته : مَنابعه . مَثاعِبُه : مجاريه .

م — يقول في تعظيم كَرَمه إنّه لو جارى به النّيل في فيضه . لبدت منابع النّيل ومجاريه ضئيلة من دونه ولتَباطأتْ وقصّرت عن مُجاراته .

٧ — م : يمتدحه بأصله ويقول إنّه يضرب فيه إلى خَيْر فروع . إلى نساء بني عَبْس

وهذه المعاني ليست مُتعادلة ، فبعضها تقريري ، داني المتناول كقوله إنّه كريم ، لا يكفُّ عن العطاء ، وانه كريم الأصلين من أمه وأبيه ، والبعض تنفخه سورة الغُلوِّ الأرعن ، الفاقد المضمون الانساني والوجدانيّة ، مثال تعظيم كرمه على فيضان النّيل في صورة تمثّل الأفكار الدعائيّة الكاذبة . تلك سورة من ملحمة الغلوِّ المداجي ، العاطل عن كل قيمة فنيّة . ولا بدع ، فإن علاقة الأخطل بالوليد لم تصدر عن الوجدانيّة ، ولا عن الايمان بالتفوُّق ، فجعل يبتدع المعاني ابتداعاً زائفاً .

ولعلّ امتداحه للوليد بطيب عنصر والدته يقوم في حالة متوسطة بين التقرير والغلوِّ الملحميِّ . وقد كان يطيب للوليد أن يمتدح بمثل ذلك . أما فيما دون دونه فإنه يمتدحه بمدائحه الخاصَّة به :

وما بَلَغَتْ خَيْلُ امرىءٍ كانَ قَبْلَهُ بحَيْث انْتَهَتْ آثارُهُ ومَحاربُهْ ١

وتضحي جبالُ الروم غبراً فِجاجُها بما أَشْعَلَتْ غاراتُهُ ومَقانِبُهْ ٢

مِن الغَزْوِ ، حتى انْضَمَّ كل ثميلةٍ وحتى انطوَتْ مِن طولِ قَوْدٍ جنائبُهْ ٣

١ ــ م : يقول إنّه تقدّم في فتوحه بحيث لم تبلغ خيل من سبقه قطّ ، مُشيراً إلى افتتاح الهند وما إليها في ولايته واقتحامه على الروم مراراً .

٢ ــ الغُبْر : من النّار والغبار . الفِجاج : جمع فَجّ وهو الوادي بَيْن جَبَلَيْن . المقانب : الجُيوش .

٣ ــ الثّميلة : ما بقي في البَطْن من العلف أو الماء ، انْطَوَتْ : ضَمَرَتْ . الجنائب : الخَيْل التي يُتجنّب ركوبُها ، إلا في القتال .

م : يقول إن الخَيْل ضمرت وتعفّى كلُّ ما كانت تنطوي عليه بطونُها من شدّة عدوها وسوقها في القتال .

يَمُدُّ المدى للقَومِ ، حتى تَقَطَّعَـت حبالُ القوى ، وانشَقَّ مِنْهُ سَبائبُـهْ [1]

فتى النَّاسِ لَمْ تصْهِرْ إليهِ محارِب ولا غَنَويٌّ دون قيسٍ يُنـاسِبُـهْ [2]

والشاعر يتوسّل الخيل أداة وكناية لتجسيد عزيمته و طموحه . فليست خيله التي لا تجارى ، بل أن بطولته وعزيمته . فالخَيل التي تقذف في الأقاصي تنمُّ عن بعد همّة صاحبها ونهوده الى الكفاح ، بل إلى الجهاد ، إذ أنه كان يقاتل الرُّوم ، ويستكمل صورة الخَيل من خلال مشهد عام لجبال الروم ، حيث يعصف الغُبار ويملأ الفجاج والأودية . وعصف الغبار كالخيل ، ليس سوى ظاهرة حسيّة واقعيّة تؤدي المعنى فيما هو يتحقق ويتمّ ممّا يُضفي عليه صفة اليقين والاقناع . والغبار هو ظلٌّ من الظّلال الملحميّة في شعره ، وهو أبقى مضموناً من ايثار كرم الممدوح على فيضان النّيل ، إذ أننا نسيغه ونتمثله في حدود الواقع والمُمكن . الغلوّ . هنا ، شبه فني والغلو هنالك خُرافيّ . مجانيّ .

ومن ثمَّ يعود إلى التمادي في وصف بُطُولته من خلال الخَيل ، على غرار عنترة ، لكنّه لا يدعها تتحمحم ، ولا يدع الرِّماح تَنوشها كأشطان البئر ، بل ألمَّ بصورة ساكنةٍ ، صامتة إذ استحضر سورة هزالها حتى تقطّعت أرسنتها وأحزمتها . فالاخطل لا يتعمّد اليقين الايحائي ، بل اليقين الواقعي ، فيما ينتزعه من مشاهد الحياة ذات الدّلالة البليغة على غاية الشاعر . فشعره هو شعر التجسيد وليس شعر التجريد ، يعرض المعنى ، أو يستعرضه في اهابه الحسيّ ، في طينته الواقعيّة ، بل في حركته وتنفساته الدّالة ، المعبِّرة .

١ ــ القُوى : هنا الأرْسنة . سبائب : جمع سبيبة أي شقة .

م : يقول إنّه ما زال يقتحم عليها القتال ، ويعدو بها إلى مدى بعيد حتّى تقطّعت حبال أحزمتها وأرسنتها وتشقّقت ثياب الجنود .

٢ ــ م : يقول إن شرف الوليد أرفع من أن يكون عقد زوراً بين قومه وقبيلَتي محارب وغنيّ .

ولقد ينظم الأخطل في مدح الوليد أبياتاً يَعمَدُ فيها إلى الابتسار ، كأنّه يرفع بها ظلامة ويؤدّي شكوى . ولسنا نقع فيها على المعاني المُكثّفة والدأب على استيفاء أغراض القول . بل إنّه لا يكاد يلمّ بذكر المطايا ، حتى ينزع إلى المَادح وينتهي ببيتَيْن من الشكوى الكسيرة شبه الدّامعة التي افتقد بها الأخطل عنجهيّتَه القديمة :

وحاجِلَـــةِ العُيونِ طـوى قـواها   شِهـابُ الصَّيفِ والسّفَرُ الشّديـدُ[1]

طَلَبْنَ ابنَ الإمامِ فتـى قرَيشٍ   بِحِمْصَ وحِمصُ غـائرَةٌ بعيـــدُ[2]

نماكَ إلى الرَّباءِ فحـولُ صِدْقٍ   وَجَـدٌّ قَصَّرَتْ عَنْـــهُ الجُدودُ[3]

وَزَنْـدُكَ مِـنْ زِنـادٍ وارِيـاتٍ   إذا لَـمْ يُحْمَدِ الزَّنْـدُ الصَّلودُ[4]

١ ــ الحاجِلَة : الغائرة .

م : يستهل بذكر مطيّته التي قد غارت أحداقها من شدّة التّعب وذهبت إلى الهاجرة بقواها ، فضلاً عن العَدْو الشّديد .

٢ ــ م : يقول إنّه سعى بمطاياه إلى الوليد ابن الخليفة عبد الملك ، متوجّهاً إلى حمص ، وهي بلدة نائية .

٣ ــ الرَّباء : هنا ارتفاع القدر .

م : يمتدحه ويقول إنّه قد تحدّر من أصل رفيع ومن قوم أماجد وإن الله ضاعف له من قدره بما خصّه من نعمة وحظّ .

٤ ــ الزّنْد : الحطب الذي يوري ناراً . أوْرى : أعطى ناراً . الصّلود : الزّند الذي لا يؤدّي ناراً .

م : يقول إنّه إذا ما أقدم على أمر ، فإنّه يحقّقه وينجح فيه ، فيما يخذل به الآخرون ويقصّرون عنه .

وَإنَّــا مَعْشَرٌ نــابَتْ عَلَيْنـــــا غَراماتٌ ومُضْلِعَــــةٌ كَــؤودُ ١
وَعَضَّ الدَّهْــرُ والأَيَّــامُ حتــــى تَغَيَّرَ بَعْــدَكَ الشَّعَرُ الجديــدُ ٢

والمعاني الواردة في هذه القصيدة هي معان إيجازيّة . يُشير بها إلى كُلّ شيء دون أن يخُصّ شيئاً بالذّات . أشار الى المطايا الغائرة الأحداق من الحرّ والسّفر وشطر إلى المدح ، فكأنّه أدّى فريضة التقليد وسُنّته . ثم تراه ينوّه بالمعاني المَدحيّة تنويهاً ولا يترسّمها ترسّماً ، كدأبه . فهو يمتدحه بطيب الأصل والفأل الحسن ليخلُص إلى الشفاعة المشوبة بقليل أو كثير من الانكسار . فبعد أن كان يلج على الخليفة ولحيته تنضح خمراً ، فيتهدّد ويتوعّد ويُمَنّن ، إذا هو يستعطي لبني قومه كالغُرباء ، ويطلب رفع الغرامات عنهم . وبعد أن يذكر ذلك بالفكرة المجرّدة يؤدّيه بالصُّورة التمثيليّة ، فتغدو المصيبةُ عضّةً من أنياب الدّهر ، أو يغدو الدّهر كإحدى البهائم المفترسة . ولا يَغفل ، كذلك ، حتّى عن الغلوّ إذ يدع الشعر الجديد يشيب من هول الخطب . إنها الأيام السوداء في حياة الأخطل وتاريخ بني قومه ، يعانون فيه النزع الأخير .

وللأخطل رائيةٌ في مدح الوليد ، استهلّها ، كدأبه ، بذكر الدّيار والأحبّة والسّحاب والبرق الذي مثّـــل التماعَه بالتِماع السّيوف وتأجّج النيران ، والمطر المتدفّق الذي تضيق عنه المسايل والفِجاج الواسعة . ويذكر صاحبته فاطمة التي تولّت عن تلك الدّيار ومواضع ترحالها وحلّها ونزوحها من دومة الشّام لتَفَشّي ذُبابة الطّاعون فيها ، ثم يتمنّى أن تحمل الرّياح رسالة لصاحبته هند ،

١ ــ الكؤود : الصّعبة .

م : يشكو إلى الوليد ما حلّ ببني قومه ويقول إنّهم لكثرة ما يدفعون من غرامات ، قد أُصيبوا بخَطْب فادح ونازلة لا دَفْع لها .

٢ ــ م : يقول إن الدّهر عضّهم أي أنّه أنزل بهم مصائبه ، حتّى انتشر الشّيب في رؤوس الفتيان منهم .

وتطلعها على ما يعانيه من دونها ، ويشبّه حبيبته بالغمامة البَيضاء وينتقل ، بعدئذ ، إلى المديــح فيقسم بإله الكَعْبَة على نجابة المَمْدوح وأصالة طرفي نَسَبه ويقول إن الوليد هو الأثبت في القتال والأسرع إلى الأعداء ، وإنّه ينفق يومه في الحَرب أو في القِرى وإنّه لايزال يقارع الأعاجم ويحمي الثّغور .

ويخاطب من ثمة بني أُميّة ويمحضُهم ودّه وحبّه ، ذاكراً حمايتَهم له في الجُلّى ونزول الخَطب الفادح ، ويشير إلى إحقاقهم الحقّ في صِفّين وهداية النّاس إلى سواء السّبيل ، ثم ينقطع إلى العَبْسيّين أخوال الوليد ، ويمتدحهم بالشجاعة والوفاء للضّيف ، وبنَجدة النّعمان لنيل ملكه ، ويُنهي القصيدة بالقول إن الوليد لا يزال معتزاً ، فخوراً بأصله ، فيما يذلّ ويستحي به الآخرون .

يقول في مطلعها :

عَفَا مِمَّنْ عَهِدْتُ بـهِ حَفيــــر فأَجْبالُ السَّيالى ، فـالعَويــرُ ١

فشاماتٌ ، فذاتُ الرِّمْثِ قفرٌ عَفاها بَعْدنا قطرٌ ومورُ ٢

مُلِحّ القَطْرِ مُنسكِبُ العَـــزالي إذا ما قلتُ أَقْلَعَ ، يستحيــرُ ٣

---

١ ــ حَفير والسّيالي والعَوير : أسْماء أمكنة .

م : يقول إن تلك المواضع قد خَلَتْ ممّنْ كان يعهدهم فيها من سكّان .

٢ ــ شامات ، وذاتُ الرِّمث : موضعان . المور : التراب .

م : يقول إن ذَيْنك الموضعين قد أقفرا وامّحت آثارهما ، بعد أن غشيَهُما المطر والتراب .

٣ ــ العزالي : أفواه القِرَب . المُسْتَحير : الراكب بعضه فَوْقَ بعض ، يكاد لا يتحرك لكثرة مائه .

م : يصف السّحاب الذي ينهمر عليها مطره ، ويقول إنّه لا يزال يتقطّر بإلحاح ودون انقطاع وينصبُّ كالماء من أفواه القِرَب ، فإذا ما توهّم الشّاعر أنّه انْحَسر وأقلع عن المطر ، عاد يَتَثاقل ويَنْحَدر ويفيض .

كـــأَن المَشْرَفيــــة في ذراه ونيران الحَجيــج لهــــا سَعير [1]
بِكلّ قــرارَةٍ مِنْها وَفـــــــــجّ أَضاةٌ ماوهــا ضَرَرٌ يمــــــورُ [2]

والشاعر ينصرف في هذا المطلع الى وصف تفصيليٍّ للمطر ، بعد أن يذكر الطلل ويُعَيِّن مواضعه ويُسَمّيه بأسمائه . ولا يرد وصفه كغاية بذاته ، بل كسبيل لإظهار شدَّة تعفّي الطّلل . فهو ينهمر من مثل أفواه القرب ، يدرُّ ولا يَنضب . والتشبيه واقعي بقدر ما هو بدائيٌّ ، إذ أنّ مقابلة المطر في غزارته بالقرب في فوهتها المُنهمرة ، هو أدنى وسيلة من وسائل التّعبير . فالأخطل هو ابن بيئته . فضلاً عن كونه ابن نفسيّته . تراه يقرن التماع البرق بالتماع السّيوف ، مُجَسِّداً بذلك شكل المشهد ، دون معناه ، إذ أن التماع السيوف ، مهما اشتدَّ ، يظلُّ أضعف بكثير من التماع البرق وتخطّفه . ولعلّه استدرك ذلك بتمثيله ، من جديد ، بنار الحجيج المضطرمة في الظلام .

أما وصفه لصاحبته ، فيتّسم بتلك الوجدانيّة الرَّقيقة ، إذ يقرن بينها وبين الغمام في الرّقة والشفافية والجمال :

١ ــ المَشْرَفيّة : السّيوف . الحَجيج : جمع حاج .
م : يصف البَرْق في هذا البَيْت ويقول إنّه يَلْتمع التماع السّيوف ، وإنّه يتوقّد توقُّد نار الحجّاج في الظّلام . وهذا المعنى ينطوي على دقّة في التمثيل ، إذ جعل أعلى البرق يبدو كالسّيف فيما يتأجّج ما دون ذلك كالنّيران . فكأن الشّاعر لا يزال يُعْنَى بالمماثلة والدقة الواقعية .

٢ ــ القَرارة : القاع المُسْتدير ، أو النّقرة التي يجتمع فيها الماء . الفجّ : شعب واسع بين جَبَلين . أضاة : غدير . ضرر : كثير . غزير . يمور : يَجْري .
م : يقول ا نذلك المطر ينْهمر في كلّ قاع وكلّ فج ، ويملأهما ، فيضيقان عَنْه ، بالرغم من اتّساعهما . ولقد دأب معظم الشّعراء الجاهليّين على تعظيم أمر المَطر وتحوله إلى سَيْل وبخاصّة امرأ القَيْس . وكأنّما صدر عن طبع من طبائع الغلوّ فيه فضلاً عن تمثيله لواقع المطر في الصّحراء . ولسنا نقع في هذه الأبيات على الأجواء الطّوفانيّة التي تصحب مثل هذا الوصف في الشّعر القديم .

فَلَيْتَ الرَّامِساتِ بلَغْنَ هِنْــــداً   فَتَعْلَمَ ما يُكِنُّ لهـــا الضَّميرُ ١
كأَنَّ غَمامَةً غَــرّاءَ بـــاتَـــــتْ   تَكَشَّفُ عَنْ محاسِنِهَا الخُــدورُ ٢
وقد بَلَغَ المطيُّ ، وهُن خُـــوصٌ   بلاداً مـــا تحُــلُّ بهـــا قَـــذورُ ٣

وإثر ذلك كلّه يُوفي إلى المدح ، مستهلاً بالقسم :

حَلَفْتُ بمَنْ تُساقُ لَهُ الهـــدايا   ومَنْ حَلَّتْ بِكَعْبتِهِ النُّـــــذورُ ٤
لَقَدْ ولدَتْ جَذيمَةُ مِنْ قُـــــرَيشٍ   فتـــاها ، حينَ تَحْزُبُهـــا الأُمور ٥

١ ــ الرّامِسات : الرّياح الشّديدة العَصْف الّتي تَرْمس الأثر . والرّامسات الإبل الّتي تُسرع في سيرها .

م : يتمنّى أن يُحمّل الرّياح رسالته إلى صاحبته هند ، ليطلعها بها على ما يضمر لها من حبّ وما تثيره في نَفْسه من وَجْد .

٢ ــ م : يشبّه صاحبته هنداً بغمَامة بيضاء ، تَطْلع عليه من الخِدْر . وتشبيه المرأة بالغَمامة لرقّتها وبياضها معنى متداول في الشّعر القديم .

٣ ــ الخوص : الغائرة الأحداق من الجهد والمشقّة . القَذُور : المرأة المُتَنَزّهة عن الأقذار .

م : يقول إن المطايا أوْفَت بهم بعد مشقّة وضنى إلى بلاد طيبة لا تقيم فيها إلا النساء الطاهرات . وفي هذا البيت يمهد للانتقال إلى المديح .

٤ ــ م : يقسم في هذا البيت كعادته قبل مباشرة المَديح ، بالله والكَعْبة . وهو أسلوب ترسّمه شعراء المَدْح من قبلُ وبخاصّة الأعشى .

٥ ــ جَذيمة : إشارة إلى أمّ الوليد وهي ولاّدة بنت العبّاس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة . تَحزُبُها : تتعقّد وتضيق عليها .

م : يمتدح الوليد بنجابة أصله في فرْعَيه ، إذ تحدر من أم جذيميّةٍ وأبٍ قرشيّ ، فجاء مجلّياً لا عديل له .

وأَكرَمَها مَـواطِنَ حِيـن تَبْـــلى ضَرائبُها ، وَتَختَضَبُ النُّحُـورُ ١
وأَسْرَعَها إلى الأَعْــداءِ سيـــراً إذا ما اسْتُبْطِيءَ الفَرَسُ الجَرُورُ ٢
بــهِ تَرمي أَعــاديَهــا قُـــريشٌ إذا مـــا نابَهــا أَمْرٌ كَبيـــرُ ٣
لَهُ يَوْمانِ : يَوْمُ قِراعِ كَبْـــشٍ ويَوْمٌ يُسْتَظَلُّ بــهِ مَطيـــرُ ٤
بِكَفَّيْهِ الأَعِنَّــــةُ ، لا سَـــؤُومٌ قِتــالَ الأَعْجَمينَ ، ولا ضَجــورُ ٥
قَتَلْتَ الرُّومَ . حتى شَذَّ مِنْهــــا عصائبُ ، ما تُحَرِّزُهــا القُصورُ ٦

١ ــ الضّرائب : جمع ضريبة وهي السّجيّة .

م : يقول حين يُبْتلى بالحروب والقتال الشّديد الذي يَدْمى ويُصْرع به المُحاربون .. فإنّه يُلْفى أثبَتَ النّاس جناناً وأخلصهم سجيّة لا يجبُن ولا يتنكص .

٢ ــ م : يقول إنّه يعدو إلى قتال الأعداء بنفسه ، ويهرع لمُلاقاتهم على قدميْه. إذا ألفيت الخيل عاجزة عن الإسراع به إلى غايته .

٣ ــ م : يقول إن قريش تهرع إليه . عندما يتزل بها خَطْب عظيم ، تستهدي برأيه وتجري وفق ما يراه .

٤ ــ الكَبْش : سيّد سقَوْم .

م : يقول إنّه يُنْفق يومه في أمرين : قتال الأعداء الأشداء ومقاومتهم وإذلالهم ، وقِرى الضّيْف في يوم الضّيق والمطر الذي يحبس النّاس في بيوتهم . وهم دون طعام .

٥ ــ م : يشير إلى الفتوح التي قام بها ، إذ فُتحت في ولايته الأندلس والهند ، كما غزا الروم غزوات عديدة ــ يقول ، ممثلاً ذلك ، إنّه لا يزال يمتطي الخيلَ للقتال ويقبض على أزمّتها ، يقاتل الأعاجم والرّوم دون ملَل ، أو تضجّر .

٦ ــ م : يقول إنّك ما زلت تُقاتل الروم وتقتُلهم حتى فرّوا منك هاربين ، ملتجئين إلى حصونهم التي لم تعُد تحرزهم . أي تحميهم من بطشك .

وما زال الأخطل يلجأ الى القسم حتى في هذه المدائح الأخيرة . دون أن يُلحف به ويتمادى فيه . إذ تراه يَشْطُر إلى امتداح الوليد بحزمه وحكمته وطيب محْتده . جامعاً له . كدأبه . فضيلة الأصلين من أمه الولادة وأبيه القرشي . ولم نكد نشهد . من قبل . الحافاً في امتداح الخليفة بوالدته. كما نشهد في مدحه للوليد . وشعره من بعد ، هو شعر الاسترضاء والتملّق . إذ لا طعم انسانيّاً لمثل تلك المعاني .

ثم أنه يعمد إلى السّبل الفنيّة اليسيرة في الغلوّ والتعظيم . متوسّلاً الاطلاق في صيغه الصرفيّة المحضة . وهي صيغ لا شأن فنيّاً لها لأنها لا توضح الانفعال ولا تدعه يَغُور في ذاته ويستطلع غيبها . بل إنّها تسفحه في نوع من التّعميم الذي يوهم ولا يُفهم . فالممدوح هو « أكرمها » و « أسرعها » . وهذا الإطلاق يوافق مقتضى الانفعال ، ولكنّه الانفعال الحماسيّ الذي لم تلجمه المعاناة الانسانيّة عن الطفرة والجموح . الشعر ليس انسياقاً إثر الانفعال . بل إنّه ترجمةٌ وكشفٌ له واستبطانٌ لضميره . ثم إنّك تراه يقمّش له المعاني تقميشاً ويتسقّطها تسقّطاً ، دون لحمة أو سياق ، كما كان دأبه في مدحه لعبد الملك . فبعد أن يُشيدَ بصلابته وصدقه في مقارعة الخطوب وسرعته في طلب الاعداء . تراه يتوسّل الاطلاق من من جديد بشكل آخر مباين لصيغ أفعل التّفضيل . يقول :

لَهُ يَوْمَانِ : يَوْمُ قِراعِ كَبْشٍ وَيَوْمٌ يُسْتَظَلُّ بِهِ مَطِيرُ

فالشاعر يقصر أيام الممدوح على يومين . يوم قتال ويوم عطاء . والقصر ينطوي هنا على معنى التّعميم ، والشعر لا يُعَدِّد ولا يُصَنِّف وان كان التعداد والتّصنيف يؤدّيان له الغلوّ .

وفيما دون ذلك يكرر النّعوت « : لا سؤوم ... ولا ضجور » . وقد ألمّ من النّعوت بوزن « فَعُول » المنطوي بذاته على المبالغة كوزن أفعل أالتّفضيل . هكذا يحشد الأخطل ما تطرحه اللّغة بين يديه من وسائل للغلوّ . لا يَدَعُ احداها حتى يهرع إلى الأخرى . معترضاً . عبر ذلك ببعض الكنايات الواقعيّة : « بكفيه الأعنّة » للتدليل على مباشرته للحرب بذاته . وأية حرب تلك ، إنّها الحرب

المقدّسة التي يقاتل فيها الروم حتى يفرّوا من دونه ، لا تحصّنهم حصون ولا تحرزهم قصور . ويوفي إلى ذروة التّعظيم بالقول :

فَلَوْ كانَ الحُروبُ حُروبَ عـــادٍ لَقَامَ عـــلى مَواطِنِهـــا صَبور [1]

ويُعَرِّج ، من ثمّة ، على امتداح الأمويين ، مظهراً إيثاره لهم :

وقـد عَلِمَتْ أُميـــةُ أَنَّ ضِغـني إِلَيْها ، والعُـداةُ لهـا هرير [2]
وأَنِّي ما حَيِيتُ عـلى هواهـا وأنّي بالمغيبِ لهـا نصـورُ [3]
وما يَبْقَى على الأَيـامِ ، إلاّ بنـاتُ الدَّهْرِ والكلِمُ العَقـورُ [4]
فَمنْ يكُ قاطعاً قَرْناً ، فإنّي لِفَضْلِ بني أَبي العـاصي شَكُور [5]

١ ــ م : يمثّل في هذا البَيْت شدّة احتماله للقتال ويقول إنّه لو شهد حروب عاد المُهْلكة المبيدة لما انْتَكَص وتولّى عنها ، بل إنّه يُقيم فيها ، حتى ينتهي منها إلى النّصر .

٢ ــ ضِغْني : هنا مَيْلي .
م : يشرع في هذا البَيْت بمُخاطبة الأمويين ويقول إنّه لا يزال يلوذ بهم ويميل إليهم فيما يهرهم الأعداء ويتصايحون عليهم ، مُعْلنين نقمتَهم وثورتهم ، أي أنّه يخلص لهم في مواقع الضّيق .

٣ ــ م : يقول إنّه سيُقيم على حب الأمويّين وعلى نصرتهم في مشهد منهم وفي غيابهم .

٤ ــ بَنات الدّهر : صروفُه وخطوبُه . العقور : الذي يعض أو يجرح .
م : يقول إنّ الأيّام تُزيل كلّ شيء ، ولا يُقيم من دونها إلا الخطوب ، فَهِي لا تنقطع ولا تكفّ ، ويبقى مهما على الأيام العقور . أي قصائد الهجاء التي تجرح المهجو وتسمه وتخلف فيه ندوباً .

٥ ــ القَرْن : الحَبل .
م : يقول إنّه إذ تخلّى عَنْه مُناصروه وقطعوا صلتهم به في أيام مِحنته ، فقد هرع إليه الأمويّون ونصروه ، وهو لا يزال شاكراً لهم أفضالهم وأياديهم .

عَلِقْتُ بحَبْلِكُمْ ، فشدَدتمُوهُ   فَلا واهٍ قُواهُ ولا قصِيرُ ١
إمامُ النَّاسِ والخُلَفَاءُ مِنْهُمْ   وفِتْيانٌ تُسَدُّ بها الثُّغور ٢
ومُظلِمَةٍ تَضِيقُ بها ذراعي   وَيتْرُكُني بها الحَدبُ النَّصُورُ ٣
كفَوْنيها ، وَلَمْ يَتَواكلوها   بخَلْقٍ ، لا أَلفٌّ ولا عَثُورُ ٤
وَلَوْلا أنتُمُ كَرِهَتْ مَعَدٌّ   عِضاضي ، حينَ لاحَ بيَ القَتيرُ ٥
ولكنِّي أهاب ، وأَرْتجيكُمْ   ويأْتيني عَنِ الأَسَدِ الزَّئيرُ ٦

---

١ — م : يمثّل صلته بهم بالحَبل على ما أثر منذ القديم . ويقول إنّه إذ انتمى إليْهم نموه . وأخذوا بيده ولم يتخلّوا عنه ، بعد مناصرتِهم له .

٢ — الثّغور : أطراف البلاد التي يُخْشى قدوم العدوّ منها .

م : يقول إنّهم أصْحاب المُلْك والخلافة والإمامة ، وانّهم ما زالوا يقتحمون قتال الأعداء على ثغور البلاد .

٣ — ٤ — المُظْلِمَة : هنا المصيبة الدّاهية . الحَدِبُ : المُشفِق ، المُعين . الألَفُّ : الضّيق الخلق . العَثور : الكثير السّقوط .

م : يقول إنّه إذ ألمّت بي أحدى الدّواهي وأعْيَيْتُ من دونها وتخلّى عني بها من كانوا يناصرونَني ويُشْفقون عليّ ، هرَعتُم إليَّ وأنقذتموني منها ولم يكلْها أحدُكم إلى الآخر تضجرّاً وإهمالاً . يشير هنا إلى ما كان من إنقاذهم له إذ تهدده الأنصار . والأخطل لا يزال يشير إلى هذا الأمل ليستدرّ عطفَهم عليه ، ويظهر فضله في الدّعوة لهم بالرغم من أنّه قد توسّل بالشّكر في سبيل التذكير والتمْنين وطلب الحماية وما إليها .

٥ — العِضاضُ : الشدّة في الدّفاع . القَتير : أوّل الشّيب .

م : يقول إنَّ سائر العرب كانوا تخلّوا وتخلّفوا عن مناصرته ، عندما نزلت به الخطوب التي بعثت الشيب في فوديه ، لو لم يهرع إليه بنو أميّة ويدافعوا عنه .

٦ — م : يقول إنّه لا يزال يرْتجيهم ويوقّرهم ، فينجدونه على أعدائه ويزجرونهم عنه ويُروّعونهم ، كما يُفزع الأسد أعداءه بالزّئير .

والأخطل يعود، هنا، إلى ذكر دفاعه القديم عن بني أُميّة ، يوم كان اعداؤهم يهرّونهم ، أي عندما كان الأنصار يهجونهم ويقذعون في سلبهم . وتكاد لا تخلو قصيدة له من هذا الأمر ، انه يتقرّب إليهم ، يؤدّيه بأشكال مُتباينة ، مجرَّداً ، أو ذهنيّاً ، أو بالصورة : « والعداة لها هرير » . وهرير العُداةً يُعَظّم من فضل الشاعر إذ أنّه لم يحفل في الدِّفاع عنهم بالخطر المداهم . وهذه الصور المكنيّة لا تزال قوام فنيّة الأخطل ، يُبصر من خلالها المعاني ويجسدها ويمنحها يقين الواقع الفعلي بالاستعارة النافذة ، متّخذاً مادّتها من واقع بيئته . وإذا نظرت في مدى تواتر الكنايات والاستعارات ، من جهة ، والتشابيه المباشرة ، تجد أن الأخطل سما بالشعر سموًّا نسبيّاً عن التشبيهيّة الجاهليّة وغلّب الاستعارة المكنيّة في أطرها الواقعيّة . ولقد صفا بذلك أسلوبه عن النقل والمقابلة الغثّة . لكنّه لا يقيم على ذلك ولا ينبذ التقرير ، بل إنه ينهار إليه عندما يعرض أفكاراً يعيها :

وإنــي ما حييتُ على هـــواهـــا وإنِّي بالمغيــب لهـــا نَصــورُ

فهذا شعر تقتصر فضيلته على معناه، وحسب، وهو أدنى فنيّاً من قوله : « والعداةُ لها هرير » إذ باشر الأداء فيه مباشرةً . ولا بدع ، فان الأخطل ينظم في الدفاع عن وجهة نظر وفي اداء البيّنات ، وهي ، جميعاً ، ساقطة في مصهر الشعر ومحكّه الأخير . وربما وقف موقف الحكيم ، يخلُص من الأحداث إلى مبادئها ، مسخِّراً الحكمة لغرضه ، ومؤولاً الحقيقة العامة بما يفيدُ منه في الحقيقة الخاصة :

وَلا يَبقَــي عَـــلى الأَيـــام إلاَّ بَنَاتُ الدَّهْرِ والكِلَـمُ العَقُـــورُ

فلا خلود إلا للخُطوب ، وتلك نظرة تشاؤميّة ، وان كانت صائبة ، ظاهراً ، قرنها الشاعر بالكلم العقور ، أي بالأهاجي ، ليعظِّم من شأنه فيما هجا به أعداء الممدوح . ومع أن الشاعر سخَّر الحقيقة لمأربه ، فإنّه ألمَّ من خلالها بلحظة شعريّة سما بها عن الأحداث واستطلع ضميرها وصيرورتها الدّائمة ، فتفطّن إلى أن الدّهر غادر ، يفجع ابناءه بآمالهم ويُرزئهم ، ولا يكفُّ عن ذلك قَطّ . وعبر

ذلك كُلّه يَعمد إلى النعوت في صيغها الشديدة الغلوّ أو صيغها الأليفة الشائعة : « نَصور – عُقُورُ – شكورُ – واهٍ – قَصيرُ » ، وإلى الصُّور شبه المكرَّرة : « قاطعٌ قَرناً – عَلِقْتُ بحبْلِكُمْ » . ولا يعدو ما تبقّى من القصيدة هذا التّصنيف : « النّصور – لا ألَفٌ ولا عثورُ » . وفي الأبيات الأخيرة تَطْغى الصّيَغ النّثريّة كحرف الامتناع للوجود : « ولولا أنتم » و « لكنّي » . والتعابير الصُّوريّة التي تعوّض عنها ، كما في قوله :

وأَنْتُمْ حينَ حارَبَ كُلَّ أُفْقٍ وحينَ غَلَتْ بما فيها القُدورُ ١
غَشَمْتُمْ بالسّيوفِ الصِّيدَ ، حتّى خَبا مِنها القَباقِبُ والهديرُ ٢
إذا ما حيّةٌ منكُمْ تَوارى تَنَمَّرَ حيّةٌ مِنْكُمْ ذَكيرُ ٣
وأُعْطيتُمْ على الأَعداءِ نَصْراً فَأَبْصَرْتُمْ بهِ والنّاسُ عُورُ ٤
وكانَتْ ظُلْمَةٌ فكشفْتُموها وكانَ لها بأَيْديكُمْ سُفورُ ٥
فَلَوْ أَنَّ الشُّهورَ بكينَ يوماً إذا لبكَتْ لِفَقْدِهِمُ الشُّهورُ ٦

١ – ٢ – الصَّيَد : التكبّر : والتّعاظم . القَباقِب : جمع قِبْقبة وهنا قرع الأضراس .
م : يشير إلى موقعة صفّين ويقول إنهم إذ تألب المُسلمون وانقسموا إلى مُوالٍ ومُعارض ، ولم يبْقَ فيهم أحد لم يَنْهد إلى القتال . فقد قوّموا صَعَر أعدائهم بسيوفهم وأذلّوهم فتخلّوا عن تهديدهم وغضبهم وقرع أضراسهم من الغَيْظ .
٣ – الحَيّة : هنا إشارة إلى القدرة والبطش والفتك . الذّكير : الصُّلب الشديد .
م : يقول إنّه إذا مات منهم امرؤ مَهيب ، بطّاش بالأعْداء ، يقوم من دونه امرؤ آخر .
٤ – م : يقول إنّ الله أمدّكم بالنّصر لتُبْصروا به سبيل الهداية ، فيما ظلّ سائر النّاس يَعْمهون في ضلالهم كالعور ، غير المُكْتَملي البَصر .
٥ – سفُور : انْقشاع .
م : يقول : لقد اعتَرتْني ظُلمة الخُطوب ، فبَدّدْتُموها وجَلَوْتُموها عنّي بمناصرتكم لي .
٦ – م : يقول إن شهور السّنة تؤثرهم على سواهم . ولو قُدّر لها البكاء ، لَبَكَتْ على فراقهم من شغَفها بهم .

وَنِعْمَ الحَيُّ في اللَّزَبـاتِ عَبْـسٌ إذا ما الطَّلْحُ أَرْجَفَـهُ الـدَّبورُ ١
مساميحُ الشتاءِ إذا اجْرَهَـدَّتْ وَعَزَّتْ عِندَ مَقْسَمِها الجَـزورُ ٢
بَنـو عَبْسٍ فـوارِسُ كلِّ يـوْمٍ يكادُ الهـمُّ خشيتَهُ يطيـرُ ٣
وُفـاةٌ تَنْزِلُ الأَضيـافُ منـهـمْ مَنـازِلَ مـا يُحُـلُّ بهـا الضَّريرُ ٤
وهُمْ عَطَفـوا عـلى النُّعْمـانِ لمّـا أتـاهُ بِتـاجِ ذي مُلْكٍ بَشيـرُ ٥
فجازَوْهُ بنُعْمـاهُ عَلَيْهِـمْ غـداةَ لـهُ الخَوَرْنَـقُ والسَّدير ٦

١ — اللزَبات : السنون الشداد . الطلْح : ضرب من النبات . أرْجفَه : هنا حرّكه . الدَّبور : الرّيح البار دة .

م : يمتدح عبساً ويقول إنّهم أفضل النّاس في إيواء المُعْوز ، عندما تهبُّ ريح الدَّبور البار دة .

٢ — اجرَهدَّت السّنَة : صعُبَتْ واشتَدَّت . الجزُور : الإبل التي تُجْزر .

م : يقول إنهم يُضاعفون من سماحتهم وعطائهم في أيام الشّتاء . عندما يتعذَّر كسب الرِّزْق وتعزُّ لحوم الذّبائح ويتنازعها النّاس . إذ تُقَسّم فيما بينهم .

٣ — م : يمتدح بني عبس . ويقول إنّهم أبطال المعارك المروّعة التي تُفْقد من تحلُّ بهم صوابهم وتطير جميع همومهم . ولا تخلّف فيهم إلاّ الخوْف من الهلاك المُحْدق . ولقد امتدح العَبْسيّين لأن أم الوليد كانت منهم كما قدَّمنا .

٤ — الضرير : هنا شدّة الأذى .

م : يمتدحُهم بإكرامهم للضُّيوف وإنزالهم في منازل الرّفق والبشاشة . حيث لا ينالُهم مكروه ولا يصيبُهم أذى .

٥ — ٦ — الخوَرْنَقُ والسّدير : قصران بالحيرة .

م : يشير في هذين البيتَين إلى أن عمرو بن هند أخلى سبيل أحد العبسيّين الذين كان قد عزم على قتل الملك ، فشكره العبسيّون وعاونوه على كسرى لاستر داد ملكه .

كلا أَبويْكَ مِنْ كَعْبٍ وعبسٍ بُحورٌ ما تُوازِنُها بُحورُ ١
فَمَنْ يَكُ في أَوَائِلِهِ مُختًّا فَإِنَّكَ يا وَلِيدُ بِهِمْ فَخُورُ ٢
وتأْوي لابن زِنْباعٍ إذا ما تراخى الريفُ كاسَ لهُ عَقيرُ ٣

فالصّدور لا تغلي ، ولكنَّ الشاعر استبطن فيها الدّلالة على قدر يغلي فيها ماء الحقد ويتدافع ولا يستكين . وهذه الصورة تكشِّفُ المعنى ، فيما هي توجزه ، وتلمح إليه . ومثل ذلك قوله : « إذا ما حيَّةٌ منكم توارى » « وكانت ظلمة فكشفتموها » دون أن يُوفي من ذلك الى الغلوِّ الايحائي الشّاخص ، قبلاً . هكذا يحشد الأخطل للممدوح المشاهد والصور والمعاني والنعوت ، يمتدحه بنفسه ، بقتاله للأعداء ، وبنِي قومه ليستوفي غرض المدح ، وقد استطال في هذه القصيدة ، حتى كأنّه أوجز به المعاني الخاصة والعامّة التي يكررها في مدح الأمويين . ولا يَعِفُ حتى عن الافتراض ليفيدَ الغلوَّ :

ولو أَن الشُّهورَ بَكَيْنَ ، يَوْماً إذاً لَبَكَتْ لِفَقْدِكُمُ الشهورُ

وهذا ما قد تدعوه بالغلوِّ الإفتراضي حيثُ يُؤدّي الشّاعر المعنى بالوهم مخمّناً أمراً مستحيلاً يَقَعَ في النفس موقع الدّهشة والتّرَوُّع . فليس للشّهور قبل بالبكاء ، بل إنها لا تحفل به ، ولكن الشاعر اعتراها بحالة نفسيّة واضحة

١ ـ م : يقول إنّه تحدّر من أصل شريف في طرَفيه وإن أجْداده كانوا أشبه ببحورٍ للكَرَم والمجد .

٢ ـ أختَّ الرَّجُل : استحيا وسكت عند أصله .

م : يقول إذا ما خجل النّاس ، عندما يتداولون شرف الأصل ، فإن الوليد يفخر بأصله ويتعاظم به .

٣ ـ ابْنُ زِنْباع : هو مروان بن زِنْباع صاحب القصّة التي أشرنا إليْها فيما تقدّم .

م : يقول إنّك إذا ما أجْدبت الربوع تؤويه وتَنْحر له النّوق .

غامضة ، إذ جعلَ لها وعياً تقدِّر به ما يجري فيها من انتصارات وافراح وأزدهار . تُشغَف به وتؤثره غاية الايثار ، حتى أنها تنوح وتبكي عندما تفارقه . فالأيام هي هنا كناية عن الناس . ولكن نسبة الايثار لها هي أدلّ على المعنى وأشدُّ غلوًّا به لما تنطوي عليه من الغرابة والافتراض . ولقد اشتقّ الشاعر معناه اشتقاقاً ، ولكن القصديّة والتّعمُّد غلبا عليه .

وبعد ان يستوفي غرضه من مدح الخليفة يُعَرِّج على مدح أخواله بالكنايات والايماآت المأثورة للتدليل على شدّة شغفهم بالضيف وهرعهم لمن أصيب بالضيق والاملاق ، وهي معانٍ تتكرَّر في فنون المدح والفخرِ والرِّثاء ، بتأثير البيئة وواقعها الاقتصادي والاجتماعيّ . فهو ، مثلاً ، لا يُسَمّي الضيق باسمه ، بل يتكنّى على ذلك بالحادثة إذ يقول : « إذا ما الطّلح أرجفه الدَّبورُ » والدَّبور ليس هواء ولا نسيماً ، بل هي الريح الشتائيّة العاتية ، تعصف وتقصف وتُخلِّف القحط والصقيع ، إنها ريح الاملاق ، يعزُّ معها الرّزق لانها تردُ في موسم الضّيق فتُضاعفُ من ضيقه . وإذ يعزُّ الطعام ترى العبسيين ينحرون النياق السمينة لاطعام الجياع والمعوزين ، وهذا المعنى وما إليه يتردد عند الأخطل وسواه حتى يكاد أن يفتقد طعمه ومعناه .

وفيما دون ذلك تراه يعدِّد مآثرهم في القتال ، ذاكراً أيامهم ونجدتهم للنعمان في استعادة ملكه ، متخذاً من التاريخ الواقع فعلاً بيِّنةً على بطولتهم . وينهي القصيدة بتمجيد الوليد في أصليه ، موفياً إلى أقصى غايته من مدحه . وقد تعفّت في هذه القصيدة ثاراته ، فلا تراه هاجياً خصماً ، أو مجادلاً عدوًّا ، أو متفاخراً بفخر فكأن أُوار نفسه قد ركد وخَمَدَت جذوتُه .

وتدنو إلى هذه الرائيّة قصيدة ميميّة نظمها في مدح الوليد واستهلّها بذكر الديار وآثارها والقِدْر والنّؤي الماثلة فيها ، متذكّراً النساء المُنَعّمات اللّواتي كنّ يُقِمْن فيها ، واصفاً مِشْيتهنَّ واصطلاءهنَّ البَخور . ويميل إلى المدح ، دون استطراد إلى ذكر الناقة والهاجرة وما إليهما كدأبه في معظم مدائحه ، ويقسم بالكَعْبَة ، مؤكداً حماية الوليد وإنقاذه له من الهَلاك ، ثم ينوّه بقعوده للعطاء دون

تبجّح وخيلاء وبإغداقه عليه إغداقاً تطبّع فيه بطباع بني قومه الذين يُنجدون الناس في الجدْب . ثم يخاطب بني أُميّة. ذاكراً أفضالهم في الدّفاع عنه ويمحضهم ودّه ويؤكد لهم وفاءه وإخلاصه .

فهو يقول . إثر المقدمة التقايديّة :

لَقَدْ حَلَفْتُ بما أَسْرى الحجيجُ لَهُ ... والنَّاذرين دماءَ البُدْنِ في الحَـرَمِ ١

لَولا الوَليدُ ، وأَسْبَابٌ تَنـــاوَلَني ... بِهِنَّ ، يَومَ اجتماعِ النَّاسِ بالثلَمِ ٢

إذاً لكُنْتُ كَمَنْ أَوْدى ، وَوَدَّأَهُ ... أَهْلُ القَرَابَةِ بَينَ اللَّحدِ والرَّجَمِ ٣

أَهْلي فداؤُكَ ، يومَ المُحْرِمونَ بهـا ... مُقاسَمُ المالِ أَوْ مُغْضٍ عـلى أَلَمِ ٤

يَوْمَ المُقَـاماتِ . والأَمْوالُ مُحْضَرَةٌ ... حَوْلَ امرىءٍ ، غيرِ ضَجَّاجٍ ،ولا بَرَمِ ٥

١ ــ البُدْن : جمع بَدْناء وهي النّاقة السّمينة . أسرى : مشى ليْلاً .
م : يشرع في هذا البَيْت بالقسم الذي يلمّ به ، غالباً ، قُبيل مباشرة المَدح للتأكيد والغلوّ ويقول أقسم بالكعبة التي يرتحل إليها الحجّاج وبالنّاذرين الأضاحي .
٢ ــ الثلَم : اسم موضع .
م : يقول بعد أن أقسم إنّه لولا حماية الوليد له وإدناؤه إليه . فيما اجتمع الناس بالثّلم .
٣ ــ أوْدى : هلك . وَدّأه : طمره وسوّى التراب عليه . الرَّجَم : هنا الحجارة .
م : يستكمل في هذا البَيْت معنى البَيْتين السّابقَيْن ويقول إنّه لولا حماية الوليد له في ذلك الموضع . لهلك وغدا كمن أُلْحد وأُهيل عليه التراب وركمت الحجارة .
٤ ــ م : يفدّي الوليد بأهله تودّداً له وإظهاراً لكرمه عندما يجتمع المُحْرمون في مكّة فيقتسم بعضهم الماء مع الفقراء ، فيما يكسر البعض الآخر طرفهم ألماً لهزال حالهم وإملاقهم .
٥ ــ المقامات : جمع مقامة : المَجْلس والجماعة من الناس . الضّجاج : الذي يكثر الصياح . وهنا الذي يتباهى بأُعطياته . البرَم : المتضجّر ، وهنا الذي يضيق بالعطاء .
م : يشير هنا إلى قيام الوليد في مكّة موزعاً ماله دون صخب ومباهاة أو تضجّر وضيق بمن يعتفونه .

إنَّ ابنَ مروانَ أَسقــاني عـــلى ظمإٍ بِسَجْلٍ ، لا عاتِمٍ رَيْثاً ولا خَذِمِ [1]

والقسم الذي استهلّ به والحّ في سُنّة شعره المَدْحيّ ومثل ذلك التّفدية وقد اتّخذها فيما اتّخذ من النّابغة . ويجري ذلك المجرى اعترافه بالفضــل ، حيث انقذه من الهلاك . حتى يُعَرِّج على مدحه بالكرم . مستبطناً تأويلاً جديداً له بالقول :

ما يُحْرِمِ السَّائلَ الدُّنيــا ، إذا عَرَضَتْ وما تَعَوَّذَ منْـــهُ المَــالُ بالقَسَمِ [2]

وهذا التّأويل يدنو من افتراضه لبكاء الشّهور في الغلوّ والغرابة . وهو ينمي الى المال معاناةً ، سيسرف فيها أصحاب البديع فيما بعد ، فكأن المال يكره المكوث الطويل في خزائن صاحبه ويُقسم إنه إذا اطلق سراحه ألا يقع بين يَديه مرةً ثانيةً . فالوليد يَبْذُلُ المال ولا يحترس به . وتراه يكرِّر في ذلك الكنايات والأحداث المتداولة ، المنهُوكة ، فيقول :

من آل عَفَّانَ ، فَيَّاضِ العَطَاءِ ، إذا أَمْسَى السَّحابُ خَفيفَ القَطْرِ كالصِّرَمِ [3]

١ ــ السجْل : الدّلو الكبيرة التي تحتوي ماء . العاتم : المُبطىء بالعشاء . الرَّيْث : الإبطاء في كلّ شيء . الخذْم : القَطْع ، أي أن زاده لا ينقطع .

٢ ــ م : يشير في هذا البَيْت إلى كرمه ويقول إنّه لا يحرم من سأله مالاً أو متاعاً بل إنّه لا يزال يؤدّيه ويغدقه ، ثم يردف بأن المال لا يتعوّذ ولا يُقْسم بألاّ يعود إلى راحته أو خزائنه لطول ما يَقْبضه أو يَختزنه فيهما بل إنّه ينفقها لتوّه .

٣ ــ الصِّرَم : قطع السّحاب التي لا ماء فيها . من آل عفان : أي من بني أُمية لأن عفان هو ابن العاصي بن ربيعة .

م : ينسبه إلى قومه ويقول إنّه لا يزال يفيض على النّاس عطاء ، فيما يَتَقَتّر الآخرون ويحترصون .

تسوقه . مَحْملُ الصُّرَّادَ مُجْدبةٌ حَتَّى تَساقَطَ بَيْنَ الضَّالِ والسَّلَمِ ١

فَهُمْ هنالكَ خَيْرُ النَّاسِ كُلُّهمُ عندَ البلاءِ ، واحماهم على الكَرَمِ

والمطعمون إذا ما أَزمَةٌ أَزَمَتْ والمقدمونَ على الغارات بالجِذَمِ ٢

ولا مجال للإضافة بتحليل هذه الأبيات ، إذ سلَفَ ما يماثلها ، إلا أنه أطال وأفاض فيها ، فكأنّه غدا في مقام الضراعة والاستعطاء ، يُعَظّم من كرم الممدوح ، لينال أعطياته ، بعد أن هدأت عاصفة السياسة . ولم يعد له عليه تلك الدّالة التي كان يُدلُ بها على عبد الملك .

خلاصة في مدحه للوليد بن عبد الملك :

١ – يجري فيه ، غالباً ، على سنَّة المدح المأثورة من استهلال بوصف الطلل واستطراد إلى المطيّة وهلاكها ؛ فضلاً عن المطر وما إلىذلك منموضوعات والجة في كلاسيكية المدح .

٢ – يستهلُ مدحه له ، غالباً ، بالقسم ، دون أن يتمادى ويُلْحف فيه وهو لا يعدو البيت أو البيتين ، لكنّه قلّما تخلو منه قصيدة من قصائده . وقد يشفع القسم بالتّفدية ، على غرار النّابغة والأعشى .

٣ – يخلص من القسم الى ذكر الأمان الذي مَنّ به عليه الأمويُّون ، يُلْحف

---

١ – الصُّرّاد : القليل الذي لا ماء فيه . المُجْدِبة : هنا السنية المجدبة . الضَّال والسّلم : شجر .

م : يستكمل وصف السّحاب ويقول إن الريح تسوقه وتُزْجيه ، تحمل منه ما قل ماؤه وجفّ في السنة المجْدبة وتجعله يندر حتى يقع بين أشجار الضَّال والسّلم .

٢ – م : يقول إن الأمويّين يكونون عند حلول الجدْب والقحْط أفضل النّاس وأكثر حميّة للعطاء .

بوصفه والتّفصيل فيه وتعظيم أمره . وهذا الأسلوب هو سبيل للتّقرُّب باظهار عظم ما تكبّد في سبيل الأمويين .

٤ ــ يمتدحه بالمعاني المدحيّة الكلاسيكيّة ، منوّهاً ، خاصة ، بكرمه، ويؤثره على فيضان النِّيل في صورة خرقاء متمادية .

٥ ــ يخصُّه بمدح لا يصحُّ إلا فيه إذ يُشيد بقتاله للرُّوم ، من خلال خَيْله المتمرِّسة بالحروب ، الضامرة والّتي تتقلقل عليها الأحزمة لهزالها في الكفاح الشديد .

٦ ــ تكاد لا تخلو قصيدة من امتداح بني قومه والاشادة بمآثرهم ، وقد تعادل الأبيات الّتي يخصُّهم بها الأبيات الّتي خصَّها للمدح المباشر .

٧ ــ وهناك فضيلة كرَّر ذكرها في مدحه ، من دون سواه ، إذ تراه ينوِّه بفضل أخواله بني عبس وبكرمهم وبسالتهم وخاصة في قتالهم إلى جانب النّعمان .

٨ ــ وعبر ذلك كلّه يفقد الأخطل عنجهيّته القديمة ، ويبدو وكأنّه يتوسّل ويتشفّع ، طالباً لقومه السلام ورفع الضرائب . وقد خفتت نبرة الفخر والعتاب والهجاء في مدائحه ، فلا يتصدَّى لمقارعة خصومه وتعداد أيام بني قومه ، بل ينفق معظم جهده في القصيدة على ابتداع المعاني المدحيّة ، وفقاً لسنّتها الشائعة .

وللأخطل مدائح أُخرى في بعض الأمراء والولاة والكُتّاب كالعبّاس بن عبد الله بن العبّاس وابني عبد العزيز وسعيد بن العاص وآخرين . ولا جدوى من الإطالة بذكرها أو تحليلها إذ تكاد لا تختصُّ بخاصة تؤثر على ما دونها، وسوف نتعرّض لبعض معانيها من خلال بحثنا في المعاني المدحية العامة لشعر الأخطل .

الباب الثامن

الخصائص الفنية العامّة لمدائح الأخطل

أ ـ معانيه العامة :

يستهل الأخطل قصائده المدحيّة بذكر الطّلل والحبيبة والمطيّة والمفازة وبعض مظاهر الطبيعة وعناصرها ، كما قدَّمنا ، وكما سنرى في دراستنا لموضوعات الوصف في شعره . ونلفيه ، كذلك ، مُعترضاً بالفخر والأهاجي والبيِّنات والجدل وبخاصة فيما امتدح به عبد الملك وأخاه بشراً وخالد بن أسيد . وفيما عدا ذلك نقع على المعاني العامّة المأثورة كالانتصار الدّائم على الأعداء والتنكيل بهم في أيام معروفة. يُسمِّي اسماءها كقوله في مدح ابني معاوية[1] :

ويوم شرطة قيس إذْ منيتَ لَهـــمْ حَنَّتْ مَثَاقيلُ مِنْ ايقَاعِكُمْ نكـد
ظَلُّـوا وظَلَّ سحاب الموت يمطرهم حتَّي توجَّه منهم عـارض بَـرِدُ
والأَشرفية أَشباهُ البروق ، لهـــا في كُلِّ جُمْجمة أَو بيضَةٍ خــدَد

أو قوله في مدح عبد الملك[2] :

مفترش كافتراش اللَّيث كَلْكَلَـهُ لوقْعَةٍ كائن فيهـا له جَـزَرُ
مُقَدِّماً مائتي أَلْـفٍ لمنـزلـه ما أَن رأَى مثلهـم جـن ولا بَشَر

١ ــ الشرح : ص ١٢١ : (٣٩ ــ ٤٦) .

٢ ــ م . ن . : ٢٩ ــ ٣١ وتجد معاني مماثلة فيما يلي : ١٨٥ : ٢٠ ــ ٢١ ؛ ١٨٩ : ٤١ ــ ٤٥ ؛ ١٩٥ : ١١ ــ ١٤ ؛ ١٩٧ : ٢١ ــ ٢٦ ؛ ٢٩٤ : ٢٨ ــ ٣٣ ؛ .

يغشي القناطر يبنيها ويهدمها مُسَوَّمٌ فَوْقَه الرَّايات والقتر

وقد يُشَبِّهه بالأولياء[1] :

جزاءَ يُوسُف إحساناً ومغفرةً أَو مثلَ ما جُزْيَ هارونٌ وداوود
أَو مثل ما نال نُوحٌ في سفينته إذ استجابَ لنُوحٍ ، وَهْوَ مَنْجودُ

ويَصحب ذلك أو يعقبه الاشارة بتقواه وصفته الدينيّة وايثار الله له :

« تَمَّتْ جُدودُهم . والله فَضَّلَهُمْ [2] وَجَدُّ قومٍ سواهم خاملٌ نَكِدُ
هم الَّذين أَجاب الله دعوتهم لما تلاقت نواصي الخَيْل ، فاجْتَلَدوا
والمسلمون بخَيْرٍ ما بقيتَ لهم وَلَيْسَ بعدك خيرٌ حينَ تُفْتَقَد [2]
أَظفره الله ، فليهنأ له الظَّفر [3] خليفة الله . يستسقي به المطر[4]
أَعطاهُم اللهُ جداًّ يُنْصَرُونَ به [5] وقد جعل الله الخلافة فيكم [6]
ولكن رآه اللهُ موضع حقها [7] خليفة الله ، يستسقى لسنَّته الغَيْث[8]

وتكراره للصِّفة الدينيّة ينمُّ عن تكيُّفه بالنسبة إلى مقتضى الحال وواقع السياسة في مدحه ، إذ كان الأمويُّون يحرصون على تثبيت دعوتهم الالهيّة . ويُعَظِّم الأخطل ممدوحه من خلال أصله :

نعم الخؤولةُ من كَلْبٍ خؤولته ونعم ما وَلَدَ الأَقوام إذ وَلَدُوا [9]

١ — ١١٩ : ٢٩ — ٣٠ ؛ ٢ — ١٢٤ : ٥٤ ؛ ٣ — ١٦٧ : ١٨ ؛
٤ — ١٧١ : ٣٩ ؛ ٥ — ١٨٤ : ١٦ ؛ ٦ — ٢٠٩ : ٤٦ ؛
٧ — ٢٠٩ : ٢٧ ؛ ٨ — ٢٦٨ : ٤٥ ؛ ٩ — ١١٩ : ٢٤ ؛

في نبعة من قريش يَعْصبون بها ما أن يُوازى بأعلى نَبْتها الشَّجَرُ ١
أبوك أبو العاصي ، عليه تَعَطَّفَتْ قُرَيشٌ لكم : عرنينُها وصميمها ٢
نماك هشام للفعال ونَوْفَلٌ وآل أبي العاصي لخَيْرِ أنام ٣
ونعمَ الحيُّ في اللَّزبات عَبْسٌ إذا ما الطَّلْحُ أرجفه الدَّبَورُ ٤

ويعظّمه ، كذلك، من خلال خيله في القتال :

والخَيْل يُتْعبها على علاَّتها لله مُنْتَصِبُ الفؤاد شكورُ ٥
إمامٌ يقود الخَيْلَ ، حتَّى كأنَّها صدور القنا : معوجها وقويمها ٦
والخَيْلُ عابسة ، كأن فروجها ونحورها يَنْضَحْنَ بالجريالِ ٧
والخَيْلُ تشتدُّ معقوداً قوادمها تعدو وتَمْتَحِضُ الأكفالُ والسُّرَرُ ٨
تُريعُ إلى صوتِ المُنادي خُيُولُهم إذا ضُيِّعَتْ عُونُ النِّساءِ وَحُولُها ٩

وينوِّه الأخطل بأن الممدوح لا يقاتل في سبيل طمع أو غنائم أو تحقيقاً لشهوة القتل والاستبداد ، بل دفاعاً عن الحق . فقوّته ليست قوّة عمياء ، بطّاشة ، بل قُوَّة عاقلة ، تتوسّل الحرب لدفع الضيم ودحض الباطل . ففي مدحه لعبد الله ويزيد ابني معاوية يُصرِّح بمثل ذلك المَعنى ويُفَصِّل فيه ، إذ يقول :

١ ـ ١٧٠ : ٣٥ ـ ٤١ ؛ ٢ ـ ١٣١ : ٢٢ ؛ ٣ ـ ٢٧٦ : ١٠ ؛
٤ ـ ٣٠٦ : ٣٨ ؛ وتقع على مثل هذه المعاني في الصفحات التالية :
٢٦٩ : ٤٧ ـ ٥١ ؛ ٢٩٣ : ٢٣ ـ ٢٤ ؛ ٢٩٦ : ٤٧ ؛
٢٩٣ : ٢٣ ـ ٢٤ ؛ ٣١٥ : ٧ ـ ٨ ؛ ٣٢٢ : ٣٢ ـ ٣٧ ؛
٣٥٣ : ١ ـ ٣ ؛ ٥ ـ ١٩٦ : ١٥ ـ ٢٠ ؛ ٦ ـ ٢٣٠ : ٢٠ ـ ٢١ ؛
٧ ـ ٢٥١ : ٤٠ ؛ ٨ ـ ٣٣٩ : ٩ ؛ ٩ ـ ٣٥٩ : ٢٤ ؛

على الألى قتَلوا عثمان مظلمـــــةً لَمْ يَنْهَهَمْ نَشَدٌ عَنْهُمْ وَقَدْ نُشِدُوا ١
فَثَمَّ قَرَّتْ عُيُونُ الثَّائـرين بِــهِ وأدركوا كُلَّ تَبْلٍ عنده قَـوَدُ ٢
فَلَمْ تَزَلْ فَيْلَقٌ خَضْراءُ تَحطِمُهُـمْ تنعى ابن عفَّانَ ،حَتَّى أَفْرَخَ الصَّيَدُ ٣

فهم قد رفعوا الظلم الذي لحق بعثمان ، إذ غُدِرَ به ، حتى قَرَّت نفوس المطالبين بثأره . وبيِّن من ذلك كلّه ان الأخطل يقول قول الممدوح ويَنطق بلسانه ، مُسَخِّراً لذلك المبادىء العامّة لتحقيق المآرب الخاصة . بل إنّه ليُكرِّس ذلك في شعره ، ليبرِّر أقواله وأفعاله ، يقرنه بالشماتة وبعض الهجاء والتنديد .

يقول ، كذلك ، في مدحه لعبد الملك :

حُشْدٌ على الحقِّ ، عَيَّافو الخني ،أُنُفٌ إذا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا ٤

وينزع من ذلك الى الاشادة بتعقل الممدوح وكبر حلمه :

لا يُسْمَعُ الجَهْلُ يجري في نَدِيهِـمُ وَلا أُمَيَّةُ مِنْ أَخْلاقِهـا الفَنَـد ٥
والهمَّ ، بَعْدَ نجيِّ النَّفْس يَبْعَثُـه بالحزمِ ، والأَصْمَعَانِ القَلْبُ والحَذَرُ ٦
شَمْس العداوة حتَّى يُسْتَقَادَ لهـم وأعظم النَّاس أحلاماً ، إذا قدِرُوا ٧
ما إن كأَحلامهم حلْمٌ ، إذا قدِرُوا ولا لَبَسْطَتِهِمْ بَسْطٌ ، لَدَى الغَضَبِ ٨
لم يُلْهِهِ عَنْ سَوَامِ الخَيرِ قَدْ عَلِمُوا أَمْرُ الضَّعِيفِ ولا مِنْ حِلْمِهِ البَطَرُ ٩

١ ــ ٣ : يقول إنهم ثاروا ليأخذوا بثار عثمان حتّى انتصروا وطابت نفوس الموتورين بقتله . فهم لم يهدأوا وظلت كتائبهم تقاتل حتّى أدركوا كلّ تبل أي كل ثأر ــ .
م ــ س : ١٢٢ : ٤٢ ــ ٤٥ . ٤ ــ ١٧١ : ٣٧ ؛ ٥ ــ ١١٩ : ٢٨ ؛
٦ ــ ١٦٧ : ٢١ ــ ٧ ــ ١٧١ : ٤١ ؛ ٨ ــ ١٩٩ : ٦ ؛
٩ ــ ٣٣٨ : ٥

والأخطل يتعرّض للممدوح من النّاحية الداخليّة في هذه المعاني ، فيكتسبُ شعره بعداً انسانياً من اتصاله بالحقيقة العاقلة . دون غلواءٍ أو تبجّحٍ أو نزق . فالقوم الذين يسودُ الأدب أنديتهم ويَغلب الحلم والعقل تسمو انسانيتهم ، إذ لا يدعون الطيش والغريزة تنزوان بهم . ومثل ذلك امتداحهم بيَقظَة القلب والحُلم . لأنهم يكبحون جماحهم ولا يدعون أنفسهم تسترسلُ في ثاراتها . فيَعفون ويُعفُون . مُتطهِّرين من الأحقاد والصغائر . ولقد اشترط لهم القدرة مع الحلم . إذ لو تحالَمُوا ، وهم ضعفاء ، لكان حلمهم ختلاً ولؤماً . كما يقول المتنبي :

كُل حُلْمٍ أتَى بغَيْرِ اقْتِـــدَارٍ حجَّةٌ لاجيءٌ إلَيْهـــا اللِّئـــامُ

ويدنو الى ذلك المدح بالصَّبر والعفّة والقيام على العهد والمودّة ، :

إذا ألَمَّتْ بهمْ مَكْرُوهَة صَبَرُوا ١

وإنْ تَدَجَّتْ على الآفاقِ مُظْلِمَـــةٌ كانَ لهم مَخْرَجٌ منهـا ومُعْتَصَرُ

في جنَّة هِيَ أرواح الالَهِ ، فَمَـــا يُفَزِّعُ الطَّيْرَ في أَغْصَانِهَا فَـــزَع ٢

إلا أنّ أكثر المعاني التي يتردّد عليها ، عبر مدائحه هي معنى الكرم ومعنى الأمان الذي أنعم به الأمويون عليه . والأخطل إذ يعرِّج على المدح بالكرم يتوسّل اسلوبين ، أحدهما يقوم على الفكرة أو الصورة المقتضبة ، والثاني على التشبيه الاستطرادي من المقارنة بين كرم الممدوح والفرات وما إليه من أنهر . قال في مدح يزيد[٣] :

١ – م – س : ١٧١ : ٣٠ – ٣١ ؛ ٢ – ٢٠٨ : ٣١ ؛
٣ – ٩١ : ٣٣ – ٣٨ ؛ راجع هذه الأبيات وشرحها في صفحة ٥٠ من هذا الكتاب .

وما مزبدٌ يَعْلُو جزائرَ حَامِرٍ يَشُقُّ إِلَيْهَا خيزراناً وغَرْقَدَا
تحَرَّزَ منه أَهَلُ عانَةَ . بَعْدَمَا كسا سورها الأَعلى غثاءً مُنَضَّدا ...
بأَجود سَيْباً من يزيدَ . إذا غَدَتْ به بُخْتُه يَحْمِلْنَ ملكاً وسُؤددا

وقال في مدح عبد الله بن معاوية :

كأَنَّه مُزْبدٌ ريَّان ، مُنْتَجِعٌ يَعْلُو الجزائرَ في حافاته الزَّبَدُ[1]
حتى تَرى كُلَّ مُزْوَر أَضرَّ بِه كأَنَّما الشَّجَرُ البالي بِهِ بُجُدُ[2]
تَظَلُّ فيهِ بناتُ الماءِ أَنجِيَة ، وفي جَوَانِبِهِ اليَنْبُوتُ والخَضَدُ[3]
سَهْلُ الشَّرائِعِ ، تَرْوى الحائماتُ به إذا العِطاشُ رَأَوْا أَوْضاحَهُ وَرَدوا[4]

١ ــ المُزْبد : هنا الفُرات .

م : يشبّه عطاءه بالفُرات ، فيما يعلوه الزّبد ويفيض ويغمر ما يحيط به من جُزُر .

٢ ــ المُزْوَرّ : هنا ما تنحّى عن مجرى النهر . أي الجزر . أضرّ به : ملأه . البُجُد : نوع من الأكسية .

م : يشير إلى فيضانه على ما دونه من البرّ ، حيث يقتلع الأشجار ويصرعُها ويخلّفها وقد اكتسى بها أديم الأرض .

٣ ــ بناتُ الماء : الطّيور المائية . أنْجِبة : جماعة . اليَنْبوت والخضد : ضرْب من الشّجر .

م : يقول إن طيور الماء تجتمع عليه ، كما تزدحم فيه أشجار الينبوت والخضد . وفي الشطر الثاني إشارة إلى شدّة اصطخابه بحيث يقتلع الأشجار ويسوقها في تيّاره .

٤ ــ الشّرائع : جمع شريعة وهي الطّريق إلى الماء . الحائمات : الطيور التي ترود الماء . الأوْضاح : جمع وضح وهنا الطّريق إلى الفرات .

م : يستكمل وصفه ، ويقول إن الطّير لا تزال ترتادُه وإن النّاس لا يزالون يترَوّون منه .

وقال في مدح عبد الملك :

وما الفُرات ، إِذا جاشتْ حَوَالِبُـــه ... في حافَتَيْهِ وفي أَوْساطِهِ ، العشر ١

وَذَعْذَعَته رياح الصَّيْفِ، واضطرَبَتْ ... فَوْقَ الجآجيءِ ، مِن آذيِّهِ ، غُدُرُ ٢

مُسْحَنْفِرٌ مِن جبالِ الرُّومِ ، يسْتُرُهُ ... مِنها أكافيفُ فيها ، دونَـــهُ ، زَوَرُ ٣

يوماً ، بأَجْوَدَ مِنْهُ ، حينَ تَسْأَلُـــهُ ... ولا بأَجْهَرَ مِنْـــهُ ، حينَ يُجْتَهَرُ ٤

وقال في مدح عكرمة الفيّاض :

وما مُزْبِدُ الأَطوادِ مِن دونِ عانَـــةٍ ... يَشُقُّ جبالَ الغَوْرِ ذو حَدَبٍ غَمـــرِ ٥

---

١ ــ حوالبُه : أمواجه . العُشَر : نوع من الشّجر العظيم .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الفُرات في فيضانه العظيم ، ليردف بعد بيتين آخرين بتشبيهه بعطاء عبد الملك . يقول إن الفرات عندما يضْطرب موجُه ويقتلع الأشجار عن حافتيه ويسوقها إلى أوساطه .

٢ ــ ذَعْذَعَتْه : حرّكته وأثارت الاضطراب في موجه . الجآجيء : جمع جؤجؤ : الصَّدر . آذيّه : أمواجه .

م : يقول إنّه إذا ما حرّكته رياح الصّيف وعصفت به ، مثيرةً أمواجه القويّة ، فارتفعت تضرب مقدّمة السفينة كأنّها الغُدْران .

٣ ــ المُسْحَنْفر : السّريع الجري بامتداد ومضاء . أكافيفُ : جمع كفاف وكفة : ما يكفّ الماء عن الجَرْي . زَوَرٌ : مَيْل ، أي أنّها تدعه يميل عن مجراه .

م : يقول إنّه إذ يُسرع في جريه من جبال الروم ، عابراً الأكافيف التي تمنع سيره وتكفّه عن عدوه ، فيما تُضاعف من صَخَبه ، مائلةً به عن مجراه .

٤ ــ م : يقول إن الفرات في تألّبه وحشده وفيضانه ، لا يعادل الخليفة في كرَمه وفي احتشاده وعزمه عندما يُستثار في مواقف الغَضب .

٥ ــ م : الغَمْر : الكثير . الحَدَب : الموج وتَراكب الماء في جريه . مُزْبد الأطواد : يعني به الفرات .

م : يقول إنّ الفرات الذي ينهمر في الأودية ويفيض فيها بأمواجه المُتدافعة المتراكبة .

تَظَلُّ بناتُ الماءِ تَبدو مُتونُها وَطَوراً تَوارَى في غَوارِبِهِ الكُدْرِ [1]
مَتَى يَطَّرِدْ يَسقِ السَّوادَ فُضُولُهُ وفي كل مُستَنٍّ جَداوِلُهُ تَجري [2]
بأَجْوَدَ مِنْ مأْوَى اليَتامى ، ومَلجأِ الاضيافِ ، وَهّابِ القِيانِ أَبي عمرِو [3]

وكنا قد عرضنا لمقابلة هذه الأبيات وأبيات النابغة في امتداح النعمان ، مما لا مجال لإعادة البحث فيه . وانما نخلص من ذلك إلى ان مقارنة الكرم بفيض الأنهر وما إليها ، كان والجاً كوصف المطايا وذكر هلاكها في سنّة الشعر المدحي عامّة وشعر الأخطل خاصة .

وفيما دون ذلك فإنه يلمّ بالكرم بأوصاف وصور متقاربة أو مُتَبَاينة :

فما يزالُ جدا نُعْمَاكَ يُمْطِرُني وَإنْ نَأَيْت . وسيْب مِنكَ مَرْفُود
ترى الوُفودَ إلى جَزْلٍ مَوَاهِبُهُ إذا ابتَغَوْه لأَمْرٍ صالحٍ وَجَدُوا
قَوْمٌ إذَا أَنْعَمُوا كَانَتْ فَوَاضِلُهُمْ سَيْباً من اللهِ ، لا مَنٌّ ولا حَسَدُ
لا يَزْمهِرُّ ، غَداةَ الدَّجْنِ ، حاجبُهُم ولا أَضِنَّاءُ بالمِقْرَى ، وإنْ ثَمِدوا [4]

١ — م : أي أنّ طيور الماء تبدو فيه حيناً ، وتغيب حيناً آخر في غواربه ، أي أمواجه الغبراء .
٢ — يَطّرد : يتبع بعضه بعضا . المُسْتَن : الشّديد الجَرْي . السّواد : الطرق .
م : يقول إن موجه يتدافع ويسقي بما يفيض منه الطّرق ، جارياً بقّوة وصخب .
٣ — م : يقول إنّ الفُرات في تدافعه وتراكب أمواجه وصَخَبه وفيضانه ، ليس بأجود من عكرمة الذي يأوي إليه اليتامى والمثقلون المُطارَدون والذي لا يزال يهب القيان لمن يمتدحه أو يعتفيه .
٤ — لا يزْمَهِرُّ : لا يتعبّس . الدَّجن : هنا الشّتاء . المِقْرى : أوعية الطّعام . ثمدوا : قلّ ما عندهم .
م : يقول إن حاجِبَهم لا يتعبّس ويصدّ بوجه المُعْتَفين ، عندما يَشْتدُّ العوز بالناس ، شتاءً .

قَوْمٌ ، إذا ضَنَّ أَقوامٌ ذوُو سَعَـــةٍ وحاذَرُوا حَضرة العافينَ أَوْ جَحِدوا [1]
بارَوْا جُمادى بشِيزاهُمْ ، مُكلَّلَـــةً فيها خَليطانِ واري الشَّحْمِ والكبِدُ [2]
مُوَطَّأُ البَيْتِ ، مَحْمود شمائِلـــهُ عِنْدَ الحَمالَةِ ، لا كَزٌّ ولا وَعِقُ [3]
هم الَّذينَ يُبارون الرِّيـــاحَ إذا قَلَّ الطَّعَامُ على العَافينَ أَو قَتَـرُوا
ضَروبٌ عراقيبَ المطـيِّ ، كأَنَّما يُبَاري جُمَادى إذْ شَتا أَوْ يُخَايلُـهْ
إذا غَابَ عنا غابَ عَنَّا فراتنـــا وإن شَهْدَ أَجدى فَيْضـه وجداوِلُهْ

فهو يُشبّه الكرم ، حيناً ، بالكرم ويمثله بمشهد الوفود والحاجب المقبل بالبشر على منتجعي الدّار والقدور الكبيرة ، المفعمة . ومن البيّن أن هذه المعاني مكرورة في صورها وإخراجها وتآويلها ، وقد يتعاظم وقعها عندما تُزجى في سياق القصيدة في خضمّ المعاني المدحيّة الأخرى .

١ – ٢ – جَحِدوا : أي أنكروا أن لديهم رزْقاً أو مالاً . جُمادى : هنا للتدليل على الشّتاء القاسي . الشيزى : القُدور التي تُصنع من شيز ، وهو ضرب من الخَشَب الأسود . مُكَلّلة : مَمْلوءة . الواري : السمين .

م : يمتدحهم بالكرم ويقول : إذا ما ضنّ القوم الموسرون . وجعلول يُحاذِرون ارتياد العافين ، أي طالبي المَعْروف ، لديارهم وأنْكروا أن يكونوا مُوسَعين ، مَيْسورين . فإن الأمويين يعارضون جُمادى الشّتاء بإغداقهم على النّاس وبذلهم لهم ، فهو ينزل بهم الضِّيق والضَّيم ، وهم يَرْفعونهما عن كاهل النّاس ، بما يبذلونه في قصاعهم وقدورهم الكبيرة من طعام ولحوم دَسِمة .

٣ – مُوَطّأ البيت : أي أن الضُّيوف لا تزال تلجه وتطأ فيه . الكَزُّ : البخيل . وَعِق : حريص . الحمالة : الدية يحملها امرؤٌ عن سواه حقناً للدّماء .

م : يمتدحه بالكرم وحسن الضّيافة والأخلاق . ويقول إنّك لا تزال تؤدّي الديات عن أصحابها دون تباخل أو حرص .

وأفضل ما يؤثر من أوصافه للكرم نقع عليه في الأبيات التالية . فضلاً عن الأبيات السابقة حيث قرنه بالفُرات :

وَلَيسوا إلى أَسواقِهِمْ . إذْ تَـألَّفــوا ولا يومَ عَرْضٍ عُوَّداً سُدَّةَ القَصرِ [1]
بـأَسْرَعَ وِرْداً مِنهم نَحوَ دارِهِـــم ولا ناهِلٍ وافى الجوابـيَ عَن عِشرِ [2]
ترى مترَعَ الشِّيزى الثِّقالِ ، كأَنَّهـا تَحَضَّرَ مِنها أَهلُها فُرَضَ البحــرِ [3]
تكَلَّلُ بالتَّرْعيبِ . مِنْ قَمَعِ الذرى إذا لم يُنَلْ عَبطُ العوالي مِنَ الخُزْرِ [4]
مِن الشُّهْبِ أكتافاً . تُناخُ إذا شَتا وحُبَّ القُتارُ بالمهَنَّدَةِ البُتـــرِ [5]

١ – ٢ – السُّدة : موضع الباب في مسجد الكوفة ، كانوا يجتمعون عنده للعطاء . الناهل : العطشان . الجوابي : الحياض .

م : أي أن الناس الذين يهرعون إلى مسجد الكوفة لينالوا الأعطيات ، ليسوا أسرع إلى ذلك المكان منهم إلى بيته . كما أن الظمآن الذي انقطع عن الماء عشرة أيام ، ليس بأسرع إلى ارتياد حياض الماء من الذين يهرعون إلى قصره لنيل أعطياته .

٣ – الشِّيزَى : القُدور . الفُرْضة : محطة السفن في البحر .

م : يقول إنهم يعدّون لضيوفهم الطعام في قدور كبيرة ثقيلة ، كأنها الفُرَض التي ترسو فيها سفن البحر .

٤ – الترعيب : الامتلاء من اللّحم الشهيّ . قَمَع الذُّرى : أعلاها ، أي السّنام . عَبْطُ العوالي : عقرها طريّة . الخُزْر : جمع أخزر : الضيّق العين .

م : يقول إن قدورهم تجلّل وتعبأ باللحم الشّهي من الأسنمة ، إذ لم يقدّر لهم أن يذبحوا إبلهم العظمية الهامة ، الخزراء .

٥ – الشّهْب أكتافاً : أي أن ذروة سنامها تقع على أكتافها .

م : يصف سمنها ويقول إن سنامها يطفو على أكتافها . ومع ذلك ، فإنّ الممدوح لا يحرج من نحرها ، عندما يعمّ القحط وتطيبُ للناس رائحة القُتار ، أي اللّحم المَشْوي .

أما إلحافه بذكر ما منّ به عليه الأمويّون من حماية ومناصرة ، فقد عرض له منذ مدائحه الأولى في يزيد . ولم تكد تخلو منه أية قصيدة أخرى خصّ بها ممدوحيه من الخلفاء والامراء كبشر أو خالد بن أسيد . فلتراجع في مظانّها .

ب — **التأثر بواقع الممدوح** : ومن خلال النماذج والمقطوعات التي قدّمنا ذكرها . تبيّن لنا ان الأخطل يوقّع معاني قصائده ومضامينها بالنسبة إلى واقع الاشخاص الذين يمتدحهم . فهو إذ أنشد يزيد بن معاوية مدائحه . لم يؤلّب ويحتشد له . كما أنه لم يُحطه بهالة من البطولة والخارقة . إذ ان الممدوح لم يكن . وقتئذ، على شيء من ذلك . بل كان فتى ممراحاً ، مترفاً، يسابق بين الخيول ويتفرّغ لمجالس اللهو في الحواضر والبوادي . وكان من جرّاء ذلك أن طغت الموضوعات الوصفيّة على مدائحه فيه . واستطالت بما جعلها تعفّي على ما دونها .

ولقد جرى على ذلك الغرار في امتداح عبدالله بن معاوية وخالد بن يزيد ومن اليهما . إذ كان يستطرد الى موضوع المدح المباشر والتغني بمآثر الممدوح الذاتية وينصرف الى الاشادة بنجابة أصله وسؤدد والده ، أو من تحدّر منهم . فمدائح الأخطل لا تزوّر للممدوح صورة تتعاظم عليه ولا تليق به . ومع أنّه يغالي قليلا أو كثيراً في شعره المدحي ، فإنه ينطلق فيه ، دائماً ، من نقطة انطلاق واقعيّة ، فعليّة ، تُمكّن لقوله وتمنعه فيه من الجنوح الى التّرهات والتفشير .

وعلى نقيض ذلك مدحه لعبد الملك ، إذ أنه أخذ فيه بالجانب الملحميّ من سيرة الممدوح ، وصدر عنه وانطلق منه ، معظماً ، مغالياً ، مبتدعاً للبطش والقوّة من الأوصاف والأحداث والصور الحسيّة ما لا يُجارى أو يبارى . ولقد خفتت نبرته الملحميّة فيما دون ذلك من مدائح ، إذ كان يحشد المعاني المدحيّة العامّة ، ذاك أنّه لم يؤخذ ببطوله أي من الممدوحين ، كما أخذ ببطولة عبد الملك . واذ كان هذا الأخير يحرص على التمكين لخلافته بتأكيد الصفة الدينيّة لها ، تولى الأخطل ذلك له وانخرط في سبيله ، فاذا هو يدعوه « خليفة الله » ، « يُستسقى به المطر » ، وإذا الله قد خصّه بحظٍّ تقصّر عنه سائر الحظوظ ، وإذا هو لا يقاتل

لتوطيد الملك والسلطة . بل لردّ الكفار الخارجين على نهج الدّين . وما الى ذلك من معانٍ تظهر وتضمر عبر قصائده ، كما بيّنا .

واذا نظرنا فيما امتدح به بشر بن مروان ، لطالعنا بأجواء تماثل ما امتدح به يزيد ، حيناً . وبأجواء أخرى تماثل ما امتدح به عبد الملك ؛ ذاك أنه أخذ فيه بروعة البطولة من تصدّيه للأعاجم والخوارج ، وروعة الجاه والثراء واللهو ، فألف بين هاتين الحالتين في مدائحه . ولعلّه خصّ خالد بن أسيد في لاميته المطوّلة بالشكوى من الأمويين لأنه أنف من التعرّض لعبد الملك بذلك . فشعره يوافق مقتضى الحال في المدح ، يؤدي فيه للممدوح الشهادة التي توافق هواه وحاجته . ومثل ذلك تكراره الاشادة بأخوال الوليد العبسيين ، إذ كان الخليفة يؤثر ذلك ويطرب له غاية الطرب .

ج – **ايلاج همومه ومنازعه الشخصية والقبلية في متن القصيدة** : وللأخطل حضور يهيمن به على معظم القصائد التي نظمها في مدح سواه . وهذا الحضور يتباين ويتعاظم ويتضاءل بالنسبة الى الممدوح وموقفه منه ومدى اتّصاله ودالته عليه أو تواقعه معه في الأمور الذاتيّة والقبليّة . ونكاد لا نعثر على قصيدة له في المدح ، دون أن يُلحف فيها ، مثلاً ، بذكر حماية الأمويين له والأمان الذي منّوا به عليه ، . يُعلّل ذلك ويتمطّى به في كل وجه واسلوب ، ليتقرّب من خلاله اليهم ويظهر عظم ما تكبّد في سبيلهم . وهو لم يغفل عن ذلك حتى في أواخر أيامه حين كان يمدح الوليد بن عبد الملك . وسوف نعرض الى هذا الأمر بالتفصيل في مقابلتنا بين شعره وشعر النابغة . وبعد ان التزمت قبيلته بجانب الدّفاع عن الدولة والتحمت لها في مواقع كثيرة ، وقام التنازع بينها وبين البلاط في الوفاء بالعهد والترجّح فيه بينهم وبين القيسيين ، تغلّبت هموم الشاعر القبليّة على همومه الفرديّة ، وجعل يؤدّي البيّنات والحجج ، ذاكراً اسماء الأعداء والوقائع ، متخلصاً الى التمنين ، حيناً ، والى التهديد والنُّصح والتحذير ، في أحيان أخرى .

وفي تلك القصائد يخلع الشاعر عن نفسه صفة الشاعر المدّاح ، المستجدي ،

ليقيم من دونها صورة المحامي ، المنافح عن الحق، والمدافع عن قبيلته في نبرة لا تخلو من العنجهيّة الظاهرة أو المضمرة . وقد تمازج ، من جراء ذلك ، فنون شعريّة متعدّدة في شعره . تترجّح بين الفخر والمدح والهجاء . وان كان الفن الأول أغلب عليها . ذاك أنّه يستحضر فيها همومه . جميعاً . بل ان منازعه تتسرّب اليها ، فتراه واصفاً الخمرة . متلوّماً على المرأة ، ناعياً عليها غدرها وتقلّبها . متغنيّاً بالمفازة والرّاحلة ، ثم تراه ينقضُ على خصمه جرير في أبيات تكثر أو تقلُّ . دون أن يتضاءل فيها قدر العتوّ والحماس . وربما استحالت قصيدته الى شبه معلّقة ذاتيّة تسيطر عليها الهموم والمنازعات الفرديّة والقبليّة .

وعلى العموم يمكن أن نصنّف معانيه المدحيّة في صنفين ، يؤدي في أحدهما المعاني العامّة كالكرم وحبّ الضيافة والنجدة في زمن الضيق وشرف الأصل وما أشبه . ويسوق في الثاني المعاني المتصلة بواقعه من الممدوح حيث يختلف بين الرِّضا والامتنان والغضب والتهديد والتقريع وما الى ذلك .

د – **الافادة من شعر سابقيه** : ألمّ الأخطل بالمدح ، وقد استقام على سنّة وجرى على عمود معروف ، أكان ذلك في طبائع الاسلوب وأنواع الموضوعات الوالجة ، فضلاً عن المعاني والصور . فقد تمرّس به ، قبلاً ، شعراء عديدون جرى على رأسهم النابغة والأعشى . ولقد اتخذ منهما ومن سواهما تقاليد المقدّمة الطّلليّة وذكر المطيّة وهلاكها في المفاوز والمتاهات وتقلقل أحزمتها عليها وتنقّب أخفاقها وطرحها للأجنّة على الطريق . ولقد شغف الأخطل شغفاً خاصاً بالموضوعات الوصفيّة في القصيدة المدحيّة ، فتراه يسعى بها في كلّ اتجاه ويرصد لها كل احتمال ويعقّب عليها بكل وصف،ولا يستنفدها أو ينهكها إلا بعد أن يتفرّغ لذلك في أبيات قد تستأثر ، أحياناً . بنصف القصيدة أو بثلثيها . وربما اعترض بوصف بعض الطيور والبهائم كالغراب والثعلب والضّبّ وبعض عناصر الطبيعة كالبرق والرّعد والمطر ، إذ كانت نفسه تأنس بها وتطرب لها ، وكان النابغة والأعشى ألمّا بمثل ذلك في حدود تماثل ما ذهب إليه الأخطل منه . وكما تغنّى

الأعشى بالخمرة في مواضع كثيرة من مدائحه تغنّى بها الأخطل ، كذلك ، وان لم يُضاهه أو يبزّه . فالأعشى كان أدنى في شعره الى مواقعة الحياة في جانبها الحسي والجنسيّ ، يُفصح عن ذلك بقدر ما يلمح ، ولا يكاد يجاريه شاعر في التعبير عن اللذة السادية ، المتمادية المسيّرة لقدر صاحبها وقدر الناس كلّهم . فهو من هذا القبيل يقرن بامرىء القيس وحسب ، وهما ، جميعاً ، شاعر الحياة التي يحياها الانسان بكل شهواته وغرائزه ، ويتلمّظ فيها حتى الفسق والموبقة . فالأخطل يَعرض للخمرة والمرأة في مدائحه ، إلا أنك تظلُّ تشعر ان الصِّفةالأدبية التقليديّة تغلب على تجربته ، إذ انه لم يكن من الشعراء الوجوديين الذين يقفون في شعرهم موقفاً من الحياة وأقدارها وقيمها . فخمرة الأعشى ولذّة امرىء القيس صدرا عن نفس صاحبيهما بمثل الموقف الفلسفي الغامض الأصم . أما الخمرة في شعر الأخطل، فانها خمرة زهو وطرب لا يذهب فيها مذهب اللذة المطلقة . المستولية على كل قيمة من دونها . فنفس الأخطل هي أدنى بذلك الى نفس النابغة . إذ كلاهما كان يقف من الوجود موقفاً جمالياً ، إذا جاز التعبير ، يراوده باللفظة والصورة والفكرة . ولا يتواقع معه بالرّفض والعصيان ، ولا يتعارض مع ابنائه في مفاهيم الحلال والحرام وغاية الحياة وما دونها . فهموم الأخطل والنّابغة هي هموم طارئة . في خسارة أو فشل، في نيل مأرب وتعذّر آخر ، أما هموم امرىء القيس وطرفة ، مثلاً ، فهي هموم ملازمة لأنها متصلة بالحياة ذاتها . بباطلها ولا جدواها وموتها في ذيل الثواني التي تلدها . لهذا يمكننا القول أن الأخطل هو من شعراء المدح او الهجاء او الخمرة . وليس من شعراء الوجدانيّة الوجوديّة الكالحة التي ترنّ في قاعها الدّقائق كاجراس الحزن الناعية لموت الزمن وهروب الاشياء واندحارها .

فالأخطل ، عبر مقدّماته الطويلة للمدائح ، هو شاعر وصف أكثر مما هو شاعر موقف عام ، يروّض الظواهر ويتروّض بها ، في اللّفظ . كالنابغة ، يتخذ جانباً منها يغالي به ويدرك مثاله ، ولكنه لا يهدمه ويبنيه من جديد بالرؤيا التي تشاهده من الداخل . وهو لم يقتبس من النابغة هذه الطبيعة المهادنة ، المسالمة من

الوجود ومظاهره وأشيائه ، بل استعار منه تكنية التعبير عن المعاني واسلوب تأديتها وتوقيعها . مثال ذلك تعبيره عن الخوف الذي يستبدُّ به ، عندما أهدر معاوية دمه للأنصار ، وقد جعل يعظم من أمره ، ويمثله بكل مثال ، فهو حيناً قائم منه على حدبار أو متردٍّ في قعر الهاوية ، وحيناً آخر يعاني مثل لذع الحيّة ، وهي معان استنفدت في اعتذاريّات النابغة ، كما قدَّمنا . وإذا كانت الغاية من ذلك تَبَايَنَتْ بين الشاعرين ، فانّهما صدرا عن اسلوبٍ نفسيٍّ واحد . وهما يتجاريان ، كذلك ، في الأجواء الملحميّة التي يسبغانها على الممدوح بحيث انك لا تجد تمايزاً شديداً بين صورة النعمان وصورة عبد الملك ، وان تباينت بعض الاعراض والجزئيات التاريخيّة الواقعيّة . إلا أن النابغة ، كدأبه ، بدا أنأى خيالاً وأقصى تناولاً للأشياء . فقوله :

الا سليمان إذ قال الالــه لــه قـم في البريَّة واحددهـا عن الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجنَّ ، إنـي قد أَذنت لهم يبنون تُدْمر بالصفَّاح والصمـد

هو أنأى من قول الأخطل :

مقدّم مائتي أَلْفٍ لمنـزلـه ما أَن رأَتْ مثلهم جـنٌّ ولا بَشَرُ
يغشي القناطر يبنيها ويهدمهـا مسوَّم فوقـه الرَّايـات والقَترُ

ذاك أن النابغة توسّل الأجواء الأسطوريّة الموحية التي لا حدَّ لها ، فيما تَوَسَّل الأخطل الأحداث الواقعيّة الحاشدة ، المتّصفة بخصائص الفنّية الأخطليّة ، أي الانتخاب والعزل والغلوّ ، وفقاً لتحسّسه بروح الأشياء وطبائعها . إلا أن الشاعرين ، جميعاً ، يتوسّلان القتال في مشاهده المأثورة لتجسيد البطولة ، يتولّى النابغة ظاهرة أو ظاهرتين في أقصى حدودهما ويتألّب عليهما تعليلاً وتأويلاً وافتراضاً كوصفه لبطولة الغساسنة من خلال سيوفهم مغرقاً في تمجيد تلك السيوف ، منيطاً بها من القدرة ما يدعها تقدُّ الأدرع المضاعفة وتقدح الشرر في الحجارة الصلبة .

ومثل ذلك ذكره للطير التي تسعى ، إثر جيوشهم ، طمعاً بافتراس القتلى . وربما دخل في روعه من ذلك أنَّ عزل الظاهرة ومدَّها إلى أقصى أبعادها ، يغني عمّا دونها أو يوحي ويُوهم به . وقد يجاري الأخطل هذا الاسلوب . كما قد يُضفي عليه قليلاً أو كثيراً من الجزئيّات ، دون أن يُضائل من قدر الغلوِّ الملحمي . والشاعران كلاهما يصفان الخيل وما أصابها من ضمور وهلاك ووجاها وجراحها كأداة لتجسيد بطولة أصحابها ، وقد اقتبس الأخطل وصف الكرم عن النابغة والأعشى ومن اليهما بحيث تماثلت المشاهد والصِّيغ والأساليب ، كما قدَّمنا . وفضلاً عن هذا وذاك كلّه يقتفي الأخطل على ذيل النابغة في توقيع العبارة وبثِّ الشّجو والذهول في حناياها . ممّا سنتعرَّض له في بحثنا عن طبائعه الفنيّة العامّة .

ه – **الافادة من المثل العليا والبيئة الجاهلية** : ومع أن الأخطل عايش البيئة الجديدة في الحاضرة الامويّة ، واطلع على قليل أو كثير من تعاليم الدين الجديد ، فإنّه أشاح عن واقع عصره في بيئته الماديّة وفي مثله العليا الدينيّة ، وظل يترسّم . عبر مدائحه . مثالاً أعلى مستوحى من واقع العصر الجاهلي . لا شكَّ أنّه امتدح عبد الملك بصفته الدينيّة ومكّن له ولسواه من الأمويّين بها ، كما أنّه تواقع في شؤون السياسة والنزاع القبلي . الا أنه، عبر ذلك كلّه ،كان يستحضر صورة البطل أو الفارس الجاهلي الذي يأنف من العار والذُلّ ويجزع من الضيم ويَهُبُّ للنجدة والاغاثة ، ينحر النياق ويطعم ويهدي الابل والجواري ويعطي الدَّراهم بالآلاف الكثيرة ؛ فهو بطل عربيٌّ اعتنق الاسلام . فغدا كجزءٍ من شخصيته ولم يستول عليها ، جميعاً . أما من الناحية الماديّة . فقد ألمَّ الأخطل بوصف السفن خلال إحدى مدائحه ، وخصَّها بدقائق تنمُّ عن تجربته الخالية . كما سنبيّن . وفيما عدا ذلك تهيمن أجواء الصحراء . يستعير منها موضوعاته كوصف الطّلل والمفازة والهاجرة والسراب والغراب والثعلب وكثبان الرَّمل والنخيل ، وهو يستمد منها ، أيضاً ، صوره والأحداث التي يتكنّى بها على المعاني .

فذاكرته وخواطره محشودة حشداً هائلاً ومكتظّة اكتظاظاً عميقاً بتجارب الصحراء ومشاهدها ، حتى ليمكننا القول إن مسافة زمنيّة تفصل بين شعره والشعر الجاهلي - من الناحيّة السياسية، فيما تلفيه وكأنّ الزمان متحجّر بالنسبة إليه من الناحية الفنيّة والنفسيّة .

هذا ما رأينا أن نشير اليه بصدد مدائحه ، على أن نؤجل دراسة فنّيتها للفصل الأخير حيث نتولى خصائصه الفنيّة العامة .

* * * * *

الفصل الثالث

أهاجيه

الباب الأول : بواعث الهجاء في شعره

الباب الثاني : أهاجيه في جرير

الباب الثالث : أهاجيه في القيسيين وأحلافهم

الباب الرابع : سائر أهاجيه

الباب الاول

بواعث الهجاء في شعره

قدَّمنا أن الأخطل شُهر ، في مطلع عَهْده ، بالهجاء وأنَّه توَاقَعَ مع ابني جُعَيْل ومن إليهما وأنَّه كان يَنْفث الشِّعر بمثل « لسان الثوْر » . ولعلَّ شهرته لم تَذُعْ في القبائل ولم تُمَكَّن له في البلاط الأموي إلاَّ إثر هجائه للأنصار وافحامهم عن الأمويِّين ، في قصيدة مأثورة . غير أن أحداث الحياة تداوَلَتْهُ ، فلم يتكرَّس للهجاء تكرُّس الحُطَيْئَة ، من قبل ، وجرير وبشَّار ودعبل وابن الرُّومي ، من بعد . وقد فاضل مُعَاصروه بَيْنه وبين جرير والفرزدق ، فآثروه في المدح والخمرة وآثروا عليه جريراً في الهجاء . وقد نَخْلص من ذلك كلّه إلى أنَّ الهجاء لَيْس الفنَّ الأظْهر على شعره ، وإن كان يجاري فيه مُنَافسيه عليه ولا يُقصّر كثيراً عن جرير ، بل ربَّما تَفَوَّق عليه في بعض أهاجيه . ويُمكن أن نُوجز بواعث الهجاء في شعره بعامل ذاتيٍّ ، أي بطبع الشَّاعر الّذي طُبِعَ عليه . فهو قد هجا زوج والده وراغمها ، كما أنه لم يَحْفل بابن جُعَيْل ، بل ثَلَبَه ، وهو يَنْعم بالجاه والثَّراء في بلاط معاوية . ولعل لَقَبَه ، كما بيّنا ، لم يَلْحَقْ به إلا للتَّدليل على شدَّة لسانه واقذاعه فيه ومعارضته به سائر القَوْم . غير أن الأخطل لم يكن يَصْدر في هجائه عن العاهة واللَّعنة ، أي أنَّه لم يكن مشوبَ الأصل كالحُطَيْئة ، لتَعُمَّ نَقْمَتُه وتستأثر بسائر نزعاته وميوله ، فيَثْلب الحياة وأبناءها ويُنَادي بالوَيْل والثُّبور ويتمنَّى الخراب والهلاك . ويُمكننا القَوْل ، إثر ذلك ، إنَّ هجاء الأخطل هو ، في نقطة إنطلاقه ، هجاء أدبيّ ، إذا جاز التعبير ، يتروَّض فيه على صناعة القول ويلمُّ منه بسائر موضوعاته ووجوهه . فهو يتَقَصَّى في العاهات ، لكنَّه لا يَعْزلها ولا يُنْعم بالتَّحديق فيها عبر نظرةٍ تشاؤُميَّة عامّة تَنْعى على الإنسان خُبْثَ طينته وفساد جَوْهره . إلا أن تَوَاقُعَه مع الأحداث والأشخاص طبع بعض أهاجيه بطابع الوِتْر الذَّاتيّ والنَّقمة ، دون أن يَسوقه ذلك إلى تتبّع العاهات

والصّدور فيها عن شعُور عام بفجيعة الحياة وهلاك أبنائها . ثم أن معظم النّقائص الّتي يَهْجو بها مَهْجويه هي من النّقائص العامّة الجارية في تقليد الهجاء وسنّته . يُضْفي عليها ويَضْفُرها بقليل أو كثير من الغلوّ . لكنّه لا يستنبطُ قط العاهات الّتي تنمُّ عن حالة مَرَضيّة في نفس الشّاعر . وفضلاً عن ذلك كُلّه . فان الأخطل كان يُقبل على الحياة اقبالةَ شهوة ونَشْوة ، يَتَرنّم بها . كما إنه كان يَعْتزّ بتاريخ قبيلته ومآثر بني قومه . ممّا عفّى في نفسه على الثّارات الدّائمة الّتي لا يَنْجع فيها دواء ، ولا يُعزّيها عزاء .

الباب الثاني

أهاجيه في جرير

قدّمنا بحثاً في الأسباب الّتي أوقعَتْ بين الأخطل وجرير ، ممّا لا مجال ولا جدوى من تكراره . وإنّما نَوَدُّ أن نُشير . هنا . إلى أنَّ الهجاء استحال بينهما إلى تَهَاج . أو ما عُرف بالنّقائض . وهي قصائد تجري على رويٍّ ووزن متشابهَيْن ، تَنْقُضُ إحداهما المعاني الّتي سَلَفَتْ في الأخْرى. بل إنّها تسفّهها وتُزْري بها كُلَّ إزراء . وإذا كان الهجاء الجاهليُّ يعرض للفرد أو القبيلة في معان محدّدة ، هي نقيضُ الفضائل الجاري عليها المدح ، فإن الشّعر الأمويَّ كرّس ذلك النّوع من الهجاء الّذي يَتَواقع ويتثالب فيه شعراء مُحْترفون ، يشايع كلُّ منهم قوماً أو قبيلة ، يؤلّب لها وعلى أعدائها ، ويقدح فيمن يشايعها ويُدافع عنها . والنّاظر في ديوان الأخطل . من هذا القبيل ، يجد أنّه نظم في الهجاء قصائد مُتَعَدّدة ، أهمّها في جرير والقَيْسيّين . وفي أفراد وقبائل أخرى ، إلا أن هذه القصائد يتضاءل عددُها بالنّسبة إلى قصائد المدح . كما أن أبياتها لا تتطاول ولا تُنْتَظَمُ في مقدّمات واستطرادات مأثورة ، فهي قليلة الأبْيات نسبيّاً . وان كان الشّاعر يَحْشد فيها حَشْدَه ويتدافع فيها تدافعاً كالسّيْل الغاضب . الهادر .

وللأخطل في ذلك أسلوبان ، نقعُ على أحدهما في الأهاجي المبثوثة عبر المدائح والمفاخر ، كجزء من قصيدة كاملة ، ونقع على الآخر في القصائد الهجائيَّة المستقلَّة بغرض الهجاء مع قليل أو كثير من الأبيات الَّتي تُخصَّص لمطالع الطلَل والغزَل أَو ما أشبه .

وقد غلبت القصائد الهجائيَّة المستقلَّة على ما دونها ، وبخاصة في هجائه لجرير : إلا أن الفخر كان يجانبها ويطغى عليها ، أحياناً ، فيما نراه يُوازي ، غالباً ، الهجاء في تلك القصائد الَّتي تعرَّض فيها للقَيْسيِّين . ويُمكننا القَوْل أن الفخر والهجاء يمْتزجان في معظم تلك القصائد بحَيْث تتضاعفُ زرايتُه خلال تَعاظُمه بنفسه . فالفخر يُعمِّق المعاني الهجائيَّة ويكْمِلُ شوط الشَّاعر بها . وربَّما كان أَجدى أن نَسوقَ دراسةً في الفخر والهجاء معاً ، لولا تعذُّر هذا السَّبيل واستحالتُه . وقد عزمنا على أَن نؤلِّف بين هذين الفنَّين ما أمكننا ذلك في سياق الدِّراسة .

وفيما دون ذلك نقول إن مُهاجاة جرير كانَتْ أحد الهموم التي يتنازع بها الأخطل . تراه يَنْقَضُّ عليه ويَثْلُبُه في قصائد مدحيَّة كالَّتي تغنَّى فيها ببطولة عبد الملك . فهو يعترض عبر رائيَّته الشَّهيرة بالأبيات التَّالية التي نحلّلها كنموذج من هجائه لجرير .

تحليل نموذج من هجائه لجرير

أمَّا كُلَيْبُ بنُ يَربُوعٍ ، فليْسَ لهُمْ عِنْدَ التَّفارُطِ إيرادٌ ولا صدَرُ ١

مُخَلَّفونَ ، وَيَقْضي النَّاسُ أَمْرَهُمُ وَهُمْ بغَيْبٍ وفي عَمْياءَ ما شَعَروا ٢

---

١ ــ التَّفارُط : التقدُّم إلى الماء في زحمة من النَّاس . وَرَدَ : أقبل على الماء . صَدَرَ : عاد منه .
م يمثّل قلّة شأن بني يَربوع ، قوم جرير ، ويقول إنّه إذ يجتمع القَوْم مُتزاحمين على ورود الماء ، فإنّهم يُخلّفون في الذّيل ، لا يَرِدون ولا يصدرون .

٢ ــ م يقول إنّهم قاصرون ، أذلاّء ، لا يملكون زمام أمرهم ، يَقْضي به النّاس عنهم ، وهم غافلون لا يُلمّون بشيء ولا يشعرون به .

مُلَطَّمونَ بأَعْقـارِ الحياضِ ، فمـا يَنْفَكُّ مِنْ دارميّ فيهـمِ أَثـرُ ١
بئس الصُّحاةُ ، وبئس الشَّرْبُ شَرْبُهُمُ إذا جرى فيهِمِ المُزَّاءُ والسَّكَرُ ٢
قَوْمٌ أَنابَتْ إليهِمْ كـلُّ مُخْزِيـةٍ وكُلُّ فاحِشَةٍ سُبَّتْ بهـا مُضَرُ ٣
على العِيارات هَدّاجونَ ، قَدْ بَلَغَتْ نَجْرَانَ ، أَوْ حُدِّثَتْ سوءاتِهِمْ هَجَرُ ٤
أَلآكلون خَبيثَ الزّادِ ، وحْدَهُـمُ والسّائلون بظَهْرِ الغَيْبِ ما الخبرُ ٥
واذْكُرْ غُدانَةَ عِدَّانـاً مُزَنَّمـةً مِن الحَبَلَّقِ تُبْنَى حوْلها الصِّيَرُ ٦

---

١ ــ أعْقار : جمع عقر وهو مؤخّر الحوض . الدّارميّ : نسبة إلى دارم أحد جدود الفَرَزْدق .
م يكرّر المعنى الأسبق ويقول إنّهم إذ يردون بإبلهم الماء ، يخلّفون وراء الجميع ، ينكّل بهم الدارميون ، ويخلّفون فيلم آثار زجرهم وضربهم لهم .

٢ ــ المزّاء : الخمرة التي طعمها بين الحلاوة والحموضة .
م يقول إن بني يربوع سيّئو الخلق ، سفهاء ، أكانوا سكارى أم صحاة . أي أن أخلاقهم هي اخلاق المُجون دون أن يَحتسوا لذلك خمراً .

٣ ــ م يقول إنّ المخازي والفواحش التي سُبّت بها مُضَر وعيبت عليها ، لا تزال تنسب إليهم وتتّصل بهم .

٤ ــ العِيارات : جمع عير ، أي الحمار . هدّاجونَ ؛ من هدج ، أي سار سيراً ضعيفاً . هَجَرُ : موضع .
م يقول إنهم لا يزالون يسعون ببطء على الحمير ، أي أنّهم ليسوا بفرسان يَمْتطون الخَيْل أو الإبل ، وإن أنباء مساوئهم قد تذيّعت وانتشرت في النّاس ، حتى أدركت الأمكنة القصيّة .

٥ ــ يقول إنّهم لبخلهم يأكلون زادهم الخبيث ، منفردين ، ولا يشركهم فيه ضيف أو جار ، وإنهم مغفّلون ، لا يُطْلعون على الأمور ولا يستشارون بها ، بل تَراهم يسألون عنها دون معرفة بها ، كالدّهماء الذين لا شأن لهم .

٦ ــ غُدانة : من بني يربوع . العِدّان : جماعة من المعزى . مُزَنّمة : التي تدلّى من حلقها .
م يمثّل بني غدانة بجماعة من المعزى الصّغيرة التي تُزْرب في الزّرائب .

ومن البيّن أنّ الأخطل يصْدر عن تكنيّة فنيّة واحدة في شعره ، جميعاً ، أكان مدحيّاً أم هجائيّاً . فهو يأنف ، غالباً ، من المعنى التّقريريّ المجرّد ، ويكسوه بالأطُر والمشاهد الحسيّة الّتي تضمره وتُمثّله في حدود البيئة الماديّة والاجتماعيّة. فبَنُو كُلَيْب يُزْجرون عن الماء ، لا يَرِدُونه ولا يَصْدرون عنه ، كما أنّهم يفدون في أعقاب النّاس وذيلهم . ومؤدّى ذلك أنّهم قَوْم اذلاّء ، لا شأن ولا هَيْبَةَ لهم . فالزّراية قامت هنا على اقتباس مشهد واقعيٍّ ، ماديٍّ ، مأثور في البيئة العربيّة ، إذ يفد القوم إلى الماء ، فيتقدّمهم عليه أشدّهم بأساً وصولةً . وقد استعار الأخطل ذلك المشهد وأناطه ببني كُلَيْب ليزيلَ عنهم صفة التقدّم والبطولة وليس في مثل هذا القول شتيمة صريحة ، وان كان يَنْطوي على ما هو أحدُّ وأقذع منها . كما أنّ الأخطل لا يترصّد فيهم عاهةً مَرَضيّة خاصة ، بل أمراً عامّاً ، وفقاً للمثل العليا القائمة في عصره والّتي تصدر عن الايمان بالقوّة كعنصر نهائيٍّ أخير للتّفاضُل بين القوم . ولقد أنْفذ الأخْطل فيهم مِخلب العار بالموقف النّفسيّ المستفاد من قيم العصر . وهو يكرّر ذلك ويُضَاعف عن وقعه بقوله : « مُخَلَّفون ، ويقضي النّاسُ أمْرَهُمُ ». وقد جاءتْ لفظة : «مخلّفون » في إطار حسّي كنعت مباشر عيّن بها مَوْقعهم من الآخرين . فهم في الخَلْف ، وسائر النّاس أمامهم ، يَقْضون بأمرهم عنهم . والأخطل يتبدّى ، هنا ، ابن بيئته ونفسيّته ، يَزْهوه القيام أمام القَوْم بنوع من العاطفة البدائيّة ، الطّفلة . فهذا هجاء جاهلي وان نظم في العصر الأموي لسذاجة عاطفته واحتفاله بأمور لا يَحْتفل بها ولا يأبه لها الحضري الرّصين . فالتّقدّم والتّخلّف لا يَقَع معناهما مَوْقعه إلا في النّفس البدائية الّتي تَطْرب للانفعالات العنيفة ، وان كانت فاقدة المضمون الإنساني .

وللأخطل دُربة أُخرى في تأدية المعنى إذ لا يُصرّح به ولا يُلْمح إليه ، بل يَسْتَبْطنُه ويخلُص إلى نتيجته . فهو إذ يَنْعتهم بالقول إن النّاس يَقْضون عنهم أمرهم إنّما يَدْعوهم ، في الواقع ، عبيداً ، دُون أن يُسَمّيهم بهذه التّسْمية . فالعبد ، دون الحرّ ، هو الّذي لا يَمْلك أمره ، يتولاّه عنه سيْده . وبذلك

يَسْتحيلون إلى جماعة من العبيد والإماء . ويردف ، إثر ذلك ، « وهُمْ بغَيْبٍ وفي عمياءَ ما شعروا » والقوم المقيمون في الغيب هم الّذين لا يحضرون مجالس الرَّأي وأنْديته. وقد كان الغَيْب سبيلاً دائماً للمذمَّة ، عند العرب ، لأنَّه يُغَيِّبُ من يَنْتجعه عن عيون النّاس خوفاً من ملاقاة الأعداء أو استبقال الضّيفان . وفضلاً عن ذلك كُلّه يُنْمي الشّاعر إليهم الحُمْق والغباء ، لا يَفْطنون إلى ما يجري بهم وعليْهم .

واثر تلك الصُّورة الّتي قرنهم فيها بالعبيد ، يَنْثني فيَقْرنُهم بالبهائم والكلاب في قوله : « مُلَطَّمون بأعقار الحياض » ، فكأن من يلتقيهم يزجرهم ويلطمهم شأنهم شأن الكلاب .

إلاَّ أنَّ الأخطل يمتدح الدَّارميِّين من خلالهم إذ يَجْعلهم هم القائمين على الحوض يَلْطمون قوم جرير عنه . وهو في ذلك يُجاري أُسلوباً نفسيّاً قائماً يعِفُّ فيه عن القَوْل المباشر النّازع منزع النّثر والمُتَحوِّل إلى ما يُشْبه السِّباب من تسمية الأشياء باسمائها ، فتراه يُشاهدها في إطارها الحسِّي حيث تُوفي إلى ذُرْوة دلالتها وإيحائيَّتها . ولو أنّه تَعَجَّل التَّعبير أو استَصْرَحَهُ ، فقرنهم بالعبيد والبهائم في مقارنة واعية لاستحال الهجاء إلى حركة أو إلى تصرُّف من حركات الدَّهماء وتصرُّفاتهم . فالأخطلُ لا يتَخلّى عن وقاره في الهجاء ولا عن تكنيتّه الفنّية القائمة على استحضار المعاني في أُطرها الخاصّة بها . فهو لا يَهْجوهم بالحُمْق المباشر ، بل يَجْعل صَحْوهم كسكرهم وسكرهم كصحوهم ، فكأَنَّ الخمرة لا تغيِّر من أحوالهم ، إذ أنَّهم يَتَبَاذأون ويَتَمَاجنون ، في كُلِّ غداة ، أو لأنهم طُبعوا على ذلك في طباعهم . ولنتمثَّل واقع أولئك القوم ، وهو يتصايحون ويفحش أحدهم بالآخر ولا يكفُّون عن ذلك قط . هكذا يعفُّ الأخطل عن الثّلب بألفاظه فيتكنّى عنه بما يوازيه . فبدلاً من أن يقول إنّهم ذوو فحش ومجون وتهتّك ، وهي من التعابير الفاقدة الدَّلالة لأنها من عالم النّثر ألمَّ بذلك كُلِّه وألمح إليه وعمّقه من المساواة بين صحوهم وسكرهم .

وإذا كان القول نمَّ عن نفسيّة القائل ، فإنه نمَّ عن عفّة الأخطل ، وهي مأثورة عنه حتى إنك قلما تقع في ديوانه على لفظة نابية بخلاف خصمه جرير ، وهو النّاشيءُ

في بيئة حقيرة إذ تراه يطْرَبُ للفُحْش ، يسمّيه باسمائه ويتداولها كُلَّ تداول ممّا لا مجال لذكره . نقول في مثل ذلك أن الصِّفة الفنّية الجماليَّة هي الغالبة على منازع الأخطل في شعره وأنه فلّما يَسيغُ الإقذاع الّذي يُدمي ، إذا لم يؤدّه في حلّة جماليّة لا تتباين عن حلّته في المدائح والأوصاف وما إليها . وإذا ما اضطرّ إلى تأدية المعنى باللّفظ المجرّد ، من دون الصُّورة ، يتخيّر منه اللّفظة العامّة الّتي تُوحي بالمعنى ولا تُفَصِّل فيه كقوله :

قَوْمٌ أنابت إلَيْهم كُـلُّ مُخْزِيـــةٍ   وَكُلُّ فاحِشَةٍ سُبَّتْ بِهَـــا مَضَرُ

فأنت تراه وقد اقتصر على لَفْظَتَي « مخزية وفاحشة » وهما تُلْمحان إلى العار والفُحْش ولكنّهما لا تُفَصِّلان فيه ولا تسمّيان المعاني باسمائها المُقْذعة . لا شكَّ أن مثْل هذه التّعابير تُضْعفُ من وَقْع المعنى لأنّها قائمة على اللّفظ المجرّد . إلا أن الأخطل يبثُّ فيها حدّة وشدّة إذ يوقّعها عبر صيغة ظاهرة من صيغ الإطلاق والتّعميم بل في صيغة التّعميم اللّفظي : « كُلّ مخزية وكُلّ فاحشة»، وقد جاءت لفظة « كل » لتمنح المعنى الغُلوّ بالاطلاق ، وهو أسلوب أدنى فنّياً من أسلوب الكناية الحسيّة التي تقتبس من أديم الواقع وتعزل عنه وتصقله بحيث توفي منه إلى غاية الاطلاق والغلوّ ، دون أن تتوسّل بألفاظهما .

واثر ذلك تراه ينثني إلى الكناية الحاملة معنى الزراية بذاتها من قوله : « على العيارات هدّاجون » . وقد لا نبلغ إلى أقصى غايته من هذا القَوْل إذا لم نتمثّله في حدود البيئة العربيّة القائمة على مُثُل الفروسيّة. ولا يزال النّابغة والأخطل أو من إليهما يُشيدان بخيل الممدوح ، يلمّان بذلك في أبيات متعدّدة ، يُلْحفون به ويُحْدقون فيه بكلّ وجه واحتمال ، وهم يَمْنحون الممدوح بذلك صفة الفروسيّة الخارقة والبطولة التي لا تُضَاهى . والعربي يأنف أن يَمْتدح بما لا صلة له بالقوّة ، فكأنه قصر عليها غاية الحياة كلّها . ومن يمتطي العير ويتهدّج عليه ببطءٍ وتثاقل لا ينهد إلى قتال ولا يسعى إلى جُلّى ولا يتحلّى بأيّة فضيلة من فضائل الفروسيّة والبطولة . فهو قليل القدر ، هزيل الهموم يَدْأب لغاية حقيرة تتَمَثَّل في عيره البطيء ورضاه بالقيام عليه .

ولعلّ الأخطل يُضْمر ، هنا ، أيضاً ، تشبيههم بالعبيد ، إذ ان الفارس الحرّ لا يمتطي العير ولا يحفل بالسّعي إلى الأغْراض اليسيرة . والعربيّ يُفصح عن نفسه حتّى من خلال مطيّته . فالأخطل لا يزال يَصْدر حتّى الآن عن التّحليل النّفسيّ ، يُزاول الهجاء من الدّاخل بالنّسبة إلى قيمة الانسان الفعليّة والمُثُل الّتي يَنْهد إليها ، نائياً عن الابتذال في الانفعال والصّورة واللّفظة . وهو ، إذ يوحي بمدى شهرة المهجو وتذيعه في النّاس، يَتَنَكَّبُ عن التّعبير المباشر ويتّخذ لذلك تقيّةً بأسماء الأمكنة المُتَباعدة :

.... قد بَلَغَتْ نجرانَ أو حُدِّثَتْ سؤاتهم هَجَرُ

والقارىء قد لا يُدرك بدقة حدود ذينك الموقعين ، ولكنّه يستدرك منهما الدّلالة على مدى الاتساع والشّمول في نوع من الكناية الّتي تتّسم بيقين الواقع وعمق التّأثير النّفسي ، معاً . ولعلّه لم يَبْتدع هذا المَنْحى إذ كان الجاهلي يُوحي بعظم المسافة الّتي اجتازها الحمار الوحشيّ ليَنْتجع الماء ، من خلال تسميته للمواضيع النّائية بعضاً عن البعض الآخر . تلك تكنيّة فنّيّة تؤلّف طبائع الواقعيّة الّتي تُوحي باقصى غاية المثاليّة .

وكما أزْرَى بهم من خلال شرابهم الّذي يَخْتلسونه ، وهم معفّرُو الكرامة ، مُلَطّمون، ومن خلال مطيّتهم الهزيلة الّتي لا تعدو البعير المُتَهدّج، ومن خلال مسكنهم الذي يَعْتَزلون فيه بالغَيْب ، تراه يُزْري بهم كذلك من خلال طعامهم ، ليأتي على هجائهم فيما يقومون به ويؤدّونه ، جميعاً : « الآكلُونَ خَبيثَ الزّادِ وَحْدَهُمُ » . والزّاد الخبيث هو الزّاد الّذي يَهْتَبلون فيه ما تيسّر لهم من نفايات المآكل وفُتاتها ، لا يَحْرجون من ذلك لأنّهم كالعبيد العضاريط ، يهمّهم أن يملأوا جوفهم ، كيفما تيسّر لهم هذا الأمر . قال عَنْترة :

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأظلُّه حتَّى أنال به كريمَ المأكلِ

فهناك مأكلٌ كريم وهناك ، أيضاً ، مأكل زَنيم ، خبيث . الأوّل ينالـه المرء

ببطولته ويأكل فيه عَفْوةَ الطَّعامِ وخَيْره ، لا لإشباع شهوته إليه ، بل للحفاظ على كرامته به . أما المأكل الخبيث ، فهو المصحوب بالهوان يكسبه المرءُ معفّراً به ، باذلاً من دونه كرامته . فالأخطلُ يتنصّتُ لكلّ هنَةٍ وحالة نفسيّة ويُدْرك من الإباء والهوان كُلَّ سمة من سماتهما . وإذا كان الشعر وسيلةً للتّعبير عن عن الحقيقة الإنسانيَّة الحميمة، اللّطيفة، المكْتُومة ، فإن الأخطل لا يَزال يهتدي إلى ذلك بهدايةٍ من خبرته بواقع النَّفس البشريّة ونوازعها وترجُّحها بين الواقع والمثال. فالهجاء ، هنا ، هو هجاء نفسيٌّ يَتَلمَّس فيه الحقائق الغائرة في الضّمير والوجدان . وهو لا يرتضي من المعنى بأيسر ما يَتَلَقَّفه منه ، بل إنّه يراوده في كُلّ مراودة إذ تراه يُرْدف بأنَّهم يأكلون زادهم « وحدهم » ، نامياً إليهم رذيلة البخل ، فضلاً عن الهَوان . إلاَّ أنَّه لا يَمْتنع في ذلك كُلِّه عن التّكرار ، وان كان تكراراً داخليّاً يُفصِّل فيه ما أَجْمله ، سابقاً : « والسَّائلون بظهر الغَيْب ما الخَبَرُ » وكان قد أشار إلى قيامهم في الغَيْب ، قبلاً ، إلا أَنَّه أَضاف ، هنا ، أنهم يتساءلون فيه : « ما الخَبَرُ » أي أنَّهم مَحْجُوبُون فيه عن سياق الأحداث ، لا يُستشارون ولا يُحْفَل بهم فيها . والشأن في ذلك كله هو شأن الكرامة والحريَّة اللّتَيْن لا نصيب لهم منهما ، يَقفُون في مؤخَّرة النَّاس كالعبيد والبهائم ، كما يبدو في قوله :

وَاذْكُرْ غدانَةَ عدَّاناً مزنَّمةً من الحَبَلَّق تُبْنى حَوْلَها الصِّيَرُ

ولقد أَسَفَّ إلى التّصريح المباشر عن مماثلتهم للبهائم ، أفصح عن ذلك بألفاظ « عدّان » وهي جماعة من المعزى « ومزنَّمة » أي التي تدلّى من حلقها « والحبلّق » وهي أَبْناء المعزى الصِّغار ، و « الصِّير » وهي حَظَائر الماشية . وفي مثل هذا البيت يتضاءل قدر التَّحليل النَّفسيِّ ويَتَعاظم السُّخط ، فلا يعود الشَّاعر يزْري بهم من افتضاح ضمائرهم وأحوالهم النَّفسيَّة بما يبدو من أَعمالهم وأَقْوالهم ، بل يتلقَّفُ أساليب شائعة في التَّدليل على الزّراية .

هكذا يُحيطُ الأخطل بالمهجوّ في كُلّ ما ينمُّ عن شخصيته وضميره ، في المقام الّذي يَنْزله ، وكان العربيُّ يَفْخر أَنَّه يُقيم في خيم من الأدم وأَنَّ لها عصباً

حمراء ، وأنه يَنْصبها في التِّلال العالية لأن ذاك أدَلُّ على كرامته ومَنَاعته . ولا يعدو الشرَّاب والطَّعام والمطايا هذا الأمر ، لأنَّها ، جميعاً ، متَّصلة بمقام الشَّخْص من نفسه ومن الآخرين .

* * *

ولقد تراه في قصائد أُخرى ، يستهلُّ الهجاء بالغزل المبْتَسر ، ليعرِّج ، من ثمَّة ، على الهجاء ، كما نرى في قَوله :

أَذَكَرْتَ عَهْدَكَ ، فاعْتَرَتْكَ صبَابَةٌ　　وذكَرْتَ مَنْزِلَةً لآلِ كَنُـــودِ ١
أَقْوَتْ ، وغيّرَ آيَهــا نَسْجُ الصَّبــا　　وسِجالُ كلّ مُجَلْجِلٍ مَحْمُــودِ ٢
وَلَقَدْ شدَدتَ على المَراغَةِ سَرْجَهـــا　　حتَّى نَزَعْتَ ، وأَنْتَ غَيْرُ مُجيــدِ ٣
وَعَصَرَتَ نُطْفَتَهَا لتُدْرِكَ دارِمـــاً　　هَيْهَاتَ مِنْ مَهَلٍ عَلَيْكَ بَعيـــدِ ٤

---

١ ــ م يخاطب الشّاعر نفسه ويقول : هل ألمَتْ بك الذكرى ، فأثارت شوقك إلى منزل كان يُقيم فيه جماعة من بني كَنُود ؟

٢ ــ أقوت : خلَتْ وتغيّرت . الصَّبا : الريح الشّمالية . السّجال : هنا المطر المُنْصبّ كالقِرب المُجَلْجِل : هنا المصوّت بصوت الرَّعد .

م　يقول إن تلك الدّيار أقْفرت إذ ارتحل عنها سكّانها ، كما أن عبور الرّيح بها مع ما تَسْفيه من تراب ، والمطر الغزير المُنْهمر من السّحاب المُجَلْجل بقصف الرَّعد ، إنّ ذلك ، جميعاً ، غيّر معالمَها .

٣ ــ المَرَاغَة : والدة جرير . المُجيد : الذي له فرس جواد .

م　يتهكّم بجرير ويسخر منه إذ يمثّل والدته بدابة شَدّ عليها سرجها وجعل يعدو بها متبارياً

٤ ــ المَهَل : التقدّم والسّبق . عَصَرْتَ نطفَتَهَا : أي بقيّة مائها . دارم : من أجداد الفرزدق .

م　يقول إنّك أرهقتها غاية الإرهاق لتلحق فيها بدارم ، ولن يكون لك قِبَل بذلك البتّة .

وإذا تَعاظَمَتِ الأُمورُ لِـــدارِمٍ ١ طَأْطَأْتَ رَأْسَكَ عَنْ قَبائِلَ صِيدِ ١

وإذَا وَضَعْتَ أَباكَ في ميزانِهِـمْ رجَحوا عَلَيْكَ ، وأَنْتَ غيرُ حَميدِ ٢

وإذا عَدَدْتَ قديمَكُمْ وقديمَهُـمْ أَربـوا عَلَيْكَ بطارِفٍ وتَليـدِ ٣

وإذا عَدَدْتَ بُيوتَ قَوْمِكَ ، لَمْ تَجِدْ بَيْتاً كَبَيْتِ عُطارِدٍ ولَبيـدِ ٤

بَيْتٌ تَزِلُّ العُصْمُ عَنْ قَذَفاتِـهِ في شاهِقٍ ذي مَنْعَةٍ وكـؤودِ ٥

وأَبوكَ ذو مَحْنِيّـةٍ وعبـاءَةٍ قَمِلٌ كأَجْرَبَ مُنْتَشٍ مَـوْرودِ ٦

---

١ ــ طَأطأ رأسه : حناه .

م يقول وإذا ما تعاظمت الأمور قومَ الفرزدق ، فغضبوا وهموا بالانتقام ، فإنّك تخضع لهم لما هم عليه من عزّ وسيادة .

٣ ــ م وإذا وازنت مَجْدهم بمجدك ، شالَتْ كفتُهم ورجحوا عَلَيْك وأُلفيت من دونهم ، فاقدَ المَجْد ، ذليلاً .

٤ ــ الطّارف : الحديث . التّليد : القديم . أرْبوا : زادوا وتفوّقوا .

م يقول إذا ما أحصيت أمجادهم الماضية ، فإن الدارميّين يتفوّقون عليك بها ، قديماً وحديثاً .

٢ ــ ٥ ــ عُطارِد ولَبيد : من أجداد الفَرَزْدق . العُصْم : الوُعول . الكؤود : المُرْتَقى الصَّعْب . القَذَفات : جمع قَذْف ، وهو الموضع الذي يزلّ عنه . الشّاهق : المُرْتفع .

م يصوّر في هذين البيتَين المجدَ الذي اختصّ به أجداد الفرزدق ويمثّله ببيت شامخ ، متعالٍ في أعالي الجبال الّتي تزلُّ وتنزلق الوعول عنها لوعورتها بالرّغم من أنها ألِفَتِ ارتيادَ الشّواهق .

٦ ــ مَحْنِيّة : علبة من جلود الإبل : مُنْتَشٍ : مباعد لجَرَبه . مَوْرود : أي وردته الحمّى .

م يمثل والد جرير تمثيلاً مزرياً إذ ينزع عنه صفة الفروسيّة ويجعله راعياً يعتصم بعباءته ومزادته ، وهو منزوٍ عن القوم ، مُنْتَبذ كالبعير الجَرِب .

ومعاني هذه القصيدة أيسر متناولاً من معاني القصيدة السّابقة ، فهو لا يَحْتشد فيها حشداً ولا يُوَقِّع المعاني في مواقعها النَّفسيّة العميقة . بل يَتَلقَّف ما طفا منها على اللُّجة . ومنذ المطلع يَصِفُ الطّلل بأَوْصافه المأثورة في عجالة بيْتيْن ألمّ فيهما بالرِّيح والمطر اللّذين غيّرا معالمه ، ممثّلاً المطر بمثل انهمار الدّلو ، على غرار سواه . ثم يعدل إلى الهجاء دون تطوّر أو تخلّص بقوله :

ولقد شَدَدْتَ على المراغة سِرْجَهَـــا حتَّى نَزَعْتَ وأَنْتَ غيْرَ مَجيـــدِ

وآية ذلك أنّه لا فخر له يفْخر فيه بأمه ، إذ أنها عديمة الفضائل ، لا قبل لها بمجاراة سائر النساء . والصُّورة مستفادة من واقع البيئة في السِّباق ، استعارها للمفاضلة في كرم المحتد ، إلا أنه نسب لوالدة جرير ما يُنْسب إلى الدّابة : « سرجها » وهو معنى مُقْذع لكنّه يبدو متعفِّفاً إذا ما قُوبل بما يُنْميه جرير لوالدة الأخطل . وهو في هذه الصورة ذاتها ، لا يتخلّى عن التّلميح إلى التّصريح ، إذ اقتصر على ذكر السّرج وشدّه ، ممّا أضفى على الصُّورة قليلاً أو كثيراً من الإيحائيّة . فالأخْطل لا يَقْذِفُ بالمعنى قذفاً حتّى في تلك القصائد القصيرة الّتي لا يحتفل فيها بالنظم احتفاله المعهود . ثم إنه يُشير إلى عصره لنطفتها ، أي لا نهاكه إيّاها في العدو دون أن تَلحقَ بالدّارميين . ولقد بدا المشهد في غاية الزّراية ، إذ لم يُؤَدِّه في إطار من السّخر ، بل في سياق من الجدّية يعظّم من وقعه وغلوِّه . إلا أنّه فيما دون ذلك يُزجي المعاني وكأنّه يعدِّدها تَعْداداً من ذاكرته ويستوفي فيها غَرَض القَوْل في حدود شائعة مَبْذولة . لقد هجاه بالأصل إذ جعله يطأطيء فيه للدّارميّين يُكرِّره في أبيات مُتَعدّدة حتّى ينْتَهي إلى القول :

وأَبـــوكَ ذو مَحْنِيَّــــةٍ وَعَبَاءَةٍ قَمِـــلٌ كأَجْرَبَ مُنْتشٍ مَـــوْرودِ

وصورة والده تتعارض ما ما ترسّمه لآباء الفرزدق الّذين يَرْجحون في ميزان المجد والّذين يقيمون في بيت عزٍّ شاهق ، كأنّهم منه في جبال تزلّ عنها الوعول . وهكذا ، فبينا يقوم قوم جرير في الغَيْب يَنْعم قَوم الفرزدق بقصر بطولتهم

الشّاهق . وذكر العصم وعجزها عن اقتحامه لا يزال مأثوراً ، منذ الشعر القديم ، للتّدليل على وعورة الارتقاء . وهذه هي الماديّة المُغرقة في شعر الأخطل المنقولة عن الشّعر القديم . فالمجد العظيم يتَكنّى عنه بالقصر الهائل لأنه تجسيد وتحقيق له في الواقع الحسّي المنظور . أما والد جرير ، فإنه مُنْتَبَذٌ بمزادته ، لا شأن له ، إذ أنّه راعٍ يقتصر همّه على سياسة الماشية ، تَكْسوه منها الاقذار ويعلَقُ القمل . ولقد تعاظمَ الهجاء في البَيْت الأخير بألفاظه كالمحنيّة والعباءة والجرب والقمل .

إلا أن الأخطل يمازج ، غالباً ، بين الهجاء والفخر ، كما نجد في رائيّته الشهيرة التي استهلها مفاخراً بالخيل التغلبيّة وهجاء بني كُلَيب بنزولهم في ديار الذلّ واقتفائهم آثار نسوتهم وتخلّفهم عن نجدة الضّيف وإذلالهم لأمّهاتهم وقعودهم عن الثّأر لقتلاهم وفرارهم في القتال . ثم يخاطب جريراً ويهزأ به لتصدّيه لمُساماته ، ذاكراً أيّام تَغْلب في مقاتلة الفرس بيوم ذي قار وقتلهم لشُرَحْبيل بيوم الكلاب ونجدتهم للضَّيف في زمن القَحْط ، وينهي القصيدة مُزْرِياً أشدّ الإزراء بخَصمه مُقذعاً في هجاء والدته ، نامياً إليه الهزال وإليها الفُحش والفجور :

ما زالَ فينا رباطُ الخَيْلِ مُعْلَمــــةً   وفي كُلَيْبٍ ربـــاطُ الذُّلّ والعــارِ ١

النَّازلينَ بدارِ الذُّلّ ، إنْ نزلـــوا   وَتَسْتَبِيحُ كُلَيْبٌ مَحْرَمَ الجــارِ ٢

---

١ ــ الخَيْل المُعْلَمَة : التي وضع فرسانُها عليها علامة الشّجاعة .

م يستهلُ هجاءه لجرير بالقوْل إن التغلبيّين ما زالوا يقودون خيلهم إلى القتال ، وقد عُقِدَت عليها علامات الشّجاعة ، فيما يعقد بنو كليب ، قوم جرير ، علامات الذلّ والعار إذ لا مآثر لهم في الحروب ، بل انهم يقيمون في الذلّ ويخلدون إلى العار .

٢ ــ مَحْرَم الجار : أي ما ينبغي أن يؤدّى له من حقوق وما يحفظ له من ذمار .

م يقول إنّهم حيثما حلّوا وأقاموا ، فإنّ الذلّ يُقيم معهم ، وهم ، إلى ذلك ، لا يحفظون حرمة الجار ولا يؤدُّون له حقوق الحماية والصّيانة لعرضه وشرفه .

والظَّاعنينَ على أَهْواءِ نِسْوتِهِـــــمْ   وما لَهُمْ مِنْ قديمٍ غيرُ أَعيـــارِ ١
بمُعْرِضٍ أَوْ مُعيدٍ أَوْ بَني الخَطَفي   تَرْجو ، جريرُ ، مُساماتي وأَخطاري ٢
قَوْمٌ إِذا اسْتَنْبَحَ الأَضيافُ كَلْبَهُمُ   قالوا لأُمِّهِـمِ : بُـولي على النَّارِ ٣
فَتُمْسِكُ البَوْلَ بُخْلاً أَنْ تجودَ بـــهِ   وما تَبولُ لَهُمْ إِلاَّ بِمِقْـدارِ ٤

فمنذ مطلع القصيدة يَستهلُّ بالفخر والهجاء معاً من خلال رموزٍ فروسيّة نوّهنا بها من قبل ، وهي الخيل وما تشير إليه من عزٍّ أصحابها وسعيهم بها الى القتال . فالخيل التي تربط في جوار البيوت لا تزال تنمُّ على مناعة أصحابها واستعدادهم الدائم للدفاع عن أنفسهم والتصدي للآخرين . فالخيل تغلبيّة ، أما بنو كُليب ، فانه لا يربط في ربوعهم إلا الذلّ والعار . وإذا كانت الخيل تربط في مرابطها ، فكيف يُوثق الذلّ والعار ، وهما معنيان ، لا شكل واضحاً لهما . ومع أنهما تجريديّان ، فان مقابلتهما مع الخيل ، منحتهما معنى الاطلاق والشُّمول والايحاء معاً ، لأنهما صدرا عن الخيال النفسي الذي يُبصر به الشاعر ما لا يُبصر . والعنصر

---

١ ــ م يمثّل حقارتهم وافتقادهم للرُّجولة والحزم بالقَوْل إنّهم إذ يرحلون لا يرتحلون وراء مطلب أو غاية أو في سبيل القتال غزْواً أو أخْذاً بالثأر ، بل انهم يَقْتَفون آثار نسائهم اللّواتي يَقُدْنَهم وفْقما يطيب لهنَّ ، ثم يُرْدف بأنّهم عريقون بمواقعة العار ، قد ألِفوه وأقاموا عليه ، منذ زمن قديم . ووجه الهجاء في ذكره لاقتفائهم آثار نسائهم يقوم على انتزاع فضيلة الفروسيّة عنهم وفي نسبة قلّة الشّأن إليهِم .

٢ ــ م يقول مخاطباً جريراً : هل ترجو أن تساميني وتسابقني وتفوز علي ببني قومك الأذلاّء المُقيمين على العار والذين يُعْرضون عمّن يعتفيهم بعطاء أو يطلب منهم صلة ؟

٣ ــ اسْتَنْبَحَ الضَّيْفُ : أن ينبح نباح الكلاب . لتجيبَه فيهتدي بها إلى مكان آهل ينجيه من هلاك السُّرى .

٤ ــ م يقول إن أُمّهم وهي ذات بُخل عريق لا تبول بولها كله على النّار ، بل إنها تطلق بعضاً منه وتَحْبس البعض الآخر .

الطاغي في هذه الصورة هو العنصر الجمالي الذي يعمّق المعنى ويمدُّ أبعاده بالوسائل النفسية التي لا قبل بها الا للشاعر المبدع . ثم تراه يعمد الى التعداد والتكرار : « النازلين بدار الذلّ إن نزلوا » وهو تكرار لما تقدّم بما لا جدوى منه ، وينحدر إلى التقرير اليسير في قوله : « وتستبيح كُليبٌ محرم الجار » . فهذا المعنى يسير ، متداول ، لكنه يؤدّي اداءه عبر السياق العام للقصيدة إذ انه يُؤثّر في حشد المعاني الهجائيّة وتأليبها . وهو يستنبطها من كل حادثة ، وفقاً للقيم الإنسانيّة . فهولاء « يظعنون على أهواء نسوتهم » . وانسياقهم إثر نسائهم له بعْدٌ نفسيٌّ في التدليل على افتقادهم للرّجولة والبطولة ؛ فالمرأة لا تنهد الى الجلّى ولا تحفل بالقتال ولا قبل لها به ، فهي مسلوبة أو سبيّة وليست فارسة مقاتلة . وإثر هذه الصورة الزّريّة يعمد الى اللفظة بفضيلة صياغتها ، أو بالأحرى صيغة الجمع : « أعيار » وهي جمع « عار » فكأنّها تؤدّي الغلوَّ بذاتها ، ثم يسمّي أجداد جرير باسمائهم ويسخر منهم ليخلص الى بيتين فاقت شهرتهما كل شهرة في الهجاء :

قومٌ إذا استَنْبَحَ الأَضياف كَلْبَهُم قالوا لأُمهم بُولي على النّار

فتمسك البَوْل بخلاً ، لا تجود به وما تَبُولُ لهم إلا بمقدار

وخير ما ورد في ذلك قول ابن رشيق: «إن أهجى بَيْت قاله شاعر قول الأخطل في بني كُليب بن يربوع رهط جرير . وذلك لأنّه قد جمع ضروباً من الهجاء فنسبهم إلى البُخل بوقود النّار لئلا يهتدي بها الضيفان ، ثم البُخل بإيقادها للسامرين والسّابلة ورماهم بالبُخل بالحطب وأخبر عن قلّتها وأنّ بَوْلة تُطفئها وجعَلَها بَوْلة عجوز وهي أقل من بولة الشّابة ، ووصفهم بامتهان أُمّهم وابتذالها في مثل هذه الحالة ، فدلّ بذلك على العقوق والاستخفاف وعلى أن لا خادم لهم وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء » .

وقد لا نجد مجالاً للإضافة الى ما تقدّم من قول ابن رشيق إذ استنفد وجوه الدلالة ، وإنما نودُّ أن نشير الى لفظة « البول » وما تنم عليه بذاتها من زراية ، فهو أمر لا يُحفَل به في الناس . أمّا قومُ جرير فيعظمون قدره إذ لا يطيقون

أن يبذلوا شيئاً . فهؤلاء لا يبخلون بالماء وحسب ، بل حتّى بالبول . وإننا لا نرى ان ما ذهب اليه ابن رشيق هو الاسلوب الصّائب في التأثّر بهذين البيتين . لقد استنفد غاية القول فيهما من الناحية العقليّة التي تُعنى بالتعداد . وقد يكون من الأفضل أن نتقبّلهما تقبلاً في النفس ، حيث نشعر بعمق الزراية وضعف هموم النّفس والاسفاف الذي لا يُسَفُّ اليه قَطّ من التحسّب لما لا يُحسب له حساب وبخاصة في البول وفي الوالدة التي يتخرّج ابناؤها على عرقها . فالقوم الذين يحرصون حتى على بولهم ، وهو ما يبذله الناس ولا قِبَلَ لهم بما دون ذلك ، أنّى لهم أن يبذلوا ما هو أعظم منه بكثير ، أن يبذلوا مالهم بكرم ، مثلاً ، وراحتهم لإقالة الآخرين من عثراتهم وأرواحهم للحفاظ على شرفهم وكرامتهم . وهناك وجه آخر في التدليل على ذُلّهم إذ انهم لا يُطفئون نارهم على أيّ قادم عليهم ، بل على التائه والضال والذي يترجّح مصيره بين الحياة والموت . وهم إذ يُطفئون نارهم ربما أطفئوا بها حياته ، ومع ذلك ، تراهم لا يحفلون بذلك ويَدَعُونه لقَدَره وموته حتى لا يُؤووه وينفقوا عليه بعض الطّعام . وكان طرفة يقول في تعداد ملاذه :

وكرّي إذا نادَى المُضَافُ مُحَنَّباً كسيد الغَضَا نَبَّهتَه ، المتورِّد

فأين هذا من ذاك !! هكذا يجري الهجاء في الشعر ، عامة ، وشعر الأخطل ، خاصة ، يعكس الفضائل المأثورة ويتفتّق بكل حيلة لتمثيلها في نقيضيها التام . وما داموا على هذه الحالة من الهزال ، فمن البديهيّ أن يقتل قتلاهم فلا يثأرون لهم ولا يَبُوؤُون بدمائهم :

لا يثْأَرون بقَتْلاهُمْ ، إذا قُتلوا ولا يكُرُّون ، يَوْماً ، عِنْدَ إجْحارِ [1]

---

١ ــ الأحْجار : الإلجاء والاضْطرار .

م يقول إنّهم لا يَبوءون بدم قتلاهم ولا يَثْأرون له ، بل إنّهم يدعونه يُسفح ويُهْدر ، إذ لا كرامة لهم ، ليحافظوا علَيها ، كما أنّهم عاجزون عن القتال ، لا يكرُّون إلى ساحته عندما تشتدُّ وطأته علَيْهم ، بل إنّهم يفرُّون منه ، مولّين الأدبار .

ولا يزالونَ شتى في بُيوتِهِـــمِ يَسْعَوْنَ مِنْ بَينِ مَلْهُـوفٍ وفَرّارِ [1]

فاقعُدْ ، جَريرُ ، فقد لاقَيْتَ مُطَّلَعاً صَعْباً ، ولاقاكَ بَحْرُ مُفْعَمٌ جارِ [2]

أَلاَّ كفَيْتُمْ مَعَداًّ ، يَوْمَ مُعْضِلَـــةٍ كما كَفَينا معدّاً ، يومَ ذي قارِ [3]

جاءَتْ كتائبُ كسْرى ،وهيَ مُغْضَبَةٌ فاسْتأْصلوها ، وأَرْدوْا كُلّ جَبّارِ [4]

وإيراد هذه المعاني إثر ما تقدّم منها يُؤثّر بفضيلة التكرار وحسب ، لأنّ مستوياتها تنخفض وتتداعى إذا ما قُورنت بمعاني الأبيات السابقة ، فأية جدوى من قوله : « ولا يكرُّون ، يوماً ، عند إحجار » بعد أن ذكر ما يكون من أمرهم عندما يَستنبح الضيف كلبهم . إنه ، دون شكّ ، فاقد الجدوى ولا طائل من دونه . ذاك أن الأخطل لا يتخلّى عن نزعة التثقيف ، ولكنّه لا يَنهج فيها ،

---

١ ـ م يقول إنّهم لا يُقيمون في بيوتهم ، أمناً وطمأنينةً ، بل إنّهم قلقون ، مشرّدون ، بعضُهم ملهوف يستَنْجد ويستغيث ، والبَعض الآخر يفرُّ هارباً مذعوراً . والشّاعر ينْسب إليْهم في ذلك الضَّعف والعجز عن حماية النّفس لاستغاثتهم الدّائمة بمن يرفع عنهم الضَّيم وينعتهم بالجُبْن والهزيمة لتولّيهم وفرارهم .

٢ ـ المُطّلَع : هنا المَصْعد .

م يخاطب جريراً ويقول له اقصد أي لا تُسرع إلى سباقي ومجاراتي ، فإنّك تَلْقى بي مطّلعاً يصعب عليك ارتقاؤه فتهلك من دونه ، وبَحْراً طامياً مزْبداً لا تقوى على اجتيازه ، فتَغْرق فيه وتلقى حتفك في جوفه .

٣ ـ ذو قار : ماء لبني بكر بن وائل ، قريب من الكوفة وفيه كانت الوَقْعة الشهيرة بين بَكْر ابن وائل والفرس .

م يُفاخر بني كليب في تَصَدّي قبيلته للأكاسرة في يوم ذي قار ويعيّرهم بقعودهم عن ذلك .

٤ ـ م يقول إن كسرى كان قد أنفذ جنده للإيقاع بالعرب والفَتْك بهم ، وهم يَتَمَيّزون ثورة وغضباً ، حتّى إذا واجهوا العرَب . خُذِلوا وأُبيدوا ، ولم يَنْجُ منهم أحد حتّى الجبابرة .

دائماً ، على منهج التطوّر العضوي ، حيث تنمو المعاني إلى نهايتها ، دون ردّة أو انتكاص . إلا أن قوله :

ولا يَزَالُوْنَ شَتَّى في دِيارِهــــم   يَسْعَونَ ما بَيْنَ مَلْهُوفٍ وفــرَّارِ

يسمو قليلاً بالمعنى ، من جديد ، إذ يُمثّلهم ، وقد انقسموا فريقَين ، أحدهما يطلب النّجدة والثاني يفرُّ مولّياً ، ناجياً بنفسه . هذا هو دأبهم إذ يتعرّضون لغارة أو يتصدّى لهم الأعداء .

وبعد ان يزرى بجرير وقومه هذا الإزراء ، يفاخره بالقول :

اقعدْ ، جريرُ ، فَقَدْ لاقَيْتَ مُطَّلَعاً   صَعْباً ، ولاقاكَ بَحْرٌ مُفْعَمٌ ، جارِي...

ويعدد في أبياتٍ طويلة اجتزأنا ببعضها أيام التغلبيين وانتصاراتهم على الاعداء . فهو كأنّما يقف على أشلائه ، رافعاً هامته بالعنجهيّة . وبعد أن أجْهزَ عليه بقومه ، يجهز عليه بنفسه في القول :

ما كانَ مَنزِلُكَ المرُّوتَ ، مُنْجَحِــراً   يا بنَ المَرَاغةِ ، يا حُبْلى ، بمُخْتارِ[1]

---

١ ـ المَرُّوت : اسم موضع . ولا بدَّ من تأدية هذا البيت بصيغة نثرية ليستقيم معناه ، فيغدو كما يلي :

ما كان منزلُك في موضع المَرُّوث بمخْتار وأنْت مُنْجحر فيه .

المُنْجَحِر : المُقيم في جحره ، وهو النّفق الذي تقيم فيه الدويبة .

م   يخاطب جريراً ويعيّره بمنزله الحقير الذي يشبهه بجُحْر الدَّوَيبَة ثم يعيره بأمّه المراغة التي كانت تبيح نفسها لكلّ مُنْتجع ، فتحمل منه سفاحاً .

جاءَتْ بِهِ مُعْجَلاً عَنْ غِبِّ سابِعَةٍ	مِنْ ذي لهالِهَ ، جَهْمِ الوَجهِ ، كالقارِ [1]
أُمٌّ لئيمَةُ نَجْلِ الفَحْلِ مُقْرِفَةٌ	أَدَّتْ لفَحْلٍ لئيمِ النَّجْلِ شَخَّارِ [2]

وهذه الأبيات تلج في أجواء الهجاء الشائع في النّقائض والقائم على الاقذاع المستمد من المعاني الجنسيّة . غير أن الأخطل يعفُّ حتى في هذا القذف عن الألفاظ النّابية بذاتها والتي كانت تقوم عليها تكنية الهجاء عند جرير خصمه ولنتمثّل الأوصاف التي يُنميها إلى والد جرير وهي أوصاف جماليّة فنيّة لأنها تؤدي أقصى غاية الايحاء في موضعها . وهل أدلّ على التوحش من امرىء اسودّ وجهه من لفح الهاجرة لقيامه منفرداً في الصَّحراء . فهذا معنى ابتداعيٌّ اهتدى إليه بهدي من حدسه الخالق واعتاض به عن المسافهة المباشرة . ومع أن الأخطل يتولّى بعض المعاني في حدودها الشائعة المبذولة ، إلا أنه يعمد الى ذلك في موضع يخلص منه الى التّصوير الابداعي ، الجمالي .

وترى الأخطل في قصائد أخرى يستهل متفاخراً :

لَقَدْ جَارَيْتَ يا بن أَبي جرير	عزوماً ، ليس يُنظرك المطالا
نَصَبْتَ إليَّ نبلك من بعيدٍ	فليس أَوان تدَّخر النِّبالا
فلا وأَبيك ما يستطيعُ قومٌ	إذا لم يأْخُذُوا مِنَّا حِبَالا

١ ــ اللّهاله : جمع لَهْلَهَة وهي الفَلاة الواسعة . المُعْجَل : هو الجنين الذي يجهض به ، فيولد قبل حين الولادة .

م	يقول إنّه وليد هزيل ، أجهضت به أُمّه في الشهر السّابع من امرىء متوحش يألف القفار ، متعبّس الوجه كالزّفت لشدّة احتماله للهاجرة .

٢ ــ النّجل : الولد . المقرفة : النذلة .

م	يقبح بوالدة جرير ويقول إنها لئيمة مقرفة وضعت جريراً من فحل شخّار ، لئيم الولد .

عَدَاوتَنَا ، وإن كَثُرُوا وعـــزُّوا ولا يثنون أيدينــا الطّــوالا [1]

فالفخر يجري ، هنا ، على سياقين ، أحدهما في فخر الشاعر بنفسه وشعره وتحدّيه خصمه للمنازلة بالهجاء ، والثاني في بني قومه الذين لا قبل للنّاس بالتعرّض لهم ، أيّاً ما كانت حالهم من المنعة . ويُخيّل الينا ان الأخطل لا يُفَاخر جريراً مفاخرة جدّية ، قاسية ولا يسوق المعاني كُلّها الى غايته ، بل إنّه يتناول ويتداول أيسرها ، إمّا استصغاراً لقدره ، وإما لأنه لا يقوم في ذلك مقام الضّنك والشدّة . ومعاني الأبيات السابقة لا تختص بأية ميزة أثرت في شعر الأخطل ، أكان ذلك في جلال العبارة أم في تقصّي المعنى والصورة . ولعلّ هجاءه يسمو عـلى ذلك في حدّة النبرة والتعرُّض لكل معنى والإفادة منه ، في بذل المعاني الهجائية :

وما اليَرْبوعُ ، مُحْتَضِناً يدَيـــهِ بمُغْنٍ عَنْ بَني الخَطَفى قِبـــالا [2]

تَسُدُّ القــاصِعاءُ عليْهِ ، حتـــى تُنَفِّقَ ، أوْ يموتَ بها هُـــزالا [3]

١ ــ م يستكمل المَعنى السّابق . ويقول إنّهم ليَعجزون عن مُواجهتهم والانتصار في مُعاداتهم . أيّاً ما كان عددُهم وعدّتُهم ، وإن أيدينا الطوال تتصدّى لقتالهم ، حيثما كانوا . لا يحول بينها وبينهم حائل .

٢ ــ اليَرْبوع : إشارة إلى جرير بن الخَطَفى . وأصل اليَرْبوع في الدّلالة على نوع من الفأر ، يقف على رجلَيْه ، مستعيناً بذنبه وبضم يَديه . القِبال : شسْع النّعل .
م يقول إن جريراً ، وقد كنّى عنه باليَربوع ، لا يَقْوى في هجائه على الدّفاع عن بني قومه وهو لا يَنْفعهم في شيء ، وقد تكنّى عن ذلك بالقَوْل إنّه لا يُغْني عنهم قبالاً .

٣ ــ القاصعاء : الحُفْرة الأولى من حفر اليَرْبوع . والنُّفَقَة هي الحفرة الثانية والدّأماء هي الحرة الثالثة ، وهو ينتقل من إحداها إلى الأخرى ، فيما يُداهِمهُ خطر .
م يقول إنّ اليَرْبوع إذ يُداهمه خطر يَنْحدر من حُفْرته الأولى إلى حُفْرته الثّانية ويختبىء في أنْفاقه أو يموت جوعاً . والأخطل يستكمل بهذا القَوْل هجاءه لجرير الذي تكنّى عنه باليَرْبوع ، ويقول إنّه إذا ما داهمه خطر . يُوَلّي ويلتجىء إلى نَفَقه ، مُشيراً بذلك إلى عَجْزه عن حماية بني قومه وجُبْنه وتخاذله .

فلا تَدْخُلْ بُيوتَ بنـي كُليبٍ ولا تَقْرَبْ لهُـمْ أبَداً رِحـالا ١
تَرى مِنْهـا لوامِعَ مُبرقـاتٍ يكَدْنَ يَنِكْنَ بالحَدَقِ الرّجـالا ٢
قصيرات الخطى عن كـل خيـر إلى السوآت مسمحـة رعـالا ٣

فالشاعر يفيد هنا من لفظة يربوع ليمثل خصمه بهذا الحيوان الذي يكاد لا يسمع جرساً حتى يفزع إلى جحره ، منتقلاً من حفرة الى أخرى . والهجاء ، هنا ، هو هجاء اتفاق ومصاقبة أوّل به ما طالعه في التسميّة بحيث جعل جريراً يجزع ، ويهرع ويولّي وينطمس في مخبأه . أما ما ثلب به قوم خصمه في نسائهم ، فإنّه الهجاء الوحيد الذي ألمّ فيه باللّفظ النابي ، الصريح ، دون ان ينزح عن دأبه في الرُّؤيا الداخلية ، إذ فطن ان من النساء من تزني بعينها ، كما تزني بجسدها ونفسها .

ومهما يكن ، فلعلّ أكثر قصائده استيفاءً لغرض الهجاء وموضوعاته ومقدّماته نقع عليها في اللاّميّة . فهي قصيدة تدنو الى مدائحه في الإلمام بمعظم الأغراض . ولقد نظمها في هجاء جرير ومفاخرة قيس عيلان ، واستهلها بالقول إنّه قد تلامح له خيال حبيبته الرّباب في موضع واسط وإنها أقبلت عليه هناك بعد صرم وقطيعة ، ثم يعرض لبعض ما يراه في أمر النساء ، ويقول إنّهنّ يَغْدُرْن بالرّجال ويَمْكُرْن بهم ، يَتَوَدَّدْن لمن يكْرَهْنَه ، ويَصْدُدْنَ عمّن يَمِلْن إليه ،

---

١ ــ رِحال : جمع رحل ، ولقد أشار به هنا إلى منازلهم .
م يخاطب امرءاً مَوْهوماً ويقول له : لا تَلجْ بيوت بني كُلَيب ولا تَدْنُ منها .

٢ ــ اللّوامع والمُبرقات : هنا إشارة إلى النّساء الكثيرات الزّينة . الحَدَق : هنا العُيون .
م يُقذع في هجائه هنا غاية الإقذاع ، ويقول إنّك إذ تغشى منازلَهم تَقَع فيها على نساء متبرّجات وَقِحات ، يَتَحَمْلَقْنَ بالرّجال ، حتى ليَكَدْن يُضاجِعْنَهم بعيونِهن . ولقد نسب لهن أشدّ ما ينسب في ذلك من فحش .

٣ ــ مُسْمِحة : مُسرعة . رِعال : جمع رِعْلَة : القَطيع والجماعة .
م يقول إنهنّ يتخلّفن عن كلّ مَكْرمة فيما يَهْرعن إلى كلّ مُنْكر .

يَعِدْنَ ولا يُوافين وتدعو احداهنَّ الرّجل عمّها هزءاً به ، وإظهاراً لهرمه وكبره من دونها . وبعد أن يخاطب صاحبته أمّ صريم ، يشرع بالتفاخر ، ويقول عندما تعصف ريح الشّمال ويغشى الصَّقيع شجر العضاه ويتكاثف عليه ويُلْفى النّاس بلا طعام ولا مُنْتَجَع ، فإنّ بني قومه يعجّلون باللّحم لضيوفهم .

ثم يخاطب بني كُلَيْب ويفخر عليهم بأعمامه وبخيل التّغْلبيّين الكريمة التي لا تزال مضرّجة النّحور ، لكثرة ما يُغْشى بها القتال ، والتي لا تزال ضامرة يتَصَبّب العرق منها ويجفّ على متونها ، فيبدو عليها كالجلال . ويفخر كذلك بها لإردائها الملوك ولفتْك فُرْسانها بقوم جرير وجماعات الرّباب وبني غدانة ، ثم يمتدح أحياء من تغلب ويشيد بهرعهم إلى القتال ونصرتهم لبني قومهم وفتكهم بمناوئيهم ، ثم يشبّه جموع التغلبيّين بالسّيل المُنْهمر، ويمثّل جريراً بالقذى الهزيل الذي يَعْبث به ذلك السّيل في كلّ اتّجاه . ويحقّر من أمر خصمه ويدعوه إلى مُلازمة شياهه والقيام عليها، إذ لا نصيب له فيما دون ذلك. ويمتدح بني دارم بالقوة والكثرة والوفاء والنّجدة والتقدّم في ورود الماء فيما يُلْفى جرير حابساً أعياره عن الماء مُنْتَبَذاً بها كالنّاقة الغريبة ، يعجز عن إيرادها ولو بلالاً من الماء .

وقد باشر الفخر ، إثر المقدّمات ، ما نجتزىء منه بما يلي استيفاءً لغاية التمثيل :

أَبني كليب ان عمّي اللـــــذا قتلا الملوك وفكّكا الأَغـــلالا [1]

---

١ ــ عمي : اشارة الى عمّه أبي حبش الذي قتل شرحبيل بن الحارث ابن عمرو بن آكل المرار في يوم الكلاب الأول ، وعَمّه الثاني ولعلّه عمرو بن كلثوم الذي قيل انّه قتل عمرو بن هند . ومنهم من يقول إنّ عمّه الثاني هو الدّوكس بن الفَدوكس ابن مالك . الأغلال : جمع غلّ : القَيْد .

م يفخر في هذا البيت بمن ذكرنا من أعمامه ويقول انّهما قتلا الملوك ، وقد نوّه بذلك ليفيد منه عزّاً ومجداً إذ ان قتل الملوك أعزّ له من قتل الجنود وحتّى الأبطال .

وأَخوهُما السَّفّاحُ ظمّأَ خَيْلَـــهُ حتى ورَدْنَ جِبـى الكُلابِ نِهالا ١
يَخْرُجْنَ مِنْ ثَغْرِ الكُلابِ علَيْهِـــمِ خَبَبَ السّباعِ تُبادِرُ الأَوْشالا ٢
مِنْ كلّ مُجْتَنَبٍ ، شديدٍ أَسْرُهُ سَلِسِ القِيادِ ، تخالُهُ مُخْتــالا ٣
ومُمَرَّةٍ أَثَرُ السّلاحِ بنَحْرِهـــا فكأَنَّ فَوْقَ لَبَانِها جِــرْيالا ٤

فالفخر ، خلال هذه الأبيات ، يسمو الى ملحميّته المعهودة فيه ، وكأنه لا يُفاخر به بني كليب مفاخرة افتراضيّة ، بل يتواقع فيه مع أعدائه القيسيين حيث تتخضّب المعاني بالثارات والدّماء والاشلاء . والبيت الأول يحتفل احتفالاً شديداً بأجواء الفخر من توقيع العبارة والاستهلال فيها بالنداء المنطوي على معنى التقريع والعنف ، فضلاً عن لفظة « اللّذا » وما تنطوي عليه من معنى التخصيص والادّعاء ، يتعاظم ذلك كلّه بفعل « قَتَلَ » وهو فعل حيٌّ إذ باشر فيه المعنى ، غير مُشير إلى قيام حربٍ ، أو عراك أو ممهّدٍ بأي تمهيد . وربّما كان أمر القتل يسيراً

---

١ ـ السَفّاح : هو خالد بن كعب بن زهير ، وقصته أنّه منع الماء عن جماعته ، إذ أهرقه وطلب منهم أن يدركوا جبى الكلاب ، حيث يُقَدّر لهم أن يردوا الماء ، بعد أن يفتكوا بأعدائهم . نِهالا : يطلبون النّهل ، أي الاستسقاء .

٢ ـ الخَبَب : ضرب من العَدْو تعدو به الخَيْل . الأوشال : جمع وَشَل : الماء القليل .

م يمثّل خَيْل التّغلبيّين الخارجة من القتال بالسّباع السّاعية إلى الماء ، أي العادية بسرعة دون خوف أو وجل .

٣ ـ المُجْتَنَب : أي الخيل التي يُجتَنَب ركوبُها ، التي تُساق إلى جنب الإبل ولا تُمْتَطى إلاّ في القتال . أسْرُه : خلْقه .

م يستكمل وصف تلك الخَيْل ويقول إنّها لا تُمْتطى إلاّ في القتال ، تعظيماً لها وحفاظاً على نشاطها ، وإنّها شديدة الخَلْق ، تمشي ، فتبدو وكأنّها تختال اختيالاً .

٤ ـ المُمَرَّة : المُدْمَجَة . الجرْيال : صباغ أحمر .

لولا ما أردف به تخصيصه من بالملوك ، وقتل الملك هو القتل البطولي ، الملحمي ، الخارق . وقد ألمح الى ذلك عمرو بن كلثوم بقوله ـ :

وسيّدِ معشر قد توّجوه بتاج الملك يَحْمي المُحْجرينا
تركنا الخَيْلَ عاكفة عليه مقلَّدةً أَعنَّتها صفونا

والأخطل في زهوه بخيل بني قومه ، يقرنها بالسباع في سيرها وطلعتها ، بل إنّها لا تسير ، إذ تختال اختيالاً . والخيل هي رمز لأصحابها وما ينميه اليها ينتمي اليهم . وهو ما زال يهتدي في ذلك الى التشبيه الدّاني والنّائي ، في آن معاً . ذاك أنّه إذ تقع عليه يأخذك بصدقه وواقعيّته، ويظلّ ، مع ذلك، نائياً لأنك قلّما تقع عليه بنفسك في البداهة . فالعلاقة بين الخيل والاسود ليست مبذولة لأن الأولى تؤثر فيها خاصة الجمال والسرعة ، فيما يغلب على الثانية معنى الشجاعة المطلقة . إلا أن الأخطل استهدى عبر ملامح الخيل على عنجهيّة الأسد الزّاهي بقوّته .

ويردف ، إثر ذلك ، قائلاً :

وإذا سَما للمَجْدِ فَرْعا وائِلٍ واستَجْمَعَ الوادي عَلَيْكَ فَسالا ١
كُنتَ القَذى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأَتِيُّ بهِ ، فضلَّ ضَلالا ٢

١ ــ الشّرْعَبيّة : موضع في الجزيرة كانت فيه وقعة بين تغلب وقيس ، وانتصرت فيه تغلب .

م يقول إن الجحّاف السّلمي فجع بما أصاب بني قومه في وقعة الشرعبيّة ، إذ رأى التغلبيين قد أجهزوا عليهم ، ولم يعفّوا حتى عن أطفالهم .

فَرْعا وائل : بكر وتغلب . استَجْمَع الوادي عَلَيّك فَسالا : كناية عن الجموع المُتَدَفّقَة منهم تدفق السّيل .

٢ ــ الأتيّ : السيل الذي يأتي فجأة ، لا يعلم من أين قدومه .

م يشبه جريراً بالقذى اليسير على متن ذلك السّيل المُتَدفّق ، الذي يذهب به كل مذهب .

ولقَدْ وطِئْنَ على المشاعِرِ مِنْ مِنى   حتى قذَفْنَ على الجبالِ جِبــالا ١
فانعَقْ بضَأْنِكَ يا جرِيرُ ، فإنَّمــا   منَّتْكَ نَفْسُكَ في الخَلاءِ ضَلالا ٢

ولقد استعادَ الأخطل ، ثمة ، اسلوبه المأثور الذي يبثُّ به المعاني في أقصى غلوائها ، فيما يفيده من خبرته بالتّجارب الحسيّة الواقعيّة . وهو لا يبذل غايته بذلا ، بل تراه يستعير لها ، إذ يقرن زحف الجيش بانهمار السَّيْل الذي لا يَدَعُ شيئاً في سبيله . وقد لا يكون ذلك كلّه مبتكراً ، إلاّ أنَّ الأخطل عمّقه من خلال إيجازه له ونسبته الى السّيل بنسبة مباشرة كأنه لا يقوم على المقارنة والمماثلة ، بل على اليقين الحقيقي والفعل الواقعي . لقد استهدى في السّيل على معنى القوّة التي لا تُردع ولا تُردُّ ووحّد بينه وبين ما في نفسه من قوّة الجيش واندفاعه . فالأحداث والمظاهر لا تجوز على أديم نفس الشاعر ، بل تُوغل فيها بالدَّهشة والترَوُّع والانفعال ، ويخلص منها في وعيه أو لاوعيه الى معانٍ يستعيرها لتجسيد انفعالاته الأخرى . ولنتمثّل فعل : « سال » وما ينطوي عليه من معنى الحشد والسرعة. إنها النزعة الماديّة المتحدّرة من صلب الشعر الجاهلي ، ولكنها ليست الماديّة العمياء ، بل إنها نوع من الحلول في رموز المظاهر والتوحيد بينها وان كانت متباينة . فإذا كانت تلك حال الجيش المنهمر انهماراً ، فأيّاً يكون شأن جرير فيه . إنه القذى والغثاء الذي يدور في كل اتّجاه . ولا يُعادل عظم الصورة التي وصف بها الجيش الا عظم الصورة التي حقّر بها خصمه . هكذا يتآلف الفخر والهجاء في شعره ،

---

١ – مِنى : واد ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم . المشاعر : المَناسِك .
م يقول إن سيل التغلبيين تَدَفّق على منى ، فبدا كالجبل الذي يمتطي جبلا آخر . وشعراء الفخر يدأبون على التوسّل بلفظة « جبل » للتكنية عن العلو والشموخ ، وقد أسرف الفرزدق في ذلك .
٢ – انْعَق : النعيق دعاء الراعي للشاء .
م يحقّر من شأن جرير ويدعوه إلى ملازمة شياهه والقيام عليها ، إذ لا نصيب له فيما عدا ذلك . وهو لا يبرح يتعاظم ويتبجّح إذ يُلْفي ذاته وحيداً ، فيما يَجْبن إذ يواجه المُقاتلين .

يسمو أحدهما بالآخر ويتضاعَفُ به . فالسّيل الصاخب المنحدر ، فجأة ، غالى بصورة القذى وتفاهته وقلّة شأنه . ولا بدع ، بعدئذ ، في القول ان الهجاء والفخر هما وجهان متباينان لمعنى واحد . إلا أن القذى الذي قرنه به لا يعدو الصورة الإفتراضيّة الوهميّة إذ لا قبل لنا قطُّ بتمثّل جرير بشكل قذى في المشهد الفعليّ ، القائم . وربما بدت صورة استطراديّة خلص اليها بالضرورة من تشبيه الجيش بالسّيل . هنا توسّل الشاعر الخيال ، لكنه خيال تمثيلي ، تشبيهي يستحضر المعنى من مقارنته بمشهد دون أن يخفت فيه وينطفىء ضوءُ العقل المتفكّر ، المقارن . وهذه الصورة تتباين عمّا يطالعنا في قوله :

فانعق بضأْنك ، يا جرير ، وإنّما   منّتْك نفسك في الخلاءِ ضلالا

ذاك ان المهجوَّ أقام أمامنا في مشهد واقعي ، لا تشبيه ولا افتراض فيه ، فهو مقتبس ومستمدٌ من أديم الظاهرة الفعليّة الحيّة . وهنا تضاءل قدر الخيال وسمت عليه الكناية مع ما تُضمره وتُظهره من دلالات قيميّة بالنسبة الى واقع العصر والبيئة . فقومُ الشاعر تتدفّق بطولتهم كالسّيل ثورة وحماساً ، فيما يلفى جرير ساعياً وراء الماشية يرعاها وهو ينسج الأماني المخادعة التي تخذله ايّما خذلان عندما تتصدّى للواقع . إنه يتوهّم ذاته قادراً على مساماة الدّارميين :

مَنَّتْكَ نَفْسُكَ أَنْ تُساميَ دارِمـــاً   أَوْ أَنْ تُـوازِنَ حاجِبــاً وعِقالا ١
ولقَدْ ركِبْتَ ، جريرُ ، أمراً عاجزاً   وَمَنَحْتَ عَوْرَةَ أُمّكَ الجُهّـــالا ٢

---

١ ــ تُسامي : أي تفاضله في السموّ . دارم : من جدود الفرزدق . حاجِب وعِقال : من جدود الفرزدق أيضاً .

م أي أن نفسه غرّرت ونزعت به إلى ادّعاء مجد دارم وحاجب وعقال ، بالرّغم من هوانه وضآلة قدره .

٢ ــ م أي أن جريراً سعى إلى ما لا طاقة له به ،وجعل الجُهّال يتداولون المساوىء والمخازي اللاحقة بأُمّه .

وإذا وضَعْتَ أَباكَ في ميزانِهِمْ قَفَزَتْ حديدَتُهُ إِلَيْكَ ، فَشالا ١
إنَّ العَرَارَةَ والنُّبوحَ لـدارِمٍ والمُسْتَخِفُّ أَخوهُمُ الأَثْقالا ٢
أَلمانِعينَ الماءَ ، حتى يَشْرَبوا عِفَواتِهِ ، وَيُقَسّموهُ سِجالا ٣
وابنُ المَرَاغَةِ حابسٌ أَعْيارَهُ قَذْفَ الغَرِيبَةِ ، ما يَذُقْنَ بِلالا ٤

وهذه المعاني أيسر من التي تقدّمتها إذ وقف فيها عند حدود التعداد والتقرير والتمثيل ، وبخاصة في ذكره للموازنة التي شال بها أبوه شيلاناً عنيفاً لقلّة قدره وهزاله . وهذه الصورة مغرقة في البدائيّة والكثافة ، إذ قرن فيها القدر والكرامة بكفّة الميزان في حدودٍ انعدم بها الخيال وتعفّت وظيفة الخلق . وفضلاً عمّا تقدّم تراه يكرّر المعاني ، كذكره لاستقائهم عفوة الماء ، فيما يقيم جرير في الذّيل لا يجرؤ على الورود .

١ ــ شال : ارتفع .

م يقول إذا وازنت أباك بهم ، رجّحوا عليه لحقارته .

٢ ــ العَرارة : الشّدة . النُّبوح : الجمع الكثير الحَلبة .

م يمتدح بني دارم بالقوّة وكثرة العدد ويقول إنّهم ينجدون أخاهم ولا يتَنَكّرون له ، عندما تحيق به المصائب .

٣ ــ عِفَواته : جمع عِفوة : صفوته وخياره .

م أي أنّهم لعظم قدرهم يتقدّمون النّاس في ورود الماء ولا يدعونهم يقبلون عليه إلا إثرهم .

٤ ــ المَراغة : أم جرير ، لقّبها بذلك الفَرَزْدق والأخطل . والمراغة هي الأتان التي يرتادها الفحول ولا يُمْنون عنها . أعْيارهُ : جمع عير . الغَريبة : النّاقة التي تُودع في إبل ليست منها . بِلال : قليل من الماء .

م أي أن جريراً منبوذ في النّاس مذلول فيهم .

ولا يعدو ذلك قوله :

في دَارمٍ تاج الملوكِ وصهرها ... أيام يربوع مع الرُّعيان ١
مُتَلَفّف في بردة حبقيّة ... بفناءِ بيت مذلة وهوانِ ٢
يغذو بنيه بثلَّةٍ مذمومةٍ ... ويكون أكبر همّه ربْقانِ ٣

وهو يكرِّر الهزء به خلال استقاء الماء :

وإذا وردت الماءُ كان لدارمٍ ... عفواته وسهولة الأَعطان

ويكرِّر كذلك الموازنة :

وإذا وضعْتَ أباك في ميزانهم ... رجحوا وشال أَبوكَ في الميزانِ

خلاصة حول هجائه لجرير :

يحاول الأخطل أن يؤلِّف المخازي ويجمعها حول خصمه ، فيُنيطها به وبكل ما يتصل به ، أكان ذلك في شرابه الذي يفد فيه بذيل الناس ، أم في طعامه الخبيث

---

١ ــ دارم : من أجداد الفَرَزْدق . أصهَر إلى قوم : تزوَّج فيهم . يَربوع : من أجداد جرير .
م يقول إن الدّارميّين كانوا يحملون تيجان المُلوك ويصاهرونهم ، فيما كان جدُّك يرعى الماشية مع سائر الرعيان .
٢ ــ حَبَقيّة : لعلّها نسبة إلى صانع هزيل الصنعة .
م يستكمل معنى البيت السّابق ويقول إنّه يرتدي الأردية الحقيرة الزريّة ويقيم في بيته الذّليل الحقير .
٣ ــ الثلّة : أصلها في الصّوف وهنا للتدليل على اللّحم الرديء . الرِّبْق : حبل يُشدُّ في عنق البُهْم .
م يهجوه بإطعام بنيه لحماً رديئاً فاسداً وأنّ همّه يقتصر على امتلاك حبل يقود به غنَمه وسواها للرّعي .

الذي يأكله منفرداً ، أم في مسكنه الزَّري الذي يقيم فيه معتزلاً لا يحضر أندية الرَّأي ، أم لباسه الذي لا يعدو العباءة الحبقيّة ، فضلاً عن أعماله كسوق البعران ورعاية الماشية ، ولا يغفل عن أبيه وأمّه ، يمثل الأول قابعاً في ذلّه ، تقتصر همومه على حراسة الأغنام ، فيما ينهد أعداؤه إلى القتال على متون الخيل ، كما أنه يصوّر والدته وسائر نساء قبيلته ويُنْمي اليهنّ الفحش بحيث تزني الواحدة منهنّ بعيونها ، كما ان أولادها لا يعفّون عن امتهانها في الخدمة ، وقد بلغت من البخل وضآلة القدر أنها تضنُّ ببولها . وعبر ذلك كله يترسّم لهم صورة تقرنهم بالعبيد والماشية ويوازن أباهم في ميزان المجد الذي يشيل فيه ، إذ أنّه قاعد عن القتال ، فاقد النخوة ، يطفىء ناره عندما يستنبح الضيفان كلبه .

وتراه يترسّم ، لقاء ذلك ، صورة البطولة لقومه وقوم الفرزدق في أجدادهم وأيامهم ، وفي بيوتهم الشاهقة وخيلهم وبطشهم ، وما الى ذلك .

ويمكننا القول ان اسلوبه العام في الهجاء هو الاسلوب النفسيّ الذي يقوم على تحليل واقع المهجو والتفطّن الى مواضع العاهة والنقص في سيرته ، يعزلها ويغالي بها ويشبّهها ويتكنّى عليها ، ممّا لا مجال للافاضة فيه ، إذ قدّمنا ذكره .

الباب الثالث

أهاجيه في القيسيّين

القيسيُّون هم أعداءُ التغلبيين المباشرون ، قامَتْ بينهم الأيام والمعارك ، بعضها لهؤلاء وبعضها الآخر لأولئك ، في سلسلة من الثارات الدامية الّتي لم يعفُّوا فيها عن التمثيل بعضاً ببعض . وقد نوّهنا بذلك كلّه أو ببعضه في الفصل الأوّل ، وإنّما نتولّى في هذا الباب الشعر الذي تولّد من تلك الوقائع ، وقد دوّى في قصائد الأخطل بالزراية ، حيناً ، وبالنقمة والوتر ، حيناً آخر . وثمة تبايُن بين هجائه

للقيسيين وما طالعنا في هجائه لجرير . ذاك أنّه تواقع مع هذا الأخير في معركة كلاميّة ، ومباراةٍ ذهنيّة . أفاد كلٌّ منهما فيها من خبرته ومعرفته بماضي الأيّام وتاريخ القبائل ، فضلاً عن التقاليد والعادات وما صلح وما طلح منها ، يؤدّيان ذلك في ايقاع أدبي تتعاظم به حدودها وأُطرها . وأيّاً ما كان وقع الكلام ، فإنه لا يوازي وقع السّيف ولا يوازنه ، إذ ان التواقع بالسّيف يصحبه القتل والترويع ، وأيام لا نهاية لها بين كرٍّ وفرٍّ ، وقتال وهدنة . فهذا الهجاء هو الهجاء الدّامي ، فيما كان ذاك الهجاء الكلاميَّ ، أو الهجاءَ النظريَّ او الجدليّ ، إذا جاز التعبير . فهو أشدُّ حدّةً وجدّيّةً ، تتميّز فيه قسمات الشاعر وتَرَبُّدُه ، وتراه يُرغي ويُزبد ويَتَألّب ويحتشد ، متنازعاً في ذلك كلّه بين الذلّ والمجد الفعليين ، بل بَيْنَ الحياة والموت ، في أحيانٍ كثيرة . فهو يقول ، مثلاً :

إذا ما قُلْتَ قَد صالحتَ بَكْــــراً   أَبي الأَضْغانُ والنَّسَبُ البعيــدُ ١
ومُهْـــراقُ الـــدّماءِ بـــوارِداتٍ   تَبيـــدُ المُحْزِنـــاتِ ولا تَبيـدُ ٢
وأَيّامٌ لَنـــا ولَهُمْ طِـــــوالٌ   يَعَضُّ الهـامَ فيهِـــنَّ الحديـدُ ٣
هُمـــا أَخوانِ يصْطَليـــانِ نـــاراً   رِداءُ المـوت بَيْنَهما جـــديدُ ٤

١ – م يقول إنّه إذا ما همّ بمصالحة البكريّين ، فإن الأضغان المتوارثة منذ القدم بينهم وبين قومه تمنعه عن ذلك وتُحفِظه عليهم من جديد .
٢ – الواردات : هضاب صغار في جبلة ، وفيها يوم معروف بين بكر وتَغلب وقد انتصر التغلبيّون على البكريّين وقتلوا همام بن مرّة أخا جسّاس .
م يقول إنّه يحول بينه وبين الصّلح الدّماء الّتي أُريقت في يوم واردات والّتي لا تزول أحقادُها وأحزانُها وإن زال الحزن من النّفوس جميعها .
٣ – م ويحول بينه وبين الصّلح كذلك القتال الشّديد الذي ظلّ يَشُبُّ أواره بين قومه وبينهم وتَضْرب فيه السّيوف هامات النّاس وتُخلّفُهم صرعى .
٤ – أخَوان : إشارة إلى ما كان بينهما من مودّة قبل حرب البسوس .
م : يقول إنّهما لا يزالان يُصْلَيان بعضهما بعضاً الحرب ، وإن رداء الموت لا يزال يصطبغ بدمٍ جديد ، إذ لا يكفّون عن تسافك الدّماء .

يَشولُ ابــنُ اللَّبــونِ إذا رآنــي ويخشاني الضُّواضيــةُ المُعيدُ ١
أَتُوعِدُني الوِبــارُ بَنــو سُلَيــمٍ وما تَحْمي الوِبارُ ولا تَصيــدُ ٢
فلا جَرَحَتْ يدي بِبنــي سُليمٍ ولا شِعْري فتهْجوَني الشَّريــدُ ٣
ولوْلا أنْ أُخَشَّنَ صَدْرَ مَعْــــنٍ وعُتْبَةَ قامَ بالحَرَمِ النَّشيــدُ ٤
وكُنْتُ إذا لَقِيتُ عَبيدَ تَيْــمٍ و تَيْماً قُلْتُ أَيُّهُمــا العَبِيــدُ ٥
لَئيمُ العالَمينَ يَسودُ تَيْمــاً وَسَيِّدُهُمْ وإنْ كَرِهُوا مَسُــودُ ٦

٥ – يَشول : هنا يفزع . اللّون : النّاقة ذات الدرَّة . الضُّواضِية : الجسيم من الدواب .

م : يفخر في هذا البيت ويقول إن عدوَّه إذا ما لقيه يَفْزَع منه ويولّي عنه كما يفزع ابن النّاقة من الفحل ، كما أن الفُحول القويّة الشّديدة الضّراب تخشاه وتولّي عنه . ومؤدى المعنى أنه يثير الرعب في الكبار والصّغار والأقوياء والضعفاء .

٦ – الوِبار : جمع وَبْر : دُوَيَة كالسنّور كَحْلاء اللّوْن ، لها ذنب قصير .

م : يحقّر من شأن بني سُلَيْم ويقول إنّهم كالدُّوَيبات الصَّغيرة التي لا طاقة لها بحماية نفسها والتصدّي لسواها .

٧ – الشّريد : هم فئة من السّلَيْميين .

م : يعجب أن يهجوه بنو الشّريد ، وهو لم يطعن بهم بسيفه أو بشعره .

٨ م : يقول إن الهجاء كان قد استثير وذاع في الناس بهم ، لو لم يَرْدَعْ مَعْناً وعُتْبَة .

٩ م : يهجو التّيم في هذا البيت ويقول إنهم في هزالهم وقُبْحهم وما يقومون به أشبه بعبيدهم ، فإذا لقيتهم لم تميّزْ بينهم وبَيْن العبيد .

١٠ م : يقول إنّهم يسوّدون علَيْهم أشَدَّهم لؤماً ، فيبقى عبداً مستَعْبَداً للآخرين رغْماً عنهم .

فالأبيات الأربعة الأولى تؤكّد ما ذهبنا إليه من أمر الثارات بينهم وبين القيسيّين : فالأضعان والدّماء والأيام الطويلة تحول به عن مصافاتهم . وهو يقرّر واقع حاله ، هنا ، أكثر ممّا يهجو أعداءه . بل إنّه يُعَدِّدها واحداً واحداً ، ويشير إلى ما هو قائم من أمره معهم . فبنو سليم يوعدونه وبنو الشريد يهجونه وينتهي إلى الإقذاع بالتّيميين ، قارناً إياهم بعبيدهم. والبيتان الأخيران هما من المأثور في هجاء الأخطل ، مع ان المعنى الّذي سلبهما به ليس مبتكراً في شعره . فقد سبق لنا إلمام بمثله في هجائه لبني كليب إذ نعتهم به في التّلميح دون التّصريح . إلا أنه أناط به هنا قدرة إيحائيَّة خاصَّة من التكنيّة التي وقّعه من خلالها وعرضه بها . لقد أضفى عليه صفة البداهة والبراعة متظاهرا بالموضوعيَّة . فهو إذ يلتقي بالتّيميين ، صدفة ، يتعذَّر عليه أن يُمَيِّز بينهم وبين عبيدهم . وآية الأداء الصّفة اليقينيّة التي أناطها به بحيث لم يَعُد لك قبل بردّه لعظم بداهته وواقعيّته . وهكذا فإن هؤلاء يساوون عبيدهم في مظهرهم ولباسهم ومطاياهم ومطعمهم ومشربهم ومساعيهم ، وقد أسقط عنهم كل مكرمة متّصلة بهذه المظاهر أو القيم . ومهما قلّبنا وجوه التأويل والتّفسير في ذلك ، فان المعنى باجماله يظلّ أعمقَ وأشمل لان تلبُّسهم بلبس العبوديّة حال بينهم وبين أي وجه من وجوه الفخر والسُّؤدد .

ومن هذا المعنى الإجمالي ينحدر إلى شيءٍ من التّفصيل إذ يقول :

لئيم العالمين يسودُ تيمـــاً ۝ وسيِّدُهـم ، وان كرهـوا ، مَسُودُ

ولقد توسّل للغلوّ بلُؤْمهم صفة الاطلاق بالنّسبة والاضافة والتأويل . فسيّدهم ألأمَ العالمين ، ولفظة « العالمين » هي لفظة اطلاقيّة تفيد نوعاً من الغلوّ السّاقط ، الدّاني المتناول لأنّه جارٍ على ألسنة العامة ، بخلاف زعمه أنّه سيّدهم إذ استبطن فيه الدّلالة على معنى مُضْمر . ذاك أنه إذا كان سيّدهم هو أشدّ النّاس لؤماً ، فهم ، جميعاً ، لؤماء ، بل إنهم يتبارون في اللّؤم . والعربيّ لم يكن يؤمر عليه إلا من تحقّق فيه المثال الأعلى الذي يصبو إليه ، يؤثّرون أشجعهم وأمجدهم ، أما التّيميون ، فيُسَوِّدُون عليهم ألأمهم إذ ليس لهم من دون اللُّؤم غاية . ولقد أفاد

الأخطل المعنى الهجائي من خبرته بواقع السياسة والتّقاليد في القبائل . فجاء داخليّاً ، فنيّاً . ومع ذلك فان لؤمه لا يشفع به ولا يـُجـْديه، إذ تراه سيّداً على قومه وعبداً للأخرين . فهو عبد سيّدُ عبيد .

وقد يطفو على لجـَّة إنفعاله نوعٌ من الشـَّماتة ، يشعر به إثر ما باء بثاراته من واتريه وأزْعجهم عن ديارهم وألحقهم بما دونها ، أذلاّء ، مكظومين :

وقَدْ عَلِمَ النِّساءُ إذا التَقَيْنـــــا ‏ وهُنَّ وراءَنــا ، أَنَّــا نَغــارُ ١

تَرَبَّعْنا الجزيرَةَ ، بعْدَ قيْــــسٍ ‏ فأَضْحَتْ وهْيَ من قيسٍ قِفــارُ ٢

يُزَجُّونَ الحميرَ بأَرْضِ نجْـــدٍ ‏ وما لهُمُ مِن الأَمْرِ الخِيــارُ ٣

رَأَوْا ثَغْراً تحيطُ بـهِ المنــايا ‏ وأَكْبَدَ ما يُغَيِّرُهُ الغِيــارُ ٤

١ ــ نَغار : أي أنّنا نَنْدفع بحميّة .
م : يتحدث عن نساء بني تَغْلب ويقول إنّهن يصحبنَنا إلى القتال ويقمْنَ من دوننا . ويشاهدنَ حميّتنا واندفاعنا في القتال .

٢ ــ يشير هنا إلى تربع التغلبيّين للجزيرة تحت رئاسة علقمة بن سيف التغلبيّ .
م : يقول إنّهم أجلْوا القيسيّين عن الجزيرة وأقاموا فيها من دونهم، وإنّها أقفرت منهم فلم يعد يظهر لهم فيها أثر .

٣ م : يقول إنّنا نَفَيْناهم عن الجزيرة إلى ديار نَجْد مُكْرهين ، فتولّوا عنْها ودأبُوا على سَوْق الحمير فيها . وقد تَخلّوا عن القتال . وقوله إنّهم يُزجون الحمير فيها ، إنّما هو إشارة إلى تخلّيهم عن ركوب الخَيْل والإبل وهي مطايا الفروسيّة والقتال عصرئذ .

٤ ــ الثّغْر : موضع المخافة . أكْبَدَ : حصن . الغِيار : الأحْداث .
م : يقول إنّهم شهدُوا من دون لقائنا موضعاً يحيقُ به المَوْت وحصناً حصيناً لا طاقة لأحداث الزّمان به .

تسامي مارِدون بـــهِ الثَّرَيّـــــا وأَيْدي النَّاسِ دونهُــمُ قِصـــارُ ١

ففي البَدْء يفخر بدفاعهم عن نسائهم ، لا يدعونهنَّ للسبي ، كما أنَّهم نكّلوا بعدوِّهم وانتصروا عليه ، فهرب من دونهم ومضى يسوق الحمير في منفاه . وقد كانت الجزيرة موضع نزاع دائم بين التَّغلبيين والقيسيين . وهو إذ يفخر باجلائهم ، إنَّما يهجوهم هجاءً مُقْذعاً يبلغ ذُروته بقوله : « يزجُّون الحمير بأرض نَجْد » وتزجية الحمير هي أحد المعاني الهجائيَّة المتكرِّرة . فالحمار ليس مطيَّة فروسيَّة ومجد ، بل مطيَّة هزال وقلَّة شأن ، وذكره في هذا المقام يثلب الخصم ببطولته ويعدمه إياها ويزيلها عنه . ولقد تبدَّل معنى الهجاء تبدُّلاً جزئياً عمّا كان عليه في هجاء جرير . فهو لم يشمت بقومه ولم يَفْخر بهم عليهم باجلائهم عن مواقعهم ، إذ لم تَقُمْ بَيْنهم وبين قومه حروب مباشرة ، متواصلة ، ولكنَّه عيَّرهم بسوق الحمير ، والتَّهدُّج ، إثرها . فالأخطل قد يستمد معانيه من موضوعه ، فتتعدَّل وتتبدَّل في قسم منها وتختصّ بقوم أو أفراد دون سواهم . ومن مظاهر ذلك ، أيضاً ، أنَّ نزعة التَّفاخر طَغَتْ عمّا كانت عليه قبلاً ، واختصَّت بالمعاني الفروسيَّة وهي تلج في حدود الهجاء غير المباشر . فهو إذ يدع المنايا تحيط بثغرهم . إنَّما يعتز ببسالة بني قومـه ويزري بجبن أعدائهم . فالهجاء هنـا لا يخلص ولا يتَحرَّرُ ممَّا دونه ، بل تراه يتواتَرُ بيتاً إثر بيت ولا تصفو معانيه ولا تباشر في قصيدة كاملة . وغالباً ما يتخذ شكل الشماتة والتعبير ، كما تقدَّم وكما يلي :

أَلا سائِلِ الجَحّافَ ، هَلْ هو ثائرٌ بقَتْلى أُصيبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وعامِرِ ٢

---

١ ـ مارِدُونَ : هي قَلْعة ماردين الشّهيرة على قنّة جبل الجزيرة .

م : يفتخر بحصن ماردين ويقول إنّه يرتفع بعزتّه إلى النّجوم ، فلا طاقة لأيدي النّاس بإدراكه ، وربما تمثل بهذه القَلْعة على قوّتها ومناعتها في وجه الأعداء ، فضلاً عن تمثّله بها على عظم مَجْده وشموخه وعجز الآخرين عن مساماته .

٢ ـ الجَحّاف : من السّلَميّين أعداء بني تغلب وله يوم البشر الذي أوقع فيه بالتغلبيين شرَّ وقعة .

←

أَجَحّافُ إنْ تصْطكَّ يوماً ، فتصْطدمْ عَلَيكَ أَواذيُّ البُحورِ الزَّواخِـــرِ ١
تكُنْ مِثْلَ أَقذاءِ الحَبابِ الذي جرَى بهِ الماءُ ، أَوْ جاري الرِّياحِ الصَّراصِرِ ٢
لَقَدْ حانَ كلَّ الحَيْنِ مَنْ رامَ شاعِراً لدى السَّوْرَةِ العُلْيا على كلّ شاعِرِ ٣
يصولُ بمَجْرٍ لَيْسَ يُحْصي عديدُه ويَسْدرُ مِنْهُ ، ساجِياً ، كلُّ ناظِرِ ٤

فالبيت الأوَّل هو بيتُ شماتة مباشرة ، استثار به الجَحاف بحيث جمع قومه وأغار على التغلبيين في يوم البشر فقتل منهم مقتلة كبيرة . والهجاء مستمدٌّ من الأحداث التاريخيّة ، بل إنّه ليترجح بين الشماتة والفخر ، بعكس معنى البيت الثاني حيث يمثل جموع قومه بالبحور الزّاخرة وخصمه بالغثاء والأقذاء وهي صورة ألممنا بمثلها في قوله :

← م : يخاطب الجحّاف ويعيّره بالقتلى الذين صرعهم التغلبيّون من بني سليم وعامر ويدعوه إلى الثّأر لهم من قاتليهم ساخراً به .

١ – ٢ – تصطك : تندفع . الأواذيّ : الأمواج الكبيرة . الحباب : الفقاعات الّتي تغشى الماء . الصراصر : جمع صرصر : الرّيح الباردة .

م : يقول للجحاف إذا اقتحم عليك التغلبيون بأمواجهم الزّاخرة ، فإنك تُلفى كالزّبد الطّافي الهزيل على موجهم الهدّار الذي تعْصف فيه الرّيح الباردة الصرصر .

٣ – حانَ : هنا ضَلّ .

م : يفخر في هذا البيْت ويقول إنّ من يتصدّى له يضلّ غاية الضّلال عن غايته ، إذ لا طاقة لأيٍّ من الناس بمطاولته ، لأنه قد أوفى إلى غاية ما يدركه شاعر من المَجْد والعُلى .

٤ – المَجْر : الجيش الكثير . السّجو : سكون الطّرْف ودوام النّظر . سَدِرَتْ عينه : إذا لم تكد عينه تبصر .

م : يعتز في هذا البيت بالجيش التغلبيّ الذي يؤلبّه ويقول إنّه كثيف لا يحصى عدده وإن من ينظر إليه تجحظ عينه وتسكن وتكاد تعمى لهول ما ترى .

وإذا سَمَا للمجد فرعــــا وائــل   واستجْمَــعَ الــوادي عليكَ فسالا
كنْتَ القذى في موج أَكْدَرَ مُزْبدٍ   قذف الأَتِيُّ به ، فَضَلَّ ضَلالا

فالمعنى مطروق ومشترك بين هجاءيه في جرير والقيسيين ؛ إلا انه يؤدي لهجاء الشّماتة معنى آخر ، بل معاني أخرى بقوله :

لحى اللهُ قَيْساً حينَ فرَّتْ رجالُهــا   عن النَّصَفِ السَّوْداءِ والكاعبِ البِكرِ ١
وظَلَّتْ تُنادي بالثُّديّ نِساؤُهُــمْ   طوالِعَ بالعَلْياءِ ، مائلةَ الخُمْرِ ٢
وإنْ يكُ ، قدْ قادَ المَقَانبَ ، مرَّةً   عُمَيرٌ ، فقَدْ أَضْحى بداويّةٍ قَفْرِ ٣
تَظَل سِباعُ الشَّرْعبِيّةِ حَــوْلَهُ   رُبوضاً ، وما كانوا أَجنُّوهُ في قبْرِ ٤

١ ــ النصَف السّوداء : أي الامة .
م : يشمت ببني قَيْس ويلعنُهم لنزوحهم وهربهم ، مخلّفين إثرهم نساءهم الحرائر وإماءهم على السّواء ، أي عندما فرّوا دون أن يدافعوا عن عرضهم أو يحرصوا على حمايته .
٢ ــ الخُمْر : جمع خمار وهو ما تغطّي به المرأة رأسها .
م : يقول : إن نساءهم كن يقبضْن على أثدائهن ويناشدن بها القيسيّين للدفاع عنهن ، أي أنهن كن يستحلفنهم باللّبن الذي أرْضَعْنه لهم منها ، هاربات مولّيات صاعدات في البطاح ، وقد مالت عنهُن خُمْرهن من الهلع والخوف .
٣ ــ المقانب : هنا الجيش . الدّاويّة : الصحراء المقفرة التي لا أعلام فيها .
م : يشير هنا إلى فتكهم بعُمير بن الحباب ، زعيم بني سُليم ، ويقول إنّه بالرّغم من اقتياده للجيش واقتحامه للقتال ، فقد قُتِل وخُلّف جثمانه في الصّحراء النائية المقفرة .
٤ ــ الشّرْعَبيّة : أسم موضع كان فيه يوم لتغلب على قيس ، إلاّ أن عميراً لم يقتل في الشرعبية بل في الحشّاك .
م : يقول إن السباع الشّرعبيّة تربض حوله في القَفْر حيث خُلّفَتْ جثته دون أن يجنّها أي أن يحتويها قبر . وذكره لتخليفه في القفر دون قبر ، إنّما هو وسيلة لتحقيره وتحقير قومه بما أصاب رئيسهم من زراية ، حتى إثر موته ، اذ لم يقدَّر له أن يُدفن كسائر الأموات .

صريعاً بأسْيافٍ حِدادٍ ، وطَعْنَـــةٍ تمجُّ على متنِ السِّنانِ دمَ الصَّدْرِ ١
عدا زُفَرُ الشَّيْخُ الكلابيُّ طَـوْرَهُ فَقَدْ أَنزَلَتْهُ المنْجنيقُ منَ القَصْرِ ٢
فَسيروا إلى أَهْلِ الحجازِ ، فإنَّمـــا نفَيْناكُمُ عن مَنْبِتِ القَمْحِ والتمرِ
ونَحْنُ حدَرْنا عامراً ، إذْ تجَمّعَتْ ضِراباً وطَعْناً بالمُثَقَّفَةِ السُّمْـــرِ

وكما فخر ، قبلاً ، بقوله :

وقد علم النِّساءُ ، إذا التقينـــا وهنَّ وراءَنا ، أَنَّا نغـــارُ

تراه يزري بالقَيْسيين لتخليّهم عن نسائهم للسَّبي ، عن الأمة السَّوداء والفتاة الكاعب ، أي أنهم تخلُّوا عنهن ، جميعاً ، مساوين بين أقدار بناتهم الحرائر وامائهم المستعبدات. ثم أنّه ينمو ويتطوّر بالمعنى إذ يؤدّي له سورة أخرى أشدّ فاجعة وعاراً وذاك إذ تَسْتنجدُ الأمّهات المسبيّات بأولادهن ويستحلفنهم بالأثداء الّتي أَرضعتهم ، وقد تمزّقت حجبهن عن وجوههنّ . وهذا المعنى استجدّ في هجائه للقيسيين، وهو يَحْمل معنى العار الشّديد بالنّسبة الى العربي الذي شهر بغيرته العنيفة حتى أنه لا يَحْرج من كساءِ وجه إمرأته بالحجاب. والأخطل يبرز في اللّوحة الّتي يترسَّمها المعاني المهمة ويدعها تنتؤُ عمّا سواها مثال ذكره لمناداة أولئك النّسوة

---

١ — م : يقول إنّ أسْياف التغلبيّين الحادّة قد أصابَتْ منه مقتلاً وإنّها مجّت واستقَتْ من دمه .

٢ — عَدا طَوْرَه : أي تعدّاه إلى ما لا يليق به . أنْزَلَتْه المَنْجَنيقُ مِنَ القَصْر : إشارة إلى أن عبد الملك ، لما أرّاد المسير إلى مُصعب ، سار إلى قرقيسيا ، فحاصر زفر فيها ونصب عليها المَنْجنيق ، فأمر زفر أن ينادى في عسكر عبد الملك : لم نَصَبْتم علينا المجانيق ؟ قال : لنَثْلم ثلمة نقاتلكم عليها ، فقال زفر : قولوا لهم : أنّا لا نقاتلكُم من وراء الحيطان ولكنّنا نخرج إليكم .

بأثدائهن . وإذا ما سبين وحملن إلى الأعداء يشاب الأصل ، وهو عند العربي موضع تقديس .

وهناك معنى هجائي جديد آخر ألمَّ فيه بعمير بن الحباب الَّذي فتكوا به وخلَّفوه في القفر ، تحدق به الوحوش وتفترس جثته الَّتي لم تُوارَ في قبر . فالمعنى العام هو معنى القتل . ولكنَّ الأخطل تمطَّى به وجسَّده في إطار من الغلوِّ . إذ لم يُسمِّ القتل باسمه بل تكنَّى عليه وأضاف إليه ما يضاعف من وقعه . فهم قد قتلوه وخلَّوه دون قبر . فكأنَّهم يحقّرون من أمره حتى إثر موته ، ولا يعدو ذكره لقيام الوحوش عليه هذا الشَّأن ، إذ ان نهشها له وافتراسها لأعضائه ضرب من التَّمثيل به . فالتَّغلبيُّون لا يقتلون زعماء أعدائهم ، بل إنهم لهيبتهم وبطشهم يمنعونهم من مواراتهم . فتَبْقى جثَّتهم كجثَّة البهائم في العراء . وهذا المشهد هو مشهد واقعي فني . لأنه أختير من دون سواه وعزل وافرد ليقع وقعه ويُدوِّي دويُّه في النَّفس .

أما ما اعترى به زفر ، فإنَّه يتدنَّى عمَّا اعترى به عميراً ، إذ ذكر قسرهم إياه على النُّزول من القصر . وهو أمر يسير إذا قُوبل بالتَّمثيل الَّذي أجهض به حقده على عُمَيْر . فالمعنى انحدر وتضاءلَ ، ثم عاد وتوثَّب وانتزى به ، شامتاً بقوله :

فسيروا الى أهل الحجاز ، فإنمـــا نفيْناكُمُ عن منْبِتِ القمْحِ والتمْرِ

وإذا كان هذا المعنى مكروراً ، فإنَّه قلَّده حلَّة جديدة في هذا البيت وضاعف ما ينطوي عليه من الشَّماتة من ذكره للقمح والتَّمر وارتحال العدوِّ إلى القفار . والقمح والتّمر هما رمز الخصب ، وقد استأثر بهما التّغلبيُّون فيما نزح العدوّ ، وكأن الأخطل يأخذ عدوَّه بالقهر والتَّشفّي . ولسنا ندرك إلى أيِّ مدى ينتمي هذا المعنى إلى الفخر أو الهجاء . وقد كان الأمر كذلك ، منذ بدء عهد الهجاء في الجاهليَّة ، كأنه ولد توأماً للفخر يسيران جنباً إلى جنب ، تغذِّيهما البداوة بالإنفعالات العنيفة وذلك الزَّهو أو الطرَب الذي يصحب النَّفس البكر أو التي لم تدْلَهِمَّ فيها هموم الحضارة وتعقيداتها ولم تتفتَّح حدقتها على هاوية الأشياء .

والأخطل لا يزال يُردِّد معانيه السّابقة ، وبخاصة ما تعلّق منها بارغام العدو على النّزوح ، ممّا يطالعنا في الأبيات التّالية الّتي نحلّلها كنموذج لهجائه في القَيْسيين :

أَمعشرَ قيسٍ ، طالَ ما قدْ بَطِنْتُـــمُ مِن الخبْثِ .فاطوُوامِن فضولِ الخواصر ١
وسيروا إلى الأَرْضِ التي تَعْرِفونهـــا يكُنْ زادُكُمْ فيها فصيـــدَ الأَباعرِ ٢
كُلوا الكَلْبَ وابنَ العَيرِ والباقعَ الذي يبيتُ يَعُسُّ اللَّيلَ أَهْلَ المَفاقِرِ ٣
فَلَوْلا قُرَيشٌ ، عولجَتْ قُمَليَّـــــةٌ على أَعْجَفِ الذِّفْرى رقيقِ المَشافرِ ٤
كأَنَّ غراضيفَ اسْتِها فَوْقَ أَثْرِهِ وحَجْمَ تراقيها سكاكينُ جـــازِرِ ٥

١ ــ م : يخاطب القَيْسيّين ويقول إنّكم طالما تبطّنتم بالخُبْث حتى تورّمْتُم وانتفختم به ، فأقصروا عنه . وأزيلوا فضول خواصركم أي انتفاخ بطونكم به .
٢ ــ فَصِيد : هو مصران يملأ بما يُفْصد من دم النّاقة ثم يُطبخ ويؤكل .
م : يدعوهم إلى الابتعاد عن مقام النّاس إلى المواقع القاحلة التي ألفوها ، حيث يأكلون فصيد الأباعر وهو أحقر الطّعام وأذلّه بالنّسبة إلى العرب .
٣ ــ الباقع : الضَّبع أو الغراب . يَعُسُّ : يرقب ويتجسّس .
م : يدعوهم إلى أكل الكَلْب والبُعْران والضّبع أو الغُراب الذي لا يزال يتجسّس مواقع الفقراء ، يتسلل إليها ويفترس منها ، فالشاعر يعيرهم بأكْل ما لا يؤكل من البهائم لشدّة جوعهم وإملاقهم .
٤ ــ ٥ ــ قُمَلِيّة : امرأة قصيرة . أعْجَف : مَهْزول . الذفْرى : وراء الأذن . المشافر : جمع مِشفر وهو للبَعير بمنزلة الشّفة للإنسان .
م : يقول إنّه لولا القرشيّون لكانوا تصدّوا لهم وأعْملوا سيوفهم بنسائهم القَميئات القصيرات القامات اللّواتي لا يَزَلْن يَمْتطين البعير المَهْزول الرّقيق المشافر . فتبدو غراضيف استْهن أي عظام أعجازهن وتَراقيهنّ أي عظام أكتافهن وهن يمتطينه كأنّها السكاكين الحادّة التي يعمد إلَيْها الجزّارون . يصف بذلك شدة هزالهن وحقارة شأنهن ويحقّر من أمر القَيْسيّين بهنّ .

ففي البيت الأوَّل ينعى على القَيْسيين خُبْثهم ويمثله وقد ملأ جوفهم حتَّى ضاق به . والصُّورة مغرقة ، أيضاً ، في الماديَّة إذ اتَّخذ البطن أداة للتدليل على النَّفس ، وربَّما ابتغى من ذلك أن يَهجوهم بخبث زادهم ، فهم لا يطعمون إلا لؤماً ، وكأن غذاء الجسد يؤثر في النَّفس . والصورة هي ، من بعد ، صورة إيحائيَّة ، على ماديَّتها ، إذ ان الشعر لا يؤخذ بالفهم العقليّ ، بل بتلك السُّورة النَّفسيَّة الَّتي الَّتي تُقْنعنا وتؤثر فينا دون ان نتعيَّن سبباً جليّاً لذلك . وهذه الصُّورة، هي كذلك . صورةٌ شعريّة عميقة لقدرتها التَّجسيديَّة ولاضمارها باطناً عبر الظَّاهر .

أما فيما يلي ذلك فإنَّه يشمت بهم ويدعوهم إلى القيام في منفاهم ، بائسين ، جياعاً ، يطهون مصران البعران ، بعد أن يَمْلأُوه دماً ليسدُّوا رَمَقهم . وكان العربي يجد فيه أخبث الطَّعام وأرذله وأحقره ، إذ كان الدَّم لا يُؤْكل ، كما أنه حُرِّم في الاسلام . وقد لا يأكل أعداؤُه ذاك الطّعام فعلاً ، وقد لا يُمْلِقُونَ ذلك الإملاق ، إذ الشّعر لا ينقل،وحسب ، ما هو قائمٌ ، بل إنَّه يبتدعه ويقيمه بخلْقٍ من لدنه ، لأن المعاناة الشّعرية هي وجود فعليٌّ ، وما قاله فيها أتَّخذ صفة الحقيقة ، بل انها لأعْمَقُ ممَّا ظهر وانجلى منها . ففصيد الأباعر الَّذي أطعمهم إيَّاه تأدَّى من تفوق الشَّاعر في العثور على مشهد واقعي يفصح فيه عمَّا كان يعانيه ولقد اهتدى إليه بهداية الحدس أو بخبرته من ممارسة الأحداث ممارسة نفسيَّة .

وقد تتمثّل أو لا تتمثّل شكل ذلك الطعام ، وإنّما يكفي ن يكون طعاماً وأن يكون مشتقاً من البعير ومن مصرانه ودمه حتّى يأخذك بمثل القيء والغثيان . ذاك أن الأخطل يُبدع معانيه بألفاظها لمأثورة التي لا تنمُّ وحسب عن معناها ، بل تُضفره بهالات من الايحاء والبثِّ .

ولنتمثل قوله التالي :

كُلُوا الكلب وابن العَيْر والباقع الَّذي ... يبيتُ يعسُّ اللَّيْلَ أهـل المَفَاقـرِ

ولست أجد ن لفظتي « الكلب والبعير » تنطويان على الشتيمة ، هنا ، بل إنّهما لفظتان فنّيتان ، إبداعيتان توافقان منطق الإنفعال وسياقه الجاري مجرى الزّراية والتحقير والتّشفي . ولا قِبَلَ للشاعر بما دُونهما أو يقع في التعبير النثري المباشر . الشديد السُّقم . أيهما أبلغ دلالةً وانفذ يقيناً وايحاءً أن يقال إنّكم بتّم في قفر وفقر واملاق ، أم ان يدعهم يأكلون الكلب والعير والذّئب ؟ ومهما تألّبت في وصف معنى الفقر يظلّ هذا المشهد أعمق وأبلغ إذ انّ لفظة «الكلب» مشبعة بمعنى الذلّ والحقارة . فكيف بمن يأكله ويملأ منه جوفه . ولا يعدو ذلك لفظة العير ، وربما تسامت لفظة الذئب والغراب على ذلك كله لأن الذئب لا يقيم في الناس كالكلب والبعير ، وإنما ينفر منهم ويتربص بهم ، فإذا افترسوه بدلاً من أن يفترسهم ،فذاك يوحي بما لا حدّ دونه من معاني الإملاق والبؤس . وهذا المعنى ، من بعد ، هو معنى هجائي ، لكنه نفسيّ ، كما أنه يتضاعف بالفخر والشماتة واجهاض الحقد .

ويُوفي إلى ذروة ذلك بقوله :

فَلَوْلا قُرَيْشٌ عُولجَتْ قُمَلِيَّـــــــةٌ على أَعْجَفِ الذِّفرى ، رقيقِ المَشَافِرِ
كَأَن غراضيفَ استِهَا فَوْقَ أَثْــــرِهِ وَحَجْمَ تَرَاقيهَا سَكَاكِينُ جَـــازِرِ

ففي هذين البيتين يحشد الشاعر حشده في الألفاظ السلبيّة والأحداث المزرية . وقد لا يكون للفظة « قُمَليّة » وقع فنيٌّ فعليٌّ بذاتها ، إذ ينعتُ نساء بني قَيس بالقماءة ، وهي صفة عامّة ، تصحُّ أو لا تصحُّ فيهن . وقد اختارها الشاعر عَبْرَ سياقٍ هجائيٍّ ، عام ، إذ تمثّلْنَ له بهذا الشكل وان لم يكنّ عليه فعلاً . لقد مسخهُنّ سُخطه إلى هذه القماءة ، ثم تعدّى ذلك ، مستكملاً المشهد ، فجعَلهُن يمتطِينَ ، أبداً ، البعير الهزيل ، النافر العظام ، الرّقيق المشافر . والهجاء ينمو خلال هذه الألفاظ نموًّا شديداً وتتضاعفُ حدّتهُ ، لفظة إثر لفظة ، كأنّه يسمو على ذاته . فالمرأة القميئة ، المُمتطية بعيراً هي أهزل حالاً من المرأة القميئة وحسب . ذاك ان امتطاءها للبعير يُضاعف من وقع قماءتها ، إذ كان العربي العزيز

الجانب المتكافىء . يزفّ المرأة على هَودج تحفّ به الطنافس والأردية الجميلة . ويُسكب عليه الطّيب ، وكأن ذلك تجسيد للنّعيم الذي يَنعم به من حاله وماله . أما نساء بني قيس . فلا يمتطين الهَوادج المُترفة ، المنعّمة ، ولا تقوم الخوادم والإماءُ على خِدمتهن ، بل يقمن بها بأنفسهن ، فقست حياتهنّ وشظَفَتْ وانعكست على قاماتهن القميئة وعلى أجسادهن الهزيلة . هذا ما يؤدّيه لنا من هجاءٍ داخليٍّ في النساء ومطاياهنّ . متسامياً ، متنامياً بالمعنى ، إلا أنه لا يكفُّ ولا يعفُّ . إثر ذلك ، بل يسوق ما هو أزرى إذ يُمعْن بوصف البعير بواقعيّة هي أدلُّ على البؤس والهلاك . فهو « أعجف الذّفرى » أي أنّ عظام ما وراء أُذُنيه ناتئة لشدّة هزالها ، وفي مثل تلك الحال يعروه مثل لون الجرب لجفاف جلده وتقلّصه دونه . فالمطيّة كالمرأة تنمّ عن حال أصحابها وتعجّفها رمزٌ لإملاقهم العميم .

ويعود ، من ثمة ، إلى المرأة القيسيّة ليستكمل زرايته بها والصورة التي باشرها منذ حين ، فإذا عظامها تنتؤ على المطية ، عظام ردفَيها وأعلى صدرها ، فتتخايلُ وكأنّها سكاكين اللّحامين. والهجاء يتولّد هنا باللفظة المباشرة: «استها ــ غضاريف ــ سكاكين » ، وهي ألفاظٌ تحمل ما هو أنأى من معناها ، إذ الإست تحمل معنى الزِّراية من دون الرِّدف ، وإن كانت تتناول مثل معناه ، والغضروف أقذع من العظم لإنطوائه على دلالة النُّتوء والتحدُّر ، وربما التعرُّج . إلا أن للهجاء في هذا البيت أساليب ألطف من ذلك كلّه ، تُضمر ولا تظهر إلا بالإمعان والتفكير . فهذه المرأة ليست شاحبةً ولا هزيلة ، بل ان لحمها ذاب كلّه . ذاك أنه لو نتأت منها عظام الأضلع وحسب لاقتصرت الدلالة على الهزال ، إلا أنّ عظام استها نفرت وبانت والاست وهي مخزن الجسد ، لا يذوب لحمها حتى يستحيل إلى ما يُشبه الهَيْكَلَ الميْتَ . وهنا وجه الغلوّ والهجاء والاقذاع معاً ؛ بل إن البيت ينطوي على ما هو أنأى من ذلك كله وذلك من تشبيهه لعظامها بمثل السكاكين ، فالهزال أصاب حتى عظامها ، وهي لا تهزل ولا تذوب ، فكأنّه تخطّى بذلك حدوده وخرق النواميس المعهودة فيه . وإذ يُخيّل لنا أنّ الشاعر أقصر وانثنى ، إذا هو يجوز ذلك كله بنسبة السكاكين الى الجازر ، وهذه النسبة تضاعف من حدّتها لأن سكين الجازر هي أحدُّ السكاكين إطلاقاً .

هكذا يتنامى الغلوُّ ويتنامى معه الهجاء من الداخل ، بحيث يحتشد اللّفظ والصورة والكناية والنّسب والإضافات لتُنهك المعنى وتأتي عليه في شتّى إحتمالاته . ولنعد إلى نقطة إنطلاق المعنى حيث انطلق لاظهار الذلّ والاملاق اللذين انزلوهما بالأعداء ، وقد استعار لذلك فصيد الأباعر ولحم الكلب والبعير والذئب والمرأة المحدّدة العظام الساعية على البعير ، ممّا يُبيّن لنا أنه أدرك أقسى غايته ممّا كان يبتغيه .

* * *

وكما مثّل اندحار العدو ونزوحه ، فيما تقدّم ، نراه يُلحقه ، حيناً آخر ، بتصوير هربه من دونهم عند اللقاء وتولّيه ، ناجياً بنفسه من الهلاك . وقد يُخاطب زفر بن الحرث ، دون أن يغفل عن الشّماتة بعمير ، إثر مقتله :

لَعَمْرُ أَبيكَ يا زُفْرُ بنَ عَمْرٍو لَقَدْ نَجّاكَ جَدُّ بَني مُعازِ ١
وركضُكَ غيرَ مُلْتَفِتٍ إلَيْنا كأَنَّكَ مُمْسِك بجناحِ بازي ٢
فلا وأَبي هوازِنَ ما جَزِعْنا ولا هم الظَّعائِن بانْحِيازِ ٣
ظعائِنُنا غداةَ غدَتْ عَلَيْنا فَنِعْمَتْ ساعةُ السَّيفِ الجُرَازِ ٤

---

١ ــ زُفَر : هو زُفر بن الحارث .
م : يخاطب زفَر ويقول له إنّك قد نَجَوْت منّا بجد بني معاز إلى نجدتك .
٢ ــ م : ولقد نَجَوت ، كذلك ، بهربك لا تَلْتفِت إلى ما دونك كأنك ممسك بجناح بازٍ يُحَلّق ويسرع بك . والشّاعر إذ يمثّله كذلك ، إنّما يعبّر عن عظم هزيمته وتولّيه عن أعدائه .
٣ ــ م : يُقْسم بأنّهم لم يجزعوا من تصدّيه لهم ويقول إنّهم لم يميلوا بظعائنهم عن سُبُلها خوفاً منه أو اتقاء له .
٤ ــ الجُراز : القاطع .
م : يقول عندما ارتدّت ظعائنُنا إلَيْنا ، تَهَلّلْنا وطربنا لدنوّ ساعة القتال وإعمال السيوف القاطعة .

والهجاء والفخر يقعان ، معاً ، في لفظة « نجّاك » من البيت الأول ، إذ إنها تنمُّ عن الخطب المداهم والخلاص ، وليس ذاك الخطب سوى التغلبيين لما كانوا مُزمعين أن يُنزلوا به من هلاك . إلا أن الصورة تبقى باهتة ، خافتة ، لا تُضاهي الصُّور الأخرى المأثورة عنه . فالأخطل ليس من شعراء اللفظة الواحدة . اليتيمة ، بل إنّها تَرِدُ للتّمهيد في السِّياق العام للهجاء ، إذ ان فضيلته الكبرى تتحقّق في الصُّورة الواقعيّة أو الافتراضيّة المتمثلّة في صقع قريب أو بعيد من أصقاع الخيال التّشبيهيِّ . وذاك يبدو في قوله ، إثرئذ :

ورَكضكَ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إلينـــــا كَأَنَّكَ مُمْسِكٌ بجَنَـــاحِ بازي

فالرّكض أوضحَ أُسلوبَ النجاة الذي نجابه ، أي الهرب عدواً ، دون التفات الى الوراء خوفاً ووجلاً ، بل انه ليُحلّق تحليقاً في عدوه كأنّه مُمْسكٌ بجناح بازيٍّ يطيرُ به . ولا تعدو لفظة البازيِّ ، هنا ، ألفاظ الفصيد والبعير والذئب ولإست والغضروف وما أشبه ، وان كان البازيّ يحمل معنى الاطراءِ بدلاً من الازراء في أصل معناه . ذاك البازيّ يؤدي صورة لعظم التحليق و شدّة العَدو ، وهي فضيلةٌ فيه ورذيلةٌ في سواه ، تعظِّم في الأوّل قوّته وتُغالي في الثاني بجُبنه وخوفه وَهَرْوَلَتِهِ في الهَرَب . وهو عنوان للّفظة الصورة في شعره أو اللفظة العَصَبيّة النّافذة . فالأخطل يتوسّل الألفاظ سلباً وإيجاباً لتحقيق غايته الفنيّة . وإثر بيتين من الفخر العام يُردف ، قائلاً :

ولاقـي ابنُ الحُبـابِ لَنـا حَمَيّـا كَفَتْهُ كُـلَّ راقِيَةٍ وحـــازِ ١

١ ــ حُمَيّا : شدّة . حازٍ : كاهن .
م : يشير إلى فتكهم بعُمير بن الحباب ويقول إن ما ساقوه إليه أغناه عن رقْية الرّاقين وكهانة الكهّان ، أي أنهم طعنوه طعنة قاتلة .

وكانَ بِنـا يحُلُّ ولا يُـعـانـي ... وَيَرْعَى كُلَّ رَمْلٍ أَو عَـزازِ ١

فلمّا أَنْ سمِنْتَ وكُنْتَ عَبْـداً ... نَزَتْ بكَ يا بنَ صَمْعاءَ النَّوازي ٢

عمَدْتَ إلى ربيعَةَ تَغْتَـزيهـا ... بمِثْلِ القَمْلِ مِن أَهْلِ الحِجـازِ ٣

فَنِعْمَ ذوو الحمايَةِ كانَ قَـوْمـي ... لِقَوْمكَ لَوْ جزَى بالقَوْمِ جـازِ ٤

وابن الحباب هو الاسم الآخر لزُفَر من الناحية الفنيّة والنفسيّة ، إلا أنه ليس زُفَرَ النّاجي ، كمن تعَلّق بالبازيّ ، وليس زفر الرّاكض هرباً، وانّما هو زُفَر الذي ألحقَ وأُدرك وقتل وعفّرت جثته ، ومُثّل بها غاية التمثيل . زُفَر وعمير هما العدوّان اللّدودان لبني قومه ، الأوّل هارب ، بل مجدٌّ في الهرب ، والثاني ميْت ، قتل ولم تعُدْ تجدي فيه رقية راقٍ ، أو كهانة كاهن . ومع ذلك فإن الشاعر يُخاطبه ، وكأنّه حيٌّ سويٌّ بيْنَ الأحياء ، يقول له إنك كنتَ تُقيمُ فينا إقامةً طيبة ، ترتعي الخصب ، ولكنّك ذو أصل خبيث إذ أبطنك الشّبع غاية البطنة ونزا بك غاية النّزوة :

فَلَمَّا أَنْ سَمِنْتَ وَكُنْتَ عَبْـداً ... نَزَتْ بكَ يا بْنَ صَمْعَاءَ النَّـوازي

---

١ ــ العَزاز : الأرض الغليظة الصلبة .

م : يقول إن عُميراً كان ينزل فيهم على رحب وسعة ويرعى في ديارهم ، كما يطيب له .

٢ ــ الصَّمْعاء : والدة عمير وقيل إحدى جدّاته .

م : أي أنّك ، إذا سَمِنْت على مرعانا ، بَطِرْتَ ، لأنّك عبد ، لا أصل لك ، وجعلت تنزو وتغتّر وتطلب ما لا طاقة به .

٣ ــ تَغْتزيها : تَقْصدها .

م : أي أنّك عمدت إلى الاستنْجاد بربيعة وفزعت إليها كما يفزع القمل إلى أهل الحجاز . يمثل بذلك غلظته وسوء إقباله على الآخرين .

٤ ــ م : يُمنّنه ويفخر عليه ويقول إن قومي كانوا خير حُماة وذائدين عن بني قَوْمك ، فيما لو احْتَسَب القوْم وظهر فضل بعضهم على البعض الآخر .

ولعلّ المتنبي حذا حذوه بالقول :

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلاّ والعَصا مَعَـــــهُ إنَّ العَبِيدَ لأَنجاسٌ مَناكِيـــــدُ

فالعبد لم يَألف الشّبع . لذلك استحال فيه إلى بَطَرٍ رَكِبَ به رأسه . فهو حديث نعمة في القوّة ولقد دحره بطره . قبل أن يَدْحر به الآخرين .

* * *

إلا أن الأخطل ، كَكُلّ عربيٍّ ، يكاد لا يُشاهد العار أو يحسده إلا من خلال المرأة التي يرى مسافحتها ، وكأنّها الإثم الأكبر ، لا يُفْتَدى بفداء ولا يُمْحى بأيّ امّحاء . وكما سخر من القيسيين بهزال نسائهم وامتطائهن البعران الجربة واتخاذهنّ سبايا ، تراه يَشْمُتُ بهم ، كذلك ، بل يُعَيرهم بأنّ قَوْمَه سافحوا نساءهم جهاراً ، على مُعَايَنَةٍ منهم ، ولم يؤدوا لهم أداءهُنّ ، وذلك في غاية الاقذاع :

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ قَيْساً رســـــولاً فَكَيْفَ وجدتُـمُ طَعْمَ الشِّقـــاقِ [1]

أَصَبْنَا نِسْوَةً مِنْكُـــمْ ، جِهـــاراً بِلا مَهْرٍ يُعَدُّ ، ولا سِيــــاقِ [2]

ويكرر مضي الشماتة بقتل ابن الحباب في مثل قوله :

١ ـ م : يُخاطب القيْسيّين ويشمت بهم للشقّاق الذي ألمّ بهم .

٢ ـ السيّاق : الصّداق .

م : يُعيّرهم بسَبيهم لنسائهم وإدراك غايتهم منهنّ ، بلا مهْر ولا صَداق ، أي إدراكهم لهنّ سفاحاً .

ولاقى ابـنُ الحُبـابِ بَنـا حُمَيّا   كَفَتْهُ كلَّ حـازِيَـةٍ وراقِ ١
فأَضْحى رأْسُهُ بِبـلادِ عَـكٍّ   وسائرُ خَلْقِهِ بجَبـا بِـرَاقِ ٢
تَعُـودُ ثعـالِبُ الحَشَّاكِ مِنْـهُ   خَبِيثاً ريحُهُ ، بادي العُراقِ ٣

أو قوله ، أيضاً :

أَمَعْشَرَ قَيْسٍ لَمْ يمتَّعْ أَخـوكُمُ   عُمَيْرٌ بأَكْفَـانٍ ولا بِطَهُـورِ ٤
تَدُلُّ عَلَيْهِ الضَّبْعَ ريحٌ تَضَوَّعَتْ   بلا نَفْحِ كَافُورٍ ولا بِعَبيـرِ ٥
وَقَتْلى بَني رِعْـلٍ ، كَأَنَّ بَطونَهـا   على جَلْهَةِ الوَادي بُطونُ حَميـرِ ٦

١ ـ ابن الحُباب : هو عمير بن الحُباب . الحُميّا : هنا شدّة الحرب : الحازِيَة : الكاهنة . راقٍ : من يرقي ، أي من يُبْرىء بالتّعاويذ .
م : يقول إنّهم فتكوا بعمير بن الحباب فتكة لم تَنْجع فيها كهانة ولا رقْية .
٢ ـ خَلْقه : هنا جسمه . جَبا براق : موضع بالجزيرة قتل عنده عمير بن الحباب السّلمي .
م : يقول إنهم فتكوا به فتكاً شديداً فُصِل به رأسه عن جسده ، وأضْحى كلّ منهما في موضع شديد النأي عن الآخر .
٣ ـ الحَشّاك : واد أو نهر بالجزيرة بين دجلة والفرات . العراق : العظم إذا أكل لحمه .
م : يقول إن الثّعالب لا تقوى على ولوجه لشدّة ما يَنْبعث منه من روائح كريهة تَنْفثها
٤ ـ الطهور : هنا ما يُطَهَّر به الميت .
م : يخاطب القيسيّين ويشمت بهم لمقتل عمير بن الحباب ، ويقول إنّه لم يُصِبْ ما يُصيب الموتى عادة ، من تطهير وتكفين .
٥ ـ م : يستكمل المعنى السّابق ، ويقول إن الضّبع كانت تتّجه إلى إفتراس جثّته ، مُسْتدِلّة عليه بالرّيح الكريهة المُنبعثة من تلك الجثّة .
٦ ـ رِعْل : حيٌّ من أحياء بني سليم . جَلْهَة الوادي : جانبه .
م : يقول إن قتلى بني رِعل خُلِّفوا في ذلك الوادي ، فانتفَخت بطونُهم انتفاخ بُطون الحمير .

وهو يجري في ذلك على ما يُشبه التّكرار النّسخيّ حتى في اللفظ ، ففي بيت سابق قال : « كَفتَهْ كُلّ راقيةٍ وحاز » ، وفي هذا البيت يقدم لفظة « حازية » على لفظة « راقٍ » لضرورة القافية ، إذ قال : « كَفتَهْ كل حازية وراق » .
الا أن حسّ التّشفي يُفعم الأبيات كُلّها ، وقد لا ينطوي على الحلم والرِّفعة الانسانيين ، إلا أنه يُجهد حقده العنيف ويؤدّي له معانيه وصوره . فهو إذ يشير إلى فصل رأسه عن جسده ، وقيام كُلٍّ منهما في مقام مباينٍ للآخر يعتز بالثّار حتى من الميت ، كأنه وان مات في الواقع ، لم يَمتْ في نفسه . وهو يبتدع لذلك الأساليب الايحائيّة التي تُدرك أقصى الغلوّ ، وذاك إذ يجعل الثعالب تأنف من الدّنوّ منه لتفسح جثّته ونتن ريحها . وخلاصة ذلك أنهم أوقعوا به ما هو أقسى من الموت ، أو أنهم ما زالوا يقتلونه في كلّ لحظة تقوم فيها جثّته بالعراء . لقد كان بَيْنهم وبينه من الضّغينة ما لا يكفي قتله لإجهاضها ، فمثّلوا به ذلك التّمثيل إثر موته ، بالرغم من أنه لا يعيه ولا يحفل به . ولا تخرج الأبيات الأخرى عن ذلك المضمون ، وان كان قد أحل الذئاب فيها محل الثعالب وانساق في ذلك إلى ما دونه فمثل بطون سائر القتلى المُنتفخة ببطون الحمير في مشهد لا مجال فيه للشماتة .

وهناك هجاء للقيسيين أورده عبر بعض مدائحه لعبد الملك ومن إليه ، وعندئذ تتلوّن معانيه بألوان خاصة ، كذكر كفرهم وتغرير الشيطان بهم ، فضلاً عن انكسارهم وارتحالهم الى الأراضي القاحلة السّوداء :

فلا هدى اللهُ قَيساً مِن ضَلالتِهِمْ ... ولا لَعاً لِبَني ذَكْوانَ، إذْ عَثَروا [1]

١ ـ لالعاً : أي لا أقامهم . بنو ذكْوان : رهط عمير بن الحباب .
م : يتمنّى أن يُقيم بنو عيلان على ضلالهم وخروجهم على الدين ويرجو ألا ينهض بنو ذكوان من عثْرتهم ويعودوا إلى قوّتهم ليُقاتلوا من جديد . وهو إنّما يتمنّى لهم في ذلك كلّه أن يبقوا هدفاً للاضطهاد والتنكيل ، لا تقوم لهم معه قائمة .

ضَجُّوا من الحرب إذْ عضَّتْ غوارِبَهُمْ   وقيسُ عَيلانَ ، مِن أخلاقِها ، الضَّجَرُ ١
كانوا ذَوي إمَّـةٍ ، حتَّى إذا عَلِقَتْ   بِهِمْ حَبَائِلُ للشَّيْطانِ وابتُهِـروا ٢
صُكُوا على شارِفٍ ، صَعْبٍ مَراكبُهـا   حَصَّاءَ لَيْسَ لها هُلْبٌ ولا وَبَـرُ ٣
وَلَمْ يَزَلْ بِسُلَيْمٍ أَمْرُ جاهِلِهـا   حتى تَعايا بهـا الإيـرادُ والصَّدَرُ ٤
إذْ يَنظُرون ، وهُمْ يجنون حَنْظَلَهُـمْ   إلى الزَّوابي ، فقُلْنـا بُعْدَ ما نَظَروا ٥
كَرُّوا إلى حَرَّتَيْهِم يَعْمُرونَهُمـا   كما تَكُرُّ إلى أَوْطانِهـا البَقَـرُ ٦

١ ــ غوارِبهم : أعالي أكتافهم .
م : يقول إنّهم لا يُطيقون القتال عندما يشتدُّ عليهم ، وإنّهم دأبوا على التضجّر من المشقّات والتّخاذل من دونها .
٢ ــ ٣ ــ إمّة : نعمة . ابتُهروا : غُرِّرَ بهم . صُكّوا : حُملوا . شارِف : ناقة مسنّة . الحَصَّاء : الّتي لا وبَر لها . الهُلْب : شعر الذَّنب .
م : يقول إنّهم كانوا ذوي نعمة ، يرْتعون بخيرها ، حتى وَسْوس لهم الشّيْطان وغرّر بهم ، فثاروا وركبوا مركباً وَعْراً ، لا خلاص لهم منه . وقد مثّل امتطاءهم للأمر الصَّعب بركوب النّاقة المسنّة الّتي تساقط الوَبر عن جسمها ، جميعاً .
٤ ــ سُلَيْم : هم من نسب عُمير بن الحباب . تَعايا : هنا عجز .
م : يقول إن عُمَيْر بن الحباب لم يزَلْ يسوق سُلَيْماً بحماقته وجهله ، حتى ضلّتِ السّبيل ولم تعد تدرك سُبُل الإقبال والإدبار .
٥ ــ الزَّوابي : جمع زاب : المواضع الّتي كان التغلبيّون يقطنونها . الحَنْظل : المرارة ، وهنا إشارة إلى الحرب .
م : يقول إنّهم بعد أن أهلكتْهم الحرب وذاقوا مرارتها ، جعلوا يتَطلّعون إلى مواقعنا طامعين بها ، ثم يُرْدف ساخراً من مطامعهم إذ يتعذّر عليهم أن يلمّوا بديار تغلب .
٦ــ الحَرَّة : الأرض فيها حجارة سود .
م : يعرّض في هذا البيت بمقام القَيْسيّين ويقول إنّهم بعد أن أخفقوا في احتلال مواقعنا الخصبة ، هرعوا إلى ديارهم القاحلة الّتي تكثر فيها الحجارة السّود مُحاولين إعمارها .

وأَصْبَحَتْ مِنهُـمُ سِنْجـارُ خالِيَـةً والمَحْلَبِيّـاتُ فالخابـورُ فالسُّرَرُ ١

و ما يُلاقونَ فَـرَّاصاً إلى نَسَبٍ حتى يُلاقِيَ جَدْيَ الفَرْقَـدِ القَمَرُ ٢

وفي هذه الأبيات يجمع الصورة والفكرة واللفظة ، الأولى في عَضّ الغوارب والثانية في قوله : « وقَيس عيلان من أخلاقها الضَّجر » والثالثة في الشّيطان الذي يوحي بتغرُّرهم وضلالهم . ثم يُقبل على الصّورة من جديد إذ يمثل عظم ما يلقون من غيِّهم بمثل من يمتطي ناقة مسنّة ، عجفاء ، جرداء . وقد كان هذا دأبه منذ مطلع عهده بالشعر إذ قال في مدحه ليزيد ، وهو يُعبِّر عن عظيم خوفه :

ولولا يزيدُ ابن الملوك وسيبـه تجلَّلْتُ حِدْباراً من الشَّرِّ أنكـدا

ومهما يكن ، فإنّ معاني هذه الأبيات تبدو يسيرة ، من النّاحية الهجائيّة ، إلا أن لها قيمة خاصةً في التدليل على ضرب من الهجائي المستمدّ من الدّين ، والتنديد بالخصم لمروقه منه وعصيانه لسلطة الأئمّة .

والمعنى الآخر الذي يَطغي على هذه الأبيات هو معنى النزوح والتهجير ، إذ يصف المواقع التي زعجوا إليها بأنّها حرَّة سوداء ، لا ماء ولا كلأ فيها :

١ ــ سِنْجار : قصبة كورة الفرج من تل أعفر . المَحْلَبيّة : بلدة عند الموصل . السُّرر : أرض بالجزيرة .

م : يقول إنّنا قد أجليناهم عن جميع مواقعهم ، فأقفرت إثرهم ، دون أن يجسروا على العودة إليها .

٢ ــ فرّاص : هو ابن معن بن مالك ويقال إنّه تغلبيّ . جَدْي : نجم إلى جنب القطب ، يدور مع بنات نعش ويتعذّر التقاؤه بالقمر .

م : يقول إنّهم يُسامون فرّاصاً ويعارضونه بنَسَبهم ولا قِبَل لها بإدراكه والالتقاء به ، حتّى يلتقي الجديُ والقَمر ، وهو أمر متعذر بل مستحيل .

ويكرّر مثل ذلك المعنى في صورته ولفظه بقوله :

لقد حَمَلَتْ قيس بن عَيْلانَ حربنـا على يابس السِّيْسَاءِ ، مُحْدَودِبِ الظَّهرِ

أي على ما يشبه البعير الصَّلب الفقـار ، الأعجف الذي يَعْقِر من يَمْتطيه . ويتفتّق الأخطل بمعاني أُخرى للزراية تحدق بكلٍّ ما يتصل بالمهجوين ، فتراه يُمثِّل ابناءهم بالقول :

وقد غبَّر العَجْلان ، حيناً ، إذا بكي على الزَّاد ، أَلقته الوليدةُ في الكَسْرِ [1]
فَيُصْبحُ كالخفَّاش يَدْلُكُ عَيْنَـه فَقُبِّحَ من وجه لئيم ومـن حَجْرِ [2]

فالفتى الذي يطلب طعاماً كمن يطلب منكراً ، يُزجر وينبذ ، ويبكي ، فيبدو كالخفّاش لهُزاله . ثم يكرّر هجاءه لهم بنسائهم :

بني كُلِّ دَسْماءِ الثِّيـابِ ، كأَنَّمـا طلاها بنو العَجْلانِ مِن حُمَمِ القِدرِ [3]

١ ــ الكَسْر : جانب البَيْت .
م : يقول إن ابن العَجْلان أقام زماناً ، إذا طلب الزّاد واندفع إلَيْه جرّته والدتُه ودفعته .

٢ ــ الحَجْر : هنا محجر العين .
م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ويصفه مقيماً خارج البَيْت ، هزيلاً كالخفّاش يمر يده على عينيه ، باكياً ، ثم يُقَبِّح بوجهه وعينيه .

٣ ــ حُمم : جمع حمّة : أي الفَحم والرّماد .
م : يحقّر من أمر نسائهم ويحقّرهم من خلالهن ، إذ يصف شظف عيشهم وقذارة نسائهم ويقول إنّهنّ سود الثّياب ، كأنّما صُبغَتْ ثيابُهن بسواد القُدور .

تَرَى كعْبَهَا قدزالَ مِن طولِ رَعيِهـا وَقاحَ الذُّنابى بالسّويّـةِ والزِّفْرِ ١

وكما جرى على الشماتة بالخصم لهروبه من دونهم ، يصف ابن بدر هارباً في مقطع استنفد فيه غاية الوصف والتأويل والافتراض . فهو يرسمه خائضاً في السراب ، يستحثُّ المطيّة ، ويفدّيها للتدليل على شدة رعبه وهلعه :

ونجّى ابن بَدْرٍ ركضه من رماحنا ونضّاحـةُ الأَعطافِ ، مُلْهِبَةُ الحَضْرِ

إذا قُلْتُ نالَتهُ العوالي ، تقاذفَتْ بهِ سَوْحقُ الرّجلينِ ، صابيةُ الصَّدْرِ ٢

كأنَّهما والآلُ يَنجابُ عَنهُمـا إذا انغَمسا فيهِ يَعومانِ في غَمْرِ ٣

يُسِرُّ إلَيها ، والرّماحُ تَنُوشُهُ : فدًى لكِ أُمّي ، إنْدأَبتِ إلى العَصرِ ٤

---

١ ــ الذُّنابى : هنا العَجزُ . السَويّة : قَتَبٌ معرًّى . الزِّفْر : الحِمْل .

م : يستكمل هجاءه لهم بوصفه لنسائهم ويثلبهم ثلباً مُقْذعاً ، ويقول إن العَجْلانية قد بُريَ كعب قَدَمها من كثرة عدوها عليه في المَرْعى والقيام على الخدمة كالأَمَة ، كما أنَّ عجزُها قد تَقَيّح من كثرة ما تَحْمِل الإثقال عليه . ومؤدّى الهجاء في هذا البيت أن القوم الشُّرفاء كانوا يَدَعون نساءهم في نعيم ويسوقون الإماء لخدمتهنّ .

٢ ــ العَوالي : أطْراف الرِّماح . تقاذَفَتْ : ترامَتْ به . سَوْحَقُ الرّجْلَيْن : طويلتهما صابية : أي سريعة المَمَرّ ، لا تميل في استوائها .

م : يقول إنّه لا تكاد رماحنا تطاله ، فإنّه يعدو من دوننا ، ويهرب بنفسه على تلك الفرس المُسْتوية العَدْو ، الطويلة السّاقين ، وهو إنّما يعظمّ من سرعة عدو فرسه ، ليعظّم من من خلالها من شدّة رعب ابن بدر وهَلَعه في الهَرَب .

٣ ــ الآل : السّراب . يَنْحاب : يَنْكَشف . انْغَمسا : هنا ولجا . الغَمْر : الماء الكثير .

م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ، ويصف عدو ابن بدر في الصَّحراء ، حيث كان يغمره السّراب وفرَسَه ، وينقشع عنهما ، ويمثّل خَوْضَهما فيه بمثل خوض غُمار البحر .

٤ ــ يُسِرّ إلَيْها : هنا يهمس لها .

م : أي أن ابن بدر كان يخاطب فرسه ويُفَدّيها ويستحثّها حتى تثابر على عَدْوها إلى العصر ، فينجو من الهلاك .

فَظَلَّ يُفَدِّيها ، وظَلَّتْ كأَنَّهـــا عُقابٌ ، دعاها جُنحُ لَيلٍ إلىٰ وَكرِ ١

كأَنَّ بِطُبْيَيْها ومَجرى حِزامِهـــا أَداوى تَسُحُّ الماءَ مِنْ حَوَرٍ وُفْرِ ٢

رَكوبٌ على السّوءاتِ ، قَدْ شَنَّمَ استَه مُزاحمَةُ الأَعداءِ والنَّخس في الدُّبْرِ ٣

– خلاصة حول هجائه للقيسيين –

يَتَداوَلُ الأخطلُ في هجائه للقيسيين معاني متعدِّدة ، متكرِّرة ، أثر بعضها في هجائه لبني كليب واختصَّ بعضها الآخر بهم . فهو يقرنهم بعبيدهم :

« وكنت إذا لقيتُ عبيدَ تيـــم وتيماً قلت أيهما العبيدُ »

ويعيرهم بسوقهم للحمير في القفر والاراضي السوداء وهروبهم من دون نسائهم أكنَّ إماءً أم كواعِبَ ، أم امّهاتٍ لهم ، سبين وفجعن بأعراضهن ، على مرأى من رجالهن وابنائهن ، ودون صداقٍ أو ما إليه . ويستكمل صورتهم في تلك الاراضي القاحلة التي ارتحلوا اليها ، ويقول إنهم يأكلون فيها لحم الحمير والذئاب والدَّم المغلي في المصران ، ويعرِّج على وصف نسائهم اللّواتي هزلن فبدت عظام استهنَّ كالسكاكين الحادَّة ، وبدا عليهن سواد الاماء كأنهن صبغن بفحم القدور . وفي مقابل ذلك يتردَّدُ على معانٍ عامّة أُخرى كذكره لمقتل

---

١ – الجُنْح : العَشِيّ . ظَلّت : هنا تدَلّت .

م : أي أنّه ظلَّ يَسْتَحثُّها ، فيما هي أقامت على عدوها ، كأنّها عقاب تسرع إلى وكرها ، قبل أن يعاجلَها الظّلام .

٢ – طُبْيَيْها : مفردها طُبْي أي ثدي . حوَر : جلد مَدْبوغ . وُفْر : ضَخْم . الأداوي : جمع الإداوة : إناء صغير من جلد .

م : يمثّل العَرَق المتصبّب من ثَدييْها ومجرى حزامها بالأداوي التي ينهمر منها الماء .

٣ – الرَّكوب : الذَّلول . شَنَّمَ : جرَّح . النَّخْس : الضرب بأداة حادَّة . الدُّبر : المؤخّرة .

عمير بن الحباب وقيام جثّته المنتفخة في القفر . تنتهشها الذئاب وتنفر منها الثعالب لنتن ريحها ، كما يعظّم هربهم دونهم، يصفه بكل وصف ويحشد له كل كناية حسيّة ، ويتشبّه عبر ذلك كلّه بالسّيل ويشبه العدوّ بالغثاء والزبد اللذين يَعلوانه .

* * *

الباب الرَّابع

هجاؤه في سائر القبائل والأفراد

لقد كان هجاء القيسيين والكُلَيبيِّين القوامَ الأول لبواعث الهجاء في شعر الأخطل، إذ أنّه أقام عليه وألحفَ به غاية الالحاف، يُلِمُّ به عبر المدائح ويُخصه بأهاجٍ خاصَّة به ، ويُنفق كل جهد ليتفتّق له بكُلِّ معنى وكُلّ احتمال . إنّه ذلك الهجاء الذي يُدرك به أقصى غايته في فَنّه وفي التعبير عن أحقاده وثاراته . وفيما عدا ذلك نراه ، وقد تواقع مع بعض القَوْم ، أفراداً وقبائل ، وأظهر فيهم بعض التّسخُّط والوتر ، دُون أن يُوفي منه إلى ما يُضاهي أهاجيه الأخرى أكانَ ذلك من الناحيّة الفنيِّة أو النّفسيّة .

من ذلك قصيدة بائيّة نظمها في رجلين من بني وائل قَدِما لمُعاتبته ، مُضمرين له الحقد ، لما ساقه بنو قومه عليهم من إذلال وتنكيل . ثم يهجوهم بذلّهم واستكانتهم ويدعوهم إلى الإقامة بين النخيل ، وأن يَدّعوا أعجازهم على البُعْران ، من دون الخَيْل . ثم يُشير إلى فتك التغلبيين بهم ويُلِمّ ببني عَبْد قيس ذوي اللّحى الصَّفراء ، الذين لا يزالون يَمْتطون الحمير وتلحق بهم ، إثرها ، الكلاب ، ثم يخاطب أبا غَسّان وهو مالك بن مسْمع الشّيباني الذي كان قد أخذ الأخطل بشرّ وَجَدَ عَلَيْه فيه ، ويقول إنّه يَتَمَنّى أن يصيبَه الهلاك ، على أن يقتضي مَعروفاً منه أو من بَني قومه .

غَدا ابْنــا وائِلٍ لِيُعاتِبـــانـــــي وَبَيْنَهُما أَجَلٌّ مِنَ العِتـــــابِ ١
أُمورٌ ، لا يُنــامُ على قَــذاهــــا تُغِصُ ذوي الحفيظَةِ بالشَّرابِ ٢
ترَقَّوْا في النَّخيل ، وأَنْسِئــونـــا دِماءَ سَراتِكُمْ ، يومَ الكُــلابِ ٣
فَبِئسَ الطَّالبون ، غــداةَ شالَـــــتْ على القُعُداتِ أَسْتــاهُ الرِّبــا بِ ٤
تَجولُ بَنــاتُ حَلَّابٍ عليهِـــــمْ وَتَزْجُرُهُنَّ بَينَ هــلٍ وهابِ ٥

١ ــ م : يقول إن ذَيْنِك الرّجلين قَدِما لمُعاتَبَتي في أمر ، وهما يُضْمران لي من دونه الحِقْد والثّأر .

٢ ــ م : يقول إنّهما يُضْمران لي ذلك لما ساقه إلَيْهم بنو قومي من إذلال وتنكيل لا يُطيقهما المرء ولا يقوى على الغضّ عنهما . بل إنهما يغْشيانه بمثل القذى الذي يُنَفّر النّوم من العَيْن ويعروانه بمثل الغصّة الّتي لا يَطيب معها شراب .

٣ ــ أنسئونا : أي أخّروا دياتنا . سَراة : جمع سريّ وهو وجيه القَوْم وسيّدهم .
م : يطلب منهم أن يقيموا بين النّخيل ويستقرّوا فيه ، أي يدعوهم إلى القُعود عن القتال والاستكانة للذّل وألاّ يطالبوهم بدماء قَتْلاهم ، وألا يسعوا للثّأر بها ، إذ لا طاقة لهم بذلك .

٤ ــ القُعُدات : جمع قُعْدة ، وهنا الحَمير . الرِّباب : هم بنو ضبّة وتيم وعــدي وعوف وعكل .
م : يقول بئس المُطالبون بالثّأر ، وهم لا يزالون يُلْقون أعجازهم ويشيلون بها عن دوابهم . أي أنّه لا طاقة لهم بالقتال . إذ لا يَمْتطون الخَيْل بل الحمير ، فهم مِنْعدمو الفروسية ، يعملون في خدمة النّاس والمكاراة .

٥ ــ حلاّب : فَحل شهير نسلت منه خيَل تغلب . زَجَرَه بالرّمح : شجّه . هلٍ وَهاب : لَفْظتان تزجر بهما الخَيْل .
م : يُشير إلى فَتْك التغلبيّين بهم ، ويقول إن فرسانهم كانوا يَشُجّون رؤوسهم ، فيما هم يَصيحون بخيولهم ويزجرونها لتشتدّ في القتال .

وَعَبْدُ القيس مُصْفَرٌّ لحـــاهـــا كأَنَّ فُساءَهـــا قِطَعُ الضَّبـــابِ ١

فما قادوا الجيادَ ولا افتلوْهــــــا ولا ركبوا مُخَيَّسَةَ الرِّكـــابِ ٢

على أَثَرِ الحميرِ موكِّفيهـــــــــا جنائِبُهُمْ حَـــواليَّ الكِـــلابِ ٣

أنت ترى ان هذا الهجاء يَنزعُ منزعاً تقريريّاً استهلّ فيه بذكر العتاب الذي قدما عليه به . الا أن العتاب لا يفي بما تنطوي عليه نفساهما . فهناك أُمور لا قبل للمرء باحتمالها ، بل انها تدعه لا يسيغ شرابه . فهو يُلمح ولا يُصرّح ويوفي الى النتيجة ، دون أن يُفصح عن البواعث ، وهي تنمّ عن الحقد والنّقمة دون أن تجهض بما يؤدّي زرايتهما . ثم ترى الشاعر يفصح عن شيء من ذلك إذ يدعوهم إلى القيام في النّخيل وان يدعوا المطالبة بالثّار ، فهم أصحاب دعة وخمول وليسوا أصحاب ثارات وقتال . وهذا المعنى الهجائي استجدّ لديه إذ أننا لم نعهده فيه ، بل تراه يدعو مَهجُوّيه للارتحال الى الأراضي السّوداء القاحلة ، حيث يأكلون جيف الوحوش والبهائم ويمتطون الحمير ، وما أشبه ممّا قدّمنا ذكره . وبذلك تتباين طبيعة المعنى ، في الأوّل يشمت بهم لانكسارهم ، ممثلاً ما آلت إليه حالهم

---

١ ــ فُساء : قيل إن عبد قيس كانت تُلقّب بهذا اللقب . مُصْفَرّ لحاها : كأنّما يهجوهم بالعَمل في إيقاد المَواقد ، أو أنّ الاصفرار غشيَها من كثْرة الفُساء الذي مثّل شدتَه بالضّباب المُنْتشر .

٢ ــ افتلَوْها : أي فطَلوها . المُخيسَة الرِّكاب : المَحْبوسة عن السّير .

م : يحقّر من شأنها ويقول إنّهم لم يتَعهّدوا الخيْل ولم يقودوها إلى الحَرْب ولم يركبوا الجياد الكريمة أي أنّه ينْتزع عنهم صفة الفروسيّة .

٣ ــ موكِّفيها : أي الواضعين عليها البراذع . الجنائب : جمع الجَنيبَة وهي الخيْل التي يُتَجنّب ركوبُها ولا تُمْتطى إلاّ في القتال لكرامتِها . الحَواليّ : الاحتيال .

م : يقول إنّهم لا يزالون يَقْتفون أثر الحمير ، يعْنون بوضع براذعها ، وإنّهم لا يَصْحَبون إلا الكلاب كنجائب لهم ، أي أنّهم استبدلوا بالخيْل الكريمة الكلاب .

إثره ، اما في الثاني ، فإنّه لا يُعبِّر عنه بالذات ، بل عن خمولهم الدائم وعن انكسارهم في الحروب وعدم إلفتهم إيّاها وتمرُّسهم بها . أولئك يحاربون ، لكنهم يهزمون . وهؤلاء لا يحاربون قط ، فالمعنى الثاني أقذع وان كان لم يُلْحف فيه ويتمَطَّ به ، بل إنّه ليتعاظم غاية التّعاظم بقوله :

فبئس الطَّالبونَ ، غداةَ شالت على القُعُدَاتِ أَسْتَاهُ الرَّبابِ

فهم إذا لم يألفوا الخيل ، بل الحمير التي تقرَّحت بها أستاههم . وقد استعار بذلك المعنى القديم المأثور ، بعد أن طعّمه بلون آخر من الغُلوِّ . ولعلَّ انتماء الأخطل الى قبيلة تغلب ، وهي قبيلة محاربة ، عريقة في ملحمة القتال ، جعله يكرِّر هذا المعنى ، إذ لم يكن يرى خيراً الا في القتال ، وسوف نرى انه معظم معانيه الفخريّة تدور حول الخيول التغلبيّة وعراقتها في القتال وما إليه . فمعانيه الهجائيّة مستمدَّة من مثل البيئة وبخاصة في قيم البطولة والفروسيّة . ولعلَّ المعنى يتعاظم ويطغى في شعره بمثل أهميّته وعمقه بالنسبة الى تلك البيئة . وها هو يفخر لتوِّه بالخيول التّغلبيّة :

تجولُ بناتُ حلَّاب عليهم وتزحرحُنَّ بين هَلٍ ونابِ

فالخيول والحمير تُمَثِّل وجهي الفخر والهجاء المتمازجين في شعره ، يتقوَّى أحدُهما بالآخر ، كما قدَّمنا ، مراراً . وهو يكرِّر المعنى ذاته بالنسبة إلى عبد القَيْس :

فلا قَادُوا الجِيادَ ولا افْتَلُوهَا ولا ركِبُوا مَخَيّسةَ الرِّكابِ
على إثر الحمير مُوَكِّفيها جَنَائِبُهُم حواليَّ الكِلابِ

وفي هذين البيتين تخريج جديد للمعنى باستنفاده والإحاطة بوجوهه ، جميعاً ، ذاك أن العربي كان يمتطي الجمال الى القتال ، فيما تصحبه الخيل ، كي لا ترهق ،

وقد جعل مطاياهم الحمير ، بدلاً من النّياق ، ونجائبهم الكلاب ، بدلاً من الخَيل . ولنتمثّل أولئك القوم السّاعين الى القتال بالحمير والكلاب ، هكذا ، يبتدعُ الأخطل الصُّور المزرية الماسخة بنوع من التأويل اللّطيف الخفر ، حتى يدرك الاقذاع في قوله :

وعبد القيس مصفرٌ لحـــاهـــا كأَنَّ فُساءهـــا قِطَـعَ الضَّبابِ

ويقول في موضوع آخر :

وعبد القيس مصفرٌّ لحـــاهـــا كأَنَّ فساءهـــا في الطَّفِّ ريـــحُ

وفي مثل هذه المعاني يتدنّى المستوى الفنيّ لافتقاده الصلة بالحقيقة الانسانيّة . وكما هجا عبد القَيس ومن إليهم ، يَهجو بني عبس بقوله :

أَعَبْدَ آلِ بَغيضٍ لا أَبـــا لَكُـــمُ عَبْساً تَخافُونَ والعَبْسيُّ مُحْتَقَــرُ ١
ما كانَ يُرْجى نَدَى عَبْسِ الحِجازِ ولا يُخشي نَفيرُ بني عَبْسٍ إذ انفَروا ٢
ولا يُصَلي عَلى مَوْتاهُــمُ أَحَـــدٌ ولا تَقْبَّلُ أَرْضُ اللهِ ما قَبــرُوا ٣

١ ــ يعجب أن يَخْشوا بطش بني عَبْس بن بغيض ، وهم قوم محتقَرون ، لا شأن لهم .

٢ ــ النّفير : القوم يَنْفرون عن مضاجعهم ، ويهرعون لنداء القتال .
م : يحقّر من شأن بني عبس ويقول إنهم فاقِدو النّخوة ، بخلاء ، لا يُرْجى عطاؤهم ، كما إنّهم إذا ما أجتمعوا على أمر ، فإنّ جموعهم لا تُثير الأعداء ولا تبثُّ الرُّعب فيهم .

٣ ــ م : يقول إنّ الناس لا يترحّمون على موتاهم ، ولا يصلّون علَيْهم ، كما أن الأرض ذاتها ، ترفض موتاهم ، وتأبى أن تضمّهم في جوفها ، إذا ما قُبروا فيها . يمثل ذلك خبثهم ولؤمهم .

إذا أَناخوا هداياهُـمْ لمنْحرِهــا فهُمْ أَضَلُّ مِنْ البُدْنِ الَّذي نَحرُوا ١

والهجاء يَبدو يسيراً في البَيْتَين الأولين ، إلا أنّه يَستطلع معنى هجائيّاً جديداً بالقول إنّه لا يصلّي أحد على موتاهم ، وحتّى الأرض تأنف من تقبّل جثثهم لخبثهم ونتنهم . والمعنى لا يقوم على فضيلة التّحقيق الواقعيّ ، بل على الافتراض الايحائي حيث نما إلى الآخرين وإلى الأرض ما يَعْتملُ في نفسه من احتقار وزراية . ويمضي في ذلك إذ يُنمي إليهم الجهل والحمق وأنّهم يتفوّقون في ذلك على البهائم .

وتراه ، حيناً آخر ، وقد ألمّ بالأفراد ، حيث يَفيدُ من اسمهم وسيمائهم ليستخرج منه معنى هجائياً ، كما ترى في هجائه لامرىء يدعى خنجراً :

أَخَنْجَرُ ، قد أَخزَيْتَ قَومكَ بالّتي رمَتْكَ فُوَيْقَ الحاجبَيْنِ السّنابِرُ ٢
فَلَوْ كُنتَ ذا عزّ مَنَعْتَ ببَعْضِهِ جَبينَكَ ، إذْ تَدْمي عَلَيْهِ البصائرُ ٣
فأَبْدِ لِمَنْ لاقَيْتَ وجْهَكَ ، واعتَرِفْ بِشَنْعاءَ ، للذِّبّانِ فيهــا مصايرُ ٤

---

١ ــ البُدْن : النّياق الّتي تُنْحر في مكّة ، وكانت تسمن ، فتعظم أبدانها .
م : يقول إنّهم إذا ما نحروا بُدْنهم في مكّة ، فإنّهم يُلْفون لغبائهم أضلَّ من تلك البهائم السمينة الّتي لا رُشْد لها .

٢ ــ السنابر : جمع سنبر : العالم بالشيء المتقن له .
م : يعير خنجراً بالطّعنة الّتي أصيب بها فوق حاجبيه والّتي ساق بها الذلّ إلى بني قومه .

٣ ــ البَصائر : جمع بصيرة وهي القطعة من الدّم .
م : يخاطب خنجراً ويقول إنّك لو كنت عزيزاً قادراً لمَنَعْت جبينكَ من أن يناله السّيف ويخلّف فيه الدّماء المُنْهمرة .

٤ ــ م : يعيّره بالطّعنة ، ويدعوه ألا يستّرها عن عيون النّاس ، بل فليُطالعهم بها ، وقد اجتمع علَيْها الذُّباب ، وليعترف بخزيه بها .

بِنَعّارَةٍ يَنْفي المسابيرَ أَرْبُهـــــا   عَلَيْهَا مِنَ الزُّرْقِ العُيونِ عساكِرُ ١

أَمِنْ عَوَزِ الأَسْماءِ سُمّيتَ خَنْجـراً   وَشَرُّ سِلاحِ المُسلمينَ الخناجـرُ ٢

غمَرْناكَ إسلاماً ، وإنْ تلكُ فِتْنَـــةٌ   تَكُنْ ثَعْلباً دارَتْ عَلَيْهِ الدَّوائرُ ٣

وإنَّ امْرءًا ما بَيْنَ عَيْنَيْهِ كاسْتِـهِ   هَجَا وائِلاً ، طُرّاً ، لأَحمقُ فاجرُ ٤

وهذا هجاءٌ ابتداعيٌ ، جديد في موضوعه ومعانيه ، إذ لم يكد يهجو امرءاً بطعنة طعن بها ولم يتفرّغ لوصفها بكلٍّ أوصافها . ولقد عمد الشاعر الى تأويلها بما يلحق منها العار بصاحبها ، مستدلاً بها على جبنه وهزيمته في القتال . وهو إذ يُلحف بوصفها ، إنّما يُلحف باظهار عاره بجبينه . فهي طَعْنَةٌ غائرةٌ لا يُدركُ قاعُها ، أي انها قويّة ، كما أنّها قاحت وانتنت بحيث جعل الذّبان يحدق بها . فالهجاء هو ظاهراً بالطّعنة ، وضمناً بقلّة القدر والنّصير والهزيمة . وبعد ان يستدل من اسمه « خنجر » على غدره ، يقرن بين الطعنة في حاجبيه واسته في مماثلة حسيّة مزريّة ، لكنها ساقطة فنيّاً وإنسانيّاً . كما انه يتّهمه بدينه ومروقه منه

١ ــ النّعّارة : طعنة يفور منها الدّم . أَرْبُها : قطعها . المَسابير : جمع مسْبار وهو أداة يُسْبَر بها أي يقاس العُمْق .

م : يستكمل هجاءه بالطّعنة التي طُعِنها ويقول إنّها فوّارة الدم ، عميقة الغَوْر ، لا يطالها المِسبار ، وإن أعين الناس لا تزال تُحدّق بها كجيش كثير .

٢ ــ م : يهجوه باسمه ويقول أضاقَتْ بوالديك الأسماء ، حتى تسمّى خنجراً ، وهو رمز الغدر والوقيعة بين النّاس ؟

٣ ــ دارت عليه الدّوائر : أي أنزلت عليه الدّواهي .

م : يقول إنّه بالرغم من إنتمائه إلى المُسلمين ، فَهُو لا يزال يؤلب الفِتَن بلؤمه وخبثه ، فيصيبه منها الهلاك والدّمار .

٤ ــ م : يُقْذع به غاية الإقذاع ويقول إن جبينه شبيه بمؤخرته ، أي أنّه مهان ذليل ، ويردف بأنّه فاجر ، لأنّه هجا وائلاً جميعا .

وتأليبه عليه ، ماسخاً إياه بمظهره ومخبره ودينه ودنياه . وربما طالعنا في مثل هذا النّوع من الهجاء نموذج بشري كتلك التّي سوف تُطالعنا في أهاجي ابن الرومي ، دون ان تتكامل الصورة بالسّخريّة والكاريكاتوريّة المأثورة في مثل تلك النّماذج .

إلا أنّه أكثر ما يتواقع به من هجاءٍ يتّصل بالقبائل . وكما هجا العبسيين وعبد قيس ، يَهجو الأسديين ، كذلك بقوله :

إذا الأَسدِيُّ حَلَّ بغَيْرِ جــــارٍ فَلَيْسَ لهُ ، وإنْ ظُلِمَ ، انْتصارُ ١
تصُولُ إلى العُلى أَسَدٌ ، وَتَأْبَــي مَخَازِيَها وأَيْديهـــا القِصارُ ٢
وَلَسْتَ بواجِدِ الأَسديّ ، إلاَّ يُنِيبَ لِما أَنــابَ لــهُ الحِمَــارُ ٣
وأَشْهَدُ أَنَّهــا أَسدُ بــنُ نَهْـــدٍ وما ولدَتْ بَنــي أَسَدٍ نِـــزارُ ٤

فبنو أسد أشبه باللاجئين والملحقين ، يقيمون إلى جانب سواهم ليدافعوا عنهم ويحموهم وهم يفيدون من نخوة الجيرة . واذا كان هذا المعنى لا يَبلغ إلى الاقذاع

١ ــ م : يقول إن بني أسد مخذولون ، لا طاقة لهم بالانتصار ، إلا إذا ناب عنهم جيرانهم ، ومؤدّى المعنى أنّهم أتباع لاحقون .
٢ ــ الأيْدي القِصار : هنا كناية عن العجز والضّعف .
م : يقول إنّهم يتطاولون ويدّعون القُدْرة والمجد ، إلاَّ أنّهم لضعْفهم وقصر باعهم يُلْفون أبداً في حالة من الخِزْي والعار .
٣ ــ أناب : تردّد على الأمر ، حيناً بعد حين .
م : يحقّر من شأنهم ويقول إنّهم لا يزالون يزاولون ما يزاوله الحَمير ، وإنّه لا شأن لهم من شؤون الفروسيّة .
٤ ــ م : ينْفي بني أسد عن النسب النزاريّ ويقول إنّهم من بني نهد وحسب .

في نفيهم عن الفروسيّة ، كما كان دأبه ، إذ لم يذكر امتطاءهم للدّواب ولحاق الكلاب بهم بدل الخيل ، فإنه ينطوي على مثل معناه ، دون غلوٍّ . فالأخطل ملمٌّ بالتقاليد العربيّة ، يَمْسخها فيمن يَهجوه ، بالتّأويل النفسي . فالقيسيون أذلاّء ، لكنهم يدّعون العلى ، فيخزون ، لأنّهم لم يتمرّسوا بالقتال قط ، بل ينصرفون الى الخدمة و الأعمال الهزيلة التي تقومُ بها الحمير . فالعربيُّ الأصيل لا تراه إلاّ وهو يمتطي القتال ، وفيما دون ذلك يقوم على خدمته العبيد والمُلحقون كالاسديين . وفضلاً عن ذلك ، فإن للفظة الحمار إقذاعاً بذاتها ، دون انصراف الى تفسيرها بالنسبة الى قيم الفروسيّة . لا شكَّ أن المعاني تَبدو يَسيرةً بمُجملها ، إذا ووزنت بالمعاني المدحيّة أو بأهاجيه في جرير وبني قَيس . إلا أنها تظهر جانباً من واقع جرير أو عدوِّه السياسي ، أي القيسيين ، بل تراه يَنْقَضُّ على كل من يُعارضه ينمي اليه ما نماه لسواه ، دون ان يحتفل في ذلك احتفالاً فنيّاً موازياً . ومهما يكن ، فإنَّ معانيه الهجائيّة بأيِّمن اتّصلت تبدو ، غالباً ، مكرورة ، تتباين فيها حلّة اللفظ والعبارة ومستوى الغلوّ والتأويل ، دون أن تتباين فيها نقطة انطلاقها . فها هو يهجو احد القوم ويتهدّده بالهزيمة والارتحال عن الدّيار الى مجاورة اللؤماء ، كما أنّه يُعَيِّره بالغدر بالجار واستحلال محارمه ، متوسلاً لفظة « أكل » للغلوّ منيطاً بهم معنى الافتراس والجشع :

قُولا لِزَيْدٍ يَثْنِ عنَّا لسانَهُ ولا يَدْنُ منَّا في الزِّحامِ ، فيظلَعا ١

وَيَظْعَنُ ، حتى يَسْتَقِرَّ ببَلْدَةٍ يُجاوِرُ مِنجاباً بها والمُجَذَّعا ٢

---

١ – يَظْلَع : يعرجُ ويقصّر عن سواه . زيَد : لعله إشارة إلى قبيلة زيد اللات .

م : يخاطب زيداً ويدعوه إلى الامتناع عن التعرّض لهم وأن يكفّ عن هجائهم وألاّ يدخل معهم في السّباق والزحام ، لأنّه سيُقصّر عنهم ، أي أن قوم زيد هذا يعجزون عن مُساماة التغلبيّين .

٢ – م : يدعوه إلى الإرتحال والإقامة في جوار بني المِنْجاب والمُجَذَّع وهما بطنان من كلب ، أي أنّه يدعوه إلى ملازمة مَنْ يُماثلونه ذلا .

فأنْتُمْ أَكَلْتُمْ جارَكُمْ في بيوتِكُــمْ   كما قدْ أَكَلْتُمْ قَبْــلَ ذاكَ المقنَّعا ١
وَنَحْنُ وَفَيْنــا بالمزَنَّمِ كلِّـــــــهِ   وأَنْتُمْ أَكَلْتُمْ ذا الجواعِرِ أَجْمعا ٢

وللأخطل هجاء في بني زيد اللاّت لا يتعدّى فيه الأبيات والمقطوعات ، لكنّه يُلحف به ويُكرِّره ، دون أن يبلغ فيه مبلغه من هجاء القيسيين . فهو يهجوهم هازئاً ، مُسْتخفّاً ، فيما هجا القيسيين ، معارضاً ، منافساً . تراه يقول :

هــلاَّ زيــاداً إِذْ زيــادٌ جــانِحُ   تَبْرُقُ في هــاماتِــهِ الصَّفايــحُ ٣
ونَتْنُ زَيــدِ الَّلاتِ غـــادٍ رائحُ   ولا يَنالُ الخيرَ منْهــا ماتِــحُ ٤
كَجذْوَةٍ جُــذِّبَ عَنْهـــا نــاقِــحُ

ومع أنّه ابتسر في عدد الأبيات ، فقد آثر العمق والتكثيف إذ أحال زيد اللاّت الى شجرة عارية ، قطعت أغصان الخير والفضل فيها ، فلا تثمر بثمر ولا تجدي

١ — م : يعيّرهم بالغَدْر بجارهم ، كما غدروا من قبل بالمقنّع الكندي وهو شاعر أموي كان جدُّه سيد كندة ، وقد نشأ على حبّ الإنفاق فابتلي من ذلك بالدَّين فعيره بنو عمه فقره ومنعوه من الاقتران بشقيقتهم .

٢ — المزَنَم : الإبل الكريمة التي لها زَنَمة . ذو الجواعر : هنا الإبل الهزيلة الذَّليلة .

م : يفاخرهم في هذا البَيْت بالمجد والسّؤدُد من خلال الطّعام الذي يطعمه كل منهم ، ويقول إن التغلبيّين دأبوا على الطّعام الكريم ، فيما لازم أولئك الطّعام الرّذيل الذّليل . ولعل الطعام هنا هو رمز للأعمال التي يقوم بما كلٌّ مِنْهم .

٣ — ٤ — الماتح : المستدر اللّبن وهنا العطاء . الجذوة : أصل الشّجرة . الناقِح : المشذّب .

م : يتساءل إذا كانت الخوذُ تلتمع على رأس زياد ، فيما هو يَجْنح ويميل إلى القتال ، ويردف بأنَّ بني زيد اللات مُنْتِنون يفوح منهم النَّتْن في كلّ حين ، وأنّهم بُخَلاء ، لا يُرْجى عطاؤهم كالشجرة التي تَسَاقطَتْ أغصانها .

بجدوى . والتأويل جديد ، مبتكر ولا يعوزه العمق في المقارنة والرؤيا والإستنتاج بين المعاني الانسانيّة والمظاهر الطبيعيّة . ولنتمثل صورة النتن العائد والرائح والمقبل والمدبر ، أي انه يقيم ، أبداً ، ولا ينفك عنها . وللنتن ، هنا ، معناه المادي في ريحهم الكريهة ، ومعناه النفسي في غدرهم وفسقهم وقلّة شأنهم .

ويقول ، أيضاً ، مُقذعاً في هجاء نسائهم :

أَلا يالَ زيدِ اللاتِ ، ما بالُ رايــةٍ رَفَعْتُمْ عصاها بَعْدَما أَدْبَرَ الأَمْرُ ١

لتَحْموا نِساءً بادِيــاً ثَلَبَاتُهـــا قِصاراً هواديها ، وَأَوْساطُها عُجْرُ ٢

فهؤلاء يدافعون ، بعد أن انْقَضَى حين الدّفاع ، أي أنهم يهمّون بالقتال ولا ينهدون له ، فيكتفون من ذلك بالتظاهر به . والشاعر يُثبّط همّتهم عنه ، ليفيد من ذلك ثلباً لنسائهم اللواتي لا ميزة لهنّ تدفع للقتال والدّفاع عنهن . فهن ، بنقيض المرأة العربيّة ، كثيرات العورات والشوائب ، قصيرات الأعناق لذلّهن وشعورهن بالهوان . والعربي يرمز ، أبداً ، للعزّ والمجد برفع الهامّة واشرئباب العنق كما أن المرأة العربيّة هيفاء ، ضامرة الخصر . أما نساؤهم فهنّ مستديرات الخصور ، مُنتفخات البطون ، لقبحهنّ وقماءتهنّ . والهجاء الأخير يقتصر على الناحيّة الجسدية ، أو يكون انتفاخ البطن تعبيراً عن تواقعهن بالسفاح . والله أعلم .

ولا يعدو البيتان التاليان هذا الشأن :

لا يَرْهَبُ الضَّبْعَ مَنْ أَمْسَتْ بعقوتِهِ إلاَّ الأَذلاَّنِ : زَيْدُ اللاتِ والغَنَمُ ٣

---

١ ــ ٢ ــ الهوادي : الأعناق . عُجْر : يعني أنهن ضخمات البطون .

م : يخاطب بني زيد اللاّت ويعجب من رفعهم لراية القتال ، دفاعاً عن نساء مثلّبات ، أي كثيرات العيوب ، قصيرات الأعناق ، مُنْتَفِخات البُطون .

٣ ــ العَقْوَة : ما يقع حول الدّار أو المحلة .

م : يقول إنّه لا يخاف من الضّبع إذا حلّتْ في ساحته ، إلا زيد اللات والغنم لذلّهم . وآية المعنى أنّه يقرن بين هؤلاء والغنم في الجُبْن والامتناع عن الدّفاع عن النّفس .

هاتا لهُنَّ ثُغـاءٌ ، وَهْيَ جائلَـــةٌ   وهؤلاءُ قابِلو خَسْفٍ وإنْ رَغَمـوا ١

وهو يقرنهم في ذلك بالغنم للتدليل على الجبن . فهم يدورون على أنفسهم عندما يعترضهم الأعداء ولا يُريمون لجبنهم وتخاذلهم ، أو انهم ، كما سبق القول ، يتظاهرون بالحميّة بعد أن يُنكّل بهم وتُسبى نساؤهم . والمعنى مكرور ، إلا أنه وقّعه ، هنا ، توقيعاً نفسيّاً آخر ، من التباين بين ظاهرهم وباطنهم . فهم في الحقيقة جبناء ، مخذولون ، لكنّهم يتظاهرون بالإباء والبطولة . إلا أن الموقف الهجائي الأقوى يظل قائماً من المقابلة بينهم وبين الغنم التي تثغو عندما تطالعها الضَّبع . فلا حول ولا قوة لهم على الأعداء .

وربما أوجز معانيه الهجائيّة فيهم بقوله :

أَلا إنَّ زَيْدَ اللاتِ ، يَوْمَ لَقِيتُهـا   عِلاقَةُ سَوْءٍ ، في إنـاءٍ مُثَلَّـمِ ٢
قُبَيِّلَةٌ ما يَغْـدِرُونَ بذِمّـةٍ   ولا يَظْلِمونَ النَّاسَ مِثْقالَ دِرْهمِ ٣
ولا يَرِدون المـاءَ ، إلاَّ عشيـةً   على طولِ أظماءٍ ووَجْـهٍ مُلَطَّـمِ ٤

١ ــ م : يقول إن الغَنَم تَثْغو إذ يطالعها ، وهي تجول مذعورة في أمكنتها ، كما أنّ بني زيد اللاّت يَقْبلون الذّل ممّن يحلّ فيهم وإن أدّعوا مُراغَمَته ومقاومتَه .

٢ ــ العلاقة : ما يعلّق به الإناء .
م : يحقّر من أمرهم ويقول إنهم يبدون لهزالهم ودناءتهم كالعلاقة الزّريّة في الإناء المتثلّم .

٣ ــ م : يمثل في هذا البيت ضعفهم وقلّة شأنهم ويقول إنهم قبيلة صغيرة حقيرة ، لا حريّة لهم فيما يتصرّفون به . يعجزون عن الغَدْر ، إذا ما اضطروا إليه ، كما أنّهم لضعفهم يَعْجزون عن الاسْتبداد في النّاس . وقد اقتبس معنى هذا البَيْت من الحُطيئة إذ قال :
قُبَيِّلَـةٌ لا يَغْدِرون بذمّـة   وَلا يَظْلِمون النـاس حبّة خَرْدِل

٤ ــ م : يقول إنهم يقبلون على الماء في أعقاب النّاس ، بعد أن يعانوا الظّمأ الشّديد وتُلْطَم وجوههم وتُصْفع كالعبيد .

هوَ العَبْدُ يُجْبي كلَّ يــوْمٍ ضريبَةً   متى تُلْزِمِ العَبْدَ المــذلَّةَ ، يَلْزَمِ [1]

والجديد في هذه الأبيات تمثيله لهزال حالهم بصورة واقعيّة ، مُنعمة في الدقّة إذ قرَنهم بالإناء المسلَّم ، أو بالأحرى بجزءٍ منه بعلاقته المتدلّية المهترئة . والمعنى يتكامَل بين العلاقة والإناء المتثلّم ، إذ أن تثلمّه يُضاعف من الايحاء بمعنى الهوان وقلّة القَدر . وفضيلة الشاعر في ذلك هي اهتداؤه الى هذه المقارنة الموحية ، النافذة . إلاّ أنّ المعنى الهجائي الأعمق والأغرب هو قوله :

قبيلَةٌ مـا يغدرون بذمّـــة   ولا يظلمُونَ النَّاسَ حبَّة دِرْهمِ

وإذا كان وجه الهجاء بيّن في لفظة « قُبَيّلة » المحمولة على صيغة التّصغير ، دلالةً على التحقير وقلّة العدد والأنصار ، فان وجه الهجاء في القول إنهم لا يغدرون بذمة ولا يظلمون . وإنّا لنَعْلَمُ أنّ الإقامة على العهد والوفاء بالذّمة والامتناع عن الظلم هي من الفضائل ، فكيف يَهجوهم بفضائلهم ؟ الواقع ان للفضائل وجهاً آخر بالنسبة الى الفروسيّة الجاهليّة التي تؤمن بالقوة المُطلقة التي لا يحدّها حدٌّ ولا يردعها رادع . ثم إنهم اخضعوها لبعض الأعراف الإنسانيّة في القوة المطلقة التي تمنع ذاتها بذاتها ، تسامياً وكبحاً لجماح النفس ، فكانت قيم الوفاء والعدل . ووجه الهجاء ، هنا ، أن بني زيد اللاّت ، لا يغدرون ولا يظلمون تعفُفاً وتصوُّناً كالأقوياء ، بل ضعفاً وعجزاً . فهم يرغبون في الغدر ويميلون إليه ، إلا أنّه ليس ، ثمة ، قوة ، تعضدهم ليقووا على الغدر . ومثل ذلك الظلم ، فهو يقتضي من صاحبه القدرة ، ولا يظلم الا الأقوياء وبنو زيد اللاّت ظالمون ، ولكنهم يعجزون عن تحقيق ظلمهم . ويكون مؤدّى الهجاء كلّه ، هنا ، أنهم قوم مخذولون ، بائسون . وتتكامل هذه الصورة بقوله إنهم لا يَردون الماء إلاّ

---

١ ـــ م : يقول إنهم عبيد ، يدفعون في كلّ غداة ضريبة لمن دونهم ، خاضعين لهم . ويردف بان طباع العبد تدفعه إلى الظّلم .

عشيّةً عندما يتولّى الناس وترفضُ جموعهم ، فهم كالعبيد ، يلطمون ويزجرون ولا قبل لهم بالرفض والثورة .

ولقد واقع الأخطل شعراء آخرين ، فضلاً عن جرير ، منهم ابن جُعَيْل ، كما قدّمنا ، والنابغة الجعدي الذي أقذع في هجائه بأمه وبني قومه إذ قال :

وما أُمٌّ رَبَوْتَ على يديْهــا بطاهِرَةِ الثِّيابِ ولا حَصانِ ١
كأَنَّ عِجانَها لَحْيا جَزورٍ تَحَسَّرَ عَنْهُما وَضَرُ الجِرانِ ٢
وَلَوْ أَنِّي بَسَطْتُ عليكَ شَتْمي وجَدِّكَ ما مَسَحْتُكَ بالدّهانِ ٣
فلا تَنْزِلْ بجَعْدِيّ ، إذا ما تَرَدّى المُكْرَعاتُ مِن الدُّخانِ ٤
فإنَّكَ غيرُ واجِدِهِ حَشوداً ولا مُسْتَنْكِراً دارَ الهوانِ ٥

---

١ – م : يهجوه بأمّه التي نشأ على يدَيْها ، ويقول إنّها لم تكن عفيفة مُحْصَنَة بل مُبْتذلة تواقع من شاء مِن الرّجال .

٢ – العِجان : هنا الاست . جزَور : ناقة نُحِرَتْ . الجِران : العنق . تحسّر : انتزع ، فبان ما هو من دونه .

م : يُقْذع بها ويقول أنّ عجزَها شبيه بلحيي النّاقة التي نُزِع منها لحم العنق ، فتدلّيا .

٣ – الدّهان : هنا الجلد الأحمر .

م : يقول إنّه إذا ما تصدّى لهجائه ، فلن يكتفي بمعابثته وغشيانه غشياناً طفيفاً بل إنّه سيدعه ينفذ إلى لحمه وعظامه .

٤ – ٥ – المُكْرعات : من الإبل اللّواتي تدخل رؤوسها إلى الوقود فتسوَدّ أعناقها . تردّى : لبس الرداء .

←

يَبِيتُ على فَراسِنٍ مُعْجَـلاتٍ خَبيثـاتِ المغَبّـةِ والعُثـانِ ١
وَشِلْوٍ تُمْزَقُ الأَغراسُ عَنْـهُ إذا لَمْ يَصْلِهُ لهبُ الأَفـانِ ٢
وما تَنْفَكُّ حَنْكَلَةٌ زَمـوعٌ تُـواعِـدُهُ إلى آذى مَكـانِ ٣
أَزَبُّ الحاجبَيْنِ ، بعَـوفِ سَـوْءٍ مِن الحَيِّ الذينَ عَلى قَنـانِ ٤
قُبَيِّلَةٌ يَرَوْنَ الغَدْرَ مَجْـداً ولا يَدْرونَ ما نَقْلُ الجِفـانِ ٥

← م : يقول : عندما يشتدُّ الصَّقيع ، فيوقد للإبل فتدنو إلى النّار بحيث تسود أعناقها ، فإنّك لا تلقى بني جعدة يهرعون إلى الضّيف ويحشدون له الخدم والجواري ، لأنّهم ألِفوا الهوان وأقاموا علَيه .

١ ـ الفَراسن : أخْفاف الإبل . مُعْجَلات : أي غير تامّة النّضج . خبيثات المَغَبّة : أي أن أكلها يورث وجعاً في البطن . العُثان : الدّخان .

م : يقول إنّهم يقدّمون لضَيْفهم أخبث الطّعام ، كأخْفاف الإبل غَيْر التّامة النّضج والتي تورثه ألماً في بَطْنه .

٢ ـ الشّلْو : هنا ولد النّاقة . الأغراس : الغشاء والجلد الذي يخرج منه الولد . الأفان : شجر .

م : يقول إنّه ينتزع المنْديل الذي يَغْشى الجنين في بطن النّاقة ويأكله دون أن يطبخَه على على النّار .

٣ ـ الحَنْكَلَة : الدّميمة ، القصيرة من النّساء . زَموع : سريعة .

م : يقول إنّه إذا ما حلّ ضيف عليهم ، فإن نساء بني جعدة الفاجرات القصيرات القبيحات ، لا يزلن يواعدنه للزّنى .

٤ ـ أزَبّ الحاجبَيْن : كثيف شعرهما . العَوْف : الحال .

م : يقول إنّ الجعديّ لا يزال كثيف شعر الحاجبَيْن يقيم في بني قومه بحالة سيئة .

٥ ـ م : يشير في هذا البيت إلى قصّة ورد والرّقاد اللّذَيْن قتلا بعض الملوك غدراً . ويقول إن الجعديين لا يعرفون نقل الجفان أي القدور ، فلا يطعمون ضيفاً أو ينقلون له الطعام .

فهو يَستهلُ هجاءه بوالدته وبنعوت تقريريّة نعى عليها فيها عفتّها ، ثم ينحدر الى الفحش في تمثيلِ استها ، ممّا لم نعهده في شعره ، قبلاً ، ومؤدّاه أنّها لعظم مواقعتها للرِّجال مُزِّق لحم عجزها وتناثر . ومع أنه أدّى سورة الغلوِّ . فهو من الشعر الساقط الشبيه بالسُّباب والشتم .

والمعنى الثاني الذي يهجوهم به هو امتناعهم عن الضيافة ، وقد مثلّه من خلال كنايات مُتَعَدِّدة أهمّها : النياق المكرعات، كنايةً عن شدّة الصقيع بحيث تلتصق الناقة الى النار ، فتُفعم أعناقُها بالدُّخان وتسودُّ به . إلا أن قومه لا يدفعون الضيف ، وكانوا أحرى أن يفعلوا بدلاً من أن يُطعموه طعاماً فاسداً يكاد أن يُودي به ويُهلكه . فهم يطعمونه أخفاف الإبل غير الناضجة وأغشية الأجنّة المخضَّبة بالدم . والعربي يفخر بأنه يُطعم لحم الأسمنة ، فكيف بهؤلاء يُؤدُّون الأقدام والأغشية ، وهي كناية عن الاحتقار للضَّيف والبخل عليه . إلا أن أخبث أهاجيه فيهم تشخص في الأبيات الثلاثة الأخيرة إذ يصف نساءهم بأقبح وصف ويُردف بأنهنّ يُواعدْنَ الضيوف على الزِّنى .

* * *

خلاصة عامة حول هجائه

أولا : المعاني : للأخطل معانٍ هجائيّة يتصرّف بها في كلّ مناسبة وفقاً لمقتضى الموضوع والمناسبة . فهو يُحْدقُ بالمهجوِّ من كلِّ جهــة ووجه أو يؤدي له بعض المعاني المجزوءة في أبيات قليلة بالنسبة الى شدّة تواقعه معه . فهو يهجوه ، غالباً ، بوالدته ، فيشبّهها بالدّابة التي عُقِد عليها سرجها :

ولقد شَدَدْتَ على المــراغــــة سرجها حتى نزعت وأَنت غَيْرُ مُجيــدِ (٣٦٧)

ويلمّ بذلّها وهوانها من خلال الأعمال التي تدأب عليها . فهي تدعى الى إطفاء النار ببولها ، خوفاً من الضيفان :

قومٌ إذا استنبحَ الأَضيافُ كَلْبَهَـــمُ   قالوا لأُمِّهم بُولي على النَّـــــار ٣٧٠

ويعرِّج على تقرُّح استها واستبانة عظامها من شدة هزالها وامتطائها للبعران :

كَأَنَّ غَرَاضيفَ استها فوقَ أَتـــره   وَحَجْمَ تَرَاقيها سَكَاكِينُ جازِرِ ٤٣٥

وربما أقذع وافحش ، في مثل قوله :

تَرَى مِنْهـــا لَــوَامِعَ مُبْرِقـــاتٍ   يَكَدْنَ ينكْنَ بالحدق الرِّجـــالا ٣٨٢

وقد يقذف بها قذفاً مباشراً :

وما أُمُّ رَبَــوْتَ عـــلى يَدَيْهـــا   بناصِعَةِ الثِّيــابِ ولا حَصَـــانِ
كأَنَّ عجانهـــا لحيـــا جَــــزورٍ   تحسَّر عَنْهُمَـــا وَضَرُ الجـــران

وكذلك في مثل قوله :

و ما تنفــكُّ حنكلـــةٌ زمــــوعٌ   تواعِدُه عـــلى أذى مكـــانِ

ويهجوه ، أيضاً ، بوالده ، في معنى يتكرّر أبداً ، وهو معنى مغرق في المادية يقيم به موازنة ، كما في قوله :

وإذا وَضَعْتَ أباك في ميزانهـــــم   رَجَحُوا عليك وأَنت غير حميدِ ٣٦٨

وإذا وَضَعْتَ أَباكَ في ميـــزانهـــم   قَفَزَتْ حديدته إليك . فشالا ٣٩٤

وإذا وضَعْتَ أَباكَ في ميــزانهـــم   رَجَحُوا وشالَ أَبوكَ في الميــزان ٣٩٦

وهذا التشبيه افتراضيٌّ ، تمثيليٌّ ، يردف إثره بمعانٍ أشدّ زرايةً وتحقيراً كقوله :

وأبوك في مَحْنيَّــــــةٍ وعبــاءَةٍ   قَمِلٌ كأَجْرَبَ ، منتشٍ ، مورود ٣٦٩

جاءَت به معجلاً عن غبٍّ سابعــةٍ   من ذي لَهَالَه ، جهم الوجه كالقارِ ٣٧٤

متلفــف في بردة حبقيَّـــــــةٍ   بفناء بَيْتِ مَذَلَّــةٍ وَهَـــوان ٣٩٥

ويهجوه ببيته الحقير :

تَغَنَّ ضلالاً ، يا جريرُ وإنَّمــــــا   مَحَلُّك بَيْتٌ حَلَّ وَسْطَ الزَّرائِبِ ٤٠٤

مَا كَانَ مَنْزِلكَ المَرُّوتَ مُنْحجراً   يا بنَ المَرَاغَةِ ، يا حُبْلى بمُخْتَارِ ٣٢٣

وهناك معانٍ فروسيّة عامّة ، مستمدّة من مثل البيئة ، يعكسها فيهم وينقضها ، منها سَوقُهم الحمير والعيارات :

كُلَيْــبُ يُفَــالُون الحميــر ودارِمٌ   على العيس تعلو ، فوق كُلِّ المَوَارِكِ ٤٢٠

على العيَّاراتِ هَدَّاجُونَ قد بَلَغَتْ   نَجران أَو حدِّثت سوآتهم هُجَرُ ٤١٠

يُزَجُّونَ الحميرَ بأَرضِ نَجْــــدِ   وما لهم من الأَمر الخيــارُ ٤١٠

فما قادُوا الجيادَ ولا افتلـــوهــا   ولا ركبُوا مخيَّسة الرِّكـــــاب

على إثر الحميرِ مُوَكفيهــــــا   جنائبُهــم حــواليَّ الكــــلاب ٤٦٠

وقد يقرنهم بالعبيد :

وكنت إذا لقيت عبيد تَيْـــمٍ وتيماً قلت أَيُّهـم العَبيــــدُ

ويُعَيِّرهم بالمنع عن الماء :

وابن المراغَةِ حابسٌ أَعْيـــارَهُ قذف الغريبة ما يَذُقْنَ بلالا ٣٩٣
وإذا وردت الماءَ كان لـــدارمٍ عفــواته وسهولـة الأَعطـانِ ٣٩٥
أَما كليبُ بن يَرْبُوع فَلَيْسَ لهــم عند التَّفارط ايراد ولا صَــدْرُ
ملطَّمُــون بأَعقاب الحياضِ فمــا ينفكُّ من دارميٍّ عندهم أَثَرُ ١٧٨

ويتمثّل بالسّيل العرم ويمثل العدو بالقذى والغثاء :

وإذا سما للمجد فرعــا وائـــلٍ واستجمَعَ الــوادي عليك ، فسالا
كُنْتَ القذى في موج أكــدر مزبد قذف الأَتيُّ به ، فضلَّ ضلالا ٣٩٢
أَجحاف ان تَصْطكَّ ، يوماً ، فتصطدم عليك أَواذيُّ البُحور الزَّواخـــر
تكن مثل أَقذاءِ الحُبَابِ الَّــذي جرى به الماءُ أَو جاري الرِّياح الصَّراصِرِ ٢٦

ويُعَيِّرهم بفرارهم من دون نسائهم وامهاتهم :

لحا الله قَيساً حيــن فَرَّتْ رجالُهــا عن النَّصف السَّوداءِ والكاعِب البكْرِ
وَظَلَّتْ تنادي بالثديِّ نساؤهـــم طوالع بالعلياء مائلة الخُمْــرِ ٤٤٧

وعبر ذلك تراه يُتَشَفَّى بمن قُتِلَ من الأعداء :

وان كان قد قَادَ المقانبَ ، مـرّةً عُمَيْرٌ ، فقد أَضْحى بدوّيـة قَفْر.
تَظَلُّ سباعُ الشَّرعبيَّة حـول‍ـه ربوضاً ، وما كانُوا أَجنُّوه فيقَبْرِ ٤٩؛
أَمعشر قَيْس لـم يمتّع أَخـوكم عُمَيْرٌ بـأَكفـانٍ ولا بطَهـورِ
تدلُّ عليه الضَّبْعَ ريـح تضوَّعت بلا نقع كافورٍ ولا بعبيرِ ٥٠؛

ونقع هنا وهنالك على تعيير لهم بالبخل والامتناع عن الضيافة ، والإباءة بالثأر وما الى ذلك ممّا تقدّم ذكره .

أمّا الخصائص النفسيّة العامّة ، فتبدو في أنّه لم يَصدر عن شعور بالعاهة والنّقمة الوجوديين اللذين يستطلعان الخلَلَ في خليّة الحياة ذاتها وفي نواميس الأحياء والأموات ، بل عن نزعة فُروسيّة ومفاخرة يتعاظم فيه الهاجي بقدر ما يتضاءل قدر المهجو ، وهو لا يُزري بهم ، غالباً ، في حدود حياتهم الواقعيّة ، بل في تقصيرهم عن القيم المثاليّة . يَثلُبهم ، مثلاً ، بامتطائهم للحمير ، وليس في ذلك ضَيْرٌ بالنسبة الى الحياة الداّجنة الأليفة ، الا ان الأخطل يرفض ذلك الواقع ويجد أنّ غاية الحياة هي البطولة يمتطي صهوة القتال ويزهو بزهوة النصر . وقد ينخفض بهم حتى عن المستوى الواقعي في نوع من الغلوّ الفنّي،فيجعلهم يَبخلون حتى بالبَول ، ويجعل طعامهم من لحوم الحمير والذئاب والدّم ؛ وقد لا نقع في هجائه على السّخر والكاريكاتوريّة حيث يُعالج موضوعه بذهنٍ خليٍّ ، متفرّغ ، لاهٍ ، عابث . فالأخطل شاعر جدّي ، وحتى الخمريّات لم تكد تُخرجه عن طوره . فهو يحرص على القيم وينافحُ عنها ، يَستمدّها من بيئتها ومن النفسيّة البدائية التي تصطخب فيها الانفعالات ، متمازجة بين الفخر والهجاء ، كما بيّنا . ومع أنّه لا يحتشد في هجائه كلّه احتشاده ولا يقدّم له الا نادراً في مقدمات مبتسرة فإنّه لا يتخلّى عن جلال العبارة والصورة والمنحى الجمالي، ممّا سنعرض له في الفصل الأخير ، خلال دراستنا لخصائصه الفنيّة العامة .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

مفَاخِرُه

الباب الأوّل

الفخر العـام

يُعتبر الفخر في شعر الأخطل امتداداً للمدح والهجاء ، أو هما يُعتبران امتداداً له . ذاك أن الأخطل لم يكن يصدر عن عاهة في أصله ولم يكن يَنتمي الى قبيلة هزيلة ، لا شأن لها ، بل إنّه تَغْلَبيُّ النّسب ، يَنْطُقُ بصوت قبيلته القويّ ، ويتغنّى بأمجادها ويعدّد أيّامها بأسمائها والقبائل والأمراء الذين انتصرَت عليهم ، كما أنّه يَهجو من يتعرَّض لها ويُنازعها . وهذه العُنجهيّة الغائرة في وجدانه ، المالكة لروعه عليه ، كانت تَرْفُدُه بالمعاني والصور ، فضلاً عن الايقاع الحماسي الهادر الذي يَصطخب ويتألّب في معظم قصائده . فالأخطل في فخره هو سليل عمرو بن كلثوم ، دون أن يتفرَّغ له تَفَرُّغَه ، ويُغالي به مغالاته . وفخره يتبايَنُ غاية التباين عن فخر عنترة السّوداويّ القانط ، فهو الفخر الزّاهي ، الطَّرب ، المُتَرنّح بخمرة النَّصر العريق . ذاك أن عنترة كان يَصدر في فخره عن عاهة الأصل في العبوديّة واللّون ، وقد كان ابناءُ قومه ألدَّ اعدائه ، بخلاف الأخطل الذي لم يكن له مفاخر ذاتيّة في البطولة ، بل مفاخر قوميَّة في قبيلته . لذلك غَلَبَ على فخره الإيقاع السَّرديُّ ، فيما غلب على مفاخر عنترة الأيقاع التَّبريريُّ ، الكالح ، المظلم . ولعلَّ صدور الأخطل عن الرِّضا والتكافوء ، أبقى لفخره القيمة الجماليّة الخالصة من دون القيمة النّفسيّة التي تقتصر على معاناة الحقيقة العامة حيث يشعر المرء ، أيّاً كانت قوته بالاندحار والهزيمة أمام قدره وقدر

الحياة . فالأخطل أشبه بالبدائيين الأول في تشاوفه بالنصر الحربيّ ، تملأ أُذنيه قعقعة السُّيوف ويُفْعِمُها قَرع سنابك الخيل عن التنصُّت إلى همس اقدام الحياة الذي يدبُّ ببطء وصمت ، مزيلاً كل ما يتنازع وما يتفاخر به المرءُ . فهو يدنو ، من هذا القبيل ، الى الفرزدق في انتفاء عنصر الفاجعة من فخره وافتقاره الى الأبعاد الانسانيَّة . ولعلَّ فخر المتنبي يُمثّل أفضل تمثيل الفخر المأساتيَّ الفاجع الشاعر بالهزيمة في قلب الانتصار والخفوت والهرب في أوْج النجاح . ذاك انه أفصح فيه عن التنازع المرير بين الواقع الفاشل والحقيقة الانسانية المدحورة ، من جهة ، ومثل البطولة والحريّة . ولقد تردَّى ، من ذلك ، تحت الرُّكام والأشلاء والأنقاض ، وظلَّ يرفع هامته من دونها . أما الأخطل ، فإنّه لا يواجه نهاية مطاف القُوَّة والنصر ، ولا يتبصّر بحلقة الوجود المفرغة ، الدَّائرة على ذاتها ، مأخوذاً بالآنيّ والعارض ، أي بالأشخاص والأحداث . ومتى خلا الشعر من عنصر الفاجعة التي تبقي فيه طعم الألم والعمق ، فإنّه يطفر الى نوع من التُرهات في الغلو الجامح النزق . وهو ، فضلاً عن ذلك ، يستمدّ معاني فخره ، كما هو الشأن في مدائحه وأهاجيه من قيم بيئته وعصره .

ويمكن أن نقسم مفاخره إلى معانٍ عامّة يَعرض فيها لأعدائه ، جملة والى مفاخر خاصَّة بالقيسيين وأحلافهم ، وندع باباً لفخره بالحيول التغلبيّة حيث يُشيدُ ببطولتهم ويُعَظِّمُها ، لنعرِّج في النُّهاية الى فخره بضيافتهم .

ونقع على الفخر العام في مثل قوله :

نَصَبْنَا لَكُمْ رأساً ، فلَمْ تَكلِموا بـِهِ ونَحْنُ ضَرَبْنا رَأْسَكُمْ ، فَتَصَدَّعا [1]

١ — م : يقول الشّاعر ، مُتفاخراً : إنّنا أبَحْنا لكم هامتَنا ، لتضربوها وتصيبوها بالجراح ، فلم توفّقوا إلى شيء من ذلك ، فيما ضَرَبنا هامتكم وأدْمَيْناها وجعلناها تَتشقّق وتتصدّع . ومؤدى المعنى أنّه لا قدرة لأعدائهم عليْهم ، فيما هم قادرون على البَطْش بكل من يتعرّض لهم .

ونحنُ قَسَمْنا الأَرْضَ نصفين: نصفُها لَنا ، ونُرامي أَنْ تكونَ لَنا مَعا ١

بتِسعينَ أَلْفاً ، تأْلَهُ العَينُ وسْطَهُ متى تَرَهُ عَيْنا الطُّرامَةِ ، تَدْمعا ٢

إذا ما أَكلنا الأَرْضَ رَعْياً ، تطلَّعَتْ بِنا الخَيْلُ ، حتى نَسْتَبيحَ المُمَنَّعا ٣

فالفخر في البيت الأول يقوم على المعارضة بين واقعهم وواقع الأعداء الذين عجزوا عن منازعتهم ، فيما مثَّل بهم التغلبيُّون غاية التمثيل . وتكنّى عن ذلك كلّه بالرَّأس . فرأسهم لم يُصَب حتى بجرحٍ طفيف ، فيما تَمزَّق رأس الأعداء. ولقد طفا الانفعال هنا وطغى ونزا بنوع من الحماس الحربيِّ الفاقد المضمون الانسانيِّ في عصرنا . فما جدوى القول إنّه قادر على البطش وأنّه يَنثر رؤوس الناس أشلاءً ومزقاً . ومع أن الشاعر صادق في معاناته ، فإنها لا تعدو الحماس الطّائش والتّغنّي بالقوّة الشبيهة بقوى التوحُّش والافتراس . والشاعر هو مسؤول في النهاية ، عن الرّصيد الإنسانيِّ لتجاربه ، ولا يكفيه الصدق في الانفعال ما دام انفعالُه مُغرقاً في الذاتيّة ، مُتَعَفِّية فيه آثار الموضوعيّة . ولا يعدو ذلك قوله :

ونحن قَسَمْنَا الأَرض نصفين : نصفها لنا وَنُرامي أَن يكون لَنَا معــا

والفخر بَيِّنٌ فيما يدّعيه من استيلاءٍ على نصف الأرض وطموحٍ الى الاستيلاء عليها ، جميعاً . فهذا المعنى انبعَثَ من نفس عنيفة ، طربة للنّصر ، صادقة

١ ــ م : يقول إنّهم احتلّوا نصف الأرض وانّهم لا يزالون يُقاتلون حتى يحتلّوا النّصف الآخر ، أي أنّهم عازمون على احتلال العالم ، جميعاً .

٢ ــ تألَه : تحار إذا نظرت . الطُّرامَة : هو حسان بن الطُّرامة الشّاعر الكَلْبي .
م : يقول إنّهم سيحتلون العالم بجيش من تسعين ألف مقاتل . يَغْشى الأبصار لهوله ، وإنّه إذا وقعت عليه عينا العدوّ ، ينهمر منهما الدّمع رهبةً وحقداً .

٣ ــ م : يقول إنّهم يرتعون مراعيَهم وإنّهم يستحلّون مراعي سواهم التي يحمونها ويَمْنعونها .

فيما تؤدّيه تحت وطأة الانفعال الذي ينزو بها . وقد لا يكون التغلبيّون قد استولوا ، فعلاً ، على ما يدّعيه ، ولكنّ الشاعر استولى عليه بالفعل النفسيّ والغلواء والحماس. وفي مثل ذلك نقول ان الإنفعال وفّق في الافصاح عن ذاته بما يؤدّيه في حدود الواقع ، لكنّه أقام على حدود ذاته ، ولم يَهْتدِ بهداية العقل ولم يسترفد ويتخمّر بالتأمّل ليَمتنع عن النّزق والطّفرة الفاقدة البصيرة . فاذا كان الفخر هو تجسيد باللّفظ والصورة ، لما يَعتمل في النّفس من نزوات طارئة ، فإن قيمة هذا الشعر تتعاظم لأنه وفّق فيه الى تمجيد القوّة المطلقة . أما إذا كان الفخر يُقَيّم باهتدائه على المعاناة الانسانيّة العاقلة لمعنى القوّة المتصارعة مع الظلام والشبهة والحياة والموت والمعنى الأخير للاشياء ، فان فخر الأخطل تتضاءل قيمته ، بل تنعدم . فالزّهو باقتسام الأرض هو تَغَنٍّ بالقوّة لذاتها ، وهو غناء مرذول في عصرنا الذي لم تعد تغرِّر به لحظات القُوَّة الطارئة عن الشعور بقصور دائم وافتقار بائس للقوّة الفعليّة التي لا تتقلّص من ذاتها . واثر ذلك كلّه نقول إن الأخطل تصرّف هنا ، تحت وطأة الانفعال الصرف ، الخالص ، فافتقد شعره مبرِّره الانسانيّ ، من افتقاده لضوء العقل وهدايته . وقد تتحقّق من هذه النزعة البدائيّة في قوله :

بتسعين أَلفاً تَأْلَهُ العَيْنُ وَسْطَه ... متي تَرَهُ عَيْنَا الطُّرامة تَدْمَعا

وذكره لعدد الجيش وهو عدد غلوٌّ ينمُّ عن تروُّع بحجم الأشياء . فلقد شاهد جيش بني قومه الحاشد ، فتوهّم أنّه الجيش المُطلق الذي لا يقف له جيش آخر ، والجيش الذي لا يُهزم . وهذا الاطلاق ليس من خصائص التجربة الشعريّة العاقلة التي تَتَعَفّف ويكبح جماحها من التمرّس بالواقع الفعلي . وهذا القول لا يعدو الحماس الطارىء الذي لا يُخلّف في نفس القارىء والشاعر ، جميعاً ، إلا الخواء . ويبلغ ذلك أشدّه بالقول :

إذا ما أَكَلْنَا ٱلأَرْضَ رَعياً تَطَلَّعَتْ ... بنا الخَيْلُ حَتَّى تَسْتَبيحَ المُمَنَّعا

ولقد نما الى الخيل ، في هذا البيت ، ما تعتمل به نفوسهم ، زاعماً أنّها تَنظُر

إلى مراعي الآخرين ، طامعة في احتلالها . وذكره الخَيل هو وسيلة للغلوٍّ . فكأنها دأبت على هذا الأمر حتى أنها لم تَعُد قادرة على أن تكفّ عنه . فقوّتهم هي قُوّة استيلاء وسيطرة ، لا يردعها رادع ، ممّا يؤكّد ما ذهبنا إليه من القول ان فخره هو سبيلٌ الى تمجيد القوّة المُطلقة المزهوّة بنفسها .

ونزعة الاستيلاء تطغى على معظم فخره ، فضلاً عن هجائه . فكما تَشَفّى وشَمَتَ بالقيسيين وسائر اعدائه بطردهم الى الأراضي السّوداء وتربّعهم الجزيرة من دونهم ، تراه يَفخر ويشيدُ بقومه للأرض الشاسعة التي احتلّوها ، وهو يكاد أن يحدّها بحدّ شبه جغرافيّ علميٍّ في مثل قوله :

وإنَّا لَمَمْدودونَ ما بَيْنَ مَنْبِـــجٍ فَعافِ عُمانٍ ، فالحمي لِيَ أَفْيَحُ ١

وإنَّ لَنـــا بَـرَّ العِراقِ وبَحْـرَهُ وحَيْثُ ترى القُرْقورَ في الماءِ يَسْبَحُ ٢

وإنْ ذكرَ النَّاسُ القديمَ ، وجَدْتَنـــا لنا مَقْدَحا مَجْدٍ وللنَّاسِ مَقْدَحُ ٣

بِنَا يُعْصَمُ الجيرانُ أَوْ يُرْفَدُ القِرى وتَأْوي مَعَدٌّ في الحروبِ ، وَتَسْرَحُ ٤

ذوي يُمْنٍ الاَّ تُثِرْنا لِنَصْرِنـــا نَدَعْ بارِقاتٍ مِنْ سَرابٍ تَضَحْضَحُ ٥

١ ــ ٢ ــ م : يفخر في هذين البيتين بالمواضع التي يحتلونها بين منبج والعراق : بره وبحره الذي تغشاه القراقير أي السفن .

٣ ــ م : يقول إذا ما تباهى القَوْم بمجدهم القديم العريق ، فإنّهم يُلْفون أكثر الناس مَجْداً يَقْدحونه بضعف ما يَقْدح به الآخرون .

٤ ــ م : يقول إنّهم يَحْمون جيرانَهم ويُطْعمون مُنْتجعي ديارهم ، كما أنّ سائر العرب يفزعون إلَيْهم عندما تُضنيهم الحروب .

٥ ــ تَضَحْضَحُ : تَتَألّقُ .

م : يقول إنّهم ذوو إقبال وخير ، إلا إذا تحدّاهم أعداؤهم ، فإنّهم ، آنئذ ، يَتَصَدّون لهم وينتصرون عليهم بأسلحتهم التي تتألّق وتلتمع في الشّمس كالسّراب .

فإمّا مَقَامٌ صادِقٌ ، كلَّ مَـوْطِـنٍ وإمّا بيـانٌ ، فالصَّريمَةُ أَرْوَحُ [1]
وإنْ تُفْقِدُونا في الحروبِ تجَشَّموا مِرَاسَ عُرىً تأْتي مَلَى اللَّيْلِ تَكدَحُ [2]

فأرضهم تمتدُّ من منبج قُرب حلَب إلى عمان الى العراق ببرِّه وبحره . وهو يماثل قول عمرو بن كلثوم :

مَلَأْنا البَرَّ حَتَّى ضاقَ عَنَّا وَظَهْرَ البحر نَمْلأُه سفينا

إلاّ أنّ قَول الأخطل هو اكثر تفصيلاً وواقعيَّة . والعاطفة التي يُعَبِّر عنها هي عاطفة البدويِّ الذي ينظر الى قبيلته فيجد أنها أوشكت أن تشارف الملك وأن تقيم الدولة ، لها من الأرض ما لها ، ومن الصولة والهيبة مما يمنع الآخرين عن الطَّمع بها . فهذا الفخر هو من الفخر العام وفقاً لواقع البيئة حيث لم يكن المرء يكسب رزقه إلا من لحوم الآخرين وأشلائهم . إلا أنه يتّسم بالواقعيَّة من ذكر أعلام الأماكن . وهناك فخر معنويٌّ عام ، يتوسّل له المعادلة البلاغيّة ، والايحائيّة ، كمثل قوله :

وإن ذَكَرَ النَّاسُ القديمَ ، وَجَدْتَنَا لَنَا مَقْدَحا مَجْدِ وللنَّاسِ مَقْدَحُ

وقدح المجد هو استعارة مكنيّة لإضاءته وإشعاله وانّهم يتفوَّقون فيه على من دونهم . ومع أنّه قيّد فكرة المجد بالصُّورة الحسِّيّة المُوحية ، مانعاً عنه التجريد ، فإنّه لم يخرج به من نزعته العامّة ، وفقاً لمنطق توارد الأفكار وتسقُّطها . وينحدر

١ ــ م : يقول إنّهم ، إما أن يُقيموا في مرابعهم بخَفْضٍ ورغد ، وإمّا أن يتباينَ أمرُهم وأمر أعدائهم وتقع بينهم القطيعة .

٢ ــ م : يقول إذا ما عزمتم على بلاء أمرنا في الحروب ، فإنّكم تَمْتطون مركباً وعراً ، ويردف بأنّهم يعترونهم بجيشهم الكثير الذي لا يزال يسير ويكدح إليْهم اللّيل كلّه .

إلى قليلٍ أو كثير من التجزىء في ذكره لمنع الجيران وايثار الضّيف ، وحماية العرب ، جميعاً ، وهنا يَعْبر بفلذة من الشعر العاقل ، المُتَرَصِّن إذ يقول :

ذوي يُمْنٍ إلا تُثِرْنا لنصرنا   نَدَعْ بارقاتٍ من سرابٍ تَضَحْضَحُ

فهم أولو خير ومعروف ، حتى يستثاروا ، فيهرعون الى أسلحتهم التي تتألّق في الشمس كالسّراب . ولقد عمد الى الصُّورة الأخطليّة المأثورة في استحضار المعادلة الحسيّة التي ترافق المعنى وتجسّده ، وتمنحه ، في الآن معاً ، الغلوّ والايحاء . فأيّاً يكون ذلك الجيش الذي يتألق سلاحه كالسراب العظيم الخافق ، المُتوهّج في الشّمس ؟ تلك هي الجماليّة الأخطليّة تُفحمك وتأخذ بروعك من الحشد الواقعي الذي يسمو بها والحَدس في تخيُّر المشهد . لا شك ان الخيال الابداعيّ يضعف في مثل تلك الصُّور ليحلّ من دونه الخيال الواقعي ، التّمثيليُّ . فهو لا يَنْفُذُ إلى ما دون الأشياء ، ولا يَشاهِدُها في الظلمة ، بل أنّها تَسطع وتَتَألّق في وضوح الصورة الواقعيّة . وهذه الصور الجماليّة هي أكثر إنسانيّة من المعاني التقريريّة حيث يُصَرِّح بنزعة البَطش . فهو يُردفُ بأنهم لا يتظلّمون الناس ، ما داموا يَدّعُونهم يُنتجعون ما يبتغون من الدِّيار ، حتى إذا عارضوهم ، أقبلوا عليهم بجيشهم الحاشد . وقد تخلّى بذلك عن المعاني التي تشيد بالمظاهر المطلقة للقوّة ، وان كان يستبطن عبر ذلك كلّه التعبير عن حرِّيتهم الشاملة .

ومن هذا الفخر العام الذي تَرَسّم في لوحته بعض التّفاصيل العارضة ، يلمُّ بفخر اكثر تفصيلاً يَقوم على فضيلة التعداد ، بينما كانت تغلبُ في فخره العام نزعة التصوير . ويقوم التّعداد على ذكر أسماء الأبطال واسماء المعارك والقبائل المدحورة ، مثال قوله :

ولقدْ سما لكُمُ الهُذَيلُ ، فنالكُمْ   بإرابَ حَيْثُ يُقَسِّمُ الأَنفالا ١

---

١ ــ الهُذَيل : هو الهذيل بن هُبَيْرة التغلبيّ . إراب : ماء في البادية .
م : يشير إلى غزوة قام بها الهُذَيل على بني رياح بن يربوع ، والحيّ خُلوف ، فسبا نساءهم وساق إبلهم واقتسمها في محاربيه .

فِي فَيْلَقٍ يدعو الأَراقمَ ، لَمْ تَكُنْ فُرْسانُهُ عُـزْلاً ، ولا أَكْفـالا ١
بالخَيْلِ ساهمَةَ الوُجوهِ ، كأَنَّمـا خالَطْنَ مِنْ عَمَلِ الوجيفِ سُلالا ٢
ولقَدْ عَطَفْنَ عَلى قُدارَهَ عَطْفَـةً كَرَّ المنيحِ ، وجُلْنَ ثَمَّ مجـالا ٣
فسَقَيْنَ مَنْ عادَيْنَ كأْساً مُـرَّةً وأَزَلْنَ حَـدَّ بَنِي الحُبابِ فَـزالا ٤
يَغْشَيْنَ جِيفَةَ كاهـلٍ عَرَّينهـا وابنَ المُهَزَّمِ ، قَدْ تَرَكْنَ مُـذالا ٥
فقَتَلْنَ مَنْ حَمَلَ السّلاحَ وغيرَهـم وتَرَكْنَ فَلَّهُمُ عَلَيْكَ عِيـالا ٦

١ ــ الفَيْلَق : الكتيبة العظيمة . عُزْل : جمع أعزل : خالٍ من السلاح . الأكفال : جمع كَفَل : الجُبناء الذين لا يثبتون للقتال . الأراقم : حيّ من تغلب .

م : يمتدح بني الأراقم التغلبيّين الذين هرَعوا بجموع عظيمة ، مُسْتَبْسِلين في القتال .

٢ ــ السّاهِمة : الضامرة . الوَجيف : ضرب من السّير : السُّلال : الهزال .

م : أي هرعوا بخيول ضامرة ، كأنّما أصابها من شدّة عدوها هزال من أصيب بداء السُلال .

٣ ــ المَنيح : قِدْح لا فوز له في الميسر .

م : يقول إنّهم أوقعوا بقُدارة وفتكوا بها وألحقوا بها الخسارة الفادحة وصالوا وجالوا فيهم .

٤ ــ م : أي أنهن جرّعن الأعداء المرارة وانهن اقتحمن حمى بني الحباب وأزلْنه .

٥ ــ مُذالاً : أي مذلولاً ، مُهانا .

م : أي أنهن قتَلن كاهلاً وعرّين جيفته واذلَلْن ابن المُهَزّم بما أوقعن به .

٦ ــ الفَلّ : بقايا الجموع المُتَفَرّقة .

م : أي أنّهم في بطشهم قتلوا المقاتلين والنّساء والأطفال ، ولم يخلّفوا منهم إلاّ الفُلول المشرّدة .

فهذه الأبيات مرتهنة الى التعداد والسرد وذكر الوقائع عبْرَ هالةٍ عامّة من الانفعال الحماسي . هناك « الهُذَيل » وهو من أبطال تَغْلب ، له صفة تاريخيّة فعليّة ألمح إليها الشاعر بالقدر الذي لا غنى للفخر عنه ، وذكر اسم الموقعة التي أوقع فيها بالأعداء ، وهي « إراب » . وهناك اسماء علم أخرى ، مثل « قدارة » و « بني الحباب » و « كاهل » و « ابن المُهَزَّم » . نقول في مثل ذلك أن الواقعيّة الغثّة الشّاخصة في اسماء الأشخاص والمواقع ليست من مادّة الشعر ، بل من النثر لأنها تتوسّل السرد وايراد الأحداث ، وان كانت الموجة الانفعاليّة التي تصدر عنها تنأى بها عن صفة النثر . وبقدر ما تطفو الأحداث والأسماء يَفْقُد الشّعر الصّفة التّأمليّة الذّاهلة ويُرتَهَنُ لجزئيّات الواقع ، وإنما الشعر هو تعبير بالرؤيا ، واستحضار للحقائق الشاملة في تُخُوم خالصة ، متحرِّرة من الطُّفيليّات . إلاّ أنّ الفخر هو كشعر الملحمة الذي نقضَه الشّاعر الأميركي ادغار ألن بو ، إذ قال : « إن الشعر الكبير يأنف من السرد والقصّ » . والواقع أن هــذا الفخر تَلْتَمع فيه فلذاتٌ طارئة من الشِّعر ، فيما يرْسُفُ غالبُه في أجواء نثريّة لا يشفع بها الحماس الذي يبُثُّ الحميّة الطارئة غير المجدية . وإذا أضفنا بعض الأبيات التقريريّة ، كما في قوله التالي نجد ان تلك النزعة تشتدُّ وتتفاقم :

في فَيْلَقٍ يَدْعُو الأَراقـم ، لم تَكُنْ فُرْسَانُه عُزْلاً ولا أَكْفَـــــالا

فما جدوى القول في باب الفخر ، بأنّ الفُرسان لم يكونوا جُبناء ولا عُزّلاً . إنّه دون جدوى أو تأثير ، وقد افتقدَت فيه حتّى فضيلة الحماس الطّارىء الذي يُوهم القارىء ويُثيره . وفي مثل هذه الأبيات تتعفّى كل فضيلة فنيّة للشاعر ، بخلاف قوله :

بالخَيْل ساهمةَ الوجوه ، كَأَنَّمـــا خَالَطْنَ من عَمَلِ الوَجِيفِ سُـلالا

حيث اعترى الخيل بمثل داء السّلّ للتدليل على عظم ما تكبدته في القتال .

فهو يتخيّر ، هنا ، من الواقع حالته القُصوى التي توافقُ مُقتضى المعنى ، وقد كان السلّ غلوّاً بذلك كُلّه وتجسيداً له ، في آن معاً .

إلا أن لهذه الأبيات صفةً تعبيريّة أخرى تَتَعدّى معانيها وما تردّد فيها من ذكر للأحداث والأشخاص ، وهي الصفة الايقاعيّة التي تضفرها بالحيويّة والحركة ومن شدّة أسر العبارة وانهمارها عبْرَ نَغم عام ، هادر للقصيدة بمجملها . وربما أحدث حرف النّون المُتكرِّر ، بيتاً إثر بيت ، نوعاً من الايقاع المُضمر يتآلف مع رويّ القافية الذي يمدّ النغم بما لا حدّ له من إيقاع خطابيٍّ .

وهذه النزعة السرديّة التّعداديّة تَطغى على قليل أو كثير من فخره ، نقتصر منها بما نجتزىء من الأبيات التالية :

هَلاَّ مَنَعْتَ شُرْحبيلاً ، وقدْ حَدِبَتْ لَهُ تميمٌ بجَمْعٍ غيرِ أَخْيارِ ١

يَوْمَ الكُلابِ ، وَقَدْ سيقَتْ نساؤهُمُ سَوْقَ الجلائبِ مِنْ عُونٍ وأبكارِ ٢

١ — ٢ — الجَلائب : هنا الإبل المَجْلوبة التي تساق بقَسْوة . العُون : المتوسطة من النّساء . الأبْكار : جمع بكر وهي الفَتيّة لم تُفَض . شُرَحْبيل : هو ابن الحارث الكندي من ولد حجر ، آكل المِرار . وكان قد ملكه والده على بكر بن وائل ، إذ تفاسدت القبائل النزارية ولجأت إليه في إصلاح أمرها ، فملك أوْلادها السّبعة عليها . وإذ مات الوالد الذي دان لحين بالمَرْدَكيّة ثارت تلك القبائل على أولاده ووقعتْ معركة بينهم وبين شرحبيل المَذْكور وأخيه في موضع الكلاب ، فقتل شرحبيل وانهزم أصحابُه . وكان سلمة بن كعب بن تغلب قد أهدر الماء وقال لأصحابه : لا ماء لكم إلاّ في الكلاب ، وكان ذلك سبب الظّفر . والأخطل يفخر بذلك في هذا المقام ويذكر ما استاقوا من أسلاب .

مُسْتَرْدِفاتٍ ، أفاءَتها الرّماحُ لَنَا تدعو رياحاً وتَدعو رَهْطَ مَرَّارِ [1]

أَهْوى أبو حَنَشٍ طَعناً ، فأَشعَرَهُ نَجلاءَ ، فَوهاءَ ، تُعْيي كُلَّ مِسْبارِ [2]

والوَرْدُ يَرْدي بعُصْمٍ في شريدهِم كَأَنَّهُ لاعبٌ يَسْعَى بمِئجَارِ [3]

يَدْعو فوارسَ ، لا ميلاً ولا عُزُلا مِنَ اللّهازمِ ، شيباً غَيْرَ أغمارِ [4]

١ – أفاءتْها لنا : أي صارت لنا كالفَيء ، أي الغَنيمة . رِياح : رياح بن يَرْبوع . مَرَّار بن مُنْقِذ : هو أحد بني العَدَوِيّة بن ملك بن حَنْظلة ، نسبة إلى أُمهم .

م : يستكمل معنى البيت السابق، ويقول إنّنا سبينا من نساءكم العوان والأبكار أرْدَفْناهن وراءنا على الخيل كغنائم ، فيما كنّ يصحْنَ ويعولْنَ . مستغيثات بكم . دون أن يَلْقَيْن أيّة نجدة .

٢ – أبو حَنَش : يقال إنّه هو الذي قتل شرحبيل بابنه حنش ، وإنّه أرسل رأسه إلى مسلمة الذي قدَّمنا ذكره . أشْعَرَه طَعْنَةً : أي جعلها شعاراً . والشّعار هو ما يلي الجسد . نَجْلاء : واسعة . فَوْهاء : كبيرة الفوهة . مِسْبار : ما يسبر به ، أي يقاس به العمق .

م : يشير إلى ما قام به أبو حنش . إذ طعن شرحبيل طعنة واسعة الفوهة ، عميقة . لا يَطال غَوْرَها مِسْبار .

٣ – الوَرْد : من الخَيْل ما كان بين الكُمَيْت والأشقَر . يَرْدي : يجري . عُصْم : هو عصم ابن النّعْمان المُكنّى بأبي حَنَش . المِئجار : المِخْراق أو شبه عصا تضرب به الكرة .

م : يشير إلى الفرس الذي كان يَمْتطيه أبو حَنَش ، ويقول إنّه كان يعدو به مسرعاً ، كلاعب يسرع بعصاً يقبض عليها .

٤ – الميل : جمع الأميل ، وهو الذي لا يُحسن الرُكوب ، فيميل على السّرج ولا يستقرّ عليه . العُزُل : جمع أعزل : من لا سلاح معه . اللّهازم : هم عنترة بن ربيعة ، وعجل بن لُجَيْم . وتَيْم الله وقيس ابنا ثَعْلبة . أغْمار : جمع غمر : من لم يجرّب الأمور .

م : يمتدح الفوارس الذين يدعوهم أبو حنش ويقول إنّهم من اللّهازم المدرَّبين على القتال ، المُدَجّحين بالسّلاح .

أَلمانعينَ ، غداةَ الرَّوْعِ ، ما كرِهوا إذا تَلَبّسَ وُرّادٌ بِصُدّارِ [1]
والمُطعِمون ، إذا هَبّتْ شآمِيَةٌ تُزْجي الجَهَامَ سَديفَ المُرْبِعِ الواري [2]

ففي هذه الأبيات تتكرّر الأسماء ، أيضاً ، منها ما هو لعلم الأسماء كشرحبيل وتميم ورياح ومرّار وأبي حَنَش ، ومنها ما هو علم للأمكنة كيوم الكلاب . وهذه الأسماء تدلّ على حقائق تاريخيّة فعليّة ، كما هو شأنها في الأبيات السابقة . إلاّ أنّه بثّ عَبْرها أجواء تصويريّة أوْهَنَتْ الصفة السرديّة والتعداديّة ، أي الصِّفة النثريّة . فقد مثّل الهزيمة بِمُثُلِها الشائعة ، عصرئذ ، من خلال النساء السَّبيّات ، ممّا أضفى عليها حالةً ايحائيّةً عامّة ، تحرّر فيها الشاعر من الحَيْثيّات الواقعيّة التي لا تَنطوي على سورة جَمَاليّة . فهو يقول : « وقد سيقَت نساؤهم سوق الجلائب من عُونٍ وأبكار » . فالمرأة التي تُزجى وتُزْجَر ، أكانت ثيّباً أم بكراً ، تؤدّي المعنى بالحادثة الواقعيّة ، بل انها لتُساقُ كالإبل الغريبة المجاوبة . هكذا يُوفي الأخطل الى غايته من المعنى ، وفقاً لطبائع النفس البشريّة . ولكي

١ – ورّاد : جمع وارد ، وهو المقبل على الماء . صُدّار : جمع صادر ، وهو العائد عنه ، وهنا بمعنى المُقْدمين على القتال والمُولّين عنه ، عند احتدام القتال .

م : يستكمل امتداحه لهم ويقول إنّهم لا يفرُّون عند الشدّة والكريهة ، بل إنّهم يقتحمون القتال عندما يختلط فيه المهاجمون والمُدْبرون ، أي أنهم يقدمون عليه في أشدّ أحواله ضيقاً وخطراً .

٢ – شآميّة : أي ريح شآمية . تُزْجي : تسوق . الجَهام : السّحاب الذي هراق ماءه . السّديف : السّنام . المُرْبع : النّاقة التي قد لقحت في أول الربيع . الواري : السّمين .

م : يمتدحهم بإكرام الضّيف عندما يقسو الشّتاء ويشتدّ عصف الرّياح الشآمية التي تُزْجي أمامها السّحاب وتسوقُه ، ويقول إنّهم يقدّمون له أفخر الطّعام من أسْنمة الإبل الحديثة اللّقاح ، وهي أثمنها وأكرمها .

نتمثّل مداها النفسيّ لا بدّ لنا من معاناة ما يُعانيه العربيُّ الحريص على عرضه ، عندما يُشاهد والدته أو شقيقته وهي تُزجى كالإبل بالضرب والزّجر ، مُثلّبة ، مسبيّةً ، مُشبعة بالعار والذّلّ .

وقد ألممنا بمثل هذه المعاني في أهاجيه ، إلا أنّه ضاعف من وقع المعنى ، هنا ، في ذكر استغاثتهم برياح ومرّار ، أي بمن إليهم من رجال . ووجه الفخر ، هنا ، ان التغلبيّين هم الذين سبَوْهنّ وانزلوا بهنّ مثل ذلك العار .

ويعْمَد الشاعر إلى تمثيل المعنى بشكل آخر من خلال طعنة يقول إنّها عميقة حتى أنها تبدو وكأنّه لا قاعَ ولا قرارَ لها ، ومن خلال الخيل والفارس والأعوان في الأبيات الأخيرة .

هذه هي أهم المعاني والصور التي يتوسّلها الأخطل في مفاخره العامة ، وهناك أبياتٌ ومقطوعات أخرى يخصُّها في التفاخر على القيسيين بالذّات ، مترجحاً ، كذلك ، بين الهجاء والفخر .

الباب الثّاني

مفاخرة القيسيّين

لقد كان القيسيُّون ، كما قدّمنا مراراً ، ألد أعداء التّغلبيّين ، تواقعوا معهم في حروب مضنيةٍ ، كانت تخلّف القتلى والثارات . وربما أوقع التغلبيُّون بهم وانتصروا عليهم ، حيناً بعد حين ، فيعمد الأخطل الى عزل هذه الانتصارات والتغني بها ، منشئاً حولها هالةً ملحميّة قانية ، يكاد لا يدع مفخرة ، حتى يعرّج عليها ، مؤدّياً إياها في أقصى حدود الغلوّ ، خاصاً عمير بن الحباب ، إثر مقتله بذكر تترجّحُ

وتتفاعلُ فيه عوامل الفخر والشّماتة والطرب ، جميعاً . فهو يستهلّ ، غالباً ، بذكر القيسيين ليُفضي إلى نعي عُمَير ووصف ما حلّ به ، كقوله :

أَهْلَكَ البَغْيُ بالجزيرَةِ قَيْساً فَهَوَتْ في مُغَرَّقِ الخابورِ ١

طَلبوا المَوْتَ عِنْدَنا فأَتاهُمْ مِنْ قَبولٍ عَلَيْهِمِ وَدَبورِ ٢

يَوْمَ تَرْدي الكُماةُ حَوْلَ عُميرٍ حَجَلانَ النسورِ حَوْلَ الجَزُورِ ٣

رُبَّ جبّارِ مَعْشَرٍ قَدْ قَتَلْنا كان في يومِهِ شَديدَ النَّكيرِ ٤

والأخطل يوهم ، في هذه الأبيات ، بأنهم لم يَظلموا القيسيين ولم يَتَعرَّضوا لهم ، بل إنّ القيسيين بغوا عليهم ، فلقوا من دون ذلك الهلاك . وتراه يُصَرِّح بذلك في قوله : « طلبُوا الموت عندنا » . والمؤدّى البلاغي لهذا القَوْل مضاعَف ، فمن

١ ــ الخابور : نهر كبير بين رأس العَيْن والفرات .

م : يشير هنا إلى يوم الحشّاك الذي قتل فيه عمير بن الحباب وهرب زفر بن الحارث ويقول إنِ القَيْسيّين قد أهلكهم بغْيُهم فغرقوا في نهر الخابور .

٢ ــ القَبول : هي ريح الصَّبا التي تأتي من القبلة . الدَّبُور : هي الرّيح التي تأتي من خلفك .

م : يقول إنّهم تعرضوا لنا ، فأحْدقنا بهم وأنزلنا فيهم القتل من كلّ جهة .

٣ ــ الكُماة : جمع كميّ وهو المُقاتل التّام اللّباس . تَرْدي : تُسْرع . حَجَلان : هنا تنقُّل كتنقلّ الحجل . الجَزُور : النّاقة التي جُزرت ، أي ذُبحت .

م : يقول إن الفرسان كانوا يعدون حول جثّة عُمير ، كما تحجل النّسور حول النّاقة الذبيح .

٤ ــ شَديد النّكير : أي داهية .

م : يفخر بقتلهم لرؤساء الأعداء الدّهاة ، الشّديدي الوَطْأة .

جهة يُفصح عن ضلال القيسيين ومبادأتهم للتغلبيين بالشرّ ، ومن جهة ثانية ، يؤكّد أن من يسعى إلى معارضة التغلبيين كأنما يسعى إلى حتفه المحتّم . ثم تراه يرسم المعنى ويجسّده بقوله : « فأتاهم من قبولٍ عليهم ودبور » . أي من كلّ جهة ، بل إنّه عصف بهم كريح الهلاك والفناء . وذكر الدّبور والقبول ، في هذا المقام ، يؤدّي فضلاً عن معنى الاحداق والإحاطة ، السُّورة الملحميّة في حدود نفسيّة خفرة لطيفة . ويكاد الأخطل ألا يَغْفَل عن أيّ مَظهر من مظاهر الطّبيعة للإفادة منه في نقل تجربته عبر إطار من الغلوّ الذي يُدرك به أقصى غايته ، وفقاً لفنّيته القائمة على الإيضاح بالتّمثيل . وكما استعار البئر والحدبار والحيّة والناقة العجفاء الناتئة الفقار لتأدية معنى الخوف بما يقابله ، وكما توسّل الفرات للكرم والبعير للذلّ ، والدم ولحم الوحوش للتدليل على الفقر ، تراه يتوسّل ، هنا ، القبول والدّبور ، مستظهراً الانفعال ، أحياناً ، في بعض ما يدّعيه من مفاخر ، قدّمنا ذكرها.وهو لا يزال في سائر شعره يتنصّتلمظاهر الطبيعة ويتأملها وينفعل بدلائلها ، ثم إنّه يستحضرها بالحدس عندما يُعبّر عمّا يعيه أو يُعانيه . وبقدر ما يوغل في التّحسُّس والتأمل تنأى العلاقات والارتباطات وتُوغل وتعمُقُ فيما بين لمعاني والمظاهر . وهكذا اكتشف العلاقة المُضمرة بين القتال والرّيح الجنوبيّة أو الخلفيّة ، وهي علاقة ليست ظاهرة أو مبذولة . لذلك نقول إن بعض الكنايات اوالاستعارات تبلغ عند الأخطل حدّ الرّمز لحدّتها وعمق ما يكتشف فيها من علائق متوقّعة أو غير متوقّعة بين النفس والحسّ . فهناك مستويات متباينة لهذا الاكتشاف، ينطلقُ فيه من التشبيه الدّاني المتناول — كالمقارنة بين المقاتلين والاسود — إلى ما هو أرقى منه نسبياً ، كقوله :

يَوْمَ تَرْدي الكماةُ حَوْلَ عُمَيْر   حجلان النُّسور حول الجزور

حيث قرن بين الفرسان والنسور والقتيل والناقة الذبيح . فالمقارنة أكثر تركيباً ، هنا ، من الصورة السابقة ، إلا أنها مبذولة ، واقعيّة . أما صورة القتال الذي يأتي من القَبُول والدّبور ، فهي أنأى لأن الشاعر استحضرها استحضاراً بالكشف

العميق لضمائر المعاني والمظاهر . هذا من الناحيّة الفنية ، أما من النّاحية النفسيّة ، أو بالأحرى من ناحية المعاني الفخريّة فإنّه لا يزال يذكر مقتل عُمير كعنوان عام لذلٍّ القيسيين واندحارهم . ولعمير مقام نفسيٌّ خاصٌّ في وجدان الأخطل ، إذ طالما أزرى بهم واعتبرهم كعبيد له ، ونكّل بهم وبقر بطون نسائهم الحوامل ، فكأنّه إذ يتمثّل قتله يجهض بأحقاده كُلّها ويفخر فخره ، جميعاً . لقد قطع بقطعه لرأسه رأس الشرِّ والغدر والعداوة . ويخلص من ذلك متباهياً بدأبهم على مثل ذلك ، إذ يقول :

رُبَّ جَبَّار معشر قـد قَتَلْنَـــــا كان في يومه شديد النكيـــــرِ

فهو يخلص من الأمر الجزئيِّ ، أي مقتل عمير ، إلى مبدأ عام أو خلاصة عامة إذ يزعم إنّهم لا يزالون يقتُلون هامة القَوم . إلا أنه لا يقتصر من أمر عُمير بذكر مقتله ، بل يستطرد فيزفـُه كبشرى ، بدلاً من النّعيِّ :

بَشِّروا حِمْيَرَ القُيـولِ وكَلْبـــاً بِعُمَيْـــرٍ وشِلْـوِهِ المَجْـزُورِ ١
واشرَبا ما شَرِبْتُمـا إنَّ قَيْســـاً مِنْ قتيلٍ وهـاربٍ وأَسيــــرِ ٢
وَطَحَنَّا قيسَ بنَ عَيْلانَ طَحْنـــاً ورَحانا عــلى تَميمٍ تَـــدُورُ ٣

١ ــ القُيول : جمع قَيْل وهو الملك أو من دونه . الشِّلْو : مزق من الجسد .
م : يقول أخبروا أقيال حمير وانبئوا بني كَلْب بما أصاب عميراً من قتل وذبح .
٢ ــ م : يدعوهما إلى إحتساء الخمرة طرباً لما حلّ بالقيسيّين ، إذ أمسوا ، جميعاً ، بعضهم قتلى ، وبعضهم أسرى ، وآخرون قد تولّوا هاربين .
٣ ــ م : يقول إنّهم سحقوا القيسيّين سحقاً وأجهزوا عليْهم ، كما أن رحى قتالهم تدور على بني تميم فتَطْحَنُهم طحناً .

لا يَجوزَنَّ أَرْضَنا مُضَرِيّ بخفيرٍ ولا بغيرِ خَفيرِ ١
واسأَلوا النَّاس يا معاشِرَ قَيْسٍ لمَنِ الدّارُ بَعْدَ جَهْدِ النَّفيرِ ٢
يَوْمَ أَفْضي إِلَيْكُمُ بزُمَيْلٍ في خَميسٍ من الزَّحوفِ جَرورِ ٣
فَصَبَحْناكُمُ صوارِمَ بيضاً قَبْلَ صوْتِ الإِمامِ بالتَّكبيرِ ٤

فالأخطل، لفرحه العميق بمقتل عُمير ، يزف مصرعه الى الملوك والقبائل ويصف قتلهم له بالقول إنه غدا أشلاءً متناثرة . وآية هذه البشرى العميمة التي تزف الى الآفاق ان عميراً كان يُمَثِّل الشرّ العام والخصم الدائم الذي يعيث فساداً في القبائل العربية ، وهو إذ قُتِلَ وغدا اشلاءً ، أي تحقّق وتأكد قتله . إنما زالت به عن القبائل عوامل الفوضى والثارات والاضطراب . ووجه الفخر في ذلك أنهم وفّقوا إلى قتل خصم قويٍّ عمَّ شرُّه العرب ، جميعاً ، ولم يُفلحوا في صدّه والإجهاز عليه . وربما تسرّب شيءٌ من طباع الأخطل الى هذه البشرى ، إذ تراه يدعو الى احتساءِ الخمرة نشوةً وطرباً ، كما هو مأثور في أعياد الفرح العام . واحتساء الخمرة هو تطوُّر من البشرى وسموٌّ عليها ، وفضلاً عن ذلك هو تجسيد لها في إطارها

١ – مُضَرِيّ : يعني خاصة قَيْس عيلان ، وأصله الياس بن مضر بن نزار ولقبه قيس .
م : يقول إنّهم يمنعون أي قيسيّ أن يَعْبر في ديارهم ، أكان ذلك في قافلة أو في غير قافلة .
٢ – النّفير : هنا القوم يُسْتَنْفرون للقتال . الدّار : هنا الجزيرة التي نفى عنها التغلبيّون أعداءهم القيسيين .
٣ – الزّميل : موضع عند البشر بالجزيرة . الخميس : الجيش . زَحوف : أي يزحف على عدو . جَرور : كثير .
م : أي يوم أدركوهم في موضع الزّميل بجيشهم الشّديد الزّحف ، الكثير العدد .
٤ – م : يقول إنّهم انقضُّوا عليْهم في الصباح الباكر ، قبل أنْ يؤذّن إمامُهم أذانه فيهم .

المأثور . فأياً يكون ذلك العدوّ الذي تهرق الخمرة لموته ! إنه ، ولا شك ، عُمير الغدر والبطش والتمثيل والدّهاء ، يكاد التغلبيُّون لا ينتصرون عليه في موقعة ويتوهّمون أنهم أجهزوا عليه ، حتّى يبعث من جديد أشدَّ ضراوةً . ولعلَّ حرص الأخطل على وصف جثّته المبذولة في العراء للتّفسُّخ وللبغاث . إنما هو نوع من التّغني بانتصارهم النهائي عليه . وإيلاج احتساء الخمرة في هذا المقام هو من جديد الأخطل ، وإن كان بعضه مستمداً من البيئة الجاهليّة حيث كان العربيُّ يحرّم على نفسه الخمرة حتّى يبوءَ بالثّار ، كما هو شأن المهلهل ومن إليه . ولقد كان مقتل عمير بذاته رمزاً لهزيمة القيسيّين الكبرى ، فهم إما قتيلٌ قُتِل ، وإمّا هارب نجا بنفسه ، وإما أسيرٌ بين أيدي التغلبيّين ، ومؤدّى ذلك أنّه لم يعد فيهم مقاوم يقاوم . وقد يستعير الأخطل معانيه من عمرو بن كلثوم ، إذ يقول :

وَطَحَنَّا قَيْسَ بنِ عيلانَ طَحْنـــاً وَرَحانَـــا عَلى تَميمٍ تَـــدُورُ

وهو مستمدٌّ من قول عمرو :

إذا دَارَتْ عـلى قَوْمٍ رحـــانـا يَكُونُوا في اللِّقـاءِ لَهَـا طَحِينـا
يكونُ ثفالُهَـا شَرْقِيَّ نَجْـــدٍ وَلَهْوَتُهـا قَضاعَةَ أَجمعينـــا

والطّحن برحى الحرب هو سبيل ماديٌّ للتعبير عن البطش في نوع من الكناية الموحية ، إذ لا حيلة لتأدية المعنى بما هو أبلغ من ذلك في حدود النفس البدائيّة . ذاك أن الطّحن لا يَدَعُ القتل يقف عند معناه ، بل إنّه يُحيلُه إلى نوعٍ من السّحل . ومن ثمَّ ينبري الشاعر آمراً ، ناهياً ، ومعتزاً ، إذ يقول :

لا يَجُوزَنَّ أَرْضنَـــا مُضَـرِيٌّ بخَفِيـــرٍ ولا بغَيْرِ خَفِيـــرِ

وهذا البيت يُوجز الباعث الأول والأعمق للتنازع والقتال ، ألا وهو الأرض . والأخطل في عنجهيّته وحرصه الشديد يضنُّ حتّى بالعبور عليها ، وحتّى ولو كان

مصحوباً بخفراء من التغلبيين . ذاك أن هذه الأرض غدت شبه مقدسة بالنسبة إليه لكثرة ما هريق عليها من الدّماء . ومعظم أهاجيه ومفاخره تدور حول هذا الشأن ، أولم يَقُلْ : « تَرَبَّعنا الجزيرة بعد قَيس » ؟ ذاك أن العربي في تعبُّده للحياة تعبّد للأرض بنوع من الوثنيّة القائمة التي تمجّد فيها رحم الخصب وأثداء العطاء .

فهذا البيت ، بالرغم من الحلّة التقريريّة التي تبدَّى بها ، لا يزال عميق الايحاء بما يجيش ويعتمل في وجدان العربي الذي كان يحرص على أرضه حرصه على عرضه . ولقد سمّاه الحمى ، أي ما ينبغي عليه أن يحميه ويقاتل دونه حتّى الموت . ومثل هذه المعاني تتعدَّى الإطار السياسيّ إلى المعاناة الانسانيّة العامّة وطبيعة ارتباط الانسان بالأرض ، وما ينطوي عليه ذلك من أحوال عميقة غائرة في الوجدان ، تهيمن عليها غريزة تنازع البقاء . وكلّ ما دون هذا البيت يبدو عارضاً ، يسيراً إذا قورن به في هذا المقطع . فذكره للزَّحف الشّديد ومفاجأة العدوِّ قبيل الصَّباح ، ذاك كلّه من المعاني المكرورة التي تتباين فيها سور الغلوِّ ، دون أن يتباين جوهرها .

وقد لا تعدو الأبيات التالية هذا الشأن في ذكر ما كان بينهم وبين القيسيين :

أَلَمْ تشْكُرْ لنا كَلْبٌ بأَنَّا جَلَوْنا عَنْ وجوهِهِمُ الغُبارا ١
كَشَفْنا عَنْهُمُ نَزَواتِ قَيْسٍ ومِثْلُ جُموعِنا مَنَعَ الذِّمارا ٢

١ ـ م : يعجب من الكَلْبيّين ألا يُلْفوا شاكرين لبني تغلب الذين رفعوا عنهم خطر الحرب الذي كان يتهدّدُهم بها القَيْسيّون .

٢ ـ نَزوات : وثَبات . الذّمار : كلّ ما يلزمك حفظُه والدّفاع عنه .

م : يقول إنّهم صدُّوا عنهم هجمات بني قَيْس ، ويردف بأنّ جموع التّغلبيّين دأبت على التمرّس بمثل هذا الأمر .

وكانوا مَعْشَراً قَدْ جاوَرونا بِمَنْزِلَةٍ فأَكْرَمْنا الجِوارا [1]

فلمّا أَنْ تَخَلَّى اللهُ منهُمْ أغاروا إذْ رأَوْا منَّا انفتارا [2]

فعاقَبْنَاهُمُ لكمالِ عَشْرٍ وَلَمْ نَجْعَلْ عِقَابَهُمُ ضِمارا [3]

ويبدو أنَّ الأخطل يقصُّ قصَّتهم مع القَيْسيِّين ، إذ كانوا على وئام معهم في البدء ، يُصْفونَهم المودَّة ويُخْلصون لهم الجيرة ، حتى نزا القيسيُّون وركبوا غرورهم ، وسعوا إلى استبعاد التّغلبيين . وهذه الوقائع محقَّقة في التّاريخ ، وفيها يَخلع الأخطل عن وجهه قناع البطش ليُظهر جانب التَّعقُّل ، فهم لا يُقَاتلون للقتال ، بل للدِّفاع عن النَّفس والكرامة . الا ان الصّفة الغالبة على هذه الأبيات هي الصِّفة النَّثْريَّة القائمة على عرض الحال والابانة والأخذ والرَّد . وقد اعترض فيها بأدواتِ إيضاح كثيرة من التّساؤل إلى الاستدراك والاستنتاج ، مع فلذة تصويريَّة شخصَتْ في قوله : « جلَوْنَا عن وُجُوهِهِم الغُبَارا » أي غبار الذّلِّ والعار . غير أن للفخر أدوات أُخرى تجانب المعاني وتُظلّها يشخص أهمُّها في الايقاع المتولِّد من الوزن الجاري على بحر الوافر ، وكأنّه يتسارَعُ تسارعاً ويصبُّ ويَنْهمر في القافية التي يدوِّي رويُّها . ثم أن الشّاعر ، بوعي أو بغفْلة منه ، أَضْمَرَ عبر القصيدة ما يماثل القوافي من تكراره لضمير جمع المتكلّم « نا » . وقد تكرَّرت سبعاً ، مضاعفةً من وقع القافية ، ومُضفيةً على المعاني جميعاً جوَّ

١ ــ م : يقول إنهم امتنعوا من قبل عن قتالهم ، لأنّهم أقاموا في جوارهم حيناً من الزّمن ولأنهم يحفظون ودّ جارهم ولا يتخلّون عنه في الشّدّة .

٢ ــ م : يقول إن الله تخلّى عن القيسيّين ، فتغرّروا وأغاروا علينا ، إذ رأوا منّا فتوراً وغفلة .

٣ ــ لِكَمال عَشْر : أي عشر ليال . الضّمار : هو التّسْويف في الوعد .

م : يشيرُ هنا إلى أن التغْلبيّين كانوا أدِلاّء لقَيْس على كَلْب ، فلمّا ذبحت قيس معزى أم دوبل بالخابور ، كما قدّمنا ، نشبت الحرب بين القبيلتَين . يقول إنّهم تصدّوا لقتالهم ومعاقبتهم مباشرة ولم يؤخروا ذلك أو يتمهلّوا به .

خلال العبارة وصيغها الّتي يَبُثُّ فيها روح العُنْجهيَّة بتكرار ألفاظ وضمائر وما إلى ذلك من بواعثَ مُضْمرة للإيحاء .

وفضلاً عن ذلك كُلّه ، فإن وقَعَ الفَخْر يتَضاعَفُ ممَّا تبَطَّن به من هجاءٍ كذكره لنزوات قَيْس وتَخَلِّي الله عَنْهم ومعاقبتهم لهم ، وذاك يُوهم بتفوُّقهم الشديد عليهم . وأيا ما كانت الحال ، فإننا نظلُّ نشعر أن هذه الأبيات لا تُمَثِّل شعر الأخطل في نماذجه المأثورة وإن مَثَّلَتْ جانباً من واقع الفخر في شعره .

ولهذه الأبيات تكملة في قصيدة طويلة لا تعدو هذا الاسلوب السيَّال الذي تَهَادن فيه الشاعر مع المعاني العسيرة ، الوعرة الّتي يُنْفِقُ فيها غَايةَ جُهْده ويبلغ أَقصى مداه . وإنّا نَبْذلُهَا للقارىء كي يَسْتكمل ويستوفي بها دراسة اسلوب النَّابغة،إذ تَعْترض فيه أبيات ومقاطع وقصائد تقريريَّة تتوارى فيها الصُّور الحسيَّة أو يطلع قليلٌ منها ، ويَخْفُتُ الإيقاع النّفسي العميق الغَوْر للمعاني ، فتَرِدُ وكأنَّها أفكار حماسيَّة يَتْلُوها الشّاعر تلاوة مباشرة. وهنا تبرز آفة السّرد ووطأتُها على الشّعر . إذ تَخْنق فيه الانفعال أو تمنعه عن الحَلْق وتُغرِّر به في تداول الأحداث والتَّعْقيب عليها واظهار وجهة نظره فيها ودحض وجهة نَظَر الآخرين وبخاصَّة الأعْداء . وعبر ذلك كله تطفو أسماءُ العلم ، وهي محور الأحداث ومنطلقها ، فلا يبقى للشّعر من مُبَرِّر إلاَّ بعض الغلوِّ والحماس والانتخاب اليسير من سجلٍّ الوقائع الحاشد ، المُكْتظِّ :

وأَطْفَأْنـــا شِهَابَهُـمُ جَميعـــاً وشُبَّ شِهـابُ تَغْلَبَ فاستَنـــارا[1]

١ ـ الشّهاب : النّار المُشْعلة ، وهنا المَجْد .

م : يقول إنّهم فتكوا بهم وأذلّوهم وأخمدوا جذوة مجدهم وإنّهم أشعلوا من دون ذلك شهاب مجد لهم بقتلهم وإذلالهم .

تَحَمّلنـــا فلمّـــا أَحْمشونـــا أَصابَ النَّارُ تَستعِرُ استِعـــارا ١

وأَفْلَتَ حاتمٌ بفُلولِ قَيْـــسٍ إلى القاطولِ وانتهَكَ الفِـــرارا ٢

جَزَيْنـاهُمْ بما صَبَحُـوا شُعَيْثـاً وأَصْحاباً لَهُ ورَدوا قَـــرارا ٣

صَبرنا يوْمَ لاقَيْنـــا عُميـــراً فأَشْبَعْنَا مَعَ الرَّخَـمِ النِّســـارا ٤

وكان ابنُ الحُبابِ أُعيرَ عِـــزًّا وَلَمْ يكُ عِزٌّ تَغْلَبَ مُستعـــارا ٥

---

١ ـ تَحَمّلنا : صبرنا . أحمشونا : أغْضبونا .

م : يقول إنّنا صبرنا على أذاهم ، حيناً من الدّهر ، فلمّا أقاموا على إثارتنا وإغضابنا ، أضْرمنا عليهم نيران الحرب ، فعانوا سعيرَها ولظاها .

٢ ـ حاتم : هو حاتم بن النّعْمان الباهليّ ، وكان قد فرَّ بفُلول قَيْس في يوم الثّرْثار . القاطول : موضع بالقرب من الجزيرة والموصل .

م : يُعيّرهم بفرار حاتم من دونهم مع فلول القَيْسيّين إلى القاطول ، مستذلاً بِفِراره .

٣ ـ شُعَيْث : أحد التغلبيّين الذين قتلتهم قيس ، وكان من رؤسائهم ، قتل يوم الثّرثار ، فانتقَمَتْ تغلب له بقتل عُمير بن الحباب في يوم الحشّاك . قَرار : اسم موضع .

م : يفخر أن ثأروا لمقتل شعيث وأصحابه .

٤ ـ الرَّخَم : جمع رخمة ، طائر بشكل النّسر .

م : يقول إنّهم صبروا لما نالوه في قتال عُمير بن الحباب وفتكوا به وبصحبه وخلّفوا جثثَهم طعاماً للرَّخم والنّسور .

٥ ـ يقول إنَّ العزّ الذي تَباهى به عُمير بن الحباب ، كان مُسْتعاراً وغير أصيل فيه وفي بني قومه ، بل إنّه سَنَحَ لهم صدفة . فيما يَصْدر التغلبيّون عن مجد أصيل ، عريق ، مأثور فيهم .

وقد استعار للمجد صورة الشّهاب ، لهم وللأعداء ، اشتعل شهابهم ، فيما أخمد شهاب الأعداء . وفضيلة البيت هي فضيلة الصُّورة التَّمثيليَّة ، وإن كانت دانية المتناول ، ذات دلالة عامَّة . ويجري ذكر النَّار على هذا الغرار ، مع قليل من الغلوِّ في التعقيب على استعارها بصيغة المفعول المُطْلَق . ثم أنّه ينحدر إلى السَّرد التّاريخي في ذكر اعلام الاشخاص والأماكن ولا يعدو ما ألمَّ به بشأن عُمَيْر المعاني المكرورة .

وخلال مدحه لعكرمة الفياض يتعرض لهجاء القيسيين . ذاكراً نظرهم إليه شزراً ، شامتاً بهم :

وإنِّي صَبُورٌ مِنْ سُلَيمٍ وعامرٍ ونَصرٍ على البَغضاءِ والنَّظرِ الشَّزْرِ ١

إذا ما التَقَيْنَا ، عِنْد بِشرٍ ، رأَيتَهُمْ يغُضُّون دوني الطَّرْفَ بالحَدَقِ الخُضرِ ٢

وأَوْجُهِ مَوْتورينَ ، فيها كآبَةٌ فرَغماً على رَغمٍ ، ووَقراً على وَقرِ ٣

إلا أن مفاخرته القيسيين تَبلغ أوْجها في رائيته الشهيرة حيث يخاطب الأمويين ، مُحَذِّراً إياهم من التقرُّب إلى زُفَر أو تقريبه اليهم هاجياً إياه ، متمثلاً بالحكمة . ويُعرِّج ، كذلك ، على ابن الحُباب واصفاً مقتله بما لم يَصفه به . قبلاً ، أكان ذلك من ناحية العبارة أو الفكرة أو الصورة. ولقد ورد الفخر من خلال المدح ، بل من خلال اظهار فضل التغلبيين على ملك الأمويين ، متخذاً من مقتل عمير رمزاً لذلك كله ، يُفَصِّل فيه ويغالي ، ذاكراً اجتثاثهم لرأسه وحمله إلى الخليفة ، وقد

١ ــ م يقول إن أبناء هذه القبائل ما زالوا يطالعونه بالعداوة والحقد ، ينظرون إليه بهما نظراً شزراً .

٢ ــ الخُضْر : هنا يعني السّواد .

م يقول إنّه إذا ما التقاهم في بلاط بشر بن مروان ، فإنهم يَخْفضون من دونه أبصارهم خجلاً وتَهيُّباً بالرَّغم من العداوة التي يُضْمرونها له .

٣ ــ م يقول إنهم يطالعونه بأوْجه أناس يُحفظهم الوتر ويكلّح وجوهَم ، ويتمنى أن يصيبهم من ذلك أضعاف ما أصابهم ، وأن يحتملوا منه أضعاف ما احتملوا .

تَهَشّم خَيْشُومه من شدّة القتل والتمثيل . ويقف إزاء ذلك متمهلاً ، متأنياً ، ذاكراً ما لا ضرورة ظاهرة لذكره ، كعجزه عن السماع والنطق والمسافة الهائلة التي فصلت رأسه عن جثته، مُستعيداً عبارة كان يرددها عمير في تحقير بني تغلب . فهو يقول :

بَني أُميّةَ ، إنّـي ناصِحٌ لَكُـمُ فَلا يَبَيتَنَّ فيكُمْ آمِنـاً زُفَرُ ١
وأتخِذوهُ عَدُوًّا ، إنَّ شاهِـدَهُ وما تَغَيّبَ مِنْ أَخْلاقِهِ دَعَـرُ ٢
إنَّ الضَّغينَةَ تَلْقـاها ،وإنْ قَدُمَتْ كالعَرّ ، يَكْمُنُ حيناً ، ثُمَّ يَنْتَشِرُ ٣
وقَدْ نُصِرْتَ أَميرَ المؤمنين بِنـا لمّا أَتاكَ بِبَطْنِ الغُوطَةِ الخَبَرُ ٤
يُعَرّفونكَ رأسَ ابنِ الحُبابِ ، وقدْ أَضْحي ، وللسّيْفِ في خَيشومِهِ أَثرُ ٥

١ – ٢ – زُفَرُ : هو زفر بن الحارث ، كبير زعماء القيسيين .

م : يحذر بني أُمية من تأليفهم لزُفر وإدنائه إليهم ، ويدعوهم إلى النّظر إليه كعدوّ لأنّ ما ظهر منه وما استتر ينطوي على الشرّ والفساد .

٣ – العَرّ : الجرب .

م : يقول إن ما يُضْمره لكم من ضغينة يَستَتر ويكتَم . لكنّه ، لا يزول . فهو كالجرَب ، لا يلبث أن ينتشر ، فيما يخيّل أنّه زال وأمّحت آثارُه . فكأنّ الأخطل يوعز بذلك إلى أن الحقد في النفس هو كالجرب للجسد ، قلّما يبرأ منه صاحبه .

٤ – ٥ – الغوطَة : موضع قرب الشّام .

م : يشير إلى ما كان من أمر التغلبيّين مع عمير بن الحُباب الذي قتله التغلبيّون وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى عبد الملك . يقول مخاطباً الخليفة : لقد جيء إليك برأسه ، فلم تكد تعرفه لشدّة ما أصابه من تَمثيل وتنكيل ذَهَبا بمعالم وجهه .

لا يَسْمَعُ الصَّوْتَ مُسْتَكًّا مسامِعُـــهُ   وليسَ يَنْطِقُ ، حتى يَنْطقَ الحَجَرُ [1]

أَمْسَتْ إلى جانبِ الحَشَّاكِ جيفَتُهُ   ورأْسُهُ دونهُ اليَحْمومُ والصُّوَرُ [2]

يسأَلُهُ الصُّبْرُ مِن غسّان ، إذ حضروا   والحَزْنُ : كيفَ قراكَ الغِلمةُ الجَشَرُ [3]

والأبيات الثلاثة الأولى قد لا تنتمي انتماءً مباشراً الى الفخر ، ولكنها تتصل به وتلازمه . إذ أنه ينصح فيها الأمويين على خصمه ، مظهراً غدره من دونهم . ولقد قدَّمنا بحثاً في هذه الأبيات ، فلا مجال إلى تكراره . وانما نتجاوز الى الأبيات التالية حيث يَستبين الفخر الصريح عند ذكره لعُمَير بن الحُباب . وهو يَستهلُّ

١ — م : يصف رأسه الذي اجتثَّ وحمل إلى الخليفة ، ويقول إنّه لا يسمع ، وقد تقبّضت مسامعه ، كما أنّه لا يُحير جواباً ولا ينطق . فهو كالحَجَر . والشاعر لا ينوّه بهذه الأمور التي لا حاجة للتصريح بها ، لأن المرء يلمّ بها ويتمثّلها ، دون أن تُذْكر له ، لا يؤدي ذلك ، إلا ليعظّم من أمر قتله ويوحي إلى الخليفة بأنّ بني قومه أنقذوه من شرّه إلى الأبد . فهو لا يسمع ولا ينْطق حتى يتأمر بهم ويؤلّب عليهم .

٢ — الحشّاك : موضع مرّ ذكره قبلاً . اليَحْموم : موضع بالشّام . الصُّوَرُ : موضع على الخابور .

م : يستكمل وصف قتلهم لعمير ، ويقول إن جثته أُلقيت في موضع ، فيما نُقل رأسُه إلى موضع آخر ، وهو إذ يذكر ذلك ، كأنّما يوحي به أنّهم أنزلوا به أكثر من الموت ، أو كأن موتَه لم يَشْفِ غليلهم منه . فظلّوا ينكّلون به إثر موته . وهو يعظم ، في الآن ذاته ، من أمر مناصرتهم للأمويين .

٣ — الصُّبْرُ والحَزْنُ : بَطْنان من غسّان . الجشر : القوم يخرجون بإبلهم ودوابهم إلى المرعى ، ويبيتون مكانهم ، ولا يأوون إلى البيوت . وكان عمير يقول إن بني تغلب إنّما هم جَشَر لي آخذ منهم ما شئت ، فلمّا مروا برأسه على هذه القبائل ، قالوا : كيف رأيت قِرى غِلْمتك الجَشَر ، مُسْتَهْزئين به . وهو إنّما يعبر في هذا البيت وما قبله عن شماتته بمقتله .

ذلك بالقول إنّهم ؟ يُعَرّفونه رأس ابن الحباب » . وقد كان عبد الملك يعرفه ، إذ طالما وَفَدَ عليه وأقام الى جنبه على سرير الملك . في فترات المهادنة . إلا أنّه لم يَعُدْ ، مع ذلك ، يعرفه إذ تَبَدَّل عليه لشدَّة ما أصابه من تمثيل وتشويه . ووجه الفخر في ذلك أنهم أنزلوا به أكثر من القتل . فلم تَعُدْ تبين ملامحه ، أو كما يقول الشاعر ذاتُه : « قد أمسى وللسّيف في خَيْشُومِه أثرُ » . ولقد استعاد الشاعر ، هنا ، أجواءه الملحميّة ، من وصفه للقتال . بل للقتل ذاته ، ومن إغراقه في أجوائه . فما يعني قوله : « لا يَسمع الصوت مستكاً مسامعه» ، وهو معنى بديهيٌّ في أي مَيْتٍ آخر ؟ ذاك أن الأخطل يتولى هذا المعنى في وقعه النفسيَّ ، الايحائيِّ ، من دون معناه العقليّ ، إنه سبيل للتأكيد في تفصيل حالة الميت وللتّفاخر بأنهم أجهزوا عليه إجهازاً نهائياً لا قبل له بالحياة إثره . بل أن في هذا الشطر والذي يليه ما هو أنأى من ذلك كله ، فهو ينطوي على معنى التشفي والقهر والشماتة ، وهي من الأحوال الملازمة للفخر . ونكاد لا نقع في هجائه للقيسيين ، الا عليها أو على ما يماثلُها لأن فخره عليهم ليس فخراً عاماً في الإشادة بقيم الكرم والضيافة والنخوة وإطعام اليتيم وإيوائه وإغاثة الأرملة . بل أنّه فخر معارضة لا يتعاظم فيه قَدر الشاعر إلاّ بما يَنْتَقِصُ من قَدر الخصم . ويبلغ التشفي أوجه بالقول :

أَمْسَتْ الى جَانِبِ الحَشَّاكِ جِيفَتُـــهُ   وَرَأْسُهُ دُونَهُ اليَحْمُومُ والصُّــوَرُ

وآية البيت أنه يذكر ثلاثة مواضع شاسعة البُعد فيما بينها ، للتدليل على انتصارهم النّهائي الحاسم عليه وعلى بني قومه ، لا يجزعون من استثارتهم في التنكيل به ، إثر موته ، ولا يخافون ثأرهم ، لأنهم قد أجهزوا عليهم معه . ويعرِّج في النهاية على بيت ساخر بقوله :

يسأله الصَّبْرُ من غسّان ، إذ حَضَرُوا   والحَزْنُ : كَيْفَ قِرَاكَ الغِلْمَةُ الجُشَرُ

ومعنى هذا البيت مبذول في الذَّيل . فنقتصر من ذلك على التنويه بأن شماتة

الشاعر قد تَتَبَطَّنُ بالسُّخريّة التي قلّما يميلُ إليها ، فيما دون ذلك ، لأن شعر الأخطل هو شعر جدّيٌّ متجهّم ، لا تفترُّ أساريره .

وعلى الجملة نقول إن تعرّضه للقيسين هو الموضوع الرئيسي الأهم في فخره ، يعدد أيام التغلبيين فيهم ، ذاكراً الأسماء ، أكانت للعلم والمواضع او للمعارك ، ملحفاً بذكر ايقاعهم بعمير ، يصف ذلك بكل وصف ويفخر به كل فخر .

* * *

وفي نهاية هذا الباب نبذل الأرجوزة التالية ، وهي من الفخر السيّال ، السريع الإيقاع ، كما انها تنطوي على معانٍ مبتكرة في بعض جوانبها :

وَيْهاً بَني تَغْلَبَ ضَرْبــاً ناقِعاً   إنْعَوا إياساً ، وانْدُبوا مُجاشِعــا [1]

كلاهُمــا كــان شريفــاً فاجِعــا   حتّى تُسيلوا العَلَقَ الدّوافِعــا [2]

لمّــا رَأَوْنــا والصَّليبَ طالعاً   ومارَ سَرْجيسَ وسَمّـاً ناقِعـا [3]

١ – النّاقع : القاتل .

م : يحضّ بني تغلب على الشدّة في القتال ويدعوهم إلى أن يضربوا ضرباً قاتلاً ، ثأراً لذَيْنك البطلَيْن اللّذَيْن سقطا من صفوفهما .

٢ – م : يقول ، إنّهما ، جميعاً ، كانا ذوي شرف وسؤدد وبطش . ثم يعود إلى حضّهم على القتال ويدعوهم إلى الضرب حتى يسيلوا به الدّماء المُنْهمرة انهماراً غزيراً .

٣ – مار : لفظة سريانيّة تعني السيّد . سَرْجيس : هو قديس كانت تتشفّع به تغلب وترفع علمه في القتال ، كما يقال .

م : يقول إنّهم لما رأوا جموعهم وافدة عليهم ، تحمل رايات الصَّليب ومار سرجيس وتُنْذر بالموت الأكيد .

وأبصَروا راياتِنـــا لوامِعـــــا كالطَّيرِ ، إذ تَسْتورِدُ الشَّرائِعـا ١
والبِيضَ في أَكُفِّنـا القَـــواطعـا خَلَّوْا لَنـــا راذَانَ والمَـــزَارِعا ٢
وبَلْدَةً بَعْدَ ضِنـاكٍ واسِعــــــا وحِنْطَةً طَيْساً ، وكَرْمـــاً يانِعـا ٣
ونَعَماً لابـــاً ، وشاءً راتِعــــا أَصْبَحَ جَمْعُ الحيِّ قَيْسٍ شاسِعـا ؛
كأَنَّمـــا كان غُـرابـــاً واقِعـــا

* * *

١ ــ الشّرائع : جمع شريعة : مورد المياه .
م : يقول إنّهم إذ أبصروا راياتهم مُقْبلة عليهم كالطّير الساعية إلى الماء .
٢ ــ راذان : اسم موضع .
م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ويقول إنّهم بعد أن شهدوا السّيوف القواطع في أيديهم نزحوا عن مواقعهم وخلّوا لهم ما كانوا يحتلّونه من أراضٍ ومزارع .
٣ ــ ٤ ــ الطّيْس : الكثير . لاباً : هنا مُزْدحمة .
م : يعدد المواقع والخَيْرات التي خلّفوها لهم ويقول إنّهم خلّوا لنا بلاداً واسعة ، بعد قتال شديد ، ومزارع حبوب خصْبة وكروماً طيّبة الثمار وإبلاً كثيرة حاشدة وغنماً ترتع في مراعيها ، وولى القيسيّون الأدبار من دونها ، كأنّهم غراب طار عن المكان الذي كان يقع فيه .

الباب الثّالث

الفخر بخيل بني تغلب

وقَف الشاعر العربيّ من الخَيل موقفين متباينَين متأثرين بطباعه وعقيدته وموقفه من الوجود . أفصح عن الأول شعراء اللّهو والمجون الذين اتّخذوا الخَيل مطيّة للزّهو والارتحال إلى مواقع الماء ، ويقوم على رأس هؤلاء امرؤ القيس ومن إليه من شعراء كان الفرس بالنسبة إليهم مطيّة لهو وزهو . فهم يصفونه مُعجبين بجماله وكماله ، يعرضون لكلّ مَلْمَح أو عضو فيه بالتشابيه والكنايات والاستعارات التي تمثل الطبيعة المتكاملة فيه لتآلف أعضاء جسده وقوّته وسرعته. ذاك الفرس هو فَرَسُ القَنص ، يَلْحَقُ بالطّرائد ويلتفُّ عليها ويمنعها من متابعة عدوها ، أو كما يقول امرؤ القيس إنه « قيد الأوابد » . وأصحاب هذا المذهب يؤمنون باللّذة السادية ، السادرة كغاية نهائيّة للحياة، يُشغَلون بها ولا يؤمنونَ بما دونها ولا يَطيب لهم قتال ولا يجدون فيه باعثاً للفخر . وتراهم يفخرون ، أبداً ، بمواقعتهم المرأة ، لا يتحرّمون بحرمة الحلال أو الحرام ، بل إن لذّتهم تتعاظم بقدر ما يخرجون فيها على حدود المجتمع ويُسفهون تقاليده . فامرؤ القيس يفخر بمواقعة المرأة المرضع التي يخلّف زوجها « كاسف البال » ، وبنحره مطيته للعذارى وبصيده الوحوش واشتواء لحمها وتخضيب صدر فرسه بدمها . فهذا الفخر هو الفخر السّلبيّ ، الماجن الذي يُجلّونَ فيه الفرس أن يَقتحم القتال ويقصرون مهمته على ارتياد الصَّيد واللّهو .

ويظهر الموقف الآخر في شعراء الفخر الملحميّ الذين يُمَجِّدون القُوّة ويحتفلون

بها ويُعَظِّمون ما نالوا من انتصارات في ساحها . وربما ألمَّ بعضهم بذكر الخمرة والتفاخر بشربها كعنترة ولبيد ، لكنّها تعبر في حياتهم كلحظة من لحظات السَّلوِّ الطارىء حيث يكفُّون عن القتال ، حيناً . وفيما دون ذلك ، فإنّهم لا يطربون إلا الى مشهد الدماء والاشلاء ، ينتصرون بها ، غالباً ، للحق على الباطل ويدفعون الذُّلَّ عن أنفسهم وعن بني قومهم . وفي هذا الموقف يصحَبُ الفرسُ الفارسَ ، يعاني مثل بطولته ، يقتحم الغُبار ويبلو لظى المعركة ، وبعد أن كان فرس لهو ، في الموقف الأول ، غدا فرساً ملحمياً ، مقاتلاً ، يُخَضَّبُ بدم القتلى ، بدلاً من دم الطرائد . والأخطل يصفُ خيُول بني قومه ، أبداً ، وهي تخوض غمار الموت ، مؤلِّباً لها الصفات التي تَدَّعِيها تفوّق على ما دونها غاية التفوّق . يقول في ذلك :

ونسيرُ بالثَّغرِ المَخُوفِ فجاجُهُ بسلاهبٍ جردِ المتون ، طُوَالِ ١

خُوصٍ كَأَنَّ شكيمَهُنَّ مُعَلَّقٌ بقَنَا رُدَيْنَةَ أَو جُذُوعِ أَوالِ ٢

نَقْتادُ كلَّ طِمِرَّةٍ ، رأْدَ الضُّحى وعِنانَ كلّ مُجلْجِلٍ ، صَهَّالِ ٣

مِنْ كلّ أَدْهَمَ ، كالغُرَابِ سوادُهُ طِرْفٍ وأَحمرَ كالأَديمِ نُسَالِ ٤

---

١ ــ يقول إنهم يسيرون في الأماكن المخيفة بالخَيْل الطويلة أي السلهبة .

٢ ــ يقول إنها خوص أي غائرة العيون . فكأن حديدة فمها معلّقة بالرمح أو بجذوع النخل .

٣ ــ الطّمِرّة : الفرس الجواد . رأد الضُّحى : أي وقت ارتفاع النّهار . المُجَلْجِل : الفرس الذي صفا صهيلُه .

م : يستكمل وصفه للخَيْل التغلبيّة ويقول إنّهم يقتادون لغارة الصَّباح الخيل الكريمة التي لا تزال تصهل حماسة ونشاطاً .

٤ ــ الطِّرْف : الكريم من الخَيْل . الأديم : الجلْد المَدْبوغ .

م : يقول إن بعضها أسود اللّون كالغُراب وبعضها أحمر الجِلْد ، قد تساقط وَبَره ونسل فبدا أجرد .

يُسْقى الرَّبيعَ ، يُصانُ غيرَ مُصَرَّدٍ مَحْضَ العِشارِ ، وقارِصَ الأَشْوالِ ١
ودَنا المُغارُ لهــا ، فهُنَّ شوازِبٌ خَلَلَ المطيّ ، كأَنَّهُـنَّ مُغـالِ ٢
يَمْشينَ إذْ طالَ الوَجيفُ على الوَجا نَحْوَ العَدُوّ كمشْيَةِ الرِّئْبـالِ ٣

وممّا يُلاحظ في هذا الوصف أنّه يساق ويُزجى بطبيعة انفعال الشاعر ؛ ولا يزال الانفعال باعث الانتخاب الفني ، أي أنّه هو الذي يُسقط مظاهر وأحداثاً ويعظّم أخرى . ما انفعل به يَنْتُؤ ويَطْغَى ويتعاظم وما عَبَرَ به وتجاوَزَه يَسْقُطُ ، بل تَتَعَفّى آثاره . والانفعال الذي يصدر عنه الشاعر ، هنا ، هو انفعالٌ حماسيٌّ ، حربيٌّ ، لذلك تعاظَمَتْ الصفاتُ والخصائصُ التي تُبرز الصفة البطوليّة الملحميّة في الفرس ، فيما سقط ما دونها . لا شك أنّه يعترض عبر هذا الوصف ، ببعض النُّعوت العامّة ، كالجرد والسهلبة والطّوال . وهي تُوافِقُ الانفعال الملحمي ، كما هو شأن الأخطل والإنفعال الماجن ، كما هو

١ ـ المُصَرَّد : الذي شرب من دون الريّ . قارِص : حامض . الأوشال : الإبل التي خف لبنُها .
م : يقول إنّنا نُعدّ خيْلنا للحرب ونكرمُها فنَسْقيها اللّبن الصّافي المَحْض من الإبل الحديثة الوضْع الخصْبة الألبان ومن التي أوشك لبَنُها على الجفاف ، فبدا حامضاً ، أي أنّهم يسقونها مختلف أنواع اللّبن .
٢ ـ المُغار : هنا الغارة . شَوازِب : ضُمّر . مَغالٍ : جمع مَغْلى وهو السّهم الذي تقاس به الغلوة ، فترفع اليد حتّى تتجاوز مقداره .
م : يقول إنّها هَمّت بالغارة ، فبَدَتْ خفيفة ضامرة كالسّهام .
٣ ـ الوَجيف : ضرب عن عدْو الخيل . الوَجا : الحفا . الرِّئبال : الأسد .
م : يقول إنها قد تَحْفى لشدّة العَدْو دون أن تتباطأ وتتمهّل بل إنّها تُلْفى نشيطة عظيمة الانقضاض كالاسود .

شأن أمرىء القيس . إلا أنه لا يعتّم أن يُلِمّ بالصفات الخاصة بالخيل المقاتلة ، إذ يقول :

خوصٌ كَأَنَّ شكيمَهُنَّ مَعَلَّـــــقٌ بِقَنَا رُدَيْنَـــــةَ أَو جُـــذُوعِ أَوَالِ

فالخيل الخوص هي الغائرة العيون من الهزال لشدّة ما تعانيه من الضّيم في القتال أو لعظم ما تُساقُ إليه من مواقف تكابد فيها الهلاك . فامرؤ القيس لم يصف ، قطّ ، خَيله بمثل هذا الوصف ، إذ لم تكن للقتال ، بل للترّف . وأما الأخطل ، فإنّه يُواجه الخيلَ من نقطةِ انطلاقٍ مُتباينَة ، من زاوية البطولة ، فلا يخرج من تعظيم هزالها بالتشبيه الافتراضي حيث قَرَنَ بينها وبين الرماح وجذوع النخل . إلا أنه يحشد النعوت ، كدأب امرىء القيس ، كالسّلاهب والجرد والطوال ، وخوص وطمرّة ومُجَلْجِل وصهّال ، وهي خاصة مأثورة في الوصف البدائي المقيد بحدود الجزئيّات .

إلا أن لهذه الخيل صورتين متباينتَين ، الأولى تبدو فيها ضامرة ، هزيلة ، أضناها السيرُ والتعداءُ إلى القتال ، أو في ساحه ، وتبدو في الثانية ، وقد قامت الى بيوتهم يسقونها خالص اللّبن ، لبن الرَّبيع من الإبل الحديثة الوضع ، وإذا ما جَفّتْ أضراعُها ، فانهم لا يقتّرون عليها ، بل يسقونها حتى اللّبن القليل الباقي فيها . فهم يُؤثرونها باللّبن ، حين يفيض عليهم في الرَّبيع وحين يجفُّ . ووجه الفخر في ذلك كلّه أنهم لشدّة شغفهم بالقتال ، يخصّون مطاياهم إليه بأفضل الغذاء . وهكذا فإنهم لا يُبالون براحتها أثناء القتال ، بل يُركبونها فيه الضنى والوعر والخطر ، حتى إذا انثنوا عنه فاضوا عليها بكريم الغذاء . وأيّاً ما كانت الحال ، فان هذه الخيل تظلّ ضامرة كالسهم ، لا تحفل بالتعب ، وإذا نقبت نعالُها ، تساق حافيةً إليه . فالشاعر أجرى الخيل بمجرى انفعاله ، فعدّل وبَدّلَ ، فتعاظمَ الضّمور ، وسير الحفا إلى القتال وغوران المُقْلتين ، وهي من الصفات الخاصّة بخيل البطولة ، ولا يُلِمّ أو يفخر بها شاعر لَهْوٍ وترف مثل امرىء

القيس . فالأخطل يفخر فخراً قومياً من خلال الخيل التي جعلها أفضل الخيول للقتال .

ولعلّ الأخطل يحاور الفكرة التي خلصنا إليها بالتأويل والاجتهاد في الأبيات التالية ، حيث يترسّم بوضوح الصّورتين المتباينتين اللتين قدّمنا ذكرهما ، واصفاً خيله ، حيناً ، في الشتاء ، أي في زمن المهادنة والسّلم ، وحيناً آخر في ساح القتال . والصّورتان لا تتباينان ، وحسب ، بل إنّهما تتناقضان . ففي الأولى تراهم يربطونها إلى بيوتهم أو يُؤوونها في داخلها ، تقوم فيهم بين عائلاتهم ، لشدّة ايثارهم لها . فهي تقاسمهم معيشتهم ، أو أنهم يقسمون لها من أرزاقهم ، ويحتفلون بها ، فيكسونها البراقع الجميلة والأجلّة ، فكأنهم يداعبون من خلالها ، أنئذ ، حلم البطولة والقتال العتيد :

إذا ما الخَيْلُ ضيّعهـا رجـالٌ رَبَطْناها فشاركَتِ العِيـالا ١
نُقاسِمُها المَعيشَةَ إذْ شتَوْنا وَنَكْسُوها البراقعَ والجِلالا ٢
نصُونُ الخَيْلَ ما دُمنا حُضُوراً ونَحْذوهُنَّ في السّفَرِ النِّعالا ٣
ونَبْعَثُهُنَّ في الغاراتِ حتى يَقودَ الفَحْلَ صاحِبُهُ مُذالا ٤

---

١ – م : يفخر بتكريمهم لخيولهم ، ويقول إنّهم يقرّبونها إليهم ويجعلونها في بيوتهم كعيالهم . والعرب يسمّون هذه الخيل المُقْربات لنجابتها وأصالتها .

٢ – م : يقول إنّهم يقتسمون رزقهم معها ، وإنّهم يضنّون بها ويكسونها أجمل الأكسية . والعناية بالخيل والإيثار لها هما وسيلة للتدليل على منزعهم نزعة فروسيّة .

٣ – م : يقول إنّهم يُعْنون بخيلهم ويتعهّدونها ما داموا مُقيمين ، فإذا سافروا بها أنعلوها النّعال حرصاً عليها ومنعاً للأذى عنها .

٤ – المُذال : المهين .

م : يقول إنّهم يكرّمونها ويرعونها في عهود السّلم ، فإذا ساقوها إلى الغارة ، فإنّهم يذلّونها ويعنفون بها لبسالتهم وشدّتهم .

وكلَّ طِمِرَّةٍ جَـرْدَاءَ تَـــــرْدي تَرى الأَضْلاعَ بادِيَةً هُـــــزالا ١

أَصابَتْ مِنْ غُزاةِ القومِ جَهْـدا يُعَرِّقُ مِن جُزارتِهـــا المَحالا ٢

إذا ملَّتْ فوارِسَنـــا وكلَّـــتْ عِتاقُ الخَيْلِ زِدْناها كَـــــلالا ٣

جنائِبُنـا العِتـاقُ لهـا صَهيـلٌ بأَيْديدينا يُعارِضْنَ البِغـــالا ٤

إذا نادى مُنـادينـا رَكِبْنـــا إلى الداعي فَطِرْنَ بِنـــا عِجـالا ٥

فهُنَّ إلى الصَّباحِ مُجَلِّحـــاتٌ بنا يُمْعِنَّ إمْعـــاناً رِســـالا ٦

١ – الطِّمِرة : الفرس الجواد . الأجرد : القصير الشعر . تَرْدي : تسرع .

م : يقول إنَّ في تلك الخيلِ ، الفَرَس الجواد ، القصير الشَّعر ، المُسْرِع في عدوه ، الضَّامر ، البيِّن الأضلاع لشدَّة هزاله من مشقَّة السَّير .

٢ – الجُزارَة : اليَدان والرِّجلان والعنق ، لأنها لا تدخل في الميُاسرة بل تستبقى للجزَّار . المَحال : جمع المَحالة ، وهي الفقرة من فقار البعير .

م : يقول إن الغُزاة أرهقوها في عدوهم بها حتّى تصبّب منها عرق الإجهاد .

٣ – م : يقول إن فرسانها قد يكلّون وينصبُون ، لكنّهم لا يكفّون عن القتال بل لا يزالون يزْجون خيلهم إليه ، بالرّغم من كلالهم وكلالها .

٤ – الجنائب : جمع جنيبة ، وهي الخَيْل يُتجنَّب ركوبها إلاّ في القتال ، ويركبون من دونها البغال أو الإبل .

م : يصف هنا سيرهم إلى القتال ، وهم يقودون خيلهم الّتي تصهل نشاطاً ، فيما تعارضها البغال الّتي تمتطى حتّى ساحة القتال .

٥ – م : يقول إنهم يستجيبون لمَنْ يستنجد بهم ، راكبين تلك الخيول السّريعة .

٦ – التّجْليح : السّير الشّديد . أمْعَنَ الفَرس : مضى في عَدْوه . الرِّسال : جمع رسلة ، وهي الفرس النّشيطة ، السّريعة العدو .

م : يقول إنّهم يمتطون تلك الخيول ، اللّيْل كلّه ، وهي تمعن بسيرها وتُغِذُّ فيه .

عوابسُ بالقَنـــــا متواتِـراتٌ تَرى الأَبْطالَ يَعْلُـونَ النِّهـالا ١

بها نِلْنا غرائبَ مِـنْ سِوانـــا وأَحرَزْنا القرائبَ أَنْ تُنـــالا ٢

فأنت ترى أنَّ تلك الخَيل الشاتية هي مُرَفّهة ، مُنَعّمة ، وربما آثر العربيّ فرسه على عياله . أما إذا بُعِثت في الغارات ، فإنّها تحذى النعال ، فيما تبين أضلاعها من الهزال ويتصبّب عرقها . وقد كان العربي يتمرَّسُ بالمَوتٍ في كُلّ غَدّاة ، يَمضي في الغارة ، فيعود عائدون ويغيب غائبون في غيابه الموت ، بعضهم يحيا بموت الآخرين ، فالقتل كان قدراً لهم ولاعدائهم . وفي هذه الصناعة وهذا العمل شبه اليومي كانت تتسامى نزعة البطولة وتبرز على ما دونها وتعتزل سائر العواطف وتطغى عليها . حتى أنه لم يعد يحتفل في حياته إلا بما يصحبه عليها ويُيسِّر له أمرها . ومن هنا كان للخيل هذا المقام النفسي في وجدانه ، فهي ترتبط معه فيه بتنازعه لبقائه . أي بحياته وموته . انها رفيقة الضرب والطعن والدم ، بل إنها صنو لذاته . تمتدُّ وتتجسّد من خلالها . وأي قدر أسمى لها من أن تتقدَّم معك الى ساحة النِّزال ، تشترك بالمعركة كالانسان الحيِّ . السّويِّ . فالخيل التغلبيّة دائمة الحضور على مسرح قصائد الأخطل . يعتاض بذكرها عن ذكر الفوَارس ، ويتكنّى بها عنهم أو أنّه لشدَّة إعجابه بها ينسب لها مآثرهم ويُنمي إليها بطولتهم ، كما سنرى . وإذا كانت هذه السورة البطولية النفسية لم تُسفر في هذه الأبيات ،

١ ــ مُتواتِرات : مُتتابعات . نِهال : عطاش .

م : يقول إن الفُرْسان يَقْدمون بها إلى الحرب وهم مُتَعَبّسون يحملون الرّماح ويقتفي بعضهم أثر البعض الآخر .

٢ ــ م : يقول إن تلك الخَيْل ساقتهم إلى النّصر وسبي نساء الأعداء ومنع نسائهم من أن يسبيهنّ الآخرون .

فإنها ستتضح في أبيات لاحقة إذ أن الشاعر يعمد ، هنا ، إلى ضرب من المعاني الحماسيّة التي لا تدلهمُّ فيها الأحاسيس ، فهي أدنى الى التقرير وقرب المُتناول ، وان كان الشاعر قد أدّاها في اداءٍ حَمَاسي سيّال . وقد بدا ذلك واستبان في الأفعال شبه النثريّة التي توسّل بها أمثال : « ربطناها . نقاسمها ، نَبْعَثُهُنَّ ، أصابَت » . وفي كلّ فعل منها تسطع سورة الوعي ، مما جعل المعنى يقتصر على حدود الكنـــاية المبـــذولة . وربّما ألفَيْناه يُعَظِّم الفارس على الفرس ، معفيّاً على سورة الغلوّ التي يحشدها لحيله في مثل قوله : « حتى يقودَ الفحلُ صاحبَه مُذالا » . أي أنها تسير مقسورة مذلولةً الى القتال ، وأحرى أن يُمَثّل شدّة عدوها إليه ، وامتناعها عن الارتداد عنه . ومع أنّ قولَه قد يكونُ واقعيّاً ، فإنه يَنبو عن السّياق العام الذي تجري المعاني عَبَره . لقد انخفض مستوى المعاني ، بل تَناقض ، فبينما كان يَفخر بها ، إذا هو يَفخر عليها . وقد يجري هذا المجرى قوله :

أَصابَتْ من غُزاة القَوْم جَهْـــــداً يُعرِّق من جزارتهــا المحـــــالا

فذكر الجهد الذي أصابها من غَزو العدو قد يكون واقعياً ، إلا أنه يسفح اسطورة البطولة المطلقة التي يحشدها لها ، ولقد كان حقيقاً أن يعظم من طول نفسها حتى أنها تقاتل القتال كلّه لا ترتدُّ ولا تكفُّ .

ولعلّ الأبيات التالية تستحضر الصورة الملحميّة المأثورة ، إذ تراه يُنهك فيها معنى البطولة من خلال ملامح الخيل ، يتداوله في أبياتٍ مُتَعَدِّدة حيث تتنامى وتتعاظم ، في آن معاً ، بطولتها الشبيهة بالمعاناة الانسانيّة . فأنت تجدها متحفزة للقتال ، خائضة فيه ، هلكت وذاب لحمها وتقلقلتْ عليها الأعنة ونتأت أضلاعها ، ومع ذلك ، فإنها ما زالت تنقض كالأسود . وبذلك تولى وصفها من الدّاخل ، وكأنها تعي وعي البطولة وتتمرّس بشروطها مؤثرة إياها على راحتها ، بل على حياتها :

وأَوْلادُ الصَّريحِ مُسَوَّمــــــاتٌ عَلَيْهَا الأُسْدُ غُضْفاً والنِّمــارُ ١
شوازِبُ كالقَنَا ، قدْ كــانَ فيهــا مِنَ الغَارَاتِ والغَزْوِ اقْــوِرَارُ ٢
ذوابِلُ كلِّ سَلْهَبَــةٍ خَنــوفٍ وأَجْرَدَ ما يُثَبِّطُهُ الخَبَــارُ ٣
فَأَتْرَزَ لَحْمَهُ التَّعْداءُ ، حتــى بَدَتْ مِنْــهُ الجَنَاجِنُ والفَقَــارُ ٤
وقَدْ قَلِقَتْ قلائدُ كلِّ غَــوْجٍ يُطِفْنَ بهِ ، كما قَلِقَ السِّوارُ ٥
تَراهُ كأَنَّــهُ سِرْحــانُ طَــلٍّ زَهاهُ يَوْمَ رائحَــةٍ قِطــارُ ٦

١ ـ الصريح : فَحل مُنْجب . المُسَوَّمات : المُعلمات من الخَيْل . النّمار : جمع نمر وهي الحيوان المعروف .

م : يفخر بخَيْل التغْلبيّين الأصيلة ، يقول إن فرسانها يعلونها كالأسد والنّمار .

٢ ـ شَوازِب : جمع شازِبة : ضامرة . اقْوِرار : ضمور .

م : يقول إن خَيْلهم ضامرة كالرّماح نحلت من شدة اقتحامها لساحات القتال .

٣ ـ الذّوابِل : الضّوامر . السَّلْهَبَة : الخفيفة . الخنوف : سرعة قلب الفَرَس يديه وقلعهما من الأرض . الأجْرَد : الفرس القصير الشعر : الخبار : حفر في الأرض .

م : يقول إنّها ضامرة . خفيفة العَدْو ، لا تَعوقها ولا تؤخّرها المعابر الصَّعبة .

٤ ـ أتْرَزَه : ذهب به . التَعْداء : العدْو . الجناجن : عظام الصَّدر : الفَقار : وسط الظّهر .

م : يقول إن تلك الخَيْل قد ذَهب لحمُها وهَزَلَتْ من شدّة عدوها ، فبدت منها عظام صدرها وفقارها .

٥ ـ الغَوْج : الجواد من الخَيْل .

م : يقول إن تلك الخَيْل لضمورها . اتّسَعت قلائدُها ، فباتت تدور حول أعناقها كالسّوار .

٦ ـ السِّرْحان : الذئب . الطّلُّ : النّدى .

م : يشبّه تلك الخَيْل بالذئب الذي يَعْدو في يوم مُمْطر ، لا تعوقُه فيه القائظة ، بل يَسْتَخِفُّ الطلُّ عدوه ويزهوه .

فهو يستهلّ بالقول إنها مُسوَّمة ، أي أنها تضع علامة البطولة . وقد امتطاها قوم من الأسد والنمار ، أي فرسان لهم شجاعة الأسد والنمر . وهذا المعنى مبذول ، لا طعم حماسيّاً له لكثرة تداوله ودنوّ متناوله في الناس . بخلاف قوله: « شوازب كالقنا » حيث لم يَقُم التشبيه على المماثلة النسخيّة ، بل على الوقع الايحائي في النفس . إلا أن النزعة الغالبة في ذلك كلّه هي النزعة التفسيريّة التي تُحيل الشعر إلى ما يُشبه الوضوح النثري ، وبخاصة إذ يتوسّل حروف التعليل في مثل قوله : « قد كان فيها من الغارات والغزو اقْوِرارُ » . فهو يُفسّر ضمورها بمثل التفسير العِلْميّ ، بالغارة والغزو . ولم يكن ثمة ضرورة لمثل هذا الإيضاح لأنّه واضح بذاته . فالأخطل لا يؤدي بذلك ما يُعانيه ، بل ما يَفهمه ويُعانيه . وقد يتجمّد انفعال الشاعر ويَركد ، فتنهار تجربتُه عن ذلك كلّه . فتفوته الكناية الحسيّة المبدعة ، ويكتفي منها بما تيسّر وما ضَعُفَتْ وتضاءلت دلالتُه . فأي ابداع في قوله : « وأجرد ما يثبطه الحبار » ، أي أنها لا ترتدّ ولا تكف عن العدو وان عترضتها الحُفَر في الأرض . وفعل ثبَّط ذاته هو فعل تقريريّ نثريّ . إلا أن الأخطل لا يقف عند ذلك الحدّ ولا يستسلم أو يتهادن ، فتراه يُبصر من جديد الأشياء ، وقد سقطت عنها الطُّفيليّات المُعترضة وتجلّى فيها العنصر الانفعالي مستقلاً خالصاً . وذاك إذ يقول :

فأَتــرز لحمـه التَّعداءُ ، حتّـى بَدَتْ منـه الجَنَاجِنُ والفقــارُ
وقد قَلِقَتْ قـلائد كُـلّ غـوجٍ يطفْنَ به كما قلـق السِّـوارُ

فذكر الجناجن والفقار لا يقتضي خيالاً ابداعياً ، ومع ذلك ، فإن له صفة فنيّة في حدود التجربة المأثورة ، عصرئذ ، إذ أنَّ نتوءها وظهورها يُجسّد يقين الكفاح والضَّنى والارهاق، وهي ، جميعاً ، سيماء البطولة ومظاهرها. وتتكامل هذه الصورة في مشهد القلائد التي غدت كالسوار المتقلقل على الخيل . لقد ذهب لحمها وذاب جسدها حتى اتّسعت عليه أحزمتُه . هنا وجد الانفعال سبيله ،

فانتزعَ وأبْدَعَ ، مُبقياً الفرس في صورة لا يتداخل عليها بها أي طارىء يُشغلنا عن بطولتها .

وعلى دأبه في استقطاب شتى احتمالات المعنى ليُوفي الى ذروته ، فإنه يستدرك بالقول إنها ، على هزالها وهلاكها الشديد ، لم ترتدّ ولم تنتكص ، بل ظلّت تنقضُ كالذئب الذي اثارته رائحة الشواء :

تراه كأنّـــه سرحان طَـــــلٍّ زهاه ، يَوْمَ رائحةٍ ، قِطـــارُ

هكذا تتنامى المعاني وتتكامل بخلاف ما أسف به سابقاً إذ انتابته واقعيّة طارئة ، جعل بها الخَيل تساق وتزجر الى الحرب .

ونبذل ، هنا ، هذه الأبيات الأخيرة في الفخر بالخَيل ، ولعلّها أبلغها وأعمقها ملحميّة . وهو يستهلّها بذكر عميّيه اللّذين قتلا الملوك وأخيهما الذي ظمّأ خيله في جبى الكلاب ، ومن ثمّة يستطرد إلى وصف تلك الخَيـل . إذ يقول :

أبني كُلَيْبٍ ان عمَّـيَّ اللَّـــذا قتلا الملوك وفكّكا الأغــلالا ١
وأخوهُما السَّفّاحُ ظمّــأ خَيْلَــهُ حتى ورَدْنَ جِبى الكُلابِ نِهـالا ٢

١ ــ عمي : اشارة إلى أبي حنش الذي قتل شرحبيل ابن عمرو بن آكل المرار في يوم الكلاب الأول ، وعمّه الثاني ولعلّه عمرو بن كلثوم الذي قيل انّه قتل عمرو بن هند . ومنهم من يقول إنّ عمّه الثاني هو الدّوكس بن الفَدوكس ابن مالك . الأغلال : جمع غلّ : القَيْد .
م : يفخر في هذا البيت بمن ذكرنا من أعمامه ويقول إنّهما قتلا الملوك ، وقد نوّه بذلك ليفيد منه عزّاً ومجداً إذ ان قتل الملوك أعزُّ له من قتل الجنود وحتّى الأبطال .

٢ ــ السّفّاح : هو خالد بن كعب بن زهير ، وقصته أنّه منع الماء عن جماعته ، إذ أهرقه وطلب منهم أن يدركوا حبى الكلاب . حيث يُقَدَّر لهم أن يردوا الماء ، بعد أن يفتكوا باعدائهم. نِهالا : يطلبون النّهل ، أي الاستسقاء .

يَخْرُجْنَ مِنْ ثَغْرِ الكُلابِ عليهِمِ ... خَبَبُ السِّباعِ تُبادِرُ الأَوْشالا ١
مِنْ كلّ مُجْتَنَبٍ ، شديدٍ أَسْرُهُ ... سَلِسِ القِيادِ ، تخالُهُ مُخْتالا ٢
ومُمَرَّةٍ أَثَرَ السّلاحِ بنَحْرِها ... فكأَنَّ فَوْقَ لَبانِها جِرْيالا ٣
قُبِّ البُطونِ قدِ انْطوينَ مِن السُّرى ... وطِرادِهِنَّ إذا لقِينَ قِتالا ٤
مُلْحَ المُتونِ ، كأنَّما أَلْبَسْتَها ... بالماءِ إذْ يَبِسَ النَّضيحُ ، جِلالا ٥

١ ـ الخَبَب : ضرب من العَدْو تعدو به الخَيْل . الأوْشال : جمع وَشَل الماء القليل .
م : يمثّل خَيْل التّغْلبيّين الخارجة من القتال بالسّباع السّاعية إلى الماء ، أي العادية بسرعة دون خوف أو وجل .

٢ ـ المُجْتَنَب : أي الخيل التي يُجْتَنَب ركوبُها ، والتي تُساق إلى جنب الإبل ولا تُمْتَطى إلاّ في القتال . أَسْرُه : خَلْقه .
م : يستكمل وصف تلك الخَيْل ويقول إنّها لا تُمْتطى إلاّ في القتال ، تعظيماً لها وحفاظاً على نشاطها ، وإنّها شديدة الخَلْق ، تمشي ، فتبدو وكأنّها تختال اختيالاً .

٣ ـ المُمَرَّة : المُدْمَجَة . الجرْيال : صباغ أحمر .
م : يقول إنها لكثْرة ارتيادها للقتال تُلْفى مُضَرَّجة النّحور بالدّماء ، فكأنّها صُبِغَتْ بصباغ الجريال ، وذكره للجراح التي ألمت بها في القتال لا يشوبُها ، لأنّه يُمَثّل دأبها عليه ومؤالفتها له .

٤ ـ طِرادهنّ : أي مُطارَدَتهنّ للأعداء . القُبّ : جمع قبّاء : الضامرَة .
م : يقول إن بطون تلك الخيل بدت ضامرة للجوع الذي أصابها من كثْرة عدوها في اللّيل ومطاردتها للأعداء في القتال .

٥ ـ النّضيح : ما نضح من عرق على متنها .
م : يصور شدّة الكفاح الذي بلَتْه الخيل من خلال تمثيله للعرق الذي نَضَح وتصبّب منها ، فبدا بعد أن جف كجلالٍ ترتديه على متنها .

ولقلَّ ما يُصْبِحْنَ إلاَّ شُزَّبــــاً   يَرْكَبْنَ مِن عَرَضِ الحوادثِ حالا ١

فَطَحَنَّ حائرَةَ المُلوكِ بِكَلْكَـلٍ   حتى احتَذَيْنَ مِنَ الدّماءِ نِعـالا ٢

وأَبَرْنَ قَوْمَكَ ، يا جريرُ ، وغيرَهُمْ   وأبَرْنَ مِنْ حَلَقِ الرِّبابِ حِـلالا ٣

ولَقَدْ دَخَلْنَ على شَقيقٍ بَيْتَـهُ   وَلَقَدْ رأَيْنَ بساقِ نَضْرَةَ خـالا ٤

وبَنو غُدانَةَ شاخِصٌ أَبْصَارُهُـمْ   يَسْعَوْنَ تَحْتَ بُطونِهِنَّ رِجـالا ٥

١ ـ الشُّزَّب : جمع شارب : الضامر .

م : يقول إنّك لا تُلْفيهنّ إلاّ ضامرات ، إذ لا يُخلدن قطّ إلى الرّاحة . بل يَقْتَحِمن الأحداث التي تطرأ عليهن .

٢ ـ حائرَة المُلوك : أي من تحيّر منهم . يشير إلى قتل عمرو بن كلثوم لعمرو بن هند .

م : يقول إنّهن أَلِفْن سَحق المُلوك بصدورهن ، وأن يَخُضْن في الدّماء ، فتَصْبغ أقدامهنّ ، وتبدو كنعال لها . وهذه الصورة تمثّل الصّور الملحميّة التي تنطوي عليها بعض مفاخر الأخطل ومدائحه .

٣ ـ أبَرْن : أهْلَكْن . حلَق الرِّباب : جماعتهم . الرِّباب : هم بنو عبد مناة . سموا الرّباب لأنهم تغمّسوا بالربّ أيديهم في حلف على بني ضبّة . الحِلال : الحالّون المجتمعون في مكان .

م : يقول إنّهم أهلكوا قوم جرير وسواهم من الأقوام وإنّهم فتكوا بجماعات الرّباب في الأمكنة التي كانوا يحلّون فيها ، أي في عقر دارهم .

٤ ـ شَقيق : من بني ضبّة . ونَضْرَة : أبنته . وكان أحد التغلبيين قد غزا ربيعة وسبا نساءهم وأبقى على نضرة ابنته أسيرة لديه .

م : يقول أنّ التغلبيّين اقتحموا على بني ضبّة وأسروا نضرة ابنة أحدهم وكشفوا عن ساقها ، أي واقعوها بريبة .

٥ ـ بَنو غُدانَة : هم حي من يربوع . الرّجال : هنا السّاعون على أرجلهم .

م : يذكر ما فعلت الخيل ببني غُدانة ويقول إنّها أصابَتْهم بالحيرة التي جعلت أبصارهم تشخص وإنّها أوْدت بهم تحت بطونها ، بعد أن أُسْقِطوا عن مطاياهم .

يَنْقُلْنَهُمْ نَقْلَ الكِلابِ جِراءَهـــا حتى وَرَدْنَ عُــراعِــراً وأُثــالا ١
خُزْرَ العُيونِ إلى رِياحٍ ، بَعْدما جَعَلَتْ لضَبَّةَ بالرِّماحِ ظِــلالا ٢
ما إنْ تَرَكْنَ مِنَ الغواضِرِ مُعْصِراً إلاَّ فصَمْنَ بِساقِهـــا خَلْخـالا ٣

وإذا كان تشبيه الخَيل بالأسود مَبذولاً ، فإن الأخطل يُخرجه عن ابتذاله لأنّه واجهه من زاوية جديدة إذ قارن بينها وبين السِّباع في خببها ، أي سيرها ومؤدّى هذه المقارنة أنها تخبُّ خبّاً ، واثقة من ذاتها ، من شجاعتها وتفوُّقها ، وهذا ما أكّده في البيت اللاحق إذ قال : « تخاله مختالا » . والواقع ان الفرس إذ يعدو ، رافعاً رأسه ، يبدو وكأنه معجب بذاته ، يتباهى ، ولا يجري الفرس هذا المجرى ، إلا إذا كان أصيلاً ، مُتعافياً ، وعَبر ذلك نستطلع اعجاب الشاعر وزهوَّه بهذه الخَيل ؛ وربّما اتّخذ بعض مَعانيه من بعض ما وَرَدَ في الفَخر القديم ، فقوله :

وَمُمَرَّةٍ أَثَرُ السِّلاحِ بِنَحْرِهـــا فكأَنَّ فَــوْقَ لبانِهــا جِرْيَـــالا

١ ــ عُراعِر : اسم ماء . أُثال : ماء لبني عبس .
م : يقول إن خيل التغْلبيّين كانت تنقل محاربي بني غُدانة وتجرُّهم كما تُجرّ الكلاب ، حتى أزالتهم عن حماهم إلى حمى الآخرين .
٢ ــ خُزْر : جمع أخْزر : من ينظر بمؤخر عينه .
م : يقول إن خيلهم كانت تنظر إلى بني رياح نظرة شزر وغضب ، بعد أن حموا بني ضبّة برماحهم .
٣ ــ الغَواضِر : من بني قيس . المُعْصِر : التي دَنَتْ من البُلوغ . فَصَمْنَ : هنا كسرن .
م : أي أنهم انتهكوا عذارى بني الغواضر ، وغشوهن سفاحاً ، وكسر الخلخال هنا كناية عن تواقعهم معهنّ .

هو شبه منقول عن قول عنترة :

يَدْعُونَ عَنْتَرَ ، والرِّماح كأنَّهـــا   أَشْطانُ بِئْرٍ في لبـانِ الأَدْهَـــمِ

والدَّم الذي تتسربَلُ هو دَمُ البطولة والكفاح ، عَبَّر فيه عن المعنى بمظهره وغالى به بعزله عمّا دونه . لكنّه يعودُ إلى النزعة التفسيريّة التي تُفسِّر ما لا ضرورة الى تفسيره . فهو يقول إنها ضامرة البطن من طول سيرها في الليل ومطاردتها للأعداء . ومن البديهي في هذا المقام أنها لم تهزل من الجوع . وربما ابتغى الأخطل من ذلك ابراز المعنى الفخري . فذكر السرى والمطاردة ، بالرغم من بديهيّته ، ينوّه بالصفة القتاليّة التي تلازمها ، وربما تلازم ذلك من طبيعة الانفعال الذي صدر عنه ، وهو لا يُعنى بما دون ذلك . وهكذا فان ذكر هذه الأمور هو تأكيدٌ لها وغلوٌّ بها . ومهما يكن ، فإننا نؤثر إسلوبه الإبداعي الذي يظهر في قوله :

مُلْحِ المتــونِ ، كأنَّما أُلْبِسْنَهَـــــا   بالماء إذ يَبِسَ النَّضيحُ ، جــلالا

فهي ترتدي ما يُشبه الجلال من الملح الجاف ، لكثرة ما تصبّب منها من العرق ، وهو هنـــا كالدَّم ، رداءٌ ملحميٌّ ، نضاليٌّ . ولا يزال الأخطل يُوَفَّق الى اقتناص المظاهر الأدل على المعنى الذي يَوَدّ أن يؤدّيه ، فضلاً عن التشبيه الذي تتحقق فيه الواقعيّة الدّقيقة حتى أنها لتتآلف والمثاليّة . وبتعبير آخر نقول إنّه بقـــدر ما تتكامل الواقعيّة بقدر ذلك تتكامل معها المثالية . فالملح الذي ترتديه الخيل كالجلال هو مَشهد واقعيٌّ ، دقيق الواقعيّة تولّدت منه صورة مثاليّة ، وهي بطولة هذه الخيل التي لا تعادلها بطولة . ويوفي من ذلك إلى أوجه ، إذ يقول :

فَضَحَنَّ حائرَةَ الملوكِ بِكَلْكَـــــلٍ   حتَّى احتَذَيْنَ من الدِّماء نِعَـــالا

ففي الشطر الأول ينسب الى الخيل بطولة التغلبيين كلّها منذ القدم ، أي منذ عمرو بن كلثوم الذي قَتَلَ ملك الحيرة ، حيث يغدو الفخر تاريخياً ، ويسمو في

الشطر اللاحق الى صورة نادرة في فخره والفخر العربي . إذ جَعَلَ الخَيل تُحذى من الدّماء ؛ وهذه الصورة تغالي بذاتها وبالبواعث التي أدّت إليها . فكان القتال خلّف إثره سيلاً من الدّماء ، بدلاً من الماء ، فجعلت تخوض فيه حتى كسا أقدامها كالنعال . وفي هذه الصورة تتآلف ، أيضاً ، الواقعيّة والمثاليّة ، تتنامى إحداهما بالأخرى .

وتطغى ، من ثمة ، النزعة السرديّة ، التعداديّة ، على ما تبقّى من أبيات ويكثر تعداد اسماء العلم للأشخاص والمواضع ، وفقما مرّ بنا ، قبلاً ، أمثال : « شفيق ونضرة وغدانة وعراعر وأُثال ورياح وضبّة والغواضر » ، وقد احتشدت وتكاثفت مثبتة الصفة الواقعية لشعره ، حيث كان يتلاحم فيه مع الأحداث والأشخاص . إلا أنّ الأخطل لم يُسْلِس قيادَه فيها ، ولم يتهادن معها ليُخلد الى السرد النثريّ العاطل عن الصورة والكناية ، أو عن الغلوّ الابداعي ، نسبياً . فقد اشار إلى مواقعتهم لنضرة برؤيتهم لخَلْخالها ، متكنّياً به عن ساقها ، وهو وجه الفَخر لهم والعار لأعدائهم ، كما أنّه جعل بني غدانة تحت بطونها كدليل على الهزيمة المنكرة التي حلّت بهم ، بل إنه يُغالي بذلك حين يُشبههم بجراء الكلاب .

وعلى العموم فإنّ الأخطل يمتزج في فخره بين الهجاء والفَخر ، ولا يزال يعدد الأيّام منيطاً بخيلهم الصفة الملحميّة إذ يجعلها تعدو الى القتال حافية ، حيناً ، أو أنها تعدو فيه منعلةً بنعالِ الدّم ، مرتدية لجلال من العرق ، تبدو من دونه أضلاعها وعظام فقارها . كما انها تسير مزهوة بذاتها كالأسود في خببها .

* * *

الباب الرَّابع

الفخر بالضيافة التَّغلبيـَة

لقد كانت الضِّيافة إحدى القيم التي قام عليها المجتمع العربيِّ، منذ الجاهليَّة، بالزام من طبيعة البيئة الصحراويَّة، وكتعبير عن الأريحيَّة والإيثار والكرم، ولهم في ذلك مفاخر وأشعار لا مجال لذكرها. وقد ولج هذا النَّوع من الفخر في سنَّه الفروسيَّة، وغدا كتعبير عنها أو مظهر مظاهرها. وهو لا يتَّصف بالمنازعة والمعارضة ولا ينطوي على الهجاء كسائر المفاخر، فهو أدْنى إلى الفخر العـام بالرَّغم من أَن الشَّاعر يدَّعي به التَّفوُّق على سائر القوْم.

من ذلك قوله:

أَلَسْنَـــا نحن أَقْــراهم لضَيْــفٍ وأَوْفاهــم، إذا عَقَدُوا حبـــالا
وأَجْبَرَهُمْ لمُخْتَبِــطٍ فَقيــــرٍ بخيرٍ حينَ قرَّبَ ثــمَّ نـــالا ١
كرامُ الرِّفْدِ لا نُعْطي قَليــــلاً ولا نَنْبُو لسائِلنـا اعْتِـــلالا ٢

---

١ ــ المُخْتَبِط: الذي يسألك دون أن تربطه بك قرابة أو معرفة أو عهد. أجْبَرُهُم: هنا بمعنى أكثرهم نجدة بجَبْر ما وهي من أمره.

م: يقول أنَّهم أنجد النَّاس للطَّارىء الغريب الذي ينتجع ديارهم فينال نوالَهم دون منَّة.

٢ ــ الرِّفْد: العطاء والإعانة. ننبو: أي نتخلف في قصدنا إليه.

م: يقول إنَّهم جزيلو العطاء، لا يعتلّون بالعلل ولا يَعْتذرون لمن يَعْتفيهم راجياً عطاءهم.

سلِ الضِّيفانَ لَيْلَةَ كلِّ رِيـــحٍ تَلُفُّ البَرْكَ عازِمَةٌ شَمــالا ١
أَلَسْنَا بالقِرَى نَمشي إليهِـــمْ سِراعاً قَبْلَ أَنْ يضَعوا الرِّحالا ٢
فما نَجْفو الضِّيافَةَ إِنْ أَقــامــوا ولا الجيرانَ إِنْ كرِهوا زوالا ٣
ونُكْرِمُ جارَنا ما دامَ فينـــا ونُتْبِعُهُ الكرامَةَ حَيْثُ مــالا ٤

فالفخر يقوم ، هنا ، على صيغة التفضيل التي تَنُمُّ عن الإطلاق ، وهو عاطفة بدائيّة مستمدّة من أنانيّته التي تجعل منه محور الأشياء . فقوله إنّهم « الأوفى » و « الأقرى » يفصح عن معاناة إنسان يَطرب ويصطخب ببعض الاعراض عن تلمُّس العاهة والضعف والترجُّح في واقع النفس البشريّة ؛ إلا أن التعبير هو تعبير شعريٌّ ، أي انفعاليٌّ ، لا يَعْني ما يعنيه في حدود دلالته الواقعيّة ؛ ويمضي في

١ – ٢ – البَرْك : جمع بَروك وهي الإبل المُقيمة . تَلُفُّ : تَجْمع . عازِمَةٌ شَمالا : أي تهبّ من الشّمال ، وهي أشدُّ الرّياح صقيعاً .

م : يستشهد الضّيفان على كرمهم ، ويقول إذ يشتدُّ عصف الريح الشّمالية الباردة وتدع الإبل تلتف بعضاً على بعض استدفاء . فإنّهم يعجلّون بالقرى لهم ، قبل أن يضعوا رحالهم ، غبّ السّفر . وتعجيل القِرى وسيلة للتدليل على عظم رغبتهم به واستعدادهم الدّائم له .

٣ – كَرِهوا زوالا : أي أنّهم أحبوا الإقامة والامتناع عن الرّحيل .

م : يقول إنّهم لا يُجافون الضّيف ، مهما طال مكوثُه فيهم ، وإنّهم لا يزعجون جيرانهم عن مقامهم ، إذا لم يرغبوا في الرَّحيل عن جوارهم .

٤ – م : يقول إنّهم لا يقتصرون على إكرام ضيفهم فيما هو حالّ ومقيم فيهم ، بل أنّهم يراعون جيرته بعد أن يرتحل عنهم ، فكان عهد الجوار لا يَنْقضي بالإقامة والرحيل بل إنّه نوع من العهد الدّائم على المودّة والنّجدة .

هذه المفاخرة الاطلاقيّة التعميميّة إذ يقول إنهم أجبر الناس للغريب الطارىء، ينيلونه كلّ خَير . ووجه الفخر قائمٌ على إيثارهم للغريب كالقريب ، دون أَن يكون في ذلك حشد أو احتفال بالمعاني الجليلة التي تُخَرَّج وتُؤَوَّلُ . فهو كأنّما يَتْلو معاني يسيرة يدركها إدراكاً . وربما أسفَّ بالتقرير في قوله : « كرامُ الرِّفد ، لا نُعطي قليلاً » ، وفخره بامتناعهم عن اعطاء القليل في الحلّة النثريّة الفاقدة الإنفعال والخيال جَعَلَتْ ذلك الفخر ، وكأنّه لا فخر فيه ولا قيمة فنيّة تصدُرُ عنه أو تكمن به . ويجري على هذا الغرار قوله : « ولا تَنْبُو لسائلنا اعتلالا » ، أي أنهم لا يَتَفَتّقونَ بالعِلل والأعذار حرصاً على ماهم وبخلاً به . ففضلاً عن طغيان الصورة على الفكرة في هذا القول تجدُ في فعل « نَنْبُو » نوعاً من البلاغة النثريّة ، إذا جاز التعبير ، إلا إذا حملناها على محمل نُبُوِّ السّيف ، فعندئذ ترتسم أمامنا صورةٌ تكثّف من المعنى وتُعَمِّقه . وتراه يستشهد الضِّيفان ، من ثمة ، على كرمهم ، ويَتَخيّر لذلك السانحة الأدلّ عليه ، وهي الليلة العاصفة التي تدع الابل تَلْتَفُّ ، بعضاً على بعض ؛ والمعنى مطروق منذ القدم ، بل إنه منهوك ومستنفد إذ لم يكن الجاهلي أو الاسلامي يَفخر بالضيافة والعطاء ، الا فيما تشتدُّ الزّمهرير وتَهبُّ عواصف الصقيع ويملق الناسُ حتى الموت . والأخطل يَشْتَطُّ عن المعاني الجليلة الحاشدة في مثل هذا الفخر ويكل أمر الإيحاء فيه الى الإيقاع الحماسيِّ العام الذي تصدر عنه القصيدة . من ذلك أنّه يتباهى بهرعهم إلى الضيفان بالضيافة قبل أن ينزلوا الرِّحال . ومع أن ذلك يوحي باستعدادهم الدّائم ، فانه آثر اليُسر في الكناية والمشهد الدّاني المتناول ، بخلاف معانيه المشتقّة اشتقاقاً والمبتدعة إبتداعاً في المدح وبعض الهجـــاء . ولقد تفطّن الأقدمون إلى ذلك إذا لم يُقَدّموه في الفخر ، فالأخطل كان شاعر سياسة وتكسُّب ولا يَعْنَتُ أو يأخذُ نفسه بالشدة القُصوى في النّظم الا في المدائح ، فكأنه يدور ، عندئذ ، في دوره الرّسميّ الجديّ حيث تقيّم قيمته الفعليّة . والأبيات ، جميعاً ، تتّصف بمثل هذا الدُّنوِّ واليُسر ، إذ تطفو الفكرة الشّائعة التي يَتَلقّفها مما يتداول بين العامة بشأن الضيافة ، كالقَول إنّهم لا يُجافون الضيف إذا أطال المكوث فيهم ، ولا يطردون جيرانهم أو يزجرونهم ، إذا لم يرتحلوا بأنفسهم . ذاك كلّه يسوقنا إلى الاعتقاد

بأن هذه الأبيات لا تسمو إلى الجماليّة الرّاقية تي يتنهد إليها الإخطل فيما دون ذلك .

وما لنا وللابيات السابقة ، فلعلّها ليست الأدلّ على فخره بالضيافة ، أو لعلّ الانفعال الخالق لم يرفده ولم يُسْعِفْهُ فيها ، فلنتوَلّ أبياتاً أُخرى ، فقد تكون تكون أدلّ على هذا النوع من الفخر . ففي إحدى ميميّاته يقول :

وَمُسْتنبحٍ بَعْدَ الهُدُوِّ ، دَعَوْتُــــهُ بصوتي ، فاستعشى بنضوٍ تَزَغَّمـا
فجاءَ ، وقَدْ بلَّتْ عَلَيْهِ ثيابَــــهُ سحابةُ مُسْوَد مِنَ اللَّيالِ أَظلَمـا ١
وفي لَيْلَةٍ ، لا يَنْبَحُ الكَلْبُ ضَيْفَهَا إذا نُبّهَ المبْلودُ فيها ، تَغَمْغَمــا ٢
فلمّا أَضاءَتْهُ لنا النَّارُ ، واصْطلى أَضاءَتْ هِجَفّــا مُوحِشاً ، قَدْ تهشْما٣

---

١ ــ يتحدث عن ضيف يُنابح الكلاب ليهتدي بنباحها وقد ردّ عليه الشاعر ليهديه .

م : يقول إنّه قدم إليه وقد بلّلته الأمطار المُنْهمرة من سحاب متلبّد مُظْلم ، كثيف .

٢ ــ المَبْلود : البليد . التّغَمْغُم : الكلام الضّعيف .

م : يمضي في وصف شدّة الصّقيع في ذلك اللّيل ، ويقول إن الكلب لا يقوى فيه على النّباح من شدّة البرد الذي يعتريه ، فإذا نُبّه وأُثير للعواء ، هدايةً للضّيف ، فإنّه يتَغَمْغَم ويُقْعي ، ويظلّ مُتَبلّداً .

٣ ــ الهجَف : الغليظ ، الجافي . الموحش : هنا المتوحّش الذي يألف صحبة الوحش .
تَهَشّم : أي أصابته رضوض وما إليها .

م : يقول إن ذلك الضّيف أدركهم واصطلى نارهم ، فانعكس منها نور على وجهه ، فبدا امرءاً غليظاً ، متهشّم الوَجْه ، قد ألف الإقامة في الأمكنة المُتوحّشة .

فنَبّهتُ سَعْداً بَعْدَ نَوْمٍ لطـــــارِقٍ أَتانا ضئيلاً صَوْتُهُ ، حينَ سَلَّما ١
فقُلْتُ لهُمْ : هاتوا ذخيرَةَ مالكٍ وإنْ كان قدْ لاقي لَبوساً ومَطْعمــا ٢
فقالَ : أَلا لا تجشمــوهـــا ، وإنَّما تَنَحْنَحَ دونَ المُكْرَعاتِ ، لتُجْشما ٣
وإنِّي لحلاَّلٌ بيَ الحـقُّ ، أَتَّقـــي إذا نَزَلَ الأَضْيافُ ، أَن أَتجَهّمــا ٤
إذا لَمْ تَذُدْ أَلْبانُهـا عَنْ لحومِهـا حلَبْنا لهُمْ منْها بأَسْيافِنا دَمـــا ٥

١ ــ م : يقول إنّه نبّه سعداً ، ليهرع إلى أداء حقّ الضيافة لذلك الطّارىء الهالك الذي كاد صوته أن يذهب من شدّة عيائه .

٢ ــ م : يقول إنّه بعد أن ألبسه وأطعمه دعا بمن إليه ليأتوا بذخيرة ابنه مالك ليؤديها له كهدية .

٣ ــ المُكْرَعات من الإبل ما أُلبس الدُّخان : أي ما أُدخل للاصطلاء من البرد ، فغشيه الدّخان . تَجَشّم : تكلّف . تَنَحْنَح : أشار بصوته متمهّلاً ليُضْمر ما يودّ أن يقوله ويوحي به من صوته .

م : يقول إنّ الضّيف أبى أن تساقَ إليْه إبل مالك ، لكنّه تَنَحْنَح ، كأنّما يشير بذلك إلى رغبته بها وقد منعه الحياء من قبولها .

٤ ــ م : يَمْضي في تفاخره بإكرام الضّيف ، ويقول إنّه يؤدّي له حقّه ولا يُقْبل عليه إلاّ باشّاً ، مستَبْشراً ، ليطيبَ له المقامُ والمكوث .

٥ ــ م : يقول إنّه إذا لم يكن ثمة لبن في ضروع إبله ليؤدّى منه طعام للضّيف ، فإنّهم ينحرونها له ويطعمونه من لحمها ، مسيلين منها الدّم ، بدلاً من اللّبن .

ففي هذه الأبيات يتسامى الشاعر ، من جديد ، ويتّخذ نفسه بعَنَتِ الإبداع ، متخيِّراً من الأحداث أدلّها وأبلغها . فهو يستهلُ بذكر ضيف ضاقَت عليه سبل النجاة وضلَّ سبيله ، فجعل ينابح الكلاب ليقتفي على صوتها ، أي أنّه افتقد كل وسيلة ، فلا صوتَ يسمعه ولا نورَ يُبصره ، ولا شيء سوى ظُلمةٍ مُطبقة ، متَرامية . فالأخطل تخيّر من ضياعه اللّحظة التّي أوفى منها إلى ذروة الفاجعة ، راذلاً التقرير الذي طالعنا به ، قبلاً ، والأحداث الطفيليّة التّي لم يصهرها الانفعال ويُطهِّرها ، لتنجلي وتخلُصُ في عُنصرها الأوحد الدّال على جوهرها . وأنّك لتَجدُه متوازي الإنفعال ، متُلاحقَه ، يتّبعُه في المستوى الذُروي الذي استهلَّ به ، محافظاً على طابع الواقعيّة والمثاليّة ، معاً . فالضّيف لم يستنبح مساءً ، أو في مطلع الليل ، ولا بعد الهزيع الأول منه ، بل بَعْدَ الهُدُوِّ ، أي في المرحلة التي أخْلَدَ بها الناس الى النوم ، فهدأت ضوضاؤهم وشاع الهدوءُ المُطلق في ديارهم ، فبدت في مثل سكينة الخلاءِ والقَفْر . وفي تلك اللحظة كان ، ثمة ، عَيْنٌ واحدة ساهرة ، هي عين الشاعر ، لم يَغْتَمِض جفناها ، إذ ما زال صاحبها يترقّب ويَتَنَصَّتُ لعلّه يَطرأ عليه طارىء ملهوف ، فيهرع إليه ، مُنجداً ومنقذاً . فالمعنى ما زال يتنامى ، حتى الآن ، بعضاً ببعض ، السُّورة النفسيّة للمُستنبح الضيف تُوازي السورة النفسيّة للشاعر المضيف . الأول هو في أقصى حالات الاملاق ، وفي أشد حاجة الى الضيافة ، والثاني هو في غاية الكرم ، إذ لا تنام عينه ليلاً ولا يطمئن باله ، ما دام هناك مشردون في الفيافي ، وقد ادّى الضيافة في أقصى شروطها عُسراً ، بل استحالَةً . والفخر تَوَلّد واستقصيَ من خلال هاتَين الصورتين المتناقضتين ، المتكاملتين . بل إنَّ للغلوِّ والإنفعال أبعاداً أخرى منذ البيت الأول . ذاك ان الضيف ، عندما عوى واستنبح ، لم تعاوه وتُنابحهُ الكلابُ ، َي أنَّ هذه البهائم المسيّرة بغريزة التّنبُّه واليقظة قد نامت ، بل لجّت في النّوم ولبث الشاعر ساهراً ، متيقظاً من دونها ، فكأنّما ليس لديهمٌ يشاغله غير أولئك المتردّين في الهلاك بين يدي الظّلمة والتّيه . فهو يقول : « دعوته بصوتي » وذكر صورته في هذا المقام لم يردْ في الصُّدفة ، بل إنَّ فيه بعداً فخرياً عميقاً ؛ فهو ، لشدة إيثاره للضيف وتكريمه إيّاه ، يأنف من

أن يُوقظ الكلاب لتنابحه ، فيصوِّت له بصوته ، انسانٌ يخاطب إنساناً ، ويهدّىء من روعه ويُبشِّره بالنجاة . فالأخطل يُوَفّق ، هنا ، الى مثل ما يَدأب عليه في المدح ، إلى استحضار الحادثة الأدلّ على غايته والأوفى بها .

ذاك كان أمرهما ، قبل أن يلتقيا ويتواجها ، فلمّا حضر الضيف بدت مطيّته هالكة ، مائتة من شدّة العدو والنّصب . وصورة المطيّة هي استكمال لصورة صاحبها وغلوٌ بها بالتأليف الواقعيّ المثاليّ ، إذ لا يُعقَل ، قط ، ان تكون متعافيةً ، سليمةً من دون صاحبها . ويستجمع الشاعر للطّارىء صور الهلاك كلّها ، في الليل الحالك ، في افتقاد السبيل والدّليل ، في عياء المطيّة ، وفضلاً عن ذلك كلّه ينهمر عليه مطر دائم الهطلان ، غزير ، مظلم :

فَجَاءَ ، وَقَدْ بَلَّتْ عليـــه ثيابــه   سَحَابَةُ مُسْوَدٌّ من اللَّيْـــلِ ، أَظْلَمَا

فالظلمة تملأ المدى والأفق، أيضاً، والمطر يَسِـحُّ. فهل، بعد، غير ذلك من ضيم يُضيم وهمٍّ يُقيم ! وبعد ، فهل أن ذلك الضيف قدم فعلاً ، وهل أنه كان على الحالة التي مثّله الشاعر بها ، وهل ان المطر والغيوم المتلبدة كانت تغشى السماء والأرض . قد يكون جرى بعض ذلك ، أو جرى كلّه أو لم يجرِ منه شيءٌ قط ، فالواقع الذي تَرَسّمه الشاعر هو واقع ابتداعيٌ ، مخلوق استحضره الشاعر استحضاراً بالفعل النفسيٍّ ومن خلال تحسسه بروح المظاهر التي تُوحي به وتجسّده . فاللّيل والمطر والمطيّة الهزيلة الهالكة هذه ، جميعاً ، مظاهر خارجيّة ألمّ بها الشاعر ليُحْدق بالحالة النفسيّة ويوقّعها في حدود أطرها . وفضلاً عن ذلك كلّه فإن الشاعر حَشَدَ اللّفظ ، كما حَشَدَ الصُّورة ، ليُوفي من ذلك إلى غايته كلّها إذ تراه يقول : « سحابَةُ مُسْوَدٌّ من اللّيل ، أظلما » . فهو قد استقصى معظم الألفاظ الدّالة على الظُّلمة الحالكة : « السّحابة ، الليل ، المُسْوَدّ ، أظلما » .

ومع ذلك كلّه، يُخَيّل للشاعر أنّه لم يَسْتوفِ غرضه كُلّه ، فيُوضح ما كان قد صرّح به إذ قال :

وفي لَيْلَةٍ لا يَنْبَحُ الكَلْبُ ضَيْفَهَا   إِذَا نُبِّهَ المَبْلُودُ فيها تَغَمْغَمَا

وهذا البيت يتحدَّث بأمر الكلب ظاهراً ، إلا أنه يتخذه ، ضمناً ، ذريعةً وكنايةً للتدليل على شدَّة الصَّقيع . لقد أوشك الدَّم ان يتجمّد في عروق الكلب حتى أنه لا يتحرك ولا يُريم ، وإن زُجر . فكيف بأن يُنابح الضَّيف . فالأخطل يُعبِّر عن الشيء بذاته وبسواه خاصَّة ، في نوع من التّنبُّه اليقظ لما يطالع به في العالم الماديِّ الجاثم . ولنتمثّل الواقعيّة في وصفه للكلب إذ قال : « إذا تنُبِّهَ المبلود فيها تَغَمْغَمَا » . والتغمغم هو صوت يطلقه الكلب عندما يحرن عمّا يُزجر عليه .

وقد كان أول ما تبادر إليه في ذلك أن أوقدوا له النار ليصطلي من القرِّ :

فلمَّا أَضاءَتْهُ لنا النَّارُ واصْطَلَى   أَضاءَتْ هِجَمًّا مُوحِشاً ، قَدْ تهشَّمَا

فهو قد وصل إليهم وكأنه شبح لا ملامح له في الظلمة ، فعندما أضاءته النار بدا أنّه امرؤ جافٍ ، توحّش عن النّاس ، وقد تهشّم لشدَّة ما تكبّد في تلك الليل . ووجه الفخر في هذا القول عميق . وإن لم يكن صريحاً ، ذاك أن الشاعر احتفل به وأصلاه وأمر له ، مع أنه مُتَوحِّش ، لا يُقيم في الناس ، ليُذيعَ خبره فيهم ويجازيَه عن معروفه صيتاً حسناً وشُهرةً . ولقد وقع خصائصه ، هنا ، بالفعل النفسي ، لغاية يَبلغ منها نهاية مطاف المعنى . وفي هذا البيت وجه آخر للغلوِّ ، وهو ان تلك الليلة بَلَغَتْ من الهول والصقيع ما جعلها تهشّم الإعرابيَّ المُتوحِّش الذي أقام فيها منذ عهده الأول وألِفَ ريحها وبردّها وأنواءها ، ومع ذلك ، فإنه تداعى وانهار في تلك الليلة المتفرِّدة بقساوتها . وحتى الجزئيّات لا تفوته في ذلك ليستكمل الصورة كُلّها :

فَنَبَّهتُ سَعْداً ، بَعْدَ نَوْمٍ لِطَارِقٍ   أَتَانَا ضَئِيلاً صَوْتُهُ حين سلَّما

واشارته الى تنبيه سعد ، هو امتدادٌ من قوله في المطلع أن الضيفَ طَرَأ في الهُدُوِّ ، وتنويهه بضآلة صوت الطارىء هو استكمال لصورة تهشّمه .

وهنا تَلِجُ القصيدة إلى صلب موضوعها ، إذ يقول إنهم ألبسوه وأطعموه ، وهو أمر مبذول ، ثم أمر له الشاعر بذخيرة ابنه ، أي أنه آثره عليه . فالأخطل يفضِّل الأضياف على الأبناء . ولعلَّ البيت الأخير منها يعيد لنا أجواء الفخر في في شعر ابن كلثوم . إذ يقول إنهم يَنحرون النِّياق ، إذا لم تدرّ للضيف ، فيُطعموه لحمها بدلاً من لبنها :

إذَا لَمْ تَذَدْ أَلْبَانُهَا عَنْ لُحُومِهَـــا حَلَبْنَا لَهُمْ مِنْهَا بأَسْيَافِنا دَمَـــا

* * *

ونقع على ما يُماثل ذلك في الأبيات التالية ؛ إلا أن فخره بالإبل التي تُنحَر غَلَب على وصفه للضَّيف . فهو يستهلّ بالحديث عن الإبل التي يحبسها قومه في مرابطها لمن يطرأُ في الليل من الضيفان . ويعظّم شأنها . ويقول إنّها لسمنها ترزح في مربضها ، حتى لتعجز عن النهوض . وإذا ما عمَّ الصَّقيع ، لا تجزع له لكثرة شحمها ، كما أنها أبكار غير مُلقحات ، تُبذل للموتورين كديةٍ لقَتلاهم . ويصفها في مرعاها الخِصب حيث يُطيف بها الفحل المُتبختر . ويذكر ورودها للماء وأكلها لشوك القتاد . وينهي القصيدة مُنوهاً بانتصارات التغلبيين على قيس عيلان وسليم وعامر مِمّا طيّب نفسه وأبرأها من سُقمها :

ومحبوسةٍ في الحيّ ضامِنَةِ القِـــرى إذا اللّيْلُ وافاها ، بأَشْعَثَ ساغِبِ [١]

---

١ ـ مَحْبوسة : هي إبل تُحبس في مرابضها ، وتُنحر لمن يطرأ من الضُيوف . أشعَث : أي مضنى ، مُتَفَرِّق الشّعر . ساغِب : جائع .

م : يتحدّث عن الإبل التي يحبسها قومُه في مرابضها لمن يطرأ في اللّيل من الضيفان المَنْهوكي القِوى، الجياع .

مُعَفَّرَةٍ ، لا تُنْكِرُ السَّيفَ وَسْطَهـا إذا لَمْ يكُنْ فيها مَعَسٌّ لحالِبِ ١
مرازيحُ في المأْوى ، إذا هَبَّتِ الصَّبا تُطيفُ أَوابيها بأَكْلَفَ ثالِبِ ٢
إذا اسْتَقْبَلَتْهَا الرّيحُ ، لَمْ تَنْفَتِلْ لها وإنْ أَصْبَحتْ شُهُبُ الذُّرى والغوارِبِ ٣
إذا ما الدَّمُ المُهْرَاقُ أَضْلَعَ حَمْلُـهُ ونابَ رهنَّاها بأَغْلى النَّوائبِ ٤

---

١ – المَعَسّ : المطلب .

م : يقول إنّه إذا لم يُلْف فيها لبن يُستقى للضّيف تضرب أوساطها بالسّيوف وتنحر له .

٢ – المَرازيح : جمع رازحة : الثّقيلة في مَبْركها . الأوابي : البكر التي أبت أن تُلْقح . الأكْلَف : هنا الفَحْل . الثّالِب : المُسِنّ .

م : يعظم في هذا البيت من شأن تلك الإبل المُعدة للضُّيوف ويقول إنّها لسِمنها تَرْزح في مربضها ، حتى لتعْجز عن النّهوض ، وإنّه إذ يَغْشاه الصَّقيع لا تجزع له ولا يلمُّ بها ، لكثرة شحمها . كما أنها بكر ، لأنّها أثْمن ون أصحابها هم أحرص عليها من سواها .

٣ – لَمْ تَنْفَتِل لها : أي لم تُبال بها . الغَوارِب : أطراف الأسْمنة . شُهْب : أي وهي شهب .

م : يقول إنّه إذا ما اعترتها الريح الباردة ، لم تَحْفل بها لأنّ ما يغشاها من السّمن يردُّ عنها غائلة الصَّقيع ، حتى لو تساقط الثّلج عليها فبَدت أعالي أسنمتها وأطرافها بيضاء من تراكمه عليها . وفي هذا المَعْنى يفيد الشّاعر الغُلوّ من خبرته وتجاربه بدقائق الواقع وتَنَبّهه إلى معانيها ودلالاتها . وقد كان ذلك دأبَ الجاهليّين من قبل .

٤ – أضْلَع : هنا تَعَذّر . نابَ : انحدر بالنّائبات والمَصائب .

م : يقول إنهم إذا ما تعذّر عليهم حمل دم قتيل ، وبات يهدّدهم بالويل والنّائبات . بذلوا لأصحاب دمه من تللك الإبل ، فقَبلوا بها لنَفاسَتِها وكرمها . والشاعر لا يبرح يؤلّب لتلك الإبل معاني التنظيم ، ليَتعاظم ويعظّم بني قومه بنحرهم لها للطارئين .

إذا ما بَدا بالغَيْبِ مِنْها عِصابَةٌ أَوَيْنَ لهُ مَشْيَ النِّساءِ اللَّـواغِبِ ١
يَطُفْنَ بزَيّافٍ ، كأَنَّ هـديرَهُ إذا جاوَزَ الحيزومَ ، ترْجيعُ قاصِبِ ٢
تَرُدُّ على الظِّمْءِ الطَّويلِ نِطافَهَـا إذا شَوَتِ الجَوْزاءُ وُرْقَ الجنادِبِ ٣
كأَنَّ لَهاها في بلاعيمِ جِنَّـةٍ وأَشداقَها السُّفْلى مَغـارُ الثَّعالِبِ ٤
إذا لَمْ يكُنْ إلاَّ القَتَادُ تجزَّعَـتْ مَناجِلُها أَصْلَ القَتـادِ المُكالِبِ ٥

٦ ــ الغَيْب : ما انخفض من الأرض ، أي المرعى . أوَيْنَ لَهُ : أي للفحل . أللّواغب : جمع لاغبة : الكارثة ، المُصيبة .

م : يشرع في هذا البيت بوَصْفها في مرعاها ، ويقول : فيما تكون جماعة منها في مرعاها غائبة عن حدود البصر ، فإن الفحل يرعاها وتَنْضَمُّ إليه وتلتفُّ حوله كالنّساء المُتْعبات .

٧ ــ الزّيّاف : الذي يَتَبَخْتَر في مشيه . القاصِب : هو النافخ في القَصَب .

م : يقول إنهنَّ يطفن بفحل يعدو فيهنَّ متبختراً متعاظماً في سيره ويرفع صوته مزهوّاً كالقاصب الذي ينفخ بالقصب للتّرنّم بصوته .

٨ ــ نُطافها : ما بقي في جوفها من الماء القليل . الجوْزاء : كوكب يطلع في أشدّ الحرّ .
وُرْقُ الجنادِب : الرّماديّة اللّوْن . الظّمء : ما بين الوردين .

م : يصف في هذا البيت شربها للماء ، ويقول إنها تَرِد ، فيما بين ورود وآخر ، ما بقي من ماء في جوفها ، إذ تَصْطلي الهاجرة وتكاد أن تحرق الجنادب وتُحيل لونها الرّماديّ إلى سواد .

٩ ــ لهاها : جمع لهاة وهي لحمة في سقف البلعوم . جِنّة : طائفة من الجنّ .

م : يقول إنها تغفر أفواهها فتبدو لهاها وكأنّها في بلاعيم الجنّ لعظمها ، كما أن شدقها يبدو عميقاً غائراً كمغارة الثّعالب .

١٠ ــ القَتاد : الشّوك . تَجزّعَتْ : تَكَسّرَتْ . مَناجِلُها : أنيابها . المُكالِب : الكثير الشّوك .

م : يقول إنّها تقطع بأنيابها شوك القَتاد الصُّلب ، الحادّ ، وتقتلعه من جذوره .

تُحَطِّمُهُ تَحْتَ الجليدِ فؤوسُهـــا إذا قَنَّعَ المشْتي أكُفَّ الحـــواطبِ [1]

كأنَّ عَلَيْهَا القَصْطلانيَّ مُخْمَـــلاً إذا ما اتَّقَتْ شَفَّانَهُ بالمناكِبِ [2]

فهذه الإبل هي « مَحبُوسةٌ في الحَيّ » أي أنها مَوْقوفة لمن يطرأ للضيفان ، إذ أن أصحابها لا يزالون يُعدّون العدّةَ لهذا الأمْر ويَتَحسَّبون له ، فهي تَضْمَنُ لهم القرى ، تَنْحر لكل غريب ، حتى ولو وافى ليلاً ، إذا لم يكن لها من اللَّبن ما يفي بهذا الغرض . والمعنى مكرور عن الأبْيات السَّابقة ، ومُمَهِّد لما يليه من معانٍ يُعَظِّم فيها تلك الابل بقوله :

مرازيح في المأْوى ، إذا هَبَّتِ الصَّبا تُطِيفُ أَوَابِيهَا بأَكْلَفَ ثَـــالِـــبِ

وذكر المأوى في هذا المقام لم يَرِدْ في الصَّدفة والاتِّفاق ، بل للتَّدليل على أنها لا تُزْجى إلى المرعى لتغتذي بما يتيَسَّر لها ، بل تُودَع في مَأوى ويُحْمل إليها علفها ، تعزيزاً لها بحسن الغذاء . فهي ابل مُتْرفة مُنَعَّمة لا تتكبَّد مَشقَّة السَّيْر ولا شظف المرعى ، فتسمن وترقُّ لحومها وتَطيبُ لأكلها ، وهذا ما ألمح إليه بكلمة « مرازيح » أي أنها ترزح تَحْت وطأة لحمها وشحمها . وإلى الآن أدَّى لنا الشَّاعر ثلاثة خصائص رئيسيَّة لتلك الابل ، وهي مَوْضُوعُ فخره بهـا : احتِبَاسُهَا في الحَيِّ ، وقيامها في المأوى وليس في العراء، وثقل لحمها عليها، ومن

---

١ ــ الفؤوس : الأضراس . قَنّع : غَطّى .

م : يستكمل معنى البيت السّابق ويقول إنّه إذا ما غشي الجليد القتاد وعجزت أيدي الحاطبات عن ارتياده ، فإنّ تلك النّياق تحطّمه بأضراسها وتَطْحَنُه وتقوته .

٢ ــ القَصْطلانيّ : ثوب منسوب إلى بلد في الإندلس . الشّفّان : الرّيح الباردة .

م : يقول إنها لا تجزع من البرد الذي يعترضها بريحه ، وهي تُحَطّم الجليد لأن أوبارها كثيفة كأنّها أثواب من المخمل القَصْطلاني .

هذه الخصائص الثلاث نستطيع خاصّة رابعة ، وهي أنها تُعْلَفُ ولا تَرعى . ووجه الفخر في ذلك كلّه أنهم يؤدّون للضّيف أفضل ما عندهم ، يتعهّدونه بأنفُسهم ، مُتَفرّغين لذلك كي لا تّضاهى ضِيَافتُهم . ولعلّ للفظة « مرازيح » مضموناً آخر ، إذا قُرنتْ بهبوب الصّبا ، أي أنّها لا تَحفل بالرّيح ، مهما قست بالصّقيع ، فلا تَجْفل ، ولا تتململ لأن لحمها الكثيف يُدْفئُها عن الصّقيع . وفضلاً عن ذلك فهي من أبكار الابل التي ما زالت تأبى مواقعة الفَحْل لها ، وذلك أسلم وأصحّ لها لان الحمل والوَضْع يُضعفانها ويُفسدان من طراوة لحمها . والأبكار هي أغلى الابل ، أي أنها جَمَعَتْ غاية ما يَجتمع في الأبل من تَرَفٍ وإصالة . ويُكرّر المعنى ذاته ويُغالي فيه إذ يقول :

إذا اسْتَقْبَلَتْهَا الرِّيحُ لَمْ تَنْفَتِلْ لهــا وإن أَصْبَحَتْ شَهْبَ الذُّرى والغوار ب

والغلوّ تأدّى من افتراض تَسَاقُطِ الثُلوج عَلَيْهَا ، وهو افتراض نظريّ ، إذ لَوْ تساقَطَ الثّلج عَلَيْها ، فعلاً ، لانتقض المعنى وسفح ذاتَه بذاته . فكيف تترك في العراءِ ، حتّى يكسوها الثّلج ، وقد كان يَفْخر ، منْذُ حين أنّها تُحْبَس في مأواها وتُعْلَف ، ويُضَنّ بها عن المرعى . ففي ذكره للمأوى ألَمّ بواقعٍ فعليّ أو يمكن أن يكون فعليّاً ، أما في التّوسُّل بالثّلج على أسمنتها وأطرافها ، فقد توسّل مشهداً افتراضيّاً ، تمثيليّاً وحسب ، وإذا لم نتّخذه هذا المأخذ أزرى بالإبل فيما هو يُؤدّى لتعزيزها . ومهما يكن ، فإنّه يُوفي إلى ذروة ذلك المعنى بقوله :

إذا ما الدَّم المهــراقُ أَضْلَــع حمله ونَابَ رَهَنَّاهــا بأَغلى النَّــوائب

فهي لنفاستها تُؤدّى بها الدّيات وتُباءُ الثّاراتُ، فيتقبّلها الموتورون عن دماء القتلى . أي أنّهم يَفْتَدُون بها الأرْواح ، فتفدى ؛ هكذا يَحْشد الشّاعر لها كلّ تأويل ويفيدُ من كل تقليد حتى يَخْلص إلى تمثيلها وكأنّها أفضل الابل اطلاقاً . والفخر بيّن في ذلك كُلّه لأنّها ليست ابل تجارة ، بل ضيافة .

إلا أن الصُّورة تتعدَّل ، إثرئذ ، اذ يعرض لها في مرعاها ، كأنّما يناقض ما تقدَّم به ، قبلاً ، إذ ذكر احتباسها في الحيِّ وفي مأواها . وقد يُخيَّل أنه إنساقَ إلى قليل أَوْ كثير من الاستطراد ، إذ نوَّه بالتفافها حول الفحل الّذي يُصوِّت كالقاصب ، والتّصويت هنا يُعزِّز الفُحولَةَ ، بل إنَّه ليَصْدُر عنْها ، فكيف نوفّق بين هذا القول وزعمه ، سابقاً ، أنّها من الأواني الأبكار ؟ وأيَّة صلة لذلك كُلّه بالفخر ؟ نُرَجّح في ذلك ان الشّاعر انهار لطفيليَّات الواقع وانساق به لاستكمال دراسته وعَرْضه ، منزعجاً من المضمون الأصيل . وقد نُوقِنُ من ذلك إذ يُشيرُ إلى الظّمء الطّويل الّذي يقسرها على أن تجتزىء بنطافها أي باستعادة بقيَّة الماء في جوفها . فهل ان الأبل الّتي تُسَمَّنُ وتَرْزَحُ دُونَ ثقْلِهَا وتُحْبس للضيفان تساق إلى الغَيْب أي إلى الأمكنة النّائية الّتي لا تُرَى ، وتترك لفحلها ، حتى يلْفحها الحرُّ الشّديد « الّذي تشوي به الجَوْزاءُ وُرْقَ الجنادب » ؟ نقول في مثل ذلك أن نزعة الوصف للوصف طغت، هنا، فيما كان الشّاعر يَصْدُر ، قبلاً ، عن نزعة الوصف للفخر ، مُفَكّكاً الوحدة العضويَّة ، خارجاً على مَضْمونِه ، بل مُنْتقضاً عليه .

ولعلّه عاد إلى جادة الموضوع منذ قوله :

كَأَنَّ لهاها في بلاعيم جُنَّـــــــةٍ وأَشْدَاقَها السُّفْلى مغـارَ الثَّعَالِبِ

وهذا البيت يلج بها في الأجواء الملحميَّة الخارقة إذ أنها لعظم هاماتها وقاماتها تبْدو بلاعيمها كبلاعيم الجانِّ وأَشداقُها كالمغاور . ويعود بنا إلى استكمال مَعَاني الأبيات الأولى الحاشدة ، حيث تولاّها بالانفعال والفخر اللّذين ترجما عن ذاتيهما بالصورة المثاليَّة ، المُطْلَقَة . وليست لهاها ، وحيدة ، هي القائمة في مثل بلاعيم الجانّ ، بل أن لها أضراساً شبيهة بتلك البلاعيم واللّهى إذ تراه تقتلع بها القتاد من جذوره ، حتى ولو كساه الجليد ونفرت الحاطبات عنه . وهذا المشهد هو مَعْزول عن مشاهد الأبيات الأولى ، خصّه بالدّلالة على قوّتها وعظم هاماتها . وقد كان

القتاد أشدّ رمز للقسوة والحدّة بشوكه حتى قيل « ودونَ ذلك خرط القتاد » والتهام تلك الابل له يجعل أشداقها كالرّحى الهائلة . الا أنّ ذكره ، مع ذلك ، ينبو وينشز ، إذ كيف تكون تلك الابل منعّمة ، تُعلَفُ للسِّمن ، ثم تراها تأكل القتاد المكسوّ بالثلج والصّقيع . ! ذاك أنالأخطل يتخذ المعنى بذاته ، هنا ، ومستقلاً عمّا دونه ، فتضطهد المعاني بعضها بعضا ، ويُسفّهُ أحدُها الآخر . وأيا ما كانت الحال فإنّ له فطنةً في تلمّس المشهد النّائي بما لا قبل لسواه به .

* * * * *

الفَصْلُ الرَّابِع

الوَصْف

١ ــ الباب الأول : وصف الخمرة .

٢ ــ الباب الثّاني : الطَّلل والأحبَّة .

٣ ــ الباب الثَّالث : النَّاقة والحمار الوحشي .

٤ ــ الباب الرَّابع : النَّاقة والثَّور الوحشي والصيَّادون .

٥ ــ الباب الخامس : سائر موضوعات وصفه .

البـــاب الأَوَّل

وصف الخمرة

إثر الدعوة الاسلامية خرج العرب من الجزيرة وافتتحوا البلاد الّتي كانت تجاورهم وقوّضوا امبراطوريتي الفرس والروم وأفادوا منهما ، بالاضافة إلى العادات والتقاليد ، كثيراً من الأموال الّتي جعلتهم يقضون حياة ناعمة ، مُترفةً ، ويُسرفون في اللهو والمجون ، ويُقبلون على الشرب والغناء بالرغم من النواهي الدينيّة . ولا مجال للاطالة بوصف معالم الحضارة الجديدة ، لان ذلك يقتضي فصولاً طويلة ، متعددة ، وانما نلمح إلى أن حياة الامويين اختلفت غاية الاختلاف عن حياة الجاهليين ، اذ كَثُرَ العمران وفاضت الأموال ، فأسرفوا في اقتناء الخدم والجواري والقيان متفرغين إلى العبث واللهو والقصف . ولقد كان حريّاً أن تولّد البيئة الجديدة أدباً جديداً . إلا أن الأمويين لبثوا غالباً يقتفون آثار الجاهليين ، حتّى اننا نكاد لا نشعر باختلاف البيئة والنفسية والادب بين العصرين . ومن اهم أسباب التبَعيَّة والتقليد في الادب الاموي ، إذ أنَّ ذوي السلطة طفقوا يُذكون الخلافات القبلية القديمة بين المسلمين ، ونشطت الحركة السياسية في الادب ، واخذ الادباء ينْضوُون، كلٌّ إلى حزب من الأحزاب ، يدعو دعوته ويهجو أعداءه، مستدراً بذلك الاموال الطائلة والجاه الكبير . ولقد قامت الأهاجي بين جرير والأخطل والفرزدق يناقض أحدهم الآخر ، مُعتمدين على معرفة متوغّلة بتاريخ القبائل ، وماضي الايام والحروب بينها . وذلك جميعاً ، جعل الشاعر الاموي يعيش في بيئة ، يمكن أن ندعوها البيئة الذهنية ، إذا جاز التعبير ، وهي بيئة كان الشاعر يتَمثّلها في خاطره ويحفظها في ذاكرته ، دون أن يحياها في واقعه . وغدا الشعر

بذلك سجلاً للتنافس والمباراة ، وامعاناً في تأثر الأقدمين ، حتى أوشكت أن تنعدم التجربة الذاتية ، والواقع الخاص . فالطلل الذي كان عنواناً للأدب الجاهلي لبث يُستَهَل به في مطلع القصيدة الاموية ، وكذلك سائر المواضيع التي كان يُلم بها الشاعر الجاهلي ، لبثت تتردد وتتكرر في سائر القصائد الاموية . أما الاسلوب فلم يكد يتغيَّر ، بل ظلت تسيطر عليه نزعة الاستطراد والمادية والتناسخ . ولم تقم تجارب شعرية جديدة إلا في فلذات من القصائد ، خاصة قصائد الغزل الماجن وبعض الأوصاف الوجدانية التي خلعها ذو الرمة على الاوصاف الجاهلية القديمة .

وهكذا ، يتحقق لنا أن الشعر الأموي ظلّ امتداداً للشعر الجاهلي وتكراراً له ، وان البيئة الجديدة بالرغم من اختلافها عن البيئة القديمة ، لم تظهر معالمها واضحة في ذلك الشعر . ولعل الحياة السياسية كانت أكثر تأثيراً من سواها ، إلا أنها لم تؤثر في طبيعة الاسلوب الأدبي أي في روح القصيدة التي لبثت تتكرر وتردد بالمعاني والصور ، وربما بالألفاظ الجاهلية .

الخمرة في الشعر الأموي : حرّم الاسلام الخمرة دون أن يتحرَّم منها المسلمون ، ولبث ذوو السلطة منهم ، بالاضافة إلى سائر الناس يعاقرونها سراً وعلانية . ولقد كان يزيد بن معاوية أول من جاهر بشربها ، اذ جهر بمنادمته لبعض الشعراء والمغنين والقيان عليها ، ولطالما شربها مع صديقه وشاعره الأخطل . ولعل الاخطل كان اهم رائد لشعر الخمرة في العصر الاموي ، لكثرة ما أدمنها في حياته ، ولشدة تردُّده بذكرها في شعره .

الخمرة في شعر الأخطل : بالرغم من ان الاخطل ادمن الخمرة ، فانه لم يعرض لها بقصيدة مستقلة ، الا في فلذات نادرة . وأهم شعره فيها ورد من خلال قصائده المدحية ، يستطرد إليها ، غالباً ، اذ يشرع بوصف عذابه وضياعه ، عندما يفارقه الأحبة ، فيتَشبَّه بالسكران الذي افتَقد وعيه . وفيما يلي نموذج لذلك النوع من الشعر الخمري الذي يذكرنا بالقصيدة الجاهلية في انتقاله من موضوع إلى آخر ، متوسلاً ببعض الاسباب الواهية العارضة . فهو يبتدىء القصيدة التي يمدح بها خالد ابن عبد الله بن أسيد بذكر الفراق ، ثم ينتقل إلى وصف الخمرة إذ يقول :

كأَنّي غ اة انصعن للبين ، مُسلَـمٌ بضربة عنق ، او غـويٌّ معــذَّل

: صريــع مدام يرفع الشَّرْبُ رأسه ليحيا وقد ماتت عظــام ومَفصِل

ومن ثم يتجاوز إلى وصف السكران ، ذاكراً انحلاله وتلاشيه بين صحبه الذين يعاقر الخمرة معهم ، وينتهي إلى وصف القُرَب السوداء الشبيهة بالزنوج ، كما أنه يتحدث عن شعاع الخمرة ودبيبها والشواء ، وما إلى ذلك من أوصاف تقليدية .

الخمرة ومجلسها :

كأَنّي ، غداةَ انصعن للبين ، مُسلَمٌ بضربة عنقٍ ، او غَوِيٌّ معــذَّلُ ١

صريــعُ مُدامٍ ، يرفع الشَّرب رأسَهُ ليحيا ، وقد ماتت عظَام ومَفصِل ٢

نُهاديه أَحيــاناً ، وحينــاً نجرّه ، وما كاد ، الا بالحُشاشة ، يعقلُ ،٣

إذا رفعوا عظماً ، تحامل صــدره ؛ وآخر ، ممــا نــال منها ، مُخبَّل

شربتُ ؛ ولاقاني ، لحــلّ أَليَّــتي ، قِطارٌ تَرَوّى من فلسطين مُثقَــلُ ،٤

عليه من المِعزى مُسوكٌ رَوِيّــــةٌ مُملأّةٌ ، يُعــلى بها وتُعــدَّل . ٥

فقلتُ : اصبَحوني ؛ لا ابا لابيكم ! وما وضعوا الأَثقالَ إلاَّ لِيَفْعَلُــوا .

١ ـــ مسلم : مستكين لفراقهن . بضربة عنق : أي كمن ضربت عنقه . الغوي : من يلام على فعله .

٢ ـــ الشرب ج الشارب : المفصل : مكان انفصال بعض الاعضاء من بعض . وفي رواية : مفصل : (بكسر الميم) : اللسان .

٣ ـــ نهاديه : نرفعه قليلا ، فيعتمد ، من ضعفه، على هذا وعلى هذا، ويميل بينهما . الحشاشة . بقية الرمق .

٤ ـــ الالية : اليمين . القطار : عدد من الابل متتابعة على نسق واحد .

٥ ـــ مسوك : ج مسوك : الجلد ، ويعني به الزق . روية : ضخام .

أناخُوا ، فجروا شاصِياتٍ كأَنَّهـا رجالٌ من السودانِ لم يَتَسَربلُوا ، ١
وجاؤوا ببيسانيَّـة ، هي بعـدَ ما يَعُلُّ بها الساقي ، الذُ وأَسهـلُ ، ٢
فَصَبُّوا عُقـاراً في إنـاءٍ كأَنَّهـا ، إذا لَمحوها ، جُذوةٌ تتأَكَّـلُ .
تَمرُّ بها الايدي سنيحاً وبارحـاً ، وتوضع باللَّهمَّ حيٍّ ، وتُحمَـلُ ؛٣
وتوقف ، احياناً ، فيفصِلُ بيننـا غِناءُ مغنٍّ ، او شِواءٌ مُـرعَبَـلُ ٤
فلذَّت لِمُرتـاحٍ ، وطابت لشاربٍ ، وراجعني منها مِراحٌ وأَخيَـلُ ٥
فما لَبَّثَتنا نشوةٌ ، لحقـت بنـا توابعها ، مما نُعَـلّ ونُنهَـلُ ٦
تدبّ دبيبـاً في العظـام ، كأَنهُ دبيبُ نِمال في نقاً يتهيَّـلُ ٧
فقلت : اقتلوها عنكم بمزاجهـا ، فأَطيبْ بها مقتولةً حين تُقْتَـلُ !٨
ربت ، وربا في حَجرها ابنُ مدينةٍ يظل على مِسحاته يتـركَّـلُ ،٩

١ ــ شاصيات : شصا برجليه : رفعها ، اراد الزقاق المرتفعات القوائم من امتلائها .

٢ ــ بيسانية : نسبة إلى بيسان بناحية الاردن . يعل : من العلل : الشرب الثاني .

٣ ــ السنيح : الذي يأتي من جهة اليمين . البارح : الذي يأتي من اليسار . وتوضع . . . : يسمى عليها بذكر الله في رفعها ووضعها .

٤ ــ رعبل اللحم : قطعه لتصل اليه النار فتنضجه ، فهو مرعبل أي مشرح .

٥ ــ المراح : من المرح : النشاط . الاخيل : من الخيلاء : الكبر .

٦ ــ النهل الشرب الاول .

٧ ــ النقا : ما ارتفع من الرمل . يتهيل : يتحدر .

٨ ــ قتل الخمرة : مزجها بالماء ، فازال ذلك حدتها .

٩ ــ ربت : الضمير للخمرة اراد بها المكرمة . ربا في حجرها : نشأ في كنفها . ابن مدينة : خادم ، والمدينة : الامة : ويقال : ابن مدينتها وابن بجدتها : أي عالم بها . المسحاة الآلة التي تسحى بها الارض أي تسوى . يتركل : يدفع برجليه .

إذا خاف من نجم عليها ظَمــاءةً ، أَدبَّ اليهــا جدولاً يَتَسَلْسَــــلُ .[١]

المشهد الاول في تلك الابيات ، هو مشهد السكران الذي تساقطت أعضاؤه وطفق صحبه يُهادونه . وهو لا يُستنفد في بيت واحد بل يمتد إلى ثلاث أبيات ، تشكِّل شبه وحدة خاصة . وقد اعتمد فيها الشاعر على الانتقال من الواقع العادي الشائع معلّلاً ، مبالغاً ، حتّى خلع عليه هالة توحي بالجدّة أو توهم بها . فهو لا يقول إن الشارب سكران بل يخطف إلى ذلك بصورة قاطبة ، فيمثله برجل صريع لا يتمالك نفسه . وهو يُنعم ، أيضاً ، بذلك ، حتّى يغدو الخدر موتاً («وقد ماتت عظام ومفصل» ان التعبير عن النشوة بالموت يجاري إسلوب المبالغة الذي اسرف فيه الجاهليُّون ، كما أسلفنا ، إلا أنه يختلف عنهم في أنه يعبِّر تعبيراً مباشراً عن حالة في نفس الأخطل . فالموت هو استغراق في الشعور بلذة الخمرة ، أو بالأحرى ، انه انحلال في ذلك الشعور . وقد حرص الشاعر على أن يضعنا في قلب الواقع ، فلم يكتف بأن يذكر موت الشارب واحتضاره بين يدي صحبه ، بل مثل ذلك تمثيلا في مشهد واقعي متحرِّك ، منقول عن الملاحظة الحقيقية الشاخصة . فهو يذكر الصحب الذين يُهادونه بين أيديهم ، وينحدر إلى تفصيل المشهد والتدقيق فيه ، فيتحدث عن اعضائه ، كالصدر والعظام ؛ وهذه الملاحظات هي ضرورية لانها تُضفي على المشهد روح الواقعية والصدق . فالاخطل اتخذ هذا المعنى مما كان شائعاً في الشعر القديم من تأثير نشوة الخمر ، ومما أفاده من تجربته الخاصة عندما كان يُتعتِعُهُ السكر ، إلا أنه لم يشِر إلى ذلك إشارة عابرة ذهنية ، بل ترسَّمه بوضوح عبر مشهد واقعي حيّ . وهذه الميزة هي من أَهم مميزات الأخطل بالنسبة لمن سبقه من شعراء . لقد اتخذ المعاني التي كانوا ألموا بها وعبر عنها من خلال تجربته الخاصة ، أو فصلها وأسرف في ذكر دقائقها فكأن تجديده فيها ، كان من خلال التفصيل والتجزيء والتدقيق أكثر مما كان من خلال الابتكار والتنبه إلى الرعشات النفسية الهاربة المعقدة . وهو في ذلك يمثل نموذجاً

١ ــ إذا خاف . . . : عليها العطش من نجوم الصيف . الجدول : النهر الصغير .

لسائر الشعراء الامويين ، وربما الشعراء العباسيين أيضاً . لقد عجز هؤلاء عن ارتياد ظلمة الشعور ، فالتفتوا إلى المعاني والصور التي سلفت ، فأخذوا يُبدعون لها التآويل الجديدة ويدقّقُون في التفاصيل واللُمح ، معتقدين أنهم جددوا بذلك وجاروا القدماء أو تقدموا عليهم .

ومهما يكن من أمر ، فان الاخطل يتوكّأ على المعاني السالفة ، مُستعيراً الصور الشائعة المقررة . فها هو يصف القرب بقوله :

أَناخُوا فجرُّوا شاصياتٍ كأَنَّهـا رجالٌ من السُودانِ لم يَتَسَربَلُوا

وهذا التشبيه ألم به شاعر آخر اذ قال :

تَضَمَّنها زقٌّ أَعبُّ كـأَنَّـه صريعٌ من السودان ذو شعرٍ جعدي

فالبيتان متقاربان أو بالأحرى منسوخ أحدهما عن الآخر . انّ وصف الاخطل للسكران كان معروفاً ، لكنه بالغ فيه وخلع عليه من ذاته ، فبدا جديداً كثير الارتعاش والحركة . اما وصفه للقربَ فقد كان دَنياً ، لا خيال أو تجربة فيه ، اذ اكتفى بتقرير الشَبَه ، كأنَّ حَدَقَتَه حَدَقَة مجْهر تعكس الاشياء بحقيقة واقعها دون أن تُنْقِصَ منها أو تزيد عليها ، أي دون أن تحوّلها إلى واقع فنّي .

الا ان فضيلة الاخطل تظهر بأجلى صورها في تلك القدرة العجيبة على توزيع الحروف وتنويعها ، وتقدير مواضعها باسلوب قاتم حيٍّ يشتَدُّ تأثيره بقدر ما يشتد اختفاؤه . فالأخطل يُوَفَّقُ خلال شعره الخمري إلى توحيد النغم الخارجي في الالفاظ والحروف مع النغم الداخلي الذي تتضوع منه الحالة في ذهولها . ونحن نشعر بهذا الشجو دون أن نقوى على تعيينه وتمثيله . ولعله ينبعث من الياء في « صريع » والالف في « مدام » وما إلى ذلك من حروف موقعة بصورة مهموسة ، غامضة ، تغمر النفس بالايقاع الأليف الذي يؤثّر غاية التأثير في بثِّ التجربة . فالاخطل لم يكن يرتجل الشعر بل يتَنخَّله ، لأن ما نشهد فيه من غنائية وئيدة يخالف الغنائية الصخابة التي

تطالعنا في سائر قصائد الشعر العربي . وهو من هذا القبيل يدنو من النابغة بتلك القدرة العجيبة على توحيد النغم مع الحالة التي تفيض بها النفس أو تعانيها . الا انه في بعض الاحيان ، كان يُخطىء التوقيع . فيختل النغم ويحبو دون شجْوٍ أو ذهول . فها هو يقول « نهاديه أحياناً وحيناً نجرُّه » . فالجيم التي تسبقها النون وتلحق بها الراء المكرَّرة في اللفظة « نجرُّه » تنشز عن النغم المتآلف الذي فاضت به القصيدة . ومهما يكن ، فإن هذه اللَّفظة هي لفظة نثرية ، تدل على أن جناحَي الشاعر كانا يهيضان في أحيان كثيرة .

إلا أن الاخطل ، في ذلك جميعاً ، يُحسن الانتقال والايجاز في وصفه ، مبتعداً عن التفاصيل التي تحوّله إلى أقصوصة نثرية . فهو يخطر بالاشياء أو يُومض اليها ، خاصة في قوله بعد أن ذكر الابل :

فقُلتُ اصبَحوني لا أَبـاً لأَبيكُـمُ   وما وَضَعُوا الأَثقال إلاَّ ليَفْعَلـوا

فكلِمتَا « ما وإلاَّ » اختصرتا مراحل كثيرة من السرْد النثري وأبقتا على الوحدة الموضوعية . وقد بلغ ذروة هذه الميزة الشعرية بقوله « أناخوا » . فهذه اللفظة تحل عقدة القصة التي يرويها .

شعاع الحمرة : أما وصفه لشعاع الحمرة فهو مطروق ، متداول . ألمّ به الأعشى وعمرو بن كلثوم ، فضلاً عن سائر الجاهليين . قال الاخطل :

فَصَبُّوا عُقـاراً في إناءٍ كأَنَّهـا   إذا لَمَحُوها جـذوةٌ تتأَكَّـلُ

وقال عمرو بن كلثوم :

أَلا هبّي بصَحْنِكِ فاصبَحينـا   ولا تُبْقي خُمُورَ الأَنْدَرينـا
مُشَعْشَعَةٌ كأَنَّ الحُصَّ فيهـا   إذا ما الماءُ خَالطَها سَخِينـا

وقال أيضاً الأعشى :

كأَن شعاعَ قَرْنِ الشمْسِ فيهــا إذا ما فضَّ عــن فيهـا الخَتـاما

فذاك يشبهها بالشعاع والآخر بالشمس ، أما الاخطل فيشبِّهها بالجذوة . والآية في هذا المعنى أن الأخطل لم يكتفِ بأن يقارن بين شعاع الخمرة أو الشمس أو شعاعها ، بل تعدّى ذلك وفقاً لسنَّة المبالغة ، وجعل شعاع الخمرة يتحول إلى نار ، بل إلى جذوة تتأكل . ولعل تأكل الجذوة ارتقى بالمبالغة إلى ذروتها . وهكذا نتحقق ، مرة أخرى ، أن فضيلة الأخطل في شعره ، كانت فضيلة مبالغة وارتفاع على هام الشعراء السابقين . فنحن نكاد لا نعثر على معنى في شعره ، حتى يذكرنا بمعنى ألممنا به قبل . ها كه يقول :

تمرُّ بها الأَيدي سنيحاً وَبـارحـاً وَتُوضَعُ باللهمّ حيّ وَتُحْمَـلُ

وهذا المعنى سلف قبلاً في شعر الأعشى إذ قال :

وقابلهـا الريح في دِنِّهـا وصلى عـلى دنهـا وارْتَسَـمْ

لا شك في أن هذه المعاني تعتمد الأسلوب غير المباشر للدلالة على شدة هيام الشاعر بالخمرة ، فهو لا يدمن شربها ولا يحبُّها وحسب ، بل يُقدّسها . إلا أن التجلّة لم تكن في نفسه بقدر ما كانت في طبيعة التقليد واقتفاء معاني الآخرين ، وتَرسُّم اسلوبهم . والأخطل لم يخرج عن عمود التقليد ، حتى في حديثه عن الشواء ومجلس الخمرة . وقصائد أمرىء القيس تحفل بوصف مثل هذا المشهد ، كما ان طرفة ألمَّ بذكر مجلس اللّهو في معلقته ، بالاضافة إلى الأعشى الذي أفاض في وصفه .

وعلى الجملة ، فان المعاني التي تَشْخصُ في هذه القصيدة جميعاً ، وهي معانٍ مُقرَّرة ، مبتذلة في تقليد أدب الخمرة . فالخيلاء التي يتحدث عنها بقوله :

« وراجَعَني منها مراح وأخيلُ » . ان تلك الخيلاء كان قد أنهكها التداول في شعر الخمرة . قال حسان بن ثابت :

ونشربها فتتركنا ملــــوكـــاً وأُسداً ما يُنَهْنِهنـــا اللقـــاءُ

وقال المُنخَّل اليَشْكري :

فــإذا شَرْبــتُ فـــإنـنـــي ربُّ الخــورنـــق والسديــرْ

وكذلك في الامرُ في وصفه لدبيب الخمرة . قال الأعشى :

تَـــدِبُّ لهـــا فتــرة في العِظــام وَيغشى الذُؤابـــةَ افتـــارُهــا

وقال الأخطل :

تَدِبُّ دبيْبـــاً في العظــام كأنَّه دبيبُ نمــالٍ في نقىً يَتَهَيَّـــلُ

فالأخطل لم يأت بجديد سوى أنه نقله من العَصب الداخلي إلى حدقة العين ، إذ جعل الخَدَر يجري في أعصابه ، كما يجري النمل على الرمل . والصورة لا تختلف عن الصور الجاهلية المادية المُسرفة خاصة في تمثيل الشعور الداخلي بمشهد حسي .

وبعد فما قيمة شعر الاخطل، خلال هذه القصيدة، وقد تحققنا ان معانيه، جميعاً، منقولةمستفادة من المعاني التقليدية مع قليل من التجزيء والتفصيل ؟. الواقع أن الاخطل ليس شاعراً مُبْتكراً في الخمرة ، إذ عرض لوصفها ، كما عرض للطلل والثور أو البقرة الوحشية بالاضافة إلى مشاهد الصيد ، كما نفذت اليه من الجاهليين . ولئن كانت معاني الخمرة مقيَّدة مقرَّرة فيها ، كالشعاع والدبيب والقرب وما أشبه ، فقد كان ثمة وجه آخر للتجديد ، ينبعث من النفس ، ومن المضاعفات الوجدانية التي تَتعقَّد فيها وتوري بها حساً جديداً إزاء الأشياء القديمة . النفس هي مصدر التجديد وليست المعاني التي يتصاعد أحدها على الآخر ، حتى تُوفي بها المبالغة في النهاية إلى الاسطورة . ان الحب كالخمرة عرف منذ الازل ، الا ان الشعراء ما برحوا يَجدِّدون بمعانيه وصوَره ، مستمدِّين ذلك مما يتعقَّد في نفوسهم من واقع خاص يخلع على المظاهر العادية اللامبالية ، واقعاً جديداً ، حيّاً . ان الشاعر الذي ترفده

التجربة من الداخل ، يتولى المعاني القديمة الهَرِمة ، ويُضفي عليها الظلال الشعورية التي تنبعث من نفسه ، حتى يتحول المعنى القديم إلى معنى آخر ، ينبض بعَصبٍ جديد. لقد تولى الاخطل الخمرة ، خلال هذه القصيدة من الخارج ، نظر إلى شكلها وإلى المظهر الذي يبدو فيه من يشربها ، فلبث شعره الخمري شعرا وصفياً ، يجمع معادلة الاشياء كما تظهر للعين ، مع قليل أو كثير من المبالغة ، دون أن نلمح خلال تلك التجارب وجه الانسان الحي ، وحسَّه العفوي ، وما يرتعش في نفسه من حالات وجدانية خاصة به ، لكنها ، في الآن ذاته ، رمز لما يعتمل في نفوس الآخرين وضمائرهم .

والقصيدة التي ألممنا بالحديث عنها ، تتَّصف في روح اسلوبها بما اتصف به الجاهليون من تفكك والتفات إلى الأجزاء بصورة مستقلة دون توليد أو صيرورة من معنى إلى آخر . فهو يجمع فلذات من المعاني وليس يلم بقضية من القضايا . وذلك ما نتحقَّقه في الأدب الجاهلي ، اذ كان الشاعر يقدر المعنى بما له من جمال خاص أو بما يشتمل عليه من مبالغة خاصة ، غير ملتفت إلى ما سبقه ، أو ما يليه .

افادة الاخطل من واقع الحضارة الجديدة ــ الميتة الجاهلية : عرضنا فيما سبق إلى فلذات من المعاني القديمة المسرفة ، وفيما يلي نلم بأبيات أخرى تتمازج فيها المعاني القديمة والمعاني الجديدة المستفادة من واقع الدين الجديد أو الحضارة الجديدة . فهو يقول :

شربنا ، فمتنا ميتـــــةً جاهليّةً ، مضى أَهلُها لم يعرفوا ما مُحَمَّدُ ، [١]
ثلاثةَ أيــامٍ ، فلمَّـا تنبَّهـــت حُشاشاتُ أَنفاس أَتتنــــا تَردَّدُ ، [٢]

---

١ ــ ميتة جاهلية : هي ميتة السكر في زمن لم تكن الخمرة محرمة فيه .
٢ ــ الحشاشة : بقية الرمق .

حيينا حيــاةً لم تكن من قيــــامةٍ … علينا ، ولا حَشْرٍ ، أَتاناهُ موعِدُ ؛[١]

حيَاةَ مِراضٍ حولهم ، بعدما صحوا … من الناس شتَّى عــاذلون وعُــوَّدُ

وقلنا لِساقينا : عليك ، فعُــد بنــا … إلى مثلها بالأَمس ، فالعود أَحمدُ !

فجاءَ بهـــا ، كأَنَّما في إنــــائـــه … بها الكوكب المِرِّيخ تصفوونُزْبدُ ،[٢]

تفوحُ بماءٍ يُشبه الطيبَ طيبُـــهُ ، … إذا ما تعاطت كأْسَها من يدٍ يدُ ،

تُميت ، وتحيي بعد موت؛وموتُها … لذيذ ، ومحياهــا ألذُّ وأَحمــدُ ![٣]

لقدمات الشاعر على دين الجاهلية عندما سكر ، ولبثت ميتته ثلاثة أيام ، استعاد بعدها الحياة ، لا حياة حشر بل حياة بين الناس من عاذلين ومن عائدين . بعد ذلك نراه يطلب من ساقيه أن يأتيه بالخمرة ، ليعود به إلى حالة الامس ، فأتاه الساقي بكأس مشعٍّ طيب . أما في النهاية ، فإنه يذكر أن الخمرة لذيذة أأحيت أم أماتت .

تحليل القصيدة : تتردد في هذه القصيدة معان متعددة ، منها الجاهلي كالشّعاع والطيب ومنها الجديد المستفاد من واقع الدين الجديد كالحشر والقيامة وما أشبه . ويحسن بنا أن نلتفت قبل كل شيء إلى الوحدة التي تجمع بين الابيات في القصيدة جميعاً . إنّ الأخطل يستهل قصيدته بذكر الميتة الجاهلية وينثني إلى البعث ، ثم يذكر ميتته الجديدة . إلا أن هذه الوحدة ليست وحدة شعرية فنية مباشرة بل وحدة قصصية إذا جاز التعبير . والقصة في الخمرة عرفت في الجاهلية كسائر المعاني وخاصة في شعر

١ ــ أتاناه : عداه الأخطل إلى مفعولين ، وفي رواية : أتى به . أو أتى فيه .

٢ ــ المريخ شبهها بالمريخ ، لأن نوره يضرب إلى الحمرة .

٣ ــ واحمد : في روايه : وأمجد .

الأعشى وامرىء القيس . الا ان القصة التي ألمّ بها الأخطل تختلف عنها ، لأنها تجري على تحريم الخمرة الذي جاء به النبي محمد ، وعلى النشر حيث يعاقب المذنبون ويكافأ الصالحون . وهذه الناحية تظهر التجديد في خمرة الاخطل ، إذ أنه أدخل إلى معادلة شعره معاني جديدة لم يكن للجاهلي قِبَلٌ بها . ولعله في ذلك سبق أبا نواس الذي سيسرف في الهزء من الدين في العصر العباسي . فالاخطل في عتوه وعربدته لم يكن يرى حرجاً في السخرية من الذين يتعنتون بشرب الخمرة . الخمرة تميت وتبعث ، لكنها تؤدي إلى نعيم السكر وليس إلى جحيم البؤس ، كما يدعي المتدينون . وهذه الجرأة تطلعنا على دالة الاخطل ومدى استمالته للأمويين ، حتّى أنه وهو النصراني لا يتورع من الهزء بالدين الاسلامي . ولا مجال كما أنه لا جدوى من الإطالة بذكر النوادر في ذلك ، لأننا نعنى بتطور الخمرة من الناحية الداخلية ، لهذا نعود إلى التمعن بالمعاني والافكار الاخرى التي تطالعنا خلال القصيدة ، ولا نعتم أن نبصر وجه التقليد يطل علينا بعد تلك الفلذة بقوله :

فجاء بهـا كـأنما في إنــــائِــه ... بها الكَوْكَبُ المرِّيخُ تَصْفو وتُزْبِدُ

تفوحُ بماءٍ يُشْبه الطيْبَ طيْبــــهُ ... إذا ما تَعاطَتْ كأْسَهـا من يَدٍ يَدُ

فالاخطل يعود إلى التحدث عن شعاع الخمرة الذي ألممنا به في النموذج السابق . فبعد أن كان ثمة جذوة تتأكّل نراه الآن كالكوكب المريخ . والمعنى شائع ، الا أنه بدا على شيء من الجدة خلال هذه القصيدة ، لان الشاعر يظهر وكأنه فاض به فيضاً من نفسه . على ان نزعة التقليد والنقل ما برحت ظاهرة خلاله . فالكوكب المريخ ليس سوى قرن الشمس الذي تحدث عنه الأعشى . ذلك أن تقليد الشعر العربي كان يقوم على فضيلة التباري بوصف الاشياء واظهار الصور القصيّة المسرفة لما تشهده العين أو تلتقطه سائر الحواس .

ولعلنا نشهد في البيت الثاني حيث يذكر طيبها ملمحاً من ملامح الصنعة البديعة التي ستظهر في العصر العباسي . فهو يقول « تفوح بماء يشبه الطيبَ طيبُه » عابثاً

بلفظتي الطيب ومزاوجاً المعاني أحدها مع الآخر . وذلك جميعاً يمثّل فلذة عابرة من صناعة الأخطل وسائر الشعراء الامويين ، بينما سيصبح بالنسبة للشعراء العباسيين اسلوباً دائماً متكرراً .

ومهما يكن ، فانميزة الاخطل خلال هذه القصيدة تتمثل ببعض المعاني الجديدة التي أشرنا اليها ، وفي تخصيص الخمرة بقصيدة مستقلة بها من دون سائر المواضيع ، ممّا لم نكن نشهده في الجاهلية .

القصص الخمري في شعر الأخطل : ذكرنا سابقاً ان الشعراء الجاهليين تناولوا القصص الخمري ذاكرين فيه مغامراتهم ومجونهم . وقد دخل ذلك القصص في تقليد أدب الخمرة خاصة في ذكر المجلس والندامى والشرب ومن اليهم . ولقد ألممنا بشيء من هذا القصص في النموذجين السابقين ، اذ تحدث الاخطل عن الفتيان الذين أناخوا الابل وانزلوا عنها القرب ، وعن الخمرة المشعّة ، كما أنه تحدث عن الشواء الذي أكلوه . وكذلك الامر في القصيدة التي تحدث فيها عن الميتة الجاهلية ، والساقي الذي قدم لهم الخمرة المشعة . اما الآن فاننا نقبل على نموذج آخر تظهر فيه النزعة القـَصَصية أكثر جلاء ، فهو يقول :

وشاربٍ ، مُربحٍ ، بالكأس نادمني لا بالحَصورِ ، ولا فيها بسَوَّارِ ، ١
نازَعْتُهُ طيّبَ الرّاحِ الشمولِ ، وقد صاحَ الدجاج ، وحانت وقعة الساري ، ٢
من خمرِ عانة ، ينصاعُ الفرات لها بجدولٍ صخِبِ الآذي ، مَـرَّارِ ؛ ٣

١ — المربح الذي ينحر لصيفانه الربح : الفصلان ، أو الذي يربح التجار أي باعة الخمر . الحصور : البخيل . السوار : المعربد .

٢ — وقعة الساري : من وقعت الإبل : بركت . والساري : المسافر ليلا .

٣ — عانة : مدينة على الفرات مشهورة بجودة خمرها . الصخب : الذي يسمع له صوت من تلاطم أمواجه . مرار : كثير المرور أي سريع الجري .

كُمّت ثـلاثة أحوالٍ بطينتهـــا   حتى ، اذا صرَّحت من بعدِ تَهدارِ [1]
آلت إلى النصف من كَلفاءِ ، أترعها   عِلجٌ ، ولثَّمَها بالجفن والغـارِ [2]
ليست بسوداءَ من مَيثـاءَ مظلمة   ولم تُعـذَّب بإدناءٍ مـن النـار.[3]
لها رداءان : نسجُ العنكبوت ،وقد   حُفَّتْ بآخر من ليفٍ ومن قارِ.[4]
صهباءُ ،قد كلِفت من طول ما حُبست   في مُخدع بين جنَّـات وانهـارِ ؛[5]
عذراءُ ، لم يجتلِ الخُطَّابُ بهجتها ،   حتى اجتَلاها عبـاديٌّ بدينـارِ ؛[6]
في بيت مُنخرق السِّربال ، مُعتَمِل ،   ما إن عليه ثيابٌ غير أَطمـارِ [7]
إذا اقول تراضينا عـلى ثمـن ،   ضنَّت بها نفس خبٍّ البيع مكَّار.[8]

١ – كم الشيء : طينه وسده . صرحت الخمر .: ذهب زبدها . تهدار : مصدر هدر الشراب : غلا .

٢ – كلفاء : صفة الخابية ، إذا خالط حمرتها شيء من السواد . الجفن : الكرم . الغار : شجر السوس .

٣ – الميثاء : الارض السهلة .

٤ – حفت : وفي رواية : لفت .

٥ – كلفت : تغير لونها إلى الاغبرار ، وفي رواية : عنست . المخدع : البيت الصغير يكون داخل البيت الكبير .

٦ – العبادي : منسوب إلى عباد : قبائل شتى من نصارى العرب بالحيرة ؛ كان بعضهم يتاجر بالخمور .

٧ – منخرق السربال : ممزق الثياب . معتمل : مهتم ، مضطرب في عمله .

٨ – خب : خداع .

كأنما العِلج ، اذ أَوجبتُ صَفقتَها ، خليعُ خصلٍ ، نَكيبٌ بين اقمار.[١]
لما أتوها بِمصباح ومِبزَلهـم ، سارت اليهم سُؤورَ الابجَل الضاري[٢]
تَدمى ، إذا طعنوا فيها بجائفـة فوق الزُّجاج ، عتيقٌ ، غيرُ مسطار .[٣]
كأَنَّمـا المسك نُهبـى بين أَرحُلنا ، مما تضوَّع من ناجودها الجـاري .[٤]

لقد نادَمَ الشاعر شارباً ليس ببخيل كما انه ليس بمعربد . ولبثا يعاقران الخمرة حتى أطلَّ الصبح وأُنيخَتْ الجِمال التي كانت تسري في الليل. اما الخمرة التي يشربونها فهي من عانة ، حُبِسَتْ ثلاثة اعوام ، ولما فُضَّتْ جعلت تزبد وتهدر ، ثم راقت وصرَّحت وهي لم تعذَّب بإدنائها من النار ، عذراء لم يمسّها أحد . اما صاحبها فمنخرق الثياب ذو أطمار ، يكاد لا يوافق على بيعها لشدة تعلُّقه بها . وعندما بزلوها خرجت من الدنّ ، كما يخرج الدم من الجرح . اما في النهاية فيتحدث عن الطيب الذي تنتهبه أيديهم .

يبدو من ملخص هذه الأبيات انها مزج بين الوصف النقلي والقصص وان كانت النزعة القصصية اغلب عليها . وليس في شعر الأخطل أبيات أخرى أدل على النزعة

---

١ — صفقتها : بيعها .الخليع : المقمور ، أي المغلوب في الغمام . الخصل : الخطر أي ما يتقامر عليه ، النكيب : المنكوب : من أصابته نكبة . اقمار : ج قمير : مقامر .

٢ — المبزل : المثقب : أي الحديدة يفتح بها الدن ، سارت : وثبت وثارت : الابجل : عرق يكون في الدواب ، وهو في الانسان الاكحل : عرق في الذراع يفصد . الضاري : العرق الذي بدا منه الدم ، لا يكاد ينقطع . — اراد أن الخمرة خرجت خروج الدم من الأبجل .

٣ — الجائفة : الطعنة تبلغ الجوف ، العتيق : الخالص ، المسطار : الخمرة الحديثة ، واللفظة رومية الاصل .

٤ — النهبى : اسم للنهب والمنهوب . تضوع : فاح ، الناجود : كل اناء يكون فيه الشراب ؛ واول ما يخرج من الخمر اذا بزل عنها الدن .

القصصية لنتمثل بها دون هذه . وذلك يوضح لنا ان الشعر الخمريّ في العصر الاموي لم يكن قد تجزأ واستقلت انواعه لنعثر على القصيدة القصصية مستقلة عن القصيدة الوصفية ، كما سنرى في العصر العباسي . فنحن نكاد لا نلمح فلذة من القصص حتّى يتبعها الشاعر بفلذة أخرى من الوصف ، بالرغم من أن النزعة الوصفية تغلب بعض الاحيان .

ومهما يكن ، فان هذه الابيات تشتمل على روح القصيدة القصصية الّتي ستطالعنا بوضوح في شعر أبي نواس . فهو يتحدث عن صياح الدجاج ، مظهراً بذلك شدّة ادمانه تعاطيها . كما انه يذكر بائع الخمرة واصفاً ثيابه وتعلقه بخمرته ، وهذه الأمور هي من أهم الخصائص الّتي سوف تـتَرَسّمها قصيدة القصص الخمري . الا أن الأخطل لم يكد يأتي بجديد في ذلك ، لأن الأعشى كان قد ألم بمثل هذه الفلذات المجزوءة من القصص . ولا مجال للاطالة بتحليلها لانها لا تتميز بميزة خاصة عما سبق ان شهدناه في النموذجين السابقين .

وللأخطل، فضلا عن ذلك، نَهْج خاص في الاداء يحشد له الصُّور الحسية العميقة الدلالة المتنامية ، بعضاً على بعض ، حتّى يوفي إلى غاية المعنى :

وَأَبْيَضَ لَا نَكْسٍ وَلا وَاهِنِ ٱلْقِوَى ، سَقَيْنَا ، إِذَا أُولَى ٱلْعَصَافِيْرِ صَرَّتِ [1]
حَبَسْتُ عَلَيْهِ ٱلْكَأْسَ ، غَيْرَ بَطِيْئَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، حَتَّى هَرَّهَا وَأَهَرَّت [2]

---

١ ــ صرت : صوتت . نكس : جبان .

م ــ يفخر بنديمه ، وينعته بالبياض اي بالسيادة ويقول انه شجاع شديد العزم ، وقد سقاه الخمرة ، غب انبلاج الصبح ، فيما كانت أولى العصافير تصوت . ومباكرة شرب الخمرة هي وسيلة للتدليل على شدة الشغف بها .

٢ ــ هرّها وأهرت : اي حتى كرهها وكرهته . وأصلها في الكلب اذ ينبح الطارىء الغريب .

م ــ يقول إنه كان يعاجل الكأس تلو الأخرى ، حتّى عافها وعافته ، لكثرة ما انسكب في جوفه منها .

فَقَامَ يَجُرُّ ٱلْبُرْدَ ، لَوْ أَنَّ نَفْسَهُ بِكَفَّيْهِ مِنْ ردّ ٱلْحُمَيَّا ، لَخَرَّتِ ١
وَأَدْبَرَ لَوْ قِيلَ:اتّقِ السَّيْفَ،لَمْ تخَلْ ذُؤَابَتُه مِنْ خِشْيَةٍ إقْشَعَــــرَّتِ ٢

ففي البيتين الاولين يمتدح صاحبه على الشراب على ما أثر عليه في شعر سواه . ثم يعظم من أمر ادمانه إياها حتّى يقول انه ظل يسقيه اللّيل كلّه حتّى مطلع الفخر. وغاية هذا المعنى ان يظهر عظم شغف الشّاعر وصحبه بالخمرة ، يُقبلون عليها في النّهار واللّيْل ولا يعافونها حتّى يصابوا بالتخبُّل والغثيان . اما في البيتين الأخيرين فانه يبتدع مؤدّى آخر للمُضاعفة من وقع المعنى ، اذ يخيل اليه انه بلغ من الإعياء والتهالك ما قد يجعله يُسْقط روحه من بين يديه ، فكأنه لم يعد قادراً على الاحتفاظ حتّى بحياته . ولقد أوفى إلى أقصى غاية السُّكر والذّهول ، حتّى انه لو شهر عليه سيف وهمّ به في جبينه لـمّا حفل بذلك ولـمّا ارتعد له .

فاذا كانت غاية الشعر أن يجسّد الواقع في حدوده المثالية النائية ، فان الأخطل ألم في ذلك بذروة الفن القائم على الشّخوص أمام الظاهر والمتداول والمأثور والنّزوع به إلى أقصى حدود المغالاة . لقد جسّد السورة الحسيّة لما يعتلج به الخمرة في جوف صاحبها ، إلا ان الخمرة لبثت في جوفه واحشائه ولم تطفر منها إلى ضميره ووجدانه بحيث تتراءى بها الاشياء كأطياف ورؤى في حدود الذهول والروح . لقد غالى

---

١ — رد الحميا : اي من فعل الخمرة .

م — يصف في هذا البيت تخاذل مشيته بتأثير الخمرة ، ويقول انه كان يجر رداءه من دونه ، وهو يمشي متهالكاً ، حتّى انه لو كان يقبض نفسه بيديه ، لسقطت منهما . ومؤدى المعنى انه قد بلغ من العياء غايته حتّى ان نفسه وهي أعظم شيء يحرص عليه ، تقع من دونه ولا يقوى على الاحتفاظ بها .

٢ — اقشعرّت : اي ارتعدت . الذؤابة . : الشعر المتدلي في مقدمة الرأس .

م — وفي هذا البيت يصف تخبُّله وافتقاده لرشده ، ويقول إنه اذا قيل له ، وهو يسير ، اتق السيف الذي يودي بك ، فانه لا يحفل ولا يرتعد .

بالسّكر ، لكنه لم يوفّق في استبطان معناه وفي النظر إلى ما دونه من خلاله . والاخطل لا يبرح يتعرض لنشوة الخمرة وتأثيرها فيمن يحتسيها ، وان كان لا يغفل عن سائر المعاني الخمرية المتداولة . يقول في الأبيات التالية :

وَلَيْلَتِنَا عِنْدَ ٱلْعُوَيْرِ بِقِطْقِطٍ وَثَانِيَةٍ أُخْرَى بِمَوْلَى ٱبْنَ أَقْعَسَا ١

نَزَلْنَا بِلَا غَسٍّ وَلَا عَاتِمِ ٱلْقِرَى وَلَا هَدَنَتْهُ ٱلْخَمْرُ عَنَّا فَيَنْعَسَا ٢

فَجَاءَ بِهَا بَعْدَ ٱلْكَرَى فَارِسِيَّةً دِمشْقِيَّةً أَحْيَتْ عِظَامًا وَأَنْفُسَا ٣

كَأَنِّي كَرَرْتُ ٱلْكَأْسَ ، سَاعَةَ كَرِّهَا عَلَى نَاشِصٍ ، شَمَّتْ حِوَاراً مُلَبَّسَا ٤

فَأَصْبَحَ مِنْهَا ٱلْوَائِلِي ، كَأَنَّهُ سَقِيمٌ ، تَمَشَّى دَاؤُهُ حِينَ أَسْلَسَا ٥

١ — العوير : من قرى الشام . قطقط : موضع بالشام . ابن اقعس : رجل من بني قشير من تغلب .

م — يقول انه قضى ليلة في ذلك الموضع وليلة اخرى في عند مولى ذلك الرجل الذي يمتدح كرمه في البيت التالي .

٢ — غس : الضعيف . العاتم . البطيء . هدنته : اثقلت حركته .

م — يقول انهم نزلوا على امرىء نشيط يهرع إلى القرى ويشرب الخمرة ، دون أن تأخذ بمفاصله ، فيتباطأ ويغالبه النعاس .

٣ — يقول إنه جلب لهم الخمرة الفارسية الدمشقية التي احيت نفوسهم وبعثت النشاط في صدورهم بعد أن احتسوها .

٤ — النّاشص : الناقة الجافلة . حوار : ولد الناقة . ملبس : اي ان جلده محشو بالتبن ، ويسمى كذلك البعر والبو .

م — يقول إنه إذا احتسى الخمرة ارتعش وانتفض لحدّتها ، كما تنتفض الناقة التي تشم البو الذي تتوهمه ابنها ، فاذا اقبلت عليه واشتمته جفلتْ عنه .

٥ — الوائلي : نسبة إلى وائل بن قاسط — أسلس : شرب الشراب السلس ، أي العذب الذي ذهبت حدّته .

م — يقول ان الوائلي برىء من دائه حين شرب من تلك الخمرة .

فالشاعر يعين موضع اللّهو الّذي عاقر فيه الخمرة ، على غرار الجاهليين الذين دأبوا على هذا الشأن . وفضيلة هذا التعيين هي فضيلة دقّة وواقعيّة من جهة ، وفضيلة ايحاء من جهة ثانية لشهرة هذه الامكنة باللهو الذي جعل يبعث في ذهن القارىء أو السامع صُوَراً ذاهلة متعدّدة ضوأها الحنين والشوق . ولعلّ القارىء المعاصر لا يَتَفَطَّن لمثل هذه الأبعاد لا قطاع صلته بهذه الاماكن المتّصلة اتصالا حميماً بواقع الشاعر من دونه ولإمعانها في الجزئية . ولو أنها كانت أمكنة اثرية حافلة بالتاريخ لها يقين الواقع وروح الاسطورة المتنامية الينا عبر الزمن ، لظلّت اعمق ايحـاء وابعد بثاً .

أما وصفه لمضيفهم وامتداحه بالكرم والهرع للضّيف وملازمة الصحو من دون السكر ، فهو من مأثور الشعر الخمري حيث يستكمل الشاعر الصورة المثالية لكل ما يمت بصلة للخمرة ومجلسها .

كما انه ينسب الخمرة إلى مصادرها ، كما نرى في شعر الأعشى والأقيشر ، فاذا هي شامية فارسية ، اي انها خمرة عريقة مؤصّلة ، تجاوزت حِقباً من الزّمن . وقد وردت هذه النسبة تقريرية دانية لا تحمل ذهولا او شجوا كأنه تناولها تناولا قريباً ، سريعاً . ولا يعدو ذكره لاحيائها العِظام والأنفس هذا الشأن لاستقطابه فيه المعاني التقريريّة الطّافية الدّالة على شغف الشاعر بها شغفاً عظيماً وانتشائه بها نشوة عارمة . الا انه لا يعتم أن يفصح عن تجربته بها ومعاناته لها نوع من الذّاتية إذ يشبّه الرعدة التي تثيرها في نفس محتسيها برعدة الناقة التي تدنو إلى البوّ متوهمة انه ابنها ، فاذا هو كتلة من التبن والبعـر . ويكرر تصويره لتأثيرهـا بالقول انها أبرأت شاربها من دائه .

وفي البيتين الاخيرين ينزع الشاعر إلى الابتكار بالتمثيل والافتراض والغلو دون ان يدعنا نشعر بأنه افصح فيها عما لم تفطن له أو عمّا لم يتداول بها . فالأخطل لم يكد يطلع تجربة خمريّة فذّة ، بالرغم من تواقعه الشديد معها ، بل انه اقام على المعاني القديمة يؤديها في تأويل وتشابيه تدنو من الجدة . نجد ذلك في مثل قوله :

عَزَّ الشَّرَابُ ، فَأَقْبَلَتْ مَشْرُوبَـــةً هَدَرَ الدِّنَانُ بِهَا هَدِيرَ الأَفْحُـــلِ [1]
وَتَغَيَّظَتْ أَيَّامُهَا فِـي شَـــارِفٍ ، نُقِلَتْ قَرَائِنُه ، وَلَمَّـــا يُنْقَـلِ [2]
وَتَرَى ٱلْقِلَالَ بِجَانِبَيْهِ ، كَأَنَّمَا قُلُص يَسُفْنَ فُرُوجَ قِرْمٍ مُرْسَل [3]
وَكَــأَنَّ أَصْوَاتَ ٱلْغُــوَاةِ تَعُــودُهُ أَصْوَاتُ نَوْحٍ ، أَوْ جَلَاجِلُ عَوْكَلِ [4]
حَتَّى تَصَبَّب ماؤُه عَنْ جِلْفِـــــه ضَخْمُ ٱلْمُقَدَّمِ ، سَحْبَلِيٌّ ٱلْأَسْفَلِ [5]

---

١ ــ يقول انه بعد ان عز عليه الشراب ، احتسى من خمرة تهدر في دنانها ، كما تهدر الفحول وذكره لصوتها وتشبيهه له بالهدير هو تمثيل لحدتها وفورانها .

٢ ــ تغيظت : اشتد غليانها . الشارف : الخابية القديمة . قرائنه : اي الخوابي التي كانت معه .

م ــ يشير في هذا البيت إلى قدمها ، ويقول إنها جعلت تَغْلي وتهدر في خابية عتيقة نقلت الدنان التي كانت معها ، وخلّفت وحيدة ، لتزداد عتقاً ويزداد خمرها طيباً .

٣ ــ القلال : ج القلة ، وعاء للخمر . قلص : ج قلوص . وهنا صغار الإبل . يسفْنَ : يشممن ، قرم : فحل .

م ــ يعظم من حجم الدّن ، ويقول إن القلال القائمة حوله شبيهة بصغار الإبل التي تشم اذيال الفحل العظيم .

٤ ــ النّوح : النساء يجتمعن للنواح في المآتم . جلاجل : حدة الصوت وقوته . عو كل : امرأة حمقاء ، كثيرة المشاكسة .

م ــ يمثل صوت الغواة اي الماجنين من الشرب بأصوات النائحات أو صوت المرأة الحمقاء الكثيرة الصياح .

٥ ــ الجلف : هنا الدن الفارغ . سحبلي : واسع ضخم .

م ــ يشير هنا إلى الخمرة التي تصببت منه ، ويصفه ويقول انه ضخم المقدمة واسع الاسفل .

ففي البيت الأول نراه يعظّم من أمر الخمرة في حدّتها . فيقرن صوتها بصوت هدير الفحول . والصورة جاهلية الأجواء ، الاأنه أذكى فيها حياة وأنمى اليها نوعاً من الحركة الجنسيّة من نسبة صوتها إلى هدير الفحول . وهو في ذلك أدنى إلى نفسه وتجربته ، إذ أن للخمرة علاقة بغريزة الجنس . وهو يستكمل ، كذلك ، المعنى في البيت الثاني حيث جعلها تقيم من دون سائر الدّنان ، تتغيّظ ويشتد غليانها ، حتّى تصفو وتخلص من شوائبها . ثم يعمد إلى المقارنة والتمثيل المستفاد من واقع البيئة الجاهلية اذ يشبه القلال القائمة حول الدن بصغار الابل القائمة حول الفحل . والشاعر يستكمل في ذلك اكتشافه لعلاقات شبيهة بالعلاقات الانسانيّة التي تربط الخمرة بما إليها . ومثلُ ذلك مقارنته لاصوات السكارى الّذين يهرعون اليه بصوت النائحات المعولات . والاخطل لا يزال يعظم من سعة الدن وضخامته وعظمه ، كما الفينا ذلك في شعر الاعشى بقوله :

ذَاتُ غـور لا تُبالي يَوْمَهَـــــــا غَرَفَ الإبْرِيـقُ مِنْهَـا وَٱلْقَـدَحْ
وَإِذَا مَكُّوكُهَــــــا صَـارَمَه جَانِبَـاهُ كَرَّ فِيهَـا فَسَبَــــحْ

وذلك يسوقنا إلى الاعتقاد بان الأخطل ظلّ ينظر إلى الخمرة نظرة مروّعة مندهشة كالجاهلي يؤخذ بحجم الاشياء . وهو لم يقرنها بما اليها من قلال بالفحل العظيم الا ليمثل ضخامتها وهولها ، فكأنه بالرغم من اقامته في الحاضرة ، زمنا ، لم يتطبّع بطباعها .

قيمة خمريات الأَخطل

أولاً – وجه التجديد .

١ – التدقيق بالمعاني القديمة والمبالغة فيها .

رأينا مما تقدم أن المعاني التي ردَّدها الأخطل كانت متداولة في الشعر الجاهلي . وقد مثلنا على ذلك بأمثلة عديدة . إلاّ أن فضيلته في ذلك أنه لم يستَعِدْها استعادة تقريرية لا مبالية ، وإنما حاول أن يجدِّدَها ، حيناً بإضافة بعض التفاصيل ، وحيناً آخر بالمبالغة والاسراف في الغلو . فهو لا يقول ان الشارب ثَمِلٌ ، بل يتخطّى ذلك فيقول إنه ميت . « ماتت عظام ومفصل » « شربنا فمتنا ميتة جاهلية » . وهذا يدلنا على انه يعتمد النزوع بالحالة النفسية إلى الطرف الأقصى ، أو إلى المستحيل ، وربما إلى الخرافة . أو لم يجعل شعاع الخمرة جذوة ؟ أو لم يجعل الجذوة تتاكل بعضاً ببعض ؟ ذاك كان أسلوب الأخطل في الخمرة ، يحاول ان يجدّد المعنى القديم بالمبالغة فيه .

وثمة وجه آخر للتجديد في شعره ، ظهر في التفاصيل والملاحظات الواقعيّة التي كان يرسمها ممعناً في الدقة ليجلو المعنى ويجعله أكثر تأثيراً . فهو اذ يذكر السكران لم يكتف بالتلميح إلى ذلك ، بل صوره بدقّة ، وصوّر الشرب الذين يهادونه وأعضاءه المَخبّلة الميتة . وكذلك في وصفه للسكرة التي كنّى عنها بالموت ، وعمد إلى التدقيق والتفصيل اللذين يبعثان التطوُّر والسببيّة في المعنى ، اذ انتقل من الميتة إلى الحشر ، مقابلاً بين بعث الخمرة والبعث الديني .

إلاّ أن هذه التفاصيل لا يمكن ان توهمنا بالتجديد ، لأنها قاطبة عابرة لم يعاودها

او يتخصص بها . ولعلنا لو وقعنا على قصيدة الأخطل بصورة مغفلة ، لتعذّر علينا ان نميز اذا كانت جاهلية ام اموية ، يعيش صاحبها في قلب بيئة تختلف غاية الاختلاف عن البيئة الجاهلية . فالاخطل في ذلك لم يصوّر الخمرة التي شربها ، أو الخمرة التي خبر معاناتها والرياض التي عاش في قلبها ، وإنما استعاض عنها بخمرة تقليدية شبيهة بالتي شربها الأعشى وسائر الجاهليين . فهو لم يعبّر عن نفسه ، بل جارى في ذلك القدماء . ولقد تعفّى أثر الزمن والتطور في شعره وتضاءلت تجربته الخاصة حتى اننا نكاد لا نلمح خاصة من خصائصه ، الا في بعض تلك الفلذات التي كان يقولها تحت وطأة الانفعال الشديد ، عندما تعصف الخمرة في رأسه وتزهوه ، كما قال للخليفة عبد الملك :

إذا ما نديمي علَّني ثم علَّني ثلاثَ زُجاجاتٍ لَهُنَّ هَديرُ
خرجتُ أجر الذَيْل تيهاً كأنني عليك ، أميرَ المؤمنين ، أميرُ

هذان البيتان يمثلان نموذجاً نادراً للتعبير المباشر عن تجربته الخمرية ، اما سائر الابيات فتكاد تخفي نفسيته وواقعه وتظهره لنا مقلّداً ، لا شكل ولا ميزة له . ولعل اليسر في التقليد ظهر خلال ابياته الخمرية ، جميعاً . فهو لا يلم بها ، حتى يذكر ما ينبغي ان يقال ، يتلوه بسهولة وتقرير دون أي مبادرة ذاتية او حس شخصي .

٢ ــ بعض معاني الدين الجديد :

ذكرنا ان الأخطل لم يكد يتأثر بواقع الحضارة الجديدة ، فهو لم يذكر الرياض والبساتين التي عايشها ، فظلت بيئته كالبيئة الجاهلية . الا انه ، بالرغم من ذلك ، خطَر بعددٍ قليل من الأبيات التي تظهره لنا متأثراً بعض التأثر بما خبره في واقعه الجديد . وقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قصيدته التي ذكر بها المِيتة الجاهلية بصورة غير مباشرة ، لا مجال لذكرها من جديد ، وانما نكتفي بأن نذكر انها قليلة الجدوى في اظهار التجديد خلال شعره ، لأنها لم تتكرر ولم تتعدّ أبياتاً قليلة .

٣ – صناعة شعرية خاصة تعتمد على الشجو الداخلي :

وإذا تأملنا الأبيات التي تصدى فيها الأخطل لوصف الخمرة، تبين لنا انها تشتمل على ظلال إيحائيّة تغمرها بكثير من الشَجْو والايقاع ، وتبعث فيها كثيراً من التأثير بالرغم من كونها تقليدية . ذلك ان الأخطل كان ذا دربة في توقيع الحروف والألفاظ وذا قدرة عجيبة في مؤالفة النغم مع روح التجربة . وقد بدا ذلك خاصة في لاميته ، كما أسلفنا .

٤ – وجوه اخرى :

وثمة وجوه أخرى للتجديد في شعر الأخطل ، إذ نراه يعرض لبعض التعابير التي نأى بها عن العبارة الجاهلية العفوية ، وجعل يمازج بين المعاني ، كما يمازج بين الالفاظ . فهو يقول « تفوح بما يشبه الطيب طيبه » . وهذا القول لم نشهده في اسلوب الخمرة الجاهلية ، وذلك يدل على ان الأخطل حاول ان يجدّد في شعر الخمرة ولم يتيسّر له ذلك ، فجعل يمازج المعاني ويعقّدها ليوهم بالتجديد .

ثانياً – وجه التقليد :

ان وجه التقليد غالب على شعر الأخطل . وقد تحققنا ذلك في التفاته إلى الخمرة من الخارج ، وفي نقله للمعاني الدانية ، المتداولة ، وفي تفكك الابيات واستقلال بعضها عن بعضها الآخر . وهكذا ، فان الخمرة ، كما بدت في شعر الاخطل ظلت غالباً خمرة تقليدية ، ترد ضمن قصيدة المدح او الهجاء ، وتعنى بالصورة المادية وتجاري روح الاسلوب القديم .

* * *

الباب الثاني

الطّلـــــل

أولا : ذكره ووصفه :

تحدَّر وصف الطّلل إلى الشعر الأموي من صلب الشعر الجاهلي ، كتقليد من تقاليد القصيدة العربيّة . وتكادُ لا تخلو قصيدة من ذكره في شعر الأخطل ، يُلْمح إليه في عجالة أبياتٍ قاطبة أو يستطرد إليه ويُفَصِّل فيه بأبياتٍ متعدّدة . وأصل هذا الموضوع أو نقطة انطلاقه تُصدر عن معاناة الحزن والبراح حين يَشعر المرء بفاجعة الزّمن الهارب المتولي ، ونزوح الأشياء وتصرّمها ، فكأن كل شيء موجودٌ وغير موجودٍ في آن معاً . والعربيُّ يَقْرن بين الحبِّ والسّعادة ويشعر أن نزوح الحبِّ وارتحالَ الأحبَّة هو نذير دائم لآنيّة السعادة وطروئها كطارىء سريع على الحياة . وتطالعنا في الطّلل ، كذلك ، تجربة الذّكرى ، أي الحنين إلى ما تقضّى من الزّمن مع الشّعور بالحسرة والندم والإستحالة . وهكذا ، فان في اشلاء الطلل البادية للعيان كناية عن تمزُّق النفس وتناثرها إلى أشلاء بين قبضة القدر القاسي ، وبكاء الشاعر على الطلل ، هو ، في الواقع ، بكاءٌ على نفسه وعلى الحياة المُتسارعة ، المُتهالكة .

ولعلَّ الأخطل لم يُعانِ تجربة الطّلل معاناةً مبرّحةً كامرىء القَيس ولبيد وعديٍّ بن زيد ، لأنه لم يقف من الحيـــاة موقفـــاً وجودياً ، يتنصّت فيه إلى وقع الفاجعة ، أو يتأمل به مظاهر المَوت عبر مظاهر التغيُّر والصَّيرورة . فهو من الشعراء الذين اقبلو على الحياة باللذة الفرحة ، الحسيّة ، من دون اللّذة القانطة ،

السّوداوية أمثال طرفة . لهذا جاءت تجربة الطلل باهتة ، تقليديّة في شعره ، يستوفي فيه ، غالباً ، حاجة النّظم وضرورة المقدّمة المأثورة ، وبخاصّة في القصائد المدحيّة . ففي القصيدة الأولى التي امتدح بها يزيد يَستَهِلُّ بذكر الطّلل في قَولـه :

١ ألا يا اسْلَما عَلى التَّقادُمِ والبِـلى بِدَوْمَةِ خَبْتٍ ، أيهـا الطّلَلانِ
٢ فَلَوْ كُنْتُ مَحْصُوباً بِدَوْمَةَ ، مُدنَفاً أُسَقّى بريقٍ مِنْ سُعـادَ شَفاني
٣ وكَيْفَ يُداويني الطَّبيبُ مِن الجوى وَبَرَّةُ عِنْدَ الأَعْوَرِ بنِ بَيـانِ
٤ أتَجْعَلُ بَطْنـاً مُنْتِنَ الرّيحِ ،مُقْفراً على بَطْنِ خَودٍ دَائِـمِ الخَفَقَانِ

---

١ ــ دوْمَة خَبْت : اسم موضع .
م يخاطب طَلَلي حبيبته في موضع خَبْت ويحيّيهما ويتمنى لهما النّجاة من الزّوال والاندثار .

٢ ــ المَحْصوب : من أُصيب بداء الحصبة . المدْنف : من أثقله المرض .
م يقول إنّه لو كان مصاباً بالدّاء ، ومشرفاً على الهلاك ، فإنّه يستعيد عافيته ، إذا ما نَهَل وعلّ من ريق صاحبته سعاد .

٣ ــ الجَوَى : السّقم .
م يشير في هذا البيت إلى ما كان من أمره مع الأعور بن بيان التغلبيّ الذي تزوج امرأة جميلة تدعى برّة ، وهي ابنة هانيء التَغْلَبيّ . وقيل إن الأعور بن بيان هذا دعا الأخطل إلى بيته الذي نُجِّد بالفُرش الثّمينة والوِطاء العجيب ، وكان هذا في غاية القُبح . فسأل الأخطل : هل ترى عيباً في بيتي ؟ فأجاب : ما أرى عيباً في بيتك غيرك . فقال : إنّي أعجب من نفسي ، إذا كنت أدخل مثلك بيتي . أخرج عليك لعنةُ الله .

٤ ــ الخود : الشّابة .
م يخاطبه مستَنْكراً . ويقول : أيصحُّ أن تضع بطنَكَ ذا الرِّيح الكريهة على بطنها الفتيّ ؟

فالشّاعر يخاطب طُلَلي حبيبته ولكنّه لا يصفهما ، بل يَمْضي في ذكر داء العشق ، ويتمنّى أن يُداوى فيه بريق صاحبته سعاد ، بل ان ريقها ليَشْفيه حتّى من داء الحصبة . ففي البيت الثّاني يتَغنّى بصاحبته سعاد ، وهي حبيبة تقليديّة لم يَصْحَبها فعلاً ولم يتَواقَعْ معها بدنف الحُبِّ ، لذلك تراه ينزع في البيت اللّاحق إلى ذكر برَّة ، وهي امرأة عرفها الشّاعر عند زوجها الثري القميء ، فخلّفت في نفسه حسرة الجمال الضّائع ، المُمْتَهَن بين يدي ذلك الرّجل النّتن . وهو يجد في ذلك سبيلاً إلى اليأس كُلّه واستحالة الشفاء ، بقوله :

وكَيْفَ يداويني الطبيبُ من الجوى وبرَّةُ عنْد الأعورُ بن بيان

فكأنّه يثور ، هنا ، لظلّم الجمال وابتذاله . وموضوع الطّلل غدا بذلك باهتاً ، متوارياً إذ طغى عليه حنينه إلى برَّة وثورته من أجلها . فالأخطل شاعر واقعي من هذا القبيل ، قلمّا تراه يَنْعى ما لا طائل تحته ، ولا يَبُثُّ في الطلل معاناةً جديّة عميقة ، ولا يحتفلُ احتفاله الفنّيّ كُلّه في وصفه ، إذ لم يكن سوداويّ المزاج ، زواليّ الطباع . وذكره برَّة في المطلع لا يَعْدو هذه الواقعيّة التي جعلته يشعر بالظلم لعدم التكافوء في الجمال بين الزوجين ، ممثّلاً في ذلك مثاله الحسّي الصريح إذ يقول :

أَتَجْعَلُ بَطْناً مُنْتِنَ الرِّيح ، مُقْفِراً على بَطْنِ خُـودٍ ، دائم الخَفَقَانِ

فهل ثمة ما هو أنأى من هذا الوضوح في ذكر علاقة الرجل بالمرأة ، إذ قصرها على بَطْنَيْهِما ، مزرياً بالزّوج ، مشيداً بجمال زَوْجه .

ومهما يكن ، فإن هذه الابيات تُطلعنا على أن تجربة الطّلل عند الأخطل قد تتخذ ذريعةً لما دُونها وسبيلاً للتخلّص وايراد الخواطر الذّاتيّة . ولولا ذاك لما ألمّ بسعاد في بَيْت وببرَّة في بيت يليه . وقد تبدو الابيات التّاليّة أشدّ استيفاءً لموضوع الطلل :

حَلَّتْ ضُبَيْرَةُ أَمْوَاهَ العِدَادِ ، وقــدْ   كانَتْ تَحُلُّ ، وأَدْنَى دارِها ،ثُكَدُ ١

وَأَقْفَرَ اليَومَ مِمّنْ حَلَّـهُ الثَّمَـــدُ   فالشُّعْبتانِ ، فذاكَ الأَبرَقُ الفَرَدُ ٢

وبالصّريمةِ مِنْها مَنزِل خَلَـــــق   عافٍ تَغَيَّرَ ، إلاَّ النُّؤيُ والوَتدُ ٣

دار لِبَهْنَانَةٍ . شَطَّ المَزَارُ بهــــا   وحالَ مِنْ دونِهـا الأَعْداءُ والرَّصَدُ ٤

ففي هذه الأبيات يَذْكر المواضع الّتي كانت تُقيم فيها الحبيبة والمواضيع الّتي ارتَحَلَت إليها ، تدليلاً على النّأي والبعد . وقد حُشِدت أَعلام الأمكنة في البيتين الأولين : « الشعبتان ، الأبرق الفرد ، الصَّريمــة». وهذا الاسلوب مستفاد ممّن تقدَّم من الشُّعراء ، إذ كانت أَعلام الأمكنة تردَّدُ في وصف الطلل وذكره ممثِّلة الواقعيَّة المباشرة ، المرتبطة بدقائق الموضوع وجزئياته . وقد اقتفى على أثرهم حتَّى في صيغة العَبارة بالإكثــار من حرف الفــاء الّذي يُضْفي

١ ــ ضُبَيْرَة : اسم امرأة . أَمْواه العِداد : اسم موضع . والعِداد : جمع عدّ وهو الماء الذي يَنْبجس من الأرض . ثُكُد : اسم ماء .

م يقول إن صاحبته ضبيرة ارتحلت إلى مكان ناءٍ عن المقام الذي عَهِدَها فيه .

٢ ــ الثّمد : الماء القليل ، وهنا اسم موضع . الشّعْبتان : اسم موضع . والشّعبة أكمة لها مثل القَرْن . الأبْرق : الجبل الذي يكثر فيه الرَّمل . الفَرْد : هنا المُنْفرد .

م يعدّد في هذا البَيْت المواضع الّتي نَزَحت عنها والّتي أقفرَت إثر رحيلها .

٣ ــ الصّريمة : اسم موضع . وأصلها في الرّمل المُنْقطع . خَلَق : بالٍ . عافٍ : دارِس . النّؤى : الحَفيرة حول الخَيْمة .

م يقول إن لها في موضع الصّريمة منزلاً متهدّماً ، بالياً ، اندرسَتْ آثاره ولم يَبْقَ منها إلاّ النّؤي والوَتد .

٤ ــ البَهْنانَة : المرأة الطّيبة النّفس والريح . الرَّصد : القوم الذين يترصّدون لسواهم .

على المعاني ما يماثل الصّفة العلميّة . وتراه يذكر بيتها الخلق . المتهدّم الّذي لم يَبْقَ منه إلا النُّؤي والوتد ، أي حفير الخَيْمة والخشبة الّتي توثق بهـا أطناب الخَيْمة . وذكرهما هو كذكر أعلام الأمكنة منهوك في تقليد الشِّعر ، وهو مظهر للصّدق في نقل ما تُطالعه الحواسُّ . ذاك أن بيتها هو خيمة ، فاذا ارتحل قومها بها ، حملوا العيدان والحبال والأعمدة والأكسية ، وخلّفوا من دونها النُّؤي والوتد . تلك هي أطلال البداوة ، لا حجارة ولا جدران ، ولا مخادع ، اولئك الذين يفترشون الأرض ولا يستقرُّون عليهـا ولا يَغرُسون جُذُورهم فيهـا . ومع ذلك ، فان البكاء مبثوثٌ في حنايا هـذه الأبيـات ، لا يُصَرحُ به ولا يلمحُ إليه ، وان كنا نشعر أنّه يتَنَدَّمُ على ما فاته فيه . إلا أن عاطفة الأخطل لَيْسَتْ العاطفة الفاجعة المتهالكة الّتي تثيرنا في مطالـع امرىء القَيْس . فهْو يترسَّم المعاني ويَبْذلها ولكنّها لا تصْدر عن جرح الزّمن النّازف من نَفْسه .

وفي الأبيات التّالية يتّخذ الشّاعر معاني أخرى من تَجْربة الطلّل ذاكراً السراب والظّعائن العائمة فيه ، والرِّياح والأمطار الّتي عفَتْ عليه :

عَفَا مِنْ آلِ فاطِمَةَ الدَّخُـــولُ فَحِزَّانُ الصَّرِيمَـــةِ ، فالهُجولُ ١

مَنَازِلُ أَقْفَرَتْ مِنْ أُمّ عَمْـــرٍو يَظَلُّ سَرَابُهَـا فيهـا يَجُولُ ٢

شآمِيَـةُ المَحَلّ ، وَقَـد أراهـــا تَعُومُ لهـا بذي خِيَمٍ حُمُـولُ ٣

---

١ – الدَّخول : اسم بلد . حِزّان : جمع حزين وهو الغليظ من الأرض . الصريمة : الرّملة المُتَقَطّعة . هجول : جمع هجل ، وهو ما اتّسع من الأرض . وهذه الألفاظ تدل جميعاً هنا على أسماء مواضع .

٢ – م يقول إن صاحبته أمّ عمرو قد ارتحلت عن تلك الديار ، فأقفرت وجعل السراب يخفق ويضطرب ويجول فيها . وذكره للسراب هو للتّدليل على خلوّها ووحشتها .

٣ – تعومُ الإبلُ : تسير . خِيم : موضع بالجزيرة .

م يقول إنّها كانت تحلّ في ديار الشّام وإنّها نزحت فشاهد ظَعائنها تسير في موضع ذي خِيم .

وَلَوْ تأتِ الفراشَةَ والحُبَيّا إذاً كادَتْ تُخَبِّرُكَ الطُّلُولُ ١
عَنِ العَهْدِ القديمِ وما عَفَاها بَوَارِحُ يَخْتَلِفْنَ ولا سُيولُ ٢

ولقد ذكر الشّاعر قبْلاً الآثار الباقية من الطّلل في النُؤي والوتد ، أما في هذه الأبيات ، فان ذكره لعوامل العفاء وبواعثه تَغلَّبَ وطغى ، وان كان قد حشد في المقطعيْن جميعاً ، أعْلام الأمكنة وحرف الفاء وما أشبه . والاشارة إلى خفق السَّراب على الطَّلل أدلُّ على خلائه ووحشته ، إذ أن معناه ملازم لواقع الصحراء والأمْكنة المقفرة . وهو يتتَّبع سَيرَ الظعائن ويجد أنهنَّ يعمنَ ، كذلك ، في السَّراب. وهنا تتباين دلالتُه ، إذ كان يُشير ، قبلاً ، إلى الوحشة والعفاء ، وهنا غدا يُشير إلى البُعْد والنزوح . إلا ان الشاعر ، يبدو في ذلك كُلّه وكأنه يتْلو معاني حفظها وتلقفها ، يتداولُها بيُسْر في العبارة والمعنى ، لا يتأوّل ولا يكدُّ ولا يجدُّ ولا يُبْدع . ولو لم يكن في هذا المقام التّقليديّ ، لما اقتصر على ذكر الرّيح والمطر بقوله :

عن العَهْدِ القَديمِ وَمَا عَفَاهَا بَوَارِحُ يَخْتَلِفْنَ وَلا سُيُولُ

فأنت تراه يكتفي من أمر الرِّيح والمطر بتسمية أسميهما وحسب ، ولو كان في مَقَام يَحْتفل به فيهما ، لاقتَفَى أثر الرّيح في كل جهة ولأدّى لها أوصافها في هبوبها وصوتها وغبارها . والأخطل لم يُجدّد في تجربة الطَّلل ، لأنها لم تلج إلى نفسه ولم تَدْخل في المباراة التي كان يبزُّ بها سواه من الأقدمين والمعاصرين .

---

١ ــ ٢ ــ الفراشة : اسم موضع . الحُبيّا : موضع بالشّام . البوارح : الرّياح الشّديدة الهبوب .

م يقول إذا ما زُرْت تلك المواضع ، فإن أطلالها تُنْبئك عن عهد الألفة الذي نعمنا به فيها ، قبل أن تغشاها الرّياح الشّديدة والسّيول وتُعَفّي على آثارها .

وكيفما تجولّت في شعره الطّللي يطالعك بمثل المعاني السّابقة . فهو هو يقول :

صَحَا القَلْبُ عَن أَرْوى ، وأَقْصَرَباطِلُهْ وَعَادَ لَهُ مِنْ حُبّ أَرْوى أَخابِلُـهْ ١

أَجِدَّكِ ما نَلْقَـاكِ ، إلاَّ مرِيضَـةً تُداوِينَ قَلْباً ، ما تَنَامُ بَلابِلُـهْ ٢

عَفَا واسِط مِنها ، فأَلجامُ حـامِـرٍ فَرَوْضُ القَطا ، صحراوُهُ ، فخمائِلُهْ ٣

وَقَدْ كانَ مِنْهَا مَنْزِلاً نَسْتَلِـذُّهُ أُعامِقُ بَرْقاواتُـهُ فأُجـاوِلُهْ ٤

وتراه يقرن حيناً آخر ، بقاياه ببقايا الكتابة، كما أُثر عن الجاهليين ، ذاكراً البوم والظباء الّتي باتت تقطنه اثر أهله :

---

١ ــ أرْوى : اسم امرأة . أخابِلُه : جمع خبل . وهنا الذُّهول وافتقاد الرُّشد .

م يقول في الشطر الأول إنّه انقطع عن حب صاحبته أرْوى وإنّه امتنع عن اقتفاء الباطل . وفي الشطر الثاني يناقض المعنى السّابق ويقول إنّه عاوده الخَبَل من حُبّها .

٢ ــ أجِدّك : تكسر جيمها ، فيما تدخل الهمزة عليها . بلابلُه : همومه .

م يقول إنّه لا يبرح يفزع إليها لتُنْجيه من سقم الحبّ ، فيُلفيها مُعْتَلّة عليه ، صادة عنه .

٣ ــ واسط : موضع بالشّام . ألجام : جمع اللّجمة : ما يعلو السّهل . الخمائل : جمع خميلة وهو رمل يُنْبت الشّجر .

م يذكر المواضع الّتي نَزَحَتْ عنها ، ويقول إن الخمائل بدت موحشة مُتَعفيّة إثرها .

٤ ــ أعامِق : واد . أجاوِلُه : ساحاته . البَرْقاوات : جمع بَرْقة ، وهو موضع فيه ماء وحجارة . نَسْتَلِذُّه : تطيب لنا الإقامة فيه .

م يقول إنّه كان يقيم في ذلك الموضع بمنزل تطيب له الإقامة في كلّ منتجع من منتجعاته .

هَلْ عَرَفْتَ الدِّيارَ يا بنَ أُوَيْسٍ ... دارِساً نُؤْيُها كخَطِّ الزَّبورِ [1]

بُدِّلَتْ بَعْدَ نِعْمَةٍ وأَنيسٍ ... صَوْتَ هامٍ ومَكْنِسَ اليَعْفورِ [2]

وذكر البوم في هذ المقام يَرْمُزُ برمزٍ عميق للخلاء والوحشة ، فضلاً عن قليل أو كثير من الشعور بالسوداء والتشاؤم . وربّما رأيناه يوجز معاني الطلل جملة في مثل البيتين التّاليين ، حيثُ ذكر القدر والرّماد والرّيح :

أَتَعْرِفُ الدّارَ ، أَمْ عِرْفَانَ مَنْزِلَةٍ ... لَمْ يَبْقَ غيرُ مُناخِ القِدْرِ والحُمَمِ [3]

وغيرُ نؤيٍ رَمَتْهُ الرّيحُ أَعْصُرَهُ ... فَهْوَ ضئيل ، كَحَوْضِ الآجِنِ الهَدَمِ [4]

ثانياً : **الطّلل والمطر** : وصف الجاهلي المطر وبخاصة امرأ القَيْس والأعشى ، على أنّه أحد عناصر الطّبيعة المروِّعة ، يُمثِّل فيضانه وتحوّله إلى سَيْل يَهْدم ويُخلِّف الخراب ، يخطف عبره البرق ويقصف الرَّعد ، وهو يُشبِّه ذلك بكل

---

١ ـ أُوَيْس : تصغير أوس . النّؤي : الحفير حول الخَيْمَة . الزَّبور : هنا الكُتُب .

م يخاطب صاحبه ابن أوس ويسائله إذا كان قد عرف ديار صاحبته الدّارسة النؤي ، البادية كالخطّ في الكُتُب . والمعنى مطروق .

٢ ـ الهام : جمع هامة ، وهي البومة . وأصلها طائر يخرج من رأس القتيل . مَكْنِس : مأوى الوحش والظّباء من الحرّ وما إليه . اليَعْفور : الظّبي .

٣ ـ الحُمَم : هنا حُمَم النّار .

م يخاطب صاحباً مَوْهوماً ويقول له : هل تقوى على معرفة دار أو منزلة ، تعفّت آثارها ، ولم يبق فيها إلا موضع القِدْر ، حيث كانت توقد النّار ؟

٤ ـ النؤي : الحفيرة تحفر حول الخَيْمَة ليُمنَع عنها الماء . الآجن : الماء الكثير المُكوث ، المتغيّر لفساده . الهَدَم : المتهدّم .

تشبيه ويُفصّل فيه كل تفصيل . أما الأخطل ، وهو شاعر وصف بقدر ما هو شاعر مدح وهجاء ، فقد أولجه في سياق قصيدته المدحيَّة ، مستطرداً إليه من خلال ذكره للعوامل المحيلة للطلَل . فهو يستهلُّ بتسمية الطَّلل وتعيين موقعه ، ويعرِّج على ذكر المطر الّذي أحاله وعفّى عليه .

وقد يلم بالوحوش القاطنة فيه، إثر ارتحال أهله، وقيامها في النَّبْت العميم الطَّافر ، والمطر الذي روّاه وأنماه . مثال ذلك قوله :

فأَصبَحَ ما بينَ الكُلابِ وحـــابِسٍ　　قِفاراً ، تُغَنِّيهـا مَعَ اللَّيْلِ بُومُها ١
خَلَتْ غيرَ أُحْدَانٍ تلوحُ ، كأنَّهــا　　نُجُوم بَدَتْ وانجابَ عَنْهَا غُيُومُها ٢
بِمُسْتَأْسِدٍ يَجْري النَّدى في رياضِهِ　　سَقَتْهُ أَهاضِيبُ الصَّبا ومُديمُها ٣

١ ــ حابس : اسم موضع .

م　يقول إن موضعَي الكلاب وحابس ، حيث كانت صاحبته ، قد أصبحا قفراً لا يسمع فيهما إلاّ نعيب البوم في الليل . وذكر البوم في هذا الموقع يفيد معنى الوحشة والخلاء .

٢ ــ أُحْدان : جمع وحدان وهي البقر المتوحدة في الجبل . انجاب : انكشف .

م　يقول إن الأبقار الوحشية المتوحّدة في ذلك القفر ، تبدو في تفرُّقها ولمعانها كأنها نجوم في سماء صافية الأديم .

٣ ــ المستأسد : النّبْت الذي كَبُرَ والتفّ . الأهاضيب : حَلَبات المطر ، بعد القطر أي المطر المنهمر . مُديمُها : من الدِّيمة وهي المطرة الدائمة الانسكاب .

م　يصف الروض الذي ترتعي فيه تلك الأبقار ، ويقول إن نباته قد نما والتفّ وإن النّدى لا يزال يغشاه ، وإن المطر المندفع الدائم المطلان قد روّاه . وهو إنما يصف المطر الغزير ليعظّم من شدّة التفاف النّبت ونموّه .

إذا قُلْتُ : قدخَفَّتْ تَواليهِ ،أَصْبَحَتْ   بهِ الرِّيحُ مِن عَيْنٍ سريـعٍ جُمُومُها ١
فما زالَ يَسْقي بَطْنَ خَبْتٍ وعَرْعَرٍ   وَأَرْضَهُمَا ، حتى اطْمأَنَّ جَسيمُها ٢
وَعمّمهـا بالماءِ ، حتى تواضَعَتْ   روؤسُ المِتانِ : سهْلُها وحُزُومُها ٣
بمُرْتَجِزٍ داني الرَّبــابِ ، كأَنّــهُ   على ذاتِ فَلْجٍ مُقْسِمٍ ، لا يَريمُها ٤

---

١ ــ تَواليه : ما يلحق به ويجعله يدرّ . عَيْن : هنا عين السماء في المغرب أي السحاب الذي إذا بدا في ذلك الحين ، لا يخطىء مطره . جُموم : من جمّ الماء ، إذا كثُر .

م يقول إنّه لا يكاد يتوهّم أن المطر سينقطع وتنضب تواليه ، حتّى تعود الريح فتبعثه من سحاب مثقل بمائه لا يخطىءُ مطرُه .

٢ ــ خَبْت : في الأصل هو المطمئن من الأرض وهنا اسم موضع . عَرْعَر : اسم موضع . الجَسيم : ما اطمأنّ من الأرض وعلاه الماء .

م يقول إن ذلك المطر ظلّ ينهمر على ذينك الموضعين ، حتّى غشيهما ، جميعاً ، وفاض فيهما .

٣ ــ المِتان : جمع متن : الأرض الصلبة . الحزن : الأرض المرتفعة ، قليلاً ، عن سواها .

م يقول إن الماء طاف بها وعمّ فيها حتّى بدت ، جميعاً ، في مستوى واحد ارتفع المنفخض منها وانخفض المرتفع .

٤ ــ المُرْتجز : السّحاب الذي يصحبه رعد أي الرباب . فَلْج : أرض . لا يريمها . أي لا يبرحها أو يزول عنها .

م يقول إن ذلك السّحاب كان يصحبه رعد داني القصف ، أقام في انهماره على موضع ذات فلج ، وكأنّه قد أقسم ألا يكفّ عنها أو يبرحُها .

إذا طَعَنَتْ فيهِ الجَنوبُ ، تحامَلَتْ   بأَعْجَازِ جَرّارٍ تَدَاعَى خُصُومُهـا [1]
سَقَى اللهُ مِنْهُ دارَ سَلْمي بِرِيَّـــةٍ   على أَنَّ سَلْمَي لَيْسَ يُشْفَى سَقِيمهَا [2]
مِنَ العَرَبِيّاتِ البوادي ، وَلَمْ تَكُنْ   تُلَوِّحُها حُمّي دِمشقٍ ومُومُهـــا [3]

فالموضوع الأصيل هو الطَّلل الَّذي استحال إلى قَفْر لا يُسْمَعُ فيه إلاّ نعيبُ البُوم ، وهو رمز الوحشة والتّفرُّد والشُّؤم ، وأدلُّ من الوحوش على الخلاء والقفر ، وقد ذكر الشاعر توحُّدها في الجبل وقَرنها بالنجوم الّتي انجابت عنها الغُيوم . ومؤدّى هذا الوصف أنَّها متفرِّدة بذاتها، لا يُزعجها طارىء عن منتجعها الذي لم تَعُدْ ترتاده أَقْدَام الناس . فالانفعال يَشْطر ، هنا ، شطر الخلاء ، يُعَظِّمه للتَّدليل على تعفِّي آثار الأحبة وتغيُّر معالم الأمكنة الَّتي كانُوا يَقْطنونها ناعياً على الحياة والأحياء سنَّة التغيُّر والزَّوال . وفي هذا السِّياق الانفعالي يرد وصفه للنَّبْت والمطر ،

١ ــ طَعَنَت الجَنوب فيه : ساقته . الأعجاز : الأواخر . الجَرّار : الثّقيل ، ذو الماء الكثير . خصومُها : جوانبها .

م يقول إذا عصفت به ريح الجَنوب ، لم تستطع أن تسوقه ، وإنما تتحامل في مؤخرته لثقل الماء الذي يحتضنه ، فهي تدرك جوانبه وتتداعى عندها . والشّاعر يعظم من المطر الذي يحمله السّحاب ، بحيث تعيا الريح عن دفعه وسوقه .

٢ ــ م يعود في هذا البيت إلى ذكر حبيبته ويتمنّى أن تصيبها منه سقياً ، ويردف بأن من يعلق سلمى لا يبرح سقيماً لا ينجع فيه دواء .

٣ ــ المُوم : الحمّى .

م يفخر بتولُّهه بالمرأة العربية البادية الّتي لم تقطن حاضرة الشّام ولم تلوّحها شمسها المؤذية كالحمّى . والأخطل لا يزال يفخر بإيثاره العربيات على الأعجميّات والباديات منهنّ على من غشينَ الحواضر ، وذلك يفصح لنا عن تعصُّبه للبداوة على الحضارة الّتي عايشها حيناً في الشام ومال إليها دون أن تسيغَها وتألفها نفسه .

إذ أن الأمكنة الآهلة لا يَنْمو ولا يَشْمخُ نَبتها لكثرة ما تطأه الأقْدام ويَخْتَلفُ عليه من الماشية .

وبقدر ما يعلو النَّبت بقدر ذلك تضاعف دلالته على الهجر والفراق والعفاء ، وكذلك الأمر بشأن المطر ، فبقدر ما يَشْتدُّ انهماره وسَيْلُه بقدر ذلك يكثر النَّبتُ إثره . فالمطر يُمثّل ذاته، ظاهراً، وضمناً النَّبت والخلاء . فوصفه انفعاليٌّ وليس تقريريّاً ، نقليّاً . فهو يستهلُّ بذكر هطوله ودوامه :

بِمُسْتَأْسِدٍ يَجْري النَّدى في رياضه سَقَتْهُ أَهاضيب الصَّبا ومُدِيمُها

وقد جمع له في لفظتي « أهاضيب ومُديم » خاصتَيْن من خصائص الغلوّ . الأولىوهي الغزارة، يَهْطل بها هطلاً شديداً والثَّانية الدَّيْمومة، إذ لا فضيلة للواحدة دُون الاخرى ؛ فالمطر الغزير لا يجدي إذا كان سريع الانقطاع والدَّائم لا يُجدي كذلك ، إذا كان رذاذاً ضعيفاً . وذاك ما ينمُّ عن الصِّفة الانفعاليّة المتجسِّدة بالمثاليَّة . فالشاعر لا يصف المطر بواقعه ، بل بغزارته المطلقة ، لان للغزارة ارتباطهما بنموِّ النَّبات واطراده . وطبيعة الانفعال هي الَّتي تسوق المعاني في سياقها وتتخيَّر منها ما يُوافق منْطقها . وإذا كان الشاعر في موقف تعظيم نزع به الانفعال إلى المثاليَّة . وهولا يقف من ذلك المعنى عند حَدِّه ذاك ، بل يُمْعن بتأدية التأويل التي تمثّل شدَّته وتماديه :

إذَا قُلْتُ قد خَفَّتْ تَوَاليه ، أَصْبَحَتْ به الرِّيحُ من عَيْنٍ سريعٍ جُمُومُها

فالرِّيح تَستدرُّه من معينه في السَّحاب المُكْتَظّ ، الحافل ، يكاد لا يَنْضبُ حتى يتدفَّق من جديد فهو يتوالد توالداً . وهنا غالى بمعنى الدَّيْمُومة والغزارة معاً ، في إطار من الواقعيَّة التَّعليليَّة الَّتي تَعزْل عناصر تُوحي بالغلوّ . فقد خصَّ الرِّيح لأنها تَعْصف به وتَجْعله أسرع وأغزر والعين وهي تدلُّ على اليُنبوع الَّذي لا يَنْضبُ ولا ينتهي ، والجموم ، وَهْي تَنْطوي على معنى الامتلاء . ومن السَّحاب يَنْحدر إلى الأرض ليؤدي الصُّور التي توحي بهطوله ودوامه إذ يقول :

فما زال يَسْقي بَطْن خَبْتٍ وَعَرْعَرٍ   وأَرضهما ، حتَّى اطْمَأَنَّ جَسِيمُهَا

ومع أننا لسنا ندرك مَوْقع كُلٍّ من مَوضَعي خَبْتٍ وعَرْعَر ، فقد ذكرهما للتكنية على شموله واتساعه كما ان اشارته إلى استنقاعه بينهما ينمُّ بالمشهد الواقعي عن عظم ما هطل منه. وبهذا البيت ربَّما أضاف معنى جديداً هو الشّمول كما مثّل على المعنيين السَّابقين بما ضاعف منهما بالمشهد الحسِّي المنقول .

ويبلغ المعنى ذروته في قوله :

ويمَّمَهَا بالمـاءِ ، حَتَّى تَوَاضَعَتْ   رؤُوسُ المِتَانِ : سَهْلُهَا وحُزُومُهَـا

بمُرْتجزٍ دَاني الرَّبـابِ ، كأَنَّـه   عَلَى ذَاتِ فَلْجٍ مُقْسِمٌ لا يُريمُهَـا

ولقد سما المعنى على ما سَبَقه ووطئه وبل عَفَّى عليه ، إذ كان قد ذكر استنقاع الماء ، أي اجتماعه في مُنْبسط الأرض ، أما هنا فانه ارتفع واحتشد حتى غَشّي السَّهل والرَّوابي ، وجعلها مُتَوازية ، أي أنَّه لم يَعُد نوعاً من المستنقع بل أشبه ما يكون بالبُحَيْرة ، بل أحفل من ذلك اذ أنَّها تَفيضُ فيضاناً حتى على الرَّوابي . فالمعاني تتنامى بعضاً على بعض ، تتنامى وتتعاظم إلى ذروتها من قُدْرة الشّاعر على الخَلْق ، خلق المشاهد الكفيلة بتجسيد المعـاني وتأديتها ، كما أنَّه يَتَفتَّق حتى بالمعاني الذِّهنيَّة الافتراضيَّة كقوله إنّ المطر أقسم على ألا يبرح ذلك المكان . والقسم الافتراضيُّ هذا هو غلوٌّ بمعنى الدَّوام والاستمرار ، كما أن الصُّورة الواقعيَّة التّالية تعظم من احتفاله وهطوله :

إِذَا طَعَنَتْ فيه الجَنُوبُ ، تَحَامَلَتْ   بأَعْجَازِ جَرَّارٍ تَدَاعَى خُصُومُهَـا

فقد كانت الرِّيح في الأبْيات تَعْصفُ به وتُزْجيه ، أما في هذا البيت ، فإنَّه تثاقَل عليه لانه ازداد امتلاءً ، فلم يَعُد للرِّيح قبلٌ بدفعه ، فجعلَتْ تقعي وتعيا من دُونه . وهذه الصُّورة لا تعدو الأسلوب العام الَّذي يَقْتفي عليه الأخطل ، وهو

العثور على المشهد المُوحي العَميق لا يتوسَّل له الخيال النَّافذ فيما وراء الظّاهر ، بل يُحْسن الاختيار من الواقع المبذول وعزله عمّا دونه وتمثيله به وحده .

أمّا في النهاية فإنّه يعود إلى صاحبته سلمى إذ يتمنّى أن يَنْهمر ذاك المطر على ربوعها ويرويها ، بالرغم من أنها أصابته بداء لا يَنْجع فيه دواء. ويمتدحها ، كذلك، بعروبتها الصَّافية ، المتعافية .

ونقول إذ ذاك كُلَّه إن وصفه للمطر يتبايَن عن الوصف البدائي الّذي يَسفّه بعضه بعضاً وتتناقض فيه المعاني وتَختَلُ مستوياتُها بين علوٍّ وانخفاض، أما الأخطل فقد جرى في ذلك على متابعة المعنى ومطاردته ، مرحلة إثر مرحلة ، يكادُ لا يُوهِمُ بأنه أجهَزَ على المَعْنى وقَضَى عليه ، حتّى يُطَالعك بذروة جديدة له يَشْتَقُّها اشتقاقاً من خبرته بالواقع الحسّي ومعاناته له معاناة فعليّة إبداعيَّة . ومع ذلك، فأنّه لا يَبْلُغُ مَبْلَغَ امرىءِ القَيْس والأعشى وعبيد الأبرص، اذ أنهم حشدوا له من الكنايات الحسيَّة العميقة ما لَمْ يَكُن للأخطل قبَلٌ به .

وقد تجري الأبيات االتَّالية على هذا الغرار ، حيث استهلَّ مُتَسائلاً عن مواقع الطّلل العافية لتقدُّم عهدها ومرور الزَّمن عليها ، فَضْلاً عن الرِّياح ، فبدَتْ وكأنَّها بقايا كتاب بالية ، ليخلص إلى وصف المطر المنهمر عليها :

لِمَنِ الدّيارُ بحايِلٍ ، فَوُعالِ دَرَسَتْ وغيّرها سِنونَ خَوالِ ١
دَرَجَ البوارِحُ فَوْقَها ، فتَنَكَّرَتْ بَعْدَ الأَنيسِ مَعارِفُ الأَطلالِ ٢

١ ــ حايِل : موضع في اليمامة . وعُال : اسم موضع . دَرَسَتْ : زالت . خو ال : ماضية .
م يتساءل على غرار القُدماء عن الدّيار القائمة في موضِعَيْ حايل ووُعال ويقول إن معالمَها قد تغيّرَتْ عبر السّنين التي اختلَفَتْ علَيْهَا .
٢ ــ البوارح : الرّياح الشّديدة الحارّة ــ الأنيس : هنا السكّان .
م يقول إن الرّياح الشّديدة الحارّة تَعَصَّفَتْ بها ، فبدّلَتْها ومَحَتْ معالمها ، فَلَمْ تعُد تُدرك .

فكأنَّما هِيَ ، مِنْ تقادُم عَهْدِهــا ، وَرَقٌ نُشِرْنَ مِن الكتابِ بَــوالي ١
دِمَنٌ تُذَعذِعُهـــا الرِّياحُ ، وتــارَةً تُسْقَى بمُرْتَجِزِ السَّحابِ ثِقـــالِ ٢
بَاتَتْ يَمـانِيَـةُ الرِّيــاحِ تَقُـودُهُ حتى استقَادَ لها بغَيرِ حِبـــالِ ٣
في مُظلِمٍ غَدِقِ الرَّبــابِ ، كأنَّما يَسقي الأَشَقَّ وعالجاً بـــدوالي ٤
وعلى زُبالَةَ باتَ منهُ كَلْكَـــلٌ وعلى الكَثيبِ وقُلَّـــةِ الأَدحـالِ ٥

---

١ ــ م يمثّل ما تبقّى منها ، إثر تقادم العهد علَيها ، بأوْراق كتابٍ قديم ، قد نُثِرَتْ وبُعثِرَتْ .

٢ ــ الدِّمن : المنازل . تُذَعذِعُها : تحرّكها وتفرّقها . المُرتَجِز : الذي يتوالى قصف الرّعد فيه . ثِقال : أي ملأى ماء .

م يقول إن الرّياح تعصف بها وتذرو رمالها حيناً ، فيما ينهمر عليها المطر الشّديد من سحاب مكتظّ بالماء ، لا يزال يقصف فيه الرَّعد .

٣ ــ م يقول إن الرّياح الجنوبيّة كانت تعبث به وتسيّره كما تشاء ، دون أن تسوقه ، في ذلك ، بحبال أو أرْسنة . ولقد أدّى الشّاعر المعنى وفقاً لما ألفه من أمر الظّعائن الّتي تساق بالأرْسنة منوهاً بالتباين بين الرّياح وسائقي الإبل وما إليها . وقد كان الشّعر العربي ، في معظمه ، يؤدي المعاني ويستكملها في حدودها الواقعيّة .

٤ ــ مُظْلم : سحاب كثيف أسود . غدِق : غزير . الرّباب : السّحاب . الأشَقّ : موضع . دوالي : جمع دالية ، وهي أداة يُديرها الثّور أو النّاعورة يديرها الماء لتسقي الأرض .

م يقول إنّه سحاب كثيف ، مُتَجهّم ، غزير الانهمار ، كأنّه يسقي المواضع الّتي ينزل فيها بمثل مياه النّواعير .

٥ ــ زُبالة : موضع معروف بطريق مكّة من الكوفة . قُلّة الأدحال : اسم موضع .

م يقول إن ذلك السّحاب انحدر حتّى لامس الأرض في تلك المواضع ، مُشيراً إلى ذلك بلفظة « كَلْكَل » كأنّما تمثّل السّحاب من خلالها بجمل هائل ، عظيم .

وقد يَسْتَهِلُّ في مواقعَ أُخرى بتحيَّة الطَّلل وذكر الحبيبة الّتي خلّفَتْ في نَفْسه السَّقام واليأس ، ثم إنّه ليُخاطبها مخاطبة الوجد والوحشة ، واصفاً المطر الّذي انْهَمَر إثرها على ساحات الدّار ، فمحاها وعفّى عليها . ويخيَّل لنا ان للمطر هنا مَعْنَى الذِّكرى والوُحْشة والنَّدم والبراح . فهو يقول :

ألا حَيِّيــــا داراً لأُمِّ هِشــــامِ   وَكَيْفَ تُنادى دِمْنَةٌ بِســـلامِ ١

أَجازِيَةٌ بالوَصْلِ ، إذْ حِيلَ دونهُ   وما الذِّكْرُ ، بعدَ اليأْسِ ، غَيْرُسَقَامِ ٢

محا عَرَصاتِ الدَّارِ بَعْدِكِ مُلْبِسٌ   أَهاضِيبَ رَجّافِ العَشيِّ رُكــامِ ٣

وكُلُّ سَماكيِّ كَأَنَّ نَشاصَـــــهُ   إذا راحَ أُصْلاً حافِلاتُ نَعــامِ ٤

ولنتمثّل الشّجو والحزن اللّذين يطالعاننا في قوله : « محا عرصات الدّر بعدك مَلْبس » ، وقد أفاض على لفظة « بعدك » بالرغم من تقريريتها كل معاني الوحشة

١ – م يخاطب صاحبَيْه ويدعوهما إلى تحيّة دار أم هشام صاحبته، ويعجب أن تُؤدى التحيّة إلى الدّيار الدّارسة .

٢ – م يتساءل إذا كانت صاحبتُه ستواصله ، بعد أن تعذر عليه لقاؤها ، ويقول إن من يذكر صاحبتَه بعد يأسه من حبّها يرثُ من ذلك السّقام .

٣ – عرَصات : جمع عرْصة : ساحة . أهاضيب : جمع هضْبة : مَطْرة .

م يقول إن عرصات دارها قد تعفّت آثارُها من انْهمار المطر الغزير المتراكم السّحاب الذي يقصف فيه الرّعد عشيّة .

٤ – السّماكيّ : السّحاب المتلبّد . نَشاصه : ارتفاعه .

م يستكمل المعنى ويقول إن المطر ينهمر من السّحاب المتراكم الذي يبدو عند ارتفاعه في العشيّ كالنّعام الحافلة .

والألم والغربة . ففي هذه اللفظة معاناة لمأساة الرَّحيل والشعور بالفراق الذي لا رجعة فيه . ولسنا ندري ، بعد ذلك ، إذا كان امّحاء عرصات الدار والمطر هي مظاهر حسيّة وحسب ، أم أنها رموز عميقة جَسّد من خلالها تَجربة النزوح والحنين . فهو يهطل هطلاناً ، وكأنما تَنهمر أمطاره في الدّاخل ، أو كما يقول فرلين : « إنّها تُمْطر في نفسي ، كما تُمْطر في المدينة » . وهو ، كذلك ، يقصف فيه رعد المساء المتوالي ، وقصف الرَّعد يحمل ، هنا ، معنى الوحدة والخلاء ؛ كأنما يُدوّي ويتفجّر في عالم فارغ ، موحش .

فالطّلل هو طلل حايل ووعال ، أي أنّه مُحَدَّد المكان ، كما هو في سائر القصائد وعامل العفاء الأوّل هو تقادم الزّمن عليه ، والعامل الثاني هو عامل الرِّياح . والمعنى في البيتين ، جميعاً ، هو معنى تقريريٌّ ، مبذول من الذاكرة . فهو أدنى ما يتلقّف في موضوعه ، لا خيال ولا انفعال فيه ، ولا صورة . وربما سما على ذلك بقوله :

فكأنَّما هي من تقادم عهدها ورق نُشِرْنَ من الكِتَابِ بَوَالي

حيث مثل بقايا الطّلل ببقايا الكتاب ، وهو تشبيه يكرره إذ وقعنا على ما يماثله قبلاً بقوله :

هل عَرَفْتَ الدِّيارَ يا ابن أُوْيسٍ دَارِساً نُؤيهَا كخَطِّ الزَّبُورِ

أما العامل الثالث لتعفّيها فهو المطر :

دِمَنٌ تُذَعْذِعُهَا الرِّياحُ وَتَارَةً تُسْقي بمُرْتَجزِ السَّحاب ثِقَالِ
باتت يمانية الرِّياحُ تقودُه حتَّى استقادَ لها بغَيْرِ حبالِ

فالمطر ينهمر من السّحاب الحافل الثّقيل بالماء ، الذي يقصف فيه الرَّعد دون

انقطاع . ومنذ هذا البيت ندرك أنه يصف فيه وصفاً انفعالياً ، نازعاً الى الغلوّ إذ نَعَتَ السّحاب بالثّقل ، أي بكثرة الماء ، ونوّه بالرّعد متكنيّاً به على شدّة النّوء والصَّخب . وإذا كان ثقل السّحاب يوازي ما أشار اليه سابقاً بالأهاضيب ، فإنّ ذكر الرَّعد ، أي الارتجاز ، يبدو جديداً ، لم يُلِمّ به أو يُلمح إليه ، قبلاً . ومثل ذلك صورة الرِّيح التي تقودُ السّحاب ، دون حبالٍ أو أرسنةٍ ، متأثراً ، في ذلك بواقع بيئته حيث لا يزال يُشاهد المطايا تُساقُ بأرسنتها . والصورة لا تُعدَم الخيال ، إلا أنّه ضرب من الخيال الحسي القائم على المماثلة .

ويمضي في وصف ذلك السّحاب بقوله . :

في مُظلم غَدِقِ الرَّبابِ كأنَّمـــا يَسْقي الأَشَقَّ وعالجاً بَـــدَوالي

فهو مُظلم ، أي متكاثف بعضاً على بعض ، وبقدر ما يتجهّم السّحاب ويسودُّ بقدر ذلك يزدادُ مطره وانهماره ، بل إنّه لينهمر ، فعلاً ، كما ينصبُّ الماء من الناعورة . فهو ليس مطراً ، بل سيلٌ متّسع يُغدق على موضعي الأشقّ وعالج كل اغداق . وذكر هذين الموضعَين هو سبيل للتدليل على اتّساعه وشموله ، كما كان تشبيهه بماء الدّوالي قد دَلّ على غزارته. بل إنه لا يقف عند ذلك الموضعين إذ تراه يَنهمر أيضاً ، على الكثيب وزبالة :

وعلى زبالةَ بات منـــه كَلْكَـــلٌ وَعَلى الكثيبِ وقلَّة الأَدْحَـــالِ

وآية هذا البيت في نسبة الكلكل إلى السّحاب نسبةً مباشرة ، فكأنّه تمثّل له في خياله المبدع بمثل جَمَل هائل يَنحدر من السّماء ليُخني على الأرض ، ومع أن الصُّورة تقف عند حدود المضمون الواقعي التمثيلي ، فإن الخيال بدا فيها أشدّ نأياً وقدرة على استحضار المعنى والمشهد والتوحيد بينهما وصهرهما .

وعلى الجملة فان الشاعر ترجّح في هذه الأبيات بين التقرير المُتهادن ، والمعنى

المباشر من جهة ، والصورة التي فكّت قليلاً أو كثيراً من عقال النفس وحرّرتها ، كما أنه ألمّ فيه بذكر الرِّيح والرَّعد والثقل والتّجهّم ، وهي ، جميعاً ، تجسيد لانفعاله بغزارته واتساعه وما اليهما . فالاخطل يوفّق ، غالباً . الى تَلَمُّس المعادلات والكنايات والتشابيه ، بل والاستعارات التي تفي بغرَضِ التَّجسيد .

إلا أن النزعة الوصفيّة ، كأنّما تعود فتسيطر عليه ، فيبدو وكأنّه يُبصره ولا يُعانيه ، إذ يقول :

وكلُّ سماكيٍّ كأَنَّ نِشَاصَهُ إذا رَاحَ ، أُصْلاً ، جَافِلَاتُ نَعَامِ

وقد انقطع بذلك سَيل الوجدان والشعور بالمفازة والفراغ ، فجعل يُطالع سحابه المتراكم بعضاً على بعضٍ في الأفق ، والمتسارع ، حيناً بعد حين ، فيتراءى له أنّه قطيع من النّعام الجافل . ومثل هذا التشبيه يقتصر على حدود الظّاهر ويطغى عليه العقم واللاجدوى . لا شك ان المماثلة هي مماثلة فعليّة حتى النقل والمحاكاة الفعليّة . إلا أنّه لا طائل من دونه إذ اعاده الى ذاته ، ولم يبثّ فيه معاناةً ، أو يُضفِ عليه مَعنى .

ومهما يكن ، فإن السورة الحسيّة لا تَبلغ المدى الذي طغت به على ما دون هذه الأبيات ، أو كما نجد فيما يلي حيث مثّل هطوله بمثل مياه القرب ، مُشيراً الى دوامه واحتشاده :

أَهاضِيبُ الدُّجي مِنْ كلّ جَوْنٍ سَقَاهَا بَعْدَ ساكِنِها سِجَالَا [١]

---

١ ـ الأهاضيب : دفعات المطر . الدُّجى : الظّلمة وهنا إشارة إلى السّحاب الأسود الدّاكن . الجون : السّحاب الأسْود . السّجال : جمع سجْل وهو الدّلْو .

م يقول إنّ المطر انْهَمَرَ عليها من غيوم سوداء ، داكنة ، انْهمار الماء من الدّلاء العظيمة .

فَكَمْ مِنْ وابِلٍ يَأْتي عَلَيْهَـــا يُلِثُّ بِهَا ، وَيَحْتَفِلُ احْتِفَــالاَ ١

وقد يكرِّر ذكر الرَّعد والبرْق تكراراً يسيراً ، كما في قوله :

يا دَارَ ذَلْفَاءِ بينَ السَّفْحِ والغـارِ حُيِّيتِ مِنْ دِمْنَةٍ أَقوَتْ ومِنْ دار ٢
جَرَّتْ عَلَيْهَا رياحُ الصَّيْفِ أَذْيُلَهَـا وَكلُّ غادِيَةٍ بِالمـاءِ مِهْمَــارِ ٣
تَلْتَجُّ فِيْهَا رُعُودٌ غَيْرُ كاذِبَــةٍ في بارِقٍ كنظامِ الدُّرِّ مَــوَّارِ ٤

خلاصة حول وصفه للطلل :

يستهلّ الأخطل ، غالباً ، بذكر الطلل ، ثم يُعَيِّن مَوضعه ويذكر صاحبته والعوامل التي أثرت فيه وأحالته . وهي ، غالباً ، الرِّياح والمطر والنّبت الذي

---

١ ــ ألَثَّ المَطر : دام أيّاماً ، لا يُقْلع . الاحْتفال : هنا الاجتماع .

م يقول إن مطراً كثيراً كان يَنْهمر عليها ولا يكفُّ عنها طيلة أيّام ، وإنّه كان يجتمع ويزْدحم فيها لكثْرة هطوله .

٢ ــ الغار : المنخفض في الجبل ، أي أسفل الجبل . الدّمنَة : آثار النّاس في الدّار .
أقْوَتْ : أقفَرَتْ وخلَتْ من أهلها .

م يخاطب دار صاحبته ويعيّن موضعها ويحيّيها . بعد أن أقفَرَتْ وخلَتْ من أهْلها .

٣ ــ أذْيُلَها : أي غبار الرّيح . الغادية : مَطْرة الصَّباح : المِهْمار : الكثيرة المطر .

م يستكمل المعنى السّابق ، ويقول إن الرّيح العاصفة الصَّيْفية ، الكثيرة ، جرَّت عليها أذْيالها ، وإن المطر الغادي المُنْهمر سكب صوبه عليها وعفّى على آثارها .

٤ ــ تَلْتَجُّ : يرتفع صوتها . مَوّار : يجيء ويذهب .

م يقول إن الرّعد يقْصف قصفاً غير كاذب ، إذ يعقبه المطر ، كما أنّ المطر يتعاقب مُتَلألئاً كالدرّ المَنْظوم .

يَستتبعهُ ، ثم يُعَرِّج على الآثار الباقية إثر ارتحال سكّانه ويُشبّهها ببعض التشابيه . وأهم تلك الآثار النّؤي ، كما في قوله[1] :

وغير نؤي قديم الأَثر ، ذي ثُلَمٍ ومستكين أَميم الرَّأْس ، مُسْتَلَبِ
وغير نؤيٍ رمته الرِّيح أَعْصره فهو ضَئيلٌ كحَوْض الآجن الهَدَمِ
هل عَرَفْتَ الدِّيار يا بْنَ أُوَيْسٍ دارساً نؤيُهَا كخطِّ الزَّبور

وكذلك الموقد والرّماد كقوله :

حيٍّ المنازلَ بَيْنَ السَّفح والرَّحب لَمْ يَبْقَ غير وشوم النَّار والحطب
وعُقَّرٍ خالداتٍ حَوْلَ قُبَّتها وطامس حبشيٍّ اللَّوْنِ ذي طبَبِ
أَتعرف الدَّار أَم عرفان منزلَةٍ لَمْ يَبْقَ غيْرُ مُنَاخ القَدْر والحُمَمِ

وقد يجمع ذكر النّؤي والموقد والرّماد ، معاً كقوله :

أَتعرف من أَسماء بالجَدِّ رَوْسما محيلاً ، ونؤياً دارساً قد تَهَدَّما
وَمَوْضع أَحطابٍ تَحَمَّلَ أَهله وموقد نارٍ كالحمامةِ أَسْحما

ويشير حيناً الى المربض :

وأَوار بَقيْن فيها خلاءً حَوْلَ خَدٍّ من القطا مَأْمورِ

---

١ — عد الى شرح ديوان الأخطل صفحة ٦٩١ و ٦٩٢ حيث تجد ثبتاً لهذه المعاني في الفهرس

والى بئر الماء :

على آجِنٍ أَبْقَت له الرِّيحُ دمْنَةً وحوضاً كأُدحِيِّ النَّعامةِ أَثْلَمَا

وهذه الآثار تؤكّد على النزعة الواقعيّة في وصفه ، يتّخذ فيها جزئيّات الواقع وخطوطه الظاهرة ، الناتئة ، وهي التي تبقى فعلاً إثر ترحّل الرّاحلين .

وربّما ذكر ترابه وشبّهه بالطّحين :

كأَنَّ تُرَابَهَا مِنْ نَسْجِ رِيحٍ طحينٌ ، لَمْ يَدَعْنَ لَهُ نُخَالا

أو تراه يُشَبِّه آثاره ببقايا الكتاب ، كما قدّمنا ، أو ببقايا الأمم :

فأَصْبَحُوا لا تُرى إلا مساكنهم كأَنَّهُم من بقايا أُمَّة ذَهَبُوا

وهناك مظاهر أخر يُدَلِّل بها على شدّة عفائه وخلائه ، وهي البهائم التي تحتلّه ، إثر ساكنيه ، وجلّها من التي لا تُقيمُ إلا في الأمكنة المقفرة المتوحشة . مثال ذلك البُوم :

فأَصبح ما بَيْنَ الكلاب وحابسٍ قفاراً تُغَنِّيها مع الليْلِ بُومُهَا
بُدِّلَتْ بَعْدَ نعمة وأنيس صوت هامٍ ومكنس اليَعفور

أو البقر الوحشيّة :

خلَتْ غيْرَ أَحْدَاثٍ تَلُوحُ ، كَأَنَّها نُجُومٌ بَدَتْ وانجابَ عَنْها غُيُومُها

دِمَنٌ مخدَّمَةُ السَّوادِ ، كأَنَّهـــا   خَيْلٌ هَوَامِلُ بتْنَ في أَجْـــلَالِ
تَرْعَى بحازجُهَا خلال رِيَاضِهَـــا   وتَميسُ بينَ سباسبٍ ورمـــالِ

وقد يجمع بين البقر الوحشيّة والنّعام :

تبدَّلَتْ النَّعـــامَ بأَهْلِهَـــا   وصوار كُلّ مُلَمَّعٍ ذَيَّـــال

وهو يبكي عليه حيناً ، ويحنُّ الى حبيبته من دونه ، وقليلاً ما يظهر وعيه لفاجعة التغيّر والزَّمن . فهو أدنى الى أن يكون موضوعاً تقليدياً .

الباب الثاني

المرأة والغزل

تمهيد : لقد كانت المرأة أحد الموضوعات المُهِمّة التي تصدَّى لها الجاهلي ، كتعبير عن الهموم أو الأفراح الأساسيّة الملازمة لمصيره . فانت ترى امرأ القيس،وقد ألمّ بها إلماماً وصفياً ، حيناً ، في كلّ ملمح من ملامحها وعضو من أعضائها ، بل وطبع من طباعها ، وحيناً آخر تراه يتوّلاها باللذة والشهوة والمغامرة في قصائد تغلب عليها النزعة القصصيّة ، حيث يقتحم عليها مخدعها ويُواقعها مواقعة الفجور والحرام ، غير متحرّجٍ بحرجٍ أو مُتقيّدٍ بحدٍّ أو فضيلة . ولقد جرى الأعشى مجراه في ذلك ، مع الحافٍ في الجانب الحسّي من التجربة ، حتى إنّ قدوم الإسلام ، لم يخفت هذا الإيقاع ، بل إنّه استكمل عُدّته مع الشمّاخ

ابن ضرّار وسحيم عبد بني الحسحاس ومن اليهما . ثم اختصّ جرير في العصر الأموي بتلك المطالع الغزليّة الشّجيّة ، العميقة الايحاء ، النازعة ، غالباً ، مَنزع الوجدانيّة والعذريّة .

أما الأخطل فقد أدمن الخمرة كامرىء القيس والأعشى ، ولكنه لم يذهب مذهبهما في اعتناق فلسفة المُجُون والالحاد الاجتماعيّ ، مصرّحاً بالتهتّك الخُلُقيّ العام . لقد كانت الخمرة بالنّسبة إليه أداةً للهو والطّرب ولم يتكرّس بها للمجانة السّادية الرّعناء ، لهذا ظل موقفه من المرأة باهتاً ، تقليدياً ، إذا جاز التعبير ، لا يقف فيه موقفاً واضح المعالم ، شديد التوتّر ، كما في مدائحه السياسيّة وأهاجيه . فالأخطل ليس من الشُّعراء الوجوديين الذين يُعانقون اللذة والألم في كأس واحدة ، ويبلون حسرة الخطيئة والنّدم والوحشة والعبث والفراغ ، ان هي إلا خواطر تخطر له وأوصاف يتبارى بها ، وان كان يَبثُّ عبر قصائده شعوراً قانطاً أو متشائماً من المرأة ، مسيئاً بها الظّن ، ناعياً عليها تبدّلها وغدرها .

وقد نُصَنِّف غزله ، من هذا القبيل ، في أنماطٍ ثلاثةٍ أوّلُها نمط الوصف العام ، حيث يَشْخَصُ أمام المرأة بحواسّه ، وبخاصة حاسة البصر ، يؤدّي بها ما يطالعه في المرأة ، يعظمه ويُغالي به ويَقْرُنه بسواه . وفي هذا النّمط تظهر ملامح المرأة وأعضاؤها وقسماتها في لَوحة كاملة أو مجزوءة . وهناك النمط الثاني الذي تطفر به الشهوة طفرتها ، يُلمحُ إليها أو يُصرِّح بها ، ويلوب حول مواضع الفتنة واللذة من جسدها . أما النّمط الثالث فهو نَمَطُ السرد والأقصوصة حيثُ يَفخر بما ألمّ به منها ، متعرِّضاً للمخاطر ، مقتحماً لها على غرار سواه ، دون أن يَبلغ في ذلك مبلغ امرىء القيس ، قبلاً ، أو عمر بن أبي ربيعة في عصره .

أولا : **وصفها** : وهو يغلب على شعره فيها ، إذ كان الأخطل من شعراء الوصف ، يميل إليه بميل من طبعه وهوايته . فهو يستهلُّ ، حيناً ، بذكر الطّلل

والحبيبة وينزع إلى وصفها ، غالباً ، عبر هالةٍ من التّذكار حيث يستعيدُ صور جمالها ، يشيدُ به ويتغنّى بكماله أو مثاله .

ففي الأبيات التالية ، مثلاً ، تراه يُخاطب صاحبةً مَوهُومَةً دَعاها أُمّ بِشْر ، ذاكراً نأيها وهجرها ، مستطرداً إلى وصفها :

ألا يا اسْلمي يا أمَّ بِشْرٍ على الهَجْرِ   وعن عَهْدِكِ الماضي ، له قِدَمُ الدَّهرِ ١

ليالِيَ نَلْهو بالشَّبابِ الذي خَـــلا   بِمُرْتَجَّةِ الأَرْدافِ ، طيِّبَةِ النَّشْرِ ٢

أَسيلةُ مَجْرى الدَّمْعِ ، خفَّاقةُ الحشا   مِنَ الهِيفِ ، مِبراقُ التَّرائبِ والنَّحرِ ٣

وتَبْسِمُ عَنْ أَلْمى شتيتٍ نباتُـــهُ   لذيذٍ ، إذا جادَتْ بهِ ، واضحُ الثَّغْرِ ٤

---

١ ــ م يخاطب صاحبته أم بشر ويتمنى لها السلامة ، بالرغم من نأيها لما كان عهده فيها ، قبلا ، من مودة قديمة صافية .

٢ ــ م يتذكر أيام لهوه الماضية بامرأة ثقيلة العجز ، طيّبة الرائحة . وهو يشير هنا إلى صاحبته أم عمرو التي ذكرها في البيت السّابق .

٣ ــ الأسيلة : السّهلة الخدَّين . خفّاقة الحشا : ضامرة . الترائب : جمع تريبة وهي موضع القلادة من النّحر .

م يقول إنها سهلة الخدّ ، ناعمته ، وإنها ضامرة القوام ، هيفاؤه ، وإنها لمّاعة النّحر .

٤ ــ اللّمى : اللثة تضرب إلى السواد . الشّتيت : الأسنان المنتظمة .

م يصف فمها ويقول إنّه ألمى ، منتظم الأسنان ، لذيذ المقبّل ، متألّق .

وما يُلفتُ الانتباه في هذه الأبيات تحسُّره على زمن اللّهو بالمرأة : « ليالي نَلْهو بالشّباب الذي خلا » . وفعل « لَهَا » قد ينمُّ على طبيعة صلته بالمرأة ، وهي صِلَةٌ اللّهو الذي لا تأخذه فيه فاجعة العاطفة وعبوديّتها ، وتنازعه فيها تَنَازعاً عميقاً . أما وصفها فيستهلُّ فيه بنبذة حسيّة إذ يُشير الى ارتجاج ردفَيها من دُونها ، وهو ارتجاج الشهوة والفتنة . إلا أنّه يَعْبُرُ به ويَتَجاوَزُه إلى أوصاف أعفَّ وأعَمَّ ، ذاكراً طيب نشرها واسالة خدّها وضمورها ، وتألّق ترائبها ووضوح ثغرها . وهذه الأوصاف لا تعدو ما هو مأثور في سُنّة الغزل وتقاليده . وربّما خفت فيها الانفعال الخالق ، فحشد من دونه فضائل نموذجيّة ، مثاليّة لها ، ولم يكد يُمَثِّل عليها أو يَشْبهها أو يستعير لها أو يتكنّى عليها . فهو يؤدّي الصفة وحسب ، يقول إنّها طيبة النشر ولا يَصفُ طيبها ولا يُقرنُه بسواه ، فيظلُّ خافِتَ الوَقْع في أنْفُسنا ، لا تُطالعنا سورتُه ولا نتمثّل حقيقته . فهو ي... ما نتلقفّه المرءُ من أمر الطّيب . ومثل ذلك ذكره لاسالة وجهها ، وهي الصفة العامة لجمال المراه العربيّة اقتصر من الاشارة إليه على اداته اللّفظيّ المباشر ، فهو وصف لفظيٌّ ، إذا جاز التعبير . ثم إنّه يتناوس ... اً عضواً ، فيلمُّ بخصرها ويجعله خفّاقاً ، أي ملتوياً ، يُقبلُ ويَصُدُّ ، طرباً ، ضامراً ، وربّما أ...ف الخفقانُ عليه بعض التجربة وسما به عن الوصف اللفظي ، القاصر . أما تألُّقُ ترائبها والتماعها ، فداني المتناول ، قريب الملاحظة ، ينمُّ على أن الأخطل ما زال كالجاهليين يُؤخذ بما يَسطع في ظاهر الحسِّ ، وهو استعارة لقول امرىء القيس : « ترائبها مصقولة كالسّجنجل » ، وقد سما عليه الشاعر الضليل بالتشبيه دون أن ينفذ من دونه الى ما وراء الظّاهر . أمّا ثغرها فقد وصفه بأوصافه وألفاظه إذ قال إنّه ألْمَى ، شتيتٌ ، وهاتان اللّفظتان هما نِعْتاهُ المباشرتان ، تختصّان به وتردفان إثره كأبسط ما يذكر بشأنه .

وعلى الجملة ، فإن الأخطل لم يُبد صفحته الحقيقيّة في الغزل ولم يُبدع إبداعه ، بل تلقّف المعاني بيُسر واقتضاب .

وربّما سما على التقرير في الأبيات التالية ، دون أن يُدرك سورةً من سور الإبداع :

والمالِكِيَّةُ ، قَدْ أَبْصَرْتُ ما صَنَعَتْ ... لَمّا تفَرَّقَ شَعْبُ الحيّ ، فانصَدعوا ١

يُسارِقُ الطَّرْفَ مِن دونِ الحجابِ ، كما ... يَرْميكَ من دونِ عِيصِ السِّدْرَةِ الذَّرَعُ ٢

وعارِضَيْنِ ، يجولُ الطِّيبُ فَوْقَهُمَا ... ومُقْلَةٍ ، لَمْ يخالطْ طَرْفَهَا قَمَعُ ٣

فأنا كالسَّدْمِ مِنْ أَسماءَ ،إذ ظَعَنَتْ ... أَوْهَتْ مِنَ القَلْبِ ، ما لا يَشْعَبُ الصَّنَعُ ٤

١ ـ المالكيّة : امرأة من بني مالك . الشّعْب : المُتَفرّق . انصَدَعوا : تفرّقوا .

م ينقطع في هذا البيت إلى الغزل ، ويقول إنه أبصر ما قامت به صاحبته عند تفرُّق الشّمل والرحيل .

٢ ـ العِيص : الشّجر الملتف . الذَّرَع : ولد البقرة .

م يقول إنّ صاحبته كانت تختلس النّظر إليه من دون الحجاب ، فتبدو عيناها كعيني ولد البقرة الوحشيّة المُلتفت من خلال الأشجار . وقد أقامها بين الشّجر المُلتف ليستقيم التشبيه بين عينيها من دون الحجاب وعينيه فيما بين الشّجر .

٣ ـ العارضان : الخدّان . القمع : البثر يكون في الأجفان .

م يصف خدّيها المُضمّخين بالطّيب وعينيها النّقيّتين اللّتين لا تشوب أجفانهما البثور .

٤ ـ السّدْم : المغموم . الصَّنَعُ : الحاذق بالعمل . شعبَ : أصلح .

م يقول إنّ الهمّ والغمّ اعترياه ، إثر رحيل أسماء ، وإنها أحدثت في قلبه صَدعاً لا يقوى على رأبه وإصلاحه الصَّناع الحاذق .

فالموقف ، هنا ، هو موقف تَفَرُّقٍ ووداع ، لكنَّ الشّاعر أحاله إلى موقف وصف وسرد فيما نزع به واستطردَ إليه . ذاك أن حبيبته جَعَلَتْ تُخالسه النّظر بعيني ولد البقرة الوحشيّة . وقد اعتمد التشبيه التمثيليَّ ، المتعدِّد الأطراف ، دون خلق من لدنه ، بل بتصرُّفٍ في خليّة التشبيه القديم ، العريق في المقابلة بين عَيْنَي الحبيبة وعَيْنَي البَقَرة الوحشيّة أو ولدها . ثم تراه وكأنّه يستبطن الدّلالة على نعيمها من ذكر الطِّيب المتضوِّع على خدّيها ، والمرأة المتطيبة هي المرأة المترفة ، الناعمة ، إلا أن سورة نعيمها تبدو باهتة ، كمعظم معانيه الغزليّة إذ لم يَشْتَقَّ لها تأويلَها واستعاراتها وكناياتها ولم يَتَمرَّس فيها بالصورة البعيدة ، الصعبة المتناول . وقد نتحقّق من ذلك بقوله : « ومُقلةٍ لم يُخالِطْ طرفها قَمَعُ » ، أي لم تعترها البثور ، وهو تعبير فنيّ فاشل إذ اشادَ بالمُقلة بانتفاء العَيْب الافتراضيّ فيها . فالأخطل يُبْدعُ في الوصف الصّحراويِّ ، أو ما إليه ، أما في وصف المرأة ، فهو كأنما يتهادن بل يتخاذل ، فيَحْبُو على أديم المعاني والمظاهر ويقتصر على حدودها اللّفظية و تشابيهها السّاقطة .

أما في البيت الأخير ، فإنّه يعود لذكر الفراق وما آلت إليه حاله منه ، مغرقاً في الماديّة ، إذ مثّله بالوعاء المتصدِّع والذي لا يُرْأَبُ . وهذا البيت يميلُ إلى الوجدانيّة عن الوصفيّة ، ولكنها الوجدانيّة الفاقدة الشجو والذهول .

وقد نقع في أبيات أُخرى على تشابيه أبعد متناولاً وأكثر تفصيلاً ، مع قليل أو كثير من الغنائيّة والشجو . حيث يَعرض لمثل المعاني السابقة ، دون أن يقتصر على إيرادها بشكلها التقريري ، بل يَنْهَدُ إلى بعض التشابيه التي تكسوها بالانفعال والغلوِّ . من ذلك قوله :

فَلَيْسَتْ ظَبْيَةٌ غَرَّاءُ ظَلَّتْ ... بأعلى تَلْعَةٍ تُزْجي غَزالاَ
بأَحْسَنَ مُقْلَةً مِنْها وجيداً ... وَوَجْهاً ناعِماً كُسِيَ الجَمالا

جرى مِنها السّواكُ عـــلى نَقيّ   كأَنَّ البَرْقَ إذْ ضحكَتْ تــلالا ١

كأَنَّ المِسْكَ عُلَّ بهـــا ذكيًّـــا   وراحاً خالطَ العَذْبَ الـــزُّلالا ٢

إذا ما القَلْبُ والخَلْخَالُ ضاقـــا   جرَى مِنْهـا وشاحاها ،فجـــالا ٣

تضُمُّ ثِيابُها كَشْحاً هَضيمـــاً   وأَرْدافاً إذا قامَتْ ثِقـــالا ٤

إذا قامَتْ تَنوءُ بمُرْجَحِــنّ   كَدِعْصِ الرَّمْلِ يَنْهَالُ انهيـــالا ٥

فالأخطل يـَقرن بين الحبيبة والظّبية ، لكنّه ينأى عن الابتذال بالتمثيل والتفصيل إذ يصفُ الظّبية وهي تـَرْتَعي وتُزجي ابنها ، وربّما تعمّد ذكرها في ذلك الوضع أو في تلك الحالة لأن الأمومة تضفي عليها الرِّقة والحنان والجمال . إلا

---

١ ــ السّواك : عود تُطهّر به الاسنان .

م : يقول إن المِسْواك يجري مِنْها على أسنان نظيفة نقيّة تتألق وتتلمّع كالبرق المُتلالىء .

٢ ــ م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ويقول إن رائحة فمها شبيهة برائحة المِسْك الذكيّ كما أن لريقها طعْمَ الخمرة الممزوجة بالماء البارد .

٣ ــ القُلْبُ : السّوار .

م : يقول إنّما ممتلئة الذّراعين والساقين بحيث يضيق عنها السّوار والخلخال . فيما يترجّح ويتمايل وشاحها على خصرها لرقّته وضموره .

٤ ــ م : يكرّر معنى الشّطر الأخير ويقول إن خصرها ضامر ، فيما عظمت أردافُها وتثاقلَتْ . والعرب يؤثرون هذا الضّرب من الجمال .

٥ ــ المُرْجَحِنّ : الذي يهتزّ من ثقله . الدّعْص : كثيب الرَّمل .

م : يقول إن عجزها ثقيل يتمايل ويترجّح من دونها ، وإنّه لطرواته يكاد أن ينهار ككثيب الرَّمل .

أن الوضوح يسطع سطوعه الحاوي من تعداده لمواضع الشّبه في صيغ التمييز ، والشعر لا يسيغ هذه الصيغة لنزوعها منزع التّوضيح والتّفصيل . كما ان التقرير المُسِفَّ يَطغى على بعض معانيه كقوله : « ووجهاً ناعماً كُسيَ الجمالا » . ونعته بالنُّعومة يَدنو به الى العامّية وذكره لاكتسائه بالجمال أوقعه بآفة التجريد ، المتضاعفة بآفة التقرير . أما سائر التشابيه، فتسمُو عليه بالانفعال والصُّورة، جميعاً . إذ جعل البرق يخطف ، بل يتَلألأ في ضحكتها . وهذا التشبيه ينطوي على تنويه ببياض أسنانها ، لكنه لا يقِفُ عنده ولا يُحَدُّ بحدوده ، لأنه يصف ضحكتها وتألّق الجمال وإشعاعه على محيّاها كالبرق . ولقد تنصّت الشاعر ، هنا ، إلى المعاني اللّطيفة الخفرة التي تتضوّع وتتوارى خَلْفَ المعاني الظّاهرة . فالوصف انفعاليٌّ ، ابداعيٌّ وان لم تكن ظلال التقليد لم تَزُلْ منه وتَتَعَفَّ فيه .

وقد يجري، كذلك ، وصفه لرضابها :

كأَنَّ المِسْكَ عُلَّ بِهَا ذكيًّــــــا ورَاحاً خَالَطَ العَــذْبَ الــزُّلَالا

فالمعنى تأليفيٌّ جمع فيه الدّلالة على طيب رائحة فمها بالمسك وعذوبة علّه في الخمرة المَمزوجة بماء السّحاب . والمسك هو التّشبيه التّقليديُّ الذي يُرْمَزُ به إلى طيب الرّائحة ، تداوله الشُّعراء القدماء للخمرة وظل قائماً فيهم حتى العصور العبّاسيّة وما بعدها . ويجري على هذا الغرار تشبيه رضابها بالخمرة ، وهو مستمدّ من الشِّعر القديم ، كقول عبيد الأبرص :

إذا ذُقْتَ فاها ، قُلْتَ طَعْمَ مُدَامَةٍ مُشَعْشَعَةٍ ، تُرْخِي الإزارَ ، قديــحُ

وهذه النّزعة التّوفيقيّة ، التّأليفيّة تَطغى على سائر المعاني ، إذ تراهُ يُؤلِّفُ بين ضُمُور الخصر وامتلاء الذراعين والسّاقين . فالسِّوار وهو حليُّ اليد ، والخَلخال ، وهو حليُّ السّاق لا يَتَقَلْقَلان ولا يترجّحَان ، فيما يخفق وشاحها ويضطرب على خصرها لشدّة ضموره . ولقد كدّ الشاعر في مزاوجة

المَعنَيين المُتناقضين بحيث يغالي أحدهما بالآخر ، فيما هو يَنْقُضُه . التّناقض ، هنا ، يُوَلِّد المثاليّة . ويتّفق مع ذلك قوله :

تَضُمُّ ثيابها كشحاً هَضِيمـــــاً وأَرْدَافاً إذا قَامَتْ ثِقـــــالا
إذا قَامَتْ تَنُوءُ بمُرْجَحِــــنٍّ كَدِعْصِ الرَّمْلِ يَنْهَال انهيـــالا

فالرِّدف الثقيل يترجّح من دو ن خصرها الضَّامر وشدّة ضموره تضاعف من ثقل ردفه ، وهو المثال الذي لا يزال يترسّمُه شعراء الغزل العرب ، ويرد ذكر الرَّمل المنهار ليؤكّد على النّزعة الماديّة المغرقة ، الصَّمّاء .

وقد يجمع المعاني والأوصاف الغزليّة المأثورة في مقطع مجزوءٍ ، بشكلٍ تقريريٍّ ، مباشر ، كذكره لضمورها وامتلاء ساقها وجمال منطقها ودلالها واسترسال شعرها ، مشبِّهاً جمالها بالتمثال والدُّمية ، معتمداً الإطلاق والتعميم بجعلها تفوق كُلَّ من دونها . فهو يقول ، مثلاً ، « في صورة تَمت وأكْمل خَلقها » ، حيث يُمَجِّد الجمال ويُشيد به في الذِّهن التجريدي اللّفظي كالتّمام والكمال وما إليهما . ويكرِّر ذلك بمثل قوله :

تَمَّتْ لِمَنْ نَعَتَ النِّساءَ وأَكْمَلَتْ ناهِيكَ من حُسْنٍ لَهَا وجَمَــــالِ

وهو يكرِّر المعنى الإطلاقي السابق ويضيف إليه ذكر الحسن والجمال ، مضاعفاً من النزعة اللّفظيّة التجريديّة . إلا أنه قد يحاول أن يَرتفع عن أديم التّقرير واطلاقيّة التجريد ، عندما ينزع إلى تشبيهها بالرَّوضة :

بِغَريرَةٍ نَفَخَ النَّعيمُ شَبَابَهـــــا غَرْثى الوِشاحِ ، شبيعةِ الخَلْخَالِ [1]

---

١ ــ الغَريرة : هنا الطّيبة ، البريئة . غَرْثى : هنا ضامرة .
م : يقول إنّها فتاة غريرة ، ضامرة الخَصْر ، ممتلئة السّاق ، وإنّها نشأت في النعيم ، فازدهر شبابها ونَما .

في صورةٍ تَمّتْ وأُكْمِلَ خَلْقُهـــا للنَّاظِرينَ ، كصورةِ التِّمْثـــالِ ١

تَمّتْ لِمَنْ نَعَتَ النِّساءَ ، وأُكْمِلَتْ ناهِيكَ مِنْ حُسنٍ لها وجَمـــالِ ٢

وَمَلاحَةٍ في مَنْطِقٍ مُتَرَخِّـــمٍ مِنْها ، وحُسْنِ تَقَتُّلٍ وَدَلالِ ٣

تَرْنُو بِمُقْلَةِ جؤذَرٍ بخميلَـــةٍ وبِمُشْرِقٍ بَهِـجٍ وجيدِ غَـــزالِ ٤

وبِوَارِدٍ رَجِـلٍ ، كَـأَنَّ قُـــرونَهُ مِنْ طـولِهِ ، موصولـةٌ بِحِبَـالِ ٥

ما رَوْضَةٌ خَضْرَاءُ ، أَزْهَرَ نَـورُهـا بالقَهْرِ بيْنَ شقايقٍ ورِمـــالِ ٦

---

١ ــ م : يقول إن خيالها تبدّى له بصورة مكتملة الجمال كالتِّمْثال .

٢ ــ م : يقول إن من ينعت النّساء ويصفهنّ ، يجد فيها غاية ما يصبو إليه من آيات الجمال .

٣ ــ التّقتّل : التكسّر في السّير .

م : يقول إنّها جميلة الصّوت رخيمتُه وإنّها تسير سير الدلّ والتثنّي .

٤ ــ تَرْنو : تنظر . الجُؤْذر : ولد البقرة الوحشية . الخميلة : الموضع الكثير الشّجر .

م : يقول إن طيفَها بدا له ، وهي تنظر إليه بعين الجؤذر الذي يرتعي الخميلة ، ووجه مشرق وضّاء ، وبجيدٍ شبيه بجيد الغزال .

٥ ــ الوارِد : الشعر الطّويل ، المسترسل . رَجِل : مُسَرَّح . القُرون : هنا الضَّفائر .

م : يصف طول شعرها ، ويقول إنّه يوهم النّاظر إليه أنّه موصول بحبال ؛ أي انّ طوله شبيه بطول الحَبْل .

٦ ــ القَهْر : موضع في أسافل الحجاز . الشّقيقَة : الفُرْجة بين جبلَيْن . النوْر : الزَّهر .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الرّوضة الخضراء ، ليخلص من ذلك بعد أبيات إلى مقارنتها بحبيبته ، مؤثراً لها عليها . يقول إن الرّوضة الخَضْراء المُتَفَتّحة الأزهار في موضع القهر بين الأودية والرّمال .

بَهِـجَ الرَّبيعُ لها ، فَجَادَ نَباتُهَـا ونَمَتْ بأَسْحَمَ وابِلٍ هطَّـالِ ١
حتى إذا التَفَّ النَّباتُ ، كأَنَّـهُ لَوْنُ الزَّخارِفِ ، زُيِّنَتْ بصِقَـالِ ٢
نَفَتِ الصَّبا عَنْهَا الجَهَامَ ، وأَشْرَقَتْ للشَّمْسِ ، غِبَّ دُجُنَّةٍ وطِـلالِ ٣
يَوْماً ، بأَمْلَحَ مِنْكِ بهجَةَ مَنْطِـقٍ بَيْنَ العَشيِّ وساعـةِ الآصَـالِ ٤

وإذا أغفلنا الأبيات الأولى المتهادنة ، بل المُسِفّة، نجد أنّ تشبيهها بالروضة هو محاولة من المحاولات العسيرة التي يَرتادُ فيها التجارب الفنيّة الجديّة ، كما هو شأنه في بعض المدائح . فهذه الرّوضة الخضراء قد عَمّ وحفل نَبْتُها ، بل إن الرّبيع يَنتشر فيها ويبُثُّ البهجة ويَبعث النّبات العميم المرويّ بالمطر الشديد الانهمار . وهناك ألوانٌ وزخارف ووشيٌ وتنميق ، أي زّهور كثيرة ، مُتعدّدة، كما أنّ الشّمس تألّقت وسطعت فيها وبدّدت الظلام . ولقد حشد لهذه الرّوضة عناصر الرّوعة المُطلقة ، كما كان شأنه في وصف الفرات الذي تكنّى به عن

١ ــ الأسْحم : السّحاب المُتكاثف الغُيوم .

م : يقول إن الربيع أيقظها فتألّق نَباتها ، كما أنّ المَطر الغزير انْهمر علَيْها من السّحاب الأسود المُتَجَهّم .

٢ ــ يقول انه إذا ما تكاثر النّبات والتفّ بعضاً على بعض ، فبدا كالزّخارف الكثيرة الألوان المصْقولة .

٣ ــ الصَّبا : الريح الشّرقية . الجَهام : السّحاب البادي العُبوس . الدُّجُنّة : هنا الغمام المطبق ، الريّان ، المُظْلم . الطّلال : جمع طلّ وهو النّدى أو المطر الخفيف .

م : يقول إن الريح الشّرقية بدّدت عنها الغُيوم وأشرقت صباحاً مبلّلة بالنّدى .

٤ ــ م : هنا ينتهي التشبيه الاستطرادي الذي باشره منذ أربعة أبيات ويقول إن تلك الرّوضة الطيّبة النّضرة النّدية ، ليست بأجمل من صاحبته وأمتع من حديثها معه عندما يُقبل عليها في العشي .

الكرم . فالعنصر الأول هو الزّهر وما ينطوي عليه من أشذاء ولون وأشكال ، وإذا نسبناه الى المرأة بدا لنا أن المرأة الشبيهة بالزّهرة هي امرأة الجمال والفرح والنّشوة في نوع من الإحساس العميق بصوفيّة الجمال المتجسِّد فيها . ثم يُضيف الى ذلك ذكر الرّبيع ، وهو تكرار للزّهر ، بل إنّه أعمُّ منه ، إذ يتراءى لنا فيه الصّحو والضياء والماء والخضرة ، ومعنى الجمال المُتَفتّح من جديد ، والمرأة هي ربيع في جمالها وفي تَفتّح الجمال الجديد ، بل تفجّره في صباها ، ويرد ، من ثمة ، اللّون ، وقد جعله كالزُّخرف ، إذ ان للمرأة ألوانها الجميلة في لون بشرتها وتورّد خدّيها ، وألق وجهها وبسمتها وعَيْنَيها ، وتستكمل هذه الصورة بالشمس ، وهي رمز النور والفرح والأجواء الخالية من أي كدر وهمٍّ . فالصُّورة مركّبة ، متعدّدة الأبعاد والجوانب تَمَتْ بتشبيه استطراديّ ، ولكنها تمثل الرُّؤيا الشعريّة عند الأخطل المتجسِّدة في إطارٍ حسِّي ، يُبدعه الشاعر من تحسُّسه العميق بروح الطبيعة وضميرها ونشوته في أرجائها . ومع أنَّ هذه الصُّورة ذات مؤدّى غزلي ، فإنها تُطلعنا على نموذج عميق الايحاء لمدى استغراق الشاعر في عالم الطبيعة وإلفته بها وفرحه في معانقة ألوانها وأشذائها .

ولقد تمازج واقع المرأة وواقع الطبيعة منذ القدم في وجدان الشاعر، يجتزىء، حينا ، بالمقارنة بينهما في التشبيه المبتسر، وأحياناً في الصورة الاستطراديّة المتمادية . فالمرأة تتباين عن الطبيعة ، ظاهراً ، لكنهما تتآلفان وتتعانقان في التدليل على العافية والجمال والفرح وكمال الوجود ومثاله . ولعنترة في معلّقته مثل هذه المقارنة المتمادية بين المرأة والطبيعة ، لكنه ذهب فيها مذهب الوصف النّقلي المنسوخ .

وهكذا يمكننا القول ان الأخطل إذ يُمعِنُ في موضوعه ، أيّاً كان ، يَنفذ فيه ويستطلع منه أقصى ما يُدرك منه ، ويحدق به في كل جهة ويلمُّ بكل احتمال ، فضلاً عن النفاذ الى ضميره . ولنتمثّل عمق الإلتفاتة الأخيرة في قوله :

يَوْماً ، بأَملحَ منك بَهْجةَ مَنْطِقٍ بين العشيِّ وَسَاعَةِ الآصالِ

فهو يؤثر بهجة الحديث على بهجة الرّوضة ، والمهم في ذلك أنه تنصّت الى

جمال الصَّوت حيث ولجت المرأة الى ضميره من خــلال اذنه ، ولم تكن تلج من خلال البصر . فهذه الفلذة تجعلُ الأخطل من روّاد الأطياف الشعوريّة الخافتة ، المنطفئة .

وقد يُعرج من هذا الوصف العام للمرأة إلى بعض اعضائها وملامحها ، فيُغرق ، مثلاً ، بوصف ثغرها ورضابها ، عَبر أبياتٍ تطولُ أو تقصُر في نَوعٍ من التشبيه الاستطراديّ . فهو يستهل بذكر عِناقها ومُقبّلها العذب ، الزّلالِ ،وألق بسمتها المماثل للصَّحو غبَّ المطر ، وبرودة ثغرها الممزوج رضابه بالخمرة والثلج ، وينطلق ، إثرئذ ، واصفاً الخمرة بأوصافها . فالموضوعات الوصفيّة الخاصة كانت تَخلبُ لُبَّ الأخطل ، حيناً ، فينصرف إليها ، مترّوضاً على رياضة الشعر ، متبارياً به على سواه ، وربّما كان الاستطراد سبيلاً إلى هذه المنافسة في ارتياد أقصى غاية المعاني .

اليكه يقول في مثل ذلك :

تَشْفي الضَّجيعَ ، إذا أَرادَ عِنـاقَها بمُقَبَّـلٍ عَذْبِ المـذاقِ زُلالِ ١
صافٍ ، يَرِفُّ كأَنَّما ابتَسَمَتْ بهِ عَنْ غِبِّ غاديَةٍ ، غَـداةَ شَمالِ ٢
شَبِمٍ ، كَأَنَّ الثَّلْجَ شابَ رُضابَهُ بسُلافِ خالِصَةٍ مِنَ الجِرْيالِ ٣

١ ــ م : يقول انها طيبة الثّغر ، تُعِلُّ مُقَبّلَها منه بالرّيق العَذْب الزلال .
٢ ــ يَرِفُّ : يبرق ويتلألأ . الغادية : المَطْرة المُبْكرة .
م : يصف تألّق ثغرها ويقول إنّه يتلألأ ويتألق فيما تعلوه بسمتُها فكأنّه قد علّ بالمطرة المبكرة.
٣ ــ شبِم : بارد . الجرْيال : الخمْرة الحمراء .
م : يقول إن من يقبّله يشعر ببرودة ونشوة كأنّه يحتسي الخمرة المَمْزوجة بالثّلج .

صَهْبَاءَ ، صَافِيَةٍ ، تَنَزَّلَ تَجْرُهــا ببلادِ صَرْخَدَ ، مِنْ رؤوسِ جِبالِ ١
مِنْ قَرْقَفِ الزَّرجونِ فُتَّ خِتامُهـــا فالدَّنُّ بَيــنَ حنــابِــجٍ وقِــلالِ ٢
مِنْ قَهْوَةٍ نَفَحَتْ ، كَأَنَّ سَطيعَها مِسْكٌ ، تَضَوَّعَ في غَــدَاةِ شَمالِ ٣
أَوْ راحِ ذي نَطَفٍ ، يظلُّ مُتَوَّجــاً للشَّرْبِ ، أَصْهَبَ ، قَالِصِ السِّرْبالِ ٤
فكذاكَ نَكْهَتُهَا ، إذا نَبَّهْتَهَــــا والجِلْدُ غيرُ مُـــدَرَّنٍ ، مِتفـــالِ ٥

١ ــ صَرْخَد : موضع في الشّام ، شهر بخمرته .

م : يشير هنا إلى الموضع الذي اجتلبت منه تلك الخمرة ويقول إن تجّارها حملوها من صرخد حيث نمتْ في رؤوس جبالها .

٢ ــ القَرْقَف : الخمرة التي تُحدْث رعدةً في شاربها . الزَّرجون : شجرة الكرم . الحَنَابج . جمع حنبج : المُمْتلىء الضَّخْم .

م : يقول إنها خمرة ترعد شاربَها وإنّها استُخْرجت من العنب الكريم ، وإن ختامَها قد فُت عنها لأنها كانت مقفلة ، معتّقة في دنان كبار وصغار .

٣ ــ نَفَحَتْ : أي بعثت رائحتَها . سَطيعُها : انتشار رائحتها الطّيبة .

م : يصف طيبها ويقول إنّها تَنْفحهُ كطيب المِسْك المُتَضوع الذي تُذريه ريح الشّمال .

٤ ــ النطَف : اللؤلؤ . أصْهب : أشْقر .

م : يقول من راح ساقٍ مزْدان باللّؤلؤ والحليّ لا يزال قائماً لتأدية الخمرة ، وأنّه أشقر ، مُتَقَلّص الرّداء .

٥ ــ المِتْفال : الكريه الرّائحة .

م : ينتهي من وصف تلك الخَمْرة ليخلص في هذا البَيْت إلى القول بأنّ طعم ثغر حبيبته يُشْبهها في طيب مذاقه ويردف بأنّها طيبة الرائحة .

ويلفتنا في هذه الأبيات وصفه للثغر في فلذة تمثّل وقعه في النّفس فضلاً عمّا يطالعه في العين والحسّ . فهو يقول إنّه صاف في نعت مباشر ، لكنّه ليس خافتاً أو راكداً إذ أنّ صفاء الثّغر ليس صفةً مبذولةً فيه ، بل ان الشّاعر استلطعها منه . الصّفاء ينطوي ، هنا ، على معنى الألق والبياض ، يتكامل معناه وينجلي بقوله إنه « يرفُّ ، كأنّما ابتسمتْ به عن غبّ غادية غداةَ شمال » . وقد قرن بين الثّغر ونوع خاص من الصّحو ، ليس الصّحو المطلَق ، بل الصّحو الّذي يتألّق بعد انقشاع المطر المبكر وهدوء العاصفة . وفي مثل ذلك المشهد يكون الصّحو بليلاً كالثّغر ، بل يكون عاطراً مثله ، وكأنّ الشّعاع لا ينطلقُ من الجوّ ، بل ينبعثُ من الأرض والزّهر والشّجر ،ومع ذلك كلّه، فان هذه المقارنة لا تقومُ على المُعادَلة المنطقيّة وعلى الفهم، بل على الحدْس والأستشراف والاستحياء. فأيّة رقّة أعمق وألطف من هذا التّوحيد بين ثغر المرأة والطبيعة النّاهضة من دون المطر والرّيح . هذا بيت من الشّعر الصّافي يعترض في زحمة الأبيات الوصفيّة التقليديّة ، المرتهنة للنّسخ والنّقل .

وينطلِقُ ، من ثمّة ، إلى مقارنة رضابه بالخمرة ، مؤدّياً الأوصافَ التّقليديّة الحاشدة . فهي صافيةٌ ، صهْباءُ ، أجتلبت من الأصقاع البعيدة وما إلى ذلك من أحداث وأوصاف قد تعظّم من شأنِ الخمرة وتظْهر براعته في وصفها ، دونَ أنْ يكونَ لها طائل فعليٌّ في التّعبير عن حقيقة تلك المرأة .

ذاك كان أمره في وصفها اجتزأنا به من قصائده المتعدّدة ، يَرِدُ إثر المقدّمة الطّلليّة وما إليها . إلا أن للأخطل قصائد خصّها بالغزل ، من دون سواه منذ مطلعها حتّى نهايتها ، مُختْلفاً فيها إلى وصفها وتشبيهها بولد الظّبية وذكر زوجها والكاشح الّذي يَعْذله فيها ، يَغْمر ذلك بالإيقاع اللّطيف الشّجي الّذي لا يقصّر عنه الأخطل قط ، متى طلبه وابتغاه .

ففي القصيدة التّالية يَستهِلُّ بذكْر صاحبته ذلفاء الّتي يَسفح من دونها دُموع الفراق فيما يتبرّحُ فؤاده ويُمثل المسافة النّائية الّتي تفصله عنها من خلال الجبال

الشّاهقة والبيداء . وهذه المسافة هي مسافة شعوريّة تجسّدت في هذه المظاهر الطبيعية الّتي توحي بمشقة الاجتياز . ويُعَرِّج ، حيناً ، على وصف السَّراب الّذي تخوض فيه المطايا عبر تلك الصّحاري ، وهو وسيلة أخرى للإفصاح عن الشُّعور بالنّأي واستحالة اللّقاء . ولقد أدّى بذلك لمعنى البعد أداءه إذلم يكن يترسّمه إلا في المسافات الشّاسعة . أي في إطاره الماديّ ، فيما هو يكون نأياً نفسيّاً تقيم صاحبته فيه إلى جنبه ، ولا تُقْبل عليه ، وهذا القرب مع الصُّدود ، هو أشدُّ أذى من النأي بالمسافة . ولا يغْفل عن الغربان المنذرة بالنّأي والتّشتُّت والظّبـاء البارحة ، وهي تنمُّ عن الشُّؤم وتوقُّع الخسارة . تلك كانت المقدِّمة الواجدانيّة الشّجية في التّعبير عن تجربة النّأي ، وهو يَميلُ ، إثرها ، إلى تشبيه صاحبته بالشّادن ، أي ولد الظّبية الذي يَرتَعي مرحاً ، مصوِّتاً ويردف بأنها أملح منه وأبض وأحسن جيداً وثغراً وعيناً ، يتضوَّع منها طيب الكافور والمسك في كل غداة إذ تفسد الأنفاس . وبعد أن يهجو زوجها الخامل يردُّ على النّاصح الكاشح بقوله إنه لا سبيل له إلى هجرها وسلوِّها .

هكذا نظم القصيدة التالية مُتَشبّباً بصاحبته ذلفاء ، ذاكراً بكاءه لفراقها وما يفصله عنها من صحراوات يغشاها السّراب وتَخُوص عيون المطايا فيها ويصيح الغربان ، ثم يقرن بينها وبين ولد الظّبية ويؤثرها عليه ، ويصف طيبها ، مشيراً خمول زوجها ، والكاشح الذي يعزلُه عنها ، ثم يميل إلى ذكر صحبه الذين يجتاز بهم الهاجرة في الصحراء ، واحتسائهم للخَمْرة وإغارتهم وغنمِهم . وينهي القصيدة مهدّداً بني عمّه بالارتحال لمنازعتهم له على نخل أعطوها لعائلته .

التقسيم

١ ـ ٤ ذكر صاحبته ذلفاء
٥ ـ ١٠ المقارنة بينها وبين ولد الظبية
١١ ـ ١٢ خمول زوجها
١٣ ـ ١٩ ذكر الكاشح
٢٠ ـ ٢٤ ذكره صحبه والخمرة والشواء
٢٥ ـ ٣١ الرحيل والغارة
٣٢ ـ ٣٤ مخاطبة بني قومه .

ذكر صاحبته ذلفاء

طَرِبْتُ إلي زَلْفاء فالدَّمْعُ يُسْفَحُ ... وهشَّ لذكْراها الفؤادُ المبرَّح[1]

ومِنْ دونِ زَلْفاء المليحَةِ فاصْطبرْ ... مِنَ الأرضِ أطْوادٌ وبَيْداءُ صَحْصَحُ [2]

بها حينَ يَسْتَنُّ السّرابُ بمِتَنْهَا ... لخُوصِ المطيّ إنْ تَذَرَّعْنَ مَسْبَحُ [3]

وَقَدْ صاحَ غِرْبانٌ ببَيْنٍ وقد جرَتْ ... ظِباءٌ بصُرْمِ العامِريّةِ بُرَّحُ [4]

١ ـ الطّرب : هنا بمعنى القلق . ذَلْفاء : الذّلف : صعر الأنف واستواء الأرنبة ، ومنه سميت المرأة . المُبَرَّح : المصاب بالبَراح أي بالعذاب الدّائم الشّديد .

م : يقول إن دموعه تَنْهمر لنُزوح حبيبته عنه وشعوره بالهمّ من دونها ، وإنّه لا يزال يذكرها فيتبرَّح وجداً إلَيْها .

٢ ـ الصَّحْصَح : هنا المكان الواسع .

م : يدعو نفسه إلى التصبّر على فراق صاحبته ذلْفاء ويقول إنّه يفصله عنها الجبال الشّاهقة والبوادي الواسعة . والشّاعر يشير بذلك إلى إستحالة اللّقاء عليهما وعظم المسافة التي تفصل بينهما فيه .

٣ ـ اسْتَنَّ السّراب : خفق واضطرب . الخوص : المطايا الغائرة الأحداق من الإرهاق . تَذَرَّعْنَ : مددن ذراعهن .

م : يستكمل وصف الصّحراء التي تفصله عن صاحبته ، ويقول إن المطايا الغائرة الأحداق تسبح سباحة في السّراب ، إذ يخفق ويضطرب حولها .

٤ ـ الصّرْم : القطع والهجران : البُرَّح : جمع بارح وهو من الطّير والظّباء ما مرَّ عن يمينك إلى شمالك والعرب تتطيّر منه .

م : يقول إن الغربان كانت قد نَعَبَتْ ، مؤذنةً بالفراق ، كما أنّ الظباء عبرَتْ عن شماله ، مُنْذرة بالتشتّت واستحالة الوِصال .

فما شادِنٌ يَرْعي الحِمى ورياضَهـا يَرُودُ بِمَكْحولٍ نؤومٌ مُـوَشَّحُ ١
بأَحْسَنَ مِنها يَوْمَ جدَّ رحيلُنــا مَعَ الجَيْشِ لا بَلْ هي أَبضُّ وأَصْبَحُ ٢
وأَحسنُ جيداً في السَّحابِ ومَضْحكاً وأَنْجَلُ مِنْها مُقْلَتَينِ وأَمْلَـحُ ٣
لها أَرَجٌ ، جُنْحَ العِشاءِ ، كأَنَّـهُ بِمِسْكٍ وبالكافورِ يُطلى ويُنْضَـحُ ٤
بأَطْيَبَ مِنْ أَرْدانِ ذَلْفاءَ بعدَمـا تغُورُ الثُّرَيّا في السَّماءِ فَتَجْنَـحُ ٥

١ – ٢ – شادِن : ولد الظّبية للذي فُطم عن أُمه . الحمى : ما يحمى من الأرض حول البيت أو سواه ، ويمنع ارتياده على الآخرين . يَرُود : يُقْبل ويُدْبر . المَكحول : هو الذي غشي عينيه سواد كالكحل . النّؤوم : الذي له صوت خافت . أبَضُّ النّاس : أي أرقُّهم .

م : يقول إن شادناً يرتعي روضة ، يُقبل ويدبر فيها ، مرحاً مصوّتاً بصوته الخافت ، إن ذلك الشادن ليس بأجمل من صاحبته إذ طالعَتْه يوم الفراق ، بل إنها أملح منه وأشدّ بضاضة .

٣ – السّحاب : الطّول في الفضاء أي العلو . أنْجَلُ : من النجل وهو في العَيْن سعة وكبر . الجيد : العُنق .

م : يقول إن ذلك الشّادن ليس أجمل عنقاً ومَبْسماً وأوسع مقلةً وأجمل منها .

٤ – ٥ – تَجْنَح : تميل إلى الغروب . الأرْدان : أكمام القميص . جُنْح العِشاء : أي في وقت العشاء .

م : يقول إن الطّيب الذي يُطْلى ويُمْزج بالمسك والكافور والذي يشتدّ تضوُّعه في المساء ، إن ذلك الطّيب ليس بأشدّ من الطّيب الذي يتضوّع من أكمام قميصها ، قُبَيْل الصّبح ، عندما تَفْسد الأطياب والأنْفاس .

إذا اللَّيْلُ ولَّى واسبَطَرَّتْ نُجومُــهُ وأَسْفَرَ مَشْهُورٌ مِن الصبْحِ أَفضحُ [1]

خمول زوجها

فَلا عَيْبَ فيها غَيْرَ أَنَّ حَلِيلَهـــــا إذا القَوْمُ هَشُّوا للمروءةِ زُمَّــحُ [2]

بطيءٌ إلى الدَّاعي ، قَليــلٌ غَنــاؤُهُ إذا ما اجتداهُ سائلٌ يَتَكَلَّــحُ [3]

ذكر الكاشح :

أَذَلْفَاءُ كَمْ مِنْ كاشِحٍ لكِ جاءَني فأَحْفَظْتُهُ إذْ جــاءَني يَتَنَصَّحُ [4]

١ ـ ٢ ـ اسبَطرَّت : امتدَّت وأسرعت . زُمَّح : ذميم لئيم .

م : يقول إنّه إذا ولّت النجوم وأدبر الليل وتبلّج الصُّبْح الواضح الصَّاحي ، فإنّها تتجلّى فيه دون أن يشينَها عيب ، إلاّ أن حليلَها لشدّة تولهه بها ، لا يكفّ عن القيام بجنبها ، فيفتقد مروءته ، ويُلْفى قاعداً عن الجلّى في الناس . وربما أشار بذلك إلى أن حليلها كان فعلاً قعيداً ، كما يتبيّن لنا من البيت التالي .

٣ ـ م : يستكمل معنى البيت السّابق ويقول إن زوجها يتباطأ ، فلا يهرع إلى النّجْدة ، وإنّه لا يُغْني ولا يفيد في مقام البطولة والشّجاعة ، وإنّه يتَكلّح ويتَعَبّس ، إذا ما اجتداه مُجْتَدٍ ، وطلب عطاءه .

٤ ـ الكاشِح : العدوّ المُتَبَطّن بالعداوة . أحْفَظْتُهُ : أثرت حفيظته ، أي حقده .

م : يقول إنّه طالما نصحه قوم بالتولّي عنها ، وهم يُضْمرون له البغضاء ، فلم يُذْعن لهم ، بل إنّه ضاعف من حقدهم عليه لتمنعّه عليهم .

يقولُ أَفِقْ عَنْ ذكرِ دَلْفاءَ وانْسَها   فما لكَ مِنْ حَتْفِ المنيّةِ مَجْمَحُ[1]
فقُلْتُ اجتَبَتْني لا أَبا لكَ واطَّرِحْ   ففي الأَرْضِ عنّي إذْ تباعَدْتَ مَطرَحُ[2]
فَكَيْفَ تلومُ الناسُ فيها وقد ثوى   لها في سوادِ القَلْبِ حُبٌّ مُبَرِّحُ[3]
وحُبِّيَ جِدٌّ لَيْسَ فيهِ مُزاحَةٌ   فيَرْتاحُ قَلْبي إذْ يراهُ ويَفْرَحُ[4]
وإنِّي لأَهْوى المَوْتَ مِنْ وجدِ حُبِّها   وَلَلمَوْتُ مِنْ وجْدٍ أَلَذُّ وأَرْوَحُ[5]
وكل هوًى قدْ بانَ منّي ولا أَرى   هوى أُمِّ عَمْرٍو مِن فؤادي يبْرَحُ[6]

١ ـ مَجْمَح : هنا مهرب وخلاص .

م : أي أن الكاشح المُضْمِر للعداوة ، كان ينْصحه ويدعوه إلى سلوّها ، لأن حبّه لها سيُورده موارد الهلاك .

٢ ـ اجْتَبَتْني : ملّتْني . اطّرحْ : أي إلَيْك عنّي :

م : يخاطب الكاشح الذي يدعوه إلى هجرها ، ويقول له إن ذلفاء سلَبَتْني رشدي ، ويزجره عنه ويقول له إن لك منأى عنّي في أي مطرح من مطارح الأرض .

٣ ـ م : يعجب أن يلومه النّاس في حبّها ، فيما قد أدرك حبّها شِغاف قلبه ، مُصْلياً فيه العذاب .

٤ ـ م : يقول إنّه لا يهزِلُ ويتمازح في حبّه ليتخلّى عنه ويسلوه ، بل إنّه يطْرب لمرأى الحبيبة ويفرح به .

٥ ـ م : يقول إنّه ليؤثر الموت على حبّها ، لأن الموت أيسر عليه من الحب .

٦ ـ م : يقول إنّه قد نسي كل حبّ من دون حبّها ، إذ لا طاقة له بسُلُوِّه .

ولئن لم تكن هذه القصيدة من الوَصف الخالص ، إذ تعترض فيها المناجاة والخواطر فقد آثرنا أن نبذلها كنموذج للقصيدة الغزليَّة الكاملة ، القائمة بذاتها ؛ المستوفية حتى للمقدّمة الطّلليَّة المأثورة . ولقد ذكر فيها الدَّمع كامرىء القيْس : « طَرِبْتَ إلى ذَلْفَاءَ ، فالدَّمع يُسْفح » والدَّمع قد يتّخذ ، هنا ، ككناية على العذاب ، من دون دلالته الفعليَّة . إنَّه تَعْبير فزيولوجي عن العذاب ، رسمه بشكله الخارجي ، ممَّا يُضْعف من سورة الغُلُوِّ فيه ويدعه أكْثر تَعقّلاً . على أنه ، في ذلك كُلّه ، معنى تَقْليديّ ، مَنْهوك . ويَنْهج على الغرار ذاته في استحضار سُورة النَّأي من خلال الأطواد والصحاري والسرَّاب والغراب والظِّباء البارحة . وقد لا تكون هذه العوائق قائمة ، فعلاً ، بينه وبين صاحبته ، إلا أنَّه وقَّعها توقيعاً وجدانيّاً خاصاً . فأية مشقّة هي أَعظم من اجتياز الجبال وقَطْع الصَّحاري ؟ فالجبل والصحراء لم يَعُودا ، هنا ، مادّةً للوَصْف ، بل كناية لمعاناةٍ إنسانيَّة متَّصلة بالألم والمستحيل والشَّوْق . وقد تنطوي كناية الصَّحراء فضلاً ،عن ذلك،على معنى الوحشة والتفرُّد واللانتهاء ، يضرب فيها دون أن يُوفي إلى غاية أو مستراح ، كما أن السَّراب يؤدي تجربة الضَّلال والتّيه والتشرَّد ، فيخوض فيه ، كأنما يَخوض من نفسه في عالم الحيرة والرِّيبة ، تَلْتبس عليه سُبُل الخلاص من انشوطة نَفْسه . فهذا العالم المادي الّذي تضافَرَتْ فيه العناصر الدَّالة على الغُربة والمفازة هو مماثل إيحائي للحالة الّتي يُعَانيها الشَّاعر ، كأن الجبال والصّحراء والسَّراب قائمة في نفسه وليس في العالم الخارجيِّ . هنا بلغ التَّجسيد مداه واهتدى إلى غايته وتسرَّب إلى طينة المظاهر العمياء ليتَّخذ منها شكله وليُؤَدّي لها مَعْناها .

إلا أن الأخطل يَنْزع عن تلك الوجدانيَّة السَّيالة المُبْدعة ، إلى الوصف الاستطرادي المتطاول بالتّفاصيل والجزئيّات . فهو يُمثّل الشّادن في أوضاع لهوه وفرحه وطربه ، أي في تلك الأوضاع الّتي يتألّق فيها جماله ويؤثر عليه صاحبته ذلفاء ، مُفَصِّلاً في ذلك بصيغة التَّمييز النَّابية في الشّعر لنزوعها مَنْزع الإيضاح : « وأحسن جيداً . . . ومضْحكاً . . وأنجل منها مُقْلتين»، والتَّفصيل ألمَّ بمعظم ملامح المرأة : لدنها وجيدها وثغرها ومقلتاها ، فالمقابلة تخصيصيَّة يبتغي الشَّاعر

منها الغلوّ والشُّمول . ولو استَبْطَن المقابلة ومَوَّههـا لكانت أكثر إيحـائيَّة . ويُعَرِّج على وصف طيبها :

لها أرج جُنْحَ العشاءِ ، كَأنَّه   بمِسْكٍ وبالكافور يُطْلى ويُنْضَحُ

وطيب المرأة هو رمزٌ لتَرَفها ونعيمها ، إذ لا يزال الطِّيب ربيب الرَّفاهية والفتنة . وعلى ما دأب عليه ، فإنَّه يدع طيبها يَتضوَّع في اللَّحظة الَّتي لا ينتشر من المرأة إلاَّ ريح الفساد ، أي في مطلع الصَّباح ، وهو يقرنه بسواه ليُدنيه ويغالي به ، ذاكراً المسك والكافُور . والأول أكثر تداولاً في الشّعر من الثّاني .

وإذا كانت غايَةُ الشَّاعر أَن يُوحي بطيبها ، فقد أَدرك قَليلاً أَو كثيراً من ذلك من تأديته بسُورة الغُلُوِّ اللّفظي ، حيناً كلفظة « أَرج » الّتي تدلُّ على الطِّيب ، وفضلاً عن ذلك على شدَّة تضوُّعه ، إنه غلوٌّ بالطيب ، ويمثِّله ، حيناً آخر ، من خلال خبرته الحسيَّة بقوله : « جُنْح العشاء » ، وهي اللَّحظة الّتي تشتدُّ فيها الرَّوائح ، إذ تغيب الشمس الّتي تبدّدها وتبخرّها بحرِّها ، وينثني إلى التشبيه ، استكمالاً لسُورة الغلوِّ ، فيجعله مطلياً ، ناضحاً بالمسك والكافور ، متوسِّلاً فِعلَيْ « يُطْلى ويُنْضح » وهما ، كذلك ، فعلان انفعاليان إذا قُرِنا بما يُنْسبان إليه . وهذه الأبيات ليست من الأبيات اليسيرة في شعر الأخطل ، إذ لا تزال التّشابيه الاستطراديَّة تَنِمُّ لديه على ارتياد التّجربة بالمشقّة والعسر .

وهنا يَرِدُ ذكر زَوْجَها ، وقد تردَّد الشُعراء على ذكره في باب فخرهم حتّى بتغرير المرأَة المحصَّنة ، وجرى على رأسهم في ذلك امروء القَيْس والأعشى . أما الأخطل فقد هجا زوج برَّة خلال مدحه ليزيد إذ كان قميئاً ، منتناً يواقع إمرأة ليِّنة ، جميلة . أمَّا زوج زلفاء ، فيتّخذ ، خلال هذه القصيدة ، شخصيَّة أخرى . فهو ليس قميئاً ، أو منتناً ، بل أنَّ له في نفسه مثلَ قماءة زوج برَّة ونتْنِه . ذاك أنه غدا فاقد المَرؤَة والمسعى ، لقيامه الدَّائم في كنف زوجه الجميلة ، لا يُطيق فراقها

حتّى يَدْأَبُ دأبه ويَسْعى سعيه . لا شكَّ أن الشّاعر اعترض بذكره في مقام الغُلوِّ بحسن زوجه ، كأنَّه اتّخذه ذريعة ، يُعظّم من أمْرها بقدر ما يُحقِّر من شَأْنه . إلا أنّه لم يَقْتصر على ذلك قط ، بل تَوَلاّه في طباعه الفروسيَّة العربيَّة ، فاقذع به وثلبه . ذاك أن الأخطل ، في حسِّه الجماليّ ، كانَ يأنَفُ أن يَلْتقيَ الجمالُ القُبْح وان يرتّهن له ،أو كأن الجمال لا تليق به إلا البطولة أو يغدو جمالاً بائساً كجمال برَّة وذلفاء .

وكما توسَّل الزَّوْج لتعظيم جمال زوجه ، يتوسَّل الكاشح ليُعظِّم من أَمر حبِّه لها . وهو يَنْهج هنا ، أيضاً ، على نَهْج الغُلُوِّ المتنامي الَّذي لا تحدُّه حدود . من ذلك أنَّه ليس ثمّة كاشح واحد ، بل كشحاءُ كثيرون : « كَم من كاشح » ، يتألَّبون عليه ، ليَصدُّوه عنها ، ولكنَّه يتَعصَّى عليهم ويَخْذلهم حتّى لو أَوْفى به ذلك إلى الهلاك . فالموت في الوجد ألذُّ من الحياة ذاتها . وهذه النَّبذة الأخيرة تَدْنو إلى العُذريَّة المأثورة في شعر جميل ومن اليه حيث يبدو المحبُّ وقد توحَّدَتْ في نفسه تجربة الحُبِّ واليأس والموت .

ثانياً : **المرأة والشهوة** : كانت الشّهوة مكتومةً في الشّعر الجاهليّ ، ولم تُسْفر أَو تَطفر إلا في شعر أمرىء القَيْس وبعض لمع من شعر الأعشى وقصيدة يتيمة للنَّابغة ، هي قصيدة المُتَجرِّدة . ثم جاء الشمَّاخ وسُحَيْم ، فبثّا قليلاً أو كثيراً من تَنَفُّسات الشَّهْوَة في شعرهما ، ولم يكد عمر بن أبي ربيعة يواقِعُها أو يُفْصح عنها ، إذ أنّه راود المرأة مراودة الفُتُون والتّرَف بنوع من التجربة المفعمة بالعنانة . ولم يكن الأخطل من مدمني لذَّة الجنس ، كما يبدو من سيرته وشعره ، بل خطر بفلذات من ذلك في مقاطع وأبيات تغلُبُ عليها صفة التّقليد . والواقع أن التَّجربة الأولى والدَّائمة للشّعر تصدر عن النّزاع بين الواقع والمثال ، واقع العبـوديَّة والارتهـان للحسِّ والغريزة ، وهما أمران حتميَّان ، ومثال التحـرر والتطهُّر والارداة . وعامـل الشّهوة هـو الأطغى على شعر امرىء القيس ، بل إنّه باعثُه الأول وهو الَّذي طبعه بطابعه الوُجوديِّ الحادِّ ،

بل إنّه هو الّذي حرّك تجربة طرفة المتمادية القانطة . أمّا الأخطل ، فقد واقع اللّذة في الخمرة ، لكنها مواقعة حسيّة تنحدر بها إلى جوفه ، فيما لم تكن تنحدر على جوف طرفة ، بل إلى ضميره . لهذا تراه يعبُرُ بالشّهوة عبوراً طارئاً ، ولا يُغرِق في ذلك .

فهو يقول مثلاً :

ولَيْلٍ كساجِ الطّيْلسانِ ، لهوْتهُ بمُرْتَجّةٍ هيفٍ ، خماصٍ بُطونُها[1]
إذا احتثّها الرُّكْبانُ ، كانَ ألذّها إلى ذي الصّبى ، ذو ضِغْنها وحَزُونُها[2]

فهو يفخر ، هنا ، فخر امرىء القَيْس بمواقعة المرأة في اللّيل الحالك الظُّلمة ؛ كما أنّه يصفُها بوصف الشّهْوة ، مشيراً إلى الأرداف المهتزة ، إذ كان العربي يُؤثر سمن الرِّدفَيْن ويشبِّههما بدعص الرّمل أو النّقا . وارتجاجُها ينمُّ عن لينها ونضارتها إذ أن المرأة العاملة أو المتقدِّمة في السّنّ تغلُظُ وتقْسُو خلاياها ، وعقّب على رجاحة الكفل بضمور الحَصْر وهيفه ، وأحدهما هو شرط للاخر ، إذ ان شدّة الضمور تضاعف من رجاحة الكَفل . ويذكر ، كذلك ، البطن ، وهي

---

١ ــ السّاج : الطّيلسان الأخضر أو الأسود . خِماص : جمع خَمْصاء : الضّامرة البطن .
م : يقول : كم ليلة قضيتُها لاهياً بالمرأة اللّينة الأرداف ، الضامرة الأحشاء .

٢ ــ احتَثّها : هنا بمعنى أهاب بها واستعجلها الوصل . الحزون : الصّعب الارتياد ، وهنا بمعنى ذي الأخلاق السيّئة .

م : يقول إنّه إذا راودها الرّكبان ، وحاولوا أن يستميلوها ويدركوا وصالها ، فإنّها لا تسلس قيادها ، ولا تقبل إلاّ على الذي يُضاغِنُها ويتعصى عليها . ومؤدى المعنى أن المرأة تصدُّ عمّن يُقبل عليها ، وتُقبل على من يصدُّ عنها .

الظّاهرة الشّهويّة الثّالثة في عجالة هذا البَيْت ، الاولى هما الرِّدفان والثانية الخصر ، والثّالثة البطن . الا أن الأخطل يَلْمح ولا يُصَرِّح ويصف ويشفُّ ولا يَخْلع عذار الحشمة إلى الأباحيّة السّاديـة كامرىء القيس . ووجه الفَخْر أنَّ تلك المرأة استسْلَمَتْ له ، من دون سائر صحبه .

والابتسار يُرافِقُ مُعْظم أبياته الشّهويّة ، وقد يَدْنُو به، أحياناً ، إلى ما يُشْبه الصَّراحة دون الاباحيَّة . فهو لا يَحْرج من التكنّي عن بَطْنها بالمَوضع الّذي يُلْقى عليه الزَّوج أَو بالقول إنه مُنْبَطَح يُبَطح عليه ، كما أنَّه يتكنَّى عن رِدْفَيْها بالقَوْلإنَّها تَهتَزُّ في سَيْرها ، أي أن ردفيها يَهْتزّان . والشّهوة تَنْضَحُ من هذه الصورة القاطبة ، المولِّية . نقع على ذلك في مثل قوله :

تروقُكَ عَيْنـاها ، وأَنْتَ ترى لهـا   على حيثُ يُلْقي الزَّوْجُ مُنبطَحاًسَهْلا [1]

إذا السّابِريُّ الحُرُّ أَخْلَصَ لوْنَهـا   تَبَيَّنْتَ لا جيداً قصيراً ولا عُطْلا [2]

١ ـ الزَّوج : نمط من صوف يطرح على الهودج أو على الفراش .

م : يقول إنها جميلة العيَنْنَين وإنّها ضامرة الحَشا ، إذ أُلْقي النّمط عليها يسهل ولا يرتفع لضخامة خصرها .

٢ ـ السّابري : الثّوب الرّقيق من أجود الثّياب . الحُرُّ : الخالص البياض : أخْلص لونَها : زيّنها . العُطْل : الخالي من الزّينة .

م : يقول إنها ، إذا ما ارتَدت ثوبها السّابريّ ، تألق نحرها ، فبدت عنقها طويلةً مزيّنةً بالحلي .

إذا ما مَشَتْ تَهْتَزُّ لا أَحْمَرِيَّـــــــةٌ ولا نَصَفٌ تَظُنُّ من جسمها دَخْلا ١

فالاوصاف الغالبة ، هنا ، هي أوصاف الشّهوة والترّف ينسب بها إليها الجمال والحريّة والاصالة . ولكنها ليست الشّهوة المُوبقة الّتي يبتزّها بها من ثيابها ، كامرىء القيس ، بل نوع من الشّهوة الجماليّة للمرأة الكاملة في نفسها وأصلها وجسدها . وقد كان الأخطل يَفْخر في غزله بالأبيات التّالية ويجد أن سواه من الشّعراء لم يُجَاره بها . وقد استهلّها بمخاطبة صاحبته هند ، ناسباً إياها إلى بني قَوْمها الّذين يُعَادون بني قومه . وعداوة الأهل قصة مأثورة للتّنويه بعذاب المحبّين في العراقيل التي تعترض حبّهم ، إذ يحول من دونهم فيه بنو قومهم الأخصاء . وربّما انطوى ذلك على دلالة في طبيعة الحُبِّ الّذي يجري على منطق خاص ، لا يحْفل بما دون ذاته ولا يتقيّد بالقيود الخارجيّة القاسرة له ، المفروضة عليه . والأخطل لم يَبْتكر في ذلك تجربته ، إذ كان هذا المعنى متداولاً فيمن سبقه ، وقد ألمّ به في عجالة المطلع ، دون أن يُقَصِّر في بُلُوغ أقصى غايته منه ، إذ جعل العداوة قائمة حتّى « آخر الدّهر » . ثم انه يَخْطر بعرض آخر من أعراض الحبّ ، وهو اعتلاقه به وانسياقه إليه ، دون إرادة منه أو تنبّه اليه . فكما أن الحب لا يَحفل بالقيود الاجتماعيّة ، فهو لا يحفل ، أيضاً ، بصاحبه ، فيعتريه بكل عُنْف ويُزْجيه في سبيله ، على غفلة منه . وينصرف اثرئذ إلى وصفها ، مترجّحاً بين الحسيّة والشّهوية ؛ فهو يقول :

١ ــ أحْمَرِيّة : حمراء . الدَّخْل : الدّاء . نَصَف : هنا بمعنى المتقدّمة في العمر ، أو التي أوفت منه إلى منتصفه .

م : يقول إنها إذا ما مشت تهتزُّ أردافها وإنّها ليست حمراء أي ليست أعجميّة ، كما أنها لم تتقدّم في العمر ، بل هي فتيّة ، متعافية ، لا يخيّل إليك أنّها مصابة بسقام . وإذا جاءت « نصف » بمعنى الخادمة يكون مؤدّى المعنى أنها ليست أعجميّة وليست أمة ، بل عربيّة حرّة .

أَلا يا اسْلَمي يا هِنْدُ هِنْدَ بني بَدْرِ   وإنْ كان حيّانا عِدىً ، آخرَ الدَّهْرِ [1]
وإنْ كُنْتِ قَدْ أَقْصَدْتِني ، إذْ رَمَيْتِـــني   بِسَهْمِكِ ، والرَّامي يُصيبُ ، ومايدري [2]
أَسيلَةُ مجرَى الدَّمعِ ، أَمّا وشاحُهــا   فجار ، وأَمّا الحِجْلُ منها فما يجري [3]
تَمُوتُ وتَحْيَا بالضَّجيعِ وتَلْتوي   بِمُطَّرِدِ المَتْنَيْنِ مُنْتَبِرِ الخَصْرِ [4]

فالبيتان الأولان هما أدنى إلى الخواطر في طبيعة الحبِّ وحتميَّته واطلاقه وشعوره بالقهر والقسر في النَّاس ، كأن عالمه غريبٌ عن عالمهم . أما وصفها ، فلا يَعْدو المحاسن العامة المكررة في سياقٍ مُتَبايِن . فهي « أسيلة مجرى الدَّمع » أي طويلة الوجه ، وهي ميزة عامَّة من مميّزات الجمال العربيّ ، لا ذاتيّة ولا جدَّة في ذكرها

١ ــ العِدى : التباعد ، يقال للمُتباعدين : لا أرحام بينهم ولا أسباب من جوار ولا حلف قوم .

م : يخاطب صاحبتَه هنداً ويرجو لها السّلامة ويَنْسبها إلى بني قومها . ويقول إنّه يأمل أن يقيما على المودّة بالرغم من الجفاء بين قوميْهما .

٢ ــ أقْصَده : أصاب به مقتلاً .

م : يقول إنّه يتمنّى لها خيراً ويرجو لها سلامة بالرَّغم من أنّها أصابَتْه بسهام حبّها دون أن تدري ، فأصابت منه مَقْتلاً .

٣ ــ أسِيلَةُ مَجْرَى الدَّمْع : أي سهلة الخدّين . الحِجْل : موضع الخلخال .

م : يقول إنّها سهلة الخدّين . وإن وشاحها جارٍ ، أي أنّها ضامرة الكَشْحَين ، وإن ساقها ممتلئة . فلا يتحرّك خلخالها فيها .

٤ ــ م : يصف لين جسدها وانتصابَ قوامها ، ويقول إنّها إذا ما ضوجعت تُصاب بمثل إغماء الشّهوة ، وإنّها مُطّرِدَة المَتْنَين أي منتصبة القوام ، وإنّها منتبرة القوام أي ضامرة حتى ليكاد قوامها أن ينقطع .

وعرضها . أمَّا الوشاح والحجل فإن لهما شأناً خاصاً يَجْري في كلاسكيَّة الغزل في إيثار ضمور الكشح والحصر وامتلاء السَّاق وتعبُّله. والصورة في قوله : « أما وشاحها ، فجار ، وأمَّا الحجل منها ، فلا يَجْري » هي صورة كنائيَّة ، ينْطوي جريانُ الوشاح فيها على نضح قليل أو كثير للشَّهوة لايحائه بالتواء خصرها وانهياره وانْخذاله . ولعلَّ هذا الوصف أن يدنو إلى النَّحت بالألفاظ ، كأنه يصوغ لها جسداً من طينة الألفاظ ، أو كأنه جار على غرار المذهب البرناسيِّ الّذي يتّخذ النَّحت مثالاً أعلى للشّعر كله ، في تلك الحركة السّاكنة ، الثّابتة ، أو في ذلك الجمال الواضح السّاكن ، الهادىء . إلا أن الأخطل لا يُحسن سبل البناء والنموِّ ، غالباً ، فنرى وصفه مُتَفكّكاً ، متواتراً ، يتردَّد ويتكرَّر في مستوياتٍ متوازيةٍ للمعاني . فهو يعود إلى ذكر الحصر ، شاطراً إليه من خلال قوامها ، جميعاً ، ويجعل الحصر ضامراً حتى الانقطاع والانبتار . ومع أن هذه الأوصاف هي أوصاف لفظيّة ، افتراضيَّة ، تظلّ عميقة الايحاء بغرض الشّاعر وانفعاله . إلا أنَّ الشّهوة تُسفر وتتنفَّس بل وتتلمَّظ في قوله : « تموت وتحيا بالضَّجيع » مصوِّراً في ذلك اغماء اللذَّة وتماديها في الاستجابة اليها ، فكأن جسدها هو جسد اللّذة الصرف ، الخالصة . لقد ابتنته الطبيعة وشكَّلته بشكل اللذّة والشهوة إذ قطعت خصره وملأت ساقيه وبالتّالي ردفيه وحرَّكت صاحبته بحركة الشّهوة العميقة ، فكأن صاحبته تعانق اللذّة بمثل غيبوبة الموت ، بل إنها لتحيا فيها وتتملاها وتبلغ منها أوْجها . وبالرغم من هذه الصّراحة الايحائيَّة ، فان فضيلة المعنى قائمة هنا على التكثيف الشّديد للتَّجربة ، يُوفي منها إلى أعماقها في أقل قدر ممكن من اللّفظ ، جاعلاً للفظة الواحدة مدى عشرات الألفاظ التفسيرية الباهتة . فالموت أو الانبعاث عبر الشّهوة يوحي بكلِّ حالة من أحوالها ، وتَجْربة من تجاربها ؛ فالانفعال ، هنا ، نافذ البصيرة يتّجه إلى الدَّاخل فينيره ، بدلاً من أن يَطْفُر طفرته الرَّعناء إلى الخارج بتُرهَّات الغُلوِّ والتَّفشير .

* * *

وقد يرتاد لتجارب الشهوة في شعره سبيل الذُّكرى والحنين إلى لياليها ، مُفَصِّلاً بالتَّوضيح ، بدلاً من الابتسار بالتَّلميح :

يا يَوْمنا عِندها عُدْ بالنَّعيمِ لَنَـا مِنْها ويا لَيْلَتي في بَيْتها عُـودي ١
إذْ بتُّ أَنْزِعُ عَنْها حَلَيها عَبَثـاً بَعْدَ اعتِناقٍ وتَقْبيل وتَجْريدِ ٢
كماً تطاعَمَ في خَضْراءَ ناعِمَـة مُطوَّقانِ أَصاخا بَعْدَ تغـريـدِ ٣
وقَدْ سَقَتْني رُضاباً غيرَ ذي أَسَنٍ كالمِسْكِ ذُرَّ على ماءِ العناقيـدِ ٤
مِنْ خَمْرِ بَيْسَانَ صِرْفاً فوْقها حَبَبٌ شِيبَتْ بها نُطْفَةٌ من ماءِ يبرودِ ٥

١ ــ م : يتحسّر على ما فاته من لقاء ونعيم ، فيما نزَل على صاحبته ، وبات عندها ، ويتمنّى أن يعود إليه ذاك الزَّمان السّعيد .

٢ ــ م : يقول أنّه كان يعابثُها بانتزاع حليّها عنها ، بعد أن أمعن بتقبيلها ومعانقتها وتجريدها من ثيابها .

٣ ــ خَضْراء : شجرة . مُطَوَّقان : مثنّى مطوّق : حمام . أصاخا : أنْصَتا .

م : يقول إنّهما كانا يتعانَقان كما يتعانق الحمام في الشّجر بعد تغريد وتصويت .

٤ ــ الرّضاب : الرّيق . الآسِن : النّتن .

م : يقول إنّه قبّلها ، فعلّ من رِيقها مثل الخمْرة المَمْزوجة بالمسك .

٥ ــ الحَبَب : الفقاقيع . شِيبتْ : مزجت . يبْرُود : بلدة في سوريا .

م : يستكمل وصف الحمرة التي علّها في ثغرها ، ويقول إنّها خمرة بيسانيّة نسبة إلى بيسان في الأردن وإن الحبب والزّبد يعلوانها لحدّتها وإنّها مزِجتْ بماء صاف من يبْرود .

غادى بها مازِجٌ دِهْقانُ قريتـــهُ وقَّادَة اللَّونِ في كاس وناجودِ ١
إذا سَمِعْتَ بمَوْت للبخيلِ فقُــلْ بُعْداً وسُحْقاً لهُ منْ هالك مُــودِ ٢

فهو يستهلُّ مناجياً عهده بالنّعيم ، مُتَمنِّياً أَنْ يَعودَ ، وهذا النّعيم ، كما يبدو فيما يلي ليس نعيم الطمأنينة بل نعيم اللّذة الحادّة الّتي خلّفت في نفسه الحَسْرة . وفي الشّطر الثّاني من المَطْلع يشير إلى انفاقه ليله في مخدعها ، وهنا تبرز مواقعة الحرام إذ أنه اقتحم عليها في بيتها . ولسنا ندري إذا كان بيت زوجها ، أم بيت أهلها ، وأيّاً ما كان منهما ، فإن مواقَعتَها فيه ، يُمَثّل مواقعته للحرام . يتضاعف ذلك من ذكر اللّيل ، واختلاء الرّجل بامرأة في اللّيل لا يزال عنوان الرِّيبة والشَّبهة . وإذا كان الأخطل قد وصف مواضع الفتنة والاثارة من جسدها وحسب ، فإنّه ألمَّ بها واعتراها واستقى منها كُلَّ لذّة :

إذ بتُّ أَنزع عنها حَلَيَهَا عَبَثــــاً بَعْدَ اعْتِنَاق وتَقْبيل وتَجْريـــدِ

فهو يعابثها بانتزاع حليها ، بعد أن عانقها وقبّلها وجرّدها ، بل إنه لم يكن يُعَابثها فيه ، بل يحاول أن يتلمّس عريها المُطْلَق ، لا تشوبه شائبة حتّى ولا حلية يتحلّى بها . فالحليُّ هو أداة تشويق وتحسين ، ولكنّه ليس أداة اثارة للشهوة ، وإذ يعانق الشاعر الشّهوة المطلقة يطيب له في ذلك أن يُعَانق العرْيَ المُطْلَق .

١ ــ الدّهْقان : اسم لصاحب الضياع الكثيرة . النّاجود : هنا الكأس .
م : يقول إن بعض الدّهاقين كان قد اجتلبهـا لبني قريته وإنّها متألّقة مُتلألئة في كأسهـا وناجودها .

٢ ــ م : يحقّر من شأن البخيل الذي لا يُنْفق ماله في سبيل اللّهو ويقول إنّك إذا سمعت أن بخيلاً قد أودى ومات ، فلا تتحسّر عليْه بل ادعُ له دعوة الهلاك .

ويتولّى ، اثرئذ ، تمثيل ذلك المشهد ومقارنته ، فيتخذ مثل الحمام المتعانق بين الشّجر ، فكأنّه يوعز بذلك إلى أن أمرهما ليس مقتصراً عليهما ، بل إنّه أمر الأحياء كلّهم من الطّيْر إلى الانسان . وهو لا يتبرّر بذلك ولا يعيه بوعيه الكامل بل ربّما حدس له في تأمّله أَو مشاهدته العابرة لواقع الحمام .

إلا أن للأخطل عفّةً يَعِفُّ بها عن المضيّ في وصف ما لا يُوصف ، إذ مهما أخذ أمر دينه بخفّة وتقليد ، فقد علق منه قليل أو كثير من أمر العفّة الّتي يُحاسب فيها المرءُ حتّى على نيّته ، إذ قيل أن « من نظر إلى إمرأة واشتهاها ، فقد زنى بها في نفسه ». ولسنا نزعم في ذلك أن الأخطل كان مُتعفّفاً بالعفّة المسيحية، إلا أنها ربّما خلّفت في نفسه بعض الحرج ، فلم يُقْبل على وصف المشاهد الدّاعرة كخصمه جرير الّذي كان يتمرّغ بشعره في الحمأة المُوبقة . لهذا تراه يقتصر على التّلميح وينصرف إلى وصف رضاب الحبيبة قارناً إياه بالخمرة ، كما هو مأثور في شعره وشعر سواه .

ولم يَخرج الأخطل في ذلك عن دأبه إذ قَرَن طيب فمها بطيب المسك ولذّة رضابها بلذّة الخمرة الّتي تكنّى عليها بماء العناقيد . ولا يزال طيب النّفس ونتانته موضع مدح وقدح في شعر الأخطل. أو لم يَهْجُ زوج برّة بنتانته جوفه؟ ذاك ان المرأة لا يَخْلص ولا يَكمُلُ جمالها إلا إذا كانت مُتعافيّة ، تَنْعَمُ بنعيم الصِّحّة ومتى استقامَتْ لها العافية حَلّتْ رائحة المسك في فمها من دُون البَخَر . ولشدّة شغف الأخطل بالخمرة ، فإنّه لا يكاد يذكرها حتى يستطرد إلى وصفها ، حاشداً لها حشدها ، ذاكراً أصلها : « من خمر بيسان » فكأنّ للخمرة اصالة تتحدّر منها كالعربيّ الّذي يَذْكو ويكبر بأصله . وانك لتَرّاه وكأنه يأخذها وينتشي بها في عَيْنيه بقدر ما يَنْتشي بها في ذوقه ، يصف حبابها وكأنّه روح خافق فيها ، ويذكر الماء الّذي تمزج به وكأنه اعترى صفاءها المُطْلق وخلوصها .

ثالثا : المرأة والمغامرة أو الغزل القصصي :

ولجت القصّة على الغزل منذ الجاهليّة ، وقد ألم بها امرؤ القيْس في مُعلّقته وفي لاميّة أخرى منها :

فقالَتْ سباكَ اللهُ إنَّكَ فاضحي أَلَمْ تَرَ النَّاس والسُّمَّار أَحوالي ...

وجرى على غراره كذلك الشّمّاخ وبلغتْ السّردية أوجها في شعر عمر بن أبي ربيعة ، ممّا لا مجال للإفاضة فيه . وللأخطل بعض الفلذات القصصيَّة في الغزل ، مثل قوله :

وَلَيْلَةِ نَجْوى يعْتري أَهْلَهَا الصّبى سَلَبْتُ بها ريماً ، جميلاً مَسالبُهْ ١

فأَصْبَحَ مَحْجوباً عليَّ ، وأَصبَحَتْ بظاهِرَة آثارُهُ ومَلاعِبُهْ ٢

وبِتْنا كأَنَّا ضَيْفُ جِنّ بلَيْلَة يعودُ بها القَلْبَ السّقيمَ صبائِبُهْ ٣

ولقد راود في هذه الأبيات النَّزعة القصصيَّة ولم يَرْتَدْها ارتياداً مُباشراً ، إذ ذكر أنه سلبها وانها حجبت عنه، دون أن يُفَصِّل. فهي أشبه بعنوان لكتاب أو لقصَّة . إلا أن النزعة القصصية تتجلّى في الرّائيّة التّالية التي طلع فيها بمطلع الطّلل واستطرد إلى ذكر حسان ثلاث ، حلائل شيخ شديد الغيرة والحرص عليهن ، ثم يَتْلو ما كان من أَمْره مَعَهُنَّ ، ومع صاحبة أُخرى أدرك وصلها :

١ ــ النجْوى : هنا صفاء النّفس . الرّيم : هو الظّبي الخالص البياض ، وهنا المرأة .

م : يقول إنّه كانت تسنح له فيه ليالي نجوى ومسارّة يستلب فيها لبّ المرأة الجميلة البيضاء .

٢ ــ الظاهرة : المكان الضّاحي البارد .

م : يقول إنّه بعد أن أدرك تلك المرأة ، حُجِبت عنه وجعلت تقيم من دونه في مقام بارد ، جميل ، أي أنها قطعت عنه ولم تحفل به .

٣ ــ الصَّبائب : جمع صَبابة . عاد المريض : زاره في مَرَضه .

لأَسْمـاءِ مُخْتَـلٌّ بنـاظِرَةِ البِشْرِ   قديمٌ ولمّا يَعْفُهُ سالِفُ الدَّهْـرِ ١
يَكَادُ مِنَ العِرْفانِ يَضحَكُ رَسْمُهُ   وَكَمْ مِنْ ليال للدّيارِ ومِنْ شَهْرِ ٢
ظَلِلْتُ بها يوْماً إلى اللَّيْـلِ واقِفـاً   أُسائِلُها أَيْنَ الأَنيسُ وما تَدْري ٣
سَفاهاً وَقَدْ عُلِّقْتُ مِنْ أُمِّ سالـم   ومِنْ جارَتَيْها في فؤُدايَ كالجَمْرِ ٤
ثلاثُ حِسان مِنْ نِزار وغَيْرِهِـمْ   تَجَمّعْنَ مِنْ شَتى فعولينَ في قَصْرِ ٥
حلائلُ شَيْخ في مُنيف كأَنَّمـا   نماهُنَّ قِشْعَمٌ مِنَ الطَّيرِ في وَكْـرِ ٦

١ ــ البِشر : موضع في ديار تَغْلب .
م : يقول إنّ دار صاحبته في موضع البِشْر لمّا تزُل وتتَعفّ آثارها .

٢ ــ م : يخيّل إليه أنّ رسوم تلك الدار قد عرفته ، وكادت أن تضحك وتهشّ له بالرّغم من تعاقب الأيام والشّهور عليها .

٣ ــ م : يقول إنّه أقام في دار حبيبته يسائلها عن سكانّها الذين ارتحلوا عنها وعن الموضع الذي ارتحلوا إليه وحلّوا فيه .

٤ ــ سَفاهاً : جهلاً .
م : يذكر يوم علِق صاحبتَه أمّ سالم وجارتيها في ذلك الموضع وقد أذكَيْن في نفسه لوعة صَلّته بمثل لظى الجَمْر .

٥ ــ م : يقول إنّه علق أولئك النّساء النّزاريات اللّواتي وفدْن من كلّ جهة واعتلَيْن في قصرهن الرّفيع . وذكر القصر في هذا المقام يدلّ على ترفههنّ .

٦ ــ مُنيف : عال ، شاهق . القشْعم : المُسِنُّ من النّسور .
م : يقول إنهنّ كنّ أزواج امرىء هرم ، أقامهنّ في قصره العالي الشّبيه بوكر النّسور القديمة ، يمثل بذلك حرصه عليهنّ ومنعه لهنّ .

وما زِلت أُصْبيهِنَّ بالقَوْلِ والصّبى ... سفاهاً وقَدْيُصْبى على الخالفِ الخِدْرِ ١
لعَطْشانَ حَجَّ المــاءَ حتى أطــاعني ... رَسولٌ إلى العَسّاءِ طيِّبَةِ النَّشْرِ ٢
لها فَضْلُ سِنٍ فاستَقدْنَ إلى الصّبي ... فأَمْسَين قَدْ أَعْطَيْتُها عُقَــدَ الأَمْرِ ٣
وَأَعْطَيْتُهُنَّ العَهْدَ غَيْرَ مُمايِــــن ... وما أَنزَلَ الأَرْوى مِن الجبلِ الوَعْرِ ٤

حديثه معهن :

وحَدَّثْتُهُنَّ أَنَّني ذو أَمــانَــــة ... كريمٌ فما يخشَيْنَ خُلْفي ولا غَدْري ٥
فقُمْنَ إلى جَبّانة قدْ عَلِمْنَهـــا ... لَنَا أَثرٌ فيها كمَنْزِلَةِ السَّفْــرِ ٦

١ ـ أُصْبيهِنَّ : أستميلهنّ . الخالف الخِدْر : المرأة المتخلّفة في خدرها .
م : يقول الشاعر أنّه أقام على التعرُّض لهنّ ليسبيهن ويستميلهنّ إليه جهلاً وطيشاً ، ويُرْدف بأن هذه المرأة المخدّرة لا تمتنع عن الصَّبوة والغواية بل إنّ شأنها في ذلك شأن سواها .
٢ ـ العَطْشان : يعني به هنا نفسه . حجَّ الماء : أتاه . العَسّاء : الصَّعبة الارْتياد .
م : يقول أنّه أنفذ رسوله بما يعانيه من وجد وظمإ إلى تلك المرأة : الصَّعبة المنال ، الذكيّة الرائحة .
٣ ـ عُقَدَ الأمْر : العَهْد .
م : يقول إنهنّ ملْن إليه بما أنفذ إلَيْهن من أمره وعَهْده بالوفاء لهنّ .
٤ ـ المُماين : الكذوب . الأروى : الوعل النّفور .
م : يقول إنّه أنفذ لهنّ عهده ويمينه ، دون كذب وعزْم على الغَدْر ، لكنّهنّ لم يثقْن به بل ظللْنَ ينفرْنَ عنه بالرَّغم من ميلهن إليه ، كما ينفر الوعل في جبله الوعر .
٥ ـ م : يقول إنّه حدّثهُنّ بصدقه ووفائه وامتناعه عن الغدر والإخلاف بالعهد .
٦ ـ جبّانَة : صحراء مستوية .
م : يقول إنهن نَهَضْن إلى مكان مُقْفر عهدنَه وعرفنه من قبلُ وقد خلّفْنَ فيه آثاراً شبيهة بالآثار الّتي يخلّفها المُسافرون .

فَثِنْتَانِ مَهْما تُعْطَيـا تَرْضيا بِهِ وأسماءُ ما ترْضى بثُلْث ولا شَطْرِ ١

صاحبته أسماء ووصفها :

وما مَنَعَتْ أَسماءُ يَـوْمَ رحيلنـا أَمرٌ عليَّ منْ خطاءِ ومنْ وِزْرِ ٢

رأَيْتُ لها يَوْماً مِن الدَّهْرِ بَهْجَـةً فهشَّ لها نَفْسي وهَمَّ بها صدري ٣

فثمَّ تناهيْنا كلانا عَنْ الصّبـى ولا شيءَ خيرٌ مِنْ تُقى اللهِ والصَّبْرِ ٤

سَبَتْكَ بمُرْتَجِّ الرّوادِفِ ناعِـم وأَبيضَ عذْبِ الرّيقِ مُعْتَدِلِ الثَّغْرِ ٥

وَمُتَّسِق كالنُّورِ مِنْ كلّ صَبْغَـة يُضيءُ الدُّجى فوْقَ الترائبِ والنَّحْرِ ٦

١ ــ م : يقول إن اثنتين من أولئك النّسوة ترضيان بما يقسم لهما ، أما صاحبته أسماء فلا ترضى بالثّلث الذي يقسم لها ولا بالنّصف ، أي أنّها طمّاعة لا ترضى بما ترضى به الأخريات.

٢ ــ الوِزْر : الإثم .

م : يقول إنّ صاحبته أسماء إذا امتنعت عليه ، غداة الرّحيل ، خلّفت في نفسه ألماً يفوق ألم أي وزْرٍ أو خطيئة .

٣ ــ م : يقول إنّه وقع عليها حيناً مرحة ، متفائلة ، مقبلة عليه ، فأقبل عليها وهشّ لها وعنيَ بها .

٤ ــ م : يقول إنهما عزما ، فيما بعد ، على الانفصال والانقطاع عن الهوى ، متّقيين فيه الله مُنْتهيين بنواهي الدين ، صابرَين على عذابهما فيه .

٥ ــ الرّوادف : الأعْجاز .

م : يقول إنها استَلَبت لبّه بعجزها النّاعم وثغرها المتألّق ، العذْب الرّيق ، المعتدل .

٦ ــ المُتّسق : المنتظم ، وهنا العقْد . الترائب : جمع تريبة ، وهي موضع القلادة في النّحر .

م : يقول إنّها سبَتْه بعقدها المُنْتظم ، المتعدّد الألوان ، المتألّق فوْق نحرها وتريبتها ، والذي يكاد أن يبدّد الظّلمة .

إدراكه لوصلها :

عَشِيَّةَ بَطْنِ الشَّعْبِ إذْ أَهْلُنـــا بهِ وإذْ هي تُريكَ الوجهَ مِن خَلَلِ السِّترِ ١
نَزَلتُ بها ضَيْفاً فَلَمْ تَقْرِ مهنــــــأ وجادَتْ بلا ثُعْلِ الثَّنايا ولا حَفْرِ ٢
فمِلْتُ بها مَيْلَ النَّزيفِ ونازَعَتْ رِدائِيَ والمَيْسُورُ خيرٌ مِن العُسْرِ ٣

وقد تعتبر هذه القصيدة كقصيدة غزليَّة كاملة من المطلع الطَّللي إلى وصف الحسان ، وسرد ما جرى معَهنَّ ومع سواهنَّ . والأبيات الطَّلليَّة تتَّصف ببعض الوجدانيَّة إذ نَسَبَ إليه الضَّحك ، فكأن الرُّسوم تُعاني الفرح والانس والغبطة بصورة الأحباب ، ممَّا لم يُطالعنا في المطالع الطلليَّة السَّابقة . ومن ثمَّ يُعرِّج إلى ذكر أم سالم وجارتيها اللّواتي أذْكَيْن في قَلْبه جَمْر الحُبِّ ، بل انهنَّ صَلَيْنَه بناره ، ولسنا ندري كيف تستقيم هذه العاطفة المثلثَّة وتَضْطرم لثلاثة نساءٍ جميعاً ؛ ولو أنَّه تعرَّض لهنَّ في مقام التهتك السَّادر والمجون ، لكان لذلك الأمر تبريره الواقعي ، أمَّا أنَّه اصطلى منهنَّ بنار الحُبِّ ، فإننَّا نحار في طبيعة تلك العاطفة . وإنّا

١ ـ الشِّعب : ما انفرج بين الجبلَيْن .
م : يقول إنّها سبته في ذلك الموضع ، حين طالعته من بين ستورها .

٢ ـ الثعْل : التآكل في الأسْنان . حَفْر : ما يتراكم على الأسنان من مادّة صفراء . المَهْنأ : هنا من أهنأه : أطعمه .

م : يقول إنّه نزل ضيفاً عليها ، فلم تَقْره طعاماً بل إنّها أقْبَلَتْ علَيْه بثغرها الذي لا تآكل ولا حَفْر في أسنانه ، أي أنّها قرَتْه قُبَلاً .

٣ ـ النّزيف : الذي نزف دمه وهنا السّكران أو ما إليه .

م : يقول إنّه مال إلَيْها كالذّاهل السّكران أو كالعَيي ، فيما هي جعلت تشدُّه بردائه ، فرضي منها بما ناله بيُسر ، متخلّياً عن المطلب العسير .

لنعلم أن العاطفة لا تخلص ولا تصدق إلا في وحدانيتها وتكرسها لامرأة واحدة . وربما كان تأويل ذلك أنه لم يصب منهن بنار الحب ليخلص لواحدة منهن فيه ، بل بلفح الجمال المتألق في كل منهن ، وما خلفنه في نفسه لا يعدو الحسرة الشديدة ، المعذبة لامتلاكه . وانك لتشاهد امرأة في غاية الجمال ، فتقع من نفسك موقع الفتنة والإلم ، فتصدق في أملك وان لم تكن تعاني من ذلك التوله والتتيم . وقد نتأكد من هذه الحسرة في قوله :

ثلاث حِسَان من نزار وغيرهـــــم تجمَّعْنَ من شتَّى فُعولين في قَصْرِ
حلائل شَيْخ في مُنيف ، كأنّمـا نماهُنَّ قِشْعَمٌ من الطَّيْرِ في وَكْرِ

ولم ترى حرص الشاعر أن يدعهن في قصر ؟ ربما كن فعلاً مقيمات فيه ، ولعل الشاعر أقامهن فيه بانفعاله الذي اهتدى إلى الافصاح عن ذاته بذلك افصاحاً أصم . ذاك أن القصر يوحي بالعز والحرمة وبعد المنال وعسر الارتياد . وقد يكون شعوره بالحسرة والمحال تولد من قيامهن فعلاً في القصر ، أو أنهن لم يكن في قصر ، بل أن شعوره أبدعه ليؤدي به معاناة النأي والحسرة والعجز عن الدنو من الجمال وامتلاكه . والافتراض الثاني أعمق وأبدع لأنه ينم عن وظيفة الخلق واكتشاف العلاقات اللطيفة الهاربة بين المشاعر والمظاهر .

إلا ان انفعال الشاعر لا يهدأ ولا يستكين ، بل يتمادى في الأبداع ، فيتمثلهن وكأنهن في وكر نسر ، جامعا بذلك الدلالة على نأيهن فضلاً عن صعوبة إدراكهن إذ لا يزال النسر يدافع عن فراخه ومن يتعرض لها يلقى من دونها الموت . ولعله اهتدى إلى وكر النسر في هذا المقام بمثل اهتدائه إلى القصر في نوع من المعاناة الحميمة لمعنى الأشياء ورموزها . وهل أبلغ من القصر ووكر النسر في التدليل على عسر الارتياد ووعورته ؟ هنا تعفت آثار التقليد ، وغدا الشاعر ينظم بخلق من لدنه .

وتجري القصيدة كلّها على هذا السّياق من الشّعور بالعسر والتّمنّع واستحالة اللّقاء. فهو يقول إنّه جعل يراودهنّ، ساعياً إلى التّغرير بهنّ، زاعماً أن المرأة المخدّرة لا تمتنع عن الصّبي. ولكن أنّى له بالتّعرّض لهنّ في ذلك المقام المنيع؟ لقد انفذ لهن رسوله، يعاهدهنّ على الوفاء والمودّة، فلم يستقدْنَ له، بل أقمْنَ على النّفور كوعول الجبال. ولقد كان الرّسول أداةً لاستكمال التجربة في مضمونها العام، كما أنَّ قيامهنَّ على النّفور أوفى به إلى غايته ونهايته. وعبر ذلك كلّه يتوسّل السّرد الذي لا يَطْفو طُفُوّاً نابياً، إذ طغى عليه الانفعال وخضّبه بمعاناة الحسرة والألم. وموضوع هذه الأبيات لا يزال مستطرفاً إذ لم نكد نقع من قبل، على غزل مُثَلَّثٍ يُفْصِحُ عنه الشّاعر بمثل هذا الوضوح، وهذه العفّة والحسرة. فعمر يقول.

سلامٌ عليها إنْ أرادت سَلاَمَنَا   وإن لم تُرِدْه، فالسَّلامُ إلى الأُخرى

ولا غرابة لهذا المعنى في باب المجون، وإنّما الغرَابة في سَفْح الشّوْق والعهد لهؤلاء النّسوة. ومهما يكن، فانه يَنْزع مَنْزع القصص المأثور في الغزل، وبخاصّة فيما تتطوّرُ الأحْداث ويَنْمو السّياق، وتتحوّل النّساء من العسر إلى اليُسْر، فيقبلن عليه ويواعدنه على اللقاء في جبّانةٍ معهودة:

وحَدَّثتهنَّ أنني ذو أمانة   كريم، فما يَخْشَيْنَ حَلْفي ولا غَدْري

فقمنا إلى جبَّانة قد عُلِمْنَهَا   لنا أَثَرٌ فيها كمنزلة السَّفْر

فثنتان مَهْمَا تُعْطيا ترضيا به   وأسماءُ ما تَرْضى بثلْث ولا شَطْرِ

وهنا تلتقي قصيدة الأخطل وقصيدة عمر بن أبي ربيعة في نُعْم، في استسلام الحبيبة لقدر الحُبِّ، الا أن عمر اقتحم عليها في منزلها، فيما واعدها الأخطل بين أحضان الطّبيعة. ولقد جمع امرؤ القَيْس هذين الموقفَيْن، جميعاً، إذ اقتحم عليها منزلها واستاقها إلى أحضان الطَّبيعة. وهناك وقعت الواقعة إذ تعذّر عليه أن يُنْصِفَ بَينهنَّ، إذ أن اثنتين اقتنعتا بما نالتا، فيما تَعَصّت اسماء ولم تَرْضَ بكل

ما أصابها. لقد تفردّت على من دونها واعتزلت وغدت هي الحبيبة الوحيدة. هنا عاد الحب الى وحدانيّته وغدت اسماء السيدة وتانك الامرأتان كجاريتين تصحبانها. سقط عنه الشّرك في الثّنائيّة أو الثّالوثيّة وصفا إلى ذاته واستقلّ بها. تلك هي عبقرية الأخطل. كأنما كان يُفْصح من خلال هذه الأحداث واولئك الأشخاص عن خلوص الحُبّ من تشتّته وتقسّمه إلى التطهّر والوحدانيّة. وليس لعمر قبل بهذه المعاناة العميقة النّازعة من نار اللّبس والحيرة في المطامع، يتوزّع بين منازع ثلاثة لا يدرك اليقين النّائي عنه، المُتحصّن عليه، حتى يَنْتهي إلى معانقة الحُبّ الأوحد بين أحْضان الطّبيعة.

وليس فيما ندّعيه دعوى وتزيد، بل إن النزعة الرُّوحيّة مبثوثة عبر هذه الأبيات ثم إنها تطالعنا في مثل قوله :

وما مَنَعَتْ أَسْمَاءُ، يَوْمَ رَحِيلَنــــا أَمَــرٌ عَــلَيَّ مِــنْ خطاءٍ ومن وِزْرِ

فأيّاً يكون ذلك الشّاعر الّذي يتوسّل الخطيئة والوزر للتّدليل على المرارة وألم الحرمان؟ إنّه، ولا شك، امرؤ عانى مرارة الخطيئة وآلامها، فكأنه في تماديه باحتساء الخمرة كان يتأنّب ولم تَسْتطع نَشْوة الخَمْر أن تخدّر شعورة بمرارة العصيان. هذه نبذة تَنْدر في شعر الأخطل، وقد انبَعثَتْ من قاع نفسه وضميرها المُظْلم. والقصيدة، جميعاً، تَحْفل بأجواء التّبتُّل، إذ أنّه لم يؤخذ بحبيبته في الوهلة الاولى بالفتنة والشهوة بل بالفرح والانس والبهجة الّتي حرّكتها في نفسه :

رَأَيْتُ لها يَوْماً من الدَّهْرِ بَهْجَــةً فَهَشَّ لها نَفْسي، وَهَمَّ بها صَدْري

وقلّما وقَعْنَا على شعر تستولي المرأة فيه على صاحبها بالبَهْجة، فكأَنَّ الأخطل لا يُفْتَنُ. هنا، بفتنة الشّهوة، بل بفتنَةِ الجمال الّذي طهّر نفسيهما وسما بهما إلى العبادة والتّقى :

فثَمَّ تناهَيْنَا كلانـــا عن الصِّبـــا ولا شَيْءَ خَيْرٌ من تُقَى الله والصَّبْرِ

ولقد اسفرَتْ منازعُ العفّة عن ذاتها وتجلّتْ وسطعتْ في الوَعْي بما لا غموض ولا لُبْس فيه .

إلا أن هذه القصيدة تتطوَّر عبر ثلاثة مراحل ، الأولى استلَبتْه فيها تلك المرأة بالبَهْجة والإلفة وروعة الجمال ، ثم إنه استبانَ له في المرحلة الثانية جَسدها في مواضع الفِتْنة والإثارة فيه ، فأخذته بما نتأ وارتجَّ من ردفيها وفمها العذب المقبَّل ، وما تألّق واشتعَلَ من حليِّها ، وقد نزل على قومها ضيفاً فأقرته القُبَل الشهيَّة ؛ إلا أنها زوّجت من بعد إلى ذلك الشَّيخ الفاني . فتَعَصَّى بها واحتبسها فتطهَّر الحبُّ بالكتمان والحرمان فتناهيا عن الصِّبي :

فثمَّ تناهينا كلانــا عن الصَّبى ولا شَيءَ خَيْرٌ من تُقَى اللهِ والصَّبْرِ

هكذا يخيَّل إلينا أن الأمور جرَتْ بينهما ، إذ لا سبيل إلى تأليف المعاني والأحداث المتناقضة من دونه . فهو يزعم، حيناً، أنها أخذته بالبهجة، ثمَّ بأنَّها سبتْه بمرتجّ الرَّوادف ناعم ، وأنهما انتهيا عن الصِّبى. وهي معانٍ متناقضة لا تتآلف إلاَّ بما أولناها به . والله أعلم .

رابعاً : المرأة المنعَّمة : جرى العربيُّ بشأن المرأة كما يجري الكلاسيكيُّون ، لا يأخذون من حياتها الا الجانب المترف ، الجميل في مثاله النّهائي . فليس في شعرهم امرأة واقعيَّة ترجَّح بين الحسن والقبح والخير والشر ، تعاني البؤس، تقبل وتدبر، متنازعة مع أفراح الحياة وأطراحها ، بل هناك امرأة شبه وثنيَّة استقامت فيها مقاييس الجمال كلها وبدت كالحياة تشغف الناس بها وقلَّما ترق لهم وتتعطفُ بهم . وصفة النَّعيم والجمال الملازمة جعلت المعاني تتواتر وتتكرر بين الشُّعراء في مستويات متباينة من الغلوّ والانخفاض . فأمرؤ القَيْس يقول في وصفها : « نؤوم الضُّحى لم تنْتَطق عن تفضل» ، أي أنها لا تقوم بالخدمة والعمل الشّاق، وكان الهجّاؤون يُزْرون ببعضهم بعضاً، إذ يَثْلب أحدهم نساء الآخر بالقَوْل إنهن يمتطين الدّواب وينصرفن إلى الخدمة كالإماء . فترف المرأة كان دائماً كناية عن سؤدد بني قومها

وثرائهم . أما في الشِّعر ، فإنَّ لترفهنّ بعداً آخر إذ كان يحنّ الشّاعر ، من خلال ذكره ، إلى عهد السعادة والعافية والصِّبا . بعد أن تداولته الحياة بأقدارها المترجِّحة بَيْنَ الأمل والفَشَل والسَّعد والتَّعس .

والأخطل لا يزال يُنوِّه بصفة النَّعيم في النِّساء اللّواتي يَصفهنَّ ، يُعَبِّر عن ذلك ، حيناً ، بالتَّعبير المُبَاشر ، ويتكنَّى عنه ، حيناً آخر ، ويفترض للشّيء شتّى الافتراضات التي تُمثّله أو تُوهم به . وقد يَسْمو على ذلك ، فيَجْعَل القدر مُؤاتياً لهنَّ لم يُخْنِ عليهنَّ بمصيبة ولا كدر ، كأنَّ الجمال هو بريءٌ من العاهة ومن النّكد ، أَيْضا .

فهو يقول ، مثلا ، أنهن نواعم ، لم يلقَيْن ترحاً ولا نكداً ، فَرَقَّتْ جلودُهُنَّ ونَعُمَتْ حتّى أن النَّمل الصّغير ، يُخَدِّش جلودهنّ فيما لو سرى عليها :

نواعِمَ ، لَمْ يَلْقَيْنَ في العَيْشِ تَرْحةً ولا عَثْرَةً مِنْ جَدّ سوءٍ يُزيلُهَا [١]
ولَو باتَ يَسْري الذَّرُّ فوقَ جُلُودِها لأَثَّرَ في أَبْشارِهنَّ مُحيلُها [٢]

١ ــ التّرْحَة : بؤس المعيشة . الجَدّ : الحَظُّ .

م : يشير إلى النّعيم الذي ينعَمْنَ به ، على ما أُثر عند سائر الشّعراء ، ويقول إنهنّ منعّمات ، لم يُكَدّر حياتهن مُكدّر ، ولم يطالعهن حظٌّ سوء يزيل عنهنَّ نعيمِن .

٢ ــ الذَّرّ : صغار النّمل . البَشَرَة : ظاهر الجلد . المُحيل : أصغر الذر ، هنا .

م : يمثّل رقّتهن ويقول إنّه إذا ما سار النّمل الصغير على أجسامهن خدَّش أشدُّه صغراً من رقّتهن ونعومة بشرتهن . ومؤدى المعنى أنّهن لم يعرفن شَظَف العَيْش وقسوته لتقسو به أجسادهن . والشاعر إذ يغالي بنعيم صواحبه ، إنّما يرمز به إلى حالة من السّعادة التي لا تشوبها شائبة .

إلا أنه يَذْكر نعيمهنَّ في سياق الذكرى ، مستعيداً عهده معهنَّ عندما نَزَلَ فيهنَّ ، فأذكين في نفسه نار الحُبِّ . إنه يُحِنُّ اليهنَّ من خلال حنينه إلى الشّباب حيث كانت تؤاتيه السّعادة وتَقبّل عليه إقبالها . وهو يُسمّي تلك الايام بالصّالحات ، وصلاحها هو فيما اهتبل من لذّة وأنس فيها . وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه في القَوْل بأنّ نعيم المرأة يَتَوحّد في ذهنه والشّباب واللّهو ، في أيام لم تكن الحياة قد أدمته وخذلته والقَتْ به في فيافيها النّازحة .

وقد تتباين صفة النّعيم الّذي يَنْعَمْنَ به بين مقطع وآخر ، فكما مثّله سابقاً ، بالذّر الذّي يخدّش رقّة جلودهنَّ ، يستعير له في الأبيات التّالية أحداثاً مستمدّة من واقع البيئة وطبيعة الصّحراء . فهؤلاء النّسوة يُبَدّلْن من مقامهن ، بالنّسبة إلى تبدّل المناخ ، يضربن خيامهن في المصايف ، يَرْحَلْنَ إليها في الهوادج ، يقوم العبيدُ والاماءُ على خدمتهنَّ ، فيبدين كالظّباء المترفات الجميلات :

أَلَمْ تَعْرِضْ ، فتسأَلَ آلَ لَهْـــو ... وأَرْوى ، والمُدِلَّةَ ، والرَّبـــابا ١
بـأَيّام خَـوال صَالِحَــــات ... ولذّات ، تُذَكِّرُني الشَّبَـــابـا ٢
نَزَلتُ بِهِنَّ فاستَذْكَيْتُ نـــــاراً ... قليلاً ، ثمَّ أَسْرَعْنَ الذَّهــــابـا ٣
وكُنَّ إذا بدَوْنَ بقُبْلِ صَيْـــف ... ضَرَبْنَ بجانبِ الجَفْرِ القِبـــابا ٤

١ ـ ٢ ـ أرْوى والمُدِلّة والرّباب : من أسْماء النّساء .
م : يخاطب صاحباً موهوماً ، ويدعوه إلى سؤال أولئك القوم عن أيّام سعيدة سنحت له ولَذّات اجتناها فيما كان شابّاً .
٣ ـ م : يقول إنّه نزل في أولئك النّسوة ، فأذكين في قلبه نار الحبّ ، ثم ولّيْن عنه ، مُخلّفات إثْرهنّ الحَسْرة في نفسه .
٤ ـ قُبْل الصَّيف : أوّله . الجَفْر : اسم موضع .
م : يقول انهنّ كنّ ينزلن إلى جواره في مطلع الصَّيف ، إذ يقصدن البادية ، ويضربن فيها خيامَهن .

نواعِمُ لَمْ يَقِظْنَ بجُدٍّ مُقْـــــــل   وَلَمْ يَقْذِفْنَ عَنْ حَفَض غُــرابا ١
كَأَنَّ الرَّيْطَ فَــوْقَ ظباءِ فَلْـــــج   غَدَاةَ لَبِسْنَ ، للبَيْنِ ، الثِّيـــابا ٢

وللنَّعيم صور وكنايات أُخر يُصَوِّره به الأخطل وهو سيرهنَّ كسير الابل الكريمة التي تطأ الرَّمل الشديد الانهيار ، وقد جعله ينهار ، كذلك ، للتَّدليل على تؤدة سيرهن ، إذ لا يسعين فيه الى عمل ، بل للنزهة والسلوى ، كما أنه يشير إلى ما تزيَّن به من دُرٍّ وذهَب يوحيان ، أيضاً ، بالنّعيم :

يَمْشِينَ مَشْيَ الهجانِ الأُدم ، يُوعِثُهَا   أَعْرَاف دكداكة ، منهالة الكُثُب
من كُلّ بيضاءَ مكسال ، برهرهة   زانَتْ معاطلهـــــا بالدُّرِّ والذَّهَبِ

وربّما سما على ذلك كُلّه ، متّخذاً لهن مثالاً نادراً ، تَغْلُب عليه الصِّفة الابداعيَّة . فكما ذكر أنهنَّ يَرْحَلْنَ على هوادجهن للمصيف ، يشير إلى اصطلائهنَّ النَّار في الشّتاء ، والمصيف والاصطلاء هما من خصائص الترف ، ولكنّه لم يدعهُنَّ يَصْطلين النَّار وحسب ، كالعامة ، بل النَّار بأعواد الليلنجوج ، وهي من العيدان الكريمة ، الطيِّبة الرَّائحة . فأيّا يكون نعيم تلك المرأة التي تَصْطلي النَّار ، فيما هي تَتَضَمَّخُ بالطِّيب المنبعث من أعوادها . هكذا ، تجري عمليّة الأبداع في شعره ، يشتقّ له إهابها من أديم الواقع وينسج له نسيجاً خاصّاً ، صنع نفسه ويقينه . هكذا

١ ــ الجُدّ : البئر . مُقْل : أرض . الحَفَض : البعير ، يحمل متاع القوم .

م : يمتدح أولئك النّسوة بالنّعيم الذي ينعمن به ويقول إنهن لا يُقِمْن في أيام القيظ إلى جانب الآبار ، بل يرحلن للمصيف ويحملن متاعهن على بعير يقوم عليه العبيد ، فلا يَتَكلّفن من أمره شيئاً ولا يدفعن عنه حتى الغُراب ، إذا ألَمَّ به . والشعراء يصفون نعيم حبيباتهم ، ليفاخروا بهنَّ ، وينوّهون بامتناعهنّ عن العمل ، مُسْتَغنيات عنه بالعبيد والخوادم ، ممّا يُضاعف من رقّتهن ونُعومَتِهنّ .

٢ ــ فَلْج : واد بين البَصْرة وحِمى ضريّة . الرَّيط : ضرب من الثّياب .

يبدو نعيم المرأة في رقة جلدها وزينتها وقيام الحوادم على خدمتها وسكنها الخيام وارتحالها إلى المصيف واصطلائها الدّفء والتّنعيم بأعواد البخور :

وقَد تَكونُ بها هِيفٌ ، مُنَعَّمَــــةٌ لا يَلْتَفِعْنَ على سوءٍ ولا سَقَــــمِ ١
لا يَصْطَلينَ دُخانَ النَّار ، شاتِيَــةً إلاَّ بعُودِ يَلَنْجُوج على فَحَمِ ٢
يَمْشَينَ مَشْيَ الهِجَانِ الأُدْمِ رَوَّحها عند الأَصيلِ ، هديرُ المُصْعَبِ القَطِمِ ٣

رأيه في المرأة : فيما تقدَّم ـ جميعاً ، ألمَّ الأخطل بالمرأة بشكلها وإطارها الماديِّ ، في روعة الطبيعة المتمثّلة فيها وفي إستثارتها للشّهوة ودلالتها على الترف والنَّعيم . إلا أن للأخطل آراء خاصة وعامَّة في المرأة يُفْصح فيها عن سوء ظنّه بها ، ناعياً عليها غدرها وتقلّبها وصدّها عمَّن خذله الشباب وتولّى عنه . بل إنَّه ليُوغل من دُون ذلك ، فيجد أنهنَّ يغررن بالرجل :

يَمْدُدْن من هفواتهنَّ إلى الصّبــى سببا ، يصدْنَ به الغُواةَ طــوالا .

١ ــ الهِيف : جمع هَيْفاء . وهنا المرأة الضّامرة . يَلْتَفعْن : يلتحفْن .
م : يشرع في هذا البَيْت بذكر صواحبه اللّواتي كنَّ يُقمْنَ في ذلك الموضع ، ويقول إنّهنَّ نحيلات ضوامر ، ذوات نعمة وترف ، وانهنَّ يفضْنَ عافية ، لا يقمن في سرير ولا يلتحفْن سقماً .
٢ ــ اليَلَنْجوج : عود يُتَبَخّر به .
م : يستكمل وصفه لنعيمهنَّ ويقول إنّهن إذا ما أشتدّ برد الشّتاء لا يصطلين الدُّخان بل طيب أعواد اليَلَنْجوج الذكيّة .
٣ ــ الهجان : كرائم الإبل . الأُدْم : جمع أدماء ، وهي النّاقة البيضاء . المُصْعَب : الفَحل الصَّعب المراس . القَطِم : الهائج .
م : يمثّل في هذا البيت نعيم أُولئك النّسوة من خلال مشيتهنّ ويقول إنّهن يمشين كالإبل الكريمة التي يهدر بها الفحل . فتتَبَخْتَر وتختال .

ما إن رأيتُ كغدرهنَّ ، إذا جرى فينا ، ولا كحبالهنَّ حبـــالا

فالمرأة تمُدُّ شباكها لتصطاد بها الرِّجال ، فهي كأنَّما تَقْنصهم قنصاً ، تفرح في الايقاع بهم ، ثم أنها لا تُشاطرهم الحنانَ والمودَّة . ورأي الأخطل في ذلك أن المرأة مَعْجبة ، مزهوَّة بذاتها ، لا تَطْمئن ولا تَبلغ أربها ، حتى تَصرع الرِّجال ، مؤكّدة سلطتها عليهم ، وتفوُّق ضعفها على قوَّتهم وجبروتهم . فهنَّ يبدين الضّعف والاستكانة ويُقْبلْنَ على الرَّجل حتى يُدْخلْنَ في روعه أنهنَّ عاشقات له ، متيَّماتٍ به ، فإذا أخذ بسحرهنَّ واقبل عليهن يَنْفرنَ موليّاتٍ ويغدرْنَ به . فالمرأة هي امرأة خلابة ولَيْسَت امرأة حنانٍ وصدق .

والمرأة لا تُطلع ضميرها ، بل تكتمه ، إذا احبَّت رجلاً كرهاً منها وقسراً عنها ، كأنَّما تنتقم من ذاتها ومنه ، فلا تظهر له المودَّة ، بل انها لا تزال تعاكسه وتغيظه ، مُظهرةً غير ما تُضْمر . وإذا ما كرهت امرءاً عذَّبته بدلّها ، تقبل عليه حتى تدنُوَ منه غاية الدَّنو ليتوهّم أنها غدتْ بين أحضانه ، فاذا مدَّ اليها يده ليطالّها باليقين ، فرّت عنه ، مورية في نفسه الحرقة والأسى :

المهديات لمن هَوَيْنَ مَسَبَّـــةً والمحسنات لمن قَلَيْنَ مقـــالا

أو قوله :

صَرَمَتْ حبالكَ زَيْنَبٌ وقَـــذُورُ وحِبَالُهُنَّ ، إذا عقـدْنَ غـرورُ
يَرْمِينَ بالحدقِ المراضِ قُلُوبَنَـا فغويّهُنَّ مُكَلَّفٌ ، مَضْـــرُور
وإذا نَصَبْنَ قرونهـــنَّ لغدرة فكأَنَّمـــا حَلَّتْ لهـــنَّ نُذُورُ

والمرأة لا تُقبل على المرء حتى يكون شبابه مُقْبلاً عليه ، إذ أنهن يُؤثرن الفتى لما يقَعنْ عليه من جماله وفتوّته ، فاذا تولّى عنه شبابه تولّيْن عنه :

إن الغواني إن رأينك طـــاويـاً بَرْدَ الشَّبابِ ، طَوَيْنَ عنك وصالا
وإذا دعونك عمَّهُنَّ ، فإنَّـــه نَسَبٌ يَزيدُك عِنْدَهُنَّ خَبَـالا

بل انهن ضعيفات العقول ، يستبدّ بهن الهوى :

وإذا وزنتَ حلومهـــنَّ الى الصبى رَجَحَ الصّبى بحلومهنَّ ، فمـالا

ولا مجال للاطالة في ذلك إذ أنه مكرور معاد ، وإنما نوجزه بالقَوْل إنّه كان يجد المرأة رمز الخَتْل والخديعة ولا يثق بها ولا يسلس لها .

الباب الثالث

الناقة والحمار الوحشي وأتنه

أسرف الجاهليُّ في وصف الحمار الوحشي وأتنه يستطرد اليه من خلال وصفه للنَّاقة . وللاعشى والنَّابغة في ذلك قصائد تؤثر ، لعلَّ أهمَّها قصيدة لبيد ، إذ ألمَّ فيها بالحمار الوَحْشي من خلال رُمُوز مُتَعَدِّدة أَهمُها الغَيْرة والكفاح المضْني الهالع في سبيل تنازع البقاء بين يَدَيْ الطّبيعة والقَدَر اللَّذين يُرْهقانه بالقحط والجفاف والقَسْوة ، ويُسَلِّطان عَلَيْه المَوْت ، يطالعه في كلّ غداة بأسهم الصّيَّادين. وللنَّابغة مقطوعات تؤثر في هذا الشَّأن ، إلا أنَّه لم يَحْملَها محملاً إنسانيّاً كلبيد لأنّه لم يَكُن من رُوَّاد التجارب الوصفيَّة المنطوية على مضامين وجوديَّة عميقة ، وشعراء المدح الجاهليُّون ، هم ، غالباً ، شعراء وصف يقدّمون به لمدائحهم ، وفقاً لسنَّة مَأْثُورةً وفي مَعَانٍ مَكْرورةٍ ، تتباين ، حيناً في بعض التَّأْويل والتَّخريج .

وممَّا لا ريبَ فيه أنَّ الأخطل يتأثَّر النَّابغة والأعشى في ذلك كلِّه ، مع قليلٍ أو كثير من التَّطورُّ والذَّاتيَّة في ارتياد المواضيع ومضاعفة وقع معانيه في النَّفس. وفضلاً عن ذلك كلِّه ، فإن الأخطل مَدَّ في سياق الموضوع واستطالَ به ، ممَّا لم يكد يتيسَّر لمن دونه ، قبلاً . والمأثور في مثل ذلك أن نؤدِّي نماذج من وصف النَّابغة والأعشى ولبيد لنقرن بينها وبين نماذج من شعر الأخطل في الموضوع . إلا أنَّ هذا الكتاب يَضيقُ عن هذه المقابلة لأن فصل الوصف يردُ فيه كجزءٍ مُتَمِّم ولا يختصُّ به أو يتفرَّغ له . فمن أراد التَّوسُّع في ذلك ، فليَعُد إلى كتابَيْنا النَّابغة وفن الوصف [1] حيث يقع على تفصيل ذلك وسواه ، ممَّا قد يُمهِّد لهذا الباب . ونقتصر هنا على معالجة ما ورد من ذلك عند الأخطل ، نقابله بسواه ، عندما تقتضي الضَّرورةُ ذلك .

* * *

يُقبل الأخطل على وصف الحمار الوحشيِّ ، عَبْر مدائحه ، كما قدَّمنا ، إذ يَشرع بذكر النَّاقة الَّتي تقلُّه إلى الممدوح ، مبتسراً بوصفها ، قارناً إياها بالحمار الوحشي ، منصرفاً إليه من دونها ، ولا ينتهي إلى ذكرها ، إلاّ في نهاية مطافه في وصف الحمار . وربَّما أَلمَّ بذكر النَّاقة في بابِ الغزَل ، مُتَّخذاً من ذكر المطيَّة سبيلاً إلى بلوغها أو التَّروُّح عمَّا يعتريه من هموم بحبِّها . ففي الأبيات التَّالية ، يذكر صاحبته أروى ويَمْتطي إليها ناقة تعدو مُسْرعة ، لا تميلُ ولا تَزْورُّ ، ثم يُشبِّهها بفحل الحمر الوحشيَّة الَّذي يرتعي مع أُتْنه ، متغضِّباً ، خائفاً على أُتناه ، يَدْفع عنها سائر الفحول ، ولا يطيبُ له الاقبالُ على ماء . وإثر هذه النَّبذة الَّتي تعرَّض فيها إلى الحمار الوَحْشيِّ من الدَّاخل وبالمعاناة القانطة الفاجعة لمأساة الغيْرة ، يميل إلى وصفه الخارجيِّ في لَوْنه الشَّبيه بالوَرْس وسرعته الَّتي يَهْوي بها كالحجر المتدحرج ، ويلمُّ ، كذلك ، بوصف إناثه وسمنها وسقوط شعرها وحاجتها للماء ، بعد ان اعتراها الظَّمأ الشَّديد ، وقد ساقها إلى نبعه بقسوة

---

[1] — نشر هذان الكتابان في دار الكتاب اللبناني — بيروت — شارع سوريا .

يزجوها دونه، يعضّها، فترْمحه، واذ تَشْتدُّ الحرارة، يَحْتفر الرّمل ليباشر فيه الموضع البارد ، الرّطب ، وإذ بلغ الماء ، وجده قد جفَّ ونضب ، فتذكر منهلاً آخر عرفه ، قبلاً ، فأَزْجى أُتْنَه إليه ، زاجراً إياها بقسوة وعنف .

فهو يقول :

هل تدنينَّكَ من أَروى مُقَتَّلَــــــةٌ   لا ناكِثٌ يُشْتَكَى منها ولا زَوَرُ

كأَنَّ فأْرَةَ مِسْك غارَ تاجِرُهـــــا   حتّى اشتراها بـاغلى سِعْرِهـا التجرُ ١

على مُقَبَّلِ أَرْوَى أَوْ مُشَعْشَعَـــــة   يَعْلُو الزُّجاجَةَ مِنها كَوْكَبٌ خَصِرُ ٢

هَلْ تُدْنِيَنَّكَ مِنْ أَرْوى مُقَتَّلَـــــةٌ   لا ناكِتٌ يُشْتكي مِنهـا ولا زَوَرُ ٣

---

١ – فأرةُ المِسْك : وعاؤه . غار : هنا أنْفَق غاية جُهْده .

م : يصف ثغر حبيبته ويقول إنّه يتضوّع عليه الطّيب كأنَّ فمها فأرة المسك النّادر الغالي الثمن .

٢ – المُشَعْشَعَة : هنا الخَمْرة . الخَصِر : البارد .

م : يقول إن ذلك المسك يتضوّع من ثغرها ، أو كأنّه يعلُ منها مثل الخمرة المُشَعْشة التي تتألق في الزّجاجة كالكَوْكب .

٣ – المُقَتّلة : هنا النّاقة ، كأنّها تقاتل في سيرها . النّاكِت : هنا قرح يصاب به باطن الذّراع من حرف الرّحل .

م : يستطرد في هذا البيت إلى وصف النّاقة ، ويتساءل إذا كانت تُدْنيه إلى صاحبته أروى ، ويقول إنّها تعدو عدْواً سريعاً ، وإنّه لا يعوقها فيه قَرْحٌ أو ازورار تميل به إلى جهة دون أُخرى .

كأنّها أخدَرِيٌّ في حـلائلِـــهِ ‏ لهُ ، بكُلّ مَكان عازِب ، أثَرُ ١
أحْفَظُ ، غيرانُ ، ما تُستطاعُ عانتُهُ ‏ لا الوِرْدُ وِرْدٌ ولا إصْدارُهُ صَدَرُ ٢
وَقَدْ يُغـادي أبو غَيْلانَ رُفقَتَـهُ ‏ بِقَهْوَة ، ليسَ في ناجودِها كَدَرُ ٣
سُلافة ، حَصَلَتْ مِن شارِف خَلَق ‏ كأنّما ثارَ مِنْها أبجَلٌ نَعِـرُ ٤
عانِيَة ، تَرْفَعُ الأرْوَاحَ نَفحَتُهـا ‏ لَوْكانَ يُشفى بها الأمواتُ ،قَدْنُشروا ٥

---

١ ــ الأخدري : هنا الفحل من الحُمُر الوحشيّة . حلائلُه : هنا أُتُنُه . عازِب : خال .

م : يشبّهها بالحمار الوحشيّ الذي يقيم بين أُتنه ، يرتعي معها ، حيث يطيب له في الأمكنة الخالية .

٢ ــ أحفَظُ : أي شديد الغَضَب ، ومنها الحَفيظة . عانَتُه : أُتنه . لا تُسطاع : أي لا طاقة لفَحل آخر بها . ورَد الماء : أقبَل علَيْه . إصْدارُه : من صدر عن الماء ، أي عاد عنه .

م : يقول إنّه لا يزال مُتَغضّباً ، خائفاً على أُنثاه ، يدافع عنها سائر الفحول ، وإنّه لشدّة غيرته ، لا يطيب له اقبال على الماء أو رجوع عنه ، لأنّ خوفه على أتانه يُثير لوعَته وهمّه .

م : يمتدح صاحبَيْه بشراً وأبا حنش اللّذين يحضران معه الشّراب ويقول إنّهما كريمان لا تَتَقَبض أيديهما بخلاً ، كما انهما لا يوغلان على سواهما من الشرْب دون أن يُدْعيا إلى ذلك .

٣ ــ القَهْوة . الخمرة التي لا يشتهي صاحبها عليها الطّعام . النّاجود : وعاء الخمرة وكأسها .

م : يشير في هذا البيت إلى أحد السّقاة أو النّدمان الذي يباكر صحبه بخمرة طيبة ، صافية ، لا يغشاها كَدر .

٤ ــ السّلافة : الخمرة في أول سيَلانها . حَصَلَتْ مِنْ شارِف : أي من دنّ قديمة . الخلَق : القديم ، الذي أو شك أن يزول . الأبْجَل : عِرق . النّعر : الذي يتفوّر منه الدّم ويصوّت .

م : يقول إنّهم اتّخذوا خمرتهم من خابية قديمة ، هرمة ، فسالت منها حمراء قانية كالدم الذي يتفوّر من العِرق إذ يُفْصد .

٥ ــ عانيّة : منسوبة إلى عانة ، وهي إحدى القرى على الفرات .

م : يقول إنّها ، إذا ما احتُسيَتْ ، فإنّها تُحيي نفس مُحتسيها ، حتى أنّها قد تبعث الميْت وتعيده إلى الحياة ، فيما إذا علّ منها .

ذكر صاحبته أروى

وَقَدْ أُحدّثُ أَرْوى ، وَهِيَ خالِيَـــةٌ فَلا الحديثُ شَفانيهــا ولا النَّظَرُ ١
لَيْسَتْ تُداويكَ مِنْ داءٍ تُخامِرُهُ أَرْوى ، ولا أَنتَ ، ممّا عندها ،تَقِرُ ٢
أَحْمَرُ تَحْسُبُ لَوْنَ الوَرْسِ خالَطَـــهُ كأَنَّهُ حينَ يَهْوي مُدْبراً حَجَرُ ٣
بعانَة رَعَتِ الأَوْعارَ صَيْفَتَهَـــــا حتى إذا زَهِمَ الأَكْفَالُ والسُّرَرُ ٤

١ ــ م : يقول إنّه كان يحدث صاحبته أروى ، وهي خالية ، طيّبة النفس ، إلاّ أن الحديث لم يُجْدِه ولا نظره إليها ، أي أنّهما لم يطفئا شوقه ووجده .

٢ ــ تخامره : تلازمه . تَقِرُ : تصمّ أذنك وتميل عمّا يأتيك منها .

م : يقول إن صاحبته أروى لا تصله فتشفيه من الدّاء الذي يلازمه ، كما أنّه لا يقوى على الصدّ والميل عنها .

والشّعراء العرب لا يزالون يُنْمون إلى الحمار الوحشي الغَيْرة ويرمزون إليه بها . وللبيد مقطع في معلّقته يصوّر به غيرة الفحل أدقّ تصوير وأفجعه .

٣ ــ م : يذكر لونه الضّارب إلى الصّفرة ، ويقول أنّه يبدو وكأنّه قد خالَطَه الوَرْس . ثمّ يصف سرعته ويشبّهها بسرعة الحَجَر الهاوي المُنْحدر . ولعلّه تأثّر في هذا التشْبيه بامرىء القَيْس في تشبيه إقبال فرسه وإدباره معاً بصخر حطّه السيّل .

٤ ــ عانَة : هنا إناث الحمار الوحشي . الأوْعار : موضع بناحية السّماوة ، وهي من بلاد كلب . زَهِمَ : سمن . الأكْفال : جمع كفل وهي الأعجاز . السُّرَر : جمع سرّة ، هنا البطن .

م : يقول إنّه كان يقيم بين أُتْنه وإنّه ارتعى بها في موضع السّماوة ، طيلة الصَّيف ، حتّى سمنَت وامتلأت أعجازها وبطونُها .

صَارَتْ سماحيجَ قُبًّا ، ساعةَ ادَّرَعَتْ شَعْبَانَ ، وانجابَ عَن أكفالِها الوَبَرُ ١

كأَنَّ أَقرابَها القُبْطِيُّ ، إذْ ضَمَرَتْ وكادَ مِنها بقايا المـاءِ يُعْتَصَرُ ٢

يَشُلُّهُنَّ على الأَهواءِ ذو حَـــــرَد على الظَّعَائنِ ، حتى يَذْهَبَ الأَشَرُ ٣

دامي الخياشيمِ ، قَدْ أَوْجعْنَ حاجبَهُ فَهْوَ يعاقِبُ ، أَحياناً ، فيَنْتَصِرُ ٤

سَحّاجُ عُون ، طواهُ الشَّدُّ صَيْفَتَهُ فالضِّلْعُ كاسِيَةٌ والكَشْحُ مُضْطَمِرِ ٥

١ ــ السّماحيج : الطّوال . القُبّ : هنا السمّان ، المُنْتَفخات البطون . ادّرَعَتْ : هنا دخلت . شَعْبان : هنا للدّلالة على أول شهور القَيْظ .

م : يقول إنها ، إثر إرتعائها ، سَمِنَتْ وطالت ، فيما أخذ الوبر يتساقط على أعجازها ، عند دخولها في شهر القَيْظ .

٢ ــ الأقراب : الخواصر . القُبطيّ : أي ثوب قبطي وهو الثّوب الأبيض .

م : يقول إنّ خواصرها أخذت بالضُّمور ، فبدت كالثّوب القبطيّ الأبيض ، وإن الماء جفّ في بطنها وأخذ يعتصر منه اعتصاراً ، حتى تسيل بقاياه . والشّاعر يشير بذلك إلى أنّ النّبات قد جفّ وأنها لم تعد قادرة على أن تجتزىء به عن الماء ، وأن الظمأ بدأ يجفّف أحشاءها .

٣ ــ يَشُلُّ : هنا يميل ويدفع ويمنع . حرَد : هنا غَضَب . الأشَر : هنا البطر والغضب .

م : يقول إنّه كان يسوقهنّ ويزجيهنّ بقسوة متُنَفّساً عن غضبه وحنقه .

٤ ــ الخَياشيم : جمع خَيْشوم وهنا الأنف .

م : يقول إنّه لا يزال يدفعها عمّا تميل إليه ، فترْمَحُه أو تعضّه ممّا يُدْمي خياشيمه وحاجبَيْه ، فيميل إليها ويرمحها أو يعضّها بدوره ، معاقبة لها ، ويمنعها من أن تؤذيَه .

٥ ــ السّحّاج : هنا الشّديد العَدْو . عون : هنا الإناث غير الأبْكار . الشّد : العَدْو .

م : يقول إنّه لا يزال يعدو ، إثر أُتنه ، وإن أضلاعه كاسية باللّحم ، فيما اضطمرَ خصره لشدّة عدوه ، أثناء الصَّيف .

حتى إذا وضَحَتْ في الصُّبْحِ ضاحيَةً جوْزاؤهُ ، وأَكَبَّ الشَّاةُ يَحْتَفِرُ ١
وَزَمّتِ الرّيحُ بالبُهْمى جَحافَلَـــهُ واجتمعَ الفيضُ مِن نَعمانَ والخُضَرُ ٢
فظَلَّ بالوَعِرِ الظَّمآنُ يَعْصِبُـــــهُ يَوْمٌ شُحومُ الوَحْشِ تصْطَهِرُ ٣
يبحثُ الاحساءَ مِن ظَبْي ،وقدعلمتْ مِنْ حيثُ يُفْرِغُ فيهِ ماءَهُ وَعِرُ ٤
وعَزَّهُ كلُّ ظنٍّ كانَ يأْمُلُـــــهُ مِن الثِّمادِ ، ونَشَّتْ ماءَها الغُدُرُ ٥

---

١ ــ الضَّاحية : هنا ارتفاع النّهار . جوْزاؤه : هنا من الكَواكب التي يصحبها القيْظ الشّديد . الشّاة : هنا الثور .

م : يقول بعد أن أرتفع الصُّبح وبدت فيه كواكب القيْظ الشّديد وأكب يحتفر الأرض ليباشر بها الرطوبة ويستكنّ بها .

٢ ــ زمت : ذهبت . البُهْمى : نوع من النّبات الصحراوي . نَعمان : موضع بالشام . الجحَافل : جمع جحفل وهي بالنّسبة إلى البعير كالشفة للإنسان .

م : يستكمل معنى البيت السابق ويقول إنّه أخذ يأكل نبات البُهْمى الذي جففّته الريح ، فزمّت به شفتاه .

٣ ــ م : يقول إنّه أقام ظمأن يعصبه القيْظ والظمأ ويكاد أن يذيب لحمه وشحمه .

٤ ــ ظَبْي ووَعِر : واديان . الأحْساء : موضع .

م : يقول إنّه ظلّ يتحرّى عن الماء في موضع الظّبْي وإنّه كان عليماً بالمجاري التي تُوصل المياه اليه من وادي وعر .

٥ ــ الثماد : الماء القليل . نشت : جفت .

م : يقول إنّه أخفق في العثُور على قليل من الماء في تلك المواضع ، إذ ألْفى الغُدْران ، وقد نضب ماؤها ، جميعاً .

فهوَ بها سيءُ ظنًّا ، وليسَ لَـهُ بالبَيضَتَيْنِ ولا بالعِيصِ ، مُدَّخَرُ ١
ذَكَّرَها مَنْهَلاً زُرْقاً شرائعُـــــهُ لهُ ، إذا الرِّيحُ لَفَّتْ بَيْنَهَا ،نَهَرُ ٢
فَحْلٌ ، عَذومٌ ،إذا بَصْبَصْنَ ألحقَه شدٌّ يُقَصّرُ عَنْهُ المِعْبَلُ الحَشِرُ ٣
يَشُلُّهُنَّ بصَلصـال يَحَشْرِجُـــهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ وشدٌّ ليسَ يَنْبَهِرُ ٤

---

١ ـ البَيْضَتان والعِيص : اسما موضعَيْن .

م : وإذا خاب ظنّه في كلّ موضع طلب فيه الماء ، ولم يجد مدّخراً ، أي بقيّة منه في البيضَتين أو في موضع العِيص .

٢ ـ الشّرائع : جمع شَريعة ، وهي سبيل الماء .

م : يقول إنّه بعد أن افتَقَد الماء في كلّ مكان ، تذكر مَنْهلاً عرفه من قبل ، فيه مياه زرقاء ، صافية ، لا يجفُّ ولا ينضبُ ، وإن لَفَحَتْه الرّيح الحارة ، بل يبقى فيه بقيّة ماء .

٣ ـ عَذُوم : عضوض . بَصْبَصْنَ : أسْرَعْنَ . الشّدّ : العَدْو السّريع . المِعْبل : سهم له نصلٌ عريض . الحَشِر : المُرَقّق .

م : يقول إنّه لا يزال يعضُّ أُتُنه ويزجرها ، وإنّها إذا ما عدَت دونه ، لحِق بها ، يعدو عدْواً سريعاً ، يقصّر عنه السّهم العريض المُرَقّق .

٤ ـ يَشُلّهنّ : يطردهنّ . الصَّلْصال : النّعيق . يَنْبهر : ينقطع فيه النّفَس .

م : يقول إنّه لا يزال يُزْجيهنّ ويدفعهن ، صائحاً إثرهنّ ناهقاً فيهن بصوت يتَحَشْرَج في ضلوعه ويعدو عدواً لا ينقطع فيه نَفَسُه .

ووصف النّاقة مبتسر ، كما قدّمنا ، وإنّما المهمّ وصفه للحمار الّذي بذل فيه كلّ جهد للأداء والنّظم . وقد استهلّ بالأشارة إلى قيامه في أتنه ، يعاني من دونها الغيرة . ومنذ هذا المطلع نجد أنّ وصف الحمار ينطوي على رمزٍ هو أنأى منه ، رمز الرّجل – ولعلّه العربيّ – الّذي يهلع إذ يخيّل إليه أنّ حليلته تحنّ إلى سواه ، فيرود عليها ، يصدّها ويردّها ، مقيماً على عطشه ، لا قبل له بارتياد الماء . فهذا الحمار يعاني حالات إنسانيّة في نفسه وجسده ، إذا جاز التّعبير . فأيا يكون هذا الحمار الّذي لا يقوى على احتساء الماء لأنّه مصاب بداءٍ في نفسه ، فكأنّ الانسان لا يطيب له مأكل أو مشرب إلا مع راحة البال وكرامة النّفس . وهذا الحمار يتحلّى ، فضلاً عن ذلك ، بميزتين : الجمال والقوّة . الجمال يبدو في قوله : « أحمر تحسب لونَ الورس خالطه » والقوّة في سرعته الّتي لا تجارى : « كأنّه حين يهوي مدبراً حجر » . إلا أن الأخطل لا يمعن في ذلك وان كان قد تنبّه له واستطلعه ، كمظهر من مظاهر الطبيعة المتكاملة ، الجميلة .

وإثر هذا الوصف يقصّ قصّته وأتنه الّتي أكلت خير الطّبيعة فسمنت ، إلا أن الماء فاتها ، فكأنّ القدر ينعم بنعمة ، ثم يعقبها بنقمة ، ييسّر له الغذاء ، فيتطيّب به ، فيظمأ ، فيطلب الماء ، فيخذل به . لعلّ الفحل افتقد الماء فعلاً ولعلّه لم يفتقده ، بل إن الشّاعر هو الذي وقّع الاحداث في ذلك الموقع ليبثّ من خلالها شعوره بعبوديّة الانسان للقدر وقيامه فيه تحت رحمته ومصائره . بل إنّ الفحل ليبدو ، هنا ، وكأنّه ربّ عائلة يتدبّر أمرها ويؤمّن لها رزقها ، إلا أنّه مذعور ، متوحّش ، يقسو في سوق أتنه أو أن شدّة خوفه تفقده روعه ، فيضرب ضرباً في الفيافي ، ينهر أتنه الّتي تلهو عنه ، فكأنها تقصّر به عن غايته وتدفعه عن همّه ومهمّته . ويعرض لحاله مع أتنه بالقول :

دامي الخياشم ، قد أوجعن حاجبه فهو يعاقب ، أحياناً ، فينتصر

لقد أدمته برمحها ورفسها وعضّها ، فكأنّه لا هناءة له في القيام بينهنّ . ولسنا ندري إذ كانت جراحه هي في خياشيمه ، كما يزعم الشّاعر ، ولعلّها أدمت

خياشيمه ، وأدمَتْ نفسه إذ لا يزالُ الفحل يُسيءُ الظن بأتنه ويَقْسو عليها لشدّة حقده وضراوته .

وهناك آفة أخرى تعترض سبيله وترهق مصيرهُ ، وهي الهاجرة الشّديدة الّتي تَمنَعُه من العَدْو والسّعي في طلب الرّزق والماء . وهذا الحيوان يحتال عليها بحيلته ، دُون أن يُفْلح في النّجاة . وإذ بَحثَ التّراب ليُباشر الرُّطوبة ، تتواردُ في ذهننا حياة العربيّ الذي لم يكن يتروّى إلا لماماً ، يترصّد أو يظمأ أو يشرب على القذى ، أو يفْخر بشرب الماء حينما يطيب له كما يقول السّمؤل :

بنى لي عاديا حصناً حصيناً ... وبئراً كلّما شئْتُ استقيتُ

وآفة القيظ لا تُصيبه بمائه ، بل بطعامه إذ تَجَفُّ وتَيْبَسُ من دونه الأعْشاب ، فيأكل البهمى اليابسة :

حتى إذا وَضُحَتْ في الصُّبح ضاحية ... جوزاؤه ، وأَكبَّ الشّاةُ يَحْتَضِرُ
وزمَّتِ الرِّيحُ بالبُهْمي جحافِلَه ... واجْتَمَعَ الفيْضُ من نَعْمَانَ والخُضَرُ
فَظَلَّ بالوَعْرِ الظمآنُ يَعْصبه ... يَوْمٌ تكادُ شحُوم الوحش تَصْطَهِرُ

القَيْظ ضاعف من عَطَشه ، فطلب الماءَ ، فلم يُفلحِ إذ وجده قد نَضَبَ . ومعنى ذلك أن الطَّبيعة قد تَقْسو وتَنْبُو وتَخْذل أبناءَها ، يَهْرَع إلى ضرعها ليستقي منه ، فإذا هو جافٌّ ، كالقربة الخلقة . والقصيدة ، جميعاً ، تَحْفل بأجواء الكفاح المرير ، كفاح في حفظ كرامة النَّفس والاحتفاظ بالحليلة وكفاح في طلب الرّزق واحتمال القَيْظ والتَّسعُر إلى الماء . ففي مثل هذه الأبْيات تقوم التّجربة على أحداث جليلة ترتفع بها من المُنَازعَةِ اليسيرة ، الجزْئيّة إلى المنازعة الانسانيّة المطلقة ، فهو يَتلو ظاهراً أحداثاً في سياقٍ مُتَطَوِّر متنام، ولكنَّه يُعالج، ضمناً ، أزمةً ، بل فاجعةً لَيْسَتْ الأحداثُ سوى مراحل فيها ، أو أن في كُلٍّ منْها وجهاً من وُجُوهها . فالمرحلة الأولى مرحلة الغيرة ، وهي رمز للحتميّة النَّفسيَّة

الدّامية ، وفي المرحلة الثّانية القيظ والثالثة الظمأ وعبرها وجه ذلك الحيّ الّذي يَعْدو هارباً من قدر الموت ، وراء طيف الحياة ، بل سرابها . إلاّ أنّ الأخطل يَظَلُّ مُتَفَائل النَّزعة إذ يدع الماء يتعذّر حيناً على الحمار ، لكنّه يُوحي بأنّه وجد منه نبعاً لا يَنضب ماؤه ، فكان الحياة تُتعِسُ حيناً ابناءها وتقسو عليهم ، إلا أنها تتعطّف ، أخيراً ، وتنقذهم وتريحهم . وإذا كان الشّعر في طبيعته لا يَسيغُ السّرد ، فإن الشّاعر وقّعه ، هنا ، تَوْقيعاً انْفعالياً ، مؤثّراً ، بالرغم من طفوّ الأحداث وطُغْيانها عليه .

وفي أبيات أخرى يراودُ مثل هذه التّجربة ، مُنْطلقاً من موضوع النّاقة ، مشبّهاً إياها بالفحل وأُتنه ، إلا أن الفاجعة تتضاعف فيها ، إذ يَكْشِفُ لنا وجهاً جديداً من مأساته ، يطالعه في الصّيادين الّذين يتربّصون له ، فيما هو يُقْبل على الماء ، يتوجّس منهم ويَسْتطلع كلَّ جرس ونبأة ، بذعر وحذر كأن فخاخ الموت نُصِبَتْ له في كل صَوْب .

فهو يَسْتهلُّ بذكر النّاقة ، عامّة ، وقد خصّها في الأبيات التّالية بأوصاف أشد وضوحاً واكثر استيفاءً لغرض الوصف ، إذ يقول إنها أَمون لا تتعثّر في سيرها ، وأنّها تنجي صاحبها من الهلاك ، أيا ما كانت الأهوال التي يقاسيها ، لا تزال تعدو وان كلّت سائر النياق الكريمة . فهي فريدة ، متفوّقة في نشاطها ، وربّما استطرد في وصفها إلى مَعان تقريريّة كالقول إنها طويلة الخطم ، وإن مرفقَيْها منفرجان ، لكنّه لا يُعتِّمُ أن يَسْتدركَ في ذلك ، فيؤدّي الأوصاف الانفعاليّة التي تظهر شدّتها من خلال العرق المتَصَبِّب أو النّاضح من وراءِ أُذنَيْها وانفتال خلايا صدرها وشدّة وثوقها وإحكامها ، من خلال الشّرر الذي يتطاير بَيْن أخفافها من وطئها الشّديد على حجارة المرْوِ . ومع أن هذه المعاني تبلغ غايتها في الايحاء بعظم القوّة ، فإنها مأثورة في تقليد وصفها ، منذ الجاهليّة وليس للأخطل فيها إلا حسن النّظم والتّوقيع .

وإذ يميلُ إلى تشبيهها بالحمار الوَحْشيِّ ، يُشير إلى خاصرتَيْه المتلمّعتَين ،

متكنياً بهما عنه ، ثم يذكر قيامه في أتنه ببادية السّماوة حيث عزّ عليه المرعى واستبدّ به الظّمأ ، لكنّه لم يطق الرّحيل إلى الماء إذ كانت سُبُلُه مَرْصودةً عليه . إلا أنّه يقتحم على الماء ، بالرغم من خوفه وذعره ، فيستقي وأُتْنَه من المياه العَذْبة، منكّداً وإيّاها بالخَوْف ، لا تزال عَيْناه وأَعْينها تطيف بما حَوْلها حذرةً وجلة ، تحدق في الأشجار الملتفّة متوقّعة أن يُطَالعها الصّيّاد من قَلْبها . فالماء أزرق صاف ، عَذْب ، وهي شديدة الظّمأ ، تُقبل عليه بلهفة لا يُعادلها إلا شدّة الخوف ، فكأن خوفها أحال ذلك الماء إلى كدر وأقذاءٍ لا تُسْتَسَاغُ ، تغصُّ به غصّة الموت والهلاك . ولقد صَدّقها ظنّها وتحقّق خوفها إذ لم تكد تَحْتسي قليلاً منه ، حتى انقَضّ عليها ، من قلب الغيل ، صيّاد أنفذ إليها أَسْهماً مصبوغةً بل نضّاحة بالدّماء لكثرة ما أَلمّ بها في الطّرائد . إلا أنّه أخطأها فتولّتْ مُدْبرة أمام فحلها ، تَصْليها الهاجرة المهلكة ويَرْمحها ويزجرها الفحل ، مثيرةً ملاءاتٍ من الغُبار في عَدْوها :

فَسَلِّها بأَمونِ اللَّيْلِ ، ناجِيَــــــة فيها هِبابٌ ، إذا كَلَّ المراسيلُ ١
قَنْوَاءَ ، نضَّاخَةِ الذِّفرَى ، مُفَرَّجة مِرْفقُها ، عَنْ ضُلوعِ الزَّوْرِ ، مفتولُ ٢

١ ـ أمون : هي النّاقة التي يؤمن عثارها في السّفر . النّاجية : النّاقة الشّريفة التي تنجو بمن يَمْتطيها . الهِباب : النّشاط . المَراسيل : النّياق السّريعة .

م : يتخلّص في هذا البيت إلى وصف النّاقة ، مُتَسلياً بها عن همومه ، على غرار الجاهليين ، ويقول إنها ناقة قويّة ، لا تودي بمن يمتطيها ، بل تُلْفى في غاية النّشاط ، فيما تعجز النّياق السّريعة وتكلُّ من دونها .

٢ ـ قَنْواء : طويلة الخطم . نضّاحة : أي يكثر نَضخ العرق من مسامها . الذفرَى : العظم الذي خلف الأذن . مُفَرَّجة : بعيدة ما بين المِرْفقين من الإبط . الزّور : الصّدر . المَفْتول : المحكم .

م : يستكمل وصف تلك النّاقة ويقول إنّها طويلة الخطم ، يكثر نَضخ العَرَق من وراء أذنيها ، بعيدٌ ما بين مرفقيها ، كما أن مرفقها يتّصل بصدرها اتّصالا وثيقاً . وهذه الاوصاف تَرِدُ من خلال انفعال عامّ للشّاعر بكمالها وسرعة عَدْوها .

تَسْمُو ، كأَنَّ شَراراً بَيْنَ أَذْرُعِهـــا مِنْ ناسِفِ المرْوِ ، مَرْضوحٌ وَمَنْجولُ ١

كأَنَّها واضحُ الأَقرابِ في لِقَـــح أَسْمي بِهِنَّ ، وعَزَّتْهُ الأَناصيلُ ٢

تذكَّرَ الشِّرْب ، إذْ هاجَتْ مراتِعُهُ وذو الأَشاءِ طَريق الماءِ مَشْغولُ ٣

يَحْدُو خِماصاً ، كأَعطالِ القِسيِّ ،لهُ مِن صَكِّهِنَّ ، إذا عاقبنَ ، تخبيلُ ٤

١ ــ تَسْمو : أي كأنّها تُحلّق في عدوها من شدّة سرعتها . ناسِف : ما نَسَفَتْ وأطارت من الحجارة أثناء عدوها . المَرْضُوح : المَكْسور . المَنْجول : المَدْفوع .

م : يقول إنّها تعدو وتُسرع في سيرها ، فتنفر الحجارة من دون أخفافها وتتطاير كما يتطاير الشّرر من الحديد المحمى إذ يضرب . ويعظّم من أمر سرعتها في الشّطر الثاني إذ يجعل الحصى فيما تنسفه مكسّراً ، أو مُنْدفعاً بسرعة قوية . وهذا الوصف مأثور عند القُدماء ، وهو يُمثّل أسلوباً دأبوا عليه وبه يفيدون الغلوّ ويجسّدونه من خلال مشهد حسيٍّ يؤدي غاية المَعْنى بدلالته الظّاهرة .

٢ ــ واضِحُ الأقراب : الحمار الوَحشي ذو الخواصر المتلمّعة . لُقِــح . أسْمى بِهِنّ : أي لزم السّماوة وهي بادية . عزّته : صَعُبت عليه . الأناصيل : هي ما نصل من البهمى أي ما سقط من شوكه .

م : يميل في هذا البيت إلى تشبيه ناقته بالحمار الوحشي المتألق الخاصرتين ، والذي يُقيم في أُتنه ويلزم بهن بادية السّماوة حيث يطلب المرعى ، فيعزُّ عليه .

٣ ــ الأشاء : صغار النّخل . وذو الأشاء : اسم موضع .

م : يقول إنّه بعد أن رتع وطال به المرح . ألمّ به الظمأ ، لكنّه أحجم عن ورود الماء لأن السبيل الذي سيسلكه إليه كان مرصوداً .

م : يقول إن ناب ذلك الحمار قد ظهر منذ سنتين ، وإن شعره الأول قد جعل يتساقط ، وإن حوافره قد غَدَت مرضوضة من كثرة ما يطأ بها حجارة المَرْو القاسية أثناء عدوه .

٤ ــ خِماص : ضامرات . الأعْطال : القسيّ التي لا أوتار لها . تَخْبيل : جرحهنّ إياه .

م : يصف سَوقه لأتنه أمامه ويقول إنّهن ضامرات كالأقواس التي لا وَتر لها ، يُلْمِمْنَ به ويخلّفن فيه جراحاً من عضّهنّ له .

أَوْرَدَها منْهَلاً ، زُرْقــاً شرائِعُــهُ وقَدْ تَعَطَّشَتِ الجِحْشَانُ والحُولُ ١
يَشْرَبْنَ مِن بارِدٍ عذْب ، وأَعيُنُهَا مِنْ حيثُ تَخْشى ، وراءَالرَّاميَ الغِيلُ ٢
نالَتْ قليلاً ، وخاضَتْ ، ثُمَّ أَفزعها مُرَمَّلٌ ، مِن دماءِ الوَحْشِ ، معلولُ ٣
فانْصَعْنَ كالطَّيرِ ، يحدوهُنَّ ذو زَجَل كأَنَّهُ ، في تواليهنَّ ، مَشْكــولُ ٤
مُستَقْبِلٌ وهَجَ الجوْزاءِ ، يَهْجِمُهــا سَحَّ الشَّآبيبِ ، شدٌّ فيهِ تَعْجيــلُ ٥

١ ــ الحُول : جمع حائل : الأنثى من أولاد الإبل .

م : أي أنّه قدم بها إلى مياه صافية زرقاء ، فيما كانت أولاده قد أصابها الظمأ الشّديد .

٢ ــ م : يقول إنّها كانت تشرب الماء ، وأعينها قلقة ، تستطلع الصيّاد الذي يترصّدها وراء الغيل ، أي الأشجار المُلْتفة حول ذلك الماء .

٣ ــ مُرَمّل : ملطّخ بالدم . مَعْلول : أي دأب على الشرب الكثير .

م : يقول إنّها لم تكد تحسو قليلاً من الماء وتخوض فيه ، حتى فاجأها صيّاد بسهمه الملطّخ بالدّماء .

٤ ــ انصَعْن : مِلْن وخَضَعْنَ وهنا بمعنى ملْن إلى العَدْو . يَحْدو : يسوق . ذو زَجَل : الحمار الذي يرفع صوته . تواليهن : إثرهن . مَشْكول : هنا مقيّد بهن ، لا يفارقهن .

م : يقول إنهنّ هربن من الصيّاد وأخذن في العدو كالطّير المُسْرعة ، والفَحْل يَسوقهنّ ويُزجيهنّ أمامه ولا يبارحهن كأنّه موثق إليهن .

٥ ــ الجَوْزاء : هنا إشارة إلى الحرّ الذي يَصْحب طلوعها . يَهْجِمُها : يُسيل عرقها . الشّدّ : العَدْو السّريع . سَحّ : نَضَح بكثرة . الشآبيب : جمع شؤبوب : دفعة من المطر .

م : يقول إنّه ، في هربه ، جعل يَعْدو في الحرّ الشّديد والعَرَق يَنْضح من أُتنه ، فيما كانت حوافرُها تَطأ الأرض ، محدثةً وقعاً كوقع المَطر الغزير .

إذا بدَتْ عَوْرَةٌ مِنهــا ، أَضَرَّ بهــا ... بادي الكراديس ، خاظي اللَّحْمِ ، زُغلولُ[1]

يَتْبَعُهُ مِثْلُ هُدّابِ المُلاءِ ، لـــهُ ... مِنْها أَعاصيرُ : مقطوعٌ ومَوْصولُ[2]

يا أَيُّها الرَّاكبُ المُزْجي مَطِيَّتَـــهُ ... أَسْرِ ، فإنَّكَ ، إنْ أُدْرِكْتَ ، مقتولُ[3]

لا يَخْدَعَنَّكَ كَلْبــيٌّ بذِمَّتِـــــهِ ... إنَّ القُضاعيَّ إنْ جاوَرْتَهُ غُـــولُ[4]

كَمْ قَدْ هَجَمْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ مُسَوَّمَــةٍ ... شُعْث ، فوارِسُها البِيضُ ، البهاليلُ[5]

١ ــ العَوْرة : هنا الخلل والنّقص في عدوها . أضرَّ بها : هنا رَمَحها ورَفَسها ليردَعها عمّا هي عليه . الكَرادِيس : جمع كرْدوس ، وهي رؤوس العظام . الخاظي : الشديد اللّحم . الزُّغلول : الخفيف اللّحم .

م : أي أنّها ، إذا ما تخلّفت أو حادَت ، وهي تعدو ، فإنّ الفحل كان يرمحها ويرفسها ليستقيم عدوها أمامه .

٢ ــ هُدّاب المُلاء : المَلاحف .

م : يصف الغبار الذي تثيره في عدوها ويشبّهه بالغبار الذي يثيره الإعصار ويقول إنّه كان ينقطع حيناً ، ويتّصل حيناً آخر .

٣ ــ أزْجى : دَفع أمامه . المَطيّة : ما يُمتطى ويركب من الإبل وسواها . أسْرِ : هنا من سار في اللّيل .

م : يميل في هذا البيت عن وصف الحمار الذي استطرد إليه من خلال وصفه للنّاقة ويخاطب راكباً ويستحثُّه ويدعوه إلى السّير ، حتّى في اللّيل ، لأنّه إذا ما لحق به من يقتفون إثره ، فسوف يقتلونه .

٤ ــ الغول : هنا بمعنى الافتراس والهلاك .

م : يهجو بني كلاب وقضاعة ويقول إنهم لا يخفرون ذمّة من يجاورهم ، بل يغتالونه .

٥ ــ المُسَوَّمة : هي الخيل الكريمة المُعْلمة بسمة للتدليل على أصالتها . البَهاليل : جمع بُهْلول وهو السيّد الجامع الخير .

ولعلّ هذه الأبيات لا تتعرّض للتّفاصيل والجزئيّات الوَصْفيّة كالأبيات السّابقة ، إلا أنها تخطتّها في إظهار المصير الهالع ، الفاجع الّذي كتب للفحْل وأتنه في الصحراء . فهذا الفحْل لا يَبْدو شديد الغيرة كالفحل السّابق ، إذ أنه كان يَمْرح واتنه ، أي أنّه لم يكن يُعاني بؤساً في داخله ، ولكنّ البؤس أحدق به من الخارج ، إذ طلب الماء ليترَوّى واتنه . والماء لم يَتَعَصّ عليه ، إذ وقع منه على نبع صافٍ عذب ، وكأنّه يُوعز بذلك إلى أن الطبيعة تقدّم الحياة في الشّبع والرِّي . إلا أَنّ الحياة تُلْفى مُهَدّدةً ، أبداً ، بالمَوْت ، يَلْحق بها كالظلّ ، تعدو من دونه وهو يعدو إثرها ، أو يتربّص لها ويُفاجِئُها ، فتولّي من جديد . فظاهر القصيدة يتناول الفحل وأُتنه ولكن مَضْمونها يتناول موضوعاً وُجوديّاً يظهر بؤس الأحياء وتنكُّدهم إذ لا تطيبُ حياة أَحدهم أو لا تقوم إلا بما يغتذي من لحومهم ويعلّ من دِمَائهم .

ومثل هذا المشهد يتردّد في شعر ذي الرُّمة ومن إليه من شعراءِ البادية . حيناً يدعون الفحل يَنْجو وحيناً يُصْرع . أما الأخطل ، فلا يُوقّع الأحداث بما يدع الفحل أو أيّةً من أتنه تُصرع إذ لَسْنا نستشفُّ عبر شعره ، جميعاً ، تلك النّظرة المأساويّة الحالكة لواقع الوجود . ذاك أن أحداثه كانت تَصْطَخبُ وتضطرب في وجدانه ، فتُفْعمه بالضوضاءِ وتمنعه من التّنصُّت لوقع أقدام المَوْتِ على أديم الحياةِ . ومع ذلك،فإنّ لديه حسّاً فاجعاً وإن لم يكن نهائيّاً ، مطلقاً . نستَطْلعُه من طبيعة الأحداث . فبينا الفَحْلِ يلهو ويَمْرح بأُتنه ، إذا به يَشْعر بالظمأ ، فيعود إلى الماء ، أي يتكلّف مشقّة ، وليس في ذلك ضَيْرٌ ، فيما لو كان يَنْتجعه ويتروّى به هنيئاً . إلا أنه لم يكد يَحْتَسيه : « نَالَتْ قَليلاً ، وخَاضَتْ ، ثمّ أفزعَها مُرَمّلٌ فانْصَعْن كالطّيْر » . لقد شَارفَت الماءَ ، لكنّها لم تَروَّ واتدّت عنه ، جافلةً ، واجلة ، ناجيةً بذاتها . أو ليس لتوقيعه الحادثة على هذا الغرار مؤدى خاص ، رمز به الى تنكد الانسان الدّائم بالخوف من العوادي يفيض أمامه نبع الحياة الازرق الصّافي ، يَهُمُّ به ليُرَوّي غليله ، فاذا بالموت ينقضُّ عليه وتطالعه من دونه مطالع الهلاك . لقد تفطنّ الاغارقة إلى ذلك منْذُ البَدْءِ إذ أنّهم ألّهوا آلهتهم ولكنّهم جعلوا يد القدر فوق أيديهم ، جميعاً ، موعزين بذلك إلى أن الانسان هو عبد له ، يَلْهو به في قبضته ، أو أنه يُسلّط طوارئه ومصائبه دون حكمة ،

تَنْقضُّ عليه من غيل الحياة ، كما انقَضَّتْ أسهم الصيَّاد على ذلك الفَحْل من غيل الصحراء . والمصائب لا عقل لها ولا حكمة في توقيعها ، إذ ترد وتتعاقب بما يضْني صمود الانسان وبطولته . فبعد أن فرَّ ذلك الفحل الظّامىء البائس ، سُلِّطَتْ عليه أشعة الهاجرة كأنها أداةٌ ظاهرةٌ خفيَّة يضطهده بها القدر .

ونقع في ديوان الأخطل على مقطوعات مُتَعدِّدة لوصف النَّاقة والحمار الوحشيّ ، ممّا لا مجال لايراده ، جميعاً ، لأنّه متماثل ، متكرر ، وإنما نبذل هذه المقطوعة الأخيرة [1] التي استهلّها ، كدأبه بذكر الناقة في أوصافها المتداولة . فهو يقرنها بالصّخرة الصّلبة ويقول إنها لا تكل حتى ولو ذاب سنامُها وتخلّفتْ عنها سائر النِّياق لشدَّة الحرِّ وتَنَقُّب أخفافها . ثم يُشبهها بالفحل الّذي يقيم في أتنه ويَسُوقُها إلى الماءِ، هارباً من القَيْظ . أقام على مُرْتفع عال ، يستشرف الأماكن التي يستنقع فيها الماء ودفع أتنه أمامه ، يرمحهنّ ويَعُضهنَّ ، وهُنَّ يُحاذرْنَه ، ويجهضن بأولادهن من شدّة العياء والأرهاق ، كما أن الصَّيادين يطالعونه ، متربّصين بأسْهمهم المرنانة :

هَلْ تُبلغَنِّي يَزيداً ذاتُ مَعْجَمَـــة   كَأَنَّها صَخْرَةٌ صَمّاءَ صَيْخُودُ [2]
مِنَ اللَّواتي إذا لانَتْ عريكَتُهـــا   كانَ لها بعْدَهُ آلٌ ومَجْلـــودُ [3]

١ – راجع الشرح : ٦٩ : ٢١ – ٢٦ ؛ ٩٨ : ٢٦ – ٢٨ ؛ ١١٦ : ١١ – ١٤ ؛ ٢١٩ : ١١ – ٣١ ؛ ٥٩٨ : ١٠ – ٣١ ؛ ٦٠٩ : ١٤ – ٣٢ ؛ ٦٣٤ : ١٤ – ١٩ .

٢ – المَعْجَمَة : الغلابة ، الصّلبة ، أي النّاقة . صَيْخود : صليب .

م : يشرع في هذا البَيْت بوصف النّاقة التي تُقلّه إلى يزيد ، ويقول إنّها ذات صلابة كأنّها صخرة عظيمة .

٣ – العَريكَة : السنام . الآل : الشخص . مَجْلود : صَبْر .

م : يقول إنّها بعد أن يلين سنامُها ويوشك أن يذوب . تظلّ مُقيمةً على سيرها ، تَتَجالد عليه وتثبت فيه .

تَهْدي سَوَاهِمَ يَطْويها العَنيقُ بنا فالعِيْسُ مُنْعَلَةٌ أَقْرَابُهَا سُودُ ١
يَلْفَحُهُنَّ حَرُورُ كُلِّ هاجِرة فكُلُّها نَقِبُ الأَخْفَافِ ، مَجْهُودُ ٢

الفحل وأتنه

كأَنَّها قارِبٌ أَقْرى حَلائِلَهُ ذاتَ السَّلاسِلِ ، حتَّى أَيْبسَ العُودُ ٣
ثُمَّ تَرَبَّعَ أُبْلِيًّا ، وقدْ حَمِيَتْ مِنْها الدَّكادِكُ والأُكْمُ القراديدُ ٤
فظلَّ مُرْتبياً ، والأُخْذُ قَدْ حَمِيَتْ وَظَنَّ أَنَّ سَبيلَ الأُخْذِ مَثْمودُ ٥

١ – تَهْديها : تَتَقَدَّمها . السَواهِم : الضُّمر . العيس : الّتي يترجّح لونها بين البياض والشّقرة . العنيق : ضرب من السير تعدو به الإبل . أقرابُها : خواصرها .

م : يقول إن ناقته تتقدّم سائر النّياق المتعبة ، وقد انعكس ظلّها من دونها ، لشدّة الحرّ .

٢ – م : يقول إن حرّ الهاجرة لا يزال يَلْفحها ، كما أنّها حفيت من شدة العَدْو وحرارة الرّمل حتى تنقبّت أخْفافها .

٣ – القارِب : فحل الحُمُر الوحشيّة . حلائل : جمع حليلة : هنا أتان الحمار الوحشي . أقرى : اتّبع . ذات السّلاسل : موضع .

م : يشبه ناقته ، كدأبه في معظم مدائحه ، بالحمار الوحشيّ الذي يسوق أُتنه إلى الماء ، بعد أن كان يقيم معها في موضع ذات السّلاسل ، وبعد أن جفّ المرعى .

٤ – أُبْلي : جبل معروف عند أجإ وسلمى . الدّكادِك : جمع دَكْدَك : المكان السّهْل . القراديد : الأمكنة الغليظة .

م : أي أنّه انتقل إلى جبل أُبلي ، بعد أن اشتدّ القيْظ في المواضع الّتي كان يرتعي فيها .

٥ – مُرْتبياً : مرتفعاً على رابية. الأخذ : جمع أخاذ ، وهي أماكن تُمْسك الماء ، فيحْمى فيها من حرارة الشّمس . مثْمود : فيه بقيّةُ ماء .

م : أي أنّه أقام على مُشْرف يستطلع بعض الأماكن الّتي يستنقع فيها الماء ، وقد ظنّ أنّها ما زال يرسب فيها شيء منه ، لم تُبْخره الهاجرة .

١ ثُمَّ اسْتَمَرَّ يُجاريهنَّ لا ضَرَعٌ مُهْرٌ ، ولا ثَلِبٌ أَفْناهُ تَعْويدُ

٢ طاوي المعا ، لاحَهُ التَّعْداءُ ، صَيْفَتَهُ كأنَّما هوَ ، في آثارِها ، سِيدُ

٣ ضَخْمُ الملاطَيْنِ ، موَّارُ الضُّحى ، هزِجٌ كأَنَّ زُبْرَتَهُ ، في الآل ، عُنْقودُ

٤ يَنْضَحْنَهُ بِصِلاب ما تُؤَيِّسُهُ ، قَدْ كان في نَحْرِهِ مِنْهُنَّ تَقصيدُ

٥ وَهُنَّ يَنبونَ عنْ جَأْبِ الأَديمِ ، كما تَنْبُو عَنِ البَقَرِيّاتِ الجلاميدُ

١ – الضَّرَع : الحديث السنّ . المُهْر : الصّغير . الثلِب : الكبير العوْد . والعوْد : الهرم .

م : يقول إنه ظلّ يعدو مع أُتُنه ، وهو مقتدر ، لا حدَث أو مُهْر أو مسنّ ، حتى يعجز عن طرادها .

٢ – التعْداء : الجرْي والعدو . السيِّد : الذّئْب .

م : أي أنّه لكثْرة ما عدا في الصَّيف ، فقد ضَمُر حتى بدا كالذّئب ، وهو يقْتفي على آثارها .

٣ – المِلاط : الكتِف . الموّار : السّريع . هزِج : كثير النّهيق والصّياح . زُبْرَتُه : الشّعر الذي على كتفيه .

م : يقول إنه ضخم الكتَفَيْن ، سريع العدْو ، عند الضُّحى ، لا يزال يصيح وينهق ، وإنّ شعر كتِفيْه يتراءى فيما يخوض في الآل ، كالعُنْقود .

٤ – ينْضَحْنه : أي يرمحنه وينطحنه . الصِّلاب : الحوافر . تُؤيسُه : تؤثّر فيه . تقْصيد : إصابة .

م : يقول إن أُتنه كانت ترمحه دون أن تُصيبه بألم وإن خلّفت بعض الآثار في نحره .

٥ – الجأب : الغليظ . البقريّات : ترس من جلد البقر .

م : يقول إن حوافرّها كانت تنبو عن جلده وترتدُّ عنه ، كما ترتدُّ الحجارة التي تُرْمى على ترس من جلد البقر .

إذا انْصَمى حَنِقاً حاذَرْنَ شِدَّتَــهُ   فَهُنَّ مِنْ خَوْفِهِ شَتى عَبَــادِيــدُ ١

يَنْصَبُّ في بَطْنِ أَبْلِيٍّ ، وِيَبْحَثُــهُ   في كلِّ مُنْبَطِــحٍ مِنْهُ أَخاديدُ ٢

إذا أَراد سوى أَطْهارِها ، امْتَنَعَــتْ   مِنْهُ سَرَاعيفُ أَمثالُ القَنَا قُودُ ٣

يَصِيفُ عَنْهُنَّ ، أَحياناً ، بِمَنْخَـرِهِ   فَباللُّبــانِ وبِاللِّيتَيْنِ تَكْــدِيدُ ٤

يَنْضحْنَ بالبَوْلِ أَوْلاداً مُغَرَّقَـــةً ،   لَمْ تَفْتَحِ القُفْلَ عَنْهُنَّ المقــاليدُ ٥

بناتُ شَهْرَينِ ، لَمْ يَنْبُتْ لها وَبَرٌ   مِثلُ اليرابيعِ حُمْرٌ هُنَّ أَوْ سودُ ٦

---

١ ـ انْصمى : أي إذا انصَبَّ عليهن . حَنِقاً : مغتاظاً . العباديد : المُتفرّقة .

م : أي أنّه إذ يرتدُّ عليها ، فإنّها تحاذر منه وتتفرّق في كلّ جهة ، هرباً منه .

٢ ـ يبْحثُه : أي يبحث في الوادي . الأخاديد : جمع أخْدُود : حفْرة مُسْتطيلة .

م : يقول إنّه ينصبُّ مع أُتنه في ذلك الوادي ويعدو فيه ، ويكاد لا يدع فيه موضعاً لا يرتادُه .

٣ ـ سراعيف : طِوال . القُودُ : جمع القوْداء ؛ أي الطّويلة الظّهر .

م : يقول إنّه إذا أراد أن ينزو على إحدى أُتْنه الحوامل ، فإنّها تمتنع عليه . ويُرْدف بأنّها طويلة المُتون والأعْناق .

٤ ـ يَصِيفُ : يعْدل . اللّبان : الصّدر . الليتان : صَفْحتا العُنُق . تكْديد : أثر الحوافر في الصّدر .

م : يقول إنّه يميل عنها ، أحياناً ، بعد أن يُصيبه منها تكديد في صدره .

٥ ـ القُفل : الرّحم . المقاليد : المفاتيح .

م : يقول إنّها تضع أولادها مع البوْل ، وإنّها تُجْهض بها ، قبل أن تفتح أرحامها عند الوضع الطبيعيّ .

٦ ـ م : يصف أولادها التي أجْهضَت بها ، ويقول إن عُمرها لم يعْدُ الشّهرين ، فهي دون وَبر ؛ تبدو كاليَرابيع السّوداء أو الحمراء .

مِثْلُ الدَّعاميصِ في الأَرْحامِ غائِرَةٌ سُدَّ الخَصاصُ عَلَيْهَا ، فهْوَ مسدودُ ١

تموتُ طَوْراً ، وتَحْيا في أَسِرتها ، كما تَقَلَّبُ في الرُّبْطِ المَراويدُ ٢

كأَنَّ تَعْشيرَهُ فيها ، وقدْ وَرَدَتْ عَيْنَيْ فَصِيل قُبيلَ الصُّبْحِ تَغْريدُ ٣

الصيَّادون وأسهمهم

ظَلَّ الرُّماةُ قُعوداً في مراصِدِهِمْ للصَّيْدِ، كلُّ صَباح عِنْدَهُمْ عيدُ ٤

مِثْلُ الذِّيابِ ، إذا ما أَوْجسوا قَنَصًا كَانَتْ لَهُمْ سَكْتَةٌ مُصْغ ومَبْلُودُ ٥

١ ــ الدّعاميص : جمع دعْموص : ديدان حُمْر . الخصاص : النّافذة .

م : يستكمل وَصْفَها ويشبّهها ببعض الدّيدان ، ويقول إنّها غائرة في أرحامها التي لم تُفْتح عنها في حينها .

٢ ــ أسِرَّتها : أرْحامها . الرُّبْط : يعني المرابط جمع المربط : ما تُشدُّ به القربة أو إليها . المراويد : الخَيْل التي تروح وتجيء .

م : يقول إن أولادها تموت وتحيا في أرحامها وتتقلّب فيها كالخيل التي تروح وتجيء في مرابطها .

٣ ــ تَعْشيره : نَهيقُه . عَيْني فَصيل : اسم موضع .

م : يصف صياحه ونهيقه عند الفَجْر ، ويقول إنّه أشبْه بالتغْريد .

٤ ــ م : يشير في هذا البَيْت إلى الصيّادين الذين كانوا يترصّدون الحمار وأُتُنه ، وهم فرحون في صيدهم ، كأنّهم في حفل أو عيد .

٥ ــ أوْجَسوا : أحسّوا . القَنَص : الصَّيْد : مَبْلود : بَليد .

م : يشبههم بالذّئاب ، ويقول إنّهم إذا توقعوا طريدة وتوجّسوها سكَتوا ، بعضهم يتَنَصّت لعدوها وحركتها والبعض الآخر متَبَلِّد ، غير آبه .

بِكُلِّ زَوْراءَ مِرْنان ، أُعِــــدَّ لهـــا   مُدَاخِلٌ صَحِلٌ بالكفِّ مَقْدُودُ ١
على الشَّرائـعِ ما تَنْمِي رَمِيَّتُهُـــمْ   لَهُمْ شِواءٌ ، إذا شاءُوا ، وتَقْديدُ ٢

تحليل : أولا : وصف النّاقة : ينتزع فيه منتزعاً مثاليّاً إذ يضفي عليها الخصائص العامّة التي تجعلها ناقةً متفوّقة فهي « ذات معجمة » ، شديدة الصّلابة ، أي أنه نعتها بالنّعت المباشر الذّهنيّ ، وهو لا يقف عند ذلك ، بل تراه يتوسّل به كمقدّمة للتشبيه حيث يقرنها بالصّخرة الصّلبة . والتشبيه مُغْرق في الماديّة ، إلا أنه كان يبدو بليغاً ، عصرئذ ، إذ لم يكن العربيُّ يتمثّل الصلابة فيما دون الصّخرة ، بل يخيّل إليه أنها مثالها . والواقع أنّ الصّخرة صلبة وليس فيما يطالع العين أفضل منها للتّدليل على الصّلابة ، إلا أن الأخطل يتلقّف في مثل ذلك أيسر ما يتداول في هذا الشّأن ولم يفترع له كناياته بخلْق يخلقه ، كما كان شأنه فيما دون ذلك . وكما سما من التقرير الوصفي الى التشبيه . يسمو عن هذا الأخير الى الكناية القريبة المتناول من خلال سنامها ، وهو مخزن الشحم الذي يعصره التّعب ، فيذوب دون أن تحفل بذلك ، كأنّها تستمدُّ نشاطها من قُوّة غريبة في ذاتها ؛ فهي لا تخذُلُ صاحبها ولا تنبو مهما طالَتْ عليها مشقّة السّفر . والغلوُّ بيّنٌ في ذلك كلّه ، وفيما دونه ، أيضاً ، فكأنّه يوقّع أوصافها بإيقاع الفخر . ويعود ، ثانيةً ، إلى الكناية بقوله :

تَهْدي سواهِمَ يَطْوِيهـــا العَنِيقُ بِنَا   فالعِيسُ مُنْعَلَةٌ أَقْرابُهَا ، سُـــودُ

---

١ ــ الزَّوراء : القَوْس ، مِرْنان : لها رنّة عندما ينزع عنها السّهم . المُداخل : الوَتَر الشّديد الفَتْل . الصَّحِل : سهم له صوت كالبحّة .

م : يصف القوس ، ويقول إنّها مِرْنان ، تنزع عنها أسهم مصوّتة ، قُدَّت وصُقلت باليد .

٢ ــ الشّرائع : جمع الشّريعة : المورد . رمى فنبى : أي أخطأ .

م : يقول أنهم يصطادونها فيشتوون اللّحم أو يقطعونه كي يجفّ .

والشّاعر يُمثّل شدّةَ القيْظ الّذي تُصْلى به من خلال الظّل ، يترسّمه بصورة مُكثّفة إذ جعلها تَنْتعِلُ ظلّها ، أي أنه يكاد أن يتلاشى لانتصاب الشمس انتصاباً عمودياً ، بالغة أشدّ القيظ والتّهجير . فانتعال الابل لأخفافها تعبير أدنى إلى الواقعيّة ، مُسْتمدٌ من المُشاهدة البصريّة ، إلا أنه يَسمو على التّشبيه لشدّة إيجازه ودلالته ، بل إنّه يؤلّف فيه بين الكناية والتّشبيه إذ أن هذه الصورة تَنْطوي على مقارنة بين الظلّ والنّعل . وهنا لا يتلقّف الأخْطل أيسر ما يتداول ؛ بل يَتمرّس بالفنّ الصّعب الّذي يُدرك أدلّ المظاهر على الأفكار والمعاني . إلا أن أمر الغُلوّ لا ينتهي به عند هذه الصّورة ، بل تراه محاولاً أن يتخطّاه إذ يَجْعلُ تلك النّاقة تَهْدي سواها ، أي تتقدّمها ، بالرغم من تلك القائظة الشديدة . والأخطل يَخْلع من نفسه على موضوعه ، هنا ؛ إذ يقيم منافسة بين النّياق . كما تقوم المنافسة بين الشّعراء وبين القبائل ، وهو يزْهو بنوع من الشّعور السّاذج بالتّفوّق .

وللكناية مستويات متباينة في ذلك . فانتعال الإبل لأخْفافها أسمى من قوله : « فكلّها نقب الأخفاف » . ومع أن القول الثّاني ينمّ عن شدّة الأرهاق ، فان القول الأول أكثر تكثيفاً وتعقيداً إذ لم يقتصر على الكناية لوحدها ، بل أضمر فيها التّشبيه . ففيه عنصران للايحاء والغلوّ وفيما دونه عنصر واحد ، منقول عن أديم الواقع .

ثانياً : الفحل وأتنه : يَسْتهلُّ مقارنتها به بالقَوْل إنّه أرعى حلائله في موضع ذات السّلاسل ، حتى أقبل الحرّ وأيبس العشب والورق ، أي أنه نهد به ، منذ المطلع ، إلى مأساة الظّمأ . لقد توفّر له الطّعام ، فيما خذله الماءُ الّذي يُحْدِثُ أزمةٌ دائمة ؛ ولعلّ افتقاده هو الّذي جعل الصّحراء صحراء . فمأساتُه هي في بيئته ولا سبيل له من دونها إلا السّعي المضني ، مُنْتقلاً من مكان إلى آخر :

ثُمَّ تَرَبَّعَ أبليًا ، وقد حَمِيَتْ مِنْهَا الدَّكَادِكُ والأُكْمُ القَرادِيدُ

فهذا الحمار مسيّرٌ بمسير الظّمأ أوالهاجرة ، فكأنّ الأقدار تضطهده وتطرده وتزجي به في يدٍ خفيّةٍ إلى انْتجاع الأماكن الّتي يَتوهّم ان الماء يَسْتَنْقع فيها . وكربَّ

العائلة المأخوذ بهموم عائلته وتدبير رزقها، يَصْعد إلى إحدى الرَّوابي ، ليَستشرف ما دونه :

فَظَلَّ مُرْتبياً ، والأُخْذُ قد حَمِيَتْ   وَظَنَّ أَنَّ سبيلَ الأُخذِ مَثْمُودُ

فهو يتفكَّر ويُعاني ويظنُّ ، فكأنَّه إنسانٌ سويٌّ يُعَاني هَمَّ العَيْش ويَحْتال له ؛ ولنَتَمثَّل تلك البهيمة القانطة تقف على رابية ، تستطلع الغيب والمجهول ، وتتحسَّب وتفترض لتجد سبيلاً إلى الهرب والنّفاذ من المحنة الّتي تقاسيها وتشارف منها الموت والهلاك . وهذه الصورة تعيد إلى ذهننا واقع العربيّ الّذي يجفُّ الماءُ عليه ، فيستشرفه من على التّلال ويتفكَّر بما عَرَفَ وأَلِفَ من ينابيعه ومستَنْقعاته .

إلا أن الظّمأ لا يُعيقهُ عن العدو ومجاراة أُتنه ، وقَدْ أَسْرَفَ في ذلك حتَّى هَزُل وضمر وبدا كالذِّئب . فما جدوى هذا القَوْل بالنّسبة إلى وصف الحمار الوحشيّ ؟ ولعلَّه انصرف إلى نقل الواقع ووقع تحت وطأته ، يتقيَّد بما يجري فيه ، مستطرداً عمّا استهلَّ به من مأساته في القيظ والهاجرة . ولعلَّه أَراد بذلك أن يُوحي بعظم نشاطه وقُوَّته ، رغم ضموره وعطشه . إلا أن النّزعة الوصفيّة تتغلب وتطغو في قوله :

ضخم الملاطَيْنِ ، مَوَّار الضُّحي ، هَزِجٌ   كأَنَّ زُبْرتَه ، في الآل ، عُنقودُ

فالتَّشبيه يقوم على الدّقّة وبخاصة في لفظة « عنقود » ، ولعلَّه أوعز بذلك إلى سرعته إذ أنه يغيب بسرعة عن النّظر ويكاد يخرج من متناوله . واللهُ أَعلم .

وتطغى النزعة الواقعيَّة فيما يلي من أبيات إذ يَسرد ما يجري له معهنَّ من عضٍّ وكدم ورفس . إلا أن للفحل هيبته ، إذ غضب حاذرنه ونأين عنه . ولا نشهد فيما نعت به الصّيادين تلك الدقّة المأثورة ، كما أنّه ألمح إلى دأبهن على القتل والنّحر من خلال أسهمهم ولم يتفرَّغ للجزئيات والاعراض .

وعلى الجملة ، فإن وصفه للفحل هو وصف لأتنه معه وللهوه ومرحه وصراعه في سبيل تنازع البقاء عبر الطبيعة الّتي تَنعم عليه وتحرمه ويطالعه من بين أشجارها التّربّص والموت .

ألباب الرابع

الناقة والثور الوحشي

خصَّ الأخطل الثّور الوحشيّ بمقطوعات متعدِّدة تفوق أيَّ موضوع آخر من موضوعاته الوصفيّة وبث فيه من التجارب والمعاناة ما لم يبثه في سواه ، وحتّى في وصفه للخمرة . ويقترن وصفه بموضوعَيْن آخرين هما النّاقة الّتي تتقدّمه والصّيد الّذي يَلْحق به . فهو يستهلُّ كدأبه بذكر النّاقة ، يصفها بعض الوصف ويعرِّج ، من ثمة ،على الثّور الوحشي ، فيشير إلى قيامه بكنف شجرة الأرطاة ، اتّقاءً للمطر المتدَفّق والرِّيح العاصفة ، يجنُّه الظّلام وتعتريه الحيرة ، كما أن السّيل ينهمر عليه في مفزعه بالترب والوحول . وإذ يخطف عليه البرق يبدو ، من دُونه ، كمن ارتدى حلّةً اصفهانيّة أو كمن يقوم على النّار ليصطلي بها . وإذ يَطْلع عليه الصَّباح ، يفاجئُه الصَّياد بكلابه التي تهرع اليه كالجِنِّ ، فتولّي عنه ، يلتمع جلده كالكوكب الدُرِّي ، المتألِّق ، تقتفي الكلاب على أثره ، مثيرة التُّراب والغُبار وتكاد لا تلحق به وتهمَّ أن تُنفذ فيه أنْيابها ، حتى يكفّ عن العدو ويرتدّ عليها ، يَطْعنها بقرنيه ويعفرها بالتّراب ، فيما هي تحاول أن تنجو ، لائذة بالأرض الغليظة . لقد هزمها وتولّى فرحاً يخوض في النّبت يطرب لطنين الذّبان ويفيض منه طيبُ من خرج من بَيْت العطّار . من ذلك قوله :

وَمَهْمَه طَامِس تُخْشى غوائله قَطَعْتُهُ بكَلُوءِ العَيْنِ ، مسهار ١

---

١ — يقول إنه اجتاز القفر على ناقة ساهرة ، يقظة .

بِحُرَّة كأَتانِ الضَّحْلِ ، أَضْمَرَها بَعْدَ الرَّبالَةِ تَرْحالي وتَسْيَاري ١
أُختِ الفَلاةِ ، إذا شُدَّتْ مَعَاقِدُها لانتْ قُوى النِّسْعِ عَن كَبداءَ مِسفارِ ٢
كأَنَّها بُرْجُ رُوميّ ، يُشَيِّدُهُ لُزَّ بجِصٍّ وآجُرّ وأَحْجارِ ٣

وصف الثور الوحشي

أَوْ مُقْفِرٌ ، خاضِبُ الأَظلافِ ، جادله غَيْثٌ ، تَظاهَرَ في مَيثاءَ مِبكارِ ٤
فَبَاتَ في جَنْبِ أَرْطاة تُكَفِّئُهُ رِيحٌ شآمِيَّةٌ ، هَبَّتْ بأَمْطارِ ٥

١ ــ حرّة : ناقة كريمة . الأتان : الصَّخرة الكبيرة . الضَّحْل : الماء القليل . الرَّبالة : السّمن والخصب .

م : يصف تلك النّاقة ويعظّم من أمرها ، ويقول إنّها كريمة ، عظيمة كصخرة الماء ، قد هزلَتْ وضمُرَتْ من شدّة ترحاله وتسياره عليها ، بعد أن كانت سمينة .

٢ ــ كَبْداء : ضخْمة الصدْر . مِسفار : قويّة على السّفر .

م : يقول إنها ألِفَتِ السّيْر في الفلاة ودأبت عليه ، وإن حبال الرّحل التي تعقد عليها ، تزل عنها لضمورها من شدّة السّير .

٣ ــ يُشَبِّهها ببرج الروميّ في ارتفاع هامتها ويصف ذلك البُرج ويقول إنّه ابتناه بمختلف أنواع الحجارة الصّلبة .

٤ ــ مَيْثاء : أرْض سهلة . مبكار : أرض باكرها المطر .

م : يشرع في هذا البيت بتشبيه ناقته بالثّور الذي دأب على ملازمة القفر ، والذي تَخَضَّبت أظلافه من كثرة وطئه للنّبات الرّخص في أرض سهلة ، باكرها سقوط المطر .

٥ ــ أرطاة : شجرة كبيرة . تُكَفِّئُهُ : تقلّبه .

م : يقول إنّه لاذ إلى كنف شجرة الأرطاة ، فيما جعلت الرّيح الشّامية التي يصحبها المطر تضربه من كلّ جهة .

١ يَجُولُ لَيْلَتَهُ ، والعَيْنُ تَضْرِبُــهُ مِنْهَا بغَيْث أَجشَّ الرَّعْدِ ، نَيّـــارِ

٢ إذا أَرادَ بها التَّغْميضَ ، أَرَّقَـــهُ سَيْلٌ ، يَدِبُّ بهدْمِ التربِ ، مَوَّارِ

٣ كأَنَّهُ ، إذْ أَضاءَ البَرْقُ بَهْجَتَهُ في أَصْفهانيّة في أَوْ مُصْطلي نـــارِ

٤ أَمّا السَّراةُ ، فَمِنْ ديباجَة لَهَق ، وبالقَوَائِمِ مِثلُ الوَشْمِ بالقـــارِ

٥ حتى إذا انجابَ عنهُ اللَّيْلُ ، وانكشفَتْ سَماؤهُ عَنْ أَديم مُصْحِر ، عـــارِ

٦ آنَسْنَ صَوْتَ قَنِيص ، إذْ أَحَسَّ بهم كالجِنِّ ، يَهْفُونَ مِنْ جَرْم وأَنمارِ

١ ــ العَيْن : السحاب . الأجَش : الرّعد الغليظ الصَّوت . نيّار : شديد الأنْصباب .

م : يقول إنّه أنفق ليله يُجيل حدقَتَيْه في الظّلام ، فيما ينهمر عليه السّحاب بالمطر الشّديد الذي يصحبه رعد أجشّ القصف .

٢ ــ يقول إن ذلك الثور كان يسعى إلى النوم ، محاولاً أن يُغمِّض عينيه. إلاّ أن السيّل المندفع كان يهيل عليه التراب الذي يلج إلى عينيه ، فيمنعهما من الاغتماض ويحول بينه وبين النوم .

٣ ــ أصْفَهانيّة : ثَوْب اصفهانيّ مصبوغ بالزعفران الأصفر .

م : يصف الثّور فيما يتَخطّف البرق حوله وينيره ، ويقول إنّه يبدو كمن يرْتدي حلّة اصفهانية صفراء أو من يصطلي ناراً ينعكس وهجها عليه .

٤ ــ السراة : أعلى الظّهْر . لهَق : أبيض .

م : يقول إن أعلى متنه من ديباج أبيض ، أما قوائمه ، ففيها نُقَط سود ، شبيهة بوشم من القار ، أي الزّفت .

٥ ــ م : يقول إنّه بعد أن قضى ليلته تلك مؤرّقاً من الرّيح والمطر والسّيل ، طالعه الصّباح بسماء نقيّة الأديم صافية .

٦ ــ آنَسْنَ : أي الكلاب . أحسّ : أي الثور . بهم : أي الصيّادين .

م : يقول إن الثّور أحسّ بقدوم الصيادين ، فذُعِر ، فأنست به الكلاب وتنَصّتَتْ له ، ثم يصف الصيادين ، ويقول إنّهم يهرعون كالجنّ يترصّدونه وإنّهم من قبيلَتَي جرم وأنمار الشّهيرتَيْن باحتراف القَنْص .

فانصاعَ كالكَوْكَبِ الدُّرّيّ مَيْعَتُهُ غَضْبَانَ يَخْلِطُ مِنْ مَعْجٍ وإحضارِ ١
فأَرْسَلُوهُنَّ يُذْرِينَ التُّرابَ ، كمـا يُذْري سبائخَ قُطْن نَدْفُ أَوْتـارِ ٢
حتي إذا قُلْتُ نالَتْـهُ سَوَابِقُهـا وَأَرْهَقَتْهُ بِأَنْيـابٍ وأَظْفَـارِ ٣
أَنْحى إلَيْهِنَّ عَيْناً غَيْرَ غافِلَـة وَطَعْنَ مُحْتَقِرِ الأَقرانِ ، كـرَّارِ ٤
فَعَفَّرَ الضَّارِياتِ اللاَّحقاتِ بِـهِ عَفْرَ الغَريبِ قِداحاً بَيْنَ أَيْسارِ ٥

١ ــ مَيْعَتُه : أوّل عهده . المَعْج : الإسراع في العَدْو . الإحْضار : الارتفاع في العَدْو .

م : يقول إنّه ، أثر رؤيته للكلاب ، انْطلق يعدو ، يُسْرِع ، حيناً ، ويرتفع في عَدْوه حيناً آخر ، فبدا كالنجم الدُّرّي المُنْقَضّ في الفضاء .

٢ ــ سَبائِخ : جمع سبيخة : قطعة .

م : يقول إنّ الصيادين أرسلوا الكلاب ، تعدو إثر الثّور ، وهي تُثير التراب وتذروه في عدوها كما يُذْري قطع القطن من يَنْدفه بالمِنْدفة ذات الأوتار .

٣ ــ ٤ ــ أرْهقَتْهُ : لحقت به وأعْمَلَتْ فيه أنيابها وأظفارها .

م : يقول : لم تَكد تلك الكلاب تلحق به وتُعْمل به أنيابها وأظفارها حتى مال إليها ، مُحاذراً ، وجعل يَطْعنها طعن من يحقّر من شأن خصمه ولا يَحْفل به ، إذ أنّه ألِفَ الصّراع ودأب عليْه .

٥ ــ الضّاريات : أي الشّديدات الضّراوة في الصّيد . عَفْرَ الغَريبِ قداحاً : لأن الغَريب لا قداح له ولا مطمع له في الميسر ، ولأنّه لا يحابي .

م : يقول إنّه ارتدّ على سوابق الكلاب التي اشتدت ضراوتها عليه وهزمها وعفرها بالتراب تعفير قداح المَيْسر .

يَعُذْنَ مِنْهُ بِحِزَّانِ المِتانِ ، وقَـدْ   فُرِّقْنَ عَنْهُ بِذي وقْع وآثــارِ ١

حتى شَتَا ، وَهُوَ مَغْبُوطٌ بِغَائِطِـهِ   يَرْعَي ذُكوراً ، أَطاعَتْ بَعْدَ أَحرارِ ٢

فَرْدٌ تُغَنِّيْهِ ذِبّانُ الرّياضِ ، كمـا   غنى الغُواةُ بِصَنْج ، عِنْدَ إسوارِ ٣

كأَنَّهُ ، مِن ندى القُرَّاصِ ، مُغْتَسِلٌ   بالوَرْسِ ، أَو خارِجٌ مِن بَيْتِ عَطَّارِ ٤

١ ــ يَعُذْنَ : يستَجِرْنَ .

م : يقول إن تلك الكلاب لاذتْ خوفاً منه بالأرض الغليظة ، وقد تفرّقت بعد أن أعمل فيها قرنه وأثخن جراحها مخلفاً آثار طعنه لها .

٢ ــ الغائط : هنا المكان الذي يأوي إليه . الذُّكور : ما غلظ من البَقْل . الأحرار : ما حلا من البَقْل في أول نموّه .

٣ ــ إسْوار : قائد فارسيّ .

م : يصف الذِّبّان التي تترنّم في تلك الرّياض ويشبّه طنينَها بطنين الصَّنج الذي يقرعه الماجنون عند قائد من قوّاد الفُرْس .

٤ ــ القُرَّاص : ضرب من البَقْل . الوَرْس : نبت أصفر .

م : يقول إنّه خاض في النبت الذي وقع عليه النّدى ، فغشيَه الورس الأصفر ، كأنّما أغتسل به أو كأنّه خارجٌ من معطرة لشدّة الطيب الذي يتَضَوَّع منه .

بيّن ، منذ المطلع ، أنّ الشّاعر يَسْتهلُ مُفَاخراً باجتياز الفَلَوات الخطرة ، وهو معنى والج في سنّة الفخر منذ الجاهليّة ، مستمدٌ من طبيعة بيئتها . وقد ورد ذكر النّاقة في هذا السّياق ، أي في باب الفخر ، ممّا نَفَح وصفها بالغلوّ والمثاليّة . وهو يَسْتعيدُ تشبيهها بالصّخرة للتّدليل على شدّتها وصلابتها . ولعلّ هذا التّشبيه كان كنفح المسك بالنّسبة لطيب الخمرة وعين الدّيك بالنّسبة إلى صفائها ، أي التّشبيه الأدنى متناولاً ، تكاد لا تذكر النّاقة حتّى يُقرنَ بها . فكما ان الجاهلي لم يكن يذكر طيب الخمرة حتّى يقرنه بالمسك ، كذلك ، لم يكن يذكر صلابة النّاقة حتّى يقرنها بالصخر .

وذاك يُطْلعنا على ان التجربة الشّعريّة تتأثّر بالمستوى الحضاري للنّفس ومدى قدرتها على التّجريد والتّعقيد والتّوليد . أي قدرتها على تداول المعاني وتكثيفها واكتشاف رموزها الحسيّة النّائية . لا شكّ أن تشبيه النّاقة بالصّخرة لصلابتها ينْطوي على قليل أو كثير من الخبرة الحسيّة أفاد منها في أداء المعنى ، لكنها خبرة بديهيّة ، عامّة ، بل مبتذلة ، إذ لا يقصر أيٌّ من النّاس على التّمثيل بالصخرة تدليلاً على الصّلابة .

ولا تعدو الكناية هذا المستوى المتدنّي من الخبرة الحسيّة إذ يقول : « أضمرها ، بعد الرّبالة تَرْحالي وتسياري » . فالكناية في نقطة انطلاقها الأولى تصدر عن المعرفة الحسيّة ، أيضا ، في معنى السّمن والضّمور . الأول يعنى الرّاحة والثاني التّعب والمشقّة . والأخطل ساق ذلك في سياقه النّثري ، موضحاً المعادلة غاية الإيضاح ، مفسّراً ما التبس منها في ربطه بين النّتيجة والسّبب ، أي بين الضّمور ومشقّة الأسفار .

إلا أن الخيال يَسْمو بالشّاعر بعض السّمو ، فلا يَعُود يُفْصِحُ بما يُوضح ، بل يتولّى الأشياء في وقعها النّفسي ومدى إيحائها إذ يقول :

كَأَنَّهُ بُرْجُ رُومِيٍّ ، يُشَيِّده   لُزَّ بِجِصٍ وآجرٍ وأَحْجَار

فالمُماثلة بين النّاقة وبرج الرُّوميّ لا تقوم على الدّقة التّقريريّة في الشّبه الحسّي ،

بل على مماثلة في السُّورة النَّفسيَّة ، إذا جاز التَّعبير، فيه افصاح عن الشّموخ والارتفاع وصورة القنطرة ومعنى الصّلابة واحكام البنيان وما إلى ذلك مِمَّا يَقَعُ وَقْعُهُ في النَّفس . إلا أن هذه الصورة سَلَفَتْ بِمَعْنَاهَا وَمَبْنَاها عند طرفة بن العبد ، إذ قَرَنَهَا بقنطرة الرُّوميِّ وأرْدَف بأَنها أُشيدت بالقِرْمد ، فيما ذكر الأخطل أَنها شُيدَّتْ بالآجر والأحجار .

أما صورة الثور الوحشيِّ ، فتبدو أَرقّ من الصّورة التي ترسَّمها للحمار . فهو يُنَوِّه بتخضُّب أظلافه من شدَّة عدوه في النَّبات . ومنذ هذه الصُّورة نستشفُّ الرقّة التي يُنميها الشعراء العرب لهذه البهيمة فكانها اداة جمال بقدر ما هي اداة قوة. ففي التّخضب دلالة على على اللّهو والمرح والكر والفرِّ، مما طالعنا، قبلاً ، في الحمار الوحشي . إلا أنّه كان نوعاً من المرح البطّاش ، السّاخط بالكدم والرَّمح والنَّهش والتّدّامي . مرح الحمار يُخَلِّفُ الحدوش على أديم وجهه وخاصرتَيْه والدَّم على سائر أنحاء جسده ، أمَّا مَرَحُ الثّور ، فيدع لون الاعشاب يَعْلَقُ على أخفافه ، فيَتَخضَّب به ؛ ومع إيحائية هذه الصورة ، فإنّها ما زالَتْ تقليديَّة ، إذ لم يكد الجاهليُّون يذكرون الثّور حتى يشيروا إلى تَخَضُّبه. وجَرَتْ سنَّةُ وصفه، كذلك، على أَحْداث مُعَيَّنة ، تكنّي عن أحوال يعانيها أو أوضاع يُقَيِّدُ فيها بحياته . ولعلَّ الأهمَّ في ذلك كُلِّه أَحْداثٌ ثلاثة هي: سقوط المطر عليه والتجاؤه إلى شجرة الأرْطاة ، وتوجُّسه الدَّائم من تَرَبُّص الصَّيادين واضطراره للقتال دفاعاً عن النفس . فعند هطول المطر أي عند المحنة الأولى تراه وقد أقام في كنف الشجرة ، يَحْتمي من السَّيل المنهمر :

فباتَ في كَنْفِ أَرْطاة تُكَفِّئُهُ ريحٌ شَآميَّةٌ ، هَبَّتْ بأَمْطارِ

فأُولى عاديات الطبيعة عليه هو المطر ، مع ما يَصْحبه ويَعقبه من صقيع وما يتَعصَّفُ فيه من ريح شآميّة باردة . فهذه الطبيعة التي كان يمرح ويلهو على صدرها وبين أَحضانها ، بجدُها ، وقد جُنَّ جُنُونُها ، فجأةً ، كأنّها تنقضُّ عليه ، يَخطف برقها ويَقْصف رعدها وتثور رياحها ويشتدُّ صقيعها ، أي كأنّها كانت تَضْطهده ، بعد أن كانت تؤويه وتَعْضِدُه . ولنتمثل تلك البهيمة التي كانت

تمرح منذ حين وكأنها رمز للحيوية والدّفق والجمال، إذا بها تَنْزوي وَتُقْعي ويَعْتريها الخفقان والوجيف ، مخذولةً تَسْتُرُ ذاتها وتحتمي ، دون أن تَفْلِحُ في ذلك قط . لقد غدت رمزاً لضعف الانسان وهزاله بين يدي الطّبيعة ؛ ولعلّ لفظة « تُكفئه » تؤدي معنى الاستمرار فيما اضطهدته به الطَّبيعة ، يَميلُ من جهة إلى أخرى، وهي تقتفي حرَكاته لتمعن في أذيتّها. وقد كانَ دأبُ ذلك الثَّور أَن ينامَ ، لَيْلاً ، إلا أنَّ النَّوم استحال عليه ليَلْتئذ :

إذا أرادَ بها التَّغميضَ أَرَّقَـــــهُ سَيْلٌ يَدِبُّ بهدم التَرْب . مَوَّار

ويخيل إلينا في ذلك أن انزعاج الثّور من النَّوم ، كما أدّاه الشّاعر هنا ، هو انزعاج فيزيولوجيّ، إذا جاز التعبير . وليس انزعاجاً نفسيّاً لعلّه ألف حياة القفر كالبدويّ . الثور هو هنا العربي في القفر ، وشجرة الأرطاة هي الخيمة ، تؤويه ولا تستره ، تتخطّف فيها البروق وتزمجر الرُّعود . وربّما ألف العربيّ ذلك كلّه ، إلا أن السيَّل يَقْتحم عليه ويزعجه عن مقامه. وهي كذلك لا تزال تنمّ عن الضّيْم والقَهْر ، وفي أدنى حالاتها ، عن الانزعاج الفيزلوجيّ ، على ا لأقل .

وفي هذا الإطار يرسم للثّور صُورةً طارئة خاصَّة ، عندما يَنْعكس عليه لمعانُ البرق :

كأنَّهُ إذ أضاءَ البرق بهجتـــــــه في اصفهانيَّة أو مصْطَـــــــلي نَــارِ

وليس لهذه الصُّورة دلالة نفسيَّة ، بل إنَّ غايتّها في ذاتها ، في تمثيل وضع من أوضاع الثّور.وقيمة التشبيه هي قيمة تعادليَّة مثاليَّة ، تقرن الواقع بما يُشبهه ويُؤدّيه ويُضفي عليه قليلاً أو كثيراً من الانفعال والغُلوّ . ومثل ذلك الدّيباجة ووشم السَّاقين بالقار .

إلا أن العاصفة تَعْبر به وتجوزُ عليه ، إذ يَنْشقّ اللّيل عن أديم الصَّحْو . وهنا يلج إلى محنة أخرى أمضّ وأخطر من الأولى إذ يطالعه الصّياد بكلابه :

آنسْنَ صَوْتَ أنيس ، إذ أَحَسَّ بهم   كالجنِّ يَهْفُون من جَرْم وأنمار
فانصاعَ كالكوكب الدرِّي ميعَتَه   غضبانَ ، يَخْلط من مَعْج وإحْضَارِ

في اللّيل كان يُحْدقُ به الخطر من الأمطار ، ولم يكد ينام . وفي الصَّباح ، إذ أهلَّ عليه الضَّوءُ وانقشعَتْ عنه سحب الهموم ، أحدقت به الكلاب كالجنّ ؛ وإذا كان المطر مطر قلق وأرق ، فإن الكلاب هي كلاب المَوْتِ ، تمزِّقه مزقاً بالأنياب والأظفار . أَنتمثل في واقع الثّور هنا واقع العربيّ الّذي يُصَبِّحُه العدوّ بالغارة ؟. ربَّما استبطن الشّاعر هذه الدّلالة وربَّما غفل عَنْها ، إلا أنها تطالعنا من خلال الأحداث الدّالة على التّنازع الفاجع للبقاء . ولقد عدا الثّور غاية عَدْوه ، لأنّه يعاني غاية الخطر ، فهو ناقم ، ثائر . إلا أن الكلاب السّريعة تُدركه وتُعمل فيه أَنْيابها فيرتدُّ إليها ، إذ أيقن ان الهرب لن يُؤَدّي به إلى النَّجاة . فالخطر إذ يَتَهدَّد الحيَّ يتحدّاه ، كأنّما يقتضيه المواجهة ، ولا بدَّ له من التّعرُض إليه :

أنحى إليهن عَيْناً ، غير غافلة   وَطَعْنَ مُحْتقر الأَقران ، كَرَّار
فَعَفَّرَ الهاديات ، اللّاحقات به   عفر الغريب قداحاً بَيْنَ أَيْسارِ

فالطبيعة التي سلَّطَت عليه الأخطار جَهَّزته بما يدعه يُجهز عليها ، سلَّطَتْ عليه الأنيابَ وجهَّزته بالقرون وبالسَّاقين للعدو ، يقوم أحدهما إذا لم يقم الآخر . وعلى دأبه في كل حين ، يدع الأخطل ثوره ينتصر على الكلاب ويخلِّفها صرعى على الارض الغليظة ويمضي في سبيله ، لا يُلْوي على شيء . وكأن الثَّور استحال إلى رجل كفاح ، إلى مصارع بطل يقضي على ما يعترض سبيله ، يشعر منه ببعض الجراح والدّماء ، لكنَّه لا يَرْتَدُّ عمّا يبتغيه .

وإثر هذه الصُّورة التي مثل بها بطولته يَعُود إلى النّاحية الأخرى من حياته ، حياة اللّهو ، حاملاً منها مثل طيب العطّار . فهو ، حيناً ، موشّح بالدّماء وحيناً آخر مطيّبٌ

بالطيب، مؤلّفاً في ذاته الجمال والقوّة،فيما كان يمثل الحمار الوحشيّ القُوَّة البطّاشة واللّهو العنيف الدّامي والغيرة المتآكلة في داخله كالنّار .

ومعظم ما نقع عليه في وصفه للثّور يجري على هذا الغرار . يستهلّ بذكر النّاقة في فلذات متَخَطِّفة ليَسْتطردَ منْها إلى الثّوْر الوَحْشي ، مقيما تحت المطر ليلاً ، وهارباً من دون الصيّادين أو مرتدّاً على كلابهم صباحاً، ناجياً بنفسه منها . وعبر ذلك تتباين بعض الأوصاف الّتي يَصِفُ بها النّاقة وبعض التشابيهالّتي يُشبهه بها، وهو مقيم بكنف شجرة الارطاة من المطر . ولا تكاد تتبدّل الأحداث أو تتعدّل فيما دون ذلك كلّه . ومن ذلك قوله ، أيضاً :

على مُذَكَّرَة ، ترْمي الفُرُوجَ بهــا غُولُ النَّجاءِ ، إذا ما استَعْجَلَ العَنَقُ [١]
وَظَلَّ حِرْباؤها للشَّمْسِ مُصْطَخِــداً كأَنْه وارِمُ الأَوْداجِ مُخْتَنِـــقُ [٢]
والرِّجْلُ لاحِقَةٌ مِنْهــا بأَوَّلهــا وفي يدَيها إذا اسْتَعْرَضْتَهَا دَفَقُ [٣]

١ ــ المُذكرة : هي النّاقة الشبيهة بالجَمل . الفُروج : جمع فرج ، وهنا شعب الطّريق . الغول : هنا الشّديد . النّجاء : السرعة . العنَق : ضرب من السّير .

م : يقول إنّه ارتحل على ناقة شبيهة بالجمل ، تَلْتهمُ المسافات التهاماً بعدوِها السّريع .

٢ ــ مُصْطخِد : متعرّض للنّار ، حتى الاحتراق . مُختَنِق : هنا المُحنق ، المُغْتاظ الذي تنتفخ أوداجُه .

م : يمثل القائظة التي اصطلى بها خلال سفره ، ويقول إنّها تكاد أن تحرق الحرباء حرقاً ، فيقيم فيها لاهثاً منتفخ الأوداج ، محنقاً ، مغتاظاً . وذكره لاختناق الحرباء وانتفاخ أوداجه هو وسيلة لتعظيم أمر الهاجرة لأن الحرباء يطلب الشّمس وتطيب له الإقامة فيها .

٣ ــ دَفَق : سريع ، كأنّها تتدفّق تدفّقاً .

م : يقول إنّ أرْجل مطيّته كادت أن تتلاحق وتتماسّ من سرعة العَدْو وتدفّقها فيه ، دون كَلَل .

كأنَّها ، بَعْدَ ضَمّ السّيْرِ جَبْلَتَهَـــا مِنْ وَحشٍ غَزَّةَ ،مَوْشيٌّ الشَّوى ،لَهَقُ [1]

باتَتْ إلى جانب مِنْهَا يُكَفِّئُـــــهُ لَيْلٌ طويلٌ ، وقَلْبٌ خائفٌ أَرِقُ [2]

باتَتْ لهُ لَيْلَةٌ هاجَتْ بَوَارِحُهـــا ومُزْرِمٌ مِنْ سَحَابِ العَيْنِ يأْتَلِـــقُ [3]

فالقَطْرُ كاللُّؤلؤ المَنْثور يَنْفُضُـــهُ إذا اقْشَعَرَّ بِـــهِ سِرْبالُهُ لَثِـــقُ [4]

١ – جَبْلَتها : هنا بدَنُها ولحمها . غزَّة : اسم موضع . الشَّوى : القوائم . المَوْشيّ : المنقّط ببياض . لهق : أبيض .

م : يشرع في هذا البَيْت بتشبيهها بالثور الوحشيّ ، ويقول إنها بعد أن ضَمَرت وذاب لحمُها من شدَّة السّير ، بدت كالثّور الوحشيّ الذي تَغْشى قوائمه النّقط البيض والذي يقيم في موضع غزَّة .

٢ – الهاء في منها عائدة إلى شجرة الأرطاة التي يلتجىء إليها الثّور ، وقد أغْفَل الشاعر ذكرها لكثرة ورودها في مثل هذا المقام ، بحيث غدا القارىء يدركها وإن لم يستدرك الشّاعر ذكرها .

م : يقول إن ذلك الحمار أقام في كَنَف شجرة ، يميل في كلّ جهة ، ولا قِبَل له بالنّوم لخوفه من المطر أو من طارىء يطرأ عليه . ولقد نمى الشّاعر بذلك إلى الثّور صفةً إنسانيّة ، وهو ممّا لم يألفْه ويدأب عليه ، وإن كان الأقدمون قد ألمّوا به من مثل لبيد في معلّقته وعبيد الأبرص .

٣ – البوارح : هي الريح التي تصحب نجوم القيظ . المُرْزم : السّحاب الذي يصحبه الرَّعد . العَيْن : هنا عَيْن السّماء . يأتَلِق : يَبْرق .

م : يوضح في هذا البيت ما أجمله في البَيْت السّابق ، ويقول إن الريح الحارّة تعصفّت به في الليل وانهمر عليه مطر غزير يصحبه رعد متألّق مُلْتمع .

٤ – لَثِق : مبْتل .

م : يقول إن المطر ينهمر عليه ، فيبدو وهو منهمر كالدّر ، فيما ينهمر على جلده الذي يقشعرّ من البرد ومن تبلّله بالمطر .

يَلُوذُ لَيْلَتَـــهُ مِنْهـــا بغَرْقَـدَة والغُصْنُ يَنْطُفُ فَوْقَ المَنِّ والورَقُ ١
حتى إذا كاد ضوءُ الصُّبْحِ يَفْضَحُهُ وكادَ عَنْهُ سوادُ اللَّيْلِ يَنْطَلِـــقُ ٢

كلاب الصيد

هاجَتْ بِهِ ذُبَّلٌ ، مُسْحٌ جَوَاعِرُهــا كأَنَّما هُنَّ مِنْ نبعِيّة شِقَـــــقُ ٣
فَظَلَّ يَهْوي إلى أَمْر يُساقُ لَـــهُ وأَتْبَعَتْهُ كلابُ الحـيِّ تَسْتَبِــقُ ٤
يُفَرِّجُ الموْتَ عَنهُ ، قَدْ تَحَضَّرَهُ وكِدْنَ يَلْحَقْنَهُ ، أَوْ قَد دنا اللَّحَقُ ٥

١ ــ الغَرْقَدَة : شجرة عظيمة من العضاه ، أو كبار العَوْسج . يَنْطُف : يَقْطر .

م : يقول إنّه لاذ من المطر بشجرة كبيرة من أشجار العضاه ، فيما أخذت الأغصان والأوراق تَقْطر وينحدر ماؤها عليه .

٢ ــ ٣ ــ الذُّبل : أي الكلاب ذات الآذان المُتَدلِّية الذّابلة . المُسْح : الرّقيقة المؤخّرة . الجاعِرَة : حرف الورك المُشْرف على الفَخْذ . الشِّقَق : جمع شقّة وهو ما شُقَّ مُسْتطيلاً . نَبْعية : قوس متّخذة من شجر النّبع .

م : يقول إنّه لم يكد الظّلام ينحسر عنه ويطالعه ضوءُ الصَّباح حتّى ثارت كلاب الصَّيد المُسْترخية الآذان ، عادية إليْه وهي ضامرة ، قد مُسحت أعجازها وضعفت أبدانُها ، فبدت كالقسيّ المتّخذة من شجر النّبع .

٤ ــ م : يقول إنّه ذعر عن ملاذه وهوى يعدو ناجياً بنفسه ، فيما لحقت به كلاب الصَّيد ، وهي تتسابق لإدراكه .

٥ ــ م : يقول إنّه أخذ يعدو ناجياً من المَوْت المُحْدق به ، فيما أوشكت الكلاب أن تدركه وتُعْمل فيه أنْيابَها .

لَمَّا لَحِقْنَ بهِ أَنْحى بِمِغْوَلِــــهِ يَمْلا فرائِصَها مِنْ طَعْنِــهِ العَلَقُ ١
فَكَرَّ ذو حَرْبَة ، يَحْمِي حقيقَتَـــهُ إذا نحا لكُلاها الرَّوْقُ يَمْتَــزِقُ ٢
فَهُنَّ مِنْ بَيْنِ مَتْروك بِهِ رَمَــقٌ صَرْعى ، وآخَرَ لمْ يُتْرَكْ بِهِ رَمَقُ ٣

وصف النّاقة : استَهَلّ وصفها بالنُّعوت التّشبيهيّة : « مذكرة » أي ان لها قوّة الذكر وشدّته في العدو . كما أنها ترمي فروجها رمياً لسعة خطاها والتهامها المسافاتِ الشّاسعة التهاماً ، لا تعيقها الهاجرة الشّديدة . وكدأبه تراه يتكنّى على قوّتها وشدّة احتمالها بما يَقْتبسه من أديم الظّواهر الحسيَّة الواقعيَّة في ذروة بلاغتها ودلالتها على المعنى الّذي يُنيطه بها . وقد أتّخذ لذلك الحرباء عندما تَصْليها الهاجرة . فتورّم أوداجها ويضيق عليها نفسها وتوشك أن تتمزّق أو أن تَختَنِقَ . ولو أنّه لم يُوفّق إلى هذا المشهد التّمثيليّ الحيّ في التدليل على شدّة الهاجرة لكان أخفق

١ ـ المِغْوَل : القرن . العلَق : الدّم . الفَرائص : جمع فريصة ، وهي من قوائم الحيوان عند رجل راكبه .

م : يقول إن تلك الكلاب لحقت به ، فمال إليها يطعنُها بقرنه في فرائصها ، مخلّفاً فيها فيضاً من الدّماء .

٢ ـ ذو حَرْبة : أي قرنه . الحقيقَة : ما ينبغي للمرء أن يحميه . الكُلْيَة : رقعة تخزر تحت عروة المزادة ، لتَمكّن . وقد عنى بها هنا صدور الكلاب . الرَّوْق : القَرْن .

م : يكرر معنى البيت السّابق ويستكمله ويقول إنّه كرّ عليها بقرنه مدافعاً عن نفسه ، ممزّقاً به صدورها .

٣ ـ الرَّمَق : الأنْفاس الأخيرة .

م : يصف الكلاب إثر قتال الثّور ، ويقول إنّه خلّف بعضها صريعةً ، دون رمق ، وبعضها الآخر تحتضر وتلفظ أنْفاسها .

في استحضاره وتأديته بالنّعوت والألفاظ . لقد انتزع ممّا وقعت عليه حواسّه في الطّبيعة ، أبان الهاجرة ، ما يختصر ويُوجز التّعبير عنها في أقصى حدودها ، فلم يَعثر على أفضل من الحرباء المتحشرج ، المختنق تحت وطأتها ، فمثّلها به وخلع عليها غلوّ الفن في أقصى مداه ويقين الواقع في أدقّ جزئيّاته .

وعبر ذلك كلّه تراه يستكمل شروط الإطلاق والمثاليّة لتلك النّاقة إذ أن قيامها على العدو السّريع الذي يغول المسافات في أشدّ أوقات الهاجرة ، يجعلها قادرة على اقتحام كل مشقّة دون تعذّر وتراخٍ . ويُعقّب على ذلك بقوله :

والرِّجل لاحقة منها بأوّلها   وفي يَدَيْهَا ، إذا استَعْرَضَتها دَفَقُ

وفي هذا البيت تأدية للغلوّ في حدود ما يطالعه الشّاعر عبر النّاقة ذاتها ، لم يستعر له ولم يُشبّهه . ذاك أن لحركة يدي ورجلي النّاقة دلالة ذهنيّة ، يتخلص اليها المرء من تحديقه بها ، فيدرك أن تلاحق اليدين والرّجلين يُفصح بذاته عن السّرعة ، فكانه كناية واقعيّة مباشرة لها . ثم تراه يسمو على ذلك إذ يستعير لها التدفّق ، كأنها تفيض فيضاً بالحركة . ولقد اقتصر من أمر النّاقة على سرعتها وحسب لأنّه لا يَتَمُوم بالوّصْف للوصف بل في سبيل المدح واظهار ما تكبدّ من مشقّة وما اجتاز من مسافات شاسعة في سبيله . ولو لم يكن في هذا المقام لأنصرف إلى نعت كل عضو من اعضائها وملمح من ملامحها ، كما فعل طرفة الّذي لم يَغْفل حتى عن شعر لحيَيْها وتَسَنُّنِ عِظام رأسها . وبما أن وصف الثّور الوحشي والج في سنّة القصيدة المدحيّة منذ النّابغة والأعشى ، فقد انخرط في المباراة بوصفه دون أن يُفلح في ترسُّمه بما يتخطّى ما ألف فيه وأدرك منه الجاهليّون . فهو يَعْرضه قائماً بجنب شجرة الأرطاة :

باتَتْ إلى جانب منها يُكَفِّئُه   لَيْلٌ طَويلٌ وقَلْبٌ خافِقٌ أرِقُ

وهذا المشهد مكرور مبذول في شعره وشعر سواه ، اقتبس في نقطة انطلاقه الأولى

اقتباساً فنيّاً خالصاً إذ ألمّ به في حالة متأزّمة ، على غرار المسرح الكلاسيكيّ ، حيث تشتدُّ الانفعالات ويلعب الحيُّ ورقة مصيره مع الحياة . ويرد ذكر اللّيل الطّويل والقلب الأرق وروداً ذهنيّاً باهتاً ، إذ لم يُلْحف فيه بمعالجة واقعه الدّاخلي . ثم إنّه يُفَصّل فيما أوجزه بالقول :

باتَتْ له لَيْلَةَ هاجت بوارحهـــا ومُرْزِمٌ من سحاب العَيْن يأْتَلِـقُ

فالرِّيح والعاصفة والمطر المنهمر بغزارة تتردَّدُ في هذا الشّأن ، وهي أداة حسيَّة واقعيَّة ترتسم من خلالها حالته القلقة المضطربة .

وكما شبّهه في الأبيات السَّابقة بمن يرتدي حلّةً أصفهانيّة أو بمن يَصطلي ناراً ، عندما يَخْطف البرق من دونه ، يشبّه المطر المنهمر عليه ، هنا ، باللُّؤلؤ المنثور . إلا أن لهذه اللّيلة نهايةً يَعْقبها صبح جليٌّ . صاح. ولقد حرص الأخطل وسواه على نعت الصّباح بالصَّحو لغاية واضحة أو غامضة ، لعلهم يَصْدرون فيها عن نزعة تفاؤليّة يُوعزون من خلالها بأنَّ لكُلِّ لَيْلٍ داجٍ حالكٍ ، صبحاً جلياً ، باهراً ، وان الأمل والخلاص ينبثق من قلب اليأس والمحنة . وقد يكونون قد نقلوا هذه الأحداث نقلاً واقعياً أصمَّ إذ يَغْلُب أن يكون صباح الصحراء صاحياً بعد اللّيلة العاصفة . والله أعلم .

وكما كان شأنه في الأبيات السَّابقة يتصدَّى لكلاب الصيد :

هاجَتْ له ذُبَّلٌ مُسْحٌ جَوَاعِرُهَـــا كأَنَّما هُـنَّ من نَبْعِيَّة شقَـــقُ

ولقد أحلّ الصّفة من دون الموصوف في قوله : « ذُبّل » أي كلاب ذابلة الآذان ، مُسْتَرْخيتها . ولسنا ندري إذا كان لاسترخاء الآذان دلالة خاصة على الضّراوة والسّرعة في العدو أو أنها صفة ملازمة للكلاب السّلوقيَّة ، تلحق بها دُون أن يكون لها ارتباط بالغلو في سرعة تلك الكلاب . ولعلَّ الشّاعر غالى بضمورها مُغَالاةً ،انفعاليَّة . فنيَّة ، ليبالغ بقدرتها على العدو ، كما أنَّ تَشْبيهها بالقِسيِّ

هو تشبيه شعريٌّ وان كان متداولاً لأنّه لا يقوم على المقابلة التّعادلية بل على نوع من الايحاء الغامض بصلابتها بالرغم من ضُمورها .

وهنا لا يجد الثّور سبيلاً إلى الفرار :

يُفَرِّج الموت عنه ، قد تحضَّره وكذْنَ يَلْحَقْنَهُ أو قد دنا اللَّحَقُ
لما لحقْنَ به أَنْحى بمغوله يَملا فرائصها من طعنه العَلَقُ

لقد أنف، في البدء، من القتال ، فهو لا يباشره ، لكنّه إذ اقتضي عليه أظهر فيه كُلّ قوّة وبسالة ، يَطعن الكلاب ويُسيل الدّم منها ويمزّقها تمزيقاً ، مخلّفاً إياها صَرْعى . ولعلّ البيت الأخير هو الّذي يفيدُ منه في التّدليل على قوّة النّاقة الّتي يَمْتطيها ، إذ مثّل به مشهداً من مشاهد البطولة المطلقة .

* * *

ولَسْتُ أَدْري إذا كَانَتِ الدِّراسة تَقْتضينا أن نسوق نماذج أخرى من وصفه للحمار لعظم ما يتّصف به من تكرار . وقد رأيت أن أسوق هذا النّموذج الأخير لانصرافه فيه إلى التّفصيل وجمعه ، من خلاله ، معظم التّشابيه والأحداث الّتي يسوقها في شأنه . والشّاعر لم يعرض للثور الوحشي فيه من خلال تعرُّضه للنَّاقة ، بل في سبيل التّدليل على معالم العفاء والتّوحُّش الّتي طفرت في منزل صاحبته ، إثر ارتحالها .

ولقد حرص الشاعر ، في هذه الأبيات ، على تمثيل النّعيم الّذي يَنْعم به ذلك الثور من خلال ارتعائه وخوضه في الماء الكثير ؛ ولعلّ توفر الكلأ والماء هما رمز ذلك الرَّخاء الطّارىء الّذي يقيم فيه ، بل إنه ليطالِعُنا في النّبت العميم الحافل الّذي تطيَّبَ به وانتعل منه الورس الأصفر الجميل . وهو يَذْكر في هذا المقام زهر

الخزامى وذكره لا ينمُّ وحسب على الشّبع والارتعاء ، بل على الطّيب واللّون والفرح بحديقة الطبيعة ، أي الحياة .

إلا أن الليل يجنّه بالظّلمة والمطر ، وقد خصّ الشّاعر المطر ببعض الوصف ، إذ يقول إن الرّيح تستدرّه من السّحاب الثقيل ، الحافل الّذي ينْهمر كالسّيل ، فتضيق عنه الأرض والسّيل :

دانِي الرَّباب ، إذا ارتَجَّتْ حَوَامِلُه بالماءِ ، سَدَّ فُروجَ الأَرْضِ واحتفلا

ولقد قعد الثّور يُحدّق في البرق الّذي يرسم على الآفاق صوره الذّاهلة ، المخيفة ، كأنّه مريض لا قبل له بالنّوم :

فبات مكتلياً للبرق ، يَرْقُبُـــــه كلَيْلَة الوَصْبِ ، ما أَغْفَى وما عَقَلا

وقد ألممنا بذكر أرقه قبلاً ، إلا أن الشاعر أضاف إليه معنى السّقم والدّاء ، مغالياً به بعض الغلوّ ، كما أنّه يمثل الثور ، عبر البرق ، بصورة مباينة إذ يجعله كالسّاجد الّذي قام في اللّيل مسبّحاً :

كأَنَّهُ ساجدٌ ، من نضح ديمتــــــه مُسَبِّح ، قام ، نِصْفَ اللَّيْلِ ، فابْتَهَلا

ويضيف إلى ذلك مشهداً آخر في نقبه للتراب بقرنيه وصدره ويمثله بقائد ينتخب الخيل الأصيلة :

يَنْفي التُّـرابَ بروقَيْه وكَلْكَلِـــهِ كَمَا استَمازَ رئيسُ المِقْنَبِ النَّفَلا

وبدلاً من اللؤلؤ يحلُّ المرجان في تمثيل المطر المتساقط عليه :

كأَنَّما القطر مرجـــانٌ يُساقط أعــلى الرَّوْق والمَتْنَيْــن والكَفَــلا

وفيما دون ذلك فإنه يصف الكلاب بأوْصافها والصّيد بأحداثه المأثورة .

خلاصة في وصفه للثّور :

لا نقع في وصفه للثّور على الابعاد الجنسيَّة التي وقعنا عليها في وصفه للحمار الوحشيّ ، فهو لا يؤديه لنا بين أتنه ، هالعاً عليها هلع الغيرة ، يخاصمها ويُدْميها ، كما أن تجربة التصرّد والظمأ لا تطالعنا في وصفه ، إذ يُظهره ، غالباً ، ناعماً بالماءِ ، خائضاً في النّبت يفوح منه الطّيب وتصطبغ أقدامه بالورس الأصفر . إلا أنه يعاني كالفحل من تربّص الصَّيادين وكلابهم . فيقبل بعد ادبار ويعمل روقيه ويولّي منتصراً ، زاهياً . كما أن وصفه من دون المطر ، في الليلة الممطرة يعرض لتشابيه مماثلة بين درٍّ ومرجان ولؤلؤ ،ووصفه تحت البرق يترجّح بين من يَصْطلي النّار ومن يرتدي حلّة اصفهانيّة أو من يقوم في الليل للعبادة .

* * *

الباب الخامس

سائر موضوعات وصفه

أولا : المطايا : ألممنا بوصف المطيَّة ، أي النَّاقة في أبيات مجزوءة قدّم بها لوصف الثَّور . إلا أن هناك أبياتاً ومقاطع أدلّ على وصفه لها . والأخطل لا يعرض للنَّاقة بذاتها ، بل من خلال سياق عام يحتشد به ليُمثّل هلاكها في السَّفر إلى الممدوح. ومعظم المعاني الّتي يلمّ بها تقع في حدود هذا الانفعال، تتضافرُ ، بعضاً مع بعض ، لتؤدي بهذه الصورة إلى أقصى غايتها .

ومن ذلك أنَّه يذكر إجهاضها لأولادها من شدَّة الضّنى ، يهرع إليها الذّئب فيفترسها ، بعد أن تُخلّفها على الطريق :

تَرى العرمس الوجناء يَضْرِبُ حَاذَهَا ضئيلٌ كفرُّوج الدَّجاجةِ مُعْجَلُ
يَشُقُّ سَمَاحيقَ السّلا عن جنينها أخو قفرةٍ ، بادي السَّغابة أطحل

يقول إن ناقته الصَّلبة ، العظيمة الوجنتين يضطرب في أحشائها جنينها ، فتجهض به ، فيبدو لهزاله كأنَّه فرُّوج الدّجاجة لخروجه من الرَّحم قبل أوانه وان الذّئب الّذي ألف القَفْر والجوع يفترسها ويشقّ عن وجهها غشاوة الرَّحم . ومؤدى هذه الصُّورة ان تلك النّياق لم تعد تطيق السَّير فانحلَّت عنها متونها وتَشقّقت أرحامُها ، فكأنها تكاد أن تتنازع وتموت على الطريق . هنا تَقُوم فضيلة التَّعبير على الحادثة أو على الكناية الحسيَّة الّتي تحمل الدّلالة على الفاجعة بذاتها وفي حدوثها

الواقعي . فهي ليست ابداعيَّة ، بل نقليَّة ووظيفة الابداع اقتصرت فيها على انتخابها من الواقع وتوقيعها في سياقها من المعاني . فلو لم يُنْقَل الشَّاعر هذا المشهد من الواقع ، بل لو وقعنا عليه بأنفسنا فيه لكان أثارنا بالشفقة والشعور بالارهاق والهلاك . وهنا تبرز خبرة الشّاعر الحسيَّة وقدرته في استحضار المشهد النّافذ ، البليغ .

ولا يزال الأخطل يسوق مثل هذه الأحداث الذرويَّة في مثل قوله :

فما زَالَ عنها السَّيْرُ حتّى تَوَاضَعَتْ عَرَائِكُهَا ، ممّا تَحِلُّ وتُرْحَلُ

فكما أنّها أجهضَتْ أجنَّتها ، فإن شحم أَسمنتها ذاب عنها كذلك ، فلم يَعُدْ لها مصدر للقُوَّة يغذّيها ويدفعها للنّشاط . وكان الأصل أن يذكر ذوبان أَسمنتها ، قبل اجهاضها لأن الثاني أبلغ وأدلُّ من الأوَّل .

ومن ثم يؤدّي أسباباً تضاعف من مشقّة السَّيْر . فبالإضافة إلى طول المسافة ووعورة الطّريق ، هناك الهاجرة ، وقد أخنَتْ عليها وصلَتْها بمثل النّار المحرقة ، حتى أن الحرباء بات يتملْمَلُ ويختَنِقُ في الرَّمضاء :

وتكليفُنَاها كُلَّ نازِحَةِ الصُّوى شَطُونٍ ، تَرَى حرباءها يَتَمَلْمَلُ

فلقد أزجاها في كل صحراء بعيدة الأعلام ، مُضِلَّة ، يكاد حرباؤها أن يهلك فيها ، فغارت عيونها واحتفرَتْ فيها حفر فبدت كأنّها بقايا الماء في نِقَر الصّخور ، كما أن سيور الرَّحل اضطربت وتَقَلْقَلَتْ عليها لما أصابها من نحول وضمور :

وقد ضمرت حتى كأنَّ عُيُونَها بقايا ، قلاتٍ ، أو ركيٌّ مُمَكَّلُ
وَغَارَتْ عيون العيسِ ، والتقت العرى فهنَّ من الضّراءِ والجهد نُحَّلُ

وتراه يكرّر هذه المعاني ويستجمعها ، بعضاً مع بعض ، في مثل قوله :

مُحَلَّقَةٌ منها العُيُونُ ، كأنّها قلاتٌ ، ثَوَتْ فيها مَطَائطها الحفْرُ

وَقَدْ أَكَلَ الكيرانُ أَشرافها العُلَى | و أُبقيَتِ الألْوَاحُ والعَصَبُ السُّمْرُ
وأجْهَضْنَ ، إلا أن كُلَّ نجيبةٍ | أتى دون ماء الفَحْلِ من رحمها سِتْرُ

فهذه المطايا بدت غائرة الأحداق كأنها حفر في صخر استنقع فيها الماء فتغيَّر واخضرَّ وقد ذابت أسنمتها ولحومها ، فلم يَبْقَ منها إلا أَعْصابُها ، وقد أجهضت جميعاً ، إلا تلك التي لم يُدْرِك ماءُ الفحل رحمها ليُلْقحها .

وربما وصف سرعتها بالقول إن فأراً يَقُوم بكنف جنبها ، لا يزال يَخدشها لتجدَّ في السَّيْر :

كأنَّما يعتريها كُلَّما وَخَدَتْ | هِرٌّ جنيبٌ ، به مسٌّ من الكَلَبِ

وقد جعله كلباً للتَّدليل على كثرة عضّها . وقد يشبّهها بالحصن أو بالفحل :

جُماليَّة ، غول النَّجاء ، كأنها | بنيَّةُ عَقْرٍ أو قريعُ هِجانِ

والعقر هو الحصن والقريع هو الفحل . ويُشبِّه ضمورها بالقسي :

بخُوص كأَعطال القِسِيِّ ، تَغَلْغَلَتْ | أجنَّتُها من شقَّةٍ ودُؤُوبِ

ثانيا : الغراب والذّئب : وفي القصيدة الأولى التي امتدح بها يزيد بن معاوية ، يُعرِّج على وصف غراب وذئب اعترضا له في القفر ، فجعل يُطْعمهما من زاده ، فيتنافسان عليه :

خَليليَّ لَيْسَ الرَّأيُ أنْ تَذَرانيِ | بِدَوِّيَّةٍ ، يَعْوي بها الصَّدَيانِ [1]

---

١ – الدَّوِّيَّة : الفلاة الخالية الّتي تدوّي فيها الأصداء . الصّدَيان : صدى الهام والبوم .

م : يخاطب صاحبيْه ، ويقول : إنّه ليس من الحكمة أن تخلّفاني وحيداً في الفلاة المقفرة التي تدوّي فيها أصداء الهامات والبوم .

وأرّقَني مِنْ بَعْدِ ما نِمْتُ نومةً وعَضْبٌ جلَتْ عَنْهُ القُيونُ يماني ١
تَصاحُبُ ضَيْفَيْ قَفْرَةٍ يعْرِفانِها: غُرابٍ وَذِئْبٍ دائِمِ العَسَلانِ ٢
إذا حَضَراني عِند زاديَ ، لم أكُنْ بَخيلاً ، ولا صَبّاً إذا تَرَكاني ٣
إذا ابْتَدرا ما تَطْرَحُ الكَفُّ ، فاتهُ بِهِ حَبَشيٌّ كَيِّسُ اللَّحَظانِ ٤
يُباعِدُهُ مِنْهُ الجَناحُ ، وتارَةً يُراوِحُ بَيْنَ الخطْوِ والحَجَلانِ ٥
إذا غَشِياني هيلَتِ النَّفْسُ مِنهما قُشَعْريرةً .وازْدَدْتُ خوفَ جَنانِ ٦

وفضيلة هذه الأبيات أن الشّاعر لا يقومُ فيها مقام الفخر والعنجهيّة ، فلا يغالي أو يوقّع الأحداث توقيعاً مثالياً ساقطاً، بل إنّه يسوقها وفقما تقع له كتجربة من تجاربة مع طوارىء الأيام والأحداث . فهو لم يَقْتحم الدَّويّة اقتحاماً بإرادته ، بل إن صاحبَيْه خلّفاه فيها وقد جعَلَتْ أصداءُ الهام والبوم تدوّي فيها ، مثيرة بنفسه

١ ـ ٢ ـ العَضْب : السيف القاطع . والتأويل هنا : معي سيف . العسَلان : عَدْو الذّئب .

م : يقول إنّه لم يكد ينام ، والسيف اليماني الصقيل إلى جنْبه ، حتى أرّقه غراب وذئب ، ألفا القَفْر وأقاما فيه .

٣ ـ يقول : إنّهما إذا دَنَوا إلى زادي ، كنت أودّي لهما منه . وإذا ما ابتعدا ، لم أرغب في إدنائهما إلي . أي أنّه كان يقف منهما موقف اللاّمبالاة ، يبادرهما بمثل ما يبادرانه به .

٤ ـ الحَبَشيّ : هنا الغُراب لسواد لونه .

م : يقول : إنّني لا أكاد أُلقي إليهما من زادي ، حتى يسارع الغراب إليه ، إذْ كان أحدَّ بصراً.

٥ ـ يقول : إنّه كان يباعد الذّئب بجناحه ، يخطو حيناً ، ويقفز حيناً آخر .

٦ ـ ينتقل في هذا البيت إلى وصف خوفه منهما ، ويقول : إنّهما لا يكادان يدنَوان منّي ، حتى يعتريَني الهول منهما وتتولاّني القُشَعريرة .

الشّعور بالهول والوحشة والتّمرُّد . وقد يكون الهام والبُوم قد صوّتت ، فعلاً ، في أرجاءِ القفر ، وقد يكون الشاعر ذاته قد استحضرها بخلْقٍ خلَقه إذ ليْس َ، ثمّة ، ما هو أدلُّ منهــا على الشُؤْم والفراغ والتوحُّش . وإذ ارتحل صاحباه عنه . قام من دونهما صاحبان آخران . ضاعفا من وقع الوحشة والخوف في نفسه ، وقد حاول ، حيناً ، أن يؤلّفهما بما يَبْذل لهما من طعامه ، وهما يتسابقان لتلقُّفه ، يَطرُدُ الغُراب الذئبَ عنه بجناحه ويُبْعده . وما زال الأمر به كذلك حتى اعتراه الخوف الشّديد واقشعرّ له بدنه . ولم نكد نشهد شاعراً فارساً كالأخطل يذْكر خوفه وتوجُّسه في الفلاة . بل إنه كان يضاعف من أهوالها كذكر الهاجرة وافتقاد الاعلام والماء واجهاض المطايا وتَقَلْقُل أعنّتها ليفخر بأنه صمد على المشّقات من من دونها . فهذا الشعر هو من التّجارب الوجدانيّة اللّطيفة ، حيث تُسْفر النّفْس عن ذاتها دون جبروت وقناع وتقيّــة . وربّما كان الغراب والذّئب . هنا ، كشخصين في هذا المشهد المسرحيّ الموحش على أديم الفلاة والعراءِ .

ثالثاً : الهقلة أو أُنثى النّعام : وكما شبّه ناقته بالثّور والحمار الوَحْشيّين ، يشبّهها بالهقلة التي يعارضها الذّكر ، فلا يُفلح في اللّحاق بها ، يعدوان وهما يثيران الغبار :

أوْ هِقْلَةٌ مِنْ نَعامِ الجوِّ، عارَضَها　　　قَرْدُ العِفاء ، وفي يأفوخِهِ صَقَعُ [1]
هيْقٌ خَفيفٌ يُباريها ، إذا نهَضَتْ　　　وهْوَ لها، بَعْدَ جِدٍّ مِنْهُما ، تَبَعُ [2]

١ ــ الهقلة : الانثى من النعام . القرد : القصير الرّيش . العفاء : ما كثُر من ريش النّعام . الصَّقع : البياض .

م : يُشبّه ناقته بأنثى النعام التي تعرّض لها ذكر قصير الرّيش ، تَعلو رأسه بقعة بياض .

٢ ــ هَيْقٌ : ذكرَ النعام الخفيف .

م : يقول إن ذلك الذكر الخفيف يعدو إثر أنثاه ويباريها في الجري ، ثمّ يُلْفى بعد أن يجدّا في السير طويلا ، لاحقاً لها . أي أنه يعجز عن إدراكها وتجاوزها . فهي أعدى منه .

تعاوَرَا الشَّدَّ ، لمَّا اشْتَدَّ وَقْعُهُما وكان بَيْنَهُما مِنْ غائطٍ وَشَعُ ١
نَعَّابةٌ بَعْدَ جُهْدِ الأيْنِ ، يُفْزِعُها صَوْتٌ لآخَرَ تالٍ . بَعْدَها ، يَقَعُ ٢
خَمْساً وعشرين . ثم استذْرعَتْ زَغَباً كأنَّهُنَّ بأعْلى لَعْلَعٍ رِجَعُ ٣

فالشّاعر يَنْسب الهقلة إلى موطنها في موضع الجِزِّ ، كما كان يَنْسُبُ الوحوش إلى موضع وجرة . ونسبتها اليه كنسبة العربيّ إلى أصله تَمْنحه بعض الخَصَائص الملازمة له . ثم إنَّه وصفها في وضع تبذل به أقصى غايتها من السّرعة إذ جعل الذّكر يطاردها . وكما جعل الثور والحمار الوحشيين في مأزق يُبْذلان أقصى قوّتهما ، فإن هذه الهقلة تولّي مدبرة من دون ذكرها حتى تُوفي قبله إلى بَيْضِهما . وهو ، مع سرعته الفائقة ، يُخذل في مجاراتها . ولو أنّه جاراها أو تَخطاها لكان أحرى بالشّاعر أن يَقْرن ناقته به بدلاً منها . ولعلّه شعر أنه ما زال يُؤدّي المعنى تأديةً ذهنيّةً ، فساقه من جديد من خلال صورة حسيّة تُعبّر عنه وتُغَالي فيه ، وهي صورة الغبار

١ ــ التّعاوُر : التداول . الشّدُّ : العَدْو . الغائط : ما انخفض من الأرض . وشَع : طرائق يسلكها الغبُار عند هبوبه .

م : يصف عدوهما وتباريهما فيه . ويقول إنهما كانا يثيران الغبار به في موضع الغائط الذي جريا فيه .

٢ ــ النعّابة : السريعة التي تهزُّ رأسها في عدوها . الأين : التّعب .

م : يقول إنها ظلّت تعدو ، وقد جعل رأسها يهتزُّ من شدّة ما نزل بها من الإعياء ، وهي لا تزال تجزع من صوت الذكر الذي يتناوب وإيّاها احتضان البَيض .

٣ ــ استَذْرَعَ : جعل الشيء على ذراعه . الرِّجَعُ : صغار الإبل وهنا صغار النّعام .

م : يقول إنهما حضنا بيضهما ، يختلفان على ذلك خمساً وعشرين ليلة ، حتى تصدّع البيض وظهرت الفراخ الزُّغْب . فوضعتها على ذراعيها ، فبَدت لهزالها كصغار الإبل .

الغبار المتصاعد اثرهما في أشكالٍ متعددة . وفضلاً عن تلك البواعث كُلّها يُضيفُ عامل الجزع والهلع من الذَّكر ممَّا يَحثُّها على مضاعفة عَدْوها :

نَعَّابَةٌ بَعْدَ جُهْدِ الأيْنِ ، يُفْزِعُهَا صوتٌ لآخر تالٍ ، بعدها ، يَقَعُ

أمَّا ذكره لاحتضانها للبَيْض ، فيَنْبُو عن سياق الموضوع إذ لا دلالة له على القُوَّة أو على السُّرعة . إلا أن الوَصْف بمجمله لَيْس وصفاً تقريرياً، موضوعيّاً ، بل وصف انفعالي التزم من حياة الهقلة باللحظات الّتي تنمُّ عن شدَّتها وسرعتها . ولم يعرض لما دونهما كشكلها وقوائمها وما إلى ذلك مِمَّا يعرض في الوصف الّذي تقتصر غايته على ذاته .

رابعا : القطا : القطا طير يَضْرب به العرب المثل على الاهتداء ، ولعلَّه يطير جماعات . ولَسنَا نقع له في شعر الأخطل على وصف للوصف ، بل غالباً ما يتَّخذه كدليل على شدَّة الهاجرة وافتقاد الماء بحيث يَطير ويطوف في كُلِّ مكانٍ ، دُون أن يعثر منه حتّى على نطفة . ففي القصيدة الأولى التي امتدح بها يزيد يُعرِّجُ على ذكر القطا في مثل هذا السِّياق :

لَيَاليَ لا يُجْذي القَطَا لِفَراخِهِ بِذِي أَبْهَرٍ ماءً ولا بجفان ١
يُقَلِّصُ عَنْ زغبٍ صِغَارٍ ، كأنّها إذا دَرَجَتْ تَحْتَ الظّلال أَفاني ٢
كَأَنَّ بقايا المُحِّ من حَيْث دَرَّجَتْ مُفَرَّك حُصٍّ في مبيت قيان ٣

١ – يُحْذي : يحمل – يقول إنّها ليال شديدة القَيْظ ، بحيث يفتقد الماء ولا تقوى القطا على العثور عليه في موضعي أبهر وجفان .
٢ – يقلّص : يقصِّر . الافاني : جمع فنية ، بقلة صغيرة – يقول ان تلك القطا كانت تقصر عن جلب الماء لفراخها الصّغيرة الشبيهة بالأفاني .
٣ – المُح : صفار البَيْت . الحُص : الورس . يقولُ ان بقايا المح الأصفر من حَيْثُ تفرَّخَتْ شبيه بالورس في بيت القيان .

إلى كُلِّ قَيْضٍ من ضئيلٍ ، كأنَّما تفلَّق في أُفْحوصِه صَدَفَانِ [1]

وهذه الأبيات لَيْست متوازنةً ولا متوازية الدَّلالة إذ أنه اتَّخذها في المطلع كتقيَّةٍ له للتدليل على شدَّة الحرِّ بحيث أن القطا الشَّديد الاهتداء تكاد أن تَهلكُ فراخه من دونه ولا قبل له بالعثور على ما ينقع ظمأها . وذكره لدروج تلك الفراخ على الأرض كالنبات الهزيل الهالك يلج في سياق المطلع ، ممثلاً الحالة الَّتي آلت إليها . أما ما انثنى إليه من وصف لبقايا المح وتمثيله بالورس أو المقارنة بين البيض والصَّدف ، فذاك كُلُّه كان نبوّاً عن الموضوع وانجذاباً إلى الواقع وسقوطاً تحت وطأة أعراضه من دون أغراضه . ولا بدع في ذلك إذ أنَّ الأخطل كان لا يَزَال مُتَدرِّجاً في الشِّعر ، يؤْخَذُ بخلابة المظاهر عن جَوْهرها ، ويُفْتَنُ بها لذاتها ولا يقوى على أن يجنّب انفعاله من التّيه والضّياع فيما يطالعه في الواقع دون أن يكون له علاقة به . وفي البائية الّتي امتدح بها عبد الملك ، يقرن بين ناقته السَّريعة والقطا الّتي تعدو مسرعةً في طلب الماء :

كأنَّ رحال القوْم حينَ تَزَعْزَعَتْ على قَطَوَاتٍ مِنْ قَطَا عالجٍ ، حُقْبِ [2]
أَجَدَّت لوردٍ من أبَاغَ وشفَّها هَوَاجِرُ أَيَّامٍ وُقدْنَ لها شهْبِ [3]
إذا حَمَلَتْ مَاءَ الصّرائم قلّصَتْ رُوَايا لاطْفَالٍ بمَعْميَّة ، زُغْبِ [4]

---

١ ـ القيض : البيض ؛ الافحوص : موضع بيض القطا ـ يمثل خروج الفراخ من بيضها بمثل خروجها من الصدف .

٢ ـ الحقب : التي احتبس عليها الماء ـ يقرن بين مطيّته والقطا في السرعة .

٣ ـ يقول إنها اسرعت إلى عين اباغ وقد أهزلتها الهاجرة الشديدة .

٤ ـ الصرائم : منقطع الرمل . قلّصت : مضت . الرّوايا : حاملة الماء . ـ يقول إنها تعود حاملة الماء لفراخها .

توائم أَشباهٍ بأرْضٍ مَريضةٍ يَلُذْنَ بخذْرَافِ المتان وبالضرْبِ[1]

والقطا تَقُومُ ، في هذا المقطع ، بالمهمّة التي قامَت بها ، قبلاً ، أي اجتلاب الماء ، وهي تَعثُر عليه ، فيما كانت قد طلبته ولم تعثر عليه . ذالك أن غاية الشاعر من وصفه تباينت . فيما تقدّم اتخذ ظمأ القطا وعدم اهتدائها إلى الماء كبيّنة على شدّة الهاجرة ، أما في هذه الأبيات فإنّه يتّخذها كناية لسرعة العدو وليست الهاجرة إلا سبيلاً استحثّها به اليه . وفي المقطعين ، جميعاً ، لم يَصِفْ القطا لذاتها ، بل وقّع وصفها في حُدُودِ انْفِعاله . وبخاصة في المقطع الأخير . فقد مَضَتْ وعادَتْ مُسْرِعةً لتروّي أولادها العاجزة عن تحصِيل الماء ، بل عن الطيران فتراها تلوذ بالمتان والنبات . وربّما وقّع الأخطل للغلوّ إيقاعه الخاصّ به وألحفَ به إلى نهاية مطافه. ذالك أن البيت الأخير منها كان شديد الصّلة والوثوق بالبيت الأوّل، وقيام الفراخ الهزيلة في الأرض الغليظة يعظّم من حاجتها إلى والديها أو تهلك . وهذه القطا هي في وضع يجعلها تَدَرّ أفضل طيرانها لأنها في أشدّ حالة من العجلة والذُّعر .

ويعرض إلى وصف القطا بمثل ذلك في قوله :

مصاحِبُ خوصٍ قَدْ نحِلْنَ كأنّما يقِينَ النُّفوسَ أن تمَسّ الكَلاكِلاَ
إذا كان عن حِينٍ من اللّيْلِ نَبّهتْ بأصواتها زُغباً توافي الحواصلا
توائمَ كُسْيَتْ بعدعُرْيٍ ، وأُلبسَتْ برانسَ كوْراً لم تُعنّ الغوَازلا

فهو يقول إن تلك المطايا قد ضمرت حتى أوشكتْ صدورها أن تمسّ الأرض ، وهي تُبذل جهدها كي لا تقع اليها . أنّها تُوقظ في عدوها ، ليْلاً ، فراخ القطا فتهرع إلى أمهاتها لترقّها ما اختزنته لها في حواصلها ويردف بأنها توائم، نما لها الرِّيش

---

١ ــ يصف صغار القطا ويقول إنّها توائم ، تقيم بأرض هادئة وأنها تلوذ بين أشواك البهميّ .

ونسجَ أبدانها دون أن تَغزله لها غازلة أو تحوكه حائكة. ولَيْسَ في هذا الوصف مثلُ ايقاع المقطعين الأوّلين في الدّلالة الانفعاليَّة ، وانّما استَطْردَ به استطراداً فاقد المبرّر ، فكأنه فلذة من الوصف للوصف .

ويعرض الأخطل ، كذلك ، للقطا في قصيدة تحدَّث بها عن صاحبته أمّ بِشْر ويقول إنّها تبتغي له الخَيْر ، فيما يبتغي الآخرون له الشّر ، ثم يمثّل البُعْد الذي تَنْزح عنه بمَفازات موحشة يلعب فيها السّراب وتُصْلى فيها القطا بالهاجرة . وبعد أن يذكر ارواء القطا لفراخها ، يصف النّاقة التي يمتطيها في رحلته وتطوافه عبر الأمْصار ويشبّهها بألواح المِشْجب لنحولها ويقول إنّها بالرغم من ذلك ما زالت تتقدّم سائر النياق وتسير في اللّيل عندما تعوي الذّئاب بالرّكب وتلحق بهم :

هوى أُمِّ بِشْرٍ أنْ تراني بغِبْطَةٍ ... وتَهْوى نُمَيْرٌ غيرَ ذاكَ وأكْلُبُ [1]
قُضاعيّةٌ أحْمَتْ علَيْها رِماحُنا ... صحاريَ فيها للمَكاكيّ مَلْعَبُ [2]
فكَمْ دونها مِنْ مَلْعَبٍ ومَفازَةٍ ... تظلُّ بها الوُرْقُ الخِفافُ تَقَلَّبُ [3]

---

١ ـ أمُّ بِشْر : هي صاحبتُه . نُمير : هي نُمَيْر بن عامر بن صَعْصعة . اكلب : أي أكْلب ابن ربيعة بن نزار بن خثعم .

م : يقول إنّ صاحبته تتمنّى له النّعيم والغبطة ، فيما يتمنى له أبناء نُمير وأكلب الشرّ وسوء المصير .

٢ ـ أحْمَت : أي جعلتها حمى لا يُقْرب . المكاكي : طائر أبيض يكون بالحجاز ، وسمّي كذلك لأنّه يمكو أي يَصْفر .

م : يقول إن صاحبته من بني قضاعة وإن بني قومه يمنعون عليها بسلاحهم ارتياد صحارٍ لا يزال يُقيم ويرتع فيها طائر المكاكيّ . وذكره للصحاري هو إشارة وتجسيد للبعد القائم بينهما ، وذكره لعداوة قوْمَيْهما هووسيلة للغلوّ بالعقَبات التي تفرّق بينهما .

٣ ـ الوُرْقُ : هنا الإبل التي يخالط سوادها بياض . المَفازة : القَفْر المُهْلك .

م : يُمثّل في هذا البيت المسافات الشّاسعة التي بينهما ، مُكرّراً المعنى السّابق ومفصّلاً له ويقول كم يحول بيننا من مَفازات موحشة يلعب فيها السّراب وتَتَقلّب الإبل الخفيفة في اجتيازها .

إذا ما مصاييفُ القَطا قَرَبَتْ بهِ مِنَ القَيْظِ أدَّاها السُّرى وهيَ لُغَّبُ[1]
إذا ما استقَتْ ماتستقي الهِيفُ فرَّغَتْ مِياهَ سواقيها حواصِلُ نُضَّبُ[2]
بوُفْرٍ رِقاقٍ لمْ تُجزَّزْ قُعورُها ولا شُرْبُها أفواهُها لا تُصَوَّبُ[3]
وعَنْسٍ براها رِحلتي فكأنَّها منَ الحبسِ في الأمصارِ والحسفِ مِشجبُ[4]
على أنَّها تَهْدي المطيَّ إذا عَوى مِنَ اللَّيْلِ مَمْشوقُ الذِّراعينِ هَبْهبُ[5]

١ ــ المصاييف : التي فرخت في الصّيف . قرَبَتْ : قعدت . القَيْظ : الحرّ . السُّرى : سير اللّيْل . لُغب : جمع لاغب : الشّديد التعب .

م : يقول إنّه إذا ما قصدت مصاييف القَطا إلى ذلك المكان ، فإنّها تُصْلى بالقَيْظ حتى تدركه بعد سرى اللّيل ، وهي مرهقة ، شديدة العيَاء .

٢ ــ الهيفُ : القطا . السّواقي : هنا حواصل القطا . نُضَّب : جافّة لا ماء فيها .

م : يقول إنّ القطا تستقي قَدْر ما تشاء . ثم تعود فتُفْرِغه إلى فراخها ، فتَنْضب حواصلُها من جديد .

٣ ــ الوُفْر : الضّخام . رِقاق : ضعاف . لم تُجزَز : لم تقطع . قُعورُها : أسافِلُها . لا تُصَوَّب : لا تَنْكَبُّ .

م : يقول إنّها تُفْرِغ الماء بسقاء لم تجزز قعوره أي لم تقطع أسافله إشارة إلى أنّها تفرغها في أفواه فراخها ذوات الأذناب ، ويردف بأن ذلك الماء لا يُصَبُّ خارجاً ، لشدة ظمإ الفراخ ، بحيث لا يفيض عنها .

٤ ــ العَنْس : النّاقة الصّلبة . الحَسْف : الضّر . المِشْجَب : خشبة مُعَلّقة أو منصوبة تعلّق عليها الثيّاب .

م : يصف النّاقة التي يمتطيها في رحلته وتطوافه عبر الأمصار ، ويقول إنها لشدّة ما لقيَتْه من الضّر والحَسْف ، هزلَت كألْواح المشجب .

٥ ــ مَمْشوق الذّراعَيْن : أي الذّئب . الهَبْهَب : الذّئب الخفيف . تَهْدي : هنا تَتَقدّم .

م : يقول إنّها بالرغم من هزالها وغُدوّها كالمِشْجب . فإنها لا تزال تتقدّم سائر المطايا وتقودها في الليل ، عندما يَعْوي بالرّكب الذئب الخفيف . وذكره للّيل هو للتدليل على طول السّفر ، وللذّئب هو للتدليل على الوَحشة والقفر والخوْف .

ولقد وردت هذه الأبيات كنزوع واستطراد من وصف المهمه المقفر الّذي تهلك فيه حتّى القطا ، فكيف بالرّاكب مطيّةً ؟ وانا لنعْلم أن القطا هي من أكثر الطّيور قدرةً على اجتياز المسافات والاهتداء إلى الأماكن بغريزتها الغامضة ، فإذا كانت ترهق فيه من القيظ ويتعذّر عليها التّحليق وتعاني من دونه الهلاك ، فإن أي حيٍّ آخر سيقصّر في اجتيازه . ولقد ساق الشّاعر القطا هنا مساق الحرباء في أبيات سابقة كذريعة لتمثيل حدة الهاجرة وشدّتها من خلال تَمَلْمُلُه واختْناقه . والأخطل يقيم هنا ، على حدود الموضوع ولا ينجذب عنه باستعراض الحقائق الواقعيَّة الّتي تصحُ فيه ، دون أن يكون لها اتّصال بانفعاله . وكنّا قد قدّمنا مراراً أن وظيفة الانفعال الفنيّ أن يُفكّك أُطر الظّواهر ، أن يُضيفَ ويَحْذُفَ ، يُضاعف ما انفعل به ويسقط ما لا صلة له بانفعاله . إلا أن الشّاعر قد يتغافل عن الانفعال ويلمُ بكلٍّ ما يطالعه في الظّاهرة ، فتتحوّل الحقيقة الفنّية إلى حقيقة واقعيّة ، فعليَّة لا طائل نفسيّاً من دونها . ومؤدى ذلك كلّه ان أموراً كثيرة تطرأ على الواقع وتجري فيه ولا عذر للشّاعر في استحضارها ولا جدوى لأنّها لا تجسّد الرُّؤية الخاصَّة الّتي يراه بها أو الرُّؤيا الذّاتيَّة الّتي يتراءى له فيها . فهل إنّ ما ذكره من إرواء القطا لفراخها يَلجُ في حدود الانفعال ؟ الواقع ان نقطة انطلاق الموضوع صَدَرَتْ عن رغبةٍ في الإيحاء المُطْلق العميم بالقيظ ، توسّل له ، في البدء ، إرهاق القطا ، ثم أردف بذكر ارواْئها لفراخها كاستكمال لمشهد القيظ العميم الّذي أصاب الفراخ وجعل حلُوقها تَنْضَبُ وتجفّ والذي جعل القطا تَهرع إلى الاستقاء وافراغ الماء في حواصل الفراخ . وفقاً لهذا التّأويل يتكامل الانفعال ويَنْمو ويتطوّر ، وبخاصّة في قوله :

بِوُفْرٍ رِقَاقٍ ، لم تجزَّز قُعُورُها ولا شربها أفواهها ، لا تُصَوَّبُ

وغاية المعنى هنا أن الفراخ ، لشدّة ظَمَإها ، لا تدع الماء يفيض عنها ، بل إنها ترتشفه جميعاً . وذاك ما يُوحي بشدّة القيظ .

وهكذا يرد هذا الوصف ، أيضاً ، وسيلة لسواه ، أو ككناية مُتَطَاولة ، متمادية ، تلمُّ بالأحداث الجزئيّة لتُوضح دلالتها وتغالي بها .

وكما كان الأخطل قد اتّخذ القطا سبيلاً للايحاء بعظم القَيْظ ، وكما تولاّه كمادة للتّشبيه في سبيل الغلوّ بسرعة النّاقة ، فإنه يتوسّله، في الأبيات التّالية ، للتّدليل على التّوحّش والعَفاء اللّذَيْن أخنيا على مقام الحبيبة ، إثر ارتحالها . ولقد اعتاض به عن ذكر البقر الوحشي والظّباء وما إلى ذلك من بهائم دَرَج على ذكرها لأظهار توحّش الطّلل وتعفّي آثاره ، بعد أهله .

ففي البدء ذكر قيام الحمام البرّي فيه ، حتّى إذا ارتحلَ حلّ من دونه القَطا الّذي يَسقي فراخه التوائم والفرادى . إلا أن الأخطل يَنْحرف عن سياق الموضوع الدّال على الخراب والهجر ويَنْصرف إلى وصف وثائق تَنْبو عنه ولا تغالي بالموضوع لانعدام اتصالها به . فهو يصف استقاء القطا وانتفاخ حواصلها بمثل الكيزان الخُضْر ، تنقله إلى فراخها المقيمة في الفلاة الموحشة ، فتُوقظها وتُعلّها منه . ثم يعود إلى ما قبل ذلك إلى احتضان القطا للبيض حتّى يَفْرُخَ وتتحطّمَ قشرته ويتفرّق في كل ناحية كالعصابة الّتي يتبعثر أفرادها ، إثر السّلب ، كي لا يدبّ فيهم الشّقاق :

على آجِنٍ أبقَتْ لهُ الرّيحُ دِمْنَةً وحَوْضاً ، كأُدْحِيّ النّعامةِ ، أثْلَما[1]
ترى مِشْفَرَ العَيساء ، حينَ تسوفُهُ إذا وجدَتْ طَعْمَ المرارةِ أكزما[2]

١ ـ الآجِن : الماء الذي مكث طويلاً في موضعه ، فتغيّر لونه . الدّمْنة : هنا الغثاء الأخضر الذي يغشى الماء المستنقع . الأدحي : موضع بيض النعام .

م : يقول إنّ ذلك الطلل يقيم إلى جنب ماء طال مكوثه ، حتى علاه غثاء أخضر ، وإن له حوضاً مُتَثَلّماً شبيهاً بالموضع الذي يضع فيه النعام بيضه .

٢ ـ المِشْفَر : للإبل كالشّفة للإنسان . العَيْساء : النّاقة البيضاء . تَسوفُه : تشمّه . أكزم : مُتَقَلّص .

م : يقول إن مطيّته البيضاء تكاد لا تَهمّ به لِترِدَ منه ، حتى يتقلّص مشفراها لشدّة مرارته .

كأنَّ اليماميَّ الطّبيبَ انبرى لهـا فذَرَّ لها في الحوْضِ شَرْياً وعلْقَما[1]
بأحْناء مَجْهولٍ ، تعاوَى سِباعُهُ تقوَّضَ ، حتّى كان للطّيرِ أدْرَما[2]

القطا وفراخها

إذا صدَرَتْ عَنْهُ حَمامٌ ، تركْنَهُ لوِرْدِ قطاً ، يسقي فُرادى وتوْأما[3]
تَراها إذا راحَتْ رِواءً ، كأنّها مُعلّقَةٌ عِنْدَ الحناجِرِ حَنْتما[4]
تأوّبُ زُغْباً بالفَلاةِ ، ترَكْنَهـا بأغبرَ ، مَجْهولِ المَخارِمِ ، أقْتما[5]

---

١ ــ اليَمامي : نسبة إلى اليمامة . انْبرى له : ألَمَّ به وعرض له . الشَّرْي : شجر مرّ .

م : يمثّل مرارته ويقول إنّه يخيّل لمَنْ يحتسي منه أن أحد الأطبّاء اليماميّين قد ألَمّ به وذرَّ فيه من ماء الشّري والعلقم .

٢ ــ أحناء مَجْهول : أي منزل مجهول . تَقَوَّض : انهدم . الأدْرم : المُستوي .

م : يقول إن ذلك الماء كان يحلّ إلى جنب منزل مجهول ، تألفه السّباع وتتعاوى فيه ، كما أنَّ الطّير تنزل فيه لخلوّه من السّكان الذين قد يزعجونها عنه .

٣ ــ يقول إنّ الحَمائم البريّة تؤمّه لتردَ الماء منه ، فإذا صدرت عنه عقَبها القطا ، يأتيه فرادى وتوائم ، ليستقيَ منه . وذكره للسّباع في البَيْت السّابق والحمام البريّ والقطا في هذا المقام كان سبيلا لتمثيل جو الخلاء الذي يغمره .

٤ ــ فيها الحنتم : أي الكيزان الخضر .

٥ ــ تأوّبُ : تعودُ . زُغْباً : فِراخاً لم ينبُت لها ريش . الفلاة : القفْر . أغبَر : أي أن الغبار لا يزال يثار في جوّها . المخارِم : المسالك . الأقْتم : المُظْلم .

م : يقول إن القطا كانت تستقي منه الماء ، وتنقله إلى فراخها التي خلّفتها في فلاة غبراء ، مُوحشة ، مظْلمة .

إذا نبّهتْهُنَّ الرّوافِدُ بالقرى سَقَيْنَ مُجاجاتٍ هوامِدَ جُثَّما[1]
يُنَبِّهْنَ قَيظيَّ الفِراخِ ، كأنّما يُنبِّهْنَ مَغْموراً مِنَ النّوْمِ أعجَما[2]
ثَنينَ عَلَيْهِ الرّيشَ . حتى تلاحقَتْ وصار شَعاعاً قَيظُها ، قدْ تحَطَّما[3]
فصارَتْ شِلالاً ، وابذعَرّتْ كأنّها عصابَةُ سَبْيٍ ، شَعَّ أنْ يُتقسّما[4]

وانك لو نظرت في هذه الأبيات لما اهتَديْتَ إلى غاية الشّاعر منها لأنه لا يُزْجي معانيها في إطار نفسيٍّ خاص . فغايتها مُتعدِّدة الجوانب ، يُسْتَدلُّ بها ، حيناً ، على التّوحش من قيام الطّير في دار حبيبته الرّاحلة ، والقطا من الطّيور البريّة التي تنفر من النّاس . كما أنه ضاعف من هذا المعنى إذ ذكر هلاك الفراخ لقيامها في ذلك المكان القائظ ، المقفر . وربّما تمادى في ذلك وبلغ منه أوجه إذ وصف

١ ـ الرّوافِد : هنا الأمّهات اللّواتي يرفدنها بالماء . الهوامِد : جمع هامد وهو الضّعيف . الجاثم : اللاصق بالأرض .

م : يقول إن امّهات تلك الفراخ من القَطا كانت تنبّه فراخها الضّعيفة الجاثمة التي لا قدرة لها على الطيران وتسقيها من الماء الذي نقلته إليها .

٢ ـ القَيْظيّ : ما فرخ في القَيْظ . أعجم : هنا الذي لا يقوى على الإفصاح .

م : يقول إن الأمّهات كانت تنبه فراخها التي كان النّوم قد أثقلها ، فجعلت تَزْقو ولا تفصح .

٣ ـ الشّعاع : المُتَفرّق . القَيْظ : هنا بمعنى القيض وهو قشور البيض .

م : يقول إنّ تلك القطا حَضَنَتْ بيضها وأقامت عليه ، تغطيّه بريشها ، حتى أفرخ وخرج من بيضه ، فتَحطّمت قشرتُه وكُسِرت .

٤ ـ الشّلال : المُتفرّقَة . ابذَعرّتْ : أسْرعت في تفرّقها . شَعَّ : هنا تفرّق .

م : يقول إن الفراخ بعد أن خرجت من بيضها تفرّقت كلّ تفرق ، كأنّها عصابة قامت بسبي توزعته وتفرقت ، خوفاً من أن يدبّ فيها الانقسام .

هزالها وعجزها من خلال نَوْمها الدّائم الشّبيه بالاغماء. إلا أنّه نبا وتولّى فيما ذكر احتضان القطا للبَيْض وتَحطّم القشرة وخروج الفراخ . لأن ذلك يفتقر إلى المدلول الظّاهر على العفاء . ولعلّنا إذا أمعنّا في التّأويل نقع على نوع من الصّلة الّتي يتّصل بها احتضان البيض وتَفرّخه بالموضوع الأصيل أي موضوع الخلاء والقَفْر وانقطاع السّابلة . ذاك ان القطا وضع بَيْضه في ذلك المكان واحتضنه مدّة من الزّمن ، ثم تفرّخ وخرج وتفرّق ، وكل حدث من هذه الأحداث يقتضي زمناً يطول أو يَقْصر . وبذلك يَغْدو ذكره لهذه الدّقائق وسيلة للايحاء بطول مدّة خلائه وتعفّيه . ولو لم يكن خالياً ، مُقْفراً لنزحت عنه القطا وجَفَلَتْ ولم تضع بيضها فيه . والله أعلم في ذلك كُلّه .

خلاصة حول وصفه للقطا :

لقد كانت القطا أحد الموضوعات الّتي استَهْوت الأخْطل واستولت على وجدانه، لأنّها من طيور الصحراء الّتي جُهِّزت بغرائز مُتَعدِّدة تثير بالدّهشة والتّفوُق . فهناك غريزة الاهتداء ، تتوسّلها لمعرفة الأمكنة وبخاصة تلك الّتي يستنقع أو يفيض فيها الماء ، فكأنّ هذه الغريزة مَظْهرٌ لرَوْعة الطّبيعة وجمالها وعبقريّتها ، معاً . فأيّا يكون ذلك الطّير الّذي يفوق الانسان في فطنته وذكائه بحيث يهتدي إلى ما يُقصِّر عنه ؟ ذاك هو موضوع الدّهشة الّتي استثارَتْ في الشّاعر الحالة الشّعريّة من تأمّله ومطالعته لمظاهر الوجود وعجائب المخلوقات فيه . وهناك قدرتها على التّحليق في القائظة الشّديدة ، فكأنّها في جَوِّ الصّحراء صنْوٌ للنّاقة على أرْضها . وفضلاً عن ذلك كُلّه هناك غريزة الأبوّة الّتي تدع القطا يجتاز المسافات الشّاسعة ، يحمل الماء في حواصله الهالكة ليُرويها وينقذها من الهلاك المحدق بها . فهذا الطّيْر هو طَيْرٌ متفوّق ، لا يَنْطق ولا يَعي ولكنّه يتصرّف بما هو أبلغ من النّطق والوعي بنوع من الحركة الدّاخليّة الصّماء الّتي يتنازع بها بقاءه وبقاء فراخه ، منتصراً على محن الطبيعة وآفاتها .

والأخطل يَفيد من هذه الغرائز كُلها ، ليتكنّى بها عمّا يعيه من معانٍ أو

يعانيه من مشاعر . وما زالت الغريزة المعين الأول والأبلغ للشّاعر ، يتوسّل بها في الكناية والاستعارة والتّشبيه لأنّ لها صفة الاطلاق والدّيمومة والمثاليّة، فهي لا تخطيء ، كما أنها تَطغى في صاحبها على ما دونها كأنها تتحقّقُ فيه ذروتها بحيث يَعْجز المرء أن يتمثّل ما هو أكمل منها . ذاك كان أمره مع الفحل والثّور اللّذين تتجلّى فيهما غريزة القتال والغضب والبطش ، وهو أمره ، كذلك ، مع القطا الّتي توسّلها للتدليل على السّرعة حين شبّه بها ناقته وعلى شدّة القائظة حين ذكر هرعها لاستقاء الماء وعلى الخلاء والعفاء ، حين ألم ببيضها وتفريخها وقيامها من دون صاحبته في الدّيار المهجورة .

خامساً : الصقر والقطا : وللأخطل مقطع في وصف القطا وهي فريسة مَهْزومة بين مخالب الصَّقر ، تواجه الموت مُفْتَرَسَةً ، بعد أَن أَوْشَكَتْ أَن تَردّى فيه ظماً . فهو يَقْرِنُ فرسه بالصَّقر ، ممثلاً قوّته وسرعته من خلال مَشْهد افتراس القطا :

رَجَعْتُ به يرمي الشُّخوصَ كأنّهُ   قَطاميُّ طيرٍ أثخنَ الصَّيْدَ خاضِبُ[1]
أحمُّ حديدُ الطَّرْفِ أوحشَ لَيْلَةً   وأعْوَزَهُ أذخارُهُ والمَكاسِبُ[2]
فظَلَّ إلى نِصْفِ النّهارِ يلُفُّهُ   بذي الحرْثِ يوْمٌ ذو قِطارٍ وحاصِبْ[3]

---

١ ــ الشّخوص : ما يشخص أمامه من البقر . القطامي : الصَّقر الحديد البصر . الرّافع رأسه للصَّيد . الخاضب : هنا المخضّب بدم الطّريدة . أثْخن الجرح : عمّقه .
م : يقول إنّه بعد أن ألفاه قادراً على العدو والصّيد ، عاد يضرب به ما يشخص أمامه من بقر متخضّباً بدمها كالصّقر الحادّ البصر الذي أثخن فريسته بالجراح .
٢ ــ أوْحَش لَيْلة : أي جاع .
م : يستكمل وصف الصَّقر ويقول إنّه حديد البصر أمضى ليله جائعاً ، دون أن يدّخر طعاماً ممّا أذكى شهوته للانقضاض والافتراس .
٣ ــ قطار : هنا مطر شديد . الحاصِب : البرد والثّلج .
م : يقول إن ذلك الصَّقر أقام على جوعه حتى منتصف النّهار ، فيما كان يلفّه السّحاب الكثير القطر والبرد والثّلج .

فأصْبَحَ مُرْتَبْياً إلى رأسِ رُجمَةٍ ... كما أشْرَفَ العلياءَ للجَيْشِ راقِبُ[1]
يُقَلِّبُ زَرقاوَيْنِ في مُجْرَهِدَّةٍ ... فلا هوَ مَسْبوقٌ ولا الطرْفُ كاذِبُ[2]
فحُمِّتْ لهُ أُصْلاً وقدْ ساءَ ظَنُّهُ ... مُصيفٌ لها بالجبأتَيْنِ مَشارِبُ[3]
فعارَضَها يَهْوي وصَدَّتْ بوَجْهِها ... كما صَدَّ مِن حسِّ العدوِّ المكالِبُ[4]
فلَمْ أرَ ما يَنْحوهُ ينحو لطائرٍ ... ولا مثلَ تاليها رأى الشَّمْسَ طالبُ[5]
فأهْوى لها ما لا تَرى وتحَرَّدتْ ... وقد فرَّقَتْ ريشَ الذُّنابى المخالِبُ[6]

١ ــ مُرْتبياً : أي مرتبئاً : مشرفاً على مكان عال .

م : يقول إنّه أقام على رجمة من الحجارة العالية يرقُب ما يطالعه به الأفق كأنّه ربيئة الجيش الذي يستطلع له الطّرق .

٢ ــ زَرقاوَين : أي عينَيْن زرقاوَين . مُجْرَهِدَّة : أرض واسعة .

م : يقول إنّه ظلّ يقلب عينَيْه الزرقاوين في الأفق لا يفوته طارىء ولا تخونه أحداقه .

٣ ــ حُمّتْ له : قُدّرت . المُصيف : القطاة المُفْرخة في الصّيف . الجبأتان : موضع .

م : يقول إنّه بعد أن يئس من أن ينال فريسة طالعته قطاة وضعت في آخر الصَّيف وهي تقصد إلى مورد عهدته في موضع الجَبأتين .

٤ ــ المكالب : المخاصم ، المُنازع .

م : إنّه تصدّى للقَطاة المُعْترضة . فصدّت عنه ، كما يصدُّ العدوّ إذ يشعر بحسّ عدوه .

٥ ــ تاليها : مُتابعها .

م : يقول إنّه لم يشهد مثل انقضاضه على تلك الفريسة . وكما أنّه لم تقع الشّمس على تابع يقتفي أثر طريدته كذلك الصّقر . والشمس كناية هنا عن العَيْن .

٦ ــ تَحَرَّدَت : تفردّت .

م : يقول إنّه عاجلها دون أن تبصره ، فمالَتْ عنه ، وقد نَثَر ريش ذنبها بمخالبه .

بلَمْعٍ كطَرْفِ العَينِ لَيْسَتْ تَريثُه ... وركضٍ إذا ما واكلَ الرَّكْضَ ثايبُ[1]
فعارضَ أسرابَ القطا فَوْقَ عاهِنٍ ... فَمُمْتَنِعٌ منهُ وآخَرُ شاجِبُ[2]
إذا غَشْيَ حِسياً مِلْ حساءِ درَتْ لهُ ... صوادِرُ يتلونَ القطا وقوارِبُ[3]
يُفرّقُ خِزّانَ الحمايلِ بالضُّحى ... وقدْ هرَبَتْ ممّا يليهِ الثعالِبُ[4]
فلمّا تناهى مِن قلُوبٍ طَرِيّةٍ ... تذكّرَ وكْراً فهْوَ شَبْعانُ آيِبُ[5]

١ ــ الرَّيْث : الإبطاء . ركْضُها : جرْيها .

م : يقول إنّه انقضّ عليها بمثل لمْح البصر ، دون أن تتباطأ له ليدركَها ، بل انّها جعلت تعدو وتسرع بعد أن تتمَهّل في جريها إثر انقضاضه علَيْها .

٢ ــ عاهن : جبل . شاجِب : هالك .

م : يقول إنّه تصدّى لأسْراب القَطا في ذلك الجبل فأفْلَت منه بعضها وهلك البعض الآخر .

٣ ــ الحسْي : السهل المُسْتَنْقع فيه الماء . درَتْ : ختلَتْ . الصَّوادِر : العائدات عن الماء . القَوارب : الدّانيات إليه .

م : يقول إنّه إذا ما ألَمّ بموضع مستنقع فيه الماء تتداركُه القطا العائدة من الورد أو الدّانية إليه .

٤ ــ الخزان : جمع خزَن : ذكور الأرانب .

م : يقول إنّه ينقضّ على الأرانب في خمائلها ، فتجفل الثّعالب اللاّحقة بها منه وتنفر عنها .

٥ ــ م : يقول إنّه بعد أن افترسها وأكل قلوبَها الطريّة تذكر وكره فوافاه وهو شَبع بعد جوع .

فمنذ البيت الأول تطالعنا خصائص الافتراس في ذلك الصقر وبخاصّة في قوله : « أثخنَ الصَّيْد ، خاضب » إذ صبَغ الصَّورة بنجيع القتل ، بل مثَّله بمثل الخضاب. فالإنفعال هو انفعالُ عُنْف وبَطْش ، بل إنَّه مَشْهد موتٍ يزهو منه القاتل برداء الدَّم . تلك كانَتْ الصِّفةُ العامَّة الَّتي أَلمَّ بها في مطلع هذه الأبيات ، ثم تراه يَنحدر إلى الأحداث التَّفصيلية ، ذاكراً حدَّة طرفه ونفاذه في الأبعاد والمسافات ، حيْث يَسْتَطْلِعُ فريسته . وفضلاً عن ذلك نَمَا إليه الجُوعَ دُونَ أن يُوفَّق في الاحتيال باشباعه ، لم يجد ما يَلْتهمه في وكره ، ولم يَكْسب في نهاره ، ولم يكن قد أدَّخر من قبل . هكذا وقع الأحداث لتُؤَدِّي نَوعاً من الجوع الضَّاري ، دون أن يكون الجوعَ المُطْلقَ الَّذي ينْهَدُ لتَمْثيله في كُلِّ حادثة يعرض لها ، واصفاً أو متكنّياً أو مستعيراً . وهو لا يَتَوقَّف عند ذلك وحسب ، بل يُكْمل أشواط المَعْنى بقوله :

فَظَلَّ إلى نِصْفِ النَّهَار ، يَلُفُّه بذيالحَرْثِ يَوْمٌ ذو قَطَارٍ وَحَاصِبُ

ولقد أَوْلَجَ عنصرين جديديَنْ للغُلوِّ بجوعه أي بشهوةِ الافتراس المتضرِّمة في أحشائه وهذان العُنْصران هما البرد والثَّلج أو لَعَلَّهُما عنصر واحد هو عنصر الصَّقيع الَّذي يُحرِّك الشُّعور بالجوع فضلاً عن الضّعف ويمنعه من السَّعي أو يُعيقه عنه ، على الأقل ، ويدفع به إلى المشقَّة ، فتراه يقف على مرتفع يَسْتشرف به الأراضي الواسعة من دون نظره ، فكأنَّه قائد يستطلع مطالع الأعداء :

فَأَصْبَحَ مُرْتَبِياً إلى رأس رُجْمَةٍ كما أَشْرَفَ العَلْيَاءَ للجَيْش رَاقِبُ
يُقَلِّب زَرْقاوَيْنِ في مُجْرَهِدَّةٍ فلا هو مَسْبُوقٌ ولا الطّرفُ كَاذِبُ

وقد يكونُ هذا الانتظار القانط ، الواجف عُنْصراً جديداً للإيحاء بالشِّدَّة إذ أَقام عليه لَيْله ونهاره ، مترقّباً يكاد أن يتجمَّدَ في لفح البرد والثَّلج . وإذ كاد أنْ ينَالَه اليأسُ من نَيْل فريسة ، تُطَالِعُه القطا :

فَحُمَّتْ له، أُصْلاً ،وقد ساءَ ظَنُّه   مصيفٌ له بالجبأتَيْن مَشَاربُ
فَعَارضها يَهْوي ، وَصَدَّتْ بوجهها   كما صدَّ من حِسٍّ العَدُوِّ المكالِبُ

لقد كانت القطا تَطْلُبُ الماءَ لتحيا ، وكان الصَّقر يَطْلُبُ فريسة لينقذ بها نفسه من الموت ، جوعاً . كلاهما يسعى متنازعاً بقاءه . القطا تمثّل السَّعي المسالم والصَّقْر السَّعْي الحادَّ ، الدَّامي الّذي يتلمَّظ بالدَّماء والاشلاء ، فاذا به يَنْقَضُّ على فريسته ، فتصدُّ عنه ، فيتعقبُها . وقد ركد انفعال الشَّاعر في التَّعبير عن ذلك ، إذ قال :

فَلَمْ أَرَ ما يَنْحوه يَنْحو لطائرٍ   ولا مثلَ تَاليَها رأى الشَّمْسَ طَالِبُ

وأداته للتَّمثيل ، هنا ، هو ذلك الضَّرب من التَّعميم اللَّفظي أو العامي ، إذ جعل ذلك المشهد فريداً لا يُرَى ولم يَرَ مثله . ولا يعدو وصفه لقنصها هذا الإيقاعَ الخافِتَ ، الدَّاني ، إذ يُشير إلى تَنَاثر ريش ذَنَبها وانقضاضه عليها بمثل لمح البصر ، ينجو بعضها ويتردَّى البعض الآخر . ذاك هو دأبه ، يستطلع الفرائس فينقضُّ على الأرانب في الخمائل ولا يقفل عائداً إلى وكره إلا مخضَّباً بالدَّماء ، مكتظّاً بالأشلاء .

سادساً : وصف السُّفن : أَلمَّ الأخْطل بوصف السُّفن في مقدِّمة طويلة لاحدى القصائد الّتي امتدح بها سعيد بن العاص . وكانت سنّة المدح تقتضي وصف الظّاعنات على النّياق في الهوادج ولم نكد نقع على وصف ارتحالهنَّ على السُّفن . وقد يُعْتبر هذا الوصف من الموضوعات الجديدة الطارئة على قصيدة المدح أو أنه وجه من وجوه الابتكار في اسلوب الأخْطل المَدْحيِّ . فهو يقول ان الظّاعنات فارقْنَ الخليط الّذين كانوا يُسَاكنونهم على سُفُنٍ تفترع المَوْج المتعالي كالآجام والغابات . وهنَّ يُشحنَّ عن الملاح الّذي يَرْتدي السِّروال الصّغير لستر عورته ، ويميل الشّاعر من ثمة إلى ذكر الماء الّذي يتدافع على جدار السَّفينة العائمة في خضّم يرهَبُه حتّى الفيل ، وبخاصّة عندما تزدحمُ أَمواجه في المضيق كالابل الّتي يَزْجوها الرَّاعي

ويزجرها . ولشدّة خوف الظّاعنات لم تكد السفينة ترسو حتّى هرعن إلى اليابسة كالسَّبايا المصعَّدات في الجبال .

وهذا الوصف يترجّح بين الواقعيَّة الجزئيَّة في سراويل الملاّحين الصّغيرة وتدافع الماء على جدار السَّفينة، وبين الوجدانيَّة المعبَّر عنها بالدّهشة من تَعَوُّم السفينة على البحر ومن ازدحام الموج كالابل المطرودة ومن خوف الظّاعنات وهرعهن إلى اليابسة ، يُضْفُرُ ذلك كُلّه ويبث فيه الشّجو نغم الوزن والعبارة وهو وزن متسارع سيّال :

ففارَقْنَ الخليطَ على سَفينٍ يَشُقُّ بهِنَّ أمْواجاً صِعابا[١]
ترى الملاّحَ مُحْتَجِزاً بِليفٍ يؤمُّ بهِنَّ آجاماً وغابا[٢]
إذا التُّبّانُ قلّص عَنْ مُشيحٍ صَدفْنَ ، ولمْ يُرِدْن لهُ عِتابا[٣]
يَعِدُّ الماءُ تَحْتَ مُسَخَّراتٍ يَصُكُّ القارَ والخَشَبَ الصِّلابا[٤]

١ ــ الخليط : القوم الذين تخالطهم في السّكن .

م : يخالف الأخطل الوصف المأثور للظّعائن في هذا البيت ، إذ يجعل رحيل الظاعنات على السفن ، فيما دأب سواه من الشعراء على وصف رحيلهن على النياق . ولعله أفاد ذلك من واقع البيئة التي قلما تظهر معالمها الجديدة ، عبر شعره فيما عدا هذه النّبذة النّادرة .

٢ ــ مُحْتجزاً : شادّاً على وسطه .

م : يصف في هذا البيت الملاّح الذي يشدُّ خصره باللّيف ويعبر بهنّ آجاماً وغابات . ولعله كنى بالغابة والأجمة عن الأمواج العاتية أو السّبل المجهولة في الماء الغامر .

٣ ــ التُّبّان : سراويل قصيرة ، تستر عورة الملاّحين والمصارعين . قَلّص : ارتفع . مُشيح : شُجاع .

م : يقول إن أولئك النّسوة يغضضن أنظارهنّ ويملن بها عن الملاّح ، عندما يرتفع عنه سرواله الصغير ، فيبدو طرف من عورته ، كما أنهن لا يزجرنه ولا يعاتبنه في ذلك .

٤ ــ يَعِدُّ : يجري دون انقطاع . المُسَخرات : السّفُن . القار : الزّفت .

م : يميل إلى وصف السفينة إثر المَلاّح ، ويقول إن الماء لا يزال يَجْري من دونها ، فيرتطم بجدارها القويّ ، المَطْلي بالقار .

يَعُمْنَ على كلاكِلهِنَّ فيهِ ولَوْ يُزْجى إليهِ الفيلُ ، هابا[1]
وإمّا اضْطَرَّهُنَّ إلى مَضيقٍ ومَوْجُ الماء يَطّرِدُ الحبابا[2]
تَتابُعَ صِرْمَةِ الوَحديِّ تأوي لأُولاهـا ، إذا الرّاعي أَهابا[3]
دَجَنَّ بحَيْثُ تَنْتَسِغُ المطايا فلا بَقّاً يَخَفْنَ ولا ذُبابا[4]
إذا ألقَوْا مراسِيَهُنَّ ، حَلُّوا دَبيبَ السَّبي ، يبتدرُ النِّقابا[5]
تَفَرَّجَ مائحُ السُّبَحاءِ عَنْها إذا نَزَحَتْ ، وقدْ لذَّ الشّرابا[6]

---

١ – يَعُمْنَ : يَسْبَحْنَ . الكلاكل : جمع كَلْكَل : الصَّدْر . يُزْجى : يُساق .

م : كان الشاعر يعجب من قدرة السفينة على العَوْم في الماء الذي يرهبه الفيل القويُّ ، فيما لو سيق إليه . ونقع في هذا البيت على تصوير غير مباشر لنفس الأخطل أمام الظاهرة . إذ أنّه لو ألف ارتياد البحر وأقام إلى جانبه ، لما تَرَوَّع من طُفُوِّ السّفينة على مَتْنه .

٢ – ٣ – أهاب : هنا زجر .

م : يقول إنّهن إذ تعبر السّفينة بهنّ مضيقاً ، يطرّد فيه الموج ويزدحم ويتَتَابع تتابع جماعة الإبل الّتي تتلاحق ، بعضاً إثر بعض ، فيما يزجوها الرّاعي ويسوقها . وتشبيهه لتَدافع الموج بتَتابع الإبل ، يوحي بعظم تأثّره بواقع الصَّحراء الّتي يكْتَظُّ ذهنه بمشاهدها وأحداثها .

٤ – تَنْتَسغُ : تَتَفَرّق . وفي هذا البيت يستكمل معنى البيت الأسبق . دجنَّ : أقمن .

م : يقول إنَّ السفينة لم تكد ترسو ، حتى هرَعْنَ إلى اليابسة ، حيث تُقيم المطايا وتتفرّق ، دون أن يخشين أذى البقّ والذُّباب ، لشدّة الهلع الذي أصابهن في البحر .

٥ – النّقاب : جمع نقب : الطّريق النّافذ في الجبل .

م : يستكمل المعنى ويقول إن السّفينة لم تكد ترسو ، حتى هرعن إلى اليابسة يسعين فيها ، مهرولات كالسبّايا المصعّدات في الجبال .

٦ – تَفَرَّج : تفرّق وانزاح . مائِح : من ماح أي اغترف الماء بيده ، وهنا ابترد به .

م : يقول إنَّ السُبحاء يتفرّقون من دونها ، إذ تمضي في سبيلها وقد لذَّ لهم ما هم فيه .

لياليَ وافتِ الصُّبْحَ الثُّرَيّا وأحْمَتْ كُلُّ هاجِرَةٍ شِهابا[1]

مخاطبة فاطمة وأم بشر

أفاطِمَ أعْرِضي قَبْلَ المَنايا كفَى بالموْتِ هَجْراً واجتنابا[2]
بَرَقْتِ بعارِضَيكِ ، ولمْ تجودي ولمْ يكُ ذاكَ مِنْ نُعمى ثوابا[3]
كذلكَ أخْلَفَتْنا أمُّ بِشْرٍ على أن قد جَلَتْ غُرّاً ، عِذابا[4]
شَتيتاً يَرْتَوي الظمْآنُ مِنْهُ إذا الجوزاءُ أحجَرَتِ الضِّبابا[5]

١ ــ الثريّا : كوكب إذ قارب الصُّبح اشتدّت الحرارة . الهاجِرَة : اشتداد الحرّ في النهار . الشّهاب : الكوكب المضيء .

م : أي حين اشتدت الحرارة ، منذ الصَّباح الباكر ، فيما جعلت الهاجرة تُصْلي نارها فتتوهّج توهّجاً .

٢ ــ أعْرِضي : مكنيني من وصالك .

م : يخاطب صاحبته ويدعوها إلى مواصلته ، قبل أن يُلمّ بهما الموت ، إذ يكفي به مُفرّقاً للأهل والأحباب ، عندما يترل فيهم .

٣ ــ العارِضان : صَفْحتا الخدّ .

م : يقول إنّها تبَسّمَتْ له ، ولم تُقْبل عليه ، كالبرْق يلتمع ولا يَلْحقه غيث ، ويردف بأنّ ذلك يَنْطوي على جحود للنُّعمى والمودّة اللّتين قدّمهما لها .

٤ ــ ٥ ــ الشّتيت : الثّغر .

م : يقول إن صاحبةً أخرى قَطَعَتَهُ ، فيما خلَبَتْه بما بدا من ثغرها المُفَلّج الذي يروي الظّمآن رضابُه ، حتى في أشد أُويقات احتدام الهاجرة . وقوله : إذا الجَوْزاء أجْحَرَتِ الضّبابا ، يشير إلى شدّة الحرّ التي تَصْحب ظهور الجوزاء ، بحيث تسوق الضِّباب ، وهي من الدّواب الصغيرة ، إلى الاختباء في جُحْرها ، اتقاء لها . وآية الغُلوّ هنا أن رضاب حبيبته يَنْقع الظّمأ الأشد الذي تصليه به الهاجرة ، وهو ضرب من الغلوّ المباشر الفاقد الرؤيا والذي يترع إلى الخارج ولا يُوغل في الدّاخل .

خلاصة حول وصفه : عالج الأخطل الموضوعات المتّصلة بحياته الأولى المتبدّية أو الموضوعات التي اقتبسها من التقليد الشّعري ؛ ومعظم الموضوعات التي تعرّض لها انهكت في عمود الشعر القديم ، إلا أنه عالجها برؤيته الحسيّة ورؤياه الجماليّة والنفسيّة ، أحياناً ، بحيث أخرجها من عقم التقليد وأضفى عليها قليلاً أو كثيراً من أجواء التجديد . كما سنرى في بحثنا لخصائصه الفنّية العامة .

* * *

الفصل السادس

الطبائع الفنية العامة

تمهيد : كان برغسون يرى ان الشّعر ، في نقطة انطلاقه الأولى ، يَصْدر عن الانفعال الخالق ، بحيث أنّه يُحرِّك أطر الحسّ والعقل وينفذ إلى نوع من الحقيقة التي سَقَطَتْ عنها الأعراض والشّوائب والتي فَصُحَتْ وانْجلَتْ لأنها أوْفَتْ إلى لحظة من اليقين النّهائي المُطْلق . ولقد يتردّى الانفعال ويطفر وينزو ، فلا يتّصل بالحقيقة ولا يتلمّسها ، بل يُسفّهها وينقضها ، مثيراً في النّفس حالة من الطّرب والنّزق لا تَقوم ولا تَلْبث لافتقارها للمعاناة الانسانيّة الجدّية . ووظيفة الخلق في ذلك الانفعال لا تقتصر على ما يُحرِّك به النّفس ، بل في قدرته على تلبُّس الأحوال والمظاهر الخارجيّة دون ان تتزيّف طبيعته وتتبدّل ولا يبقى منها إلا بعض الاشارات المجرّدة أو الذّهْنيّة الموات . فالمشكلة ليست في اضطراب النّفس بالانفعال ونزوعها فيه منزع الغلوّ والمثاليّة ، بل في القدرة على تجسيده وتوليده بحيث ينْجلي انجلاءً حدسيّاً ، شعوريّاً ، ويتلبّس المظاهر ويَحِلُّ فيها باعثاً عبرها من روحانيته ، بدلاً من أن يتكثّف ويَنْطفىء فيها بالماديّة والحسيّة . فما نتداوله في أطر الفَهْم وحدوده لا يُفْصِحُ عن الحقيقة الشّعريّة ، بل عن الحقيقة العقليّة ، الثّابتة ، المتجمدة ، الشّاخصة . وكأن جوهر الحقيقة ليس عقلياً يُفهم ، بل هو نفسيٌّ يُحْيا به ويُعانى ويكون في النّفس صنواً لها أو جزءاً منها . فالعقل هو أداةٌ للتّعبير عن العالم الخارجيّ الفاقد الذّاتيّة ، الجاري على نواميس دائمة لا تتعدّل ولا تتبدّل ،

هو أداةٌ لقَيْد الأحجام والأبعاد والأعداد وما يتداول وما يتعامل به ، سامياً إلى النظريّة بالمُطْلق الذّهني الفاقد الانفعال والخيال . وعالم العقل هو ، فضلاً عن ذلك ، عالم متماثل ، متكرِّر ، فوق الافراد وحدود الزّمان والمكان ، بل ان الأفكار تتّضح وتسطع فيه وضوح المظاهر والأشكال والأحجام ، لا يلتبس أمره وان وان تباينت مستويات المعرفة فيه . الا ان الانسان يظل يَشْعر أنّ في نفسه ما هو أنأى من حدود العقل وما هو متباين عن معطياته.ولو رضي الانسان بما أدركه العقل ، وحسب ، من الوجود ، لما كان هناك فنٌ إلى أيِّ نَوْع انتسب ، وانّما كانت حالة واحدة أو أحوال متكررة ، مَمْلولة . فالحقيقة الشعرية هي تلك التي يَنْفذ بها الشّاعر من أطر المادَّة والحسّ والعقل إلى الرُّوح ، فيغدو في جوهره الفعليِّ ، الخالص ، تعبيراً عن ميتافزيقيَّة الانسان والحياة والأشياء ، عن تلك الحالة التي لم تكن قد تَطيَّنت فيها بطينة الحواس ولم تخضع لمقتضيات العقل ولم تتكيَّفْ لتحلَّ في العالم الخارجيِّ المتحجِّر الشّاخص . تلك هي الحقيقة الأولى التي تتلامح لنا عندما يتحرَّك الانفعال ويُفَكك طينة الأشياء أو يُرَقِّق كثافتها،فتشف ويطالعنا من دونها الضوءُ الآخر . إلا أن الانسان يظلُّ ، مع ذلك ، مُرْتَهناً لقيود العالم ولا يَسْطع ذلك ذلك الضّوء الا في لحظات عابرة ، تطول أو تُقصر ويقعي من جديد في اللَّبس والظلمة ، قانعاً ، بل مُتَغرِّراً بما تبذله له الحواسّ والعقل . وليس من المعجب أن يكون كبار الانبياء هم ، في الآن ذاته ، كبار الشُعراء ، ذاك أنهم وفّقوا إلى استطلاع الغيب ومشاهدة الحتميقة في تخومها النّائية .

ولا نتوهَمَنْ بذلك أننا نُعْدم العقل اعداماً من الشّعر ، بل أننا نزيل مظاهره الواعية ، وأفكاره الثابتة ونظرياته المجرِّدة من دون جوهره ، إذ لا يكون الشّاعر عظيماً ، إلا بقدر ما تعظم إنسانيّته وعقله . العقل في الشّعر تغمره الظّلمة وتكسوه الظّلال بدلاً من الأضواء،والهالات المموّهة،بدلاً من الأشكال الثّابتة. إنّه العقل الذّاهل الذي التبست فيه سُبُل الوضوح فلم يَعُدْ يشاهد الحقيقة كأنّها مُنْفصلة عنه ، بل إنها تكون فيه لا قبل له بفهمها فيكتفي من ذلك بمعانقتها والحلول فيهـا والتوحّد معها. وإذا انعدم العقل في التجربة الشّعرية استحالَتْ إلى ترَّهاتٍ من الغُلوِّ

والنّزوة وانعدمت فيه المعرفة وانقطعت صلتُه بالحقيقة . وليس الشعر ، في نهاية مطافه ، سوى العقل الّذي حركّه الانفعال وانصهر به وتولاّه الخيال ليرسم ما طالعه في صور بدلاً من فهمه وتقريره .

وإنما نسوق ذلك ونقدّم به كي نوضح ان غاية الشّعر لا تقتصر على اجهاض الانفعال بصور الغلوّ والمبالغات الحاشدة الّتي تُلْهب في النّفس حماساً أصمّ يفشو ويخبو دون أن تفيد منه النّفس يقينا او معرفة لذاتها أو للوجود. وأيا ما كانت حال التّجربة من الجزئيّة أَو ما دُونها ، فإن الشّاعر الكبير يستطلع لها جذورها الانسانيّة العامة في القيم والمبادىء الّتي لا يزال يتنازع فيها المرء بين الواقع والمثال . وهناك حدود أخرى للتقييم الفنيّ سنوردها ، تباعاً ، عبر دراستنا للطبائع الفنّية العامة .

أولاً : **طبيعة الانفعال الشّعريّ عند الأخطل** : تتعدّد بواعث الانفعال بين الشعراء ، وعند الشّاعر ذاته بين قصيدة وأخرى وتجربة وتجربة ثانية . الا أننا قد نستقرىء عبر هذه التّجارب المتباينة الباعث الأهم والاكثر تردُّداً وتكراراً، وهو عند الأخطل باعث فروسيٌّ فيما يتعرض له من مدائح وأهاج ومفاخر ، وباعث تقليدي وجداني فيما يلمّ به من أوصاف . وللفروسيّة وجهها الإيجابي في النّخوة والبطولة وقرى الضّيف والذّود عن الجار وما إلى ذلك،ووجهها السّلبيّ المُنَاقض للأول فيمن يفقد النّخوة ويقعد أو يجبن عن البطولة ويتخلّى عن الجار أو يستبيحه . ألم الأخطل بالوجه الأوّل في مدائحه ومفاخره وبالوجه الثاني في أهاجيه ، متصرّفاً بالمبادىء العامّة ومتطوّراً إلى الأحوال الخاصّة ، مصوّراً كل تجربة في أقصى حدودها الحسيَّة والذّهنيَّة. وقد اتّخذت تجربته بذلك طابعاً ايجابيّاً،سداه ولُحْمتُه الأخلاق والعادات والتقاليد ، وهي بدورها ، استجابة اجتماعيّة للغرائز والميول والاهواء المتأصّلة في النّفس البشريّة . والأخطل لم يَعْدُ بذلك عصره ، بل إنّه استقاد له ومضى به في سبيله المأثور ، إذ لم تكد تتباين القيم الّتي امتدح أو افتخر بها عن القيم الجاهليّة ، وكذلك النّقائص والعاهات ، فيما عدا المدح بالايمان وتأييد الله،والهجاء بالعصيان والمروق من الدّين . وربّما طغت بعض الخصائص السياسيّة

على شعره في الأحداث والأيام والأشخاص ، إلا أنه كان يخرِّج ذلك كُلَّه تخريجاً فروسيّاً لا لبس ولا غموض فيه .

وبذلك تعود معظم بواعث النّظم والإنفعال في شعر الأخطل إلى الصّراع والتّنازع بين الواقع والمثال في القيم الاخلاقيّة والاجتماعيَّة ، متّخذا في الفخر طابعاً ذاتيّاً وفيما دونه طابعاً غَيْريّاً .

الا أن انفعال الشَّاعر يتَّخذ مستويات مُتَبَاينة من البلاغة ، يتتعتع حيناً ، ويُجْهض حيناً آخر بالغلوِّ ، فيما يتَّصل ، غالباً ، بضمائر المظاهر الشّاخصة أو المتحرِّكة في الطَّبيعة ومعنى الغرائز التي يتّخذ منها الدّلالة المثاليَّة ، المطلقة .

إلا أن آفات اعترت تجربته وجعلتها ترسف في قليل أو كثير من القيود الخارجيَّة الطارئة التي تدنيها إلى حدود النَّثر وطبائعه ، منها :

أولا : السَّرد : ذكرنا أنَّ طبيعة الشِّعر لا تسيغُ السَّرد حيث يَعمد الشّاعر إلى عرض الأحداث في تسميتها أو وصف بعض ما جرى في سجلِّها ، مضفياً عليها بعض الغلو ،أو مؤدِّياً إياها في هالة عامة من الانفعال. ذاك أن السَّرد هو من خصائص النَّثر الناحي منحى الدقّة والايضاح ، يسيطر عليه وعي العقل ومعطيات الواقع . فلو نظرنا في مثل قوله :

كأني غداةَ انصعنَ للبين مُسْلَمٌ   بضربة عُنْق أَو غويٌّ معذَّلُ
صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأسَه   ليحيا وقد ماتت عظام ومَفْصِل
نُهاديه أَحياناً ، وحيناً نجرّه   وما كاد إلا بالحُشاشة يَعْقِل
إذا رفعوا عَظْماً تحامل صدرُه   وآخَرُ مما نال منها مخبَّل
فقلت اصبَحوني لا أَبا لأَبيكمُ   وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
أَناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأَنها   رجالٌ من السودان لم يتسربلوا

وجاءُوا بِبَيْسانيةٍ هي بعدما يُعَلُّ بها الساقي ألذُّ وأسهل
تمرّ بها الأيدي سَنِيحاً وبارِحاً وتوضَع باللّهمَّ حيِّ وتُحمَل
وتوقَفُ أحياناً فيَفصِلُ بيننا غناءٌ مغنٍّ أو شِواءٌ مُرَعْبَل

أنتَ ترى أن الأحداث تجري في هذه الأبيات عبر الأفعال التّالية : يرفع — يحيا — ماتت — نهاديه — نجرُّه — رفعوا — تحامل — شربْتُ — أصبحوني — أناخوا — فجرُّوا — وجاؤوا — تمرُّ — توضع — تُحمل — توقف — يفْصل — لذّت — طابت — راجعني — لبثنا — نُعَلُّ — ننْهل — تدب — اقتلوها .

وآية هذه الأفعال أن دلالتها تقتصر على الحدث ، من دون الأحوال والصّفات الجاثمة ، وان كان الشّاعر قد اعترض ، عبرها ، بقليل أو كثير من النُّعوت . فهل ان في قوله : « نهاديه ، احياناً ، وحيناً نجرُّه » صورة شعريّة أم أحداث واقعيّة أم نوع من الكناية المجزوءة عن الواقع .

لو نظرنا في ذلك كلّه بباب التقييم النهائي للشّعر الصّافي ، لوجدنا أن آثار الخيال تعفّتْ فيه لانعكاس الحركات الخارجيّة عبره ، تدليلاً على أحوال داخليّة ، كما ان الانفعال لم يُبدع لذاته ويَشْتقّ لها تأويل في الرُّؤيا ، مما لا تطالعه الحواس في حدودها المبذولة ، بل إنّه اقتصر على عزل الحادثة من اطارها وابرزها لتَنْتُؤَ وتعمّ دلالتها . وربّما تعاظم أمر السّرديّة وطغى بلفظتي « أحياناً » ، و« حينا » النّازعتين منزع الدقّة في نقل الوقائع . وكنا قد ذكرنا ، كذلك ، أن لفظة « نجرُّه » هي لفظة نثريّة حتى العاميّة والابتذال . وذلك لا يعني ان الشّعر لا يَسْتحضر الواقع أو أنّه لا يقتبس منه ، الا أن الأقتباس يكون ايحائيّاً نافذاً أو ابداعياً يُطْلع ضمائر المظاهر الهاجعة فيها . وذاك يعني أن الشّاعر كان في حالة انفعال ولم يكن في حالة ذهول تسقط بها الأحداث ويبقى وقعها في النّفس .

ولا يعدو ذلك قوله :

إذا رفعوا عضواً تحامل صَدْرُه وآخر ممّا نَالَ مِنْها مُخَبَّلُ

فالمعنى تأدَّى عن حادثة واقعيَّة سرديَّة ناحيةٌ مَنْحى الوصف ، تسوق ما طالع الشَّاعر في حدوده الشَّائعة ، لم يَسْمُ عليه ولم يَنْفذُ فيه ولم يَسْتحضر له صورة إبداعيَّة من لدنه وما شاهدناه تقع عليه أَعيننا في واقعها .

ولنُمْعِنُ بذلك في سياقه اللَّفظيِّ، فنجد أن لفظة « رفع » هي لفظَّة حسيَّة، واعية،نثريَّة،لا انفعال ولا خيال فيها ، بل إنَّها مغرقة في الماديَّة لتقريرها ظاهر التصرُّف أي الحركة أو الحادثة المرتبطة بواقع الانسان من خلال أحواله الخارجيَّة . والشّعر الصافي يأنف منها لعقم دلالتها وثباتها . ثم إن لفظة « عضو » تنمُّ عن الالمام بالجزئيّات والدّقائق السَّرديَّة ، كما أنها لم تحْمل على غَيْر محملها النَّثري المبذول ، بل إنَّها مغرقة في النَّثرية والابتذال لانها وصف حسِّي علمي لما في جسم الإنسان . والأخطل في تنبُّهه لرفع العضو وتحامل الصَّدر كان في حالةٍ من الصَّحو الذّهني المطبق الكامل ، ينظر بل يُحَدِّق في الأشياء ، يُسَمِّيها باسمائها ويقتفي إثر حركاتها وأحداثها ، ممَّا يَدعُ الشّعر ، دون مُبَرِّر أو غاية . ولنَتَمثَّل التّقرير المُتَهادن الوصفيِّ في قوله : « وآخر ممّا نال منها مُخَبَّلُ » . وقد يكون الخَبَل ينطوي على بعض العمق والرُّؤيا كأنّه نما به إلى العضو العيِّ ، المخذول نوعاً من افتقاد الوعي والرّشد . إلا أنّه أجهض ذلك كلّه من النّزعة التّفسيريَّة التي وخطت في تلك الرؤيا شبه الذَّاهلة خطوط الوعي النَّثري . وإنا لنَعْلم أن الشّعر الكبير لا يُفَسِّر ولا يُعَلّل ولا يؤدِّي البينات والحيثيَّات . لذلك نبا قوله : « ممَّا نالَ منها » لان « ممَّا » هي أداة تفسيريَّة أوضحت التخبَّل وسردت قصَّته بباعثها الواقعي ، أي ما نال منها . وهنا يتلتبس السَّرد بالتّفسير لأنَّ الثَّاني هو احدى خصائص الأوَّل ، وهما ، جميعاً ، يَنْزعان منزع الايضاح السَّاقط تحت وطأة العالم الخارجي في حركاته وتنفّساته . وقد لا نُقْسط في الحكم على مثل هذه الأبيات إذا ما عرَّيناها تعريةً كاملة عن الشّعر، وانما السَّويَّة ان نقول إنَّها تترجَّح بين الشِّعر والنَّثر ، لها من الأول الايقاع الانفعالي العام ، ومن الثَّاني التقيُّد بأسلوب السَّرد في ذكر الأحداث وتفسيرها وتعليلها بما يُوافق الفَهْم ومُقْتضياتُه .
وربَّما تخلّل السَّرد بعض الحوار كقوله :

فقلْتُ اصبحوني ، لا أَبا لأبيكم وما وَضَعُوا الأَثْقَالَ إلا ليَفْعَلُوا

وقد كان قوله حادثة جديدة في سياق القصيدة العام ، نزع به من سرد أحوال السَّكران إلى احتسائه للخمرة ، مفسِّراً ذلك بوضعهم للأحمال والأثقال . ولنتمثَّل فعل « وضع » وما ينطوي عليه من تقرير سردي باهت إذ لم يُعْدُ الحركة الواقعيَّة في لفظها شبه العامي المبتذل ، ويَرِدُ فعل « ليَفْعلوا » في ادنى سورة من سور التّعبير العامي إذ أنه الأشدُّ تداولاً والأكثر ابتذالاً . أما اداتا الحصر : ما وإلاّ » فهما أداتان تَعْليليَّتان ، نابيتان ، تعملان على تَوْثيق الصِّلة بين الباعث والنتيجة وايضاح أَحدهما بالآخر . وفضلاً عن ذلك كُلّه تطرأ في الشّطر الثّاني حادثة جديدة ندرك بها ان اولئك القوم لبُّوا طلبه واستجابوا لندائه . وماذا يعني أنَّه طلب الصَّبوح ؟ إنّه يعني ، وحسب ، أنه شغوف بالخمرة ، وقد أدّى هذا المعنى بالتّصرُّف المعَبِّر عن ذاته من خلال الحوار . والمعنى بدائيٌّ سَطْحيٌّ ، في نقطة انطلاقه ، مغرق في الماديَّة حيث يلتبس في الحادثة االعاديَّة التي تقرن به وتكنّى عنه في العرف الدّانيّ . فالشّاعر إذ يتقيَّد بالحادثة يَقْتَصر على ما يَطْفو ويَغْشى اللُّجة ، وهي لا تتبدَّل ولا تتعدَّل في وجودها الشّعري عن وجودها الواقعي .

وفيما دون ذلك من أبيات تسطع النَّزعة السَّرديَّة وتَنبو ، متضاعفة بالنّزعة التفصيلية الملازمة للسَّرد . فهو يقول :

أَناخُوا فجرُّوا شاصياتٍ كأنها رجال من السُّودان لم يَتَسَرْبَلُوا

وفعل « أَناخُوا » و « جرُّوا » هما فعلان سرديَّان ، واقعيان ، يتعاقبان في العبارة تعاقب الحدثين اللّذين يشيران إليهما . ذاك أنّه لا قبل لهم بجرِّ الشاصيات قبل إناخة الجمال . والشّاعر إذ اقتفى أثر الواقع بدقائقه أَلمَّ بما لا جدوى من الالمام به ، وقد وقع تحت وطأة الأحداث التي تُصَوِّر لذاتها ولوقوعها فعلاً في حقيقة الواقع . فأولئك القوم أناخوا المطايا وجرّوا الشّاصيات ، وتمرَّسوا بذلك

كدأبهم في كُلّ حين . إلا أن الاناخة والجرّ لا شأن فنّياً لهما ، إذ لا اتّصال لهما بالانفعال الجاري في سياق القصيدة ، وهو انفعال الغلوّ بإدمانها والاقبال عليها . وربّما أراد الشّاعر أن يُظهر بذلك شدّة الحافهُ وعجزه عن الانتظار ، إلا أنّه لم يُوَفَّقُ في الصّقل والانتخاب إذ بَدَت التجربة ساقطة ، مغرقة في السّطحيّة والبدائيّة . وإذا كانت النّزعة السّرديّة قد خدمت الانفعـــال إذ وقّعَتْ بعض الأحداث لتُظهر سورة الغلوّ ، فان تنويهه بهذا الأمر يؤكد أنه خُلبَ بمجريات الواقع ، فنقلٍ منه ما حدث فيه بجزئيّاته العارضة . وفضلاً عن ذلك كُلّه فان فعلي الاناخة والجرّ منعدما الخيال والانفعال بطبيعة لفظهما إذ أوجز بهما الأحداث بلفظها العاري ، المباشر ، النّثري .

وكما ورد ذكره للجرّ إثر الاناخة ، استجابة للضرورة السّرديّة واقتفاءً على أثَر الأحداث ، نراه يُشير إلى قدومهم بها كحادثة ثالثة أَعقَبَتْ الحادثتين السّابقتين :

وجاءُوا ببيسانيَّة هي بعدمـــا يُعَلُّ بها السّاقي ألَذُّ وأَسْهَلُ

وفعل المجيء اقتصر على الحادثة المباشرة في إطارها الفعليّ الّذي يأنف منه الشّعر إذ يَسْمو عن الأعراض ويُضْمرها إلى الحالة النّفسيّة الّتي تستحضرها في عالم نفسي آخر . وإذا ما تحرّينا عن لفظة أخرى أدنى منها للتّدليل على معناها ، فإنّنا نعجز إذ أنها من البساطة والبداهة بحيث تَدنو إلى ما يُشبه العاميّة . وهذه النّزعة السّرديّة المباشرة تتعدّى ما يتداوله من أحداث العالم الخارجيّ إلى الأحوال النّفسيّة الّتي يُعَانيها من احتسائه للخمرة . فهل ثمّة أدنى من قوله ان الخمرة تبدو ألذّ وأسهل بعد أن يتناولها محتسيها ؟ لقد تناول الحقائق المغرقة في البداهة والّتي لا تحفل بها التجربة المبدعة ، ذاك أنه لم يكن يُنْشيءُ واقعاً فنّياً جديداً من انقاض الواقع الفعلي ، بل إنّه يقتصر على نقل حقيقة ما يُبْصره وما يعانيه بما ينطوي عليه من ابتذال وعقم . تلك هي آفة السّرد في الشّعر ، تُولجُ فيه ما لا شأن له به وتدع الحادثة الفعليّة تُسيطر على الأحداث الدّاخليّة ، فيغدو الشّعر تقليداً ومحاكاة للأشياء بدلاً من

أن يكون جلاءً واستظهاراً لها . والسويّة في ذلك ان يحتضن الشاعر الواقع احتضاناً نفسيّاً وان يعيد خَلْقه في تُخوم الحلم والرُّؤيا حيث تسقط منه الاعراض ويصفو جوهره وتبين من خلاله الأبعاد الرُّوحيَّة شبه الخالصة والتي لا تتقمّص بالواقع ذاته ، بل بمظاهر حسيَّة تستحضر روحه . وبقدر ما تكون العلاقة بين تلك المظاهر ورمز الواقع نائيّة ، غير مبذولة في حدود التشابه والمقارنة ، بل بتلمُّس للصّدى النّائي ، العميق، المكتوم، بقدر ذلك تعظم قيمتها الفنّية . فالسّرد يُعْدم الرُّؤيا ، ويجمّد الروح ويطلي المظاهر بطلاء الحسّ والواقع ، فيَعْبر الشّاعر على سطحها ، فاهماً منها ما يَفْهم ،ومبصراً فيها ما يُبْصر فيما يكون الشّعر محاولة لاقتناص ما لا يُفْهم وما لا يُبْصر الا بالحدس وبتلك الحدقــة المنطفئــة في الخارجِ والمتوهّجة في الدّاخل . إنّه الشّعر هكذا ، يَعِفُّ ويأنَفُ من كُل ما هو واقعيّ ، حسّي ، وما يجري في حركة ويَحْدُث بحَدَث ويظلُّ يُطارد تلك الأطياف الهاربة والظلال المموّهة التي تُطالعه عندما يستسلم العقل ، كما في الحلم ، إلى الأخيلة والصُّور .

والحقيقة الشّعريَّة ليست في الواقع ، بل هي في الحلم ، أو هي في تلك اللّحظة التي تُسفر بها الأشياء وتخلع قناعها ، فيشاهدها الشّاعر في أطر تخالف ما تشاهد به في العالم الأليف ، المنبوذ . ولعلّ ما أورده الشّاعر ، جميعاً ، هنا ، وقف به عند حدود الحماس واللهفة والإلحاف ولم يُوَفّق في اكتشاف جذوره الأولى الغائرة في الوجدان . ذاك أن الأخطل كان فاقد الرُّوحانيَّة أو كأنه كان يَنفعل انفعالاً فيزيولوجياً ، بيولوجيّاً بما جهّزته به الطبيعة من غرائز وحواس ، ولا ينطلق من انفعاله الفيزيولوجي إلى اكتشاف ما يُقابله في عالم الحقيقة الشّعرية الخالصة ، المتحرِّرة من طينه الحسّ وخلاياه والمتضوّءة كالضّوء الشّاحب في أَصقاع الغيب النّفسيّ .

وذاك يسوقنا إلى القول بل التّأكيد على ان الشّاعر مسؤول ، في نهاية المطاف ، عن الرَّصيد الأنسانيّ لشعره ، ينبغي له أن يؤدّي لنا معرفة هي وراء المعرفة الّتي نتداولها أو أنّها هي تلك المعرفة عندما تُعاد إلى حقيقتها الأولى وقبل أن تَلْتبس في المظاهر والأحداث الّتي تتداول عليها وتَصْحب بها ، في تلك التُخوم حيث يكتشف علائق بين المعاني والمظاهر هي متباينة كل تبايُن عن العلائق العلميّة . فرفع الرّاس والجرّ والتّحامل والوضــع والاناخة والمجيء هــذه كلّها من الأحداث الفاشلة

السطحيَّة والخطوط التي يهتدي بها الوعي النَّثري وإذا ما اكتفى الشّاعر بها ، إنّما يقف من ذلك عند حواجز العقل والحسّ ولا يجوز إلى عالم الشّعر . فأية ذروة أو رؤيا شعريّة تطالعنا في قوله :

وتُوقَفُ ، أحياناً ، فيَفْصِلُ بَيْنَنَا غناءُ مُغَنٍّ أو شواءُ مُرَعْبَلُ

أو لسنا نقع في فعل : « توقف » على تلك السّرديَّة النّثرية ، الواقعيّة ؟ ذاك ان هذا الفعل هو الفعل العامي المباشر لتأدية هذا المعنى بين النّاس في حديثهم الشَّائع . ولا يعدو ذلك فعل « ويَفْصل » لما ينطوي عليه من واقعيَّة ساقطة . هكذا يتردّى الشَّاعر تحت وطأة الطفيليَّات ، بحيث يفْقُدُ الفنُّ مبرّره .

وإذا عدنا إلى ما تمثَّلنا به من نماذج في مدائحه وأهاجيه ومفاخره وأوصافه لطالعتنا النَّزعة السَّرديَّة في كثير منها ، وبخاصة في المقدِّمات التي يُمَهِّد بها لمدائحه حيث يَسْرد قصة السَّفر والسُّرى والآل وهزال المطايا وتقلقل الأعنَّة من دونها وتنقُّب أخفافها ، وما إلى ذلك ممَّا تكاد لا تخلو منه أيَّة قصيدة من قصائده . الا ان السَّرد الَّذي يطالعنا في مثل تلك المقدِّمات قد لا يُرْتهن إلى الاحداث ولا ينْصرفُ إليها كغاية بذاتها ، بل يتولاَّها في سورة إنفعاليَّة شديدة الغُلوّ ، تَقْتَبس من الواقع الحادثة الذُّرويَّة ، النَّاتئة ، الطَّاغية على ما دونها ، والمستقلَّة في نوع من الدّلالة البالغة حدَّ الرَّمز ، بالرغم من اقتصارها على الحدود الواقعيَّة ، فهو يتلو قصَّة المطيَّة المسافرة ويستحضر لها من الأحداث ما يَدَعنا نُقيم في أجوائها ونعاني معاناتها .

وإذا عرَّجنا على مفاخره تظهر لنا النَّزعة السَّرديَّة في تعداده للأيام وذكره لاسماء القبائل والأشخاص والتَّعقيب على كل منها بما يَصْحبه أو يَعْقبه من أحداث تتباين قيمتها الفنّية من تبايُن اللحظة الابداعيَّة التي يعبر بها الشّاعر . وفضيلة السَّرد – إذا كان للسَّرد من فضيلة في الشّعر – هي فضيلة التَّأليب والحشد والإكتظاظ ممَّا يُروِّع روع القارىء أو السَّامع ويُخلبه ويُوهمه باليقين الَّذي يَبْتغيه ، دون أن يَنْفذ الشّاعر في ذلك كُلّه إلى حقائق أنأى من الحقيقة الواقعيَّة

المتحرّكة بالانفعال . ولنَقُل في ذلك أنّ التعداد السّردي قد يَحشُد للانفعال أجواءه ويؤدّي له بيِّناته الفعليَّة ، إلا أنَّه يَنبو عن السَّويَّة الشِّعريَّة من شدَّة وثوقه بالأحداث الخارجيّة المرتبطة بالذّاكرة الواعية . والشّاعر المبدع يعتاض عن التّعداد بالصُّورة النّافذة التي تبلغ مَبْلغه وتتخطّاه وتوجزه ، دون أن تنساق انسياقه إلى التّفصيل والتّدليل والتّعليل .

أما في أوصافه فإنّ السّرد يتّخذ شكل القصّة السّويّة في حدودها المأثورة بين مقدِّمة وعقدة وحلٍّ ، تَنْمو عبر الأزمة وتنداحُ وتتفشّى بالغةً ذروتها ، متفكّكةً أو منحلّةً إلى نهايتها . واكثر ما يَبْدو ويَتَحقّقُ ذلك في وصفه للثّور والحمار الوحشيِّين ، مُتّخذاً من الأوّل سبيلاً إلى التّدْليل على تجارب ومصائر إنسانيّة معيّنة وبخاصّة مَوْقف الحيِّ من عناصر الطّبيعة المتمثّلة في المطر والرِّيح والصّقيع والسَّيل ومن المصائب المرتبطة بقضاء من القدر أو من طبائع الأحياء والمتمثلة في الصيّاد وكلابه . أما الثاني فيُفصح من خلاله عن تجربة الغيرة المتآكلة ، فضلاً عمّا تقدَّم بشأن الثّور ، يوقِّع لذلك الأحداث في سياقها السّرديِّ الّذي ألممنا به قبلاً .

إلا أن السّرد الوصفيَّ الّذي يطالعنا في مثل تلك الموضوعات ينطوي على ما يُشبه الرَّمز الكبير المتكامل في حدود تلك الأحْداث . وقد تكون له قيمة شعريّة خاصّة لتعبيره عن معاناة مصيريّة تراود الفاجعة ، دون أن تَنْدحر وتستسلم إليها لنزوع الشّاعر فيه منزعَ التّعبير عن البطولة التي لا تُقْهر مهما تألّبَت عليها المحن من الطبيعة والأحياء . غير أن السّرد ، أيّاً كانَ مُبَرِّره ، يظلُّ غير مستساغٍ في الشّعر لسقوط الشّاعر فيه تحت وطأة المعطيات الخارجيّة .

وقد يكون من الخيْر أن نُظهر بنموذج تَطْبيقيٍّ النّزعة السّرديّة في وصفه للفحل ونبيِّن الخصائص النّثرية التي تَصحبها أو تَطْغى عليها . فهويقول ، بعد أن يقرنَ ناقته بالفحل :

ثمَّ تربَّع إبليّاً ، وَقَدْ حَمِيَتْ منها الدّكادِكُ والأكْمُ القَرَادِيد
فظلَّ مرتبيا والأخذ قد حَمِيَتْ وَظَنَّ أن سبيل الأخْذ مثمُودُ

فحرف العطف « ثم » ينمُّ عن التَّدارُج والتّلاحق وهما من طبائع السَّرد ، ويدلُّ على أنّه يقتفي أثر الأحداث ويعاقب بينها ، مُرتّهناً لها ، وقلّما تَتَمثَّل التَّجربة الشّعريّة وتَسيغُ هذه الأداة اللّاحقة بالنّثر في طبيعة دلالتها . وتجري مجراها الواو الحاليّة وقد التحقيق ، إذ تنطويان على معنى التَّخصيص والتَّدقيق والتّنبُّه إلى التَّفاصيل أو رصد الأحوال المصاحبة للحدث ذاته في إطاره الزَّمنيّ والمكانيّ . وذكره لحميان الدّكادك لا يَنبو عن السِّياق الأنفعاليّ لأنّه يعظّم من شدَّة احتماله للقَيْظُ . إلا أن آفته في أنّه يقتفي على خطٍّ واقعيّ . وترد الفاء ، إثرئذ ، في البَيْتِ الثَّاني لتدلَّ على الاستئناف والتَّدرُّج ، فضلاً عن الواو الحاليّة تكرَّر للتَّخصيص . وتراه يكمل السَّرد بالقَوْل :

ثمَّ استمرَّ يُجاريهنَّ ، لا ضَرَعٌ مَهْرٌ ولا ثَلِبٌ أَفْناه تَعْويدُ
إذا انْصَمَى حنقاً حَاذَرْنَ شدَّته فَهُنَّ من خوفه شتّى قراديدُ

وبعد أن تابع السَّرد بثمَّ ، استْدرك باداة الشّرط « إذا » وهي أداة تحديد وضبط للشروط الَّتي يَقْتَضيها الحَدَث .

وربّما توسَّل بلمَّا الحينيَّة في مثل قَوْله :

فَلَمَّا عَلَوْنَ الأرض شرقيَّ مَعْتق ضَرَحن الحصى الحِمصيَّ كُلَّ مَكَانِ
(٧٢ — ٣٦)

ولما ذرعن الارض تسْعِينَ غَلْوةً تَمَطَّرتِ الدَّهماء بالصَّلتانِ
(٧٣ — ٣٧)

كأنهما لمّا استحمَّا وأشرفا سليبان من ثوبيهما حردانِ
(٧٣ — ٣٨)

ولمَّا نأى الغاياتُ حَدّاً كلاهما فلا ورد إلا دون ما يردانِ

(٧٣ — ٣٨)

لما أتوهـا بمصباح ومبزلهـم سارَتْ إليهم سؤُور الأبْجَلِ الضاري

(٨٢ ٤٠)

لما لحقْنَ به أنحى بمغولـه يملا فرائصه من طعنه العَلَقُ

(١٤٢ — ٢٧)

فلمَّا تلَوَّى في جحافله السَّفا وأوْجَعَهُ مركوزه وذوابِلُهُ

(٢١٩ — ١٤)

وانّا لم نُشر إلى هذه الأداة في مقام السَّرد إلاّ لما تَنْطوي عليه من دلالة الزَّمنيَّة التي تُضْمر أو تُظْهر قليلاً أو كثيراً من الشَّرطيَّة . فهي من الظروف التي تعلَّق بخبرها إذا جاز التّعبير أي أنها تقتضيه وتردّ اليه . ففي البيت الأوَّل قيد ضروحهن للحصى باعتلائهن لموضع شرقي مَعْتق ، وقد أدَّت للشّاعر تعيين مكان الحادثة وزمانها ، وان كان هذا الأخير مُبْهما . ومثل ذلك التمطُّر ، فانه لم يقع إلا بعد أن ذرعن الأرض تسعين غلوة ، واستلاب ثوبيهما إذ لم يتّراء كذلك إلا بعد ان استحمّا بعرقهما . ولا تعدو الأبيات الأخرى هذا الشّرط أو ذاك التّعيين ، في شكله الواقعي النَّثري . الا ان الدّارس يُدرك ان الزَّمن الخارجي المقيّد بحدوده يَسْقطُ في التجربة الشعرية المبدعة إذ أنها تنبو عن الأحداث في واقعها وتضمحل ، من دونها ، في حلوليَّة التأمل . وهذه الأداة « لما » هي أداةُ وعي تقريري سردي لأنّ الشاعر ينصرف فيها إلى ضبط الأحداث وتوقيعها في موقعها ، كأنه يجاريها ويقتفي على أثرها ويتردّى تحْتَ وطأتها . ولهذه الأداة السَّرديَّة وظيفة أُخرى في السياق القصصي ، هي وظيفة التّعقيب والمدارجة بين الأحداث تعيِّن ما يتقدَّم ويسبق وما يلحق ويلي منها .

وفي مثل ذلك نقول ان التجربة الشّعريّة لا تخلو من عنصر الزّمن ، بل ان الزّمن ليحتضنها في رحمه ، الا أنه ليس الزّمن الخارجيّ المقيّد بالإحداث بل الزّمن الدّاخلي المتمثّل في نوع من النموّ والنّضج ، وهو لا يتناول الأحداث بل الأحوال النّفسيّة التي تتوالد بعضا من بعض في إطار الأزمة النّفسيّة . لا شك أن تلك الأحوال تتولّد عن بواعث هي في معظمها خارجيّة ، كأن نشاهد الشّاعر في مطلع القصيدة وكأنّه يتردّى تحت وطأة الحيرة أو اليأس ، ثم تنمو تجربته ، بتأثير الطوارىء وردّة النّفس عليها ومن خلال اكتشافه لمعان ورموز جديدة للحقيقة ، فنلفيها وقد انبعث فيها الأمل من قلب اليأس والحركة من قلب الجمود والايمان من خلال الالحاد ، أو انها قد تجري في سياق سلبيّ معاكس ، الا أنها لا تقيم على بعد واحد . ذاك هو معنى الزّمن الفنّي في الشّعر ، وهو يتولّد من الطوارىء،لكنّه لا يظهرها ولا يقف عندها بل يتولّى صداها ونتيجتها في النّفس كحركة يتحرّك بها الانفعال . وقد لا نغالي ، إثر ذلك ، بالقول إنّ تردّد الشّاعر على هذه الأداة ، وبخاصة في الفلذات والمقطوعات القصصيّة ينمّ عن نزوعه إلى الخارج واستحضاره الأحداث التي لا تخلو من الدّلالة على الغلوّ أو الايحاء به ، مقيمة حدوداً بين الشّاعر ومشاهدته للأشياء في الرّؤيا المتخلّصة من شوائبها وطفيلياتها .

ولقد يُسْرِفُ الشّاعر ، كذلك ، في التوسّل بالعدد في سياق السّرد . والعدد هو أداةٌ من أداوات الإيضاح الخارجيّ ، بل إنّه سبيل إلى التّعيين والتّحديد بما لا لبس ولا تردّد فيه . وهو اكثر نبوّاً من « لما » الحينيّة لأنّه أكثر تقيّداً بالحدود والقيود ، إذ أن غايته تقتصر على الدقّة في أقصى مداها . فهو رمز للحدّ النّثري ؛ وكنّا قد قدّمنا ان التجربة المبدعة تأنف من التّعبير عن عالم المقاييس والأحجام والأرقام ، والشّعر الكبير لا يأبه له ولا يحفل به ويجد فيه وسيلة للغلوّ الرقمي اللّفظي الفاقد الابداع .

من ذلك قوله :

تَصَاحَبُ ضيفي قَفْرَةٍ يعرفانها: غرابٌ وذئب دائم العَسَلاَنِ
(٦٨ – ١١)

أتاني وأهلي بالأزاغب أنّه تتابع من آل الصّريح ثماني
٧٢ — ٣٤

ولما ذرعن الأرض تسعين غلوة تمطّرت الدّهماء بالصّلتانِ
٧٥ — ٣٥

كُمَّتْ ثلاثة أحْوالٍ بطينتها حتّى إذا صَرَّحَتْ من بعد تَهْدارِ
٨٠ — ٣١

وان لها يومَيْن : يَوْمَ إقامةٍ ويوماً تشكّى القضّ من حَذَرِ الدَّرْب
١٨٧ — ٢٨

خَمْساً وعشرين ثمّ استَذْرَعَتْ زغباً كأنهنّ بأعلى لَعْلَعٍ رِجَعُ
٢٠٧ — ٢٤

ثلاث ليالٍ ، ثمّ صبّحْنَ رَيَّةً وخُضراً من الوادي رواءً أسَافِلُهْ

والعدد في البَيْت الأوّل أفاد التّفصيل ، دُونَ أن يَنْبو نُبُواً شديداً عن سياق التّجْربة ، فيما اتّصَفَ البَيْت الثّاني بالتّقرير أو بقليل من الغلوّ ، إظهاراً لتفوّق فرس الممدح إذ انها لم تَفُزْ على فرس أو فرسين بل على ثمانية . أما البيت الثّالث فنقع فيه على ذلك النّوع من العدد القياسي ، السّردي ، المنبوذ في الشّعر الّذي لا يَسيغُ الأقيسة قط . أما قوله بانها كُمّت ثلاثة أعوام فهو سبيل للغُلوّ في قدمها أفصح عنه في معادلته النّثريّة ، إذ قاس القدم بالزّمن أي بالأعوام الّتي قضتها الخمرة في الدّن . ولعلّ الشّاعر لم يُوَفّق حتّى إلى الغُلوّ إذا ما وُزِنَ بالمعاني المتداولة في قدم الخمرة . وفي البيت التّالي يتأدّى عن العدد معنى الاطلاق والتعميم إذ قصر حياة الخيل على يومي الرّاحة والقتال ، والإطلاق هو وَجْهٌ من وُجُوه الغُلوّ الّذي أدرك أقصى غايته ، دون أن يتّصل بالحقيقة أو بالمعاناة الانسانيّة العاقلة . فهو افتراضيٌّ ؛ أما البيت الأخير فقد تألفت فيه غايتا التحديد والتعيين ، مظهرة نزوع

الشّاعر إلى استحضار مقاييس العالم الخارجيّ وحدوده . وهكذا ، فان الشّاعر يفيد من السَّرد العددي إما التحديد والتّعيين ، واما الغلوّ والاطلاق والتّعميم في وسائل لا تتمثَّلها ولا تسيغها التجربة الشعريّة .

ولقد انساق الشّاعر بنزعته السَّرديَّة إلى بعض أَدوات التّفصيل مثل الفاظ : « تارة » ، و « حيناً، و« طوراً » وما إلى ذلك ، وهي وسائل للايضاح والتّدقيق والتفصيل ممّا لا يحفل به الشّعر التّأمّلي ، الرّائي . من ذلك قوْله :

يُبَاعده منه الجَنَاحُ ، وتارةً يُرَاوح بين الخطو والحجلان
تصدَّع ، أحياناً ، وحيناً يُصكّها كما صَكّ دَلْوَ الماتح الرَّحوانِ
يصيف عَنهُنّ ، أحياناً ، بمنخره فباللّبان وباللّيتَيْن تَكْديدُ
تموت طوراً ، وتحيا في أسرّتها كما تَقَلّبُ في الرّبط المراويد
فهنّ من بين متروك به رمق صرعى ، وآخر لم يترك به رَمَقُ
في غمرة من سحاب الآل ترفعهم يطغون فيها ، قليلاً ، ثمّ تنخرقُ

فهذه الأدوات : تارة ، طوراً ، حيناً ، بين ، قليلاً ، ترد كإحدى مُستلزمات الاسلوب السَّردي الذي يعنى ويُؤخذ بالدّقائق والتّفاصيل .

وربّما توسّل إذا بمعناها الشَّرطيِّ الزّمنيِّ المأثور ، وهي تُوثقُ علاقة الأحداث بعضاً ببعض ، وتضفي عليها قليلاً أو كثيراً من خصائص التّدرُّج :

إذا قلْتُ قد حَازيْنَ أو حانَ نائلٌ تقاذفْنَ للرّائي الّذي كان أبْعدا
٨٦ — ٦

إذا شئت أن تَلْهو ببعض حديثها رَفَعْنَ وأنزَلْنَ القَطينَ المولّدا
٨٦ — ٧

إذا كاد قلبي يَسْتبلُّ انبرى له   بِهِنَّ تَكَالِيفُ الصبَّا ، فتردَّدا
٨٧ — ١٢

من اللّواتي إذا لانَتْ عريكتها   كان لها بعده آلٌ ومجلودُ
٩٨ — ٢٣

إذا أرادَ سوى أطهارها امتَنَعَتْ   منه سراعيف امثال القنا قُودُ
١٠٠ — ٣٦

إذا اليعافيرُ في أطلالها لَجَأَتْ   لم تَسْتطع شأوها المقصومةُ الحُرُدُ
١١٥ — ٤

إذا مُعْجَلٌ غادرنه عند منزل   أُتيحَ لجوَّاب الفلاةِ كَسُوبِ
١٣٢ — ٨

إذا قلت نالَتْهُ العوالي ، تقاذَفَتْ   به سَوْحَقُ الرِّجلين ، صايبة الصَّدْرِ
١٥٣ — ١٦

إذا حَمَلَتْ ماء الصّرائم قلَّصَتْ   روايا لأطفال بمعميَّة زُغْبِ
١٨٢ — ٦

إذا صخب الهادي عليهنَّ برّزت   بعيدة ما بين المشافر والعَجْبِ
١٨٣ — ٨

إذا طلع العيُّوق والنّجم أولجَتْ   سوالفها بين السِّماكين والقَلْبِ
١٨٤ — ١٣

إذا كَلّفوهنَّ التّنائيَ لم يزَلْ   غرابٌ على عوجاء منهنَّ أو شعبِ
١٨٦ — ٢٤

إذا ابتزّها من بطن غيبٍ تكشّفَتْ   برَوْعَاتِه جحشانه وحلائلُهْ

٢٢١ — ٢١

وقد أجتزأنا هذه الأبيات اجتزاءً عمًّا دونها ، إذ تكاد لا تخلو صفحة من هذه الأداة الملازمة لطبيعة السَّرد والتي تُعيّن شروط الحدث وتلاحقه أو ترابطه . وهي توثق الصلة بين حدثين في الايجاب والسَّلب ، تقرّر أحدهما بالنّسبة إلى الآخر ، يوقعهما بعضاً ببعض، وذاك كلّه ينزع به منزعاً خارجياً . واذا نظرنا فيما أدَّت هذه الاداة للشّاعر نجد أنه أفاد في البيت الأولى التّقرير السَّردي مع بعض الغلوّ ، وفيما دونه الحينيَّة والمبالغة والتَّفصيل والافتراض .

ومن الأدوات الجارية هذا المجرى « حتّى » الزَّمنية ، وهي صنو لإذا ولمَّا ، مع تدليل خاص على الانتهاء وادراك أقصى الغاية :

كأنها قاربٌ أقرى حلائله   ذات السَّلاسل حتّى أيْبَسَ العودُ

٩٨ — ٢٦

حتّى إذا علم الاله نكالـــه   وتصاغروا للجري أيَّ صغار

١١٠ — ٢٩

في ذُبّل كقداح النّبل يَعْذمها   حتّى تُنُوسِيَتِ الأضغانُ واللّدَدُ

١١٦ — ١٣

رعى عُنازة حتى صرَّ جندُبُها   وذَعْذَعَ الماءَ يومُ صاخدٌ ، يَعِدُ

١١٦ — ١٢

حتّى إذا كان ضوء الصبح يفضحه   وكاد عنه سواد اللّيْل يَنْطلق

١٤١ — ٢٣

حتّى إذا هنّ وركّنَ القضيم ، وقد أشرفْنَ أو قلْنَ هذا الخندق الحفَرُ

١٦٦ ــ ١٥

حتَّى هبطن من الوادي لغيضته أرضاً تحلّ بها شيبان أو غُبَرُ

١٦٦ ــ ١٥

رعى العود ماء الرَّوض حتّى تحسَّرَتْ عقيقته وانضمَّ منه ثمائله

٢١٩ ــ ١٣

فطال عليه الشَّدُّ حتى كأنمـا برى بسواد القلب قرناً يصاوله

٢٢٠ ــ ١٩

وقد يطولُ بنا أمرُ التعداد ، إذا ما عزمنا على ايراد الأبيات التي تتخلّلها « حتّى ». وانما نقتصر على الأشارة الى أنها ترتبط بالأحداث وبالدلالة على نهاية أحدها وتولّد آخر من دونه . فهي أداة سرديّة مباشرة .

وهكذا قام السّرد في شعر الأخطل على الأحداث المتلازمة فيما بينها بالسِّياق القَصَصيّ بين عقدة ونهاية ، وفي الاسلوب الملازم لأدوات الايضاح والتحديد والتعيين والتفصيل والحينيّة والنهائيّة ، وما شاكل مما هو مأثور في طبائع السرد . الا أن القيمة الفنيّة لا تعدم في مثل تلك المقطوعات اذ كان يستبطن الشاعر عبرها بعض الدلالات المصيريّة الفاجعة .

ثانياً : التقرير : يقوم التقرير على إيراد الأفكار ، فيما يقوم السّرد على إيراد الأحداث . هو تعبير عمّا يُفهم ويتداول في حدود الايضاح والوعي ، وبه يركُدُ الإنفعال وتخبو جذوةُ الخيال . وربما طغى على القصائد ذات المنحى السياسي حيث يُكثر الشاعر من إيراد البيِّنات والحجج وعرض الآراء الخاصة والعامة ، ودحض آراء الآخرين بما يُناقضها . من ذلك قوله :

وَلَقَدْ أكُونُ لهُنَّ صاحبَ لذَّةٍ حتى تغيّر حالُهُنَّ وَحَالي
فتَنَكّرَتْ لمّا عَلَتْني كَبْرَةٌ عند المشيب ، وآذَنَتْ بزيالِ
لمّا رَأت بَدَلَ الشّباب بَكَتْ له والشّيبُ أرْذَلُ هذه الأبدالِ

أو قوله :

لم يَبْقَ مِمّنْ يتّقي اللهَ ، خالياً ويُطْعِمُ ، إلا خالدُ بن أسيدِ
سوى مَعْشر لا يَبْلُغُ المدحُ فَضلَهم مناعش للمولى ، مطاعم جُودِ

فأنت لو نظرت الى هذه الأبيات لوجدت أنها لا تعدو الأفكار الذهنيّة المرتبطة بقليل أو كثير من الملامح الحسيّة ، يَعرضها كما يفهمها ، وقد تَعَفَّت فيها ملامح الخيال ، فلم تقع فيها على الصُّورة ، كما أنَّ الإنفعال لم يَتَحرَّ لذاته عن تشابيه أو استعارات ، ولم يَكَدْ يتكنّى بكناية ، بل إنّه ساق الأفكار شبه عارية ومباشرة . وكما كانت الأفعال الدّالة على حدثٍ وحركة تغلب على الأبيات السرديّة ، فإن الأفعال الدّالة على المعاني والأحوال تغلب على الأبيات التقريريّة كأفعال تغيّر وتنكرَّتْ وآذنت وبكت . أما البيتان الآخران ، فانهما أدنى الى الحديث العاديّ ، بالرغم من نزعة الاطلاق الطاغية عليهما. ذاك ان التقرير يصدر عن العقل الفاهم والمُفهم ، يسوق أفكاره في حدودها المأثورة .

ونقع على كثير من الأبيات التقريريّة في المطالع الطّلليّة ، كما في قوله ، مثلاً :

عَفَا واسط من آل رَضْوَى ،فنبتل فمجتمع الحرَّين ، فالصبر أجمل
فرابية السّكران قفر ، فما لهم بها شبح إلاّ سلام وَحَرْمَلُ
صحا القَلْبُ إلا من ظعائن فاتني بهنَّ ابن خلاّس طَفَيْلٌ وعزْهَلُ
أعاذلُ إلا تُقصري عن ملامتي أدَعْكِ وأعمد للّتي كنتُ أفعَلُ

فأنت ترى ان الأفكار تطغى على هذه الأبيات ، في ذكر الصفاء والأماكن وما أشبه . ولعلّها تترجّح بين السّرد في ذكر الأماكن والتقرير في ذكر الأفكار ، فيما أسفرت النزعة التقريريّة عبر البيت الأخير بنوع من الحوار الدّاني من الحديث النثري والقائم على المقدّمات الشرطيّة ونتائجها . فالأخطل لا يشبّه ولا يتكنّى ، هنا ، وانما يسوق ما يدركه في ذهنه الواعي وما يتفكّر به .

وقد يجري هذا المجرى قوله :

على ابن أبي العاصي قريش تعطّفَت   وقد جعل اللهُ الخلافة فيكـــم ...
ولكن رأه الله موضع حقهـــــا   على رغم أعداءٍ وصدّادةٍ كُذِبِ
عتبتم علينا قيس عيلان كلُّكــــم   وأيّ عدوٍّ لم نُبته على عَتْـــبِ
فإن تك حرب ابني نزار تَوَاضَعَت   فقد عذرتنا من كلاب ومن كَعْبِ

ففي الشطرين الأوّلين يقرّر الشاعر المعنى في شكله الذهني المباشر ، ثم إنه يؤدّي له بيّناته ، متوسّلاً اداة الاستدراك « ولكن » وهي تنطوي على معنيي النّفي والتّأكيد ، معاً ، في مجال الردّ والنقض والإبانة . ويُضاعف من وقعها ما ألحقها به من تخصيص بقوله : « على رغم » حيث أفاد الغلوّ النثري واستكمل المعنى السابق في الإحاطة بوجوهه كُلّها . وإذا كانت مخاطبة قيس عيلان قد سمت عن التقرير المباشر من صيغة الإنشاء التّساؤلي التي ادّاها من قلبها ، فان البيت الأخير يقوم على العرض والنقض بالجدل والنقاش السياسيّين . وبذلك تبدو الآفة التي تلحقها المعاني السياسيّة بالسّويّة الشعريّة ، إذ تجعلها مطيّة للحوار والبرهان والجدل مما لا شأن ولا طعم شعرياً له .

وقد يُمكن أن نصنّف هذا المنحى التقريري في ظاهرات ثلاثة ، اولاها تبين فيما يُؤدّيه من خواطر كخلاصة لتجاربه في الحياة والأحياء ، وبخاصة ما كان من أمره مع النساء ، كقوله :

يا قَلَّ خير الغواني كيف رُغْنَ به ... فشربُهُ وَشلٌ فيهِنَّ تَصريدُ
أعرضْنَ عن شَمَطٍ في الرَّأسِ لاحَ به ... فَهُنَّ منه ، إذا ابصرنه ، حيدُ
فهُنَّ يَشْدُونَ منّي بعض معرفة ... وَهُنَّ بالوُدِّ لا بخلٌ ولا جُودُ
يقلْنَ لا أنْتَ بَعْلٌ يُستَقَادُ له ... ولا الشباب الذي قد فات مَرْدُودُ
لَنْ يَرْجِعَ الشّيبُ شبّاناً ولن يجدوا ... عدل الشباب لهم ، ما أوْرَقَ العودُ
إنَّ الشّباب لمحمود بشاشتُه ... والشَّيْبَ مُنْصَرِفٌ عَنْهُ ومَصْدُودُ

فهناك حديث عن الاعراض والصدّ والبخل والجود والحوار والحكمة شبه الذّهنيّة ، وهي أنواع من التقارير الذهنيّة التي لا تخلو من الإنفعال ، إلا أنه انفعال واعٍ ، جارٍ على حدود الأفكار والمعاني بطارىء من طوارىء الزّمن . فالشيب ألمَّ به ، وهو يتفكّر بما آل إليه حاله مع الغواني إذ انصرفن عنه ، متخلّصاً إلى خلاصات واستنتاجات نثريّة في قوله ان الشباب يُقبل عليه والشّيب يُصدّ عنه . ومثل هذه التقارير تُقَصِّر عن الحكمة المأثورة عند المتنبي وتسفُّ إلى الخواطر العارضة الفاقدة البصيرة . ولنقبل على هذه الأبيات في بعض خصائصها الجزئيّة ، فنجد أنّه يُسمّي الأشياء بأسمائها المباشرة ، كالشَّمط ، معيّناً حدودها بما لا ضرورة له : « في الرّأس » ، متخلّصاً الى نتيجة مبذولة بذاتها : « فهنّ منه ، إذا أبصرنه ، حيدُ » ولفظة « حيد » تدنو الى فعل «أعْرَضْنَ» أي أنه استخلص من الشطر الأوّل معنى يماثله ويكرّره ، دون غاية أو مبرّر .

وينحدر من ذلك الى الحوار الذي يسوق فيه على لسانهنّ بيّنات لا شأن لها كالقول إن المرأة تنقاد الى الرّجل ، إذا كان بعلاً لها ، أو إذا كانت متيّمة به لشبابه ، وهنّ يَصدفْن عنه لذلك ، أي لأنّه ليس بعلاً لهن ولا شاباً يَغْويهنّ . والتقرير تلبّس، هنا ، المَنْحى التفسيري المعتمد على البداهات العقليّة والمعارف والاستنتاجات الشائعة ، موفياً من ذلك الى غاية العقم في قوله تكراراً :

إن الشّباب لمحمودٌ بشاشته — والشّيب مُنْصرفٌ عنه ومصدودُ

ويجري هذا المجرى قوله :

يَبرقْنَ بالقَوم ، حتى يختبلْنَهُم — ورأيُهُنَّ ضَعيفٌ حين يُختبَرُ
يا قَاتَلَ اللهُ وَصْلَ الغانيات إذا — أيقَنَّ أنك ممّنْ قد زها الكِبَرُ
ما يَرْعَوين إلى داعٍ لحاجتِه — ولا لَهُنَّ ، إلى ذي شيبةٍ ، وَطَرُ

أو قوله :

صَرَمَتْ حبالك زَينَبٌ وقذور — وحبالهنَّ ، إذا عَقَدْنَ ، غرور
يَرْمِينَ بالحدق المراض قُلُوبنا — فَغَوِيّهُنَّ مكلّفٌ ، مغرورُ
وَزَعَمْنَ أني قد ذهِلْتُ عن الصبى — ومضى لذلك أعصر ودُهورُ

فالخواطر والأفكار تَطغى على هذه الأبيات فيما لا يَعدو المعاني السابقة بنوع من التقرير او الاستنتاج والخلاصة . فهو يقول « إن رأيهنَّ ضعيف » وهو معنى واعٍ خلص إليه من تجاربه وتجارب سواه في شأنهنَّ. ومع أنه يصدر عن موقف منهنَّ أو رأي فيهن ، فقد غلب عليه العُنْصُرُ الفكريُّ، الغثُّ، وزالَتْ ، بل تعَفّتْ مبرِّرات الشّعر . وفي البيت الثاني يظهر تحسّره على وصالهنَّ ، ومؤدّى المعنى أنهنَّ يتخلّيْنَ عمّن ألَمَّ به الكبر ، كما أنهنَّ يُغرّرْن به ويخذلنه . وهذه التقارير الفكرية ، قد تكون صادقة المعاناة ، أو قد تنطوي على قليل أو كثير من الحقيقة غير الشعريّة .

وربّما اتخذ التقرير شكل التّعداد الذي يأنف منه الشعر ، دون أن يعرض ذلك في سياقٍ عددي :

وقد سرّني من قَيْسِ عيلانَ أنّني رَأَيْتُ بني العَجْلانِ سادُوا بني بَدْرِ
ونحنُ رفعنا عن سَلُولٍ رِماحَنَا وعَمْداً رغبنا عن رماح بني نَصْرِ
ولو ببني ذبيانَ بُلّتْ رماحُنـــا لقرّتْ بهم عيني وَبَاءَ بهـم وتري

ثالثاً : النُّعوت : يعظم أمر النُّعوت في التجارب الشعريّة النازعة مَنزعاً وصفيّاً في محاكاة المظاهر ونقلها أو تقرير الأحوال النفسيّة وتفسيرها. وإذا لم يكن من ضير في الاجتزاء بقليل منها ، فإن حشدها ينمُّ عن تعمُّد الشاعر للصِّيغ اللّفظيّة كأداة للغُلوّ والإيهام ، يحدق بالمعنى في كلّ وجه من وجوهه واحتمال من احتمالاته ، متوسِّلاً الجزئيّات والدّقائق ، عاجزاً عن النفاذ إلى التعبير المباشر القاطب الذي يُغني بلفظة واحدة عن أي حشد آخر .

وتكثر النعوت في شعر الأخطل خلال وصفه للنّاقة، وفي قليل أو كثير ممّا يتعرّض به للثور والحمار الوحشيّين ووصف كلاب الصيد ، وما إلى ذلك . يقول في وصف الناقة والثور والصيد :

جماليّةٌ ، غُولَ النّجاء ، كأنّهـــا بنيّة عَقْرٍ أو قريع هجان
(١٧-٦٨)
بذي خُصَلٍ سَبْطِ العَسِيبِ كأنّـــه على الحاذ والأنساء غُصْنُ إهانِ
(١٩-٦٩)
وَمَهْمَهٍ طَامِسٍ تُخْشَى غَوَائِلُـهُ قَطَعْتُهُ بكَلوءِ العَيْنِ ، مِسْهارِ
(٧-٧٥)
أخت الفلاة ، إذا شُدّتْ معاقدهـــا زلّتْ قوى النّسع ، عن كبداء، مِسْفارِ
(٨-٧٥)
أو مُقْفِرٌ خاضِبُ الأظلاف، جادَ له غَيْثٌ تَظَاهر في ميثـــاء مِبْكارِ
(٩-٧٥)

هل تبْلِغَنّي يزيداً ذاتُ مَعْجَمَـــةٍ كأنّها صَخْرَةٌ، صمّاءُ، صيخُودُ
(٩٨-٢٣)

يَلْفَحُهُنَّ حَرورُ كُـلِّ هاجرةٍ فكلّها نقب الأخفاقِ مَجْهودُ
(٩٨-٢٣)

طاوي المعا، لاحَهُ التعداءُ صيفتـــه كأنّما هو في آثارها سيدُ
(٩٩-٣٠)

ضخم الملاطين، موّارُ الضُّحى، هَزِجٌ كأن زيرته في الآل عنقودُ
(٩٩-٣١)

أمْسَتْ مُناها بأرضٍ ما تُبلّغهـــا بصاحب الهمِّ إلا الجسرةُ الأجُدُ
(١١٠-٧)

كأنّها واضح الإقْرابِ، أفزعــــه غضفٌ نواحِلُ في أعناقها القِدَدُ
(١١٦-٩)

دسم العمائم، مسح، لا لُحُومَ لهم إذا أحسُّوا بشخصٍ نابىءٍ، لَبَدُوا
(١١٧-١٦)

على شَرَائعها غرثانُ مُرْتَقِـــبٌ أبصارَها، خائفٌ إدبارها، كَمِدُ
(١١٧-١٢)

مسانيف يطويها مع القيظ والسُّرى تكاليف طلاَّع النّجاد، رَكُوبِ
(١٣٢-١٠)

على مذكّرةٍ، ترمي الفروجَ بهـــا غولِ النّجاء، إذا ما استُعْجِلِ العَنَقُ
(١٣٩-١٥)

كأنها، بعد ضمّ السَّيْرِ جَبْلَتَهَـــا من وحش وجرةَ، موشيُّ الشوى، لهق
(١٤٠-١٨)

هاجت به ذُبّــلٌ مسح جواعرهـــا كأنّما هنَّ من نَبْعيّة شقَقَ
(١٤١-٢٤)

ونحصي فيما يلي النعوت فإذا هي :

جمالية ــ غول ــ قريع ــ هجان ــ طامس ــ سبط ــ كَلُوء ــ مِسهار ــ أخت الغلاة ــ كبداء ــ مسفار ــ مقفر ــ خاضب ــ ميثاء ــ مبكار ــ ذات معجمة ــ صمّاء ــ صيخود ــ حرور ــ نقب ــ مجهود ــ طاوي ــ ضخم ــ موّار ــ هزج ــ الجسرة ــ الأجُدِ ــ غضف ــ نواحل ــ دسم ــ مسح ــ غرثان ــ مرتقب ــ خائف ــ كمد ــ مسانيف ــ طلاّع ــ ركوب ــ مذكرة ــ غول ، موشيٌّ ــ لهق ــ ذبّل .

وإذا أردنا أن نحصي ما دون ذلك من نعوت في الدّيوان ، لطال بنا الأمر وضاق علينا المجال ، وانّما اجتزأنا بذلك لغاية التمثيل . وبيّن من ذلك كُلّه ان الشاعر توسّل هذه النعوت اداةً للتحديد الذي يفيدُ منه الغلوّ . فالنافة الجماليّة ، مثلاً ، أي ان نسبتها الى الجمل أفادتّها معنى القوّة ، وغول النجاء ضاعف من معنى السّرعة وجعلتها تدرك أقصى غايته. وقد تكون هذه النعوت ذات طابع تقريريٍّ ، يُذعن فيها الشاعر للمظاهر ، فيُحاكيها باللّفظ ، بعد أن يشتطَّ به عن الانفعال كقوله في وصف ذنبها بأنّه « ذو خصل سبط » ، ممّا لا شأن له في الدلالة على قوّتها أو سرعتها ، وان كان يدل على جمالها ، بخلاف ذلك النعوت ذات الصيغ المطبوعة على الغلوّ بطبيعتها كوزني « فعول » و « مفعال » في قوله : « كلوء ومُسهار » . وهاتان الصّيغتان تنمّان عن الغلوّ في حدود لفظيّة صرفة خالصة . وقد تتولّد النّعت لديه بنوع من النسبة الخاصة : « أخت الفلاة » .، أي أنها دأبت على السير فيها ، وقد استبطن عبرها ما يشبه الكناية . إلا أن النزعة الغالبة تظهر في النعوت ذات الصيغ الاشتقاقيّة : كبداء ــ مسفار ــ ميثاء ــ مبكار ــ صيخود ــ نقب ــ موّار ــ هزج ــ غرثان ــ أي أوزان فَعْلاء ــ مِفْعال ــ فَيْعُول ــ فَعِل ــ فَعّال ــ فَعْلان ــ وهي أعمق الأوزان انطواءً على الغلوّ بذاتها . وتراه يعمد ، حيناً آخر ، إلى النُّعوت في صيغ الجمع : غُضف ــ نَواحل ــ دُسم ــ مُسح ــ مسانيف ــ ذُبّل ــ اي أوزان فُعْل ــ مفاعل ــ مفاعيل ــ فُعّل ــ وقد وردت في أصل اللغة حاملة معنى المبالغة والحشد والكثرة .

وحشد النُّعوت لا يقتصر على أوصاف الناقة والثور وما إليهما ، بل إنّه ليُطالعنا في وصفه للمرأة ، كما قدَّمنا ، وكما نجد في قوله :

أسيلَةُ مجرى الدَّمع ، أمّا وشاحها فجارٍ ، وأما الحجل ، منها فمايجري
تَمُوتُ وتحيا بالضجيع وتلتوي بمُطّردِ المتنَيْنِ ، مُنْبَتِرِ الخَصرِ

وإذا ما عدنا الى خمرياته نجد ان قوام الوصف يقوم فيها على النّعوت ، وبعض الأحداث . لذلك نقول ان النّعت الحسّيّ ، الماديّ ، المكنيّ هو المعتمد الأول لشعر الأخطل الوصفي .

وفي المدائح تكثر ، غالباً ، النعوت المعنويّة الدّالة على الفضائل والقيم في صيغ تماثل صيغ النّعوت الحسيّة :

إلى مُسْتَقِلٍّ بالنّوائب ، واصِل قرابة فيّاض العطاء ، وَهُوب
ربيع لهُلاّكِ الحجاز ، إذا ارتَمَتْ رياحٌ الثُّرَيّا من صباً وَجَنُوبِ
حَبَاني بِطرفٍ أعوجيٍّ وَقَيْنَـةٍ من البربريّات الحصانِ ، لَعُوبِ
وَحَمّالُ أثْقالٍ ، وَفَرّاج غمْرةٍ وَغَيْثٌ لمجاوم السّوام ، حريب
كريم مناخ الضَّيف ، لا عاتم القرى ولا عند أطراف القنا بِهَبوب
كثير بكفّيه النّدى حين يُعْترى عشيةَ لا جافٍ ولا بغضوبِ
عروفٌ لحقّ السّائلين ، كأنّه لعقر المتالي ، طالب بذَنوب
إلى امرىءٍ لا تخطّاه الرِّفاق ولا جَدْبِ الحيوانِ ، إذا ما استُبطىء المَرَقُ
صُلْبِ الحيازيم ، لا هَذْرِ الكلام ، إذا هَزَّ القناةَ ولا مستعجل ، زَهِقُ
والمستقلّ بأمرٍ ما يقوم لـه غُسٌّ من القَوْم ، رعديد ، ولا فَرِقُ
موطّأُ البَيتِ ، محمود شمائله عند الحمالة ، لا كَزٌّ ولا وَعِقُ

وفي هذه الأبيات يُمكن أن نُحصي النّعوت المعنويّة التّالية :

مستقلٍّ – واصل – فيّاض – وهوب – هلاّك – حصان – لَعُوب – حمّال – فرّاج – مَجْلوم – حريب – كريم – عاتم – هَبُوب – كثير – جافٍ – غضوب – عروف – السّائلين – طالب .

وقد جرت على الأوزان التّالية :

مستفعل – فاعل – فعّال – فعول – فَعَال – مفعول – فعيل . وهي صيغ غلوٍّ ، لكنها لا تبلغ فيه إلى حدود الصّيغ السّابقة ، والنّعوت الجارية عليها تبدو غالباً ، تجريديّة باهتة ، بالرّغم من شدّة الصّيغ الّتي أُجريت فيها ، وهي رمز لغلبة النزعة التقريريّة الواعية .

رابعاً : **الجمل الانشائية** : جاءت صيغ الانشاء في اللّغة كأداة للتّعبير عن بعض الانفعالات المترجّحة بين الدّهشة والتعجّب والتأكيد والتساؤل والأمر وما إلى ذلك . وفضيلتها في أنها تُخرج العبارة عن سياق الرّتابة المتكرّر ، المأثور وتَنْفَحُ فيها بحركة الحياة وتبثّ بها حرارة وعصباً . وإذ كان الأخطل ممّن يَتَعَمّدون جلال التّعبير ووقاره فانه لم ينصرف إلى هذه التّعابير الا في فلذات قليلة بالنّسبة إلى ما دونها .

اولا : **الاستفتاح والنداء** :

وهو يتوسّل بهما ، غالباً ، في مطالع القصائد وفي الخطاب المباشر ، كما أنه قد يُلْحف بهما ، تدليلاً على الغلوّ والالحاح . من ذلك قوله :

ألا يا اسلما على التّقادم والبلى بدومة خَبْتٍ أيّها الطّللان
خليليّ ليس الرأي أن تذراني بدوّية يعوي بها الصّديانِ

أبا خالد دافَعْتَ عني عظيمة   وأدركْتَ لحمي قبل أن يتبدّدا
يا ابن القريعين لولا أن سيبهم   قد عمّني لم يُجِبْنِي داعياً أحَدُ
أخالد إياكم يرى الضّيفُ أهله   إذا هرت الضيفانَ كل ضجور
أخالد ما بوّابكم بملعّن   ولا كلبُكم للمعتفي بعقُور
أخالد أعلى الناس بيتاً وموطناً   أغثنا بسيب عن عَطاك غزير

وإذا كان للنّداء أداةً واحداً متماثلاً ، فان الشّاعر يوقّعه في نوع من التّوقيع الّذي يُضْفي عليه لوناً نفسيّاً معيّناً . ففي البَيت الأوّل جمع أداتي نداءٍ مع أداة استفتاح، مجسّداً الأجواء التقليديّة للاستهلال بمخاطبة الطّلل ومناجاته . أما عبارة النّداء : « خليليّ » فهي عريقة في القدم، جارية في سنّة الغنائيّة. أما مخاطبته لأبي خالد، فقد نحى فيها منحى الحديث والنّداء المباشرين ، بخلاف العبارة المتكرّرة ثلاثاً « أخالد » حيث أفاد منها معنى الالحاف والرّجاء .

وقد يتوسّل صيغة الاستفهام المنطوي على معنى التّعجُّب والدّهشة كقوله :

وكَيْفَ يُداويني الطّبيبُ من الجوى   وبرّةُ عند الأعوَرِ بن بيانِ
أتجعل بطناً مُنْتن الرّيح ، مقفراً   على بطن خود دائم الخفقان

أو الأمر والتّحضيض :

فهلاّ زَجَرْتِ الطّيرَ لَيْلَةَ جئته   بضَيْقَةَ بين النّجم والدّبرانِ
أعَنّي ، أميرَ المؤمنين ، بنائل   وحسن عطاءٍ ليْس بالرّيِّث النّزْرِ
إلى امرىءٍ لا تُعَدِّينا نَوَافله   أظفره الله ، فلْيَهْنَأْ له الظّفَرُ
فعليك بالحجّاج لا تَعْدل به   أحداً إذا نَزَلَتْ عليك أمورُ

فلا تَجْعَلَنّي يا بن مروان كامرىءٍ | غَلَتْ في هوى ابن الزبير مراجلُهْ
فلا تُطْعمن لحمي الأعاديَ إنّه | سريعٌ إليكم مَكْرُها ونميمُها
فسائل بني مروان ما بال ذِمّةٍ | وحبْلٍ ضَعيفٍ لا يزالُ يُوَصَّلُ

وقد تلونت صيغ الأمر بمعاني متعدّدة . فالبيت الأوّل ينطوي على معنى الدّهشة والتّعجُّب وفيما يليه معنى الرّجاء والالحاف فمعنى التمنّي ، فالنُّصح فالطّلب فالحيرة . ومع ان صيغة الأمر تتّخذُ دلالةً خاصة من ذاتها ، فإن الشّاعر نزع فيها منزعاً إبداعيّاً وبثَّ فيها من انفعاله ، بحيث لم تجر على وتيرة واحدة . وقد كان تلوُّنها بلون الانفعال لطيفاً ، خفراً ، في نوع من الحركة الضّمنيَّة المكتومة التي تؤثّر على وجدان القارىء دون أن تثيره .

ويدنو من الأمر المباشر الأمر باللاّم المضاعف الدّلالة في نون التّوكيد الصمّاء :

لأُحبِّرَنْ لابْنِ الخليفةِ مِدْحةً | ولأقْذِفَنَّ بها إلى الأمْصَارِ
لأُغَلْغِلنْ إلى كريم مِدْحَةً | ولأُثنينَّ بنائلٍ وفعالِ
فلأجْعَلَنَّ بني كُلَيْبٍ شُهْرةً | بعوارم ذَهَبَتْ مع القُفَّال
فلا تُخْلِفنَّ الظّنَّ إنكَ والنّدى | حليفا صفاءٍ في مَجَلٍّ قيام

وبينما نَمَّتْ هذه الصّيغة ، في المطلع ، على التّأكيد والعزم ، مال بها الشّاعر ، من بعد ، إلى التّهديد ، فالتّرَجِّي . وذاك يَسوقنا إلى الاعتقاد بأن الأخطل لا يَكِلُ أمر التّعبير إلى الأداءِ المباشر ، بل يتصرّف به تَصَرُّفاً خاصّاً وان كان مستمدّاً من الصيغ الصّرفية العامة . الا ان ذلك كُلّه لا يُحَرِّك العبارة الأخطلية العامة القائمة على الاسلوب المباشر الجاري على الجمل الفعليّة والاسميَّة وما يلحق بها من قيود .

خامساً : التشبيه : وقد يكون التّشبيه اكثر الأساليب البلاغيَّة تداولاً بين

الشّعراء الجاهليين والامويين الّذين يقتفون على آثارهم . وآية هذا الاسلوب أنّه سبيل إلى تأدية الغلوّ ونقل السُّور الانفعاليّة بواسطة المقارنة والاستنتاج ، مُتخذاً صفة أو حالة أو ظاهرة عبر معاناته لها وانفعاله بها ، بحيث يشعر أن في نفسه منها أكثر ممّا في نفوس النّاس أو فيما جرى عليه العرف أو دأب عليه التّقليد . فالشّاعر قد ينفعل ، مثلا ، بسرعة فرسه ، وتراه ينعتها بنعتها المباشر فيقول أنّها سريعة ، لكنّه يَشعر ان ما قاله لا يفي بغرضه وان في نفسه اكثر مما نقله في تلك العبارة ، فيحاول أن ينهض ويسمو بهذه الفكرة إلى ذروتها في مقابلتها بما يُضفي عليها عنصر السّرعة كأن يقول :

مكرٍّ ، مفرٍّ ، مُقْبل ، مدبرٍ معاً   كجلمود صخر حطّه السَّيْل من عَلِ

ففي الشطر الأوّل سما بالسّرعة عن معناها التجريدي الذّهني ، إذ مثّل الفرس مقبلاً ، مكتنياً عليها بالمشاهد الّتي تَتَحقّق فيها. أما في الشطر الثّاني ، فإنّه عظّم من أمر السّرعة من مقارنتها بالصخر القوي المتحدّر في السَّيْل ، ومنظر الجلمود المتقاذف المتدافع في السَّيل يجمع معنى القوّة ويوهم بمثل ذلك بشأن الفرس . هكذا يحوّل الشّاعر ظاهرة إلى أُخرى أشهر منها ، متفطّناً إلى رموز المظاهر ودلائلها الظاهرة والمضمرة . فامروء القيس لم يقرن قوة فرسه وسرعته بالجلمود المنحدّر الا بعد ان شاهد ذلك المشهد وتروّع به وتفطّن إلى ما ينطوي عليه بذاته من دلالة القوّة والعُنْف . هذه هي نقطة انطلاق التّشبيه ، يرفع عنصراً بالغلو النّفسي إلى عنصر آخر هو أسمى منه في حدود الواقع ، وذاك هو وجه الافصاح والابلاغ . والتّشبيه أرقى من التقرير بالأفكار ، والسّرد بالحوادث ، والوصف بالنُّعوت لأنّه يُبْقي على قليل أو كثير من سُوَر الإنفعال ، إلا أنّه يظلّ مقصّراً ، مُتَتَعْتعاً ، مخذولاً ، إذ لا يَبْلغ الإنفعال فيه أقصى غايته ولا يطغى على ما دونه ويَستحلّه ويفرض عليه يقينه ، كما أن الحقيقة لا تتّصل ولا تتّحدُ فيه ، بل إنّها تَنْشطر وتَنْفَصم وتتقابل دون أن تلتئم . ففي قول امرىء القَيْس إن فَرَسه ، في كرّه وفرّه ، شبيه بالجلمود في تدافعه ، عبر السَّيْل ، لا نعثر على حقيقة فعليّة جديدة ،

بل على ضرب من المماثلة والافتراض والمقارنة ، فيما أقامت الفرس على حدودها وطبيعتها ، منفصلة عن الجلمود والسَّيْل . فالعلاقة ايهاميَّة ، إيحائيَّة أكثر منها فعليَّة . فهل ان في الفرس المتدافع بعدوه شيئاً من الجلمود المتدافع بسَيْله ؟ لا شكّ ان ثمة مماثلة في ذلك، إلا أنها مماثلة صمَّاء، تنقل المعنى من ظاهرة إلى أُخرى وتعيده إلى ذاته ولا تُفصح فيه عن أي شيء آخر . فهو لم يَفْترع معنى السُّرعة ، لم يكشفه لنا ولم يؤدِّه في تخوم أنأى وأعمق من الظّاهر المبذول . ذاك أن الشّاعر ظل في حدود الحواس ولم يستبطن من دونها حدقةً أخرى تستحضر ضمير المعنى وتدعنا نفطن منه إلى ما نقصِّر عنه في العرف المتداول ، المَبْذُول . ويحاول الشّاعر أن ينهض عن ذلك إلى أقصى من حدود التَّشبيه ، فتراه يوحِّد بين ظاهرة وسواها ، يَعزو ما لإحداهما إلى الأخرى كما ترى في قول امرىء القيس واصفاً اللّيل :

فَقُلْتُ له لمَّا تَمطَّى بصُلْبه   وأَرْدَفَ أَعْجازاً وَنَاءَ بكَلْكَلِ

حيث وحَّد بين اللّيل الذي يَهْبط والجمل الّذي يُناخ ، مبَصراً اللّيل وكأنه يتطاول بصُلْبه ويُقعي بمؤخّرته وينوءُ بصدره . وآية الصّورة هنا انها تولّدت في حدود الخيال المبصر الرَّائي ، متجاوزاً عن العقل والحسِّ اللّذين لا يقرَّان هذه النّسبة . وذاك يعني ان انفعال الشّاعر بات أعمق وأشدَّ سَيْطرةً بحيث استحلّ المظاهر الأخرى وأخضعها لمنطقه واستحضرها بخياله ، مبصراً ما لا يُبْصر في حدقة الحسِّ وان كان يُبْصر في حدقة النّفس ؛ نقول في مثل ذلك إن الاستعارة الانفعاليّة الخياليَّة هي أرقى فنِّياً من التَّشبيه لأن الأنفعال يَستبيح ما دونه فيها ويعفِّي عليه ويُقيم من دونه . ومع ذلك كُلّه ، فان الشّاعر لبث على حدود المشاهدة ، وإن كانت قد ارتَدَتْ طابع الخيال النَّائي . لذلك يَنْهد بعض الشُّعراء إلى ما هو أنأى من التَّشْبيه والاستعارة ، جميعاً ، إلى الرَّمز وهو يُخالف التَّشبيه في أنّه لا يقوم على المماثلة والافتراض والمقاربة، كما أنه يتفقّق مع الاستعارة في البعد الخيالي والتوحّد المطلق بين ماهيَّتي الظّاهرتَيْن، إلا أنّه يوحِّد ما تعجز عنه الاستعارة أي ما بين النّفس والحس، يبصر الانفعال وكأنه قائم قياماً فعليّاً في الحواس

ويَسْتطلع من المظاهر الحسيَّة معاناة نفسيَّة غير مبذولة في عالم الحواس . ولقد خطر امرؤ القيس ذاته بمثل ذلك في لمحة عابرة ، متخطّفة كقوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

ففي الشطر الأوَّل يُوحـِّد الشّاعر بين اللـَّيل في ظلامه والخيمة في سدولها ويَنْسب ما للثانية إلى الأول في نوع من التّوحيد المُطْلق بَيْنهما . إلا أنه استطلع في الشّطر الثَّاني معنى الهموم عبر سدول اللـَّيل ، أي حالة نفسيَّة عبر المظاهر الحسيَّة ، مبصراً الهموم منسدلة على أُفق نفسه كما ينسدل الظلام على أفق اللـَّيل . هنا عرف الشّاعر شيئاً من الرمز ، وهو أَرْقى من التَّشبيه والاستعارة ، جميعاً . وللرَّمز حدود ومظاهر أخرى لا مجال لبذلها ، الآن ، وانما نقتصر من ذلك على القول ان الرَّمز لا يكتشف الحقيقة بالمشابهة ، بل بالرؤيا أي بمشاهدتها مشاهدة فعليّة في رحم الأشياء والنّفس .

ويمكن أن نضيف إلى هذه المستويات الفنّية المتباينة الكناية وهي تدنو من التشبيه دون أن تتخذ شكله ، كأن يتكنّى الشّاعر عن الضيافة والكرم بالنار المتوقدة والقدور الملأى بالأسنمة ، أو أن يغالي بذلك في توقيع الضيافة حينما تقسو الطَّبيعة ويشتدُّ الصَّقيع وتعصف الرّيح بأكناف البيوت . وبذلك تكون الكناية نوعاً من الاستحضار الحسّي للمعنى في حدوده المكانية والزمانية أو في إطار الأحداث الّتي يواقعها أو يقع فيها .

والنّاظر في شعر الأخطل من هذا القبيل يجد أن الشَّاعر أفاد فيه من خبرته الحسيَّة في واقع الأشياء عبر الأشخاص وفي حدود الطبيعة ، مقتصراً من ذلك على حدود التّشبيه علىأنواع ومستويات متباينة والكنايات—وهي أكثر حشداً من سواها—وقليل أو كثير من الاستعارات ، دون أن يدرك حدّ الرَّمز لتعفّي النزعة الرُّوحيَّة الخالصة من تجاربه ولضعف الخيال المبدع فيها .

يتوسَّل الأخطل التَّشبيه لغايات متباينة أهمـَّها الغلوّ وا لمحاكاة والتمثيل والتَّفصيل، وإن لم تكن بين هذه المنازع حدود حاسمة ، واضحة .

أ – **تشبيه الغلوّ** : وهو يقوم على مقارنة ظاهرة بأخرى ، تسمو بمعناها وتوفي منه إلى أقصى غايته . مثال ذلك قوله :

جماليّة ، غول النّجاء ، كأنّها ... بنيّةُ عقْر ، أو قريع هجان
آنسْنَ صَوْتَ قنيص إذ أَحسَّ بهم ... كالجنّ يَهفون من جرم وأَنمارِ
مستشرف ، قد رماه النّاس كلّهم ... كأنّه من سموم الصّيف سُفُّو دُ
ذاد الضراء بروقيه وكرّ كما ... ذاد الكتيبة عنه الرّامح النّجدُ
وقتلى بني رعل كان بطونها ... على جهلة الوادي بطون حمير
هاجت به ذُبّل مسح جواعرها ... كأنّما هي من نبعيّة شقَقُ
فيصبح كالخفاش يدلك عينه ... فقبّح من وجه لئيم ومن حجر

فأنت لو نظرت في هذه التشابيه لألفيت ان المظاهر تتقابل فيها وتسمو إحداها بالأخرى من تفطّن الشّاعر إلى المضامين المعنوية للمظاهر الحسّيّة . فهو إذ يُشبّه ناقته بالحصن أو بالفحل يُفصح ،من جهة ،عن قوّتها وصلابتها ،ومن جهة ثانية عن تفطّنه إلى المعاني المتمثّلة أو المتجسّدة في الحصن القوي أو في الفحل . لقد وقف أمام الحصن وقفة المتأمل ، المتنصّت لوقعه في الوجدان ، فابصر فيه ظاهرة من ظواهر التماسك والصّلابة في الطبيعة ، وقد وقع ذلك في وجدانه موقع الفتنة ، حتى إذا شاهد الناقة وأخذ بقوّتها تواردت في ذهنه صورة الحصن ، فقرن بينهما وأفاد من الثاني تعظيماً للأوّل . في مثل ذلك نقول إنّه وُفّق في تأدية سورة الغلوّ بالانفعال إذ ساوى بينه وبين ما يفوقه في الدّلالة على معنى القوّة والصّلابة .

الا ان للقوّة معنى كامناً في داخلها ، وهو يتباين فيها عما يطالعنا منهـــا . والشاعر ضاعف من شدّتها ومثلها بصورة أخرى ، لكنّه لم يُفْصح عنها ،فكأن ظاهرة القوّة ما زالت مطروحة أمامنا في حدود الحواس القاصرة والعقل الثّابت المقيم على معنى واحد ، متكرّر .

أما في البيت الثّاني فان الغلوّ لا يتّخذ شكلاً محدوداً ، تام الوضوح ، كما في البيت السّابق ، إذ أنه قرن الكلاب ، في هرعها ووثوبها الشّديد، بالجنّ . والمقارنة تفيد السّرعة والطفرة من كل صوب وتكشّر الأنياب وتهدّل الآذان ، وما إلى ذلك ممّا نتمثّله عبر هذه المقارنة . وقد نتمادى في ذلك فنقرن بين الكلاب والجنّ في القدرة على مواقعة الشرّ والالتزام بجانبه ، ممّا يمدّ في أبعاد التّشبيه ويُعمّق معاناة الشّاعر فيه . وحتّى الآن ما زلنا نجد الأخطل يأنف من التّشبيه المبتذل ، المقتبس عن الملاحظات العاميّة الدّانيّة ، وإن كانت مُقارنةُ النّاقة بالحصن لا تنطوي على خلق أو بعد في الرؤيا الحسيّة.ومع ذلك كلّه،فان التشبيه لا ينطوي لديه على أبعاد حسيّة وعقليّة ، تقتضي قليلاً أو كثيراً من التأمل والكد . فهل ان مقارنة الكلاب بالجنّ مستفادة من البداهة والعفويّة أم أنها اقتضت بعض الجهد لإدراكها ؟ يخيل إلينا أنها تترجّح بين العمق والعاميّة إذ ان مقارنة الغرابة والضراوة والقبح بالجنّ جارية على ألسنة النّاس، غالباً. ثم إننا لنتساءل إذا كان الشّاعر قد أدرك غايته من الافصاح في ذلك ، فنقول إنه أدرك أبعاداً كثيرة منها لان نسبة الكلاب إلى الجنّ سمت بتلك البهائم ، أو بما أراد أن يبرزه فيها إلى غايته القصوى ، وان كان الشّاعر ما زال يَصْدر عن الموقف الوَصْفيّ .

وقد نَعثر على تَشْبيه تعظم فيه نسبة الابداع إذ يكفّ فيه عن النّقل والمقابلة بين الجزئيّات والدّقائق ، ويقيمُ على التماثل في الوقع النّفسيّ كما بدا في البيت الثّالث حيث قرن بين ذلك المرء المنبوذ ، المضطهد ، الّذي أكلته الفيافي والهاجرة ، فبدا وكأنّه سفّودٌ من الهُزّال والضّمور . وانك إذا أَمْعَنْتَ في المقارنة لم تَقَع فيها على مشابهة حسيّة دقيقة تستقيم على مظاهر ملموسة . ذاك أن الشّاعر أفاد هنا ، أيضاً ، من خبرته الحسيّة النّفسيّة في معنى الأشياء ، إذ طالما شاهد السّفود ، فطالعته فيه سورة العري المطلق والهزال العميم ، والدقّة . وهو إذ اندهش وانفعل بهزال ذلك المرء خطرت له صورة السّفود العاري ، الهزيل ، فقرنه بها من تماثل وقعهما في النّفس . فالأخطل كسائر الجاهليين والأمويين يَقتبس من تجاربه في العالم العمليّ الّذي يُعايشه ويتواقع معه في كل غداة،ينفعل به

ويتمثله ويختزن من تجاربه . وسوف نرى خلال دراستنا للكناية في شعره أنه لم يكد يدع ظاهرة من مظاهر الطبيعة أو حركة من حركات الأحياء والأشياء ، دون أن يولجها في تجربته ، ليجسّد بها معانيه . وحتّى الآن وقعنا على الحصن ، وهو من الطبيعة الميتة، والفحل، وهو من الطبيعة الحيّة، والجنّ ،وهي من طبيعة خاصة يقول القرآن إنها من نار، والسَّفود، وهو من الطَّبيعة الجامدة . ذاك ان المظاهر لم تكن تُقيم وحسب في ناظره وسائر حواسه بل تغور في نفسه وترفدها بتلك الثّقافة الحسيّة العميقة .

وربّما سما الشّاعر بالمعاناة وأناط بها بعداً إنسانياً في مثل مقارنته للثّور، وهو يطعن الكلاب بروْقيه، بالمقاتل الباسل الّذي يَطْعَنُ الكتيبة ويردُّها عنه . والصّورة التشبيهيّة أفادت الغلوّ هنا بمهارة الثّور وقوّته ، ممثّلة مشهداً من مشاهد الدّفاع عن النّفس وتنازع البقاء . ولقد طالما شاهد الأخطل المقاتلين يذودون ويطعنون ، وخيل إليه اذ شاهد الثّور ان سنّة القتال مأثورة في البهائم العجماء ، كما في الأحياء ، فقرن أحدهما بالآخر عازياً إلى الثّور صفة إنسانيّة ملازمة . ومع ذلك ، فإننا لا نزال نقول إنّ المقارنة سمت بقوّة الثّور ومهارته ، لكنها ظلّت قاصرة عن افتراع احشائها المقفلة . فنحن ، إزاءها ، أشدُّ انفعالاً بالقُوَّة ، ولكنّنا لسنا أعمق فهماً لمعناها القوّة، لقد عظم سورة المشاهدة ، لكنّه عجز عن تأويلها وربطها بجذور وجوديّة انسانيّة متّصلة بحقائق الوجود الدّائمة ، المكتومة . والشعر ، من بعد ، ليس نقلاً للأشياء ومحاكاةً لها وغلوّاً بمظهرها ومعناها ، بل إنّه استكشاف لحقائقها المُضْمرة ، للغيب القابع وراءها ، وللمعرفة التي لا تُعرف ، بل تُشاهد وتُستَحْضر وتُعانى . وقد يكون الصّواب في ذلك أن الأخطل أدرك التّعبير عن الأشياء في الحدود التي عرفها المستوى الشّعوري والنّفسي في عصره ، وان كان بعض الشّعر الأوّل تجاوزها إلى الرُّؤيا المتّصلة بغيب النّفس .

أمّا في البيت الخامس حَيْثُ شبّه بطون القتلى من بني رعل ببطون الحمير ، فقد أضمر معنى من خلال ما أظهر ، فجاء وقع التّشبيه مضاعفاً بين البطون المنتفخة

في العراء والتي لم تُوارَ – فكان الذّلّ لاحق بها حتى إلى ما بعد الموت – ومن مقارنة بني رعل بالحمير . وهنا ألمّ بنوع من الغلوّ الانحداريّ ، إذا جاز التّعبير ، فيما كان غلوّاً تصاعدياً بمقارنة الثّور والمحارب . الانفعال ، هنا ، هو انفعال زراية واحتقار ، جسّده الشّاعر من خلال المشاهد المُزْرية ، المُبْتذولة في الطّبيعة . ومثل ذلك الخفّاش في الدّلالة على الهزال والقبح . هكذا يَحْشد الأخطل مظاهر الطبيعة من جماد ونباتٍ وحيوان ، عازلاً منها دلالتها الأظهر لينفح بما يعيه ويعانيه سور من الغلوّ حيث تطفر الأشياء من حدودها المقرّرة ، الرّتيبة .

ب – **تشبيه محاكاة** : قلنا إن الأخطل توسّل التّشبيه ، فيما تقدّم ، للسموّ بالأشياء إلى ما هو أنأى من ذاتها ، أو إلى مثالها الّذي يَفُوقُ طبيعتها . إلا أنّه يركن ، أحياناً ، إلى حدود الأشياء وحتميّتها ، فيتروّض بالمعارضة بَيْنها ، مقتصراً على حدود المحاكاة والتّقليد ، مقيماً نوعاً من المعادلات الحسيّة أو الذهنيّة . من ذلك قوله :

بذي خُصَل ، سبط العَسيبِ، كأنّه — على الحاذ والأنساءِ ، غُصْنُ إهانِ
كأنّه ، إذا أضاءَ البَرْقُ بهجته — في أصفهانيّة أو مصطلي نار
أدبرت منه عجالاً ، وقع أكرعها — كما تساقط تحت الغبية البَرَدُ
والمشرفيّةُ أشباه البروقِ لها — في كُلّ جُمْجمةٍ أو بيضة خَدَرُ
وهنّ بنا عوجٌ كأن عيونها — بقايا قلاتٍ قلّصت لنُضُوبِ
وبيداء ممحال كأنّ نعامها — بأرْجائها القصوى أبَاعِرُ هُمَّلُ
ملاعب جنّانٍ كأن ترابَها — إذا اطّردت فيه الرِّياحُ مُغَرْبلُ
مُلِحٌّ كأنّ البرق في حجراته — مصابيحُ أو أُقراب بُلْقٍ تُجَفَّلُ

فأنت لو نظرت في هذه التّشابيه لوجدت ان سورة الغلوّ انحسرت فيها قليلاً أو كثيراً ، فيما شطر الشاعر إلى العناية بالانضباط والدّقّة في المعادلة . ذاك ان

مقارنة ذيل الناقة بغصن النّخيل لا تُغَالي بمعناه أو بأيّ شيءٍ أثر فيه ، بل تَنْقل الظّاهرة من مشهد إلى آخر يماثله ويعادله . والواقع ان الشّبه الحسّي بين الذّنب وغصن السّعف هو شبه دقيق حتّى النّقل والمحاكاة الكاملة ، وكأنّ الشّاعر غدا يصف هنا للوصف ، للمماثلة كغاية بذاتها . وبينما كان منفعلاً بالقوّة في تشبيه النّاقة بالحصن ، وبالسّرعة والطفرة من كل مكان في تشبيه الكلاب با لجنّ ، والمهارة والعنف في تشبيه الثّور بالمقاتل البارع ، فإن الانفعال تعفّى أو أنه استسلم وركد في تَشبيه الذّنب بغصن النّخيل . فالتشبيه هنا هو تشبيه محاكاة .

ومثل ذلك تشبيه الثّور عندما يتخطف عليه البرق ، فتلتمع ألوانه المتعدّدة ، من دونه ، فيبدو من انعكاس النُّور عليه كأنه يرتدي حلّة فارسيّة ، متألّقة ، متعدّدة الألوان أو أنه يصطلي ناراً ينعكس وهجها عليه. والتّشبيه، هنا ، متعدّد الاطراف إذ قرن بين مشهد ظهر فيه الثّور وجلده المتباين الألوان والتماع البرق عليه ، ومشهد آخر بدت فيه الحلّة الاصفهانية واصطلاء النّار . لا شك أن هذا التّشبيه ينطوي على بعض الغلوّ في ألوان الثّور ، إلا أن الشّاعر بدا خلاله كمن خُلِبَ بألوان الأشياء ومظاهرها ، فجعل يُحَاول أن يجسّدها بما يحاكيها ويعيدها إلى ذاتها . لقد شاهد واقعاً وقرنه بسواه في حدود المماثلة الصّادقة وحسب ولم يكن له من دون ذلك غاية أخرى ، كما في التّشابيه السّابقة . هنا نقع على التّشبيه للتّشبيه ، كأنّ الشّاعر رسّامٌ يُؤخذ باللّون لذاته ، لفرحه به ، لدهشته أمام منظره .

وفي البيت الثّالث ، يمثّل وقع اقدام الآتن الهاربة أمام الحمار الوحشي بمثل وقع البرد . والشّبه صوتيّ يدلّ على التواتر والتّرادف . وتظهر المحاكاة في المماثلة الدّقيقة بين وقع الاقدام ووقع المطر ، وان كان الأخير أسرع ، ممّا يُضفي على المشبّه بعض الغُلوّ . وفضيلة الشّاعر في ذلك أنّه ما زال يتنصّت لوقع المظاهر في الطبيعة ، للمطر الذي يقرع قرعاً على أديم الأرض عندما يشتدّ هطوله وحوافر البهائم التي تتواتر بمثل ذلك على أديمها . فالقضيّة هي قضيّة جمع لما هو متوحّد على مستويات متباينة عبر المظاهر المشتّتة المطروحة على أديم الوجود .

ج – تأليف المحاكاة والغلو :

ومهما يكن فان التّشبيه يتمُّ عند الأخطل في حدود الوعي السّاطع ، الواضح كما في قوله : « والمشرفيَّةُ أشباه البروق » فلفظة « أشباه » هي أكثر اظهاراً للمقابلة الواعية في ذهن الشّاعر . والتّشبيه واقعي إذ ان انعكاس النّور على السّيوف يجعلها تتوهّج وتلتمع ، وقد ألّف الشّاعر بذلك المحاكاة في التماع السُّيوف والغلوّ من صيغة الجمع التي تنمُّ عن الكثرة والاحتشاد . ويجري على هذا الغرار تشبيهُه لأحْداق المطايا الهالكة بالنّقر الغائرة في الصّخور حيث يستنقع قليل من الماء . فالمماثلة بين الحدقة الغائرة والنّقرة في الصخره هي مماثلةٌ دقيقة ، وبخاصّة في ذكره للماء حتّى تستقيم المعادلة بين ماء العيون وماء الصخرة . الا ان التّشبيه يَسْتبطن ، مع ذلك ، الغلو في نوع من الكناية الحسيَّة للتّدليل على شدّة الإرهاق والنّصب . أما تشبيهه للنّعام بالأباعر السّارحة فوجه المحاكاة فيه بيِّن من المقابلة بين حيَوان وآخر ووجه الغلوّ في التّدليل على عظم الوحشة والخلوّ . وهنا قرن حيواناً بأخر فيما قرن، قبلاً ، بين عين حيوانٍ ومظهر من الجماد . ولنتمثّل عظم تنبُّه الشّاعر لدقائق الطبيعة حتى أنّه لم يَغْفل عن الوقوف عند النّقرة في الصّخرة فكأنه كان يتحرى تحريّاً ويتعمّد تعمُّداً العثور على مواضع للشّبه والمماثلة بين مظاهر الوُجود . ولعلّ تنبُّهه لما تُحدثه الرِّياح في الرّمل ، لا يعدو هذه الدقّة الواقعيّة في الملاحظة والتقرير ، حيث تطغى المادية حتى لتسدّ منافذ الرُّوح كُلَّها .

وربّما تدنّى المشبّه به عن المشبه عندما تستبدُّ نزعة المحاكاة استبداداً تامّاً كتشبيه تلمُّع البرق بنور المصباح أو بتلمع أقراب البلق .

وعلى العموم ، فان الأخطل يحاول أن يُضْمر أو أن يُظْهر الانفعال عبر التشابيه ، الا أنّه يتغرَّر ، أحياناً ، ويُرْسف في حدود المظاهر وقُيُودها فتغلب المحاكاة على الغلوّ أو تتآلفان ، بَعْضاً مع البعض الآخر ، كما أن الغلوّ يُسيطر ، حيناً ، ويَسْتبدُّ ممّا يبقي للشعرغايته ومبرّره .

د — **التشبيه التمثيلي** : ويُلمُّ الأخطل بنوع من التَّشبيه التَّمثيليّ حيث تتعدد أطراف المقابلة وتبرز فيها بعض الجزئيّات والأعراض ، فيغدو التّشبيه مستفاداً من المقارنة بين مشهدين في دقائقهما . وقد يكون التّدقيق والتّفصيل وسيلةً للغلوّ ، حيناً ، ووسيلة للمحاكاة الجزئيّة حيناً آخر . من ذلك قوله :

فأرسلوهنّ يَذرين التُّراب كما ... يَذْري سَبَائِخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتَارِ

غَدَاة تحامتنا حريش كأنها ... كلاب بَدَتْ أنيابها لهريرِ

اليه أشار النَّاظرون كأنّه ... هلال بدا من قتمة وغُيُوب

رَفَعَتْهُ ، وهو يَهفُو في عمائمهم ... كأنّه طائر في رجْلِهِ عَلَقُ

فَظَلّ يُفدّيها وظَلّتْ كأنّها ... عُقَابٌ دَعَاها جنحُ لَيْلٍ إلى وَكْرِ

يُغَنّيه بالفيض البعوض كأنّه ... أغانيُّ عُرْسٍ صَنْجُهُ وَجَلاجِلُه

إذا انْفَرَجَ الأبوابُ عنه رأيته ... كصدر اليَمَانيِّ أَخْلَصَتْه صَيَاقِلُهْ

فالكلاب التي تذري التُّراب شبيهة بمن يَنْدف قطناً ، والتماثل لا يقوم بين المشهدين على الدّقّة في اللّون ، بل على الشّكل الّذي يتّخذه ذرُّ التُّراب وندف القطن. وغاية التّشبيه الغلو بضراوة الكلاب وسرعتها من خلال نثرها للتراب في عدوها . والمشهدان ، جميعاً ، مستفادان من خبرة الشّاعر الحسيّة ، وبخاصة البصريّة منها ، ولا يخلوان من الانفعال وان خليا من الخيال . ولعلّ الميزة الأولى التي يختصُّ بها التّشبيه التّمثيلي هي خاصّة التّفصيل والتّجزىء كوسيلة للشّرح الذي يُوهم بالغلوّ ويُؤدّيه بالتّنويه ببعض الأجزاء والأطراف . ومن البديهي أن يَتَضاءل ، إثر ذلك ، قَدْرُه الفنّي إذ لا فَرْقَ بين الاقناع بالتّفاصيل والجزئيّات في باب الشّرح ، والاقناع بالبّينات والبراهين ، في باب الجدل والنّقاش . والشّاعر إذ ينثني لمثل ذلك إنّما يُغرِّر بالقارىء بالقرائن الواقعيّة المبذولة له بذاتها على أديم المظاهر في الوجود . ومع أنّ التّشبيه التّمثيليّ أفاد بعض الغلوّ فانه يَنْزع منزع الوضوح النّثري لسطوع المقابلة فيه ولتقيُّدها بقيود الواقع . وفي البيت الثّاني

يبدو تحامي جريش وشتمها لهم بمثل ما تبديه الكلاب من أنياب إذ تفتح أشداقها للهرير . ولعلّ هذا التّشبيه يَسْمو على ما قَبْله من الوتر والحدّة اللّتين نفحهما الشّاعر في المُشَبّه به ، حيث يبدو وكأنّه حدس في عصب كريه ، مشحوذ بالنّقمة.ذاك أن طبيعة التّشبيه ذاتها تتبدّل بالنّسبة إلى قدرة الخلق عند الشّعراء ، وعند الشّاعر ذاته بين لحظة وأخرى. وفضيلة التّشبيه الثّاني على الأوّل إنّه أعمق استعاباً وأشمل اتّصالاً بالانفعال ، أدّى له بعض ما يجسّده،فيما أدّى له في التّشبيه الأوّل بعض ما يُوضحه .

ومع ذلك كُلّه ، فإنّ انصراف الشّاعر إلى التّفصيل في شأن الكلاب وتَوْقيع الأحْداث وتَخْصيصها بما يؤدّي أداء الزّراية في شكلها الواقعي ، ان ذلك الانصراف ظلّ يشدُّ الشاعر ويَجْذبه إلى التّفسير والتّقرير وشتّى الأعراض النّثريّة،فرسْم إطار المشهد وتحديده والتّدقيق فيه يُؤكّد أن الشّاعر يَشطر إلى تحقيق ما طالعته به حواسُّه ، مذعناً لها . ويجري على هذا الغرار تشبيه طلعة الممدوح بالبَدْر ، وتَخْصيصه لذلك في طلوعه من الظّلمة بعد غياب . وتوقيع الطّلوع في ذلك الإطار ضاعف من جمال الممدوح ، وفي الآن ذاته ، من وضوح النّزعة الوصفيّة حيث يستمدُّ الشّاعر قدرته على الاقناع من استحضار التّفاصيل التي لا يحفل بها الشّعر الخالق . وذكر القتمة والغيوب يغالي بالغلوّ الخارجي الافتراضي السّاقط . ومثل ذلك ، صورة الطّائر الّذي في رجله علق ، إذ كان نزوعه إلى التّخصيص نزوعاً إلى التوضيح واستكمال المشهد الذي يفيد الغلو في سياقه الواقعيّ . وربّما تراءى لنا عبر ذلك شيء من نزعة المحاكاة التي تُعنى بضبط أطر المشهد التّشبيهي حتّى تتوازنَ معادلته توازناً تامّاً . أما في البيت الخامس فإنه يقرن الفرس التي امتطاها ابن بدر لهربه بالعقاب التي تَهْرَعُ مُسْرعة إلى وكرها ، قبل أنْ يَجَنّها اللّيْل . ومقارنة الفرس بالعقاب هدف إلى تمثيل السّرعة والغلوّ بها ، أمّا ما أردف به من ذكر اللّيل الّذي يعاجلها ظلامه قبل أن تُوفي إلى وكرها،فقد ابتغى منه توقيع طيرانها في اللّحظة التي تعدو بها أقصى عدوها . والإخطل يتمثّل بذلك التجارب الواقعيّة إذ وُفّق بتأدية معادلة للسّرعة القصوى ،

إلا أنّه كان كمن يوضحها ويُفسّرها ليبرهن على إدراكه لها . فالمعادلة واقعيّة لا تُفصح عن اكثر ممّا تُفصح عنه في دلالتها الشّائعةُ الّتي تُبذل لنا ، دون حاجة لشعر شاعر أو صورة مُصوّر .

وفي البيت السّادس يقرن البعوض في طنينه بأغاني العرس حيث تهزج الصّنوج وترِنُّ الجلاجلُ وقد اختلّت معادلة التّشبيه إذ بدا الطرف الثاني في غاية الغلو والتّعاظم على الطرّف الأوّل . فليس ثمة من نسبة بين طنين الذّباب وأصوات الصّنوج والجلاجل . ولعلّ الشّاعر لم يَبْتغ بذلك المحاكاة الفعليّة بل تأدية حالة الفرح والطّرب الّتي أحدثها ذلك الطنين في داخله ، قارناً إياها بمثل حالة الطرب في قرع الصّنوج وما إليها . ومهما يكن ، فإن نزعة التفصيل والتدقيق لا تزال تنمُّ عن رغبته في ايهام القارىء والاستحواذ على لبّه بالشّرح والتّفسير ، وهما اسلوبان ساقطان في الشعر .

هـ — **تشبيه افتراضيٌّ** : ونفهم به ذلك النّوع من التشبيه حيث يكون الطرف الثاني مستحيل الوقوع والتّحقيق بالنّسبة إلى الطّرف الأوّل ، وقد ابتدعه الشّاعر بالافتراض ليوهم القارىء ويؤدّي له نوعاً من الانفعال الذي قد يتولّد في نفسه إذا ما تحقّقت معادلة التّشبيه . فالشاعر إذ قرن بين إثارة الكلاب للتّراب وندف القطن توسّل المعادلة الواقعيّة ، أي الممكنة الوقوع والّتي لها رصيد فعليٌّ . أما التّشبيه في قوله :

كأنّ قلبي غداةَ البَيْن مُقْتسم طَارَتْ به عُصَبٌ شتّى لأمصار

فهو لا يقوم على معادلة فعليّة واقعيّة ، بل على مقارنة افتراضيّة إذ يستحيل أن يتقسّم قلبه ويُسْعى به إلى الأمصار والآفاق النّائيّة . والافتراض ولّد الغلوّ بشدّة عذابه للفراق ، لكنّه غلوٌّ تأليفي مُصْطنع استنبط له الشّاعر التأويل والتّعليل بالكدّ الذّهني والاصطناع . وقيمته هذا التّشبيه تتدنّى إذ لم يكن الخلق فيه حدسيّاً ، يستطلع حقيقةً مُضْمرة ، بل تخمينياً يتوسل المستحيل .

ومثل ذلك قوله في وصف انقضاض الثّور الوحشيّ :

فانصاعَ كالكوكب الدرِّي ميعته غَضْبانَ يخلط من مَعج ٍ وإحضارِ

فالصِّلة بين الثَّور والكوكب الدرِّي هي صلة إيهاميَّة ، إيحائيَّة وليست فعليَّة تحقيقيَّة ، وربما ابتغى من ذلك الدلالة على لونه وتألقه ، الا ان العلاقة بين الثَّور والنّجم ، أيّاً كان مُبررها ، لا يزَال افتراضيّاً ، احتمالياً .

و – **التَّشبيه الاستطراديّ** : وقد أشرنا إليه مراراً ، فيما تقدَّم ، وكأنه امتداد من التّشبيه التّمثيلي يتضخَّم به الطرف الثاني ويتمدَّد ويتطاول ، ليضاعف من الغلوِّ بمعنى الطَّرف الأوَّل . ومن البيِّن أن هذا الضّرب من التَّشبيه يشيع في البدائيين الشّديدي الإنفعال والّذين يعجزون عن النفاذ في انفعالهم ، فيطفرون به طفرة إلى الخارج ، يوسعونه شرحاً وتفصيلاً وحشداً واكتظاظا ، حتّى يتعاظم أمره وينعكس منه على الطرَّف الأوَّل . وقد تردَّد عليه في المعاني الجليلة الّتي سعى بها إلى السُّموّ عن مستويات المعاني المألوفة ، ليَحْشد للمَعْنى حَشْده كُلَّه ويو في إلى أقصى غايته وذروته بالنسبة إلى قدرة الشاعر عصرئذ . ومؤدَّى ذلك أن الأخطل لا يلمُّ بهذا التَّشبيه بيسر سائر التشابيه وبعددها ، فهو الأندر والاكثر احتفالاً بينها ، بالرغم من أن ذائقة النّقد المعاصر لا تَسيغه ، إذ تستعيض عنه بالرَّمز القاطب ، النافذ الغنيّ عن كُلّ تفسير وشرح وحشد واطنا ب واسهاب .

وقد نَقَعُ على الاستطراد في ذكره للخمرة ، إذ يتشبَّه ، إثر رحيل أحبَّته بالسّكران الذي صرعته وخبَّلَتْه الخمرة ، نازعاً إلى وصف دقائقها ، أو سارداً بعض أحواله معها . نعثر على مثل هذه النبذَّة في القصيدة الّتي امتدح بها عبد الله بن معاوية مستهلاً بالقول :

صدع الخليطُ فشاقني أجواري ونأوكَ بعد تقارُب ٍ ومَزَارِ

١٠٤ – ١

المشقّة وصورة الهاجرة أنّ الثّانية توهم بواقعيّته وفعليَّته ، كما أنها تدنيه إلى القارىء كانه يشاهده بأم عينه واقعاً أمامه . يقول في ذكر الحمار الوحشيّ :

رعاها بصحراويَنِ ، حتَّى تيقَّظَتْ   وأقبل شهرا وَقْدَةٍ وَعِكَانِ
وما هاجها للورد حتى تركزَّتْ   رياح السَّفا في صَحْصَحٍ ومتانِ

فشهرا الوقدة ورياح السَّفا هما كناية عن مشقَّة العَيْش وتعذُّره ، أفادهما من واقع البيئة واستحضرا بهما في شعره الدّلالة الواقعيَّة ، الفعليَّة على الضنَّى والضُّمور . وفي هذين البَيْتين ذكر للصَّحراء وللورد أي للاقبال على الماء ، وهما أيضاً مظهران من مظاهر الطَّبيعة في بيئته وشأنٌ من شؤونها . وربَّما ذكر الصحراء والثَّور تكَنِّياً غامضاً عن حياة العربيِّ في بيئته القاسية، المُهْلكة . وهكذا نرى المشاهد والمظاهر تتكاثف وتكتظ في شعره، تكاثف الأحوال النّفسيّة واكتظاظها في نفسه. وقد يذكر التراب وأنواع الأرض تدليلاً على السّرعة والصّلابة :

فَصَاحَبَ تسعاً كالقِسيِّ ضرائراً   يُثِرْنَ تُرَابَ القفِّ بالنَّدفَانِ
(٧٠ — ٢٤)
يَعُذْنَ منه بحزّانِ المتانِ ، وقد   فُرِّقْنَ عَنْه بذي وَقْعٍ وآثار
(٧٩ — ٢٤)
لَيْسَتْ بسَوْدَاءَ من مَيْثاء مُظلمةٍ   ولم تُعَذَّبْ بإدناءٍ من النَّار
(٨٠ — ٣٣)

فالقف والمتان والميثاء هي أنواعٌ من الأرض ، وإذا كانت الأولى وردت في باب التكنيّة على سرعة العدو وصلابة الحوافر ، فان الثّانية اتُّخذت في شكلها التَّقريريِّ ، فيما دلَّت الثالثة أي الميثاء على الأرض الهزيلة، السّوداء. وهو إذ جعل الكرمة فيما دونها من أرض إنما غالى بطيب عنصرها من خصب أرضها . ويكاد لا يغفل في ذلك حتى عن الحصى والأحجار على أنواعها :

فلمّا علَوْنَ الأرض شرقيّ مَعْنِقٍ ضَرَحْنَ الحَصَى الحِمْصيَّ كُلَّ
(٧٢ – ٣٦)

كأنها برْجُ رُوميٌّ ، يُشيِّده لُزَّ بجصٍ وآجُرٌ وأحْجَارِ
(٧٦ – ١٠)

وقد كان الحصن أداةَ لتَمْثيل شدَّة عَدْوها وصلابة وقعه على الأرض ، فيما أدَّى الجص والآجر والأحجار معنى القوَّة والرَّكانة والعظمة في البُنْيان .

ويتّخذ لذلك ، أيضا ، الصّخرة في سياق التَّشبيه بمدلولها البدائي الدَّاني المتناول على الصَّلابة وما إليها :

بحرَّة كأتان الفَّحْل ، أضمرها بعد الرَّبالة ترحالي وتَسْيَاري
(٧٦ – ٨)

هذه نبذة مجزوءة عارضة عمّا يطالعنا في شعره من مظاهر الطبيعة ، وقد يلمُّ بسائر عناصرها كالمطر والرَّعد والبرق والسيّل والضَّوء والموج والنّار ولا يعفُّ حتّى عن الغثاء .

يذكر المطر ككناية على الخصب في قوله :

أو مُقفر خاضب الأظلافِ جاد له غَيْثٌ تظاهر في ميثاء مِبْكَارِ
(٧٦ – ١١)

والرَّعد كعنصر من عناصر الطبيعة الّتي تهول الاحياء :

يجول ليلته ، والعين تَضْربه منها بغيث أجشٌ الرَّعد ، نيَّار
(٧٦ – ١٣)

والبرق في شكل من أشكال الالتماع الّذي يخطف على الأشياء ويكسوها بالألق :

كأنه إذ أضاء البرق بهجته   في أصفهانيَّة أو مُطْصطلي نَارِ

والسَّيل كناية عن الأرق والازعاج عن الرَّاحة :

إذا أرادَ بها التّغميض أرّقه   سَيْلٌ يَدِبُّ بهدم التّرْب موّار
(٧٧ — ١٤)

والنَّار للتّدليل على انضاج الخمرة :

لَيْسَتْ بسوداء من ميثاء مظلمةٍ   ولم تُعَذَّبْ بإدناء من النَّارِ

ولا قبل لنا باحصاء المظاهر الطبيعيَّة الّتي يتوسّلها ، جميعاً ، وقد بذلنا بعضها للتمثيل ، وإنما نقول إن أهم الكنايات ترد لديه في ذكر الخيل عبر القتال للتدليل على بسالة الممدوح وبطولته ، وقد قدَّمنا نماذج منها وفي الغلوّ بالضيافة من خلال القدور المترعة والكرم من خلال الضّيف الذي يحلُّ بالقَوْم عندما يشتد عصف الرّيح ويعمّ الصقيع ، فضلاً عن مشقّة الأسفار من خلال المطايا الهالكة .

هذا ما رأينا أن نسوقه بشأن الطبائع الفنيّة لشعره ، وهناك طبائع أخرى متعدّدة ، عرضت لنا اثناء البحث ، فليعد القارىء اليها في مظانها ، محاولين وضع عجالة لمظاهر التقليد والتجديد في شعره .

التقليد والتجديد : يترجَّح الشّعر ، غالباً ، بين التَّقليد والتَّجديد ، ينمو أحدهما في الآخر ، يُغَذّيه ويتغذّى منه . الا أن حدود كلٍّ منهما تظلُّ ملتبسةً مموَّهة ، ومفهوم التجديد وطبيعته يتَبَاينان بالنِّسبة للشَّاعر والنَّاقد ، وانّما المأثور في معنى التَّقليد أن تقتفي الشَّاعر أثر سواه في اسلوب القصيدة أي في بنائها الشَّكلي

وفي معانيها وصورها وتكنيتها، فيما يقوم التجديد على الرُّؤيا الجديدة للمعاني القديمة بل إنه يقوم على اكتشاف معانٍ جديدة من الاتصال الحميم بالحقيقة واستجلائها والحلول فيها . وعندئذ تتعدَّل الصورة وتتبدَّل طبيعتُها وتنأى أبعادها ، ونوقن ان الشَّاعر وفِّق إلى إدراك أصقاع نائية شكلاً ومضموناً ، إذ أن التجديد في أحدهما يستدعي التجديد في الآخر .

وقد كان يخيَّل للعرب أن المعاني مستنفدة ، محدَّدة ، لا سبيل إلى التجديد والابتكار فيها كما نقع في قول امرىء القيس :

أترانا نقول إلا معاراً ومعاداً من قولنا مكرورا

أو قول عنترة :

هل غادر الشُّعراء من متردَّم أم هل عرفت الدَّار بعد توهُّم

وقد تأدَّى عن ذلك ان قام التجديد على نوع من المباراة بين الشعراء في الغلوّ واستنباط تأويل للمعنى المطروق وتخريجه تخريجاً خاصاً أو تعقيده وتوليده . فالصّفة الغالبة هي صفة التكرار والتقليد إلا في فلذات قليلة كان يتخطى بها الشاعر الحدود المأثورة للمعاني . ولم تكن الفنون الأدبيَّة إلا سبيلاً لترسيخ هذا التقليد إذ تعيَّنت فيها المعاني والتشابيه والكنايات ، مع قليل أو كثير من التعديل والتبديل . ففي الخمرة دارت المعاني حول لونها وطيبها ونشوتها وقدمها وصفائها وكأسها وساقيها ومجلسها كما قوبلت بها تشابيهها وكناياتها . فاللون كالفصوص أو كالشمس والصفاء كعين الدِّيك والطيب كالمسك والنشوة كالخدر والموت ، وللشَّاعر أن يجتهد اجتهاده ويخرِّج تخريجه في هذا المجال وفقاً لقدرته على التجريد والمزج والتوليد . وتدرَّجت هذه الصَّنعة إلى تأليف معنيين ، معاً، واستنباط سبيل للغلوّ فيهما ، كما شاع ، من بعد ، في العصر العبَّاسي . وفي المدح والهجاء والفخر تتماثل تلك المعاني ، متناقضة بين السَّلب والإيجاب في المدح والهجاء، ومتشابهة بين المدح والفخر مع تباين في النِّسبة .

وقد اقتصرت على الأصل وما يتصل به والكرم والنجدة وايثار الضّيف وإيواء الملهوف والاطعام في زمن الجدب وقتال الأعداء ومزاولة البطولة والفروسيّة في امتطاء الخيْل وما أشبه . ومن البين ان هذه القيم مرتبطة بالمثل العليا الشّائعة في العصر وبقدرة الشّاعر على استحضار المضامين القصصيّة وابتداع التآويل الكفيلة بتمثيل ذروتها ومثالها ، أو الصّور والكنايات التي تُمثّلها.ولقد جرى الأخطل على هذا الغرار إذ استمدّ من القديم المظاهر التاليـة ، على الأقل :

أولا : مظاهر التقليد :

أ – **المطلع الطللي** : قدّمنا أن الأخطل كان يستهلُّ بذكر الطلل مسمياً إياه باسمه معيناً مكانه وذاكراً النُّؤي والوتد والرِّيح والبهائم التي تقطنه إثر أهله . وموضوع الطلل متحدّر من صلب القصيدة الجاهليّة مع امرىء القيس ومن قبله ، أيضاً ، إذ تراه يقول :

عوجـا على الطلل المحيل لعلّنا نبكي الطلّول ، كما بكى ابن حزام

ولم يشتق الأخطل بهذا الموضوع معاناة جديدة ، بل اتّخذه في المعاني التي نفذت اليه كاسياً إياها بحلّة تعبيريّة خاصّة . وتقليد الطّلل ليس آفة مقتصرة على الأخطل ، وإنما هي عامة في سائر شعراء عصره وفيمن قبلهم ومن بعدهم . ذاك ان الإسلام هدم الأصنام الجاهليّة ، كافة ، فيما عدا صنم الشّعر ، إذ ظل مقيما في كعبة التقليد ، متّصفاً بالشّعائر الوثنيّة بتمجيده المادّة واقتصاره على حدودها . فثورة الاسلام لم تنفح فيه روحاً جديدة ، كما أن الأبعاد النّفسيّة والفكريّة الّتي أُنْزلت فيه لم تتسرّب إلى تجارب الشّعراء لِتطلَّ بهم على عالم الرّوح ، أي عالم الحقيقة الفعليّة . وإذا كان الشّاعر يحتذي مثالاً ، فإن مثاله الأعلى ظل الشّعر الجاهلي ، كما أن بيئته الماديّة ظلّت ، عند الشعراء الكلاسيكيين أمثال المثلّث الأموي ، البيئة الجاهليّة ذاتها .

ب — **الموضوعات والمعاني الوصفيّة** : قلنا إن بيئة الشّاعر الأموي ظلّت جاهليّة يستحضر فيها معالم الصحراء في نباتها القاسي وسرابها وحيوانها وبخاصّة الحمار والثّور الوحشيّين في طبيعة عيشهما وصراعهما وطلبهما للماء والكلأ. وقد شغف الأخطل شغفاً خاصاً بهذه الموضوعات ، فتراه يتردّد عليها ، كما بيّنا ويستطرد فيها ويمعن بالسّرد وإيراد الجزئيّات والاعراض . ويكاد الأخطل لا يمدح أو يهجو أو يفخر حتّى يستهلّ بهذه الموضوعات في مقدّمات قد تطول حتى على الموضوع الرّئيسي وتطغى عليه ، وربّما وردت أبيات المدح أو الهجاء في نهاية القصيدة كذيل ملحق بها . وهو لا يستعير من القدماء في ذلك موضوعاتهم وحسب ، بل تكنية الاسلوب المتردّد على الظّاهرة الواحدة عبر الفوضى ، يلمّ بها ثم يدعها ليرتدّ إليها من جديد ، كما أنّه يغرق في الكنايات والتّشابيه الحسيّة مثلهم . وقد رأينا أن بعض معاني الدّين الجديد تسرّبت إلى خمريّاته ، الا أنها ظلت ، في مجملها ، تقليديّة ، تحتذي حذو الأعشى ، وربّما تقتبس منه اقتباساً حرفيّاً .

يقول الأعشى في وصف الزّق :

تَحْسَبُ الزقَّ لديها مسنداً حبشيّاً نام عمداً ، فانبطح

والتشبيه يقوم على الدّقّة التعادليّة المؤلّفة تأليفاً . فالزقّ يشبه الحبشيّ ، في لونه الأسود ، وقد جعل الحبشي منبطحاً لتتكامل وتتماثل الصّورة إذ لا يكون الزقُّ قائماً ، بل منبطحاً . ولئن وافق ذلك الوصف طباع الجاهلي القائمة على الماديّة المغرقة ، فإن الأخطل لم يعفّ عن اقتباسه وتقليده إذ قال :

أناخوا فجرُّوا شاصيات كأنّها رجالٌ من السُّودانِ لم يتَسَرْبَلُوا

فالتّشبيه متماثل ، كما أن اسلوبه متقابل ، أيضاً ، إذ جعل الأول الحبشيَّ منبطحاً ، فيما أكّد الثّاني على السّواد ، فجعل الحبشي عارياً ليتألّق سواده ويسطع . والمهم

في ذلك أن الأخطل اتّخذ المعنى الخمريّ من التّقليد وخرّجه بنوع من التّخريج الذّاتي العاطل عن الخلق .

ولا يعدو ذلك ما وصفا به ريحها في سورة الغلوّ إذ قال الأعشى :

من خمر عانة قد أتى لختامها حول ، تسُلُّ غمامة المزكوم

وآية القول ، هنا ، ان المزكوم تتعطّل فيه حاسّة الشّم ، وقد بلغت الخمرة من الحدّة أنّها تنفذ إلى خياشيم من تعطلّت فيه حاسة الشّم وتنفح فيه ريحها . ومع أن الأخطل واقع الخمرة مواقعة ذاتية ، حميمة ، فإنه لم يُوَفّق إلى تلمّس ما دون ذلك ، فاستعاره ، بل تلقّفه بأيسر سبيل إذ قال :

وإذا تعاورت الأكفُ زُجاجها نَفَحَتْ ، فشمَّ رياحَها المَزْكومُ

ولقد خرّج المعنى السّابق تخريجاً خاصّاً به في أسلوبه اللّفظي حيث ذكر ريحها بصيغة الجمع ، موحياً من ذلك بشدّتها وكثرتها، بل إنها لتعصف عصفاً إذ الرّيح تستكين ولا تتبلّد كالنّسيم . وهذا ما كنا نشير إليه في قولنا إن مظهر التّجديد اقتصر لديه على التأويل والتخريج والتّعبير لتأديّة الغلوّ في سورته النّائية .

ويجري على ذلك قوله فيما يلي :

قال الأعشى : فترى إبريقهم مسترعفاً بشمولٍ صُفّقَتْ من ماء شَنْ

أي ان الخمرة تنزف من الابريق ، كما ينزف الدّم من الجريح ، وهو انما يمثّل بذلك احمرار الخمرة ، نامياً اليها صفة حيّة إذ لا تزال الدّماء ترمز إلى الحياة . فكان الدنّ جريح ، أو كأن الناس يحتسون دمه . وقد تولى الأخطل مثل هذا المعنى ، بفعل « أدمى » وهو يوازي فعل استرعف :

تُدْمى إذا طعنوا فيها بجائفةٍ فوق الزجاجِ ، عتيقٌ غيرُ مُسْطارِ

ووجه الجدَّة في قوله أنهم يطعنونها طعناً ، كأنَّ الدَّنَّ ناقة تُذْبح فتئنّ ويسيل دمها . فالمعنى مستفاد من القديم ومخرَّج تخريجاً جديداً .

ويقول الأعشى :

وإذا غاضتْ رَفعْنا زقَّنا طَلِقَ الأوْداجِ فيها فانسَفَح

فالزقُّ يسفح سفحاً ويبذل دمه وتتطلّق أوداجه . فهو مثيل للزق المتقدمذكره . أما الأخطل فيصفه بالقدم والهرم ويمثّل تفوُّر الخمرة منه بالدَّم الذي يتفوَّر من العرق المبزول ، النّعر :

سُلافة حَصلتْ من شارِف خَلَقٍ كأنّما ثار منها أَبْجَلٌ نَعِر

وإذ يقرن الأعشى شعاعها بالشَّمس في قوله :

كأنَّ شُعاعَ قَرْنِ الشمسِ فيها إذا ما فتَّ عن فِيها الخِتاما

يقرنه الأخطل بالكوكب المرّيخ الشديد التألّق :

فجاء بهـا كأنّمـا في إنائِـه بها الكوكبُ المرِّيخُ تصفو وتُزْبد

ويذكر الاعشى تماطل صاحبها بها وامتناعه عن بيعها ، مؤملاً الثّراء والربح الكثير :

يُؤَمِّـل أن تكونَ لـه ثراءً فأغلَق دونَها وغَلا سِواما

وكذلك صاحب الخمرة الأخطليّة ، تراه يضنُّ بها ويحرص عليها :

إذا أقول تَراضَيْنا على ثَمَنٍ ضَنَّتْ بها نفسُ خَبٍّ البيعِ مكَّار

أما تشبيه صفائها بعين الدّيك ، فهو قائم ، مكرور بين الشّاعرين .

يقول الأعشى :

وكأسٍ كعَيْنِ الدِّيكِ باكَرتُ حدَّهـا
بفِتْيانِ صِدْقٍ والنواقيسُ تُضْرَبُ

الأخطل :

وكأسٍ مثلِ عَيْنِ الدّيكِ صِرْفٍ تُنَسِّي الشاربِينَ لها العُقولا

ولم يقتصر تأثر الأخطل في وصف الخمر على الأعشى ، فتأثر في بعض صوره بامرىء القيس ، وحسان بن ثابت ، وعدي بن زيد [1] .

امرؤ القيس :

وكأنَّ شاربَها أصاب لسانَـه مُومٌ يُخالِط خَبْلَه بعِظام

الأخطل :

وكأن شاربَها أصاب لسانَـه من داء خَيْبَرَ أو تِهامةَ مُوم

امرؤ القيس :

وأخِي إخاء ذي محافَظَـةٍ سَهْلِ الخَليقةِ ماجدِ الأصْل
حُلْوٍ إذا ما جئتُ قال ألا في الرَّحْب أنتَ ومَنْزِلِ السَّهْل
نازعتُهُ كأسَ الصَّبُوحِ ولـمْ أجْهَلْ مُجِدَّةَ عِذْرة الرَّجْلِ

الأخطل :

وشاربٍ مُرْبحٍ بالكأس نادمَني لا بالحَصُور ولا فيها بَسوّار
نازعتُه طَيِّبَ الرّاحِ الشَّمُولِ وقد صاح الدَّجاجُ وحانت وقعةُ الساري

---

١ ـ الأخطل: مصطفى عازي ، ص : ٢٢٦

امرؤ القيس :

فظلِلْتُ في دِمَنِ الدّيار كأنني نَشْوانُ باكَره صَبُوحُ مُدام

الأخطل :

كأنّني شاربٌ يومَ استُبِدَّ بهم من قَرْقَفٍ ضَمِنَتْها حِمْصُ أو جَدَرَ

حسان :

تَدِبُّ في الجسمِ دَبِيباً كما دَبَّ دَبىً وَسْطَ رَقَاقٍ هَيَام

الأخطل :

تَدِبُّ دَبِيباً في العظامِ كأنَّه دبيبُ نِمالٍ في نَقَا يتهيَّل

حسان :

ولقد شَرِبْتُ الخَمْرَ في حانُوتِها صَهْباءَ صافيةً كطَعْمِ الفُلْفُل

الأخطل :

ولقد شَرِبْتُ الخَمْرَ في حانُوتها ولعِبْتُ بالقَيْناتِ كلَّ المَلْعَب

عدي :

كأنَّ رِيحَ المِسْكِ في كأسِها إذا مَزَجْناها بِماء السَّما

الأخطل :

كأنَّما المِسْكُ نُهْبَى بين أَرْحُلِنا مما تَضوَّع من ناجُودِها الجاري

وقد أفاد كذلك معاني في سائر أوصافه :

كعب :

بانَتْ سُعادُ فقلْبِي اليومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُول

الأخطل :

بانَتْ سُعادُ ففي العَيْنينِ مُلْمول من حبِّها وصحيحُ الجسمِ مخبول

كعب :

من كلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى إذاعَرِقتْ عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مَجْهول

الأخطل :

قَنْواءَ نَضَّاحَةِ الذِّفْرَى مفرَّجةٍ مِرْفَقُها عن ضُلوعِ الزَّوْرِ مَفْتول

كعب :

يَوْماً يَظَلُّ به الحِرْباءُ مُصْطخِداً كأنَّ ضاحِيَهُ بالشمس مَمْلول

الأخطل :

وظَلَّ حِرْباؤُها للشمس مُصْطخِداً كأنه وارمُ الأوْداجِ مختَنِق

طرفة :

كقَنْطرةِ الرُّوميِّ أقْسَمَ ربُّها لَتُكْتَنفَنْ حتى تُشادَ بقَرْمَد

الأخطل :

كأنها بُرْجُ رُوميٍّ يُشَيِّده لُزَّ بجصٍّ وآجُرٍّ وأحْجار

علقمة :

هلْ تُلْحِقَنِّي بأُولَى القَوْم إذْ شَحَطُوا جُلْذِيَّةٌ كأتانِ الضَّحْلِ عُلْكوم

الأخطل :

بِحُرَّةٍ كأتانِ الضَّحْلِ أضْمَرَها بعدَ الرِّبالةِ تَرْحالي وتَسْياري

امرؤ القيس :

كأنَّ بها هرًّا جنيباً تجرُّه بكُلِّ طريقٍ صَادَفَتْهُ وَمَأزَقِ

الأخطل :

كأنما يَعْتَريها كلَّما وخَدَتْ هِرٌّ جَنِيبٌ به مسٌّ من الكَلَب

امرؤ القيس :

إلى عِرْقِ الثَّرَى وشَجَتْ عُروقي وهذا الموتُ يسلُبُني شبابي
ونفسِي سَوْفَ يَسْلُبُني وجِرْمِي ويُلْحِقُني وَشِيكاً في التراب
وأعلمُ أنّني عما قليلٍ سأنْشَبُ في شَبَا ظُفُرٍ وناب

الأخطل :

ونفسُ المرءِ تَرْصُدُها المنايا وتَحْدُرُ حولَه حتى يُصابا
إذا أمَرتْ به ألقتْ عليه أحدَّ سلاحِها ظُفُراً ونابا
وأعلمُ أنني عما قليلٍ ستكسوني جنادلَ أو ترابا

النابغة :

نظرتْ بمُقْلةِ شادنٍ مُتَربِّبٍ أحْوَى أحَمَّ المُقْلَتَيْنِ مُقَلَّد

الأخطل :

تَرْنو بمُقْلَةِ جُؤذَرٍ بخَميلةٍ وبمُشْرِقٍ بَهِجٍ وجِيدِ غزال

الأعشى :

غَرّاءُ فَرْعاءُ مصقولٌ عَوارضُها
تَمْشي الهُوَيْنَى كما يمشي الوجِي الوحل

الأخطل :

غَرّاءُ فَرْعاءُ مصقولٌ عَوارِضُها كأنَّها أحْوَرُ العينَيْنِ مَكحُول

الأعشى :

وقد قالتْ قُتَيْلَةُ إذ رأتْنِي وقد لا تَعدَمُ الحسناءُ ذَاما
أراكَ كبِرْتَ واستحدثْتَ خُلْقاً وودَّعْتَ الكواعِبَ والمُداما
فإنْ تكُ لِمَّتي يا قَتْلُ أَضحتْ كأنَّ على مفارقِها ثَغاما
وأَقْصَرَ باطِلي وصَحْوتُ حتى كأنْ لمْ أجْرِ في دَدَنٍ غُلاما
فإنّ دوائرَ الأيامِ يُفْنِي تَتابُعُ وَقْعِها الذَّكَرَ الحساما

الأخطل :

فإن يك رِيِّقي قد بان مني فقد أروي به الرَّسل اللِّهابا

وربَّما قلَّده ونسخ عنه في وصف الثور الوحشي . قال النَّابغة :

مُجرَّسٌ وَحَدٌ جَأَبٌ أطاع له نباتُ غَيْثٍ من الوَسْميِّ مِبْكار

الأخطل :

أو مُقْفرٌ خاضبُ الأظلافِ جاد له غيثٌ تَظاهر في مَيْثاء مِبْكار

النابغة :

وبات ضيفاً لأرْطاةٍ وألْجأه مع الظلام إليها وابلٌ سار

الأخطل :

فبات في جنبِ أَرْطاةٍ تُكفئُه ريحٌ شآميةٌ هبتْ بأمطار

النابغة :

باتت لـه ليلـةٌ شهباءُ تضربه منها مَخاشِبُ شَفَّانٍ وأمطار

الأخطل :

يجول ليلَته والعَيْنُ تضربه منهـا بغيثٍ أجشِّ الرعد نيار

النابغة :

سَراتُه ما خـلا لبَّاتِه لَهَـقٌ وفي القوائم مثلُ الوَشْمِ بالقار

الأخطل :

أَما السَّراةُ فمن ديباجةٍ لَهَقٍ وبالقوائم مثلُ الوَشْمِ بالقار

النابغة :

حتى إذا ما انجلت ظلماءُ ليلتِه وأسفر الصبحُ عنه أيَّ إسفار

الأخطل :

حتى إذا انجاب عنه الليلُ وانكشفتْ سماؤه عن أديمٍ مُصْحرٍ عار

النابغة :

أهْوَى له قانِصٌ يسعى بأكلُبِه عارِي الأشاجع من قُنَّاص أنمار

الأخطل :

آنسَ صوتَ قَنيصٍ إذْ أحسَّ بهم كالجِنِّ يَهْفُون من جَرْمٍ وأنمار

النابغة :

مُحالفُ الصَّيْدِ هَبَّاشٌ له لَحَمٌ ما إن عليهُ ثيابٌ غيرُ أطمار

الأخطل :

في بيت منخرقِ السِّرْبالِ معتَمِلٍ ما إن عليه ثيابٌ غيرُ أطمار

النابغة :

انقضَّ كالكوكبِ الدُّرِّيِّ مُنْصَلتاً يَهوِي ويَخلِط تقريباً بإحضار

الأخطل :

فانصاع كالكوكبِ الدُّريِّ مَيْعَتُهُ غضبانَ يَخْلِط من مَعْجٍ وإحضار

ولقد توسل ، غالباً ، القسم في معرض التأكيد كقوله :

فلا لَعَمْرُ الذي مسَّحْتُ كعبتَه وما هُريقَ على الأنصابِ من جَسد
والمُؤْمنِ العائذاتِ الطيرَ تَمْسحُها رُكبانُ مكةَ بين الغَيْلِ والسَّعَد
ما قلتُ من سَيِّءٍ مما أُتيتَ بـه إذاً فلا رَفعتْ سَوْطِي إليَّ يدي

وقوله :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك رِيبةً وهل يَأْتَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهوْ طائع
بمُصْطحِباتٍ من لَصافٍ وثَبْرةٍ يزُرْنَ إلالاً سيرُهنَّ التدافُع
سَماماً تباري الريحَ خُوصاً عيونُها لهنَّ رذَايا بالطريق ودائـع
عليهنَّ شُعْثٌ عامدون لحجِّهم فهنَّ كأطراف القسيِّ خواضع
لكلَّفْتني ذنبَ امرئٍ وتركتَه كذي العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو راتع

وقوله :

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مَثْنَويَّةٍ ولا علِمَ إلا حُسْنُ ظَنٍّ بصاحب
لئنْ كان للقَبْرَيْنِ: قبرٍ بجِلِّقٍ وقبرٍ بصَيْداءَ الذي عند حارِب
وللحارثِ الجَفْنيِّ سيدِ قومِـه لَيَلْتَمِسَنْ بالجيش دارَ المُحارب

ولقد اتخذ الأخطل أداة القسم وخرَّجها على فنِّيته الخاصّة به في قوله :

إنّي حلفتُ بربِّ الراقصات ومـا أَضحى بمكةَ من حُجْب وأستارِ
وبالهَدِيّ إذا احمرَّتْ مذارعُـها في يوم نُسكٍ وتشريقٍ وتَنحار
وما بزمزمَ من شُمْط محلَّقةٍ وما بيثربَ من عُون وأبكار
لألجأَتْني قريش خائفاً وجِـلا ومولَتْني قريش بعد إقتـار

وفي مدح عبد الله :

ولقد حلفتُ بربِّ موسى جاهداً والبيتِ ذي الحُرمات والأستارِ
وبكلِّ مُهْتَبلٍ عليه مُسوحُـه دونَ السماءِ مسبِّحٍ جأّر
لأحَبِّرَنْ لابن الخليفـة مِدْحةً ولأقذفنَّ بهـا إلى الأمصـار

وفي مدح بشر :

إني وربِّ النصارى عند عيدهِم والمسلمين إذا ما ضمَّها الجُمَعُ
وربِّ كلِّ حبيس فوق صَومعة يُمْسِي ولا همُّه الدنيا ولا الطمع
والمُلْبدين على خُوصٍ مُخدَّمة قد بان فيهن من طول السُّرَى خضَع

هذا وقد اتخذ من زهير تكنية الشِّعر الحوليِّ ، المثقَّف ، المحكّك القائم على الموصوفات وعرض المشاهد الحسيَّة المتمادية والمتنامية والمبذولة على أقساط حتّى

نهايتها ، بل إنّه اقتبس منه التّعبير الصّوري حيث تستحيل الفكرة المختزنة في الذّهن الى صورة تشاهد في البصر ، مستمدّة من واقع البيئة ومستفادة من الخبرة الحسيّة في معالم الطبيعة وغرائز الحيوان وطبائع الانسان .

وعلى الجملة نقول إن الرّؤيا الشّعريّة العامة ، عند الأخطل ، ظلّت مماثلة للرؤيا الجاهليّة ، كما أن القيم التي استمدّ منها معانيه ظلّت جاهليّة ، فيما عدا بعض المعاني السياسيّة الطّارئة .

جـ — **أنّه التزم جانب الأحداث ، من دون التأمل** : ذكرنا مراراً ان الشّعر ينطلق من الأحداث ، ينفعل بها أو يفعل فيها ، لكنّه لا يحفل بها في حدود تجربته القائمة على التأمّل حيث تتضاءل رقعة الواقع وسجلّ أحداثه . ولقد انخرط الأخطل في السّياسة والتزم جانباً فيها ووقف موقفاً ، ممّا اقتضاه سوق الادلّة والبراهين والجدل والنّقاش . وهي من مستلزمات النّثر ، تهيض بالشّعر وتسفحه . واتصال شعره بالوقائع الفعليّة ونقله لدويّها وأحداثها ، أضفى عليه الصّفة الواقعيّة البرهانيّة ، كذكر الأيام واسماء القبائل والأبطال ، مفصّلاً ، مجزّءاً ، مغالياً ، مؤكداً لوجهة نظر ألزمته ببعض الأعراض والردّ والاحتجاج ، فظلّ شعره بذلك ، كمعظم الشّعر الجاهلي أداةً للنّضال ، ينتضى في وجه الخصم كالسّيف . ولسنا نزعم أن الشعر هو تعبير عن الغيبيّات والمجرّدات والذّهنيّات ، بل إنّه متصل أشدّ الاتصال بالواقع ، لكنّه واقع آخر ، مستمدّ من الواقع المبذول ، هو الواقع الذي تسقط منه الاعراض والجزئيات والأحداث السرديّة ويستبطن عبر الرّؤيا ، يحلّ فيها ولا ينفصل عنها ولا تبين معالمه فيها . الشعر هو استحضار لضمير الواقع وكشف لرموزه فوق الأحداث والاشخاص والزّمان والمكان ، يتلامح الواقع من خلاله ويستشفّ ، لكنه لا ينبو ولا يطغى ولا يجفو . ومع أن الوصف يصدر عن نزعة المحاكاة والتقليد والتضخيم ، فإنه أدنى إلى السويّة الشعريّة من السّرد وإيراد الاحداث والحجج . ذاك أن المتعة الجماليّة تغلب عليه ، فيما تغلب على السّرد المنفعة والأهداف الخارجيّة وغاية الاقناع بالحجّة . والشّعر يُقنع بذاته ،

من دون حاجة لغاية خارجة عنه . ويمكننا القول ان الجانب السياسي وجانب النقائض هما ساقطان من حيث مبدإ الشعر لطفوِّ أقذاء الواقع وغثاءه عليهما . وقد يكون غزل عمر بن أبي ربيعة أدنى إلى السوية الشعريَّة لو لم ينصرف فيه هو الآخر إلى الأحداث والمنزع القصصي . وقد كان الشعر العربي مرتهناً للتقليد المباشر ، فإذا خرج الشاعر عنه ، وأفصح عن معاناته لم يتولها في إطار من التَّأمُّل والرُّؤيا ، بل إنه يسيخ لها وينحني للأحداث الطارئة المدويَّة فيها . وفي ذاك كله وجه من وجوه التقليد المستمرِّ المتحدِّر من صلب الشعر العربي أو المستقرِّ في عموده .

د ـ **اذعانه فيه لمقتضيات المناسبة** : ولقد تولد من ذلك كله ان الشَّاعر فقد حريَّته إزاء نفسه وإزاء القيم والحياة والعالم ، ينفعل بانفعال سواه ويرى برؤيته ويتسخَّر له ، جاعلاً صوت الشعر في بوق الدّعاية والدَّعوة ، ينفح فيه بريح النِّفاق والكذب والمداجاة . وشاعر المدح يفقد ، أبداً ، صوته ونبرته الخاصة ويستعير أصوات الآخرين ، يقول فيهم ما يطيب له سماعه ، ويؤيد لهم أو عليهم ، وفقاً للمنفعة والرِّبح والخسارة . وصوت الشعر الأوَّل هو صوت الصّدق والاخلاص ، بل إنَّه متصل اتصالاً مباشرا بالضمير ، وإذا ما التفت الشاعر إلى خارج نفسه أو صحبه طيف النَّاس ودويّ الأحداث واذعن لها وانساق في سياقها انقطعت صلته بالحقيقة أو تضاءلَتْ . فهل ان الأخطل كان صادقاً في مدحه عبد الله .بن معاوية ، وقد كان قُعَدة ، خاملاً ، أهزوءة لوالده ولذويه ؟ لقد استدرَّ بمدحه عطاء والديه ، مزوِّراً المعاني في مدح والده معاوية . والشاعر الكبير يأنف من ذلك ويعفُّ عنه لأن الشعر الكبير يتولَّد من ممارسة الحقيقة ومعايشتها والتألم بل الاستشهاد من دونها . وقد تشفع به براعه التعبير وحسن التخلص أو التكيُّف أو التزام مقتضى الحال . إلا أنه ، مع ذلك ، يظلُّ مستعبداً لأغراض خارجيَّة ، ساقطة تحت وطأة الوعي ورغبة الممالأة والتكيُّف ، فيتعطل الذُّهول ومعه الخلق . الشعر الكبير يتولَّد من الحريَّة المطلقة المتخلِّصة حتى من قيم الخير والشر والحلال والحرام ، الحريـة المتمرِّدة على مفاهيم العالم كله لتهدمه وتبنيه من جديد بالخلق النَّفسي . فإذا اقتضي على الشاعر التزام موقف التقيد بمعطيات ومقتضيات بات ينظم نظماً

ويؤلّف تأليفاً ويزوّر ويرقّش ، مما يفقد الشعر غايته النهائية الا وهي الحقيقة الأولى الحالة فيه أو الكائنة في ضميره . يشاهدها بالرّؤيا المنبثّة من داخله ، ليست مفصولة عنه ، لا يفهمها بفهمه أو يحكم عليها بحكمه . ولا غلوّ ، من بعد ، في القول بان شعر المدح والاسترضاء ، أي الشعر الّذي لا تتحد فيه ذات الشاعر وذات الممدوح ، كما كان دأب المتنبي ، حيناً ، وسيف الدولة ، إنما هو شعر محمول ، مدخول ، تعطّل فيه الابداع من تعطل الحريّة . ومن هنا كانت العلاقة بين التجربة الشعرية والتجربة الصوفيّة ، إذ كلاهما تستطلعان وجه الحقيقة والله بالتخلّص النهائي من ادران الوعي وأحكامه ومستلزماته، ومن وطأة الوجود وحدوده والمنطق ومداوراته . ولعلّ مدائح الأخطل في عبد الملك ذاته ، وان كانت أصفى مدائحه لم تخلص من الشوائب إذ كان الغرض الخارجي يطغى عليها والمصلحة السياسية توجهها وتُزْجيها ، كما تولد المعاني وفقاً لمآربها . وأظهر ما يبدو ذلك في دعوته لعبد الملك دعوة دينيّة ، يقول فيها بالايمان والالحاد ، ممّا لم يكن يؤمن به ويجري عليه . وبذلك يكون الأخطل قد سقط سقطة مميتة ، منذ انطلاقه ، إذ حوّل الشعر إلى بوق أو صنج يعدو به أمام الآخرين أو إثرهم ، يرتهن لذلك كالأجير .

ولا معوّل لذلك كله ولا شفاعة في جمال العبارة وحسن توقيعها ، إذ لا فاصل ولا حدّ في ذلك . فالرُّؤيا الشعرية الصّادقة تحدس لها عبارتها وتكون فيها بخلق سويٍّ متكامل . وهل نزعم إثر ذلك أن مدائح الأخطل عديمة القيمة في الرّصيد الأخير للتقييم الفني . نقول إن شعر المدح ساقط في مبدئه لازدواج التجربة فيه ومضاعفتها بين الشاعر والممدوح ومن ارتهانه لغاية الارضاء والاعجاب ؛ وربّما خطر بعض الشعراء بفلذة أو فلذات شعريّة عبرها ، وذلك إذ تتحد المعاناة الخاصة والمعاناة العامّة ويرتفع الشاعر عن أديم الأحداث والمظاهر ومن واقع الأشخاص إلى واقع الوجود ، يوحّد الجزء بالكل ويتصل بالحقيقة العاقلة الفعلية والمعاناة الوجوديّة ، من دون تلك المبالغات الحمقاء ، وذلك التفشير الأرعن الذي يحيل الشعر إلى ترّهات عجفاء .

نقع على مثل ذلك في مقاطع يتغنى فيها الأخطل ببطولة عبد الملك حيث تتّحد

ذاتا الشّاعر والممدوح في معاناة البطولة . وقد كان الأخطل يعجب بالممدوح اعجابا فعلياً ، فامتنع الازدواج وتوحّد الولاء للحقيقة ، فصفت التجربة وتجلّت في مثل قوله :

يَغْشَى القناطر يبنيها ويهدمها مسوَّم فوقه الرَّايات والقتر
حتّى تكون لـه بالطفِّ ملحمة وبالثَّوية لم يَنْبض لها وَتَرُ

كما ان وصفه لفيضان الفرات قد يُحْمل على محمل آخر ، نقطع فيه صلته بمعنى الكرم والمفاضلة بين النّهر والممدوح لنتّخذ منه نموذجاً تغنّى فيه الشاعر بأحد عناصر الطبيعة ، ممجّداً القوّة ، مترّوعاً أمامها ، حاشدا لها حشده الفنيّ كُلَّه . وقد يخرّج مدحه للوليد مخرج المودّة والصّداقة والعتاب والزّهو والفرح بنعمة الوجود ونشوة الطبيعة ، إذ يعرض فيه لوصف الخَيْل والقطا ، كما يعرض لوصف النَّهر ، كظاهرة من مظاهر الطبيعة التي يُفْتَن بجمالها أو سرعتها أو غريزتها وقدرتها على الاحتمال . ولعلّ مدائحه في الوليد بن يزيد تُسفّ وتتداعى لانخذاله عبرها وتزويره للمعاني ، بعد ان افتقد عنجهيّته القديمة وبات يستدرّ العطف ويسترحم . وهكذا يمكننا القول ان مدحه يسمو ويصفو عندما يتجاوز به الممدوح ولا يُرْتَهَنُ له فيه ولا يكاذب ويخاتل في سبيله ، بل يعرض من خلاله إلى القيم الانسانية العامّة والمظاهر الطبيعية حيث يتحد انفعاله ويحلّ فيها بنوعٍ من الصُّوفيَّة العميقة والوثائق الحميمة التي تنفد به إلى ضمائرها ، كما سوف نبيّن . وجملة القول في ذلك إن الأغراض الخارجيَّة أكْدَتْ على صفاء التجربة الشعرية وأشركت بها عند الأخطل ، كما أن سعيه إلى نقض معاني خصمه قيده في حدود الردّ والبيّنة والمبارزة ، ممّا أفقد الشعر قليلاً أو كثيراً من حريّته .

ثانياً : مظاهر التجديد :

أ — **الذّاتيّة** : ونفهم بها تلك النّبرة الخاصة الّتي يبثّها الشاعر في الموضوعات ومعانيها ، فتبدو وكأنها صدرت عن معاناةٍ فعليّة صادقة ، تفصح عن نفسه وعن

واقعه ، وان كانت قد سلفت فيمن تقدّمه أو وردت فيمن عاصره . وإذا كانت هذه الذّاتيّة شبه متعفّـية في مطالعه الطّـلليّة لانعدام همومه الوجودية وشعوره بنزوح الزّمن وتصرُّمه ، فإنّه بثّ قليلاً أو كثيراً منها في سائر موضوعاته . فأنت لو نظرت في مدحه ليزيد بقوله :

ألا يا اسلما على التّقادم والبلى بدَوْمَة خَبْتٍ أَيُّهـا الطّلان
فلو كنت محصوباً بدومة ، مدنفاً أُسقّى بريقٍ من سُعاد شفاني
وكيف يداويني الطبيب من الجوى وبَـرَّة عندَ الأعور بن بيان
أتجعل بطناً مُنْتن الرِّيح ، مُقْفِراً على بطن خودٍ ، دائم الخفقانِ
ينهنهني الحرّاس عنهـا وليتني قطعت إليهـا الليل بالرّسفانِ
فهلاّ زجرت الطير لَيْلَـةَ جئته بضيقة بين النـجم والدّبران

هذه الأبيات وبخاصة أوّلها لا تحمل معنى جديداً إذ أن تحيّة الطّـلل مأثورة منذ امرىء القيس ومن اليه . إلا أنك تشعر عبرها، مع ذلك، بمعاناة الوَجْد والوحشة التي تنتمي ،ظاهراً،إلى الطّـلَلِ ،فيما هي تصدر فعلاً غن شعور بالخيبة من مصير الأشياء في الوجود . بل ان النـغم الذي يكسوها به موحش في ذاته ، تنداح عبره لفظة لفظة « ألا » بالشجو والقنوط والسّويداء ، كما أن الألف وسائر حروف اللين ومضت كالأنغام على أوتار البيت ، فبات مفعماً بحسٍّ النـدم والافتقاد . أو ليس في مخاطبة طللين ، بدلاً من الطلل الواحد شيءُ من الذّاتيّة ؟ إن الأخطل لا يتحدّث بالطلل وليس لديه وعي أو معاناة دائمة لتجربته ؛ وهو في هذا البيت يصدر عن حسٍّ عام بالتخاذل أفصح عنه في الأبيات التالية من خلال مصير الجمال في الوجود . نقول في مثل ذلك إن الشّاعر بثّ سويداءه الخاصّة الصّادقة من خلال الموضوع التقليديِّ الموات . وليس في البيت جدّة في المعنى وان كان شديد الغلوّ ، ومع ذلك،فإنه عميق الوقع لما ينطوي عليه من ذهول وبراءة وعذوبة في العاطفة .

فهو يتمنَّى أن يُصيبه الداء ليبرأ برضاب الحبيبة وسذاجة العاطفة تعوِّض عن قدمها ، كما أن النَّغم كئيب ، شاحب . فهذا كلام خاص بالأخطل وحده ، عاناه ونفثه بروح جديدة نفحت فيه الحياة . ولئن لم ينفذ فيه إلى رؤيا عامة ، فان شدَّة صدقه فيه توهم بجدَّته ، بل تجعله جديداً فعلاً . وسرعان ما تتحوَّل السَّويداء إلى يأس ، يُلْمح إليه ولا يُفصح إذ يتساءل بالقول :

وكيف يدواويني الطَّبيب من الجوى وبرَّة عند الأعور بن بنـان

والتساؤل ينمُّ ، هنا ، عن القنوط ، عن قنوط شبه وجوديٍّ إذ لا يطيق الشَّاعر العيش ما دام الجمال مرتهناً إلى القبح والنَّتن . وبذلك يتَّسع أفق معاناته ، لا يلتزم فيها الدِّفاع السَّاقط عن خليفة بشهادة زور ، بل يدافع وييأس ويقنط لمصير القيم وهلاكها في الوجود . الذَّاتيَّة تولدت من هذا الموقف العفويِّ البريء الذي لا قبل له بدفع أساه لأنه حتم مطبق عليه . وربَّما عانقت الذَّاتيَّة ، هنا ، الموضوعيَّة والتجربة الشاملة العامة إذ أيقن الشَّاعر إن أقدار الظلم والغباء تصيِّر مصائر الناس وأقدارهم . هنا عثر الأخطل على نفسه ، وعانى مصير الحقيقة ، لا يراضي امرءاً ولا يقول قوله ولا يخدم مأربه .

ومن اليأس تتطوَّر تجربته إلى الثورة والنَّقمة إذ يتساءل :

أتجعل بطنـاً منتن الرِّيح مقفراً على بطن خود دائم الخفقـان

والذَّاتية تتمثل هنا ، أيضاً ، ببراءة الانفعال وصراحته . فهو لا يأنف من ذكر لفظة « البطن » تدليلاً على تدنس الجمال وتعفُّره وامتهانه تحت وطأة القبح وريحه الكريهة . لقد ضامه أن يدع القبح يفترع الجمال ويروغ عليه ويمتلكه وينعم به . وليس القنوط الذي يعانيه في ذلك كله الا تعبيراً عن تقديسه المطلق للجمال وتعبُّده في محرابه . هكذا ، فإنّ عمق تحسسه الذّاتي بمعنى الأشياء جعله يقف منها موقفاً، ويعاني من جرّائها أشد أحوال اليأس والثورة والحيرة .

هذا شعر لا تتضاعف فيه الصّورة ولا تحلولك ولا تتحوّل إلى رؤيا ، ومع ذلك ، فإن عمق الذّاتيَّة فيه وشدَّة البراءة يجعلانه من أصدق الشّعر وأعمقه ، خارجاً عن الأطر المأثورة والهموم المتداولة المطروقة في تجاربه . وقد نُسمّي هذا الشعر هجاءً ، إلا أنه ليس هجاء القذف ، بل هجاء وجوديّ يعاني حسرة الحقيقة ووحشة انكسارها وتبذّلها . ولنتمثل الفلذة الفولكلوريَّة الحميمة ، الصّادقة في قوله :

فهلاّ زجَرْتِ الطَيْر ليلة جئته بضيقة بين النجم والدّبرانِ

ولقد تقمصَّت ذاتيته ، هنا ، بالبيئة وتقاليدها وإيمانها الغامض بأقدار النحس والسَّعد ، مما عمق تجربته الخاصَّة بمضمون التجربة العامة . وفي يقيني أن هذا الشعر على براءته وسويدائه وعذوبة وقعه هو أعمق من تلك المعاني الطائشة الخرقاء التي كان يزوّرها للممدوح . وإذا كانت لا تخلو من الصَّنعة في توقيع العبارة ، فإنها صعنة لطيفة، خفيَّة لم تُعفّ على ذاتيته وصراحته وبداءة عاطفته وعمقها .

ولقد كان الأخطل يعاني في تلك المرحلة معاناة جماليَّة صائبة ، يعالج بها تجاربه الخاصة ، فيذكر مثلا التقاءه بذئب وغراب في القفر ولا يأنف من ذكر خوفه إذ لم يكن قد ارتدى، بعد، رداء الفروسيَّة المخادعة . وبذكر هذه الحادثة تتماثل الذّاتيَّة والسِّيرة الخاصَّة . ويعرض في هذه القصيدة للصحراء وللقطا والسباق ، وهي ذاتية ، طبعت تجربته بطابع العذوبة والصِّدق .

وربّما انساق الشّاعر بهذه الذّاتيَّة الظّاهرة المضمرة إلى الاسراف في اعتماد الموضوعات الوصفيَّة واستحضار أجواء الصحراء بحيوانها وطيرها ونباتها وسرابها وريحها ومطرها وبرقها ورعدها . ومع أن هذه الموضوعات تقليديَّة ، فإن انصرافه إليها انصرافاً خاصاً نمَّ عن عمق تجربته وإيثاره لها ، فكأنه كان يتغنّى برومنسيَّة الطبيعة والبداءة والصحراء . ولم يكن تردُّده على الخمريّات من باب العرض والتّقليد وحسب ، بل في سبيل التّعبير عن تجربته الذّاتية التّي كانت تتحرّر ، حيناً ، وتقع في أسر التّقليد ، حيناً آخر . وعندما تسرّبت تلك الذّاتيَّة إلى مدائحه طعّمتها وبثّت فيها تلك العنجهيَّة السيّالية في مثل قوله :

بني أميَّة قد ناضلت دونكم ابناء قوم هم آووا وهم نصروا
بني أميَّة إني ناصح لكم فلا يبيتنّ فيكم آمنا زُفَرُ

وعبر المدائح كانت ذاتيته تتقمّص في وصف مشاهد البطولة والخَيْل وتسطع وتتألّق في مفاخره بذاته وبقومه . أو لم تكن تفاؤليتّه سبباً في توقيع الأحداث بحيث ينجو الحمار والثور الوحشيّان ويعثران ، غالباً ، على الماء ؟ ومن فضائل هذه الذّاتيّة أنها معتدلة ، عاقلة لا تشتطّ ولا تهذر ولا تهذي ، بل تتسرّب كالروح الغامضة إلى ضمير الموضوع ومعانيه .

ب ــ **اللفظيّة أو النغميّة** : وهي ترتبط بعنايته الفائقة باللّفظ وتخيُّره وتثقيفه في العبارة ، وهي لا تعني قط أنه كان يُشغف باللّفظ لذاته ، كغاية مستقلّة ، والفاظه صريحة ، في معظمها ، يؤثر منها المباشرة الموثقة أشدّ وثاق بمعناها ، إلا أنه يوشّيها ببعض التعاويذ والأدوات ليضاعف من وقعها وينأى بها عن حدود معناها . فهو إذ يقول مثلاً :

ألا يا اسلمي يا هندُ ، هندَ بني بدر وان كان حيّانا عدى ، آخر الدّهر
أسيلة مجرى الدّمع ، أما وشاحها فجارٍ أما الحجل منها ، فما يَجْري

نجد أن « ألا » الاستفتاحيّة تستهلُّ بكثير من الترنّح والذّهول واللّهفة ، وهي معانٍ تواكب معنى التحيّة وتضفره ولا تسفر وتنجلي . ويتضاعف ذلك كلّه بحرف النّداء الذي أردف به وتكرار لفظة هند ، فكأنه وقّع عبارته توقيعاً خاصاً ليفيد منه ذاك النّوع من البثّ الّذي يتسرّب إلى النّفس ويفعل فيها دون وعي منها . وقد يوشّح العبارة بنوع من الجناس التكراري اللّطيف ، الخفر ، كما في قوله : « أما وشاحها ، فجارٍ ، أما الحجل منها فما يَجْري»، حيث تردّد على «أمّا» التّفصيليّة ولفظتي جار ويجري ، فكأن لهذه الأدوات والألفاظ وظيفة إيحائيّة ، ايقاعيّة ترفد وظيفتها المعنوية الملازمة لها. وإذا كانت الصّنعة لا تطفو ولا تطغى

في ذلك كُلّه، فذاك لأن الأخطل لم يتردّد في غواية البديع والزخرف التي تخلب وتطرب ، فيما هي تظلّ خرساء لا تُفصح ولا تَلمح . وحتى في قوله التّالي :

وكنتم إذا تَنْأون منّا ، تعرّضَتْ خيَالاتُكُم أو بتُّ منكُمْ على ذِكْرِ

نعثر على تخيُّر لطيف للفظ وتوزيع إيحائي لحروف اللّين بين الألفاظ ، فكأنّه ينتخب اللّفظة عبر سياق إيقاعيّ عام . وفعل تعرّضت المنسوب إلى الخيالات ينمّ عن بعض الألفاظ التصويريّة الشّفافة التي يعتزي بها الشّاعر ، حينا . ومثل ذلك قوله : « تموت وتحيا بالضّجيع » حيث ازدوج المعنى الواقعي والمعنى التصويريّ .

وعلى الجملة فإن هذه الأبيات وقّعت في عبارة محكّكة ، مصنوعة ، إلا أن صنعتها لا تتجهّم ولا تحلولك بل تجدها مُتَوارية ، خفيّة . والأخطل يحمل بعض الصّيغ على غير مَحْملها ليشتقّ منها دلالة تقوم بغايته ، فيتوسّل صيغة الماضي للتّدليل على الغلوّ ، فضلاً عن الدّيمومة والاستمرار كقوله :

وكنتم بني العجلان ألأم عندنا وأحقَرَ من أن تشهدوا عاليَ الأمْر

ففي فعل « كنتم » ضرب من الغلو من تدليله على القدم والعراقة والزّمن البعيد ، فكأن لؤم بني العجلان وحقارتهم هما أمران مأثوران ، مقرّران فيهما ، منذ عهد سحيق بعيد ، كما أنهم ما زالوا يُقيمون على ما وُسِمُوا به .

ويعمد ، كذلك ، إلى الألفاظ القاطبة التي تسمو بالمعنى إلى ذروته دون تفصيل وانهاك ، كما في قوله :

ونجّى ابن بدر ركضه من رماحنا ونضّاحة الأعطاف ، مُلْهبة الحُضْر

فلفظ « ركض » أوجز المعنى وغالى به ، وبخاصة بعد أن أردفه بالرّماح حيث استحال الرّكض إلى مظهر من مظاهر الهرب والجبن. وقد أضمر في لفظة «ركض »

فضلاً عن ذلك معنى السخرية والشّماتة والعار ، وهي لم تحدس له مباشرة أو أنها حدست وفقاً لتوقيع خفر لطيف يؤلّف معاني متعدّدة ويُعمّقها من خلال معنى واحد متداول . ويسمو ، كذلك ، إلى ذروة نسبيّة بما ساقه من نعوت في الشّطر الثّاني حيث تكنّى عن الفرس بما يُظهر شدّة عدوها وارهاقها أي شدّة جبن صاحبها الّذي يَتَولّى ناجياً بنفسه على مَتْنها . ولقد عزل من مظاهر الفرس المظهر الأدل على غايته،وهو نضح الأعطاف والتهاب العدو ، ولفظتا « نضّاحة والتهاب » أوفتا بالمعنى إلى ذروته وغايته الأخيرة إذ مثّلا عظم ما أنهكت به الفرس من عدو . هنا تماثلت الكناية واللّفظة واحتضنت إحداهما الأخرى ، بل ان اللّفظة تخطّت حدود معناها الأصيل إذ تضاعفت فيها الضاد ، دالّة على الشدّة والغلوّ . ولعلّ ألفاظ البيت التّالي هي أدلّ على فضيلة العبارة الأخطليّة حيث تنطوي اللّفظة الواحدة على معنى ، يتضاعف ويشتدّ بألفاظ أخرى مماثلة :

ركوب على السّؤات قد شنّم استه مزاحمة الاعداء والنّخس في الدّبر

فالألفاظ هي ألفاظ حاشدة هنا : « السّؤات ، الاست ، النّخس ، الدّبر » ؛ ومنذ مطلع البيت يتوسّل للغلوّ أدواتٍ وصيغاً متباينة . فثمة صيغة «فعول،رَكوب » وهي صيغة مبالغة في أصل اشتقاقها، ولفظة«السّوءة » الّتي أُدّيت بصيغة الجمع الدّال على الكثرة بما لا حدّ له ولأنواعه ، ثم إنّهُ يُزجي المَشْهد في سياقه ، بل إنه يتجاوزه إذ جعل استه تشنّم بالضرب والنّخس . وفعل شنّم اشتقّ من صيغة « فعّل » الدّالة على الشدّة والحدّة والكثرة ، كما أن لفظة « نخس » تضمر بذاتها الدّلالة على أنه يُزجر وينْخز كالدّابة . هكذا يؤلف الأخطل للمعنى ألفاظه ويستدرُّها ويحشدها ، لا يُقبل عليها بيسر ولا يرضى عن اللفظة المباشرة ، بل يتخيّر اللّفظة المكثّفة الّتي تَستودع معاني متعددة ، وتجسّد أقصى غاية المعنى . وهذه اللّفظيّة المتمثّلة حيناً بصيغ المبالغة أو صيغ الجمع أو حشد الألفاظ المتماثلة والمتناميّة هي الّتي جعلت النُّقاد يصنّفونه في مذهب زهير وسواه من أصحاب الصّنعة والتّثقيف والتّحكك . فهو إذ يثبت لفظة ويُقرُّها إنما يثبت اللّفظة الأخيرة الّتي تفوّقت على ما دونها ونزعت بالمعنى إلى نهاية مطافه . فهل أن لفظتي « النّخس والدّبر » وردتا

في الصدفة والاتّفاق أم أن الشّاعر ألحف في السَّعي حتى عثر عليهما . يُخيَّل إلينا أنهما لفظتان مُخْتارتان أوفى إليهما الشّاعر في دربته العميقة الَّتي تدع اللّفظ يحمل ذروة المعنى دون أن ينوءَ بها ويعيا من دونها . هذا هو الاسلوب الزُّهيريّ ، إنّه ضرب من النّحت للمعنى باللّفظ أو أنه اللّفظ الضَّنين بذاته لا يتبدَّل ، بل يوقّع على إيقاع مضمر للمعنى . وإذا كان الشّاعر قد أسفَّ ، حيناً ، في بعض الألفاظ النَّثريَّة ، التقريريَّة ، كما شهدنا في وصفه للخمرة ، فإنَّه إذ يُمارس فنه الصّعب يأنف من اللّفظة الثابتة ، المحدّدة ، ويظلُّ يرود على اللّفظ والمعنى ، حتّى يُزاوجهما باعتدال وموازنة .

ولنتمثّل عنجهيّة اللّفظ وعنفوانه في قوله :

سَمَوْنَا بعرنينٍ أَشمَّ وَعَارِضٍ لنمنع ما بين العراق إلى البشر

وألفاظ الشَّطر الأوَّل تَحتَشدُ احتشاداً على معناها حيث يَنْضَحُ السُّمو بالخُيَلاءِ والعرنين بالعنفوان والتّيه ، وقد توسَّله عن الأنف أو ما اليه لأن صيغة لفظه مشحونة في ذاتها بالشدَّة والكبرياء والأنفة .

وأبلغ ما يُظهر فضيلة اللّفظ في شعره وصفه للفرات بقوله :

وما الفُرَاتُ ، إذا جَاشَتْ حوالِبُه في حافَتَيْه وفي أَوساطه العُشَرُ
وَذَعْذَعَتْهُ رِيَاحُ الصَّيْفِ واضطربت فوق الجآجيء من آذيّه غُدُرُ
مسحنفر من جبال الرُّوم ، يَسْتُرُه مِنْها أَكافيفُ فيها ، دونه ، زَوَرُ

فهو يتوسل في البيت الأول بصيغ الجمع الدّالة على الكثرة بطبيعة وزنها كلفظتي « حوالب » و« أوساط »، فضلاً عن الألف الممدودة والحروف المشدَّدة التي تَعقُبها قافية متتالية الحركات ، ممّا يوحي للقارىء بأن الأخطل كان يتعمَّد مضاعفة المعنى والايحاء به من خلال ما يواكبه من أجراس الحروف واداء العبارة وبنائها .

وإذا ما أنعمنا في البيت الثّاني من هذا الوصف ، لبدا لنا أن الشّاعر أقام فيه على أسلوب الغلوّ المتولّد من صيغ اللّفظ . فهو لم يَقُلْ إن ريح الصَّيْف ذعذعته ، بل أنه ألم من دونها بلفظة « رياح » ، وهي أشدُّ ذعذعةً وبالتّالي أبعد إيحاءً بجوِّ الصَّخب الّذي يُمَثّله . وقد تداني ذلك لفظة « جآجىء » ، وهي تطلعنا على كثْرة عدد السُّفن الّتي ينتابها الموج ، ممَّا يمدُّ أبعاد المشهد ويضاعف من سورة الفيضان والتدفُّق الّتي لا يزال يتألب لرسمها . أما لفظة « مسحنفر » فهي على غرابتها في هذا المقطع تدلُّ على حشد لفظيٍّ وصوريٍّ ومعنويٍّ جسَّد به ما وقع في نفسه منه ولم على النَّقل المباشر.

* * *

رأي القدماء في شعره

جمع ابن سلاّم[1] الأخطل والفرزدق وجرير في طبقة واحدة ، هي الطبقة الأولى التي تقابل الطبقة الجاهليّة الأولى أي أمرىء القيس والأعشى والنابغة وزهير . ولهذا أجمع أرباب اللغة وأصحاب النحو على تقديمه ، ففضلوه على جرير والفرزدق بأنه كان أكثر منهما عدد طوال جياد ليس فيها سقط ولا فحش . وأشد منهما تهذيباً للشعر [2] . واعترف جرير بذلك ، فقال : « كان أشدنا اجتزاء بالقليل [3] » .

ولهؤلاء النقاد القدامى لفتات قيمة في تقدير شاعرية الأخطل . فهم قد تنبهوا مثلا إلى أنه يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت الخمر ، وفضله جرير في ذلك على نفسه وعلى الفرزدق ، فقال : « فاما الأخطل ، فأنعتنا للخمر وأمدحنا للملوك [4] » . وأكد ذلك الفرزدق ، فقال : « كفاك بابن النصرانية إذا مدح [5] » . وجمعوا إلى براعته في المديح إجادته للهجاء ، وأشاروا إلى تعففه في الهجاء عن الفحش ، وبينوا دقة موقفه في هجاء خصومه .

(١) جميع هذه الأحكام وأحصاها وعلق عليها السيد مصطفى غازي في كتابه عن الأخطل صفحة ٢١٠ وما بعدها .
(٢) م. ن ، جـ ٨ ص ٢٨٣ و ١٩١ و ٢٩٢ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٦ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٧٢ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٣٠٦ .

وقال مروان بن أبي حفصة :

ولقد هجا فأمضَّ أَخطلُ تغلبٍ وحَوَى اللُّهَى بمديحه المشهور (١)

وقال إسحاق بن مروان الشيباني لابن النطاح : « الأخطل عندنا أشعر الثلاثة » ، فقال : « يقال إنه أمدحهم » ، فقال : « لا والله ، ولكن أهجاهم (٢) » . وقال عمر بن شبة : « كان مما يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف عن الفحش (٣) » . وسأل سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز عن الأخطل وجرير ، فقال : « إن الأخطل ضيق عليه كفره القول ، وان جريراً وسع عليه إسلامه قوله ، وقد بلغ الأخطل منه حيث رأيت (٤) » . واعترف جرير لابنه بقدرة خصمه على الهجاء ، فقال : « يا بني ، أدركت الأخطل وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلني به ، ولكني أعانتني عليه خلصتان : كبر سن ، وخبث دين (٥) » .

ويحدثنا الرواة بأن الأخطل كان معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، معتزّاً بشعره أشد الاعتزاز .

أنشد أبو حية النميري يوماً أبا عمرو :

يــالَـمَعدٍّ ويالَـلناسِ كلِّهمِ ويا لغَـائبهم يوماً ومن شهدا

كأنه معجب بهذا البيت ، فجعل أبو عمرو يقول له : « إنك لتعجب بنفسك كأنك الأخطل (٦) » . وبلغ من اعتداده بشعره أنه لم يعترف لأحد من المعاصرين

١ — ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٤١ .
٢ — أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٢٨٧ .
٣ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٠ .
٤ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٦ .
٥ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٥ .
٦ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٠ .

بالفضل عليه . ويبدو أنه كان مقدراً لما يبذله في شعره من جهد ، كما كان مقدراً لما لشعراء الجاهلية عليه من فضل . سأله عبد الملك عن أشعر الناس ، فقال : « أنا يا أمير المؤمنين (١) » . وسأله عمر بن الوليد نفس السؤال ، فقال : « الذي كان إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع » ، قال : « من هو ؟ » ، قال : « الأعشى » ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : « ابن العشرين » (يعني طرفة) ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : « أنا (٢) » . وسئل عن موقفه من الفرزدق وجرير ، فقال : « أنا واللات أشعر منهما (٣) » . وأخبر المدائني أنه قال : « أشعر الناس قبيلة بنو قيس بن ثعلبة ، وأشعر الناس بيتاً آل أبي سلمى ، وأشعر الناس رجلا في قميصي (٤) » . وقال له بشر وعنده الراعي : « أنت أشعر أم هذا ؟ » ، فقال : « أنا أشعر منه وأكرم (٥) » . واستنشده داود بن المساور ، فقال : « أنشدك حبة قلبي » ، ثم أنشد :

لَعَمْرِي لقد أَسريْتُ لا ليلَ عاجزٍ بساهمةِ الخدَّينِ طاويةِ القُرْبِ

فقال داود : « من أشعر الناس » ، قال : « الأعشى » ، قال : « ثم من ؟؟ » ، قال : « ثم أنا (٦) » . وبلغ من اعتداده بنفسه أنه امتدح هشاماً فأعطاه خمسمائة درهم ، فلم يرضها وخرج فاشترى بها تفاحاً وفرقه على الصبيان (٧) .

وكان الشعبي يضيق بهذا الاعتداد ، فيذكره بفضل السابقين عليه وبخاصة أعشى قيس ونابغة ذبيان . وقد تحداه الأخطل يوماً ، فقال : « يا شعبي ، فعل الأخطل بأمهات الشعراء جميعاً » ، فقال : « بأي شيء ؟ » ، قال : « حين يقول :

١ — نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢١ .
٢ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٣ .
٣ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٨ .
٤ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٧ .
٥ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٤ .
٦ — نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٣ .
٧ — نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٢٣ .

وتظـلّ تَنْصِفُنا بهـا قَرَوِيَّةٌ إبريقُهـا برِقـاعه ملثوم
فإذا تعاورتِ الأكفُّ زجاجَهـا نَفحتْ فشمَّ رياحَها المزكوم »

فقال : أشعر منك الذي يقول :

«وأَدْكَنَ عاتقٍ جَحْلٍ رِبَحْلٍ صَبحتُ براحِه شَرْباً كِراماً
من اللائي حُملْنَ عـلى المطايا كريحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكاما »

فقال : « ويحك ! ومن يقول هذا » ، قال : « الأعشى ، أعشى بني قيس بن ثعلبة » ، فقال : « قدوس ! قدوس ! فعل الأعشى بأمهات الشعراء جميعاً وحق الصليب (٢) ! » . وسأله عبد الملك وعنده الشعبي : « ويحك ! من أشعر الناس ؟ » فقال : « أنا يا أمير المؤمنين » ، فقال الشعبي : « أشعر منك الذي يقول :

هذا غـلامٌ حسنٌ وجهُـه مستقبـلُ الخير سريعُ التمـام »

فقال : « صدق والله يا أمير المؤمنين ، النابغة والله أشعر مني (١) » . وفي رواية أخرى أنه رد على الشعبي ، فقال : « إن أمير المؤمنين إنما سألني عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريّاً أن أقول كما قلت أو شبيهاً به (٢) » .

وتنبه النقاد القدامى إلى أن تأثر الأخطل بالنابغة الذبياني وأشاروا إلى التّشابه القائم بين أشعارهما ، كما تنبهوا إلى تأثر الأخطل بالشعر الجاهلي عامة ، وذكروا أنه كان أشد في ذلك من جرير والفرزدق . قال أبو عبيدة : « وكان أبو عمرو يشبه الأخطل بالنابغة لصحة شعره (٣) » . وقال أيضاً : « الأخطل أشبه بالجاهلية وأشدهم أسر

١ ــ نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢١ و ٢٢ .
٢ ــ نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٠ .
٣ ــ نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٦ .

شعر وأقلهم سقطاً [١] » . وقال ابن قتيبة : « وكان الأخطل يشبه من شعراء الجاهلية بالنابغة الذبياني [٢] » .

على أن هؤلاء النقاد ، وإن كانوا قد تنبهوا إلى ذلك ، فهم لم يعنـوا بتتبعه واستقصائه ، ولم يعقدوا الموازنات التي تبين مداه وتلم أطرافه . وما أكثر ما نقع لهؤلاء النقاد على النقد اللمّاح المركز الذي يكتفي بالإشارة عن التفصيل ، ويتجه إلى الإيجاز والتركيز أكثر مما يتجه إلى تحليل النصوص تحليلا يقف على خصائصها الدقيقة . نقع لهم على هذا اللون من النقد حين يقابلون بين الأخطل والسابقين ، أو حين يقابلون بينه وبين المعاصرين ، فيكتفون في ذلك بالإشارة الدالة واللمحة المعبرة .

سأل معاوية بن أبي عمرو بن العلاء محمد بن سلام : « أي البيتين عندك أجود ، قول جرير :

ألستم خيرَ من ركب المطايـا   وأندى العالَمينَ بطونَ راح ؟

أم قول الأخطل :

شُمُسُ العداوةِ حتى يُسْتقادَ لهم   وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا ؟ »

فقال : « بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرصن » ، فقال : « صدقت . وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة [٣] » .

وقال الأخطل للفرزدق : « والله إنك وإياي لأشعر منه ، ولكنه أوتي من سير الشعر ما لم نؤته . قلت أنه قال بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :

١ ــ نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٢ .
٢ ــ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ١٨٩ .
٣ ــ أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٢٠٥ .

قومٌ إذا استَنْبح الأضيافُ كلبَهُمُ قالوا لأمهم : بُولِي على النار !
فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرَى حكَّ استَه وتمثَّل الأمثالا

فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا رووه (١) » .

وأنشد عبد الملك قول كثير فيه :

فما تركوها عَنْوةً عن مودَّةٍ ولكن بحدِّ المَشْرَفِيِّ استقالها

فأعجب به ، فقال له الأخطل : « ما قلت لك يا أمير المؤمنين أحسن منه » .
قال : « وما قلت ؟ » ، قال : « قلت :

أَهلُّوا من الشهرِ الحرامِ فأَصبحوا مواليَ مُلْكٍ لا طريفٍ ولا غصب

جعلته لك حقّاً ، وجعلك تأخذه غصباً » ، قال : « صدقت (٢) » .

وإذا كان القدامى قد فطنوا إلى الأغراض الشعرية التي يجيد فيها الشاعر ، أو إلى الغرض الذي انصرف إليه وبرع فيه ، فهم لم يفصلوا القول في مواطن هذا الإجادة ، واكتفوا في ذلك بالبيت الواحد يرون به الشاعر أشعر العرب أو أمدح الناس أو أهجى الشعراء ، وقد يتناولون البيتين أو الثلاثة ، وهذا في القليل النادر .

فالأخطل أهجى الشعراء بقوله :

ونحنُ رفعنا عن سَلُولٍ رماحَنا وعمْداً رغبنا عن دماء بني نصر (٣)

١ ــ نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣١٨ .
٢ ــ نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٨ .
٣ ــ نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٧ .

وهو أمدح الشعراء بقوله :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم ... وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا (١)

والأخطل نفسه يقول : « فضلت الشعراء في المديح والهجاء والنسيب بما لا يلحق بي فيه . فأما النسيب ، فقولي :

ألا يا اسْلمي يا هندُ هندَ بني بَدْرِ ... وإن كان حيّانا عِدًى آخر الدهر
من الخَفِرات البيضِ ، أمّا وِشاحُها ... فيجري ، وأما القلبُ منها فلا يجري
تموت وتحيا بالضجيع ، وتَلتوِي ... بمطَّرد المتنين مُنْبَتِرِ الخَصْر

وقولي في المديح :

نفسي فداءُ أميرِ المؤمنين إذا ... أبدى النَّواجذَ يوم عارمٌ ذكر
الخائضُ الغمرةَ ، الميمونُ طائرهُ ... خليفةُ الله ، يُستَسقَى به المطر

وقولي في الهجاء :

وكنتَ إذا لقيتَ عبيدَ تَيْمٍ ... وتيماً ، قلتَ : أيُّهمُ العبيد ؟
لئيمُ العالَمِين يسود تيماً ... وسيدُهم ، وإن كَرِهوا ، مَسود (٢) »

على أن فريقاً من النقاد لم يعترف للأخطل بهذه المنزلة التي كان يرفع نفسه إليها ، ويعترف له بها المعجبون به من الرواة والعلماء . سأل ابن سلام بشاراً العقيلي عن الثلاثة ، فقال : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه (٣)» .

١ ــ ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ١٣٢ .
٢ ــ أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٢٩٧ و ٢٩٨ .
٣ ــ ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٣٩ .

وقال أبو الفرج : « فأما قدماء أهل العلم والرواة ، فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ، لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر ، ولا له مثل ما لهما من فنونه ، ولا تصرف كتصرفهما في سائره ، وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتّى ألحقته بهما (١) » . وقال أيضاً : « وهو ، وإن كان له فضله وتقدمه ، فليس نجره من نجار هذين في شيء (٢) » . وبالغ بشار بن برد في الحط من شأنه ، فقال : « والله ما كان الأخطل مثل جرير والفرزدق ، ولكنهما كانا من مضر ، فكرهت ربيعة ألا يكون منها مثلهما ، فتعصبت له ، ورفعت منه . ولقد كان يجتمع هو وجماعة من قومه على شرابهم ، فيقول هذا بيتين ويقول هو الأكثر ، ويختار الأخطل حتّى تجتمع قصيدة ، فيبعث بها إلى جرير (٣) » .

وعني بعضهم بتتبع سقطاته ، واتهموه بالإغارة على شعر القدامى ، فقد مدح سماكاً الأسدي ، وقومه يلقبون القيون ، فقال :

قد كنت أَحسَبُه قَيْنًا وأُنْبَأُه فاليومَ طُيِّر عن أثوابه الشرر

فقال سماك : « يا أخطل ، أردت مدحي فهجوتني ، كان الناس يقولون قولا فحققته (٤) » . وفي رواية أخرى أنه قال : « أبا مالك ، كان هذا بزّا ننبز به ، فأردت نفيه عنا فأثبته علينا (٥) » . وهجا سويداً السدوسي ، فقال :

وماجِذْعُ سَوْءٍ خرّقَ السُّوسُ جوفَه لِما حمَّلْتَه وائلُ بمُطيق

فقال سويد : « يا أبا مالك ، لا والله ما تحسن تهجو ولا تحسن تمدح ، بل تريد الهجاء فيكون مديحاً ، وتريد المديح فيكون هجاء . قلت لي وأنت تريد هجائي

---

١ ــ أبو الفرج : الأغاني ، ج ١٩ ص ٤٨ .
٢ ــ نفس المصدر ، ج ٨ ص ٤ .
٣ ــ المرزباني : الموشح ، ص ١٣٨ و ١٣٩ .
٤ ــ أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٣١٢ .
٥ ــ المرزباني : الموشح ، ص ١٣٦ .

« لما حملته وائل بمطيق » . فجعلت وائل حملتني أمورها ، وما طمعت في ذلك من بني ثعلبة فضلا عن بكر بن وائل ، ومدحت في نفسك سماك بن عمير أخا بني أسد ، وأردت أن تنفي عنه شيئاً ، فحققته عليه [1] » . وأخذوا عليه قوله في هجاء قيس :

وثائرُ قيسٍ لا ينام ولا ينَسي   وإنْ لا يَجِدْ إلا الغَشيمةَ يَغْشِمِ

فقالوا : « جزى أبو مالك خيراً ، فقد بالغ في المديح [2] » . وذكروا أنه لما أنشد عبد الملك : « خف القطين فراحوا منك أو بكروا » ، تطير منه الخليفة ، وقال : « بل منك ، لا أم لك ! » ، فعدل الأخطل ، فقال : « فراحوا اليوم أو بكروا [3] » .

واتهموه بالسرقة من الشعر القديم ، ورووا أنه كان يقول : « نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة [4] » . وذكروا أنه أنشد ابن بشير المدني قصيدته « صرمت حبالك زينب ورعوم » ، فلما انتهى إلى قوله :

حتى إذا أخذ الزجاجَ أكفُّنـــا   نفحتْ فأدرك ريحَها المزكوم

قال : « ألست تزعم أنك تبصر الشعر ؟ » ، قال : « بلى » ، قال : فكيف لم تشق بطنك فضلا عن ثوبك عند هذا البيت ؟ » ، قال : « قد فعلت عند البيت هو ؟ » ، قال : « بيت الأعشى :

من خمر عانَة ، قد أَتى لختامهـا   حَوْلٌ ، تفضُّ غمامةَ المزكوم »

١ ــ نفس المصدر ، ص ١٣٥ .
٢ ــ نفس المصدر ، ص ١٣٦ .
٣ ــ نفس المصدر ، ص ١٤٢ .
٤ ــ نفس المصدر : ص ١٤١ .

مختارات

فما يزال جدا نعماك يمطرني

من مدائحه في يزيد

ذكر الحبيبة والبين والمشيب

١ بانَتْ سُعَادُ ، ففي العَيْنَينِ تَسْهيدُ واسْتَحقبتْ لُبَّهُ ، فالقَلْبُ معْمودُ

٢ وَقد تكونُ سُلَيمى غيرَ ذي خُلُفٍ فاليَوْمَ أَخْلَفَ من سُعْدى المواعيدُ

٣ لَمْعاً وإيماضَ بَرْقٍ ،ما يصوبُ لنا وَلَوْ بَدَا من سُعَادَ النَّحْرُ والجيدُ

٤ إما تَرَيْني حَناني الشَّيْبُ من كِبَرٍ كالنَّسْرِ أَرْجُفُ، والإنسانُ مهدودُ

١ ــ اسْتَحْقَبَتْ : أخذَتْ في حقيبتِها . المَعْمود: الذي هدَّه العِشق .

م : يقول إنّ صاحبته سعاد قد نأتْ عنه ، فنَفَرَ النّومُ عنه ، وإنّها حمَلَتْ قلبه معها مُخَلِّفَةً في نفسه الشّقاء .

٢ ــ م : يقول إنّه عَهد سُلَيْمى صادقة ، لا تُخْلف وعودها ، إلاّ أنّها الآن جعلت تَحْنَثُ بها وتُخلفها .

٣ ــ م : يقول إنّها تُطِلُّ علينا وتطالِعُنا بجيدها ونحرها ، ولكنّها لا تُقْبل علينا ولا تواصلنا فكأنّها تَلْتمع لأحداقنا كالبرق الخُلّب الذي لا يصحبه ولا يعْقبه مطر .

٤ ــ م : يقول : لئن أبْصرتني الآن ، وقد حَنَى الهَرم ظَهْري ، فبتُّ أرْتجف كالنّسر ككلّ إنسان طَعَن به العُمْر .

٥ وقد يكونُ الصِّبا منّي بِمَنْزِلَةٍ ، يوماً ، وتَقْتادُني الهِيفُ الرَّعاديدُ
٦ يا قَلَّ خيْرِ الغواني ، كيْفَ رُغنَ بهِ فَشُرْبُهُ وَشَلٌ ، فيهِنَّ تَصْريدُ
٧ أَعْرَضْنَ من شَمَطٍ في الرَّأْسِ لاحَ بهِ فَهُنَّ مِنْهُ ، إذا أَبْصَرْنَهُ ، حِيدُ
٨ قد كُنَّ يَعْهدنَ منّي مَضْحكاً حسناً وَمَفْرِقاً حَسَرَتْ عَنْهُ العَنَاقِيدُ
٩ فَهُنَّ يَشْدونَ منّي بَعْضَ معْرِفَةٍ وَهُنَّ بالوُدِّ لا بُخْلٌ وَلا جُودُ
١٠ قد كانَ عهْدي جديداً ،فاسْتُبدَّ بهِ والعَهْدُ مُتَّبَعٌ ما فيهِ مَنْشودُ

---

٥ ــ الرَّعاديد : جمع رِعْديد : الجبان ، وهنا المُسْرع .
م : يقول : لئن أبْصَرتني ، وقد اضناني الكِبر ، فقد كنت ، فيما سَلَف ، ريّقاً أمتَطي الخيل الضّامرة التي تسرع في عَدْوها كالجبان الهارب .
٦ ــ رُغْنَ : من راغ خادع واحتال . الوَشَل : الماء القليل العَكِر . التّصْريد : شرب دون ارْتواء .
م : يَتَحسّر على ما فات من شبابه ويُظْهر سوء ظنّه بالمرأة التي خدعته وتخلّت عنه ، فكأنه احتسى من تَهيّمه بها ماءً عكراً ، لم ينْقع ظمأه .
٧ ــ الشمَط : بياض الرأس يخالطه سواده .
م : يقول إنّهنّ ملْنَ وحدْن عنه ، إذْ شاهَدْن الشيْب ، وقد جعل يَغْشى رَأسه .
٨ ــ العناقيد : هنا الجدائل .
م : يقول إنّهنّ كنّ قد عَهِدْنَني فتيّاً ، ريّق الثغر ، يعتلي رأسي شعر كثيف مَجْدول .
٩ ــ يَشْدون : يَطْلبُون :
م : يقول إنهنّ يستطلعنَني ويحاولن التّعَرُّف إليّ ، بعد أن عراني الكبر ، وقد أقَمْن على تردُّد لا يصلْنَ ولا يَبْخَلْنَ بالوصال لالتباس أمْري عليهن .
١٠ ــ اسْتُبِدَّ به : أُكره على النّأي والفراق . مَنْشود : مطلوب .
م : يقول : لقد كان عهدي جديداً ، أي كنت في مطلع الصّبا ، ثم ولى الشّباب عني ، مُكرَهاً فبتُّ أتَحَسّر على ما فات ، ويردف بأن المرء إذا عَهِد شيئاً وألِفه ، فإنّه لا يزال يتبعه ويَنْشد عودته .

١١ يقُلْنَ لا أَنْتَ بَعْلٌ يُسْتقادُ لَهُ ولا الشَّبابُ الذي قدْ فاتَ مَرْدودُ

١٢ هلْ للشَّبابِ الذي قدْ فاتَ مَرْدُودُ أَم هلْ دواءٌ يَرُدُّ الشَّيْبَ مَوْجـــودُ

١٣ لن يَرْجِعَ الشَّيبُ شُبّانا ، وَلن يجدوا عِدْلَ الشَّبابِ لهُمْ ، ما أَوْرقَ العُودُ

١٤ إنَّ الشَّبابَ لَمَحْمُودٌ بَشاشَتُـــهُ وَالشَّيْبَ مُنْصَرَفٌ عَنْهُ وَمَصْدُودُ

مخاطبة يزيد

١٥ أَمّا يَزِيدُ ، فإنِّي لَسْتُ ناسِيَـــهُ حتَّى يُغَيِّبَني في الرَّمْسِ مَلْحـــودُ

١٦ جَزاكَ ربُّكَ عن مُسْتَفْرَدٍ ، وَحَدٍ نَفَاهُ عنْ أَهْلِه جُرْمٌ وَتَشْرِيـــــدُ

---

١١ ــ يُسْتقادُ لَه : يُخْضع له .

م : أي يقلْنَ له : لست بَعْلاً لنا لنَنْقاد لك ولست قادراً على استعادة شبابك لتُغوينا به .

١٢ ــ م : يتحسّر على شبابه ويتمنّى لو يعثر على دواء يُعيده إليه .

١٣ ــ العِدل : المَثيل .

م : يُظْهر في هذا البيت يأسه من استعادة الصِّبا ، فيما كان يؤمّل في البيت السّابق ويتمنى أن يعثر على سبيل لذلك . يقول إنّه لن يعود وإن الشَّيب لن يجدوا ما يعوّضهم عنه .

١٤ ــ م : يعيد المعنى تكراراً ، ويقول إن الشيْب منبوذ ، يُصَدُّ عنه ، وإنّ الشّباب محمود ، ريّق .

١٥ ــ مَلْحود : قبر ذو لحد ، وهو الشقّ المائل الذي يكون في جانب القبر .

يشير في هذا البيْت إلى ما كان من حماية يزيد له ، ويقول إنّه لن ينسى فَضْله عليه وإنقاذه له ، حتى يموت ويغيب في الرَّمْس .

١٦ ــ وَحَد : مُنْفرد .

م : يمتدح يزيد بإيوائه للضَّيْف والمشرَّد ويرجو الله أن يكافئه لقاء حمايته لامرىء متوحّد ، متفرد ، تخلّى عنه أهله لجرم اتُّهم به ، فخُلف شريداً . وهو يشير بذلك إلى نفسه .

١٧ مُستشرَفٌ ،قد رماهُ النَّاسُ كلُّهمُ كأنَّهُ ، مِن سَمومِ الصَّيفِ،سفُّودُ
١٨ جَزَاءَ يُوسُفَ إحساناً ومَغْفِرَةً أَوْ مِثْلَ ما جُزْيَ هارُونٌ وَدَاودُ
١٩ أَوْ مِثلَ ما نالَ نوحٌ في سَفينَتِه إِذِ اسْتجابَ لنوحٍ ، وهْوَ مَنْجُودُ
٢٠ أَعْطاهُ مِن لَذَّةِ الدُّنيا وأَسْكَنَهُ في جَنَّةٍ نِعْمَةٌ فيها وتَخْليدُ
٢١ فما يَزَالُ جَدا نُعماكَ يُمْطِرُني ، وإن نأَيْتُ ، وسَيْبٌ منْكَ مَرْفودُ

١٧ – مُسْتَشْرَف : مَظْلوم . السفّود : قضيب يشوى عليه اللّحم .

م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ، ويقول إنه اتُّهم ظلماً ، قد طعنه النّاس جميعاً فظلّ مشرداً ، تصليه الهاجرة وتذيبه ، حتى غدا من هزاله كالسّفّود . ولعلّ الأخطل يشير إلى ذاته في وصفه لذلك المشرّد ، المنبوذ .

١٨ – يوسف وهارون وداود : من أولياء العهد القديم .

م : يرجو من الله أن يثيبه بما أثاب به الأولياء قديماً فكأن الأخطل يرفعه إلى مصافهم .

١٩ – مَنْجود : مَكْروب .

م : يستكمل ما تقدّم ويرجو له مثل ثواب نوح ، إذ كان أسيراً في سفينته .

٢٠ – م : يوضح ما أجمله واشار إليْه ، سابقاً ، ويقول انّ الله أعطى نوحاً متع الدُّنيا وخلود الآخرة ، فكأن الأخطل يتمنّى له مثل ذلك .

٢١ – الرِّفْد : العطية .

م : يقول إنّ نُعماك وعطاياك ما تزال تَنْهمر عليّ ، أكنْتَ قريباً أم بعيداً ، كما أنّك لا تزال ترفدُني بالهبات .

ذكر الناقة

٢٢ هَلْ تُبلغَنِّي يَزيداً ذاتُ مَعْجَمةٍ كأَنَّها صَخْرَةٌ صَمّاءَ صَيْخُودُ
٢٣ مِنَ اللَّواتي إذا لانَتْ عريكَتُها كانَ لها بعْدَهُ آلٌ ومَجْلُودُ
٢٤ تهْدي سَواهِمَ يَطويها العَنيقُ بنا فالعِيْسُ مُنْعَلَةٌ أَقْرَابُها سُودُ
٢٥ يَلْفَحُهُنَّ حَرُورُ كلِّ هاجِرةٍ فكُلُّها نَقِبُ الأَخْفافِ ، مَجْهُودُ

الفحل وأتنه

٢٦ كأَنَّها قارِبٌ أَقْرى حَلائِلَهُ ذاتَ السّلاسِلِ ، حتى أَيْبسَ العُودُ

---

٢٢ ـ المَعْجَمة : الغلابة ، الصّلبة ، أي النّاقة . صَيْخود : صليب .
م : يشرع في هذا البَيْت بوصف النّاقة التي تُقلُّه إلى يزيد ، ويقول إنّها ذات صلابة كأنّها صخرة عظيمة .

٢٣ ـ العَريكَة : السنام . الآل : الشخص . مَجْلود : صَبْر .
م : يقول إنّها بعد أن يلين سنامُها ويوشك أن يذوب ، تظلّ مُقيمةً على سيرها ، تَتَجالد عليه وتثبت فيه .

٢٤ ـ تَهْديها : تَتَقَدّمها . السّواهِم : الضُّمر . العيس : التي يترجّح لونُها بين البياض والشّقرة . العنيق : ضرب من السّير تعدو به الإبل . أقْرابُها : خواصرها .
م : يقول إن ناقته تتقدّم سائر النّياق المتعبة ، وقد انعكس ظلّها من دونها ، لشدّة الحرّ .

٢٥ ـ م : يقول إن حرّ الهاجرة لا يزال يَلْفحها ، كما أنّها قد حفيت من شدّة العَدْو وحرارة الرّمل حتى تنقبّت أخْفافها .

٢٦ ـ القارِب : فحل الحُمُر الوحشيّة . حلائل : جمع حليلة : هنا أتان الحمار الوحشي . أقرى : اتّبع . ذات السّلاسل : موضع .

٢٧ ثُمَّ تَرَبَّعَ أُبْلِيًّا ، وقــدْ حَمِيَتْ   مِنْها الدَّكادِكُ والأُكْمُ القــراديدُ

٢٨ فظلَّ مُرْتبياً ، والأُخْذُ قدْ حَمِيَتْ   وَظَنَّ أَنَّ سَبيلَ الأُخْذِ مَثْمــــــودُ

٢٩ ثُمَّ اسْتَمَرَّ يُجاريهنَّ لا ضَرَعٌ   مُهْرٌ ، ولا ثَلِبٌ أَفْنــاهُ تَــعْويــدُ

٣٠ طاوِي المعا ،لاحَهُ التَّعْداءُ ، صَيْفَتَهُ   كأَنَّما هوَ ، في آثــارِهــــا ، سِيدُ

٣١ ضَخْمُ الملاطَيْنِ ،موَّارُ الضُّحى ،هزِجٌ   كأَنَّ زُبْرَتَهُ ، في الآل ، عُنْقــودُ

م : يشبه ناقته ، كدَأبه في معظم مدائحه ، بالحمار الوحشيّ الذي يسوق أُتُنه إلى الماء ، بعد أن كان يقيم معها في موضع ذات السّلاسل ، وبعد أن جفّ المرعى .

٢٧ ـ أُبْلي : جبل معروف عند أجإ وسلمى . الدَّكادِك : جمع دَكْدَك : المكان السّهْل . القراديد : الأمكِنة الغليظة .

م : أي أنّه انتقل إلى جبل أُبلي ، بعد أن اشتدّ القيْظ في المواضع الّتي كان يرتعي فيها .

٢٨ ـ مُرْتبياً : مرتفعاً على رابية . الأُخذ : جمع أخاذ ، وهي أماكن تُمْسك الماء ، فيحْمى فيها من حرارة الشّمس . مثْمود : فيه بقيّةُ ماء .

م : أي أنّه أقام على مُشْرف يستطلع بعض الأماكن الّتي يستنقع فيها الماء ، وقد ظنّ أنّها ما زال يرسب فيها شيء منه ، لم تُبخّره الهاجرة .

٢٩ ـ الضَّرَع : الحديث السنّ . المُهْر : الصّغير . الثلِب : الكبير العوْد . والعوْد : الهرم .

م : يقول إنّه ظلّ يعدو مع أُتُنه ، وهو مقْتدر ، لا حدَث أو مُهْر أو مسنّ ، حتى يعجز عن طرادها .

٣٠ ـ التعْداء : الجرْي والعدو . السيِّد : الذّئب .

م : أي أنّه لكثْرة ما عدا في الصّيف ، فقد ضَمُر حتى بدا كالذّئب ، وهو يقْتفي على آثارها .

٣١ ـ الملاط : الكتِف . الموّار : السّريع . هَزِج : كثير النّهيق والصيّاح . زُبْرَتُه : الشّعر الذي على كتفيه .

م : يقول إنه صخم الكتِفيْن ، سريع العدْو ، عند الضُّحى ، لا يزال يصيح وينهق ، وإنّ شعْر كتِفيْه يتراءى فيما يخوض في الآل ، كالعنُقود .

٣٢ يَنْضَحْنَهُ بِصِلابٍ ما تُؤيِّسُهُ ، قدْ كانَ في نَحْرِهِ مِنْهُنَّ تَقصيدُ

٣٣ وَهُنَّ يَنْبونَ عنْ جَأْبِ الأَديمِ ،كما تَنْبُو عَنِ البَقَرِيّاتِ الجلامِيدُ

٣٤ إذا انْصَمى حَنِقاً حاذَرْنَ شِدَّتَهُ فَهُنَّ مِنْ خوْفِهِ شَتَّى عَبادِيدُ

٣٥ يَنْصَبُّ في بَطْنِ أُبْليٍّ ، وَيَبْحَثُهُ في كلِّ مُنْبطحٍ مِنْهُ أَخاديدُ

٣٦ إذا أَرادَ سوىأَطْهارِها ،امْتَنَعَتْ مِنْـهُ سرَاعيفُ ، أَمْثالُ القَنَا قُودُ

٣٧ يَصيفُ عنْهُنَّ ، أَحياناً ، بمَنْخَرِهِ فباللِّبانِ وبِاللِّيتَيْنِ تَكْديدُ

٣٢ – يَنْضَحْنه : أي يرمحنه (ينطحنه) . الصِّلاب : الحوافر . تُؤيِّسه ُ تؤثّر فيه . تقْصيد: إصابة .

م : يقول إن أُتُنه كانت ترمحه دون أن تُصيبه بألم وإن خلّفت بعض الآثار في نحره .

٣٣ – الجأب : الغليظ . البقريّات : ترس من جلد البقر .

م : يقول إن حوافرَها كانت تنبو عن جلده وترتدُّ عنه ، كما ترتدُّ الحجارة التي تُرْمى على ترس من جلد البقر .

٣٤ – انْصَمى : أي إذا انصبَّ عليهن . حَنِقاً : مغتاظاً . العباديد : المُتفرّقة .

م : أي أنّه إذ يرتدُّ عليها ، فإنّها تحاذر منه وتتفرّق في كلّ جهة ، هرباً منه .

٣٥ – يبْحثُه : أي يبحث في الوادي . الأخاديد : جمع أخْدُود : حفْرة مُستطيلة .

م : يقول إنّه ينصبُّ مع أُتُنه في ذلك الوادي ويعدو فيه ، ويكاد لا يدع فيه موضعاً لا يرتادُه .

٣٦ – سراعيف : طِوال . القُودُ : جمع القَوْداء ، أي الطّويلة الظّهر .

م : يقول إنّه إذا أراد أن ينزو على إحدى أُتنه الحوامل ، فإنّها تمتنع عليه . ويُرْدف بأنّها طويلة المُتون والأعْناق .

٤٧ – يَصِيفُ : يعْدل . اللّبان : الصّدر . الليتان : صَفْحتا العُنُق . تكْديد : أثر الحوافر في الصّدر .

م : يقول إنّه يميل عنها ، أحياناً ، بعد أن يُصيبه منها تكديد في صدره .

٣٨ يَنْضحْنَ بالبَوْلِ أَوْلاداً مُغَرَّقَةً ، لَمْ تَفْتَحِ القُفْلَ عَنْهُنَّ المقـــاليدُ
٣٩ بناتُ شهْرَينِ ، لم يَنْبُتْ لهاوَبَرٌ مِثلُ اليرابيعِ حُمْرٌ هُنَّ أَوْ سودُ
٤٠ مِثْلُ الدَّعاميصِ في الأَرْحامِ غائِرَةً سُدَّ الخَصاصُ عَلَيْها ، فهْوَ مسدودُ
٤١ تموتُ طَوْراً ، وتَحْيا فيأَسِرَّتها ، كما تَقَلَّبُ في الرُّبْطِ المَـــراويدُ
٤٢ كأَنَّ تَعْشيرَهُ فيها ، وقدْ وَرَدَتْ عَيْنَيْ فَصيلٍ قُبيلَ الصُّبْحِ تَغْريدُ

٣٨ ــ القُفل : الرَّحم . المقاليد : المفاتيح .

م : يقول إنّها تضع أولادها مع البوْل ، وإنّها تُجْهض بها ، قبل أن تفتح أرحامها عند الوضع الطبيعيّ .

٣٩ ــ م : يصف أولادها التي أجْهضَت بها ، ويقول إن عُمرها لم يعْدُ الشّهرين ، فهي دون وَبر ، تبدو كاليَرابيع السّوداء أو الحمر اء .

٤٠ ــ الدّعاميص : جمع دعْمُوص : ديدان حُمْر . الخصاص : النّافذة .

م : يستكمل وَصْفَها ويشبّهها ببعض الدّيدان ، ويقول إنّها غائرة في أرحامها التي لم تُفْتح عنها في حينها .

٤١ ــ أسِرَّتها : أرْحامها . الرُّبْط : يعني المرابط جمع المربط : ما تُشدُّ به القربة أو إليها . المراويد : الخَيْل التي تروح وتجيء .

م : يقول إن أولادها تموت وتحيا في أرحامها وتتقلّب فيها كالخيل التي تروح وتجيء في مرابطها .

٤٢ ــ تَعْشيره : نَهيقهُ . عيْني فَصيل : اسم موضع .

م : يصف صياحه ونهيقَه بينها عند الفَجْر ، ويقول إنّه أشْبه بالتغْريد .

٤٣ ظلَّ الرُّماةُ قُعوداً في مراصِدِهِـــمْ   للصَّيْدِ، كلَّ صَباحٍ، عِنْدَهُمْ عيدُ
٤٤ مِثْلُ الذِّيابِ، إذا ما أَوْجسوا قَنَصاً   كانَتْ لَهُمْ سَكْتَةُ مُصْغٍ ومَبْلــودُ
٤٥ بِكُلِّ زَوْراءَ مِرْنــانٍ، أُعِدَّ لهــا   مُداخلٌ صَحِلٌ بالكفِّ مَقْـــدُودُ
٤٦ على الشَّرائِعِ ما تَنْمي رَمِيَّتُهُـمْ   لَهُمْ شِواءٌ، إذا شاءُوا، وَتَقْديـــدُ

٤٣ ـ م : يشير في هذا البَيْت إلى الصّيادين الذين كانوا يترصّدون الحمار وأُتُنه، وهم فرحون في صيدهم، كأنّهم في حفل أو عيد.

٤٤ ـ أوْجَسوا : أحَسّوا. القَنَص : الصَّيْد : مَبْلود : بَليد.

م : يشبههم بالذّئاب، ويقول إنّهم إذا توقعوا طريدة وتوجّسوها سَكَتوا، بعضهم يتَنَصّت لعدوها وحركتها والبعض الآخر مُتَبَلِّد، غير آبه.

٤٥ ـ الزَّوراء : القَوْس. مِرْنان : لها رنّة عندما ينزع عنها السّهم. المُداخل : الوَتَر الشّديد الفَتْل. الصَّحِل : سهم له صوت كالبحة.

م : يصف القوس، ويقول إنّها مِرْنان، تنزع عنها أسهم مصوّتة، قُدَّت وصُقلت باليد.

٤٦ ـ الشّرائع : جمع الشّريعة : المورد. رمى فنمى : أي أخطأ.

م : يقول إنها يصطادونها فيشتوون اللّحم أو يقطعونه كي يجفّ.

خف القطين

من مدائحه في عبد الملك

ذكر الرحيل

١ خَفَّ القَطِينُ ،فراحوامنكَ ،أوْبَكَروا وَأزْعجَتْهُمْ نَوىً في صَرْفِها غِيَـــرُ

وصف الخمرة والسكران

١ كأنَّني شارِبٌ ، يوْمَ اسْتُبِدَّ بهــمْ مِنْ قَرْقَفٍ ضَمِنَتْهَا حِمصُ أوْجَدَرُ

٣ جادَتْ بها مِنْ ذواتِ القارِ مُتْرَعةٌ كلْفاءُ ، يَنْحتُّ عنْ خُرْطومِها المَدرُ

---

١ – خفَّ : أسرع إلى الرَّحيل . القَطين : القَوْم القاطنون معاً في محلّة أو ما إليها . راحوا : ذهبوا في العشيّ . بكَروا : ذهبوا في الغَداة . أزْعجَ : أقْلق عن المكان ودفع إلى الرّحيل . نَوى : نيّة الفِراق . صرْفها : دَفعها . غِيَر : مشاق .

م : يقول إن الأحبّة الذين كانوا يساكوننا ، قد تعجّلوا الرّحيل ، في العشيّ أو في الغداة ، وإنّهم أُكرهوا على الفِراق بما لا طاقة لهم على دفعه . والتساؤل في هذا البيت يفيد الغلوّ .

٢ – استُبدَّ بهم : أي قوم قُسروا على الرّحيل وأُكرهوا عليه . القَرقَف : الخمرة الّتي تُقرقف صاحبها ، أي تُرعده . حِمْص : مدينة بين دمشق وحلب . جَدَر : قرية بين حمص والسّلميّة .

م : يتشبّه ، إثر رحيل أحبّته المُكْره ، بمن صرَعَتْه الخَمْرة التي تُرْعد صاحبَها ، والّتي اجتُلبَتْ من حمص وجدر ، فكأنّ ورودَها منهما كان ضمانةً وكفالةً لجودتها وطيب عُنْصرِها .

٣ – ذوات القار : الخابية المَطْليّة بالزّفت . مُتْرَعة : ملأى حتى الشّفاه . الكَلْفاء : الخابية الّتي أصابها كَلَف لقدمها ، فتراكم عليها بعضُ الطّين أو ما إليه ، أو انّها أُصيبت ببعض الفَجوات في قشرتها . ينحتُّ : يفض . خرْطومها : فَمها . المدرُ : الطين الذي ختمت به .

٤ لَذٌّ أَصابَتْ حُميّاهـا مقاتِلَـهُ فَلَمْ تَكَدْ تَنْجلي عَنْ قَلْبِهِ الخُمَـرُ

٥ كأَنَّني ذاكَ ، أَوْ ذو لَوْعةٍ خَبَلَتْ أَوْصالَه ، وأَصابَتْ قَلْبَه النُّشَرُ

عودة الى ذكر الراحلين

٦ شَوْقاً إليهِمْ ، وَوجداً يوْمَ أُتْبِعُهـمْ طَرْفي ، ومنهمْ ، بجنْبَيْ كوْكبٍ زُمَرُ

٧ حَثُوا المطيَّ ، فوَلَّتْنـا مَنَاكِبَهـا وفي الخُدورِ ، إذا باغَمْتَها ، الصُّوَرُ

---

٤ ـ اللذُّ : هو المرء الذي يلذُّ حديثُه ومنادمته على الشّراب . حُمَيّاها : حدَّتُها . مقاتلَه : المواضع التي يسهل بها قَتْلُه ، إذا ما أُصيب فيها . الخُمَر : جمع خمرة : الصّداع الذي تخلّفه الخمرة في الرأس .

م : يكرر المعنى السّابق ويغالي فيه ، ويقول : إن تلك الخَمْرة قد فعلت فيه وصرعَتْه كأنّها أصابت منه مَقْتَلاً وخلفت في رأسه صُداعاً لا يزول ولا يَنْقَضي . والشّاعر إذ يعظم من تأثير الخَمْرة في شاربها ، إنما يعظّم ، من خلال ذلك ، تأثير فراق الأحبّة في نفسه .

٥ ـ اللوْعة : الوجع الشّديد في البدن . خَبَلَتْ : اخْتَلَطَتْ بعضاً ببعض واضْطربت . النُّشر : هنا جمع النّشرة وهي رقية أو تعويذة يعالج بها المريض أو المَجْنون .

م : يتمثّل في هذا البيت ، تكراراً ، بمن صرَعه المَرَض ، فاختلطَتْ وخَبطَتْ أعصاؤه ، كأنّما أصيب بداء لا تُجدي فيه الرّقى أو التعاويذ .

٦ ـ كوْكب : هنا اسم موضع . زُمَرُ : جمع زمرة : جماعة .

م : يقول : إن ما ألمّ به من سُقْم وعذاب وصفهما فيما تقدّم ، كان من جرّاء الشّوق الذي يعانيه لظعائن الأحبّة ، فيما كان يقتفي أثرَهم بنَظَره ، وهم يجتازون موضع كَوْكب .

٧ ـ باغَمْتَها : من بَغَم أصلها في صوت الظّبية وهنا بمعنى تكلّم بصوت رخيم .

م : يقول إنّهم استحثّوا مطاياهم ، وولوا له ظهورَهم ، فيما أقامت صواحبُه في خدورهنّ ، يَسْتُرْنَ جمالهنَّ الشّبيه بجمال الصُّور والتماثيل .

رأيه في النساء

٨ يُبْرِقْنَ بالقَوْمِ ، حتى يَخْتَبِلْنَهُمُ ورأْيُهُنَّ ضَعيفٌ ، حينَ يُخْتَبَرُ
٩ يا قاتَلَ اللهُ وَصْلَ الغانياتِ ، إذا أَيْقَنَّ أَنَّكَ مِمَّنْ قَدْ زَهـا الكِبَرُ
١٠ أَعْرَضْنَ ، لمّا حَنى قَوْسي مُوَتِّرُها وابْيَضَّ ، بعدَ سَوادِ اللِّمَّةِ ، الشَّعَرُ
١١ ما يَرْعوينَ الى داعٍ لحاجتِهِ ولا لهُنَّ ، إلى ذي شَيْبَةٍ ، وَطَرُ

العودة الى ذكر الظّعائن

١٢ شَرَّقْنَ ، إذْ عَصَرَ العِيدانَ بارِحُها وَأَيْبَسَتْ ،غَيْرَ مَجْرَى السِّنَّةِ ،الخُضَرُ

---

٨ – يُبْرِقْنَ : يُلَوِّحن . يَخْتبلنهم يُوقِعْنَهم في الحُبالة أي الشرك .
م : يستكمل وصفه للنّساء المُخَدّرات ، ويقول : إنهنّ يلوّحن للقَوْم بنظرهنّ وكلامهنّ ، كي يَسُقْنهم إلى حبائلهن ، فإذا اخْتُبِرْن وجُرّبن أُلْفِينَ ضعيفاتِ الرأي ، صَعْلات العُقول .
٩ – زها الكِبرُ : هنا إشارة إلى ما يَعْتلي رأس الشّيخ من شَيْب يبدو به زاهياً .
م : يقول ، مُتَحَسّراً ، إنّ الغانيات يَقْطَعْن المرء ، فيما يَدْهمه الكبر ويعلو رأسَه الشّيب . والأخطل لا يزال يردّد هذا المعنى أو ما يُدانيه في معظم مطالع قصائده .
١٠ – قَوْسي : هنا ظهري ومتني . اللّمّة : الشّعر المجتمع في مقدّمة الرّأس .
م : يقول إنهن أعرَضْنَ عنّي ، فيما حنت الأيّام ظَهْري وابيضّ شعر رأسي ، بعد أن كان أسود ، أي فيما هرمْتُ ، بعد أن كنتُ شاباً .
١١ – ما يَرْعوين : لا يَفطنّ ولا يَتَنَبّهنَ . وطَر : غاية أو هدف .
م : يقول إنّهن يغفلن عمّنْ يسعى إليهن في أمر يبغيه ، كما أنّه لا غاية لهنّ فيمن عراه الشّيب .
١٢ – شَرَّقْن : ذَهَبْنَ شرقاً . عَصَر العيدانَ : أيْبَسها . البارح : الرّيح الباردة التي تُجفّف الكلأ .
م : يقول إنهنّ رحلْنَ واتّجهْنَ شرقاً ، فيما كانت الرّيح الباردة تعصف وتجفّف كل نبت وكلأ ، حتى لم يعد من أثر للخُضْرة ، إلا ما يُسْتَنبت بالحرث والرّي في مجرى السّكّة .

١٣ فالعَينُ عانِيَةٌ بالمـــاءِ ، تَسْفَحُــهُ مِنْ نِيَّةٍ ، في تلاقي أَهْلِهـــا ، ضَرَرُ

١٤ مُنْقَضِبينَ انقضابَ الحبلِ ،يَتْبَعُهُمْ مِنَ الشَّقيقِ ، وعينُ المَقْسَمِ الوَطَرُ

١٥ حتى هَبَطْنَ مِنَ الوادي لِغَضْبَتِــهِ أَرْضاً تَحُلُّ بهـــا شَيْبانُ أَوْ غُبَرُ

١٦ حتى إذا هُنَّ ورَّكْنَ القَصيمَ ،وقَدْ أَشرَفْنَ ، أَوْ قُلْنَ هذا الخندقُ الحَفَرُ

١٧ وَقَعْنَ ،أُصْلاً ،وعُجنا مِن نجائِبِنا وقَدْ تُحُيِّن مِنْ ذي حاجــةٍ سَفَرُ

---

١٣ ـ العانِيَة : المُعَنّاة ، الكَلِفة . تَسفَحُه : تَصُبّه . من نيّة : من رغبتهم في المَسْلك الذي سلكوه . في تلاقي أهْلِيها ضَرَرُ : أي ضيق ، فهم لا يستطيعون أن يجتمعوا لكثرتهم .

م : يقو إن عينَه تذْرفُ الدّمع ، فيما رَأتْ أهل صاحبته قد اجتمعوا على نيّة السّفر ، وقد كَثُرَتْ جموعهم ، حتّى ليضيق عنها المقام .

١٤ ـ مُنْقَضِب : مُنْقطع . الشّقيق : موضع . عَيْنُ المَقْسَم : اسم بئر .

م : يصف في هذا البيت رحيلهم ، ويقول إنّهم بدوا متفرّقين في سيرهم كالحبل المُتَقَطّع ، وإنّهم مهما تناءوا ، بعضاً عن بعض ، وأيّاً ما كانت المواضع التي يجتازونها ، لا يكفّون عن السّعي إلى الموضع الذي يرتادونه .

١٥ ـ غَضْبَتَه : جانبه . شَيْبان : قبيلة : غُبَرُ : من بني تيم من بني يَشْكر .

م : يقول إنهنّ دَأبن على سيرهنّ حتى نزَلْن في جانب واد يقْطنه بنو شيبان أو بنو غبر .

١٦ ـ ١٧ ـ ورَّكْنَ : عُدْن . القَصِيم : موضع . خَنْدَق : هو خندق سابور في بريّة الكوفة . الحَفَر : المَحْفور . أُصْلاً : عَشيّاً . عُجْنا : ملْنا .

م : يقول إنّهنّ فيما عدَلْن إلى موضع القَصيم ، وتراءى لهنّ موضع خندق سابور وعُيّن مكانُه ، انْتَهَجْنه وبتْنَ فيه عشيّاً ، فيما حضر الشّاعرَ حينُ سفره الذي سار فيه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان . والشّاعر يتخلّص في هذا البيت من وصف الظّعائن إلى المدح تخلّصاً واهياً كدأبه ودأب سواه من شعراء المَدْح الّذين يرتادون المُقَدّمات الطّويلة بحيث يَعْسر عليهم التخلّص الدّاخلي من موضوع إلى آخر .

١٨ إلى امْرئٍ لا تُعدّينا نَوافِلُهُ أَظْفَرَهُ اللهُ ، فَلْيَهْنأْ لهُ الظَّفَرُ
١٩ أَلخائِضِ الغَمْرَ ، والمَيْمُونِ طائِرُهُ خَليفَةِ اللهِ يُسْتَسْقى بهِ المطَرُ
٢٠ والهمُّ ، بَعْدَ نجيّ النَّفْسِ ، يَبْعَثُهُ بالحَزْمِ ، والأَصمعانِ القَلْبُ والحذَرُ
٢١ والمُسْتَمِرُّ بهِ أَمْرُ الجميعِ ، فما يَغْتَرُّهُ ، بَعْدَ تَوْكيدٍ لَهُ ، غَرَرُ

١٨ – تُعَدينا : أي تَتَخطّانا وتَفُوتُنا . نوافلهُ : عطاياه .

م : يشرع في هذا البَيْت بامتداح عبد الملك . ويقول إنّه امرؤ لا يزال يُغْدق على الشّاعر عطاياه ، لا يفوته منها شيء . ثم يُرْدف بأنّ الله قد خصّه بالنّصر ويتمنّى له الهناء به . وذكره لله في هذا المقام كأنّما ينطوي على ردّ من الشاعر على الذين يتّهمون الأمويين باغتصاب السّلطة والمُروق من الدين .

١٩ – الغَمْر : الماء الكثير وهنا الحرب الشّديدة . الميْمون طائِرهُ : من اليُمن والتيمّن . إشارة إلى ما كان الجاهليون يقومون به من زجر للطّير ، فإن اتّجهت يميناً إلى اليَمَن ، تفاءلوا أو تيمّنوا ، وإذا اتّجهت شمالاً إلى الشّام ، تشاءموا .

م : يقول إنّه لا يبرح يخوض غُمار الحرب وينتصر فيها بيُمْن طالعه الذي أنعم عليه الله به ، ثمّ يردف بالقول إنّه خليفة الله يُتَضرَّع ويُتشفّع إليه به ، فيما يُحْبس المطر ، كي تدر به السّحب . والشاعر يُنْمي إلى الخليفة صفات قدسيّة ، توافق مقتضى الدين الإسلامي وواقع النّزاع السياسي بالرغم من نصرانيّته ، فكأنّه يوفّي لكلّ مقام مقاله ، وفقاً لسنّة البلاغة المأثورة .

٢٠ – نَجيّ النّفس : ما ناجى به نفسه ورغب في تحقيقه . الأصْمعان : مثَنّى الأصمع : الذّكي .
م : يقول إنّه إذا ما همّ بشيء كان لا يزال يتَفَكّر ويتناجى به في نفسه ، فإنّه يحقّقه ولا يكتفي منه بأمْر التفكّر والنّجوى ، يسعفه في ذلك قلبُه الذكيُّ ودأبه على الحَذَر .

٢١ – م : يقول : يلازم ما عزَم عليه وما عَهِدَ به ، فيوفّيه ولا يتَعاظمُه سلطانُه أن يَحْنَث به ، بالرغم من قدرته عليه .

وصف كرمه

٢٢ وما الفُرَاتُ ، إذا جاشَتْ حَوالِبُهُ   في حافَتَيْهِ وفي أَوْساطِهِ ، العُشَرُ
٢٣ وَذَعْذَعَتْهُ رياحُ الصَّيْفِ ،واضطَرَبتْ   فَوْقَ الجآجيءِ ، مِنْ آذيِّهِ ، غُدُرُ
٢٤ مُسْحَنْفِرٌ مِن جبالِ الرُّوم ،يسْتُرُهُ   مِنها أَكافيفُ فيها دونَهُ ، زَوَرُ
٢٥ يوماً ، بأَجْوَدَ مِنْهُ ،حينَ تَسْأَلُهُ   ولا بأَجْهَرَ مِنْهُ ، حينَ يُجْتَهَرُ

تهديد الوُشاة

٢٦ ولمْ يزَلْ بكَ واشيهِمْ ومَكْرُهُمْ   حتى أَشاطوا بغَيْبٍ لحمَ مَنْ يَسَروا

٢٢ ــ حوالبُه : أمواجه . العُشَر : نوع من الشّجر العظيم .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الفُرات في فيضانه العظيم ، ليردف بعد بيتين آخرين بتشبيهه بعطاء عبد الملك . يقول إن الفرات عندما يضْطرب موجُه ويقتلع الأشجار عن حافتيه ويسوقها إلى أوساطه .

٢٣ ــ ذَعْذَعتْه : حرّكته وأثارت الاضطراب في موجه . الجآجيء : جمع جؤجؤ : الصَّدر . آذيّه : أمواجه .

م : يقول إنّه إذا ما حرّكته رياح الصّيف وعصفت به ، مثيرةً أمواجه القويّة ، فارتفعت تضرب مقدّمة السفينة كأنّها الغُدْران .

٢٤ ــ المُسْحَنْفر : السّريع الجري بامتداد ومضاء . أكافيفُ : جمع كفاف وكفة : ما يكفُّ الماء عن الجَرْي . زَوَرٌ : مَيْل ، أي أنّها تدعه يميل عن مجراه .

م : يقول إنّه إذ يُسرع في جريه من جبال الروم ، عابراً الأكافيف التي تمنع سيره وتكفّه عن عدوه ، فيما تُضاعف من صَخَبه ، مائلةً به عن مجراه .

٢٥ ــ م : يقول إن الفُرات في تألّبه وحشده وفيضانه ، لا يعادل الخليفة في كرَمه وفي احتشاده وعزمه عندما يُستَثار في مواقف الغَضب .

٢٦ ــ أشاطوا : قتلوا . يَسَروا : لعبوا بالمَيْسر أي القمار .   ←

٢٧ فَمَنْ يَكُنْ طاوِياً عنَّا نصيحَتَهُ وفي يدَيْهِ بدنْيا دونَنا حَصَرُ
فَهْوَ فداءُ أَميرِ المؤمنينَ ، إذا أبدى النَّواجِذَ يوْمٌ باسِلٌ ذَكَرُ

العودة الى المديح

٢٩ مفْترِشٌ كافتراشِ اللَّيْثِ ، كلْكَلَهُ لِوَقْعَةٍ كائنٍ فيها لَه جَزَرُ
٣٠ مقَدِّماً مائَتَيْ أَلْفٍ لمنزِلِهِ ما إنْ رأى مِثْلَهمْ جنٌّ ولا بَشَرُ
٣١ يَغْشَي القَناطِرَ يَبْنيها وَيَهْدِمها مسَوَّمٌ ، فَوْقَه الرَّاياتُ والقَتَرُ

م : يقول إن أعداء بني تغلب لا يزالون يَشون بهم ، ويتَماكرون عليهم عند الخليفة ، حتى إنّهم مزّقوا لحومهم ، وخلّفوهم أشلاء ، كالنّاقة التي يقطعها المُياسرون ويقتسمونها فيما بينهم وفقاً لنصيب كلّ قِدْح من القِداح .

٢٧ – ٢٨ – حَصَر : ضيق وبُخْل . النّواجِذ : الأضراس .

م : يقول إن عبد الملك لم يكن ليَمْتنع عن نُصحهم ، وإنّه قد يبخل به على من دوننا من النّاس . أو أن يكون الضّمير في يكن عائداً إلى الواشي الذي أشار إليه في البيت السابق ، وهو الأصح ، وعندئذ يغدو المعنى متّصلاً بالبيت اللاّحق كما يلي : يقول إن من يمتنع عن إسداء النُّصح إلينا والإخلاص لنا وهو يضيق بالمقام الذي نحتلّه والدنيا الشاسعة التي نقيم فيها ، فيشي بنا ويَمْكُر علينا ، إن ذلك المرء هو فدًى لأمير المؤمنين ، في يوم الوغى . أي أن التغْلبيّين سيعاقبونه على وشايته بهم وحسده لهم ، فيقاتلونه ويفتكون به في العراك الشّديد الذي تتكشّر فيه الأنياب هلَعاً وغضباً .

٢٩ – م : يقول إن عبد الملك يَرْبض رَبْض الأسود ، متوثّباً بوقعة يجزر فيها أعداءه جزراً .

٣٠ – مائتي ألْف : أي من الجنود .

م : يقول إنّه إذ يمضي للقتال ، يتقدّمه جيش حاشد ، لم يُبْصِر ما يماثله ، لا البشر ولا الجنُّ .

٣١ – المُسوَّم : المُعْلم بعلامة يُعرف بها . القَتَرُ : جمع قتار : غُبار المعارك .

م : يقول إنّه يبتني القناطر لتعبر جنوده عليها ، ثم يَهْدمها ليمنع جنود الأعداء من اجتيازها ، وهو مُعْلم بعلامة البأس والشّجاعة ، لا يزال غبار المعارك وراياته تحيط به .

٣٢ حتى يكونَ لَهمْ بالطَّفّ مَلْحَمَــةٌ   وبالثَّوِيّةِ لَمْ ينْبضْ بها وَتَــــرُ
٣٣ وَتَسْتَبِينَ لأَقْــوامٍ ضَــلالَتُهُــمْ   وَيَسْتقيمَ الــذي في خَــدِّهِ صَعَــر
٣٤ ثـمَّ اسْتَقَلَّ بـأَثْقالِ العِراقِ ، وَقَــدْ   كانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فيهِمْ ومُدَّخَـــرُ

مدح بني قريش

٣٥ في نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيشٍ ، يَعْصِبونَ بها   ما إنْ يوازَى بـأَعْلى نَبْتِها الشَّجرُ
٣٦ تَعْلو الهِضابَ ، وحلوا في أَرُومتِها   أَهْلُ الرّياء وأَهْلُ الفَخْرِ ، إنْ فَخَروا

٣٢ – الطّفّ : موضع على ريف العراق ، فيه قُتل الحُسين . الثّوِيّة : موضع بالكوفة . لم يُنبض بها وتَرٌ : أي لم ترْم فيها نبال .

م : يذكر ما كان من أمره في تَيْنك المَوْقعتين ، ويقول إن جنوده لبسالتهم تصدّوا لأعدائهم وجهاً لوجه وأخذوا يضربونهم ويلتحمون معهم .

٣٣ – صَعَر : ميلان ، وهنا خُيَلاء .

م : يقول إن عبد الملك لا يقاتل أعداءه طَمَعاً بالسلطة والملك ، بل ليردّهم عن ضلالهم وخيلائهم ويعودوا إلى صوابهم وإلى حظيرة الدين .

٣٤ – م : يقول إنّه حمل أعباء أهل العراق واستقلّ في حكمهم ، لا ينازعه فيهم منازع ولا تثور فتنة . وقد فرض عليهم الأمن من شدّة بطشه بهم وعزمه عليه عزماً لا يفتّ ولا يلين . أي أنّه مزمع على التنكيل بهم ويدّخر لهم ما يماثله فيما إذا ظهرت منهم فِتنة .

٣٥ – النبْعة : هي من الشّجر أجْوده . يَعْصِبونَ بها : يُطيفون بها ويلازمونها .

م : يمتدحه بأصْله القُرشيّ العريق ، ويقول إنّه من أقحاح قريش الذين لا يزالون يُحيطون بشجرة أصلهم الكريمة ويلازمونها ، ثمّ يُرْدف بأنّ أغصان الشّجر لا تعادل أصلها أي أن سائر القُرَشيين لا يعادلون عبد الملك ومن إليه .

٣٦ – الرّياء : هنا أداء المعروف .

م : يقول إن شجرة قُرَيش تعلو ما دونها وتسمو عليه وإنّ بني أميّة حلّوا في جذعها وأصْلها وإنّه لا قِبَل لأحد بأنْ يجاريهم في الفخر ، إذا ما فخروا .

٣٧ حُشُدٌ على الحَقّ ، عيّافو الخَنَى أُنُفٌ   إذا أَلمّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ ، صبروا

٣٨ وإن تدجّتْ على الآفاقِ مُظْلِمَــةٌ   كانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصَــرُ

٣٩ أَعْطاهُمُ اللهُ جَدّاً ، يُنْصَرُونَ بــهِ   لا جَدَّ إلاَّ صَغيرٌ ، بَعْدُ ، مُحْتَقَــرُ

٤٠ لَمْ يَأْشَرُوا فيهِ ، إذْ كانوا مَوَالِيَهُ   وَلَوْ يكونُ لقَوْمٍ غيرِهِمْ ، أَشِروا

٤١ شُمْسُ العَدَاوةِ ، حتى يُسْتَقَادَ لهُمْ   وَأَعْظَمُ النَّاسَ أَحلاماً ، إذا قَــدرُوا

---

٣٧ ـ الخنى : الفَحْشاء .

م : يقول إنهم يَحْشدون حشودهم دفاعاً عن الحقّ ، لا يُطيقون الفَحْشاء ، بل يأنَفون منها ، وإذا ما نزلَتْ بهم مُصيبة صبروا عليها ولم يَتَضجّروا .

٣٨ ـ تدَجّتْ : أظلمت . المُعْتَصَر : المَعْقل ، الملجأ .

م : يقول إنّه إذا ما أظلمت آفاقهم بما نَزَلَ فيهم من كرب ، فإنّهم لا يُخْذلون ولا يستسلمون بل يَنْجون منها بحسن تدبيرهم وعِظَم عقولهم .

٣٩ ـ جَدّاً : حظاً .

م : يشير هنا إلى الخلافة الأموية ، ويقول إن الله يَقْسم الحُظوظ في النّاس وقد خصّهم بحظّ النّصر والنّجاح بما يسعون إليه ، ومهما تألّب النّاس عليهم ، فإنّهم لا قِبل لهم بالانتصار لكبر حظهم وضآلة حظ الآخرين من دونه .

٤٠ ـ لمْ يأشَروا : لم يَبْطروا . مواليه : أولياءه .

م : يمتدحهم بكبَر نفوسهم ويقول إنّهم لم يَبْطروا ويَغتّروا بما آثرهم اللهُ به من حظّ بل ظلّوا على أحلامهم وتواضعهم ، ثمّ يُرْدف بأنّه لو قُدّر لسواهم أن ينالوا مثل حظوظهم ، لبطروا بها وأخذهم الصّلف والكبر .

٤١ ـ شُمْس : جمع شموس ، أي عسير .

م : يقول إنهم يُعاندون أعداءهم وينكّلون بهم ، ما داموا يَعْصُونهم ويثورون عليهم ، حتى إذا أذعنوا لهم وأعلنوا طاعتهم بذلوا لهم الحلْم والأناة . أي أنّ الأمويين يأخذون بالبطش العظيم والحلم الأعظم ، كلّ منهما في موضعه .

٤٢ لا يَسْتَقِلُّ ذُوو الأَضْغانِ حَرْبَهُمُ ولا يُبَيَّنُ في عيدانِهِمْ خَــــــوَرُ
٤٣ هُمُ الذينَ يُبارونَ الرّياحَ ، إذا قَلَّ الطعامُ على العافينَ أَوْ قَتَروا

مخاطبة بني أميّة

٤٤ بني أُميَّةَ ، نُعْمَاكُمْ مُجَلِّلَــــــةٌ تَمّتْ فلا مِنَّةٌ فيها ولا كَـــــدَرُ
٤٥ بني أُميّةَ ، قدْ ناضَلْتُ دونَكُمُ أَبناءَ قوْمٍ ، هُمُ آووا وهُمْ نَصَروا
٤٦ أَفْحمتُ عنكم بني النَّجّارِ ،قدْعَلمتْ عُلْيا مَعَدّ ، وكانوا طالمــا هَدَرُوا

٤٢ ــ م : يقول إن أعداءهم لا يستخفّون ببطشهم ، بل يجزعون منه أشدّ الجزع ، كما أنّهم مهما امتحنوا لا يعتري صلابتهم وهنٌ أو ضَيْم .

٤٣ ــ قتروا : أصابهم الإقتار أي القلّة والفقر .

م : يقول إنّهم يسابقون الرّياح في هرَعهم لنَجْدة المُعوزين المُقلّين . ووجه الجدّة في هذا القول لا يعتمد على المَعْنى أو أدائه بل للمباراة التي أقامها بينهم وبين الرّيح في السّرعة . الرّيح تُسرع لإحلال الجدب والإملاق ، وهم يسابقونها لإحلال الخصب والخَيْر من دونها .

٤٤ ــ م : يخاطب الأمويين ويقول إن نعمهم وعطاياهم قد جلّلت عنقه وطوّقته دون أن يكدّروها بالمنّة وتعظيم الجميل .

٤٥ ــ م : يخاطب الأمويين ويقول إنّه قد نافح عنهم وأفحم الأنصار الذين آووا النبيّ وناصروه . يشير إلى ما كان من أمره مع الأنصار الذين هجاهم ، فوفدوا على معاوية طالبين الاقتصاص منه فأباحهم لسانه .

٤٦ ــ مَعَدّ : هم العرب عامة .

م : يقول إنّه أسكتهم عنه في مشهد من العرب ، جميعاً ، بعد أن كانوا قد صالوا وجالوا دون أن يردعهم رادع .

٤٧ حتى استكانوا ، وهُم منّي على مَضَضٍ والقَوْلُ يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإبَــرُ

٤٨ بَني أُمَيّةَ ، إنّي ناصِحٌ لَكُـمُ فَلا يَبيتَنَّ فيكُمْ آمِناً زُفَــرُ

٤٩ واتّخِذوهُ عَدُوّاً ، إنَّ شاهِــدَهُ وما تَغَيّبَ مِن أَخْلاقِهِ دَعَــرُ

٥٠ إنَّ الضَّغينَةَ تَلْقاها ، وإنْ قَدُمَتْ كالعَرّ ، يَكْمُنُ حِيناً ، ثمَّ يَنْتَشِرُ

فخره بمناصرة الأمويين

٥١ وقَدْ نُصِرَتَ أَميرَ المؤمنين بِنـا لمّا أَتاكَ بِبَطْنِ الغُوطَةِ الخَبَــرُ

٥١ يُعرّفونكَ رأسَ ابنِ الحُبابِ ،وقدْ أَضْحي ، وللسّيْفِ في خَيشومِهِ أَثَــرُ

٤٧ — م : يقول إنّهم لانوا واستكنّوا مُكْرَهين ، مَقْسورين ، ويردف بأنّ المَرْء قد يدرك بقوله ما يقصّر عن إدراكه بسيفه .

٤٨ — ٤٩ — زُفَرُ : هوزفر بن الحارث ، كبير زعماء القيسيين .

م : يحذر بني أُميّة من تأليفهم لزُفر وإدنائه إليهم ، ويدعوهم إلى النّظر إليه كعدوّ لأنّ ما ظهر منه وما استتر ينطوي على الشّر والفساد .

٥٠ — العَرّ : الجرب .

م : يقول إن ما يُضْمره لكم من ضغينة يَسْتَتر ويكتم ، لكنّه ، لا يزول . فهو كالجرَب ، لا يلبث أن ينتشر ، فيما يخيّل أنّه زال وامّحت آثارُه . فكأنّ الأخطل يوعز بذلك إلى أن الحقد في النفس هو كالجرب للجسد ، قلّما يبرأ منه صاحبه .

٥١ — ٥٢ — الغوطَة : موضع قرب الشام .

م : يشير إلى ما كان من أمر التغلبيّين مع عمير بن الحُباب الذي قتله التغلبيّون وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى عبد الملك . يقول مخاطباً الخليفة : لقد جيء إليك برأسه ، فلم تكد تعرفه لشدّة ما أصابه من تَمْثيل وتنكيل ذَهَبا بمعالم وجهه .

٥٣ لا يَسْمَعُ الصَّوْتَ مُسْتَكًّا مسامِعُهُ وليسَ يَنْطِقُ ، حتي يَنْطقَ الحَجرُ

٥٤ أَمْسَتْ إِلى جانِبِ الحَشَّاكِ جيفَتُهُ وَرَأْسُهُ دونَـهُ اليَحْمُومُ والصُّوَرُ

٥٥ يسأَلُهُ الصُّبْرُ مِن غسّان ، إذحضروا والحَزْنُ: كيفَ قراكَ الغِلمةُ الجِشَرُ

٥٦ والحارِثَ بن أَبي عَوْفٍ لَعِبنَ بِهِ حتى تَعاوَرَهُ العِقْبانُ والسُّبُر

---

٥٣ ـ م : يصف رأسه الذي اجتثّ وحمل إلى الخليفة ، ويقول إنّه لا يسمع ، وقد تقبضّت مسامعه ، كما أنّه لا يُحير جواباً ولا ينطق . فهو كالحَجَر . والشاعر لا ينوّه بهذه الأمور التي لا حاجة للتصريح بها ، لأن المرء يلمّ بها ويتمثّلها ، دون أن تُذْكر له ، لا يؤدي ذلك ، الا ليعظّم من أمر قتله ويوحي إلى الخليفة بأنّ بني قومه أنْقذوه من شرّه إلى الأبد . فهو لا يسمع ولا ينْطق حتى يتآمر بهم ويؤلّب عليهم .

٥٤ ـ الحشّاك : موضع مرّ ذكره قبلاً . اليَحْموم : موضع بالشّام . الصُّوَرُ : موضع على الخابور .

م : يستكمل وصف قتلهم لعمير ، ويقول إن جثّته أُلقيت في موضع ، فيما نُقل رأسُه إلى موضع آخر ، وهو إذ يذكر ذلك ، كأنّما يوحي به أنّهم أنزلوا به أكثر من الموت ، أو كأن موتـه لم يَشْفِ غليلهم منه ، فظلّوا ينكّلون به إثر موته . وهو يعظم ، في الآن ذاته ، من أمر مناصرتهم للأمويين .

٥٥ ـ الصُّبْرُ والحَزْنُ : بَطْنان من غسّان . الجشر : القوم يخرجون بإبلهم ودوابهم إلى المرعى ، ويبيتون مكانها ، ولا يأوون إلى البيوت . وكان عمير يقول إن بني تغلب إنّما هم جَشَر لي آخذ منهم ما شئت ، فلمّا مروا برأسه على هذه القبائل ، قالوا : كيف رَأيت قِرى غِلْمتك الجَشَر ، مُسْتَهْزئين به . وهو انّما يعبر في هذا البيت وما قبله عن شماتته بمقتله .

٥٦ ـ الحارث بنْ أبي عَوْف : هو رجل من بني عامر بن صَعْصَعَة . السُّبر : جمع سابر : طائر دون الصَّقر . تَعاوره : تداوله .

م : يقول إنّهم فتكوا بذلك الرَّجل وخلفوا جثّته طعاماً للعِقبان والصُّقور .

٥٧ وقيسُ عَيلانَ ، حتى أَقْبلوا رَقصاً فبايعوكَ ، جهاراً ، بَعْدما كَفروا

هجاء القيسيين واحلافهم

٥٨ فلا هدى اللهُ قَيساً مِن ضَلالتِهِمْ ولا لَعاً لِبَني ذَكوان ، إذْ عَثروا

٥٩ ضَجُّوا من الحرب إذْ عضَّتْ غوارِبَهُمْ وقيسُ عَيلانَ ، مِنْ أَخلاقِها ، الضَّجَر

٦٠ كانوا ذَوي إمَّةٍ ، حتي إذا عَلِقَتْ بِهِمْ حَبَائِلُ للشَّيْطانِ وابْتُهِـــروا

٦١ صُكُّوا على شارِفٍ ، صَعْبٍ مَرَاكِبُها حَصَّاءَ لَيْسَ لها هُلْبٌ ولا وَبَـــر

٥٧ ــ رَقَصاً : خبباً .

م : يقول إنّهم أذلّوا قيس عيلان ، حتّى خضعوا له وأقبلوا يبايعونه ، بعد أن ناوأوه وخرجوا على سنّة الدين . وقوله أقبلوا « رقصاً » أي أقبلوا مُسْرعين .

٥٨ ــ لالعاً : أي لا اقامهم الله . بنو ذكْوان : رهط عمير بن الحباب .

م : يتمنّى أن يُقيم بنو عيلان على ضلالهم وخروجهم على الدين ويرجو ألا ينهض بنو ذكوان من عثْرتهم ويعودوا إلى قوّتهم ليُقاتلوا من جديد . وهو إنّما يتمنّى لهم في ذلك كلّه أن يبقوا هدفاً للاضطهاد والتنكيل ، لا تقوم لهم معه قائمة .

٥٩ ــ غواربهم : أعالي أكْتافهم .

م : يقول إنّهم لا يُطيقون القتال عندما يشتدُّ عليهم ، وإنّهم دأبوا على التضجّر من المشقّات والتّخاذل من دونها .

٦٠ ــ ٦١ ــ إمّة : نعمة . ابتُهروا : غُرِّرَ بهم . صُكّوا : حُملوا . شارِف : ناقة مسنّة . الحَصّاء : التي لا وَبَر لها . الهُلْب : شعر الذَّنب .

م : يقول إنّهم كانوا ذوي نعمة ، يرْتعون بخيرها ، حتّى وَسْوس لهم الشّيْطان وغرّر بهم ، فثاروا وركبوا مركباً وَعْراً ، لا خلاص لهم منه . وقد مثّل امتطاءهم للأمر الصَّعب بركوب النّاقة المسنّة التي تساقط الوَبر عن جسمها ، جميعاً .

٦٢ ولَمْ يَزَلْ بِسلَيْمٍ أَمْر جاهِلِهــا حتى تَعايا بها الإيرادُ والصَّــدَرُ
٦٣ إذْ يَنْظُرون ، وهُمْ يجْنون حَنْظَلَهُــمْ إلى الزَّوابي ، فقُلْنا بُعْدَ ما نَظَروا
٦٤ كَرُّوا إلى حَرَّتَيْهِم يَعْمُرونَهُمــا كما تَكُرُّ إلى أَوْطـانِهـا البَقَـرُ
٦٥ وأَصْبَحَتْ مِنْهُمُ سِنْجار خالِيَــةً والمَحْلبِيّـــات فالخـابور فالسرَر
٦٦ وما يُلاقونَ فَرَّاصاً إلى نسَــبٍ حتى يُلاقيَ جَدْيَ الفَرْقَدِ القَمَـرُ

---

٦٢ ــ سُلَيْم : هم من نسب عُمير بن الحباب . تَعايا : هنا عجز .
م : يقول إن عُمَيْر بن الحباب لم يزَلْ يسوق سُلَيْماً بحماقته وجهله ، حتى ضلّتِ السّبيل ولم تعد تدرك سُبُل الإقبال والإدبار .
٦٣ ــ الزَّوابي : جمع زاب : المواضع التي كان التغْلبيّون يقطنونها . الحَنْظل : المرارة ، وهنا إشارة إلى الحرب .
م : يقول إنّهم بعد أن أهلكتْهم الحرب وذاقوا مرارتّها ، جعلوا يتَطلّعون إلى مواقعنا طامعين بها ، ثم يُرْدف ساخراً من مطامعهم إذ يتعذّر عليهم أن يلمّوا بديار تغلب .
٦٤ ــ الحَرَّة : الأرض فيها حجارة سود .
م : يعرّض في هذا البيت بمقام القَيْسيّين ويقول إنّهم بعد أن أخفقوا في احتلال مواقعنا الخصبة ، هرعوا إلى ديارهم القاحلة التي تكثر فيها الحجارة السّود مُحاولين إعمارها .
٦٥ ــ سِنْجار : قصبة كورة الفرج من تل اعفر . المَحْلَبيّة : بلدة عند الموصل . السُّرر : أرض بالجزيرة .
م : يقول إنّنا قد أجليناهم عن جميع مواقعهم ، فأقفرتْ إثرهم ، دون أن يجسروا على العودة إليهـا .
٦٦ ــ فرَّاص : هو ابن معن بن مالك ويقال إنّه تغلبيّ . جَدْي : نجم إلى جنب القطب ، يدور مع بنات نعش ويتعذّر التقاؤه بالقمر .
م : يقول إنّهم يُسامون فرّاصاً ويعارضونه بنَسَبهم ولا قِبَل لهم بإدراكه والالتقاء به ، حتى يلتقي الجديُ والقَمر ، وهو أمر متعذّر بل مستحيل .

٦٧ ولا الضِّبابَ إذا اخضَرَّتْ عُيُونُهُمُ ولا عصيَّةَ إلاَّ أنَّهمْ بَشَرُ

٦٨ وما سَعى فيهِمِ ساعٍ لِيُدْرِكَنا إلاَّ تَقاصَرَ عَنَّا ، وهُوَ مُنْبَهِرُ

٦٩ وقدْ أَصابَتْ كلاباً ، مِنْ عداوَتِنا إحدى الدَّواهي التي تخشى وَتُنْتَظَرُ

٧٠ وَقَدْ تفاقَمَ أَمْرٌ غيرُ مُلْتَئِمٍ ما بَيْنَنَا رَحِمٌ فيهِ ولا عِذَرُ

هجاء بني كليب

٧١ أمّا كُلَيْبُ بنُ يَربوعٍ ، فليْسَ لهمْ عِنْدَ التَّفارُطِ إيرادٌ ولا صَدَرُ

٧٢ مُخَلَّفونَ ، وَيَقْضي النَّاس أَمْرَهُمُ وَهُمْ بغَيْبٍ وفي عَمْياءَ ما شَعَروا

---

٦٧ – الضِّباب : قوم من قيس عيلان . اخضَرَّت : هنا اسودّت . عُصَيّة . بطن من بني سليم .

م : يقول إنّه لا طاقة للضِّباب ولا لبني عُصَيّة أن يساموه برفعة الأصل والمَحْتد ، ولا ينتسبون إليه بنَسب ، إلا بكونهم بشراً .

٦٨ – انْبَهَر : انقطع نفسه من شدّة الإعياء .

م : يمثل التفاضل فيما بين تَغْلب وقيس بمثل السّباق ويقول إن القَيْسيّين لا يسعون إلى اللّحاق بهم ، حتى تَتَقطّع أنفاسهم ويصيبهم البهر ويُشْرفوا على الهلاك .

٦٩ – الدّواهي : جمع داهية .

م : ينقطع في هذا البيت إلى هجاء قوم جرير ، ويقول إنّهم قد انزلوا بهم الدّواهي العظيمة الّتي لا يبرح القوم يَخْشونها ويتحسبّون لوقوعها .

٧٠ – م : يقول إنّه قد تفاقم وساء الأمر بيننا ولا سبيل إلى رَأبه ومدارا ته ، إذ لا صلة رحم تؤلّف بيننا ولا عُذْرَ لنا في الإحجام عن التعرُّض لهم ومقاتلتهم .

٧١ – التّفارُط : التقدُّم إلى الماء في زحمة من النّاس . وَرَدَ : أقبل على الماء . صَدَرَ: عاد عنه

م : يمثّل قلّة شأن بني يَربوع ، قوم جرير ، ويقول إنّه إذ يجتمع القَوْم مُتزاحمين على ورود الماء ، فإنّهم يُخلّفون في الذّيل ، لا يَرِدون ولا يصدرون .

٧٢ – م : يقول إنّهم قاصرون ، أذلاّء ، لا يملكون زمام أمرهم ، يَقْضي به النّاس عنهم ، وهم غافلون لا يُلمّون بشيء ولا يشعرون به .

٧٣ مُلَطَّمونَ بأعْقارِ الحِياضِ ، فما يَنفَكُّ مِنْ دارميٍّ فيهِم أثــــرُ

٧٤ بئسَ الصُّحاةُ ،وبئس الشَّرْبُ شَرْبهمْ إذا جرى فيهِم المــزّاءُ والسكــر

٧٥ قَوْمٌ أَنابَتْ إليهِمْ كلُّ مُخزِيــة وكلُّ فاحِشَةٍ سبّتْ بها مضــــر

٧٦ على العِيارات هَدّاجونَ ، قَدْ بَلَغَتْ نَجْرَانَ أَوْ حُدِّثَتْ سوءاتهِمْ هَجَــر

٧٧ ألآكلون خَبيثَ الزَّادِ ، وحدهُمُ والسّائلونَ بظَهْرِ الغَيْبِ ما الخَبَرُ

٧٨ واذْكُرْ غُدانَةَ عِدّانــاً مُزَنَّمــةً مِن الحَبَلَّقِ تُبْنى حوْلهــا الصِّيَرُ

---

٧٣ – أعْقار : جمع عقر وهو مؤخّر الحوض . الدّارميّ : نسبة إلى دارم أحد جدود الفَرَزْدق .

م : يكرّر المعنى الأسبق ويقول إنّهم إذ يردون بإبلهم الماء ، يخلفون وراء الجميع ، ينكّل بهم الداريّون ، ويخلّفون فيهم آثار زجرهم وضربهم لهم .

٧٤ – المزّاء : الخمرة التي طعمها بين الحلاوة والحموضة .

م : يقول إن بني يربوع سيّئو الخلق ، سُفهاء ، أكانوا سكارى أم صحاة . أي أن أخلاقهم هي أخلاق المُجون دون أن يَحْتسوا لذلك خمراً .

٧٥ – م : يقول انّ المخازي والفواحش التي سُبّت بها مُضَر وعيبت عليها ، لا تزال تنسب إليهم وتتصّل بهم .

هَجَرُ : موضع .

م : يقول إنهم لا يزالون يسعون ببطء على الحمير ، أي أنّهم ليسوا بفرسان يَمْتطون الخَيْل أو الإبل ، وإن أنباء مساوئهم قد تذيّعت وانتشرت في النّاس ، حتى أدركت الأمكنة القصيّة .

٧٧ – يقول إنّهم لبخلهم يأكلون زادهم الخبيث ، منفردين ، ولا يشركهم فيه ضيف أو جار ، وإنهم مغفّلون ، لا يُطْلعون على الأمور ولا يستشارون بها ، بل تَراهم يسألون عنها دون معرفة بها ، كالدّهماء الذين لا شأن لهم .

٧٨ – غُدانة : من بني يربوع . العِدّان : جماعة من المعزى . مُزَنمة : التي تدلّى من حلقها . الحَبَلّق : أولاد المعزى الصغار . الصّير : الحظائر .

م : يمثّل بني غدانة بجماعة من المعزى الصّغيرة التي تَزْرب في الزّرائب .

٧٩ تُمْذي ، إذاسَخَنَتْفي قُبلِ أَذْرُعِهـا وَتَزْرَئِمٌّ إذا مـا بَلَّها المَطَـرُ
٨٠ وما غُدانَةُ في شيءٍ مكـانَهُـمْ أَلحابِسو الشّاءَ ، حتى يَفْضُلَ السُّؤُرُ
٨١ يتَّصِلونَ بيَرْبوعٍ ، وَرَفْـدُهُـمُ عِنْدَ التَّرافُدِ ، مغْمورٌ ومُحْتَقَـرُ
٨٢ صُفْرُ اللِّحى مِنْ وَقودِ الأَدْخِناتِ ، إذا رَدَّ الرِّفادَ وكَفَّ الحالبِ القِـرَرُ
٨٣ ثُمَّ الإِيابُ إلى سودٍ مُدَنَّسَـةٍ ما يَسْتَحِينَ ، إذا ما احتكتِ النُّقَرُ
٨٤ وأَقسَمَ المجْدُ ، حقًّا ، لا يُحَالِفُهُمْ حتى يُحالِفَ بَطْنَ الرَّاحَةِ الشَّعَـرُ

---

٧٩ ــ تُمْذي : تبول . المُزْرَئِمّ : المُنقبض من شدّة البرد .

م : يهزأ بهم ويحقّر من أمرهم ، مستكملاً معنى البيت السّابق ، ويقول إنّهم يبولون على سوقهم ، إذا ما ضربتهم الحرارة ، وإذا ما أصابهم البرد وهطل عليهم المطر ، ينقبضون على أنفسهم .

٨٠ ــ السّؤرُ : جمع سؤور : ما فضل في الإناء .

م : يقول هم أذلاء ، فلا يقدرون أن يسقوا شاءهم حتّى يشرب الأقوياء وإنّما يسقون ما أفضل الأشراف .

٨١ ــ الرَّفْد : الإعانة .

م : يقول إنّهم يستنجدون ببني يربوع القَليلي العدد ، المَغْمورين الذين لا نصر لمن يُناصرونهم .

٨٢ ــ الرِّفاد : قدح ضخم . القِرَرُ : جمع قرّة وهي البرد .

م : يقول : إن لحاهم قد اصفرّت لكثرة ما يستخدمون ليوقدوا النّار في المداخن ، أيّام الصّقيع ، عندما يجيء الحالب بالرّفاد ، فيردّه به البرد ، خالياً ، لشدّته .

٨٣ ــ النّقر : الثقب في وسط الورك .

م : يقول إن أولئك الرجال يأوون إلى نسائهم القذرات ، السود ، اللّواتي لا يَعْرفن حياء في طلب الرّجال ومواقعتهم .

٨٤ ــ م : ينهي القصيدة بالقول إن المجد قد أقسم ألا يبيت وينبت فيهم حتّى ينمو الشّعر في باطن الكفّ .

أَعني أَمير المؤمنين

من مدائحه ايضاً في عبد الملك

ذكر حبيبته سلمى

١ أَلا يا اسْلمي يا هِندُ هِندَ بني بَدْرِ وإنْ كان حيّانا عِدًى ،آخِرَ الدَّهْرِ
٢ وإنْ كُنْتِ قدْ أَقْصَدْتِني ،إذ رَمَيْتِني بسَهْمكِ ، والرَّامي ،يُصيبُ وما يدري
٣ أَسيلَةُ مجرَى الدَّمعِ ، أمّا وشاحُها فجارٍ ، وأَمّا الحِجْلُ منها فمايجري
٤ تَموتُ وتَحْيا بالضَّجيعِ وتَلْتوي بِمُطَّرِدِ المَتْنَيْنِ مُنْتَبِرِ الخَصْــــرِ
٥ وكُنْتُمْ إذا تناأَون مِنّا ، تَعَرَّضَتْ خيالاتُكُمْ ، أَوْ بِتُّ منْكُمْ علىذِكْرِ

---

١ ــ العِدى : يقال للمُتباعدين ، لا أرحام بينهم ولا أسباب من جوار ولا حلف قوم .
م : يخاطب صاحبتَه هنداً ويرجو لها السّلامة ويَنْسبها إلى بني قومها . ويقول إنّه يأمل أن يقيما على المودّة بالرغم من الجفاء بين قومَيْهما .
٢ ــ أقْصَده : أصاب منه مقتلاً .
م : يقول إنّه يتمنّى لها خيراً ويرجو لها سلامة بالرَّغم من أنّها أصابَتْه بسهام حبّها دون أن تدري ، فأصابت منه مَقْتلاً .
٣ ــ أسيلَةُ مَجْرَى الدَّمْع : أي سهلة الخدّين . الحِجْل : موضع الخلخال .
م : يقول إنّها سهلة الخدّين ، وإن وشاحها جارٍ ، أي أنّها ضامرة الكَشْحَين ، وإن ساقها ممتلئة ، فلا يَتحرّك خلخالها فيها .
٤ ــ م : يصف لين جسدها وانتصابَ قوامها ، ويقول إنّها إذا ما ضُوجعت تُصاب بمثل إغماء الشّهوة ، وإنّها مُطّرِدَة المَتْنَين أي منتصبة القوام ، وإنّها منتبرة القوام أي ضامرة حتّى ليكاد قوامها أن ينقطع .
٥ ــ م : يقول إنّه لشدّة شغَفَه بها ينتابه طيفُها ، ويتعرّض له ، أو أنّه كان يقيم على ذكرها .

٦ لقَدْ حَمَلَتْ قَيسَ بنَ عَيلانَ حرْبُنَا   على يابِسِ السِّيساءِ ، محْدَوْدبِ الظَّهْرِ
٧ وقَدْ سرّني مِنْ قَيْسِ عَيْلان ،أَنَّني   رَأَيْتُ بني العَجْلانِ سادوا بني بدْرِ
٨ وقَدْ غَبَرَ العَجْلانُ حِيناً ، إذا بكي   على الزّادِ ، أَلقتْهُ الوليدَةُ في الكَسْرِ
٨ فيُصْبحُ كالخُفَّاشِ ، يَدْلُكُ عَيْنَهُ   فَقُبّحَ مِنْ وَجْهٍ لئيمٍ ،ومَنْ حَجرِ
١٠ وكُنْتُمْ بَني العَجْلانِ ألأَمَ عِنْدَنا   وأَحْقَرَ مِن أن تشهدوا عاليَ الأَمْرِ

٦ ــ السّيساء : مُنْتظم فِقار الظّهر .

م : يقول إن قتالهم لقَيْس عَيْلان ، جعلها تركب مركباً وعْراً ، أشْرفت فيه على الهلاك .

٧ ــ العَجْلان : هو ابن عبد الله بن قَيْس بن ربيعة وهم من قيس عيلان . بنو بدر : هم جماعة من القَيْسيّين .

م : كأنّ الأخطل يهدف في هذا القول إلى إثارة الفِتْنة والشّقاق بين القَيْسيين ، فيذكر طربه لتسلّط بعضهم على البَعْض الآخر .

٨ ــ الكَسْر : جانب البَيْت .

م : يقول إن ابن العَجْلان أقام زماناً ، إذا طلب الزّاد واندفع إلَيْه جرّته والدتُه ودفعته إلى جوار البَيْت . يمثّل بذلك بُخْلهم حتّى إنّهم ليَقتّرون على ولدانهم .

٩ ــ الحَجْر : هنا محجر العَيْن .

م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ويصفه مقيماً خارج البَيْت ، هزيلاً كالخفّاش يمر يده على عينيه ، باكياً ، ثم يُقَبّح بوجهه وعينيه .

١٠ ــ م : يقول إنّهم يزْرون ببني العَجْلان لدناءتهم ولؤمهم ولا يُلْفونهم حقيقين بأن يشهدوا مشاهد الرأي والشّورى .

١١ بَني كُلِّ دَسْمَاءِ الثِّيابِ ، كأَنَّما طلاها بنو العَجْلانِ مِن حُمَمِ القِدْرِ
١٢ تَرَى كَعْبَها قد زالَ مِن طولِ رَعيِها وَقاحَ الذُّنابى بالسَّوِيَّةِ والزِّفْرِ
١٣ وإنْ نزَلَ الأَقْوامُ مَنْزِلَ عِفَّةٍ نزَلتُمْ بَني العَجْلانِ مَنزِلَةَ الخُسرِ
١٤ وشاركَتِ العَجلانُ كعباً ، ولَمْ تكُنْ تُشارِكُ كَعباً في وفاءٍ ولا غَدْرِ

وصف هرب ابن بدر

١٥ ونَجَى ابنَ بدْرٍ ركضُهُ من رماحِنا ونَضاحَةُ الاعْطافِ مُلهبَةُ الحُضَرِ

---

١١ ــ حُمم : جمع حمّة : أي الفَحم والرّماد .

م : يحقّر من أمر نسائهم ويحقّرهم من خلالهن ، إذ يصف شظف عيشهم وقذارة نسائهم ويقول إنّهنّ سود الثّياب ، كأنّما صُبغَتْ ثيابُهن بسواد القُدور .

١٢ ــ الذُّنابى : هنا العَجزُ . السّويّة : قَتَب معرًّى . الزِّفْر : الحِمْل .

م : يستكمل هجاءه لهم بوصفه لنسائهم ويثلبهم ثلباً مُقْذعاً ، ويقول إن العَجْلانية قد بُري كعب قَدَمها من كثْرة عدوها عليه في المَرْعى والقيام على الخدمة كالأمَة ، كما أنّ عجزُها قد تَقَيّح من كثْرة ما تَحْمِل الأثقال عليه . ومؤدّى الهجاء في هذا البيت أن القوم الشُّرفاء كانوا يَدَعون نساءَهم في نعيم ويسوقون الإماء لخدمتهنّ .

١٣ ــ م : يقول إذا ما تبارى الأقوام بالتصون والعفّة ، فإن كفّة بني العجلان لا ترجح ولا يفوزون في ذلك بشيء ، يتّهمهم بالدّنس ومواقَعة الفَحْشاء والدّناءة .

١٤ ــ كَعْباً : يريد هنا كعب بن ربيعة .

م : يقول إنّهم لهزال أصلهم أقحموا أنفسهم على كعب ، فانتموا إلى قومه ، فهم يلحقون بهم ، كمن لا أصل لهم .

١٥ ــ نَضّاحة : أي أن العرق يَنْضح منها . الحُضْر : العَدْو .

م : يقول إن ابن بدر نجا من رماحنا بإدباره من دوننا وتولّيه على فرس سريعة العَدْو ، ينضح العرق ويتصبّب منها لشدّة زجره لها ، حتّى ينجو بنفسه .

١٦ إذا قُلتُ نالَتهُ العوالي ، تقادفَتْ بهِ سَوْحقُ الرّجلَينِ ، صايبةُ الصّدْرِ

١٧ كأنَّهما والآلُ يَنجابُ عَنهُما إذا انغَمسا فيهِ يَعومانِ في غَمْرِ

١٨ يُسِرُّ إليَها ، والرّماحُ تَنُوشُهُ : فدًى لكِ أُمّي ، إنْ دأبتِ إلى العَصرِ

١٩ فظَلَّ يُفَدِّيها ، وظَلّتْ كأنَّها عُقابٌ ، دعاها جُنحُ لَيلٍ إلى وَكرِ

٢٠ كأَنَّ بِطُبْيَيْهَا ومَجْرَى حِزامِها أداوى تَسُحُّ الماءَ مِنْ حَوَرٍ وُفْرِ

٢١ رَكوبٌ على السّوءَاتِ ، قَدْ شَنَّمَ استَه مُزاحَمَةُ الأَعداءِ والنَّخس في الدُّبْرِ

---

١٦ — العَوالي : أطْراف الرِّماح . تقاذَفَتْ : ترامَتْ به . سَوْحَقُ الرّجْلَيْن : طويلتهما . صايبة : أي سريعة المَمَرّ ، لا تميل في استوائها .

م : يقول إنّه لا تكاد رماحنا تطاله ، فإنّه يعدو من دوننا ، ويهرب بنفسه على تلك الفرس المُسْتوية العَدْو ، الطويلة السّاقين . وهو إنّما يعظّم من سرعة عدو فرسه ، ليعظّم من خلالها من شدّة رعب ابن بدر وهَلَعه في الهَرَب .

١٧ — الآل : السّراب . يَنْجاب : يَنْكَشف : انْغمسا : هنا ولجا . الغَمْر : الماء الكثير .

م : يستكمل معنى البَيْت السّابق ، ويصف عدو ابن بدر في الصَّحراء ، حيث كان يغمره السّراب وفَرَسَه ، وينقشع عنهما ، ويمثّل خَوْضَهما فيه بمثل خوض غُمار البحر .

١٨ — يُسِرّ إليَهْا : هنا يهمس لها .

م : أي أن ابن بدر كان يخاطب فرسه ويُفَدّيها ويستحثُّها حتى تثابر على عَدْوها إلى العصر ، فينجو من الهلاك .

١٩ — الجُنْح : العَشِيّ . ظَلّت : هنا تدَلّت .

م : أي أنّه ظلّ يَسْتَحثُّها ، فيما هي أقامت على عدوها ، كأنّها عقاب تسرع إلى وكرها ، قبل أن يعاجلَها الظّلام .

٢٠ — طُبْيَيْها : مفردها طُبْي أي ثدي . حوَر : جلد مَدْبوغ . وُفْر : ضَخْم . الأداوى : جمع الإداوة : إناء صغير من جلد .

م : يمثّل العَرَق المتصبّب من ثَدْيَيْها ومجرى حزامها بالأداوى الّتي ينهمر منها الماء .

٢١ — الرّكوب : الذّلول . شَنّمَ : جرّح . النّخْس : الضرب بأداة حادّة . الدُّبر : المؤخّرة .

م : يقول إنّه يَذِلُّ ويستسلم لما يسوءُه وإنّ عجزه قد جُرّح من تزاحم أعدائه على ضربه به ونخسهم له فيه ، يسوقونه ويزجونه كالدّابة .

٢٢ فطاروا شِقاقاً لاثْنَتَيْنِ ، فعــامِرٌ تَبيـعُ بَنيها بالخِصافِ وبالتَّمْــرِ
٢٣ وأَمّا سُلَيْمٌ ، فاسْتَعاذَتْ حِذارَنــا بحَرَّتِها السَّوْداءِ والجبَلِ الوَعْــــرِ
٢٤ تَنِقُّ بلا شيءٍ شُيوخُ مُحــارِبٍ وما خِلْتُها كانَتْ تَرِيشُ ولا تَبري
٢٥ ضَفادعُ في ظَلْماءِ لَيْلٍ تجاوَبَتْ فدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُها حيّةَ البَحْــرِ
١٦ ونحنُ رَفَعْنا عَنْ سَلولٍ رِماحَنــا وعَمْداً رَغِبْنا عَنْ دماءِ بني نَصْرِ

---

٢٢ ـ شقاقاً لاثنتين : أي انقسموا إلى فرقتين . الخصاف : جلّة تعمل من الخصاف للتمر .

م : يقول إنّهم انقسموا إلى فرقتين ، إحداهما العامريّون الذين دأبوا على بيع أولادهم بالتمر والخصاف . أي أنّهم لذلّهم يتجرون بأبنائهم ويبيعونهم عبيداً لقاء ثمن زهيد .

٢٣ ـ الحَرَّة : الأرض السَّوْداء التي لا نَبْت فيها .

م : أمّا الفرقة الثانية ، وهم سليم ، فقد ولّت الأدبار ولجأت إلى أرضها السّوداء الكثيرة الحجارة واعتصمت بالجبال الوعرة . أي أنّهم أزعجوها عن مرابعها وأجبروها على الإقامة في مواقع لا يطيب لها فيها العيش ، إذ لا ماء فيها ولا خصب .

٢٤ ـ تَنِقُّ : أي ترسل مثل أصوات الضّفادع . تَرِيشُ تضع الرّيش للسّهام . تَبْري : تثقّف السّهام .

م : يقول : إن أولئك الشّيوخ يكتفون بالصّياح والجلبة ، دون أن يقووا على أي عمل ودون أن يجدُّوا في شيء .

٢٥ ـ م : يستكمل معنى البيت السّابق ، ويقول إنّها أخذَتْ تُصوّت حتى سمعتها حيّة البَحْر ، وأقبلت إليها ، أي أنّها جنَتْ على نفسها .

٢٦ ـ م : يفخر في هذا البيت بأنّهم هم الذين رفعوا رماحهم عن سلول أي عفُّوا عن قتلهم وهم قادرون عليه ، تحلّماً ، وأنّهم تعمدوا كذلك حقن دماء بني نصر . وإنّما يفخر الأخطل هنا بقدرتهم التي لا حدّ لها على البَطْش ، بحيث أنّهم باتوا تعطفهم الشّفقة على أعدائهم ، فيعفّون عنهم .

٢٧ ولَوْ بِبَني ذُبْيانَ بُلَّتْ رِماحُنـــا لَقَرَّتْ بهمْ عَيْني وباءَ بِهِمْ وِتْري
٢٨ شفى النَّفْسَ قَتْلى مِنْ سُليمٍ وعامرٍ ولمْ تَشْفِها قَتْلى غَنيٍّ ولا جَسْرِ
٢٩ ولا جُشَمٍ شَرِّ القَبائلِ ، إنَّهـــا كبَيْضِ القطا ، ليسوا بسودٍ ولا حُمْرِ
٣٠ وما تَرَكَتْ أَسْيافُنا حينَ جُرِّدَتْ لأَعْدائنا قَيْسِ بنِ عَيْلانَ مِنْ عُذْرِ
٣١ وقَدْ عَرَكَتْ بابْنَيْ دُخانٍ فأَصبَحا إذا ما احزَأَلاَّ مِثْلَ باقيَةِ البَظْـــرِ

٢٧ ــ بَلّتْ : أي علقت . باءَ : أي أصاب لنفسه إذ أدرك ثاره .

م : يمثّل في هذا البيت حقده على بني ذُبيان ويتمنّى لو أنّ رماحهم أدركتهم ليشفي نفسه من الحقد عليهم والرّغبة بالثأر منهم . وبينما كان يفخر في البيت السّابق بعفوه عن خصومه ، فإنّه يتحسّر في هذا البيت لعجزه عن الإيقاع بخصوم آخرين . وقد كان قوله السابق ينمُّ عن احتقار لقَدْر أعدائه ، فيما أفصح في البيت الثاني عن شعوره بالوِتْر والنّقمة .

٢٨ ــ م : يقول : إنّه أدرك ثأره وأجهض حقده إذ أثْخن بقتل عامر بني وسليم ، فيما لم يشف نفسه ممّن قاتلهم دونهما ولم يَبْلغ فيهم غاية مأربه .

٢٩ ــ القطا : طائر يضرب به المَثَل لشدّة اهتدائه .

م : أي أنّه لم يدرك غاية الثّأر من بني جشم الذين يترجّح لون وجوههم بين السّواد والاحمرار كبَيْض القطا .

٣٠ ــ م : يقول إنّهم بطشوا بقيس عيلان كلّ بطش ، حتّى لم يدعوا لهم خلاصاً وألمّوا بهم في كلّ موقعة حتى إنّهم لم يدَعوا لهم عُذْراً يعتذرون به .

٣١ ــ عركَتْ : ذَللت . ابنا دخان : هما غنيّ وباهلة . أحزَألاّ : أي ارتفعا : البَظْر لحمة في فرج المرأة .

م : يقذع في هجاء ابني دخان ويقول إن سيوفنا فتكت بهما ، حتّى استسلما وتعَفّرا وغدوَا ، إذا ما رفعا رأسيهما ، يبدوان كباقية البَظْر .

٣٢ وأدْرَكَ عِلْمي في سُواءَةَ ، أنّهـا تُقيمُ على الأوْتارِ والمشْرَبِ الكَدْرِ
٣٣ وَظَلَّ بَجِيسُ الماءِ مِنْ مُتَقَصِّدٍ على كُلِّ حالٍ مِنْ مذاهِبِهِ يَجْري
٣٤ فأُقْسِمُ لَوْ أَدْرَكْنَهُ لقَذَفْنَهُ إلى صَعْبَةِ الأَرْجاءِ ، مُظْلِمَةِ القَعْرِ
٣٥ فوَسّدَ فِيها كفَّهُ ، أَوْ لحجَّلَتْ ضِباعُ الصَّحاري حَوْلَهُ ، غيرَذي قبرِ
٣٦ لعَمْري لقَدْ لاقَتْ سُلَيْمٌ وعامِرٌ على جانبِ الثَّرْثار راغِيَةَ البَكْرِ

٣٢ – سواءة : من قيس عَيْلان وكذلك بنو العَجْلان وهوازن وغنيّ . الكَدْر : العَكر .

م : يقول : إنّني علمت بأن بني سواءة يُقيمون على ثاراتهم ولا يبوءون بها ، وأنّهم يسيغون الماء الكَدر أي أنّهم يرضون بما قد يلمّ بهم ، بالرّغم من أنّه يصيبهم بالذّل .

٣٣ – بَجيسُ الماء : أي سائلُه . مُتَقَصِّد : من تقصَّده وأقصده ، إذ أصابه وأسال دمه وهنا وردت بمعنى السيّلان .

م : أي أنّ الماء الكَدر الذي يَحْتسونه ظلّ يجري في مجراه ، ولم يعترضوا له ولم يعلموا من أمره شيئاً ، أي أنّهم أقاموا على الذلّ ولم يثوروا لكرامتهم ويثأروا لها .

٣٤ – م : يعود في هذا البيت إلى ذكر ابن بدر الذي وصف هربه على فرس سريعة داخلاً في السّراب وخارجاً منه ، وقد استطرد عنه بذكر بعض الأيام والقبائل . يقول لو أن خيلَنا أدركَتْه لأودت به إلى الهلاك أي إلى القَبْر الذي مثّله بالحفرة الصّعبة الأرجاء المُظْلمة القعر .

٣٥ – م : يستكمل معنى البيت السّابق ، ويقول إنّ خيلهم كانت قد أوْدت به إلى القَبْر حيث يتوسّد كفّه أو خلّفَتْه صريعاً في القَفْر دون قَبْر تَتسارع الضّباع لافتراسه .

٣٦ – راغِيَة البَكْر : أي كرغاء ناقة صالح التي رَغَتْ ببني ثمود فأهْلِكوا . الثرْثار : موضع ذُكر قَبلاً ، كانت فيه وقعة بين تغلب وأعدائها .

م : يقول : إنّهم أذاقوا أعداءهم في يوم الثرْثار الهلاك والموت .

٣٧ أَعِنِّي أَميرَ المؤمنين بنَـــائِلٍ وحُسْنِ عطاءٍ، لَيْس بالرَّيِّثِ النَّزْرِ
٣٨ وأَنْتَ أَميرُ المؤمنين ، ومـا بِنـا إلى صُلْحِ قَيْسٍ يابنَ مَرْوانَ مِن فَقْـرِ
٣٩ فإنْ تكُ قيسٌ ، يابْنَ مَرْوان ،بايعَتْ فَقَدْ وَهِلَتْ قيسٌ إليكَ ،مِن العُذْرِ
٤٠ علىغَيرِ إسْلامٍ ولا عَنْ بَصِيرَةٍ ولكنَّهُمْ سِيقوا إليكَ عَلى صُغْـرِ
٤١ ولمّا تَبَيّنا ضَلالَـــةَ مُصْعَبٍ فَتَحْنا لأَهْلِ الشَّامِ باباً مِنَ النَّصْرِ
٤٢ فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنَّا هَوَازِنُ كُلُّهـا كواهي السُّلامى ، زِيد وقْراً علىوَقْرِ

٣٧ ــ م : يخاطب الخليفة ويطلب اليه أن يمدّه بعطاء كثير .

٣٨ ــ م : يقول مخاطباً الخليفة : إنّك أنت أمير المؤمنين أي أنّك صاحب السُّلطة والحول والقدرة ، لا تفتقر بها وبنا إلى عقد الصُّلح مع قيس عيلان . وقد كان الأخطل يخشى أن يؤلّف الأمويّون القَيْسيّين . فيُلْفى التّغْلبيّون دون عضد يعضدهم على أعدائهم وهو لا يبرح لذلك يحذّر الخليفة من تقديم القَيْسيّين وإيثارهم وتأليفهم .

٣٩ ــ وهِلَتْ : أي نزعت إليك عن خوف .

م : يحذر الخليفة ويقول إن القَيْسيين هرعوا إلى مبايعته خوفاً من فَتْكه بهم ، إثر مناصرتهم لابن الزُّبير ومقاتلتهم دونه . وهم إنّما بايعوه ليعتذروا له عمّا أسلفوه له من عداء ليصفح عنهم . فهم لم يُبايعوا عن اختيار بل عن اضطرار .

٤٠ ــ م : يكرر معنى البيت السّابق ويوضحه ، ويقول إنّهم لم يبايعوا عن عقيدة وإيمان وهداية ، لكنّهم دُفعوا إلى ذلك دَفْعاً وسيقوا إليه صاغرين مُكْرَهين .

٤١ ــ م : يقول إنّنا إذ تحقّق لنا أن مُصْعباً كان ضالاً عن سويّة الحقّ والدين من دونكم ، ناصرنا أهل الشّام عليه ، فانتصروا بنا . والأخطل يسوق إلى الخليفة ما قد يسوقه المُسلم وفقاً لمبادىء الدين وسنّته .

٤٢ ــ السّلامى : عظام خفّ البَعير . الوَقْر : الصَّدع في العظم .

م : يشير إلى ما أنزله بنو قومه من قتل وبطش ببني هوازن وهم من بطون قَيْس ، ويقول إنهم غدوا كالعظام التي صُدِّعت وازدادَتْ تحطيماً .

٤٣ سَمَوْنا بعِرْنينٍ أشمَّ وعــارِضٍ لنَمْنعَ ما بينَ العِراقِ إلى البِشْرِ
٤٤ فأَصْبَحَ ما بَيْنَ العِراقِ ومَنْبِــجٍ لتَغْلِبَ تَرْدي بالرُّدينيّةِ السُّمْــرِ
٤٥ إلَيْكَ أَميرَ المؤمنيــنَ نسيرُهــا تَخُبُّ المطايا بالعَرانينِ مِنْ بَكْرِ
٤٦ برأسِ امرئٍ دَلَّى سُلَيماً وعامِراً وأَوْرَد قَيْساً لُجَّ ذي حَدَبٍ غَمْرِ
٤٧ فأَسْرَينَ خَمساً ، ثُمَّ أَصبحنَ ، غُدوَةً يُخَبِّرْنَ أَخْباراً أَلَذَّ مِنَ الخَمْــرِ

٤٣ ــ العِرْنين : الأنف . العارض : الجَمْع الكثير وأصله في السّحاب المُتراكم الكثير المطر . البشر : موضع بين العراق والشّام ، وفيه قتل الجحّاف بن حكيم بن تغلب ، وكان الأخطل قد تظلّم إلى الخليفة من ذلك اليوم بالقول : « لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعة » إلاّ أنّه يتّخذ هنا من ذكره مفخرة ، ويقول إنّهم ارتادوا المرابع القائمة بين العراق وموضع البشْر بجيوشهم العظيمة واحتلّوها ومنعوا عنها كلّ مَنْ دونهم .

٤٤ ــ منْبِج : قرية بينها وبين العراق ثلاثة فراسخ . تَرْدي : تمشي . الرُّدَيْنيّة : نسبت إلى رُدَينة في البحرين ، ينبت فيها القنا .

م : يذكر المواقع التي احتلّوها بسلاحهم ويفخر بذلك .

٤٥ ــ العرانين : جمع عِرْنين : الأنف وهنا الأسياد .

م : يقول مخاطباً الخليفة ، مُتفاخراً بأنّهم كانوا يسوقون إليه رؤساء بكر وأسيادها أسارى تخبُّ بهم مطاياهم إلى الشّام .

٤٦ ــ رأس امرئ : هو عمير بن الحباب . دلّى : من تدلية الدّلو ، أي أنّه ساقهم إلى ما كان يبتغيه من أمر وغرّر بهم . لُجّ : جمع لجة : معظم الماء . الحدَب : البَحْر . الغَمْر : الماء الكثير .

م : يقول إنّهم ساقوا إليه رأس عمير بن الحباب الذي كان قد غرّر بسليم وعامر وساق القَيْسيّين إلى لُجّة كان فيها هلاكهم .

٤٧ ــ م : يقول إن تلك الخيول عدَتْ برأس عمير طوال خمس ليالٍ ، حتى أدركت الشّام غدوة وحمل فرسانها إلينا أخباراً تطيب لها النّفس بما هو ألذّ من الخمرة . وتشبيهه للذّة الخبر بلذّة الخمرة ، قد يكون مستفاداً من تجربته الخمرية .

٤٨ تَخَلَّ ابنَ صَفَّارٍ ، فلا تَذْكُرِ العُلى ولا تذكُرَنْ حَيّاتِ قومكَ في الذِّكْرِ
٤٩ فَقَدْ نَهضَتْ للتَّغْلبيّين حَيّـــةٌ كحيّةِ مُوسَى يوْمَ أُيِّدَ بالنَّصْـــرِ
٥٠ يُخْبِّرْنَنا أَنَّ الأَرَاقِمَ فَلَّقُـــوا جَمَاجمَ قَيْسٍ بَيْنَ راذانَ فالحَضْرِ
٥١ جَماجمَ قَوْمٍ ، لَمْ يَعافُوا ظُلامَةً وَلَـمْ يَعْلَمُوا أَيْنَ الوفاءُ مِنَ الغَـدْرِ

---

٤٨ ــ ابن صَفّار : هو نفيع بن صفّار المُحاربي الذي كان يدأب على الفَخْر بيوم الفدين وما إليه.
حيّات : جمع حيّة وقد تكنّى بها عن القدرة على الأذيّة .

م : يخاطب ابن صفار الذي لا يزال يفخر بأيّام بني قومه على التغْلبيين ويردعه عن ذلك ، ويقول له : لا تَدّعِ المعالي ولا تَتَبَجّح بقدرتكم على مساورة الأعداء والقضاء عليهم .

٤٩ ــ م : يستطرد منساقاً بلفظة « حيّة » إلى تشبيه قدرة التغلبيين في القضاء على أعدائهم بحيّة موسى التي توسّلها يوم أيّده الله بنصره .

٥٠ ــ الأراقم : قوم من التغْلبيين مرَّ ذكْرهم . فلقوا : شَقّقوا . راذان : كورة بسواد بغداد . الحَضْر : حصن في جبال تكريت .

م : يبدو أن هذا البيت كان لاحقاً بالبيت رقم ٤٦ حيث قال إنّ الخيل أصبَحْنَ غدوة يخبّرن أخباراً ألذّ من الخَمْر . فإذا ألحقنا به هذا البيت إذ يقول « يخبرننا أن الأراقم . . . » يستقيم أداء المعنى وتسلسله .

٥١ ــ م : يستكمل هجاء القيسيين الذين لم يَعفُوا عن أي نوع من الظّلم ولم يميّزوا قطّ بين الوفاء والغدر ، بل إنهم دأبوا على الغدر والوقيعة .

إلى ابن اسيد خالد أَرقلت بنا

(من مدائحه في خالد بن أسيد)

ذكر الأحبة والظعائن

١ عَفا واسطٌ مِنْ آلِ رِضْوى ، فَنَبتَلُ فمُجتَمَعُ الحُرّينِ ، فالصَّبْرُ أجملُ
٢ فرابِيَةُ السّكرانِ قَفرٌ ، فما لهُمْ بها شَبَحٌ ، إلاَّ سَلامٌ وحَرْمَــــلُ
٣ صَحا القَلبُ إلاَّ مِنْ ظعائنَ فاتَــني بهِنَّ ابنُ خَلاَّس طُفَيلٌ وعَزهَــلُ

---

١ ـ عَفا : درّس وذهبت معالمُه . آل : أهل . رضوى : اسم صاحبة الأخطل . نَبْتَل : موضع في الشام . الحُرَّان : واديان .

م : يقول إنَّ أهل صاحبته رضوى ، قد رحلوا عن تلك المواضع ، واندرستْ آثارهم من بعدهم ، فلم يَبْقَ له أمل بلقاء حبيبته ، وأجْمَلُ به أن يَتَصبّر على الفراق وأن يتعزّى عنه .

٢ ـ السّكْران : موضع بالشام . سَلام : جمع سلامة : نوع من الشّجر . حَرْمَل : ضرب من النّبت .

م : يقول إنّ رابية موضع السّكران قد أقْفَرَت منهم ، فلم يَعُدْ يتراءى من صورهم ومشاهدهم فيها سوى أشجار السّلام ونباتات الحرمل .

٣ ـ الظعائن : النّساء في الهوادج . خَلاّس وَعَزْهَل : ابنا عم من قبيلة تَغلب .

م : يقول إنَّ قلبه كاد أن يصحوَ من ذهوله ، وأن يتمالك روعه ، إثر وقوف الشّاعر على أطلال تلك الأماكن . إلاّ أن رؤيته للظّعائن الرّاحلة التي يقودها طُفيل وعزهل ، أثارت وَجْده وذهوله من جديد .

٤ كأنّي ، غداةَ انصَعنَ للبينِ ،مُسلَمٌ بضَرْبةِ عُنقٍ ، أَوْ غَويٌّ مُعــذَّلُ

الخمرة وشاربوها ومجلسها

٥ صريعُ مُدامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ ليحيا ، وقَدْ ماتَتْ عظامٌ ومَفصِلُ

٦ نُهاديهِ أَحيــاناً ، وَحيناً نجُرُّهُ وما كاد إلاَّ بالحُشاشَةِ يَعقِــــلُ

٧ إذا رَفعوا عَظماً تحامَلَ صَدْرُهُ وآخَرُ ، مِمّا نالَ مِنها ، مُخبَّــلُ

---

٤ ــ انْصَعْن : مضين وتفرّقن وأذْعَنّ . البَيْن : الفراق . مُسْلَم : مُستكين . مخذول . ضَرْبَة عُنْق : أي بطعنةٍ في العُنق . غوِيّ : ضالّ . مُعَذّل : مَنْ يُعْذل ويُلام على ما يَقوم به ويدأب عليه .

م : يَتَشَبّه ، إثررحيل الأحبّة ، بالقتيل الذي طُعِنَ عنقه وأُلْقي على الأرض أو بالرجل الغويّ ، الماجن ، السّكران الذي لا يبرح العُذّال يلومونه على إسرافه في احْتساء الخمرة .

٥ ــ مُدّام : الخمر التي قد سَكَنَتْ في دَنّها لكثْرة دوامها فيه . الشرب : جمع الشّارب . مَفْصِل : مكان انفصال الأعضاء ، بعضاً عن البعض الآخر .

م : يستكمل التشبيه الذي ألَمّ به في البيت السابق ، ويقول إنّه بدا ، إثر رحيلهنّ ، كمن صرعتْه الخمرة وذهبت به ، فلم يَعُدْ يقوى على حمل هامته . وقد أخذ سائر الشّاربين يهادونه .

٦ ــ نُهاديه : نسوقه . الحُشاشة : بقيّة النّفس والرّمق .

م : يقول إنّ الشرب كانوا يسوقونه ويزْجونه أمامهم ، حيناً ، وحيناً آخر يجرونه جرّاً ، فيما هو لبث مخبّلاً ، ذاهلاً لم تَبْقَ فيه إلا حُشاشةٌ من نَفْسه .

٧ ــ م : يقول إنّهم يرفعون أحد عِظامه ، فيتحامل صدره ويسعى للنّهوض ، فيما تُلْفى سائر أعضائه مخبّلة ، مخدّرة من كثْرة ما احتسى من الخمْرة . ووصف السكران كما ورد في هذه الأبيات يمثّل طابع الواقعيّة في شعر الأخطل وعنايته بالدّقائق والجزئيّات . والتشبيه بأكمله هو تشبيه استطرادي حذا به حذو الجاهلين .

٨ شَرِبتُ ، ولاقاني لحِـلٍ أَلِيَّـتي قِطارٌ تَرَوَّى مِنْ فِلَسطِينَ مُثقَـلُ
٩ عَلَيهِ مِنَ المِعزى مُسوكٌ رويّـةٌ مُمَلَّأَةٌ . يُعـلى بهـا وتُعَـدَّلُ
١٠ فقُلتُ : اصبَحوني ، لا أَبا لأَبيكُمُ وما وضَعوا الأَثقالَ ، إلاَّ ليَفعلـوا
١١ أَناخوا ، فجَرُّوا شاصِياتٍ ، كأَنَّها رجالٌ مِن السّودانِ ، لَمْ يتسَرْبلوا
١٢ وجاءُوا بِبَيسانيَّـةٍ ، هـي ، بعدَما يَعُلُّ بها السّاقي ، أَلَذُّ وأَسهَـلُ

٨ ــ الأليّة : اليمين . القِطار : قطعة من الإبل على نسق واحد .

م : يستطرد في وصف احتسائه للخمرة ويقول إنّه كان قد أقسم على الامتناع عنها ، بعد أن أكثر من احتسائها ، إلا أنّه لقي قافلة محمّلة بالزّقاق المَملوءة خمراً والّتي جيء بها من فلسطين .

٩ ــ المِعْزى : أي الماعز . مُسُوك : جمع مسك أي جلد . الرَّوِية : الضّخام . تُعَدّل : هنا توضع على الجانبين .

١٠ ــ اصْبَحُوني : من الصَّبوح وهو شرب الغَداة .

م : يقول إنّه سألهم أن يسقوه من الخمرة الّتي جاءُوا بها ، فوضعوا أحمالهم وسقوه .

١١ ــ الشّاصِيات : الشّائلات القوائم ، وعنى بها هنا الزّقاق ، لأنها إذا مُلئت ارتفع جانباها .

م : يشبه الزّقاق في هذا البيت بالسودان العُراة لسوادها ، إذ كانوا يطلونها بالقار الأسود . والتشبيه حسيّ لا غاية له في أداء المعنى الذي يؤدّيه الشّاعر ، بل إنّه جُذِبَ فيه لاستكمال المَشْهد .

١٢ ــ بيسانيّة : هي خمرة منسوبة إلى بيسان في الأردن . يَعُلُّ بها : من العَلَل وهو الشرب الثاني والنّهل هو الشرب الأول .

م : يقول إنهم سَكَبوا له خمرة بيسانيّة تَزيد الشّارب متعة بقدر ما يَزْداد شربُه لها .

١٣ تَمُرُّ بها الأَيدي ، سَنيحاً وبارِحاً　　وتوضَعُ باللٰهُـمَّ حـيٍّ وتُحمَـلُ
١٤ وتُوقَفُ ، أَحياناً ، فيَفصِلُ بَينَنا　　غِناءُ مُغَنٍّ ، أَوْ شِواءٌ مُرَعْبَــلُ
١٥ فَلَذَّتْ لمُرتاحٍ ، وطابَتْ لشارِبٍ　　وراجَعَني مِنهـا مِراحٌ وأَخْيَـلُ
١٦ فما لبِثتنا نَشوَةٌ لحقَتْ بِنـا　　توابِعُهـا ، مِمّا نُعَلُّ ونُنْهَـلُ
١٧ فصَبُّوا عُقاراً في إنـاءٍ ، كأَنَّها　　إذا لمحوها ، جُذْوَةٌ تَتـأَكَّـلُ
١٨ تَدِبُّ دبيباً في العِظامِ ، كأَنَّـهُ　　دبيبُ نِمالٍ في نَقـاً يَتَهَيَّـلُ

١٣ ــ السّنيح : ما جاء عن يمينك . البَارِح : ما جاء عن يسارك .
م : يقول إن الأيدي كانت تتداولُها من كلّ جهة، وإنهم إذ يضعونها أو يرفعونها يذكرون اسم الله عليها ، تبريكاً لها وتعظيماً لأمرها .
١٤ ــ مُرَعْبَل : اللّحم المقطّع لتصل إليه النار ، فتنضجه .
م : يقول إنهم كانوا يكفّون ، حيناً ، عن احتساء الخمرة ، ليلتهموا بعض الشّواء المقطّع قطعاً أو ليسمعوا غناء أحد المُغنّين . وهو يستكمل بذلك وصف مجلس الشّراب والمنادمة وما يكون فيه .
١٥ ــ المُرْتاح : المُهتز أريحيّة . مِرَاح : طرب ونشاط . أخْيَل : من الخُيلاء : الكِبْر والتباهي .
م : يقول إنّه لقي فيها لذّة وإنها عرَتْه باهتزاز الأريحيّة وبعثَتْ فيه المرح والزهو والخيلاء .
١٦ ــ النشْوة : السّكر . تَوابِعُها : أي ما تبع ذلك من السّكر في نفوسهم .
م : ينزع في هذا البيت منزعاً تقريريّاً عاطلاً عن الانفعال والغلوّ ، ويقول إن الخمرة عرتْهم بالسّكر وما يلحق به ، بعد أن احتسوا منها مراراً .
١٧ ــ الجذوة : قطعة متوهّجة من النّار ، وهي الجمرة .
م : يقول إنهم سكبوا خمرة في الكأس ، فبَدَتْ متألّقة ، متوهّجة كالجُذْوة المتقدة . وفي هذا البيت غلوٌّ بألق الخمرة وبخاصّة في قوله إن الجذوة كانت تتأكل تأكلاً من شدّة احتدامها .
١٨ ــ نمال : النّمل . النّقا : ما ارتفع من الرمل . يَتَهَيّل : ينحدر .
م : يُمثّل دبيب الخَمْرة في العِظام بدبيب النّمل على الرّمل المنهار دونه .

١٩ فقُلتُ اقتُلوها عَنْكُمُ بِمِزاجِها فأَطيِبْ بها مَقتولةً ، حينَ تُقْتَلُ
٢٠ ربَتْ وَرَبا في حجرِها ابنُ مدينَةٍ يَظَلُّ على مِسحاتِهِ يَتركَّلُ
٢١ إذا خافَ مِنْ نَجمٍ عَلَيها ظَماءَةً أَدَبَّ إلَيها جَدْولاً يَتسلسَلُ

مخاطبة العاذلة

٢٢ أَعاذِلَ ، إلاَّ تُقصري عَنْ ملامتي أَدَعْكِ ، وأَعمِدْ للَّتي كنتُ أفعلُ

---

١٩ – قَتَلَ الخَمْرَةَ : إذا مزَجَها بالماء ، وأضعف من حدَّتها .
م : يقول إنّه طلب من السُّقاة أن يُضْعفوا حدَّتها بمزجها بالماء ، فتطيب له ويعذب طعمها . وقد استعار لذلك لفظة « قتل » نامياً إلى الخمرة الحياة والرُّوح من شدّة شغفه بها وإيثاره لها .
٢٠ – ربا في حجرها : نشأ في كنَفها . ابن مدينة : أي أمرؤ عارف حَذِق . المِسحاة : ما يُسْحى به الأرض : أي يُقشَر . يتَركّل : يدفع بقدمه .
م : يصف في هذا البيت الكرْم الذي اقتُطِف عنَب تلك الخمرة ، ويقول إنّه جيء بها من كرم يلازمه عامل حذق بأمرها ، لا يبرح يُعْمل فيها مسحاته ، ليحرثها ويخصبها فيذكو عنبها . والشّاعر يعظّم الخمرة بتعظيم العِنب المستدرَّة منه ويعظم العنب بحذق القائم عليه ومهارته . ولقد أوفى بذلك إلى غاية الاستطراد ، فيما أوفى ، في الآن ذاته ، إلى غاية تعظيم الخَمْرة .
٢١ – تَسَلْسَل الماءُ : إذا جرى في انحدار . أدَبَّ : أي ساق إليها الماء ، فزحف كأنّه يدبُّ دبيباً . النجم : هنا نجوم الصّيف الّتي يصحبها انقطاع المَطَر ، وهي الثريّا والدَّبران والجَوْزاء والشّعرى والعذرة .
م : يقول إنّه إذا خاف أن يُصيبها العَطَش ، أثناء انقطاع المطر ، صَيْفاً ، روّاها بجدول تدبّ إليها مياهُه دبيباً . وهو لا يبرح يعظّم الخمرة من خلال تعظيمه لأصلها .
٢٢ – أعاذِلَ : ترخيم عاذلة .
م : يُمثّل دبيب الخَمرة في العِظام بدبيب النّمل على الرّمل المنهار دونه .
١٩ – قتَلَ الخَمْرَةَ : إذا مزَجَها بالماء ، وأضعف من حدَّتها . ←

٢٣ وأَهجُرْكِ هِجراناً جميلاً ، وينتحي لَنا ، مِنْ ليالينا العَوَارِمِ ، أَوَّلُ

٢٤ فلمّا انجلَتْ عَنّي صَبابَةُ عاشِقٍ بَدا لِيَ مِنْ حاجاتِيَ المتَـأَمـَّـلُ

٢٥ إلى هاجِسٍ مِن آلِ ظَمياءَ ، والتي أتى ونها بابٌ بصِرِّينَ مُقَفَـلُ

وصف البيداء

٢٦ وَبَيداءَ مِمْحالٍ ، كأَنَّ نَعامَهـا بـأَرْجائهـا القُصْوى ، أَباعِرُ هُمَّلُ

م : يميل في هذا البيت عن ذكر الخمرة إلى مخاطبة العاذلة التي دأب الجاهليون على التوسّل بها كذريعة لإظهار ما يدور في نفوسهم من حوار داخليّ ومن خواطر ، ويقول لها إنك إن لم تكفّي عن عذلي وتُقْصري ، فسوف أمضي فيما دَأَبْتُ عليه ومضيت فيه ، أي أنّه سيمضي في سبيل الغِواية والمُجون .

٢٣ – يَنْتَحي : يعرض لي . ليالينا العَوارم : أي اللّيالي التي كانت تحفل بالشراسة والأذى والطيش .

م : يتهدّد عاذلته بالعودة إلى سيرته الأولى في الطيش والشراسة ، متخلّياً عن الحلم والتُّؤَدة .

٢٤ – يعود في هذا البيت إلى ذكر الحبّ الذي استهلّ بالحديث عنه في مطلع القصيدة والذي استطرد عنه إذ تشبّه بالسّكران المُخَبَّل ، إثْر رؤيته لظعائن الحبيبة الراحلة – يقول إنّه بعد أن زالت عنه أعراض الشّوق والصِّبا وتمالك روعه ، عاد إلى التفكير بما كان يؤمّله من آمال وينزع إليه من حاجات .

٢٥ – الهاجِس : ما يقع في خلد المرء من خواطر متردّدة . وقوله : « إلى هاجس » يعود إلى قوله في البيت الأسبق : « اهجرك » أي اهجرك إلى هاجس من آل ظمياء . صِرّين : بلد في الشام .

م : يقول إنّه بعد أن انجلى عنه عشقُه لحبيبته رضوى ، تفكّر بامرأة من آل ظمياء لا قِبَل له بوصالها ، إذ قد أُوصدت من دونه السُّبُل .

٢٦ – مِمْحال ، أي لا نبت فيها . الأرْجاء : النّواحي . الهُمّل : التي لا راعي لها يرعاها ، فتذهب وتجيء ، كيفما شاءت .

←

٢٧ ترى لامعاتِ الآلِ فِيها ، كأنَّها رِجالٌ تَعَرى ، تارَةً ، وتَسَرْبَلُ
٢٨ وجَوْزِ فلاةٍ ما يُغَمِّضُ رَكبُها ولا عَينُ هاديها مِنَ الخَوْفِ تَغفُلُ
٢٩ بكُلِّ بَعيدِ الغَوْلِ ، لا يُهتدى لهُ بعِرْفانِ أعلامٍ ، وما فيهِ مَنهَلُ
٣٠ ملاعِبِ جِنَّانٍ ، كأَنَّ تُرابَها إذا اطَّرَدَتْ فيهِ الرِّياحُ مُغَرْبَلُ
٣١ أَجَزْتُ ، إذا الحِرْباءُ أَوْفى كأَنَّهُ مُصَلٍّ يمانٍ ، أَوْ أَسيرٌ مُكَبَّلُ

م : يشرع في هذا البيت بوصف الصحراء التي يجتازها ، ويقول إنّها ماحلة ، لا نبت فيها ، وان النّعام يمرح في أرجائها كأنّه أباعر لا راعي لها . وذكره للنّعام يدلُّ على خلوّ المكان ، لأن النّعام لا يرتاد الأمكنة الآهلة .

٢٧ ــ الآل : السّراب .

م : يصف السّراب الذي يلتمع فيها ، ويقول إنّه يبدو كرجال عُراة ، حيناً ، وحيناً آخر يبدو كرجال ارتدوا الثّياب . وهو انّما يصوّر الوهم الذي يغشاه به السّراب في الصحراء .

٢٨ ــ الجَوْز : هنا الوسط . الرَّكب : اسم جمع للراكب ، أي الممتطي المطيّة . هاديها : المتقدمّ في مطلع القافلة ليهديها إلى سواء السبيل .

م : يصف الفلاة المُرَوِّعة التي تجتازها ، ويقول إن من يعبرونها لا يغمض لهم جفن من خوفهم ، كما أن من يهديهم السّبيل فيها ، لا يغفل البتّة من شدّة الرَّوع الذي يحيط بهم .

٢٩ ــ الغَوْل : الأرض النّائية التي يُغْتال الناس فيها . الأعْلام : حجارة تُنصب ليستدلّ بها . المَنْهل : المكان الذي يُستقى منه الماء .

م : يستكمل وصف الفَلاة ويقول إنها تغول من يرتادها ، إذ يَضَلُّ فيها لخلوّها من الأعلام التي يُهْتدى بها والماء الذي يطفئون به ظمأهم .

٣٠ ــ جِنّان : جمع جانّ .

م : يقول إن الجنّ يلعب فيها ويمرح ، كما أن الرِّياح تعبث بترابها ، فيبدو وكأنّه مغربل بغربال . وذكر الجن والرّيح يدل على الوَحشة والخَلاء .

٣١ ــ الحِرْباء : دُوَيبة . أوفى : أقام . مُكبّل : مقيد . ←

٣٢ إلى ابنِ أَسِيدٍ أَرْقَلَتْ بِنــــا مَسانيفُ ، تَعرَوْري فَلاةً تَغَــوَّلُ

٣٣ ترى الثَّعْلَبَ الحَوْليَّ فيها ، كأَنَّهُ إذا ما عَلا نَشزاً ، حِصانٌ مَجَلَّلُ

وصف المطايا

٣٤ ترى العِرْمسَ الوَجناءَ يَضرِبُ حاذَها ضَئيلٌ كفَرُّوجِ الدَّجاجةِ ،مُعْجَـلُ

م : يقول إنه اجتازها في الهاجرة الشّديدة : إذ يكون الحرباء مُنْتصباً كأنّه مصلٍّ يتّجه ناحية اليمن أو أسير مكبّل .

٣٢ ــ خالد بن أسيد : هو ممدوحه . أرْقَلَتْ : مشت مشية الإرقال ، وهو ضرب من العَدْو . مَسانيف : الّتي قد استرخت حبالُها من الإعياء . تَعْرَوْري : تُرْكب . تَتَغَوَّل : أي تتلوَّن وتتخيّل إذ كان العرب يعتقدون أن الغيلان تتراءى للنّاس في الطّريق وتتلون لهم لتضلهم .

م : يقول إنّه اجتاز تلك الفَلَوات على ناقة أصابها الإعياء الشّديد ليُوفي بها إلى الممدوح . والأخطل يقتفي في ذلك كلّه سُنّة المديح ، كما أُثر عن الجاهليين والإسلاميين ، حيث كان الشّاعر يُمْعن بوصف السّرى والفَلَوات وهلاك المَطايا قَبْل الولوج إلى باب الممدوح .

٣٣ ــ الحَوْليّ : الذي مر عليه حولٌ من ذوات الحافر . النشْز : التراب المرتفع عن سواه . مُجلّل : أي يرتدي جلالاً .

م : يصف الثعلب الذي يطالعه فيها ويشبّهه بالحصان المُجَلّل القائم على مُرْتفع من الأرض .

٣٤ ــ العِرْمس : النّاقة الصّلبة . وأصلها الصّخرة القويّة . الوَجْناء : العظيمة الوجنتين . حاذها : جَنْبها . ضَئيل : نعت لمنعوت محذوف هو الحوار ، وهو ابن النّاقة هنا . مُعْجَل : الذي وضعته قبل تمامه لعيائها .

م : يقول إن النّاقة القويّة الصلبة ، تضع ولدها قبل أوانه لشدّة عيائها ، فيبدو لهزاله كفرُّوج الدجاجة .

٣٥ يَشُقُّ سَماحيقَ السَّلا عَنْ جَنينِها أَخو قَفرةٍ بادي السَّغابَةِ أَطحَلُ
٣٦ فما زال عَنها السَّيرُ ، حتى تواضَعَتْ عرائِكُها ، ممّا تُحَلُّ وتُرحَلُ
٣٧ وَتَكليفُناها كُلَّ نازِحَةِ الصُّوى شَطونٍ ، ترى حِرْباءَها يَتَمَلمَلُ
٣٨ وَقَدْ ضَمَرَتْ ، حتى كأَنَّ عُيونها بَقايا قِلاتٍ ، أَوْ ركيٌّ مُمَكَّلُ
٣٩ وغارَتْ عيونُ العيسِ ، والتقَتِ العُرى فَهُنَّ ، من الضَّرّاءِ والجهدِ ، نُحَّلُ
٤٠ وحارَتْ بَقاياها إلى كُلّ حُرَّةٍ لها بَعدَ إسآدٍ مِراحٌ وأفكَلُ

---

٣٥ ـ السّماحيق : هي الغشاوة التي تغشى وجه المولود ، وتدعى أيضاً السلا . أخو قَفْرة : الذئب . السّغابة : الجوع . الأطْحَل : الذي يُشْبِه لونُه لون الطّحال .

٣٦ ـ عَرائكُها : جمع عريكة : السّنام .
م : يقول إنها دأبت على السّير حتى ذابت أسْنمَتُها من العياء ومن كثرة حلّها وترحالها .

٣٧ ـ الصُّوى : الأعلام في الفلاق . شَطُون : بعيدة .
م : يُكرّر المعنى ويقول إنّه أرغمها على السّير في بادية نازحة الأعلام ، نائية ، حرباؤها يتَمَلْمَل من الحرّ والهجير .

٣٨ ـ القِلات : جمع قَلْت وهي نقرة في الصَّخرة . رَكيٌّ : جمع ركيّة . مُمَكّلُ : مَنْزوح .
م : يصف ضمورها من خلال تغور عينيها اللّتين يشبههما بفجوة في صخرة أو ركية جفت المياه فيها .

٣٩ ـ م : يكرر المعنى ، ويقول إن عيون المطايا قد غارت وإن عُراها جعلت تَلتقي بعضاً ببعض من شدّة نحولها .

٤٠ ـ حارَتْ : سَقَطتْ . الإسآد : السير من أول اللّيل . الأفْكَل : النّشاط .
م : أي أن الضّعاف من المطايا قد سقطت في الطّريق ، ولم تسلم إلا المطايا الكريمة التي تسير في اللّيل دون أن تعيا ويصيبها الكلال .

٤١ وإلاَّ مَبالٌ آجِنٌ في مُناخِهـــا ومُضْطَمِراتٌ كالفَلافِلِ ذُبَّـــلُ

٤٢ حَواملُ حاجاتٍ ثِقالٍ ، تَجُرُّهـا إلى حَسَنِ النُّعمى ، سَواهِمُ نُسَّلُ

مباشرة المدح

٤٣ إلى خَلِدٍ ، حتى أَنَخنا بِمَخلِـدٍ فَنِعمَ الفَتى يُرْجى ونِعمَ المؤَمَّـلُ

٤٤ أخالدُ مأْواكُمْ ، لمَنْ حَلَّ ، واسعٌ وكفَّاكَ غَيثٌ للصَّعَاليكِ ، مُرْسَلُ

٤٥ هو القائدُ الميمونُ ، والمُبتَغى بِهِ ثباتَ رَحًى كانَتْ قديماً تَزَلْـزَلُ

٤٦ أَبى عُودُكَ المَعجومُ إلاَّ صلابَةً وكفَّاكَ إلاَّ نائِلاً ، حينَ تُسأَلُ

٤١ ــ مَبالٌ آجن : أي فاسد ، متغيِّر . المُضْطَمِرات : أي الأبعار الضامرة في وسطها .

م : يقول إنّها لم تُقم طويلاً في مُناخها ، حتّى يأجن بولُها ويفْسد . كما أن أبعارها بدت جافة لأنّه لا ماء فيها ولا مرعى لها .

٤٢ ــ السّواهم : جمع ساهمة ، أي شاردة النّظر ، هائمة . نُسّل : سِراع .

م : أي أنها تتحمّل حاجات كثيرة تعدو بها إلى امرىءٍ كثير النّوال، وهي شاردة النّظر، هائمة الوجوه .

٤٣ ــ م : يعبث الشاعر بلفظ اسم الممدوح خالد بن أسيد ، ويقول إنّها مَضَتْ إلى امرىء قويٍّ على الدّهر وأناخت في فنائه الذي لا يتَزَعْزَع ، فنعم خالد امرءاً يُرْجى وتعقد عليه الآمال .

٤٤ ــ م : يخاطب الممدوح ، ويقول له إن بيتَه رحب لمن ينتجعُه وإنّه يُغْدق على الصّعاليك الهالكين الذين يطلبون رفده .

٤٥ ــ م : يشرع في هذا البيت بالمدح المُباشر ، ويقول مخاطباً خالداً : إنّك القائد الذي يصحبه اليُمن والنّصر في القتال ، والذي تَثْبت به أركان المُلك ، بعد أن كانت مُزَعْزَعة مُضْطربة .

م : أي أن النّائبات التي تحلّ به تضاعف من صلابته وقوّته ، كما انّه لا يبرح يُغْدق على من ينْتجعه ويسأله .

٤٧ أَلا أَيّها الساعي ليُدْرِكَ خالِـداً   تَنَاهَ وأَقصِرْ بَعضَ ما كُنتَ تَفعَـلُ
٤٨ فهَلْ أَنتَ إنْ مَدَّ المدى لكَ خالدٌ   مُوازِنُهُ ، أَوْ حامِلٌ ما يُحَمَّـــلُ
٤٩ أَبى لكَ أَنْ تَسطيعَهُ ، أَوْ تَنالَهُ   حديثٌ شآكَ القَوْمُ فيـهِ وأَمثَلُ
٥٠ أُمَيّةُ والعاصي ، وإنْ يَدْعُ خالدٌ   يُجِبهُ هِشامٌ للفَعـالِ ونَوْفَـــلُ
٥١ أُولئِكَ عَينُ الماءِ فيهِمْ ، وعندهُمْ ، مِنَ الخيفَةِ ، المَنجاةُ والمُتَحوَّلُ

وصف المطر

٥٢ سَقى اللهُ أَرْضاً ، خالدٌ خَيرُ أَهلِها   بمُستَفرِغٍ باتَتْ عَزاليهِ تَسحَـلُ

٤٧ ــ ٤٨ ــ مُوازِنُهُ : أي معادل له .

م : يخاطب من يسعى إلى إدراك خالد ويقول له : كُفَّ عن ذلك وأقصر ، فهل أنت إن أوسعك خالد قادر على أن توازيه وأن تحمل أحماله ؟

٤٩ ــ شآه : سبَقه وفاتَه .

م : يقول إنّه لا قِبَل لك بذلك إذ تفوّق عليك بما يتداوله النّاس فيه من عظمة ومجد ورثهما عن أجداده الأولين .

٥٠ ــ الفَعال : الفِعل الحسن .

م : يعدد أجداده الذين تحدّر منهم ويقول إنّه متى ما استَنْجد يُجبه الخليفة هشام ونوفل ويهرعا إليه بما عرف عنهما من المآثر والفعال المحمودة .

٥١ ــ عَيْنُ الماء : أي الشّرف ، لأن الماء غياث كلّ شيء .

م : يمتدحهم بشرفهم ويقول إنّهم يُنْجون الخائف ويحوّلون عنه الذُّعر والهلاك .

٥٢ ــ المُسْتَفْرِغ : الكثير الانهمار . عَزاليه : مخارج مائه . تَسْحَل : تصبُّ بكثْرة شديدة .

م : يستسقي للأرض التي يقيم فيها المَمْدوح المَطَر الشّديد الانهمار والانسكاب ، أي أنّه يطلب لها الخِصْب والفَلاح .

٥٣ إذا طَعَنَتْ ريحُ الصَّبا في فُروجهِ تَحَلَّبَ ريّانُ الأَسافِلِ أَنجَـــلُ
٥٤ إذا زَعزَعَتهُ الريحُ ، جَرَّ ذيولَهُ كما زَحَفَتْ عُوذٌ ثِقالٌ تُطَفِّــلُ
٥٥ مُلِحٌّ ، كأَنَّ البَرْقَ في حَجَراتِــهِ مصابيحُ ، أَوْ أَقرابُ بُلقٍ تَجَفَّلُ
٥٦ فلمّا انتَحى نَحوَ اليمامَةِ ، قاصِداً دَعَتهُ الجَنوبُ ، فانثَنى يَتَخَـزَّلُ
٥٧ سَقى لَعلعاً والقُرْنتَينِ ، فلَمْ يكَدْ بأَثقالِهِ عَنْ لَعلَعٍ يَتَحَمّــلُ
٥٨ وغادرَ أُكْمَ الحَزْنِ تَطفو ، كأَنَّها بما احتَمَلَتْ مِنهُ ، رَواجِنُ قُفَّلُ

---

٥٣ ــ فُرُوج : جمع فرج أي ما بين جنبيه . أنجل : واسع .
م : يستكمل وصف الغيث ويقول إنّه إذا ما ضربت ريح الصّبا فيما بين جنبيه ، يتحلّب مطره أي ينسكب بكثرة .
٥٤ ــ زَعْزَع : حرّك . العُوذُ : الحديثات النّتاج . تُطَفِّل : تغذو .
م : يقول إذا ما حرّكت الرياح السّحاب يدنو إلى الأرض كأن له ذنباً يزحف به عليها كما تزحف النّياق الحديثة النتاج ، لتُرْضع أطفالها .
٥٥ ــ المُلِحُّ : الدّائم المطر . حَجَراته : نواحيه . الأقْراب : الخواصر . البُلْقُ : النّياق ذات اللّون الأسود والأبيض .
م : يصف البرق الذي يخطف في ذلك السّحاب ويقول إنّه إذ يَلْتمع في جوانبه يبدو كأنّه مصباح أو خواصر نياق بُلْق ، جافلة .
٥٦ ــ انْتَحى : مال . المُتَخَزِّل : المتقطّع والعائد القهقرى إلى الوراء .
م : يستكمل وصف السّحاب ويقول إنّه إذ يتّجه إلى اليّمامة تصدّه ريح الجنوب ، فيرتدُّ ويَتَقَهْقَر .
٥٧ ــ لَعْلَع : اسم موضع . القُرْنَتان : موضعان بين البصرة واليمامة .
م : يذكر موضع انهمار ذلك السّحاب ويقول إنّه سقى لعلعاً والقُرنتين ولم يكد يَنْزع عنهما .
٥٨ ــ غادَرَ : خلّفَ . الأكْم : ما ارتفع من الأرض من دون الجبل . الرّواجِن : التي تُمْسَك وتُعْلف في البيت من الإبل والماشية . قُفّل : ضوامر .
م : يقول إنّه لشدّة انهماره خلف الآكام وقد طفت عليها المياه ، بدت للناظر وكأنّها الماشية أو الإبل المجتمعة ، بعضاً على بعض ، حيث تُعْلَف .

٥٩ وبالمَعرَسانِيّاتِ حَلَّ ، وأَرْزَمَتْ بروْضِ القطا منهُ مطافيلُ حُفَّلُ

ذكر وقعة الجحاف

٦٠ لقَدْ أوْقَعَ الجَحّافُ بالبِشرِ وقعَةً إلى اللهِ منها المُشتكى والمُعَوَّلُ
٦١ فسائِلْ بني مَرْوانَ ، ما بالُ ذِمّةٍ وحبلٍ ضعيفٍ ، لا يزالُ يُوَصَّلُ
٦٢ بنَزْوَةِ لصّ ، بَعدما مَرَّ مُصْعَبٌ بأَشعثَ ، لا يُفلى ، ولا هُوَ يُغسَلُ
٦٣ أتاكَ بهِ الجَحّافُ ، ثُمَّ أَمرْتَهُ بجيرانِكُمْ عِندَ البُيوتِ تُقَتَّلُ

---

٥٩ ــ المَعْرَسانيات ورَوْضُ القَطا : موضعان . أرْزمَتْ : صوّتت . المَطافيلُ : الواضعة وُلْداً ، والمُمْتلئة الضّرع بالحليب . حُفّل : جمع حافل : الممتلىء الضّرع لبناً .

م : يقول إن ذلك الغيث نزل في ذينك المَوْضعين ، فأخصبهما وأنمى كلاهما ، فارْتَعَتْه الإبل ، فدرَّ لبنُها وحفل ضرعُها ، فجعلت تصوّت حنيناً إلى أطفالها .

٦٠ ــ الجَحّاف : هو ابن حكيم السّلمي . البِشْر : موضع من منازل بني تَغْلب وقد وقع فيه قتال بين التغْلبيين وقوم الجَحّاف السّلمي . المُعوَّل : هنا الاعتماد والمَفْزع .

م : يشرع في هذا البيت بمخاطبة عبد الملك ويشكو إليه ما أوقعه الجحّاف فيهم من فتك وقتل لم يكد ينجيهم منه إلاّ الله .

٦١ ــ م : يُظهر في هذا البيت تَعَتُّبه على بني مروان لِتَخَلُّفهم عن نجدة التغْلبيّين ضد أعدائهم ويَعْجب من ذلك ويقول إنهم لم يخفروا ذمّتهم وإنّهم لا يبرحون يوهون صلتهم بهم ، تكاد لا تَقْوى حتى تَهِي وتَضْعف من جديد . يشير هنا إلى ما كان يجري بين الأمويين والتغلبيين من منازعات حول النّجدة والذّمة والولاء .

٦٢ ــ أشْعَث : هو ابن زياد الذي قتله مصعب ، فجاء أخوه عبيد الله بن زياد بن ظبيات فاحتزّ رأس مصعب . وقوله لا يُفْلى ولا يُغْسَل : أي أنه ميت .

٦٣ ــ م : أي أن الجحّاف أتى برأسه ، فلم يَزْجره عبد الملك بل دعاه إلى تقتيل التغلبيّين ومن إليهم وهم مقيمون آمنين في بيوتهم . وقوله : عند البيوت تقتل ، هو لتعظيم الأمر ، لأن من يقيم في بيته لا يكون قتالُه إلا غدراً به . وقد أفادت مضاعفة عين الفعل المعنى غلوّاً وتكثيراً .

٦٤ لقَدْ كان للجيرانِ ، ما لَوْ دعوْتُمُ   بهِ عاقِلَ الأَرْوى أَتَتكُمْ تَنَــــزَّلُ
٦٥ فإنْ لَمْ تُغَيِّرْها قُرَيْشٌ بمُلكها   يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمازٌ وَمَرْحَلُ
٦٦ ونَعرُرْ أُناسا عَرَّةً يَكرهُونهــا   ونَحيا كراما ، أَو نموتُ ، فَنُقتَلُ
٦٧ وإنْ تحملوا عَنْهُمْ ، فما مِن حَمالةٍ   وإنْ ثَقُلَتْ ، إلاَّ دمُ القَوْمِ أَثقَلُ

٦٤ – أرْوى : جمع أروية وهي أنثى الوعل . العاقِل : أي المُعْتصمة في الجبال لا تبرحها ولا تقيم في النّاس ، فهي في أشد النفور منهم .

م : يمثل لين جيرانه ومودّتهم ويقول إنّه لو عوملت وعول الجبال بمثلهما لَلانَتْ وانْحَدَرَتَ من معاقلها وامتنعت عن النفور .

٦٥ – مُسْتَماز : من ماز رحل وانتقل من مكان إلى آخر .

م : كأن الشّاعر يتهدّد الأمويين ويقول إنكم إن لم تمنعوا عنّا الضيم بما أُثِرْتُم به من مُلْك وسلطة ، فإنّنا سنرحل عنكم ونقطع صلتنا بكم . وقيل إن عبد الملك إذ سمع الأخطل يقول هذا البيت سأله : إلى أين ترحل يا ابْنَ النَّصْرانية ؟ فقال : إلى النّار . فتبسّم عبد الملك وقال : أولى لك ، لو قلت غير ذلك لقَتَلْتُكَ . والشّاعر يردد لفظة جيران وهي لا تَعْني معناها المباشر هنا ، بقدر ما تشير إليه في مفهومه الجاهلي ، حيث كان العربي أحرص في الدفاع عن جاره منه في الدّفاع عن نفسه .

٦٦ – نَعْرُر : هنا نصيب بالعرّ ومؤداه أنّه يُصيبهم بأذى من يصاب بالعرّ أي الجَرَب .

م : يمضي في تهديده ووعيده ويقول : إذا لم تمنعوا عنّا الضّيم ، نَتَصَدّى لأعدائنا بما يكرهون. فإمّا أن نقضي عليهم ونحيا كراماً من دونهم ، وإمّا أن نُقْتَل ، فيذهب عنّا الذُّل بموتنا الشّريف .

٦٧ – الحَمالة : الدية التي تحمل عن القاتل فيدفعها سواه عنه .

م : يقول إن قاضيتم عنهم دِية القتل ، فإن ذلك لا يُحِلُّ الوئام ولا يُبْرىء الجراح ، إذ مهما عَظُمَتِ الدية ، فإنّ دماء القتلى تَظَلُّ أعظم منها .

٦٨ وإنْ تَعرِضوا فيها لنا الحقَّ ،لم نكُنْ عنِ الحقّ عُمياناً ، بلِ الحقَّ نَسأَلُ
٦٩ وقَدْ نَنزِلُ الثَّغرَ المخوفَ ، ويُتَّقى بنا الناسُ واليومُ الأَغَرُّ المُحَجَّــلُ

* * *

٦٨ ــ م : يميل في هذا البيت إلى المسالمة ، ويقول إذا أديتم لنا فيها الحق ، فإنّنا لا نعدل عنه ، بل إنّنا نَبتَغيه و نقف عنده .

٦٩ ــ الثّغْر : طرف البلاد الذي يدافع عنه . يُتّقَى بنا النّاس : أي أن الخائفين من أعدائهم يفزعون إليهم ويحتمون بهم منهم . المُحَجّل : المضيء ، المشرق بالسّرور .

م : ينهي القصيدة بالتفاخر بقوّة بني قومه ويقول إنّهم لا يبرحون يقاتلون أشَدّ القتال وينتصرون أروع انتصار ، فيحمون ثغور البلاد ويلجأ إليهم الخائفون ويجزع أعداؤهُم منهم لأنهم لا يخوضون غمار المعركة حتى يجلوا فيها ويكون لهم اليوم الأغَرّ الفريد بين سائر الأيام .

رأينا أن نبذل هذه القصائد الكاملة ليطّلع القارىء على نماذج منها ، إذ أن شعر الأخطل الذي ضمّه متن البحث جاء مجزوءاً . ونشير هنا ، كذلك ، إلى اننا اقتبسنا الشعر وشروحه من كتابنا « شرح ديوان الأخطل التغلبي » . ولم نشأ أن نثبت أرقام الصفحات في الذّيل ليسر الوقوع عليها من مراجعة فهارس الدّيوان .

المصادر

الآمدي   المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ .

ابن الأثير   الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .

أحمد أمين   فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ .

– ضحى الإسلام ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ .

الأخطل   (شرح ديوان الأخطل – بيروت ١٩٦٩ .

الأصمعي   الأصمعيات ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ .

الأعشى   الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى والأعشين الآخرين ، فينا ، ١٩٢٧م .

امرؤ القيس   ديوان امرىء القيس ؛ انظر « أهلوارت » .

البستاني   الأخطل ، بيروت ، ٣٦ – ١٩٤٠م .

– جرير ، بيروت ، ٤١ – ١٩٤٢م .

– الفرزدق ، بيروت ، ١٩٤١م .

أبو تمام   نقائض جرير والأخطل ، بيروت ، ١٩٢٢م .

– ديوان الحماسة ؛ انظر التبريزي » .

الجاحظ   البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٣٥١هـ .

جرير   ديوان جرير ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ .

جميل سعيد   تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس ، القاهرة ، ١٣٦٤هـ .

حسان   ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ .

ابن خلكان — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، القاهرة ، ١٢٩٩هـ .

زهير — ديوان زهير ؛ انظر « أهلوارت » .

زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٢٤م .
— تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٠٢م .

ابن سلام — طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، القاهرة ، ط . المحمودية ، بدون تاريخ .

أبو الفرج — الأغاني ، القاهرة ، الأجزاء من ١ — ١١ ، ط . دار الكتب ، ١٣٤٥ ؛ بقية الكتاب ، ط . الساسي ، ١٣٢٢هـ .

الفرزدق — ديوان الفرزدق ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ .

ابن قتيبة — الشعر والشعراء ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ .
— أدب الكاتب ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ .

القرشي — جمهرة شعراء العرب ، القاهرة ، ١٣٤٥هـ .

ابن كثير — البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥١هـ .

محمد حسين — الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ .
— الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ .

المرزباني — معجم الشعراء ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ .
— الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ .

المسعودي — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٣٤٦هـ .

المفضل — المفضليات ، القاهرة ، ١٣٦١هـ .

النابغة — ديوان النابغة ، انظر « أهلوارت » .

نوفل — شعر الطبيعة في الأدب العربي ، القاهرة ، ١٣٦٤هـ .

ياقوت — معجم البلدان ، ليبزج ، ١٨٦٦م .

الفهـــرس

كتب صدرت للمؤلف

ابن الرُّومي – فنه ونفسيَّته – دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ١٩٦٠ – الثانية ١٩٦٨

فن الوصف وتطورّه عند العرب – المكتب التجاري ١٩٦١ – ١٩٦٦

فن الحطابة وتطوره عند العرب – دار الثقافة ١٩٦٩

فن الشعر الحمري وتطوره عند العرب – دار الثقافة ١٩٦٩

فن الهجاء وتطوره عند العرب – دار الثقافة ١٩٧٠

النابغة ، سيرته ونفسيته وفنه ، الطبعة الأولى عن دار الكتاب اللبناني ١٩٦٢ والثانية عن دار الثقافة ١٩٦٩ ، وهي معدَّلة ومزيدة

الحطيئة – سيرته ونفسيته وفنه – دار الثقافة ١٩٦٩

امرؤ القيس – سيرته ونفسيته وفنه – دار الثقافة ١٩٦٩

الأخطل سيرته ونفسيته وفنه – دار الثقافة ١٩٧٩

فن الفخر وتطوره عند العرب – دار الشرق الجديد ١٩٦٤

موسوعة الشعر العربي ٢٤ جزءاً – مكتبة خياط ، تحت الطبع في مصر وتصدر بالاشتراك مع دار الشعب .



مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون : ٢٦٥٦٢٨

سلسلة المرجع

في اعلام الادب العربي

يعنى واضعو هذه السلسلة بدراسة اعلام الأدب العربي في بيئاتهم وسيرهم وطبائعهم النفسية والفنية ، وتحليل نماذج مختارة من شعرهم مع منتخبات مبوبة مذيلة بشروح كاملة للالفاظ والمعاني . وقد أعدت هذه السلسلة لفائـدة الطلاب الثانويين والجامعيين فضلا عن الادباء وسائر القراء ، إذ حرص مؤلفوها على ان يحيطوا بما ورد في المصادر القديمة للاستنارة به على فهم نفسية الأديب وأدبه ، كما انهم حاولوا ان يلقوا أضواء جديدة على التراث القديم وفقاً لمفاهيم النقد الحديث ، اظهاراً لمواطن الجمال والخلود فيه .

تضم المرحلة الأولى من هذه السلسلة الاعلام التالية اسماؤهم :

صدر من الشعراء :

امرؤ القيس

النّابغة

الحطيئة

الأخطل

أبو تمّام

البحتري

المتنبي

أبو فراس

أحمد شوقي

خليل مطران

يصدر تباعاً من الشعراء :

زهير بن أبي سلمى

لبيد بن ربيعة

جرير

الفرزدق

عمر بن أبي ربيعة

أبو نؤاس

من الناثرين يصدر تباعاً:

ابن المقفّع

الجاحظ

جبران خليل جبران

أمين الريحاني